الدكتور
عبد الكريم رافق
كلية الآداب - جامعة دمشق

المشرق العربي

في

العهد العثماني

الطبعة الرابعة

١٤١١ - ١٤١٢ هـ
١٩٩١ - ١٩٩٢ م

منشورات جامعة دمشق

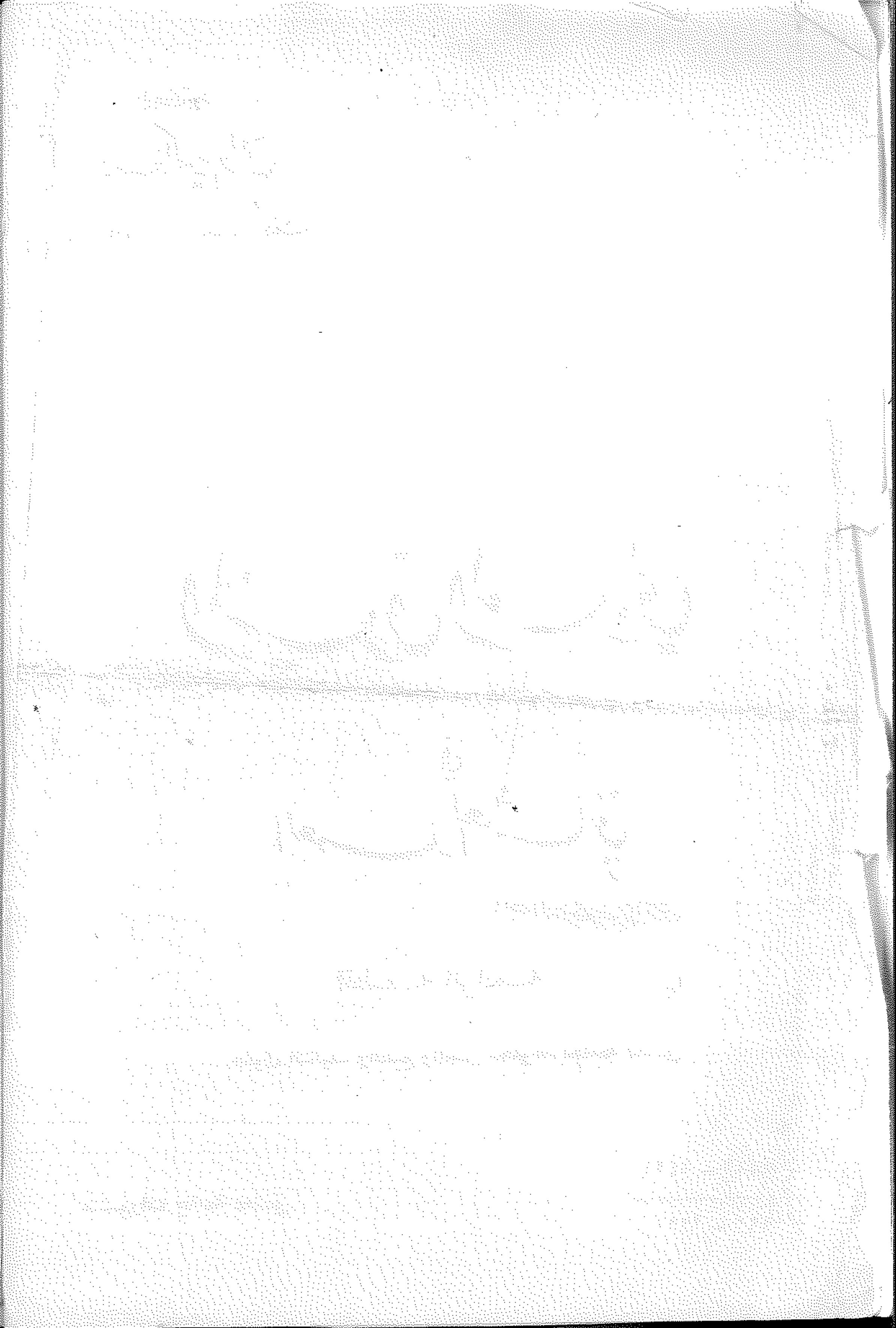
الدكتور
عبد الكريم رافق
كلية الآداب ـ جامعة دمشق

المشرق العربي
في
العهد العثماني

الطبعة الرابعة

١٤١١ ـ ١٤١٢ هـ
١٩٩١ ـ ١٩٩٢ م

منشورات جامعة دمشق



المقدمة

يهدف هذا الكتاب الى دراسة تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني ،الذي امتد قرابة اربعة قرون (١٥١٦— ١٩١٦)، دراسة افقية ، وذلك بتتبع المظاهر العامة التي انتظمت اقطاره في الفترات المتعاقبة • ويعنى الكتاب ، كذلك ، من خلال هذه النظرة الافقية ، بدراسة معمقة للاحداث ، من حيث اسبابها المتنوعة ، ومجراها ، ونتائجها ، ويربط ما بينها ، بشكل تتضح معه الصورة الموحدة المتكاملة للتاريخ العربي ابان الحكم العثماني •

ويلاحظ ، من خلال الاحداث ، ان العثمانيين ، في أوج قوتهم ، في القرن السادس عشر ، مدوا حكمهم على معظم اقطار الوطن العربي ، واقاموا الادارة العثمانية فيها • وحين ظهرت علائم الضعف في الدولة العثمانية ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وبخاصة في القرن السابع عشر ، لاسباب عسكرية واقتصادية بالدرجة الاولى ، بدأت مظاهر التحدي والثورة ضدهم ، متمثلة بثورات العساكر ثم الامراء • وحين استفحل الضعف العثماني حتى غدا انحطاطا ، في القرن الثامن عشر ، اتسعت قاعدة الثورة فشملت الشعب ، في المدن والارياف • وظهرت آنذاك اسر محلية حاكمة ، ضمن الاطار العثماني ، وازداد شأن المنظمات الشعبية التي دافعت عن مصالح افرادها • وتأكدت بنتيجة ذلك الهوية المحلية •

وحين بدأت حركة الاصلاحات والتنظيمات ، في القرن التاسع عشر ، في الدولة العثمانية ، وشملت الولايات الخاضعة لها ،وبخاصة مصر ، واكب ذلك التدخل الاوربي في الاقطار العربية على مختلف المستويات ، العسكرية منها والاقتصادية والثقافية • وظهرت في الاقطار التي احتلها الاوربيون حركة وطنية هدفها الرئيسي

التخلص من الحكم الاجنبي .أما الاقطار التي لم يحتلها الاوربيون ، مثل بلاد الشام ، فقد قامت فيها حركة قومية عربية اصطدمت بالعثمانيين الذين تبنوا ، في اعقاب وصول جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم في عام ١٩٠٨ ، قومية طورانية هدفت الى تتريك العرب . وادى ذلك الى تضافر جهود العرب للوقوف في وجه هذا التيار ومقاومته بشتى الوسائل الى ان قامت الثورة العربية الكبرى على العثمانيين في عام ١٩١٦ .

عبد الكريم رافق

مفردات منهــاج مقرر تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني
السنة الرابعــة ـ قسم التاريخ

١ ـ تمهيــد :

١ ـ المشرق العربي قبيل الفتح العثماني : بلاد الشام ومصر في عهد السلطنة المملوكية ـ العراق بين سقوط بغداد بايدي المغول والاحتلال العثماني ـ شبه الجزيرة العربية .

٢ ـ قيام الامبراطورية العثمانية : نشأة الامارة العثمانية ـ تحول امارة عثمان الى امبراطورية .

٣ ـ العلاقات العثمانية ـ الصفوية ـ المملوكية .

٤ ـ مظاهر من الادارة العثمانية : المؤسسات الادارية (السلطان ـ الصدر الاعظم ـ الكزلار آغـا ـ الولايـات ـ الجيش ـ الاقطـاع ـ المالية) ـ المؤسسات الدينية (المفتي ـ القاضي ـ نقيب الاشراف) .

٢ ـ السيطرة العثمانية في اقطار المشرق العربي (القرن ١٦)

١ ـ الاحتلال العثماني .

٢ ـ القضاء على الثورات الاولى ضد العثمانيين (الشام ـ مصر ـ العراق ـ اليمن) .

٣ ـ تنظيم الادارة والولايات .

٤ ـ فترة هدوء ونشـاط عمراني .

٣ ـ الضعف العثماني وبداية الثورة على العثمانيين (اواخر القرن ١٦ الى اوائل ١٨) .

١ ـ اسباب الضعف العثماني ومظاهره .

٢ ـ ثورات العساكر (اليمن ـ مصر ـ الشام ـ العراق) .

٣ ـ ثورات الامـراء (الشام ـ مصر ـ اليمن ـ العراق) .

٤ ـ محاولة الدولة اعادة هيبتها في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء من آل كوبـريلي .

٤ ــ الانحطاط العثماني وتعاظم الثورة المحلية على العثمانيين (القرن ١٨) .

١ ــ اسباب الانحطاط العثماني ومظاهره .

٢ ــ الثورة على العثمانيين :

آ ــ بلاد الشام : آل العظم ــ ظاهر العمر ــ الجزار ــ بدو عنزة ــ اليرلية ــ الاشراف .

ب ــ العراق : آل الجليلي في الموصل ــ المماليك في بغداد والبصرة .

جـ ــ الجزيرة العربية : اسر بدوية حاكمة في الخليج العربي ــ الائمة الزيديون في اليمن ــ الحركة الوهابية .

د ــ مصر : ذروة النفوذ المملوكي .

٥ ــ الحركات الاصلاحية والوطنية والقومية في القرن ١٩ وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في ١٩١٦ .

١ ــ الاصلاح في الدولة العثمانية : من الاعلى ومن قبل المثقفين والجيش .

٢ ــ الاسرة الالبانية في مصر وحركة الاصلاح فيها .

٣ ــ التدخل الاوربي في المشرق العربي (النشاط التجاري قبل حملة نابليون ــ التدخل العسكري والاقتصادي والثقافي) .

٤ ــ الحركة الوطنية ضد التدخل الاجنبي .

٥ ــ الحركة القومية في بلاد الشام والعراق (النهضة الادبية والجمعيات) .

٦ ــ الثورة العربية الكبرى في ١٩١٦ .

الفصل الأول

الاقطار العربية والحكم العثماني

الاقطار العربيــة قبيل الفتح العثماني

لمحــة عامــة

تعرض الوطن العربي ، في القرن الحادي عشر ، الى خطرين خارجيين كبيرين من الغرب والشرق ؛ فقد توغلت القوى الاوربية في أسبانيا وصقلية ، محتلة مناطق كبيرة كانت لحكام عرب . وبلغ هذا الخطر الأوربي أوجه في الحملات الصليبية على الشرق العربي ، التي بدأت في حوالي عام ١٠٩٦ واستمرت قرابة مائتي عام . وظهر الخطر الآخر من الشرق ممثلا بالتسرب التركي الى الخلافة العباسية ، ثم باحتلال المغول بغداد في عام ١٢٥٨ . وكان الأتراك السلاجقة ، وهم من قبائل الغز أو الآغز المشهورة بشدة بأسها ، قد تمكنوا بقيادة زعيمهم طغرل بك ، من احتلال بغداد في عام ١٠٥٥ ، وهزيمة حكامها الفعليين من البويهيين ، وهم سلالة فارسية شيعية ، حكمت بغداد منذ عام ٩٤٥ ، في ظل الخلفاء العباسيين المستضعفين . واتخـذ الحاكم البويهي لقب سلطان ، وتمكن السلاجقة في بضع سنين ، من انتزاع بلاد الشام من حكامها المحليين ومن الفاطميين ، وسرعان مامدوا نفوذهم الى مناطق كبيرة في الاناضول .

وتعد سيطرة السلاجقة في بغداد نقطة الذروة في تسرب الأتراك الى الخلافة العباسية ــ ذلك التسرب الذي بدأ منـــذ أن احتك العرب بالأتراك في اسيا الوسطى ، زمن الفتوحات العربية . وقد استخدم الاتراك على نطاق ضيق ، في الجيش والادارة ، منذ العصر الأموي . وكان أول من أعتمد عليهم بشكل واسع ،

بعد ذلك ، هو الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣ ــ ٨٤٢) ليوازن بهم الفرس والعرب ، على حد سواء ، بخاصة وأن هذه القوات التركية كانت دون جذور محلية ، مما يجعل ولاءها متجها بالدرجة الأولى نحو السلطة المركزية • وامتاز الأتراك هؤلاء بصفات عسكرية جيدة ، وبخاصة في مجال الفروسية • ومما زاد في تسلطهم شدة أعتماد الدولة عليهم ، لمجابهة الأخطار الداخلية والخارجية • ولكن دخول الأتراك الى الخلافة العباسية ، الذي تم في البدء بصورة افرادية ، عن طريق الأسر أو الشراء أو لقاء الضرائب ، سرعان ماتحول الى هجرة قبائل بكاملها تستهويها امكانات السيطرة على الخلافة العباسية المزدهرة • ومما ساعد أيضا على توجيه هذه القبائل نحو الغرب صعوبة توسعهم باتجاه الصين ، التي ظهرت فيها آنذاك أسرة سونغ القوية ، بعد فترة من الفوضى •[1]

ورغم سيطرة السلاجقة في بغداد ، فقد بقيت الادارة تعتمد ، الى درجة كبيرة ، على البيروقراطية الفارسية • وكان أبرز ممثليها في هذه الفترة الوزير نظام الملك ، الذي وطد قواعد الاقطاع العسكري • وبموجب هذا النظام يمنح الجندي ، عوضا من المرتب ، قطعة أرض كأقطاع ، يتصرف بوارداتها لقاء تقديم نفسه ، وعدد من الرجال حسب مردود أرض الاقطاع للخدمة العسكرية • وكان الاقطاع يمنح لعدد معين من السنين ، ولكنه أصبح بالتدريج وراثيا ، وساعد هذا التنظيم على ربط المحارب بالارض والدفاع عنها ، ونشط الزراعة الى حد كبير • ولكنه ، بالمقابل ، أوجد أزمات اجتماعية بسبب ظهور الخلاف بين الملاكين القدامى ، وأصحاب الاقطاعات الجدد • وسرعان ماتمزقت السلطنة السلجوقية الى دويلات • وفي زمن الضعف هذا بدأت الحملات الصليبية ، التي احتلت ، بصورة رئيسة ، الشريط الساحلي من بلاد الشام ، بالاضافة الى القدس • وبالرغم من اتخاذها المظهر الديني بقصد الابتهال لمشاعر الجماهير الاوروبية وايقاظ حماسها ، فأن هذه الحملات كانت في أساسها تجربة مبكرة في التوسع الاستعماري ، وتزعمها تجار من جمهوريات المدن الايطالية ، الذين شجعتهم التجارة التي أقاموها مع البيزنطيين والفاطميين ، على احتلال مراكز هذه التجارة • وتزعمها كذلك الاقطاعيون الاوروبيون الطموحون ، الذين ــ بعد ان تزايد عددهم واشتدت

المنافسة بينهم ــ بحثوا عن الامارات والمجد في أماكن اخرى مشهورة تاريخيا واقتصاديا كبلاد الشام • وبدأت المجابهة العربية تتخذ دور التنظيم الداخلي ، فظهر زنــكي الضابط السلجوقي ، الذي احتل الموصل في عام ١١٢٧ ، في محاولة لتوحيد بلاد الشام • ونجح في ذلك أبنه نور الدين ، الذي احتل دمشق في عام ١١٥٤ ، وأوجد مملكة قوية • ولكن التغلب على الصليبيين تم في عهد صلاح الدين ، المؤسس الفعلي للسلطنة الايوبية ، والذي أنهى الخلافة الفاطمية ، ووحد بلاد الشام ومصر ، وهزم الصليبيين في معركة حطين في عام ١١٨٧ ، واحتل القدس • وبقيت جيوب صليبية في المنطقة قضى عليها المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر •

(٣) لم يكد الخطر الصليبي يتلاشى حتى استفحل خطر المغول ، بزعامة جنكيز خــان • فبعد ان وطد جنكيز خان جبهته الداخلية ، وجمع القبائل من حوله ، في مطلع القرن الثالث عشر ، وفرض سيطرته على الصين ، بدأ يغزو بلاد فارس في عام ١٢٢١ ، ولم يحد من ذلك الغزو سوى وفاته في عام ١٢٢٧ • ثم استؤنف الفتح ، باتجاه الغرب في عهد هولاكو ، الذي احتل بغداد ، في عام ١٢٥٨ ، وقضى على الخلافة العباسية فيها • وكان من نتيجة ذلك أنأنهارت الادارة المدنية ، وتضررت الزراعة والاقتصاد ، في أعقاب تهدم أقنية الري وانتشار هجمات البدو ، وأصبح العراق مجرد مقاطعة على الأطراف في امبراطورية مغولية تتمركــز في بلاد فارس • وفقــد العراق كذلك أهميته الاقتصادية في نطــاق التجارة بين الشرق والغرب • وانتقلت مراكز هذه التجارة الى تركيا وفارس من ناحية والى مصر والبحر الأحمر من ناحية أخرى •

بلاد الشام ومصر في عهد السلطنة المملوكية

حال دون استمرار هولاكو في فتوحاته ، باتجاه الغرب ، وقوف القوات المملوكية ، بزعامة بيبرس ، في وجهه فهزمت جيوشه في موقعة عين جالوت ، في فلسطين ، في عام ١٢٦٠ • وكان هذا امتحانا ناجحا للسلطنة المملوكية في أول عهدها ، ويعد بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية ، اذ

وحد بلاد الشام ومصر ، واستمر ذلك حتى سقوط السلطنة المملوكية في عام ١٥١٧ . وقد حصر المغول ضمن حدود العراق ومد نفوذه على الحجاز والأماكن المقدسة ، وأخضع النوبا المسيحية . ولكي يزيد بيبرس من شهرة دولته ، ويسبغ عليها صفة الشرعية فقد دعا الخليفة العباسي للاقامة في القاهرة مجردا من كل سلطة سياسية . واستمر الخلفاء العباسيون يقيمون في القاهرة الى أن توفي آخرهم الخليفة الخامس والخمسون المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يعقوب، في ١٢ شعبان ٩٥٧ هـ / ٢٦ آب ١٥٥٠م . (٢)

ومما تجدر ملاحظته أنه بازدياد الاخطار الداخلية والخارجية ازداد الاعتماد في الوطن العربي على القوى العسكرية ، وكانت هذه بالضرورة تركية ، من آسيا الوسطى ، ثم من سهوب روسيا . وقد نزحت منها بسبب كثافة السكان ونقص المواد الغذائية فيها ، وكذلك بسبب اغراء الثراء وضعف السلطة في الوطن العربي ، وبلغ الأمر ان تسلمت هذه القوات الغريبة الحكم في عهد السلطنة المملوكية ، واحتمت بها الخلافة العباسية .

وسندرس السمات الرئيسة للسلطنة المملوكية لنتمكن من معرفة الأسباب التي أدت الى انهيارها ، والتي مكنت العثمانيين ، في عامي ١٥١٦ — ١٥١٧ ، من احتلال بلاد الشام ومصر . وتقسم السلطنة المملوكية عادة الى فترتين الأولى تمتد حتى عام ١٣٨٢ ، ومعظم مماليكها من منطقة القبجاق في سهوب روسيا شمالي سواحل البحر الاسود ، عند وادي الفولغا ، والثانية تمتد حتى سقوط السلطنة في عام ١٥١٧ ، ومعظم مماليكها من الشراكسة ، من منطقة القفقاس ، في جنوب روسيا . وأشار بعض الأخباريين المصريين ، في العهد العثماني ، الى الفترة الأولى باسم الدولة التركية ، والى الفترة الثانية باسم دولة الشراكسة . ومن المؤرخين ، من يطلق على الفترة الأولى اسم المماليك البحرية ، وعلى الفترة الثانية اسم المماليك البرجية . وتعزى أسباب التحول في جلب المماليك من منطقة القبجاق الى منطقة القفقاس الى تناقص عدد السكان في المنطقة الأولى ، لكثرة ما نزح منهم من عناصر شابة ، سرعان ما لحقت بها أسر بكاملها ، كما تعزى الى الحروب الأهلية والغزو الخارجي . وحين توصل السلطان برقوق ، القفقاسي

الأصل ، الى الحكم (١٣٨٢ ــ ١٣٩٨) ، أعتمد على عناصر قفقاسية شركسية طغت على السلطنة .

ويستورد المماليك ، وهم عادة في سن المراهقة وغير مسلمين ، تجار ، يلقب وأحدهم باللقب الفارسي خواجه . ومعظمهم من الفرس ، ويبيعونهم في أسواق العبيد أو النخاسة . فيشتريهم السلطان والأمراء ، ويدخلونهم في مدارس خاصة ، تعرف بالكتاب ، ومن هنا جاءت تسميتهم في هذه المرحلة بالكتابية . ويدربون على الفروسية وفنون القتال ، ويعتنقون الدين الرسمي ، ثم يعتقون بموجب صك ، ويمنح واحدهم اقطاعا يعيش منه ، وحصانا وملابس عسكرية ، بالاضافة الى مرتب شهري ، يعرف بالجاماكية . ويتقاضى المملوك أيضا نفقات غير منتظمة تسمى بالنفقة ، تدفع عند اعتلاء السلطان الحكم أو القيام بالحملات العسكرية . ومن شروط الاقطاع أنه لايورث . وأفاد هذا في عدم ايجاد أسر اقطاعية متوارثة تتحدى السلطنة . ولم يقم صاحب الاقطاع عادة في اقطاعه بل في مراكز المدن ، ولهذا لم توجد قلاع وقصور في الريف ، وبالتالي لم توجد مراكز سلطة محلية ، كما كان الأمر في أوروبا في العصر الاقطاعي . ولجأت الدولة ، بين فترة وأخرى ، الى عملية الروك ، أي مسح الأراضي واعادة توزيع الاقطاعات ، ومن شأن هذا المسح أن يزيل العناصر الضعيفة بين أصحاب الاقطاعات ليأتي بعناصر قوية لمصلحة السلطة الحاكمة .

وكما أن الاقطاع لايورث فكذلك ابن المملوك لايصبح مملوكا ، لأنه مسلم حر . ومن هنا فالمملوكية لجيل واحد ، ويبقى المماليك باستمرار اغرابا عن أهل البلاد ، يتكلمون اللغة التركية السائدة في المنطقة التي قدموا منها . ويدخل أبناء المماليك ــ ويعرف أبناء عامتهم بأولاد الناس ، أما ابناء السلاطين منهم فيعرفون بالأسياد أو أولاد الملوك ــ فرقا عسكرية ملحقة بالقوات المملوكية ليس لها كبير أهمية ، تعرف بأجناد الحلقة ، ويدخلها أيضا أفراد من السكان المحليين . ويؤلف المماليك عماد الجيش في السلطنة المملوكية ، وأشهرهم المماليك السلطانية ، وهم ثلاث فئات : مماليك السلطان الحاكم ، ويعرفون بالمشتروات وبالجلبان ، أو الأجلاب ، وهم الأكثر نفوذا ، بسبب اعتماد السلطان عليهم ،

ويكون ولاؤهم بالدرجة الأولى له ، لأنه هو الذي اشتراهم وحررهم ، وهو بالنسبة لهم استاذهم ، ثم مماليك السلاطين السابقين ، ويعرفـون ، بالقرانصة ، ثم مماليك الأمراء السابقين ، ويسمون السيفية • والى جانب المماليك السلطانية هناك مماليك الأمراء ، وهم أقل أهمية من السابقين ، ولكنهم أكثر فعالية مـن أجناد الحلقة • ومن شأن هذا التعدد في الكتل في الجيش المملوكي أن يقوي المنافسة البناءة بين أفراده •

وحدث هـذا حين كانت السلطة المركزية قوية ، والسلطان يتمتع بولاء مختلف الكتل • ولكن هذه الكتل في أوقات الضعف تحولت الى التنافس المميت فيما بينها • ولجأ السلطان ، لدعم سلطته ، الى الأعتماد أكثر فأكثر على مشترواته، كما لجأ الى ضرب الكتل الأخرى بعضها ببعض لاضعافها • ومما زاد في العداء بين طوائف المماليك تكتل كل طائفة على نفسها بفعل رابطة الخشداشية ، أي ولاء المملوك لزميله المباشر ، الذي شري ، ودرس ، واعتق معه •

ومن الأسباب الأخرى التي أدت الى انحطاط الجيش المملوكي وبالتالـي السلطنة المملوكية ، انهيار نظام التدريب العسكري ، بدلالة تهدم الميادين حيـث تجري تمارين الفروسية • وزاد في الانحطاط عدم دخول السلطنة المملوكية في حرب كبرى منذ هجوم تيمور لنك على بلاد الشام في مطلع القرن الخامس عشر ، وحتى القتال مع العثمانيين في موقعة مرج دابق ، في عام ١٥١٦ • وادى ذلك الى تقاعس الجنود عن القتال ، فانصرفوا الى التنازع فيما بينهم ، والتدخل في شؤون الدولة ، وابتزاز المال من الاهلين • وتناقص أيضا العنصر البشري المملوكي بسبب قلة العناصر الشابة في مناطق القفقاس ، وهجرة أسر بكاملها الى بلاد السلطنـة المملوكية ، وكذلك بسبب الطواعين المتكررة التي عمت مصر في القرن الخامس عشر ، وقدر عددها بأربعة عشر طاعونا في الفترة بين ٨١٩/١٤١٦ و ٩١٩/١٥١٣ ـ ١٥١٤ • وأصابت الطواعين بصورة خاصة القادمين الجدد من المشتروات وذلـك لعدم تأقلمهم بعد مع المناخ المحلي • ورافق اهمال المماليك تمارين الفروسـيـة كرههم استخدام السلاح الناري اليدوي ، لأن هذا يقتضي ترجلهم عن خيولهم أو حملهم في عربات ، مما يتنافى مع تقاليد الفروسية • وزاد في كرههم لهذا السلاح

محاولة السلطنة المملوكية ، في أواخر عهدها ، تسليح فرقة من العبيد المحتقرين من قبل المماليك ، بهذا السلاح • [٣] وتظهر المحادثة التالية ، بين السلطان سليم الأول والأمير المملوكي الاسير كرتباي ، بعد فتح العثمانيين مصر شدة كراهية المماليك للسلاح الناري • قال كرتباي للسلطان سليم : « •• أنت اتيت لك عساكر من أطراف الدنيا من مصاري ومن روم وغيرهما وجئت بهذه الحيلة التي تحيل بها الافرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امرأة لقتلت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لاتترك سنة نبينا محمد (صلعم) وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف» • [٤]

ولم يعارض المماليك استخدام الدولة للمدافع في أغراض الدفاع • وبخاصة في حماية سواحل البحر الأحمر من غزوات البرتغاليين ، وكذلك سواحل المتوسط ضد العثمانيين والقراصنة الأوروبيين ، وذلك لأن أمرها عهد به الى خبراء ، معظمهم من الأجانب • ولكنهم عارضوا في مرافقتها لهم ، واستخدامها في العمليات العسكرية ، لأنها تعيق حركتهم • وبالمقابل فان حسن استخدام العثمانيين للسلاح الناري اليدوي ، وملاءمة استخدامه للانكشارية المشاة ، مكنهم من الانتصار على الصفويين في معركة جالديران في عام ١٥١٤ ، وعلى المماليك في موقعتي مرج دابق في عام ١٥١٦ والريدانية في عام ١٥١٧ •

وقد ساير الانحطاط العسكري الانحطاط الاقتصادي ، في السلطنة المملوكية وأسبابه داخلية ، فالدمار الذي أحدثه المغول في بلاد الشام ، وبخاصة ابان غزوة تيمور لنك في ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ كان عميق الاثر • وقد أعقبه تكرر حدوث الجفاف في مصر ، في القرن الخامس عشر ، وتلا ذلك مجاعات وطواعين عطلت الفعاليات البشرية والاقتصادية ، وبخاصة الزراعة • وزاد في الأمر كثرة تمرد البدو ، نتيجة لضعف السلطة المملوكية واعتدائها على الفلاحين ، الذين خضعوا لنظام الحمايه التي فرضت عليهم حتى لو لم يطلبوها • وصادف في الوقت ذاته ، نقص في عائدات مصر من التجارة الخارجية بين اوروبا والشرق الاقصى والتي كانت تدر أرباحا وافرة للسلطنة المملوكية ، سواء باسهامها مباشرة في هذه التجارة أم بتقاضي الضرائب عنها أثناء مرورها • ولجأت السلطة المملوكية بضغط الازمات الاقتصاديه

التي تعرضت لها في القرن الخامس عشر ، الى تشديد قبضتها على طرق التجارة الخارجية ، فاحتكرت عددا من المواد ، أهمها البهار • كما أنها زادت من قيمة الأسعار والضرائب ، مما أغاظ اوروبا • ووجدت هذه متنفسا لها في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من قبل البرتغاليين • ورغم أن المناطق البرتغالية لم تكن آنذاك حاسمة بالنسبة للاقتصاد المملوكي ، الا أنها حطمت احتكاره طرق المرور ، فحرمته من مواد كثيرة ، وتوضحت آثار ذلك على المدى البعيد • وعمد المماليك بتأييد البنادقة ، الذين وجدوا في البرتغاليين منافسين أقوياء لهم ، الى ارسال حملة بحرية ٩١٤/١٥٠٨ الى الهند ، لمقاومة البرتغاليين ، ولكنها هزمت بعد نجاحات أولية حصلت عليها ، وسيطر البرتغاليون في أعقاب ذلك على المحيط الهندي فمدوا نفوذهم على الخليج العربي ومداخل البحر الاحمر ، وشكلوا تحديا كبيرا للدولة العثمانية التي حلت محل المماليك •

العراق بين سقوط بغداد بأيدي المغول والاحتلال العثماني

فشل المغول ، اثر احتلالهم بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها عام ١٢٥٨ ، في مد نفوذهم على الأجزاء الغربية من العالم العربي • وتوقف توسعهم اثر هزيمتهم في عين جالوت في عام ١٢٦٠ ، واقتصر حكمهم على العراق ، الذي ضم الى الامبراطورية المغولية ومركزها في بلاد فارس ، ولم يعد العراق يتمتع بمركز فعال في العالم العربي • يعد هولاكو مؤسس السلالة الايلخانية المغولية ، التي اتخذت تبريز عاصمة لها وهي واحدة من عدة سلالات انحدرت من جنكيز خان • وتعني كلمة ايلخان النائب ، الذي خلف هولاكو ، اثر وفاته في عام ١٢٦٥ • واقتصر حكم الايلخانيين على بلاد فارس والعراق ، وضموا اليها سلطنة سلاجقة الروم في الاناضول ، وأرمينيا الصغرى في كيليكيا ودخلوا في صراع مع السلالات المغولية الى الشرق والشمال منهم ، مما دفعهم أحيانا الى التحالف مع المماليك • ولم يكن الايلخانيون مسلمين ، بل كانوا وثنيين اعتنقوا البوذية وبمرور الزمن تمثلوا حضارة الشعوب المسلمة التي حكموها وأعلن أميرهم قازان ، الذي اعتلى العرش في عام ١٢٩٥ ، اعتناقه الاسلام على مذهب السنة بتأثير وزيره الطبيب ركن الدين

الذي كان يهوديا في الاصل ثم اعتنق الاسلام • وتلاه في ذلك بقية المغول وزالت الهوة بين الحاكم والمحكوم ولكن المنافسة العرقية أخذت في الظهور بين الفرس والمغول فتحالف هؤلاء مع الاتراك العثمانيين الذين تربطهم بهم اللغة الواحدة • وبدأت الثورات على الايلخانيين ومحاولة الانفصال عنهم • وخرجت من سيطرتهم الاناضول وبلاد الكرج ، وتبعها العراق ، الذي ظهرت فيه في عام ٧٤٠/١٣٤٠ سلالة مغولية عرفت بالجلائرية واستمرت في الحكم حتى عام ٨١٣/١٤١٠ • وفي عام ١٣٥٣م زالت السلالة الايلخانية وتوزعت مناطقها سلالات متعددة • ومما يجدر ذكره أن الايلخانيين أقاموا علاقات ناشطة دبلوماسية وتجارية مع اوروبا ، وبخاصة البندقية وذلك لعدة أسباب منها أنهم قبل اعتناقهم الاسلام بحثوا عن حلفاء حتى بين الصليبيين لمجابهة رعاياهم المسلمين ، ثم حاولوا تطوير نشاطهم التجاري لمواجهة المنافسة التجارية المملوكية • وربما تفسر هذه الأسباب التسامح الديني الذي لمسه المسيحيون واليهود ، في بعض فترات الحكم الايلخاني ، اذ أعفي المسيحيون من الجزية ، وسمح لهم ببناء المدارس ؛ في عهد ارغون (١٢٨٤ — ١٢٩١) ، بفضل سعد الدولة ، وزير المال اليهودي لدى الايلخانيين ، والذي عين أخاه حاكما على بغداد • ومع ذلك فقد حدثت فترات اضطهاد للمسيحيين واليهود ، في عهد حكام ايلخانيين آخرين •

وقد تابعت الحياة الفكرية نشاطها في عهد المغول • وظهرت في اللغة الفارسية مؤلفات هامة ، مثل كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين ، الذي خص قسما من كتابه لتاريخ اوروبا ، وهذه أول محاولة من نوعها في بلد اسلامي للكتابة عن (دار الحرب) • وظهر شعراء مشهورون مثل سعدي في شيراز (توفي عام ١٢٩١)• والشاعر الصوفي المشهور جلال الدين الرومي (توفي عام ١٢٧٣) صاحب كتاب المثنوي •

وبانهيار امبراطورية الايلخانيين وظهور سلالات متنازعة في اعقابهم أفسح في المجال ، في أواخر القرن الرابع عشر ، لظهور مغامر جديد بشخص أمير سمرقند، تيمور (وربما اشتق الاسم من الكلمة التركية « تمور » وتعني الفولاذ) ، الذي عرف أيضا بتيمور لنك • (أي الاعرج لاصابته في الحرب) • وقد تمرد على

أسياده حكام مغولستان في عام ١٣٦٩ ، وأعلن نفسه حاكما مستقلا واتخذ لقب بك ، أي امير . ثم بدأ بالتوسع ، فأخضع بلاد فارس والقفقاس ، ثم احتل العراق، وطرد حكامه الجلائريين ، وقد احتل بغداد مرتين : الاولى في عام ١٣٩٢/٧٩٢ — ١٣٩٣ حيث لم يصبها دمار كثير ، والثانية في عام ١٤٠١/٨٠٣ حيث قتل كثيرا من سكانها ، وهدم عددا من أوابدها ، وفي عام ١٤٠٥ استردها الجلائريون . واحتل تيمور لنك أيضا خوارزم ، وشمالي الهند . وفي عام ١٤٠٠ احتل دمشق ثم الاناضول وهزم العثمانيين في معركة انقرة ، في عام ١٤٠٢ . وكان حكمه اقسى ماعرفته البلاد العربية فتكا وتدميرا . وبموته في عام ١٤٠٣ انهارت امبراطوريته ، وعادت السلالات القديمة الى الحكم ، ولكن احفاده ، واشهرهم شاه رخ (١٤٠٧ — ١٤٤٧) وابو سعيد (١٤٠٢ — ١٤٦٩) استمروا في حكمهم بلاد فارس ، وسرعان ماجابههم أعداء جدد ممثلين بامارتين تركمانيتين : امارة الحمل الأسود (قره قيونلو) الشيعية ، وامارة الحمل الأبيض (آق قيونلو) السنية .

منذ القرن الحادي عشر ، اندفعت قبائل تركمانية في أواسط آسيا ، بضغط من المغول المتجهين غربا ، نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى . ولعبت هذه القبائل دورا هاما في تكثيف العنصر البشري ، في مناطق الحدود البيزنطية ، وبالتالي في خرق هذه الحدود في أعقاب معركة ملاذكرد (منزيكرت) في عام ١٠٧١ [٥] . وحين سيطر العثمانيون على الاناضول هرعت القبائل التركمانية المنتشرة فيه الى مناطق الثغور الاولى ، حيث شكلت في حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، عدة امارات أشهرها امارة ذي القدر ، وعاصمتها البستان ، واستمرت حتى عام ١٥٢٢ . وكانت امارة عازلة بين العثمانيين والمماليك ، ومارس كل فريق منهما نفوذه من خلالها . أما امارة الحمل الأسود فكانت منطقة نفوذها شمالي بحيرة وان ، ثم مدت سيطرتها في عام ١٣٧٥ ، على الموصل ، التي كانت تحت السيادة الجلائرية . وفي عام ١٤٤٠ احتلت بغداد من الجلائريين ، وبقيت في حكمهم حتى عام ١٤٦٧/٨٧٢ ولكنها لم تستطع الثبات في وجه قبيلة الحمل الابيض ، التي تمركزت في منطقة ديار بكر ، وتحالفت مع تيمور . وفي عام ١٤٦٧ تغلب اوزون حسن (حسن الطويل) على آخر امراء قبيلة الحمل الاسود وضم هذه الامارة

اليه ، ثم مد نفوذه الى شمالي العراق وبغداد وجزء من بلاد فارس بعد أن هزم حاكم فارس التيموري أبا سعيد عند تبريز عام ١٤٦٩ • ولم يحاول اوزون حسن التوغل شرقي فارس بسبب تهديد العثمانيين له • ولمجابهة هؤلاء حاول التحالف مع البنادقة دون جدوى • وبوفاته في عام ١٤٧٨ تمزقت امارته بين ابنائه ولم تعد تشكل خطرا على العثمانيين ، او التيموريين ، ولكنها بقيت تحكم بغداد حتى عام ١٥٠٨ ، حين سقطت تحت سيطرة الشاه اسماعيل الصفوي •

وقد اشتهر الصفويون في بلاد فارس ، في مطلع القرن السادس عشر وكانوا في الأصل امارة تركمانية شيعية ، تنتسب الى صفي الدين ، المتوفي عام ١٣٣٤ ، وهو صاحب طريقة صوفية في اردبيل في اذربيجان • ويعد الشاه اسماعيل المؤسس الفعلي للدولة الصفوية ، فقد اعترف بزعامته على بلاد فارس ، اثر هزيمته لجيش امارة الحمل الابيض ، في منطقة شرور في عام ١٥٠١ ، ودخل تبريز في اعقاب ذلك ، حيث اعلن نفسه الشاه اسماعيل الاول • واتبع هذا باعلانه التشيع مذهبا رسميا لدولته، مما باعد بينه وبين العثمانيين ولكن ذلك اعطى لرعاياه ولبلاد فارس نوعا من الهوية الدينية والسياسية افتقدتها قبلا ، ولازمتها منذ ذلك الحين،كما استلزم القضاء بالقوة على المعارضة في الداخل والدخول في صراع مع العثمانيين حول زعامة العالم الاسلامي •

وخلال عشر سنوات من دخوله تبريز ، احتل الشاه اسماعيل جميع بلاد فارس ، وضم العراق الى دولته الصفوية ، ففي عام ١٥٠٣ هزم نهائيا امارة الحمل الأبيض ، وضم ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و ١٥٠٧ ، وافتتح بغداد والمناطق الجنوبية الغربية من فارس في عام ١٥٠٨ ، وتغلب على أمير البستان في عام ١٥٠٧ ، ودخل بذلك ميدان الصراع على النفوذ في منطقة الاناضول ، الى جانب العثمانيين والمماليك • وهزم في الشرق في عام ١٥١٠ محمد شيباني ، خان تركستان في معركة قرب مرو ، وأمن بذلك حدوده الشرقية(٦) •

وقد احتل العثمانيون ، في اعقاب هزيمتهم للصفويين في جالديران عام ١٥١٤، منطقة ديار بكر ، ودخلوا الموصل عام ١٥١٦ ، ولكن بغداد والبصرة بقيتا تحت الحكم الصفوي • وفي العشرينات من القرن السادس عشر تمكن زعيم كردي يدعى

ذو الفقار ، من احتلال بغداد واعلان الخطبة باسم السلطان سليمان القانوني ولكن الشاه طهماسب الاول استعاد المدينة في ٩٣٦/١٥٣٠ ، وبقيت في ايدي الصفويين حتى عام ١٥٣٤ حين احتلها العثمانيون ثانية •

ومما تجدر ملاحظته أن بغداد أصابها كثير من الانحطاط في عهد الاسر التركمانية بسبب ادارتها السيئة ، فهجرها عدد من سكانها • وأدى اهمال أقنية الري الى حدوث الفيضانات المتكررة • وتحسن الوضع بعض الشيء في عهد الدولة الصفوية واستفادت بغداد من امتداد رقعة هذه الدولة ، ووصلها عدد من التجار الفرس ، مما نشط الحركة التجارية • أما البصرة ، فقد حكمها الايلخانيون ، ولكنها قاست من سوء الادارة وفوضى الثورات • ووصف ابن بطوطه ، في حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، حالة الدمار التي كانت عليها • واستمر وضعها سيئا ، في عهد الجلائريين والسلالات التركمانية ، ولم يتحسن كثيرا في عهد الصفويين •

شبه الجزيرة العربية

باستثناء اليمن والحجاز ، حيث قامت انظمة سياسية موغلة في القدم ، فان معظم اجزاء الجزيرة العربية خضعت لأمراء القبائل البدوية ، واستمر ذلك حتى بعد أن مد العثمانيون نفوذهم اليها • ومما يجدر ذكره أنه بسيطرة الخلفاء الأمويين في الشام أخذ شأن الجزيرة العربية يتضاءل • وكان الأمويون يعينون الحكام على مكة وعلى كثير من أنحاء الجزيرة ، بينما كان الخليج العربي تابعا لحكام البصرة ، واشهرهم في العهد الأموي الحجاج ويزيد بن المهلب • وتمتعت الجزيرة بفترة من الهدوء لم تشهده في الحقب السابقة ، وطور الأمويون شبكات الري فيها ، وقضوا على ثورات الخوارج واحتفظوا بسيطرتهم عليها •

وادى قيام الخلافة العباسية في العراق الى زيادة الاهتمام بالخليج العربي وبتجارة المرور فيه ، مع الصين وافريقيا الشرقية ، واستمر العباسيون قرابة قرن يعينون الولاة على الحجاز واليمن والمناطق الشرقية من قبلهم • ورغم ثورات الأباضية الخوارج في عمان ، ودوام امارتهم قرابة أربعة قرون فقد بقيت السيطرة للعباسيين • وفي النصف الثاني من القرن التاسع ظهرت مراكز تحد جديدة

ضد العباسيين ، مثل اليعافرة في اليمن ، الذين اتخذوا صنعاء عاصمة لهم • وقامت ثورة علوية استقلت باليمامه واستمرت حتى مجيء القرامطة • ولكن الخطر الأكبر شأنا على الخلافة العباسية أتى من شرقي الجزيرة العربية ، حين نقل الثائر علي بن محمد نشاطه الى العراق الجنوبي ، وأسهم في اثارة الزنج على الدولة •

ثم ازداد شأن الجزيرة العربية بقيام ثورات القرامطة فيها ، وبخاصة في البحرين حيث شكلوا نواة دولة ، منذ مطلع القرن العاشر الميلادي • وبقيام الدولة الفاطمية في مصر ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، مدت نفوذها على اليمن والحجاز ، بما في ذلك مكة والمدينة • وحاول الفاطميون ، الى جانب نشر دعوتهم ، توسيع نشاطهم الاقتصادي ، وعملوا على تحويل طرق التجارة من الخليج العربي الى البحر الأحمر وذلك لاخضاع العراق • واقتضاهم ذلك السيطرة على جانبي البحر الأحمر ، فوطدوا سلطتهم في اليمن ، وأرسلوا دعاتهم منها الى الهند • وفي عهد صلاح الدين الايوبي أرسل اخاه طورانشاه الى اليمن ، فاحتلها عام ١١٧٣ واعلن تبعيتها للايوبيين ، الذين استمروا في حكمها قرابة نصف قرن • وافاد وجودهم على شواطيء البحر الاحمر حمايتها من الصليبيين الذين أرسلوا حملة بحرية اليه • ورغم احتلال الايوبيين حضر موت ، لم يتمكنوا من ضمها اليهم وفي عهد آخر حكامهم في اليمن ، مدوا سيطرتهم ، في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، الى مكة وأقاموا حاكما عليها مؤسس السلالة الرسولية ، وكان من الاشراف • وقد تمكنت هذه السلالة ، بعد زوال الحكم الأيوبي ، من مد سيطرتها على تعز وزبيد ، واستمرت تحكمهما حتى عام ١٤٤٦ • وحين احتل المغول بغداد ، وحاولوا التوسع غربا ، بقيت الجزيرة العربية بمنأى عن خطرهم • واتخذ الأمير الرسولي لقب خليفة المسلمين ، ولكن امكاناته عجزت عن الاستمرار فيه •

ومع قيام السلطنة المملوكية ، فرض الظاهر بيبرس سلطته الاسمية على مكة والمدينة ، ولكنه ترك تصريف شؤونهما بيد السلالة الرسولية وكثيرا ماتدخل المماليك لفض المنازعات بين افراد هذه السلالة • وفي أواخر حكم هذه السلالة ظهر تنافس تجاري بينها وبين التجار المصريين في البحر الاحمر • وقد بعث

الرسوليون البعثات الى الهند وسيلان والصين وطوروا ميناء عدن حتى أصبح من أكبر مراكز التجارة مع الشرق .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر ظهرت عدة مراكز للسلطة في الجزيرة العربية . ففي حين استمرت السلطة الرسولية في حكم مكة والمدينة ، انحسرت سلطتها عن زبيد وعدن ، وخلفتها فيها السلالة الطاهرية . وظهر زعيم آخر هو مانع بن ربيع المريدي ، جد الاسرة السعودية ، الذي هاجر من منطقة القطيف باتجاه نجد واستقر في وادي حنيفة [٧] . وفي النصف الاول من القرن السادس عشر حدثت تطورات سياسية في اليمن ، وتسلم الحكم فرع جديد من الائمة الزيدية ، واتخذ صنعاء عاصمة له .

وكان هناك سلطتان كبيرتان ، خارج الجزيرة تتنازعان النفوذ فيهما ، منذ القرن الخامس عشر ، وهما السلطنة المملوكية التي مدت نفوذها الى البحر الأحمر والأماكن المقدسة في الحجاز ، والدولة التيمورية في بلاد فارس ، وبخاصة في عهد شاه رخ، الذي طالب السلطان المملوكي برسباي بالسماح له بتقديم كسوة الى الكعبة «ولو كان ذلك ليوم واحد». وقد رفض طلبه بحجة ان امتياز تقديم الكسوة يعود ، منذ القديم ، لحكام مصر الذين أقاموا أوقافا خاصة لهذا الغرض . وطبيعي ان المماليك رفضوا اشراك التيموريين في الاشراف على الأماكن المقدسة ، كما فعل العثمانيون من بعد مع الحكام الصفويين ، ومع نادرشاه ، في القرن الثامن عشر ، وذلك بسبب الأهمية السياسية التي يعنيها الاشراف على الاماكن المقدسة ، وحماية قوافل الحجيج لها ، وأيضا بسبب رغبتهم بالانفراد بالسيطرة على البحر الأحمر وموانيه . وحين حاول أشراف مكة من السلالة الرسولية استغلال النزاعات بين صفوف المماليك ، وبين هؤلاء وحكام فارس لزيادة استقلالهم ، لم يتسامح المماليك بذلك ، بل أعادوا المتمردين الى الخضوع ، وأقام برسباي حامية عسكرية مملوكية في مكة .

وبالاضافة الى الاهمية السياسية للبحر الاحمر ، بالنسبة لمصر ، فان أهميته الاقتصادية لم تكن أقل شأنا . فقد اختصت مصر بتجارة الشرق الاقصى ، مثل البهارات والعطور للاستهلاك المحلي وللتصدير ، وجنت من ذلك أرباحا كبيرة .

وطالب التجار ، اصحاب النفوذ الواسع ، السلطنة المملوكية بحماية مواصلاتهم البحرية والبرية • وعبثا حاول الايلخانيون حكام بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تحويل هذه التجارة الى منطقتهم وذلك بقطع طريق الهند عن مصر • ومما يذكر ان النشاط التجاري الصيني ، في عهد الاباطرة من اسرة مينغ ، قد زاد اتساعا منذ مطلع القرن الخامس عشر ، واصبح للمصالح التجارية نفوذ حتى في البلاط الصيني ، وأرسل الصينيون أساطيلهم التجارية ، في الفترة بين ١٤٠٥ — ١٤٣٣ ، الى غربي الهند ، وشمل نشاطهم الخليج العربي واليمن • ولكن الاضطرابات الداخلية في اليمن حولت التجارة من عدن الى جدة ، مما أغرى المماليك بالسيطرة عليها وانتزاعها من أشراف مكة في عام ١٤٢٥ • ولم يتحرك المماليك لمجابهة الخطر الصيني في المحيط الهندي • ولم يعودوا الى استئناف تجارتهم مع الهند الا بعد انحسار النشاط الصيني في عام ١٤٣٣ • واستمر المحيط الهندي هادئا حتى اواخر القرن الخامس عشر عندما ظهر الخطر البرتغالي •

وقد تعرضت أطراف الجزيرة العربية ، والموانيء الهامة فيها ، الى الخطر البرتغالي منذ أن وصل داغاما الى الهند ، عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ ، وكان دليله بحار عربي يرجح أنه أحمد بن ماجد النجدي ،وسرعان ماظهرت المراكب البرتغالية في البحر الاحمر • وفي عام ٩١١/١٥٠٥ احتل البرتغاليون جزيرة سوقطره في خليج عدن وتسربت مراكبهم الى منطقة جدة ، وهزموا الاسطول المملوكي في البحر الاحمر في عام ١٥٠٩ ، ولجأ السلطان المملوكي الى العثمانيين يطلب دعمهم • وظهر البرتغاليون في منطقة عمان والخليج العربي ، واقاموا قاعدة تجارية فيهرمز ، التي تسيطر على الخليج واستمروا فيها من ١٥٠٧ الى ١٦٢٢ وهددوا بذلك التجارة العربية في المحيط الهندي وبالتدريج احتكروا التجارة فيه •

السودان

أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسم بلاد السودان على المنطقة الممتدة جنوبي الصحراء الكبرى ، من البحر الأحمر حتى الاطلسي • اما تعبير السودان بامتداده اليوم ، فقد نشأ في القرن التاسع عشر ليدل على المنطقة التي

احتلها محمد علي باشا وخلفاؤه جنوبي مصر • وتمتد بلاد النوبا التي تشكل الجزء الأساسي من السودان وكانت مقر أقدم حضارة فيه ، بين الشلال الاول والشلال السادس ، شمالي نقطة التقاء النيل الازرق بالابيض ، وكانت تضم عدة قبائل • وقبل الفتح العربي لمصر ، بمدة قرن ، اصبحت النوبا مسيحية ، على أيدي مبشرين من مصر •

ولم يحرز والي مصر العربي عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، في حملته على بلاد النوبا ومحاصرته عاصمتها دنقله ، أي نصر حاسم ، فعقد هدنة مع حكامها ، وتراجع الى مصر ولم تقم محاولات اخرى في مصر لفتح النوبا لعدة قرون • وفي عام ١١٧٢ قاد طوران شاه شقيق صلاح الدين الايوبي ، حملة تأديبية الى النوبا السفلى ، ولكنها لم تحقق نتائج دائمة • وجردت السلطنة المملوكية عدة حملات على النوبا ، ورغم أنها نجحت في اضعاف حكامها الا أنها لم تستطع ضمها الى مصر • ولكن القبائل العربية ، جنوبي مصر ، نجحت حيث عجزت الحملات العسكرية ، في التسرب التدريجي الى النوبا والتزاوج من سكانها ، ونشرت فيها الدين الاسلامي واللغة العربية ، وأدى ذلك في القرن الرابع عشر الى انهيار المملكة النوبية المسيحية •

وتقسم بلاد النوبا الى قسمين : النوبا السفلى ، ودعاها العثمانيون بربرستان (بلاد البربر) وتمتد من الشلال الاول الى الشلال الثالث ، ونوبا العليا ، وراء الشلال الثالث ، وكانت تحت سلطة حكام سنار من الفنج ، وتقع شرقي النوبا ، في تلال البحر الاحمر ، قبائل البجا ، وهي من عرق متميز ، ولم تكن نوبية أو سوداء اللون ، ويقابلها على البحر الاحمر كل من مينائي سواكن ومصوع ، اللذين احتلهما العثمانيون • وقد اعاقت منطقة البجا امتداد النفوذ العثماني الى الداخل •

وهناك اختلاف بارز بين القسمين الشمالي والجنوبي في السودان ، فالشمال عربي اللغة بصورة غالبة ، ومعظم سكانه من المسلمين • وتتألف الأقلية المسيحية فيه من ابناء المهاجرين من مصر ولبنان في القرن التاسع عشر • أما القسم الجنوبي فيضم خليطا من القبائل واللغات ويسود فيه المسيحيون •

وقبل الاحتلال العثماني لبعض مناطق السودان سادت فترة مظلمة في تاريخه بدأت منذ أواخر القرن الرابع عشر ، واستمرت حتى مطلع القرن السادس عشر ، حين بدأت تظهر تكتلات سياسية جديدة • وقد برز الفنج في سنار ، فوطدوا سيطرتهم في منطقة الجزيرة ، بين النيل الازرق والنيل الابيض ، على المجرى الرئيسي للنيل • ولكن النوبا السفلى بقيت خارج منطقة نفوذهم مما اتاح للعثمانيين بسط نفوذهم عليها ، بواسطة ازدمر باشا (٨) •

قيام الامبراطورية العثمانية

يعد قيام سلطنة السلاجقة في بلاد فارس والعراق والاناضول ، في القرن الحادي عشر ، ثم توسعها ، بعد ذلك ، في بلاد الشام ، نقطة تحول في تاريخ المنطقة العربية ، وتاريخ الشرق الادنى ، بوجه عام ، فلأول مرة سيطر الأتراك على معظم الشرق العربي ، وفرضوا نفوذهم على الخلافة العباسية ، ولئن فشلوا في تتريك البلاد العربية فقد نجحوا ، وبخاصة في العهد العثماني ، في تتريك الاناضول • والسؤال الذي يطرح : من هم هؤلاء العثمانيون ، وكيف انشأوا امبراطورية كبرى احتلت معظم الاقطار العربية ؟ •

وضعت اكثر من رواية حول اصل العثمانيين وقيام اول امارة لهم ، بعضها من الجانب العثماني ، وبعضها من الجانب العربي • واختلط الخيال بالواقع الى حد حجب معه كثيرا من الحقائق الاساسية • والرواية الأكثر شيوعا هي التي تبناها العثمانيون في القرن الخامس عشر بعد أن اصبحوا في الواقع ، باعتراف الدول الاخرى ، امبراطورية كبرى • وتنسب هذه الرواية اصل العثمانيين الى سليمان ، جد عثمان ، الذي ينتهي نسبه الى نوح عن طريق الغز أو الأغز • وكان سليمان حاكم ماهان ، في بلاد مرو ، وهرب منها ، مع قبيلته التركية ، بضغط المغول نحو بلاد الروم فغرق فيالفرات ، وأسس احفاده الامارة التركية •

ويلاحظ ان العثمانيين ، في هذه الرواية الرسمية ، التي وضعت بعد احتلالهم القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، قد حاولوا ربط حاضرهم المجيد بماض تليد ، فاستعاروا اسم سليمان بن قتلمش السلجوقي ، الذي أرسله أقرباؤه سلاجقة

بغداد ، في الربع الأخير من القرن الحادي عشر ، الى الاناضول لتنظيم القبائل التركمانية الغازية فيها ، وللتخلص أيضا من مؤامراته عليهم في بغداد . ويبدو أن جعل سليمان ، في الرواية ، حاكما على ماهان هدفه ربط اسمه باسم أبي مسلم الخراساني ، الذي ولد فيها ، كما ان انحدار العثمانيين من الغز ، أو الأغز ، وفق الرواية ، يقصد منه نسبة العثمانيين الى هؤلاء الاقوام الاتراك الذين عرفوا بشدة البأس (٩) .

وليس غريبا ان ينحت نسب ، او يزور أصل ، من قبل سلالة او حتى فرد ، تبريرا لواقع مشرق ، ولكن المهم التساؤل هل تستطيع قبيلة هائمة ، يعوزها الاستقرار ومقومات الحضارة ، انشاء دولة بمثل هذه البساطة ، أم أن هناك شروطا اخرى أتاح توافرها للعثمانيين انشاء دولتهم ؟

ان هرب قبيلة عثمان ، بفعل ضغط المغول ، في القرن الحادي عشر ، كان جزءا من ظاهرة عامة شملت قبائل تركمانية أخرى ، لجأت ، هربا من المغول وخوفا من السكن قرب مراكز السلطة ، الى مناطق الثغور المشهورة عند طوروس ، والتي فصلت بين البيزنطيين والعرب ، منذ احتلال هؤلاء لبلاد الشام ، وقد دب نشاط كبير في مناطق الثغور ، في أعقاب هذا التدفق السكاني ، وازداد ضغط الغزاة على الطرف البيزنطي ، الذي كان يعاني من ضعف كبير ، مرده العداء الاجتماعي بين طبقة الفلاحين وطبقة الاقطاعيين التي تستغلها ، وكذلك العداء القومي بين الأقليات ، وبخاصة الارمنية منها ، في منطقة طوروس ـ كيليكية ، والسلطة البيزنطية التي حاولت فرض مركزية شديدة عليها . واستولى الغزاة على مدينة أرضروم في عام ١٠٤٨ ، وقارص في عام ١٠٥٤ ، وملاطية في عام ١٠٥٧ ، وسيواس في عام ١٠٥٩ ، وقونيه وعمورية في ١٠٦٨ .

وقد تمتع الغزاة المسلمون بحماية السلطان السلجوقي في بغداد ألب ارسلان ولهذا هب الامبراطور البيزنطي رومان الرابع ديوجين للدفاع عن ثغوره ، واصطدم الطرفان في موقعة ملاذ كرد (منزيكرت) في عام ١٠٧١ ، وهزم البيزنطيون وأسر امبراطورهم ولكن الب ارسلان لم يتابع تقدمه ، بل أطلق سراح

الامبراطور ، وانكفأ عائدا الى بغداد ، لأن هدفه الأول انتزاع بلاد الشام ومصر من الخلفاء الفاطميين الذين استولوا على الشام .

ادى اختراق الحدود البيزنطية الى اندفاع الغزاة في الاناضول ، في وجه مقاومة ضعيفة ، وأسسوا أول امارة لهم ، عرفت بامارة الدانشماند (نسبة الى زعيم من بينهم عرف بلقبه الفارسي ، دانشماند ، أي الرجل العالم) ، في منطقة سيواس ، واهتم سلاجقة بغداد بتنظيم أمر هذه القبائل فأرسلوا سليمان بن قتلمش الى الاناضول ، وتمكن من انشاء سلطنة سلاجقة الروم ، في عام ١٠٧٥ ، واتخذ قونية عاصمة لها . واصطدم ابنه قليج ارسلان الذي خلفه ، بالحملة الصليبية الاولى التي هاجمت منطقته وكبدته خسائر كبيرة في عام ١٠٩٧ ، ولكنه صدها في معارك لاحقة . ثم عقد اتفاقا مع الامبراطور البيزنطي ضد الصليبيين ، ومكنه ذلك من التحول للاهتمام بشرقي الاناضول حيث سيطرت امارة الدانشماند ، التي مثلت الغزاة ، وبالتالي عدم الاستقرار . وبعد فترة طويلة من العلاقات العدائية معها قضى سلاجقة الروم عليها في عام ١١٨٠ وهرع الغزاة الى الثغور الجديدة في المناطق المرتفعة في القسم الغربي من الاناضول تلك الثغور التي تفصل المناطق البيزنطية عن مناطق سلطنة سلاجقة الروم .

ونشأت علاقات حسنة بين سلاجقة الروم والبيزنطيين ، وذلك لعدة أسباب منها : انشغال كل من الفريقين بالخلافات الداخلية ، مما أدى الى استعانة كل جانب بفريق من الجانب الآخر ، كما حدث حين التجأ سلطان سلاجقة الروم ، كيخسرو الاول ، الى القسطنطينية في مطلع القرن الثالث عشر ، ومنها ايضا زوال امارة الدانشماند ، التي تثير التوتر بين الفريقين . ولعل أهم الاسباب احتلال الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، مما اضطر البيزنطيين الى نقل مركز امبراطوريتهم الى مدينة نيقية ، وخشي سلاجقة الروم خطر الصليبيين فعمدوا الى دعم البيزنطيين واقناع الغزاة بتحويل هجماتهم عنهم الى مناطق أخرى ، مثل امارة أرمينية الصغرى ، التي قامت في منطقة طوروس — كيليكية ، وولاية طرابزون المسيحية .

وباقتراب المغول من الاناضول في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، تدفقت قبائل تركمانية كثيرة ، هربا منهم ، الى مناطق الثغور الجديدة في الاناضول، فزادت من قدرة الغزاة ولكنها أوجدت في الوقت ذاته أزمات اجتماعية ودينية بينهم، أدت ، في عام ١٢٣٩ ، الى قيام ثورة بين التركمان في الاناضول بقيادة بابا اسحق (تعني كلمة بابا واعظا تركمانيا شعبيا) وعرف ايضا بلقب بابا رسول (بسبب ادعائه النبوة) والتف من حوله التركمان الفقراء . فدعاهم الى الثورة على الادارة السلجوقية الفاسدة ، وهزم اتباعه القوات السلجوقية ، واحتلوا البستان وملاطية وسيواس . ثم تمكن السلاجقة من قتل بابا اسحق والقضاء على حركته في ١٢٤٠ . ومع ذلك ، فقد اضعفت هذه الحركة حكمهم ، وزادت من تأزم العلاقات بينهم وبين الغزاة ، فامتنع هؤلاء عن مساعدتهم حين هاجمتهم قوات المغول في عام ١٢٤٣، وهزمتهم رغم دعم البيزنطيين لهم . وخضع سلاطين سلاجقة قونية للمغول . وقد ادى ذلك الى زوال سلطتهم على الغزاة فاندفعوا في غزوهم دون رقيب . واشتد ذلك في اعقاب تدفق القبائل التركمانية ، من تركستان الى الأناضول ، هاربة من المغول ، وكذلك اثر عودة الامبراطورية البيزنطية الى القسطنطينية في عام ١٢٦١ ، واهتمامها بالجبهة الاوروبية ومخاطرها . وانطلق الغزاة في آسيا الصغرى، وشكلوا فيها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، عدة امارات غزاة (بيليكية، نسبة الى أميرها الملقب بك) ، من بينها امارة عثمان . وتم بذلك تتريك الاناضول. اما سلطنة سلاجقة الروم فقد حاولت الاستعانة بالمماليك ، وزار السلطان المملوكي بيبرس ، في عام ١٢٧٦ ، الأناضول ، ولكن خوف السلاجقة من المغول حال دون تعاونهم الوثيق مع المماليك . ثم احتل الايلخانيون ، حكام بلاد فارس ، الاناضول ، وقتلوا السلطان السلجوقي سليمان في عام ١٢٧٧ . ورغم استمرار سلاجقة الروم حتى عام ١٣٠٨ ، فقد اصبحت الادارة بيد المغول ، وتلاشت الادارة السلجوقية .

توزعت امارات الغزاة في الأناضول في ثلاث مناطق : الأولى في الجنوب حول انطاليا في كيليكية ، وهي موجهة ضد أرمينية الصغرى وجزيرتي رودس وقبرص ، وشملت امارة كرمان التي حلت محل سلاجقة الروم ، وكانت أهم امارات الغزو ، وكذلك امارات تكه ومنتشه وآيدين ، ومارست هذه الاخيرة نشاطها بحرا .

والمنطقة الثانية في الغرب ، على حدود الامبراطورية البيزنطية ، بين قسطموني شمالا ودنيزلي جنوبا ، مرورا بكوتاهية ، وتشمل امارتي صاروخان وقره صى ، شمالي آيدين ، وامارة جرميان ، في منطقة كوتاهية ، وتلي كرمان في الاهمية ، وامارة عثمان • وتقع المنطقة الثالثة في الشمال ، على سواحل البحر الأسود مقابل امبراطورية طرابزون ، التي حكمها فرع من البيزنطيين • وضمت امارتي سينوب وجندر • وقد اعترفت هذه الامارات بسيادة السلاجقة ، ثم الايلخانيين ، ولكنها كانت مستقلة في الواقع • ومع ان تقسيم الاناضول بين هذه الامارات كان مضعفا لهومدعاة لتدخل اوروبا ، الا ان هذه الاخيرة كانت مشغولة بحروب المائة عام (١٣٣٧ ــ ١٤٥٣) ، كما أن سيطرة امارة عثمان واشتداد قوتها حال دون تدخل أوروبا •

بقيت امارات الغزاة ناشطة مابقي الغزو برا وبحرا متوفرا لها ، وكلما توقف الغزو في امارة انتقل الى امارة اخرى ، حيث توافر ذلك • وقد استمرت امارة كرمان بعض الوقت ، لاستمرار الغزو فيها ضد ارمينية الصغرى الواقعة بقربها ولتمتعها ببعض التنظيم الذي ورثته عن سلطنة سلاجقة الروم التي حلت محلها • ولكن امارة عثمان فاقتها في قوتها وطول بقائها رغم صغرها ، ويعزى ذلك الى وقوعها مقابل القسطنطينية ولجوء الغزاة اليها باستمرار ، كما أن وضعها على الطريق الرئيسية التي تصل بين القسطنطينية والمدن الرئيسة ، في بلاد الشام والعراق ، سهل مدها بالعناصر المنظمة ، كالعلماء والتجار ، مما ساعد على تنظيمها وبالتالي على دوامها[١٠] •

وكان التجار والصناع ، في الاناضول ، منتظمين في مايشبه النقابات ، وتسمى الأخية (من أخ العربية ، او ربما من Aki التركية ، وتعني الكريم) ، يتعاون فيها اصحاب المهنة الواحدة للدفاع عن مصالحهم • واتخذت هذه الرابطة مظهرا اشتراكيا وعسكريا ، ولجأت الامارات الى طلب دعم منظمات الاخية • وقد تسلمت هذه المنظمات الحكم في بعض الأوقات ، كما حدث مثلا في أنقرة وسيواس • وازدهرت منظمات الاخية في فترة الفوضى التي أعقبت الغزو المغولي للأناضول ، وبخاصة منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر • وقد وصف ابن بطوطه منظمات

الاخية ، حين زار الاناضول في النصف الاول من القرن الرابع عشر فقال : « الاخية •• بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم اشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، والأخي عندهم رجل يجتمع عنده أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضا ، ويبني زاوية ويجعل فيها الفرس والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معائشهم ، ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لديهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم •• وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعاتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون الفتيان ويسمى مقدمهم الأخي » •

وجمع بين الغزاة ومنظمات الاخية مجموعة من التقاليد في الاخلاق والسلوك مبنية ، في الغالب ، على التقى مع مزيج من التصوف ، عرفت بالفتوة ، وأصحابها بالفتيان • ورغم أن أصول الفتوة غامضة وأن هذا التعبير اتخذ مظاهر مختلفة في أوقات مختلفة — أطلق في فترة ما ، وما زال في بعض المناطق ، على الشبان أصحاب البأس — فانه استخدم في عهد الخليفة العباسي الناصر (١١٨٠ — ١٢٢٥)، لاعادة هيبة الخلافة في وجه الاخطار الخارجية ، وبخاصة منها الصليبيين ، فدعا الامراء المسلمين للدخول في منظمة الفتوة التي بعثها • ورغم النجاح الذي لاقته دعوته هذه الا أن نشاط الفتوة قد اقتصر وجوده في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ على الغزاة والأخية في الأناضول ، حيث أفادوا في تنظيم السكان داخليا ، وفي التماسك ضمن المدينة وفي الادارة •

استفادت امارة عثمان من منظمات الأخية اكثر من غيرها ، بفضل المميزات الاخرى التي تمتعت بها • وأدى وقوعها أمام القسطنطينية الى تدفق الغزاة اليها باستمرار ، فأخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين ، بزعامة أميرها الغازي عثمان • ولايعرف عن نشاطه السابق الشيء الكثير ، ولكنه ، بسبب ضغط امارة

جرميان عليه ، تحول وأتباعه الى الثغور ، وسيطر على المنطقة الممتدة بين اسكي شهر وسهول نيقية وبورصة • وفي عام ١٣٠١ حاصر نيقية عاصمة البيزنطيين قديما ،ومن هنا تكونت شهرته بين الغزاة وخوف البيزنطيين منه . واعترف به سلطان سلاجقة الروم ، ولقبه بلقب بك • وفي عهد اورخان ، ابن عثمان وخليفته ، احتل العثمانيون بورصة في عام١٣٢٦، ونيقيةفي عام ١٣٣١ • وباحتلالهم امارة قرەصی ، في عام١٣٤٧ أصبحوا سادة المنطقة المواجهة لأوروبا • وكان كل انتصار للعثمانيين يأتي الى صفوفهم بغزاة آخرين • وازدادت الامكانات العسكرية لامارتهم بأكثر مما تتحمله مواردها أو مساحتها ، وتحتم عليها متابعة الغزوة لاشغال الغزاة • ولما كان مجال ذلك قد اصبح صعبا في الأناضول ، لوقوع معظم المناطق في أيدي أمراء الغزاة الآخرين ، ولتعزيز البيزنطيين الدفاع عن الرقعة الصغيرة التي بقيت لهم فيها . لذلك تطلعت امارة العثمانيين الى التوسع في أوروبا • وكانت علاقة الامير العثماني اورخان حسنة مع الامبراطور البيزنطي يوحنا السادس كاتتاكوزينوس • وقد طلب هذا الأخير مساعدة العثمانيين ضد منافسه يوحنا الخامس باليولوغوس• واتنقل سليمان بن اورخان الى تراقية ، على سفن بيزنطية ، لمساعدته ، في عام ١٣٤٥ • وفي العام التالي ازدادت العلاقات توطيدا بزواج أورخان من ابنة الامبراطور يوحنا السادس • ولكن العثمانيين احتلوا ، أثناء عبورهم ، مراكز استراتيجية في ارخبيل غاليبولي ، تتحكم بالمواصلات البحرية بين الاناضول وتراقية ، ورفضوا التخلي عنها رغم احتجاج البيزنطيين • ووطد العثمانيون قوتهم في الهلسبونت بعقدهم اتفاقية مع جنوة في عام ١٣٥٤ • وهكذا فتح مجال التوسع أمام العثمانيين في البلقان واوروبا •

وقد تغلب العثمانيون ، بقيادة مراد الأول (١٣٦٠ — ١٣٨٩) على تحالف من دول البلقان في معركة قوصوه ، في عام ١٣٨٩ ، واستولوا ، قبيل نهاية القرن ، على معظم الممتلكات البيزنطية في أوروبا ، باستثناء القسطيطينية • كما احتلوا بلغاريا وقسما من صربيه والبوسنة ، وتوغلوا في هنغاريا • وهزم العثمانيون في نيقوبوليس ، في بلغاريا في عام ١٣٩٦ جيشا أوروبيا ضم ملك هنغاريا وحفيد ملك فرنسا • ولقب بايزيد الأول العثماني ، تبعا لذلك، بالصاعقة ، واشتهر في العالم

الاسلامي كغاز ، وأرسل بايزيد الأسرى المسيحيين الى القاهرة وبغداد وتبريز ، حيث عرضوا في شوارعها ، ومجد العثمانيون كثيرا • وكان من عادتهم في أعقاب انتصاراتهم في البلقان ، أن يرسلوا وصفا لذلك (فتح نامه) ، وعبيدا وغنائم الى الحكام المسلمين ، وأطلق العثمانيون على مناطق البلقان اسم روميلية أي بلاد الروم ، نسبة الى مذهب الروم الارثوذكس السائد فيها •

وأظهر العثمانيون أنفسهم حماة الكنيسة ، وفي الواقع منحوا أساقفة هذه الكنيسة اقطاع بعض الأراضي ، وتقربوا بذلك من عامة الشعب الذين يدينون بالمذهب الارثوذكسي • وزاد هذا في العداء الاجتماعي بين عامة الشعب في البلقان وحكامهم من الارستقراطية ، الذين كانوا اما من الكاثوليك أو متحالفين مع دول كاثوليكية ، مثل البندقية والبابا • واضيف الى هذا العداء الديني العداء الاقطاعي بين الطبقات العليا والدنيا ، في مجتمعات البلقان ، ومن هنا بدا تعاطف الشعب ، في كثير من الاحيان ، مع العثمانيين •

تمكن العثمانيون من مد سيطرتهم على البلقان بواسطة جيش نظامي تألف من نوعين من الجنود : السباهية (الفرسان) ، الذين منحوا اقطاعات لقاء خدمتهم وكانوا دعامة الجيش وعاملا رئيسا في استمرار السيادة العثمانية ، لأن بقاءهم في اقطاعاتهم مشروط ببقاء الدولة العثمانية ، ولهذا كان من مصلحتهم الدفاع عنها • ثم الانكشارية وهم مشاة في معظمهم ، أخذوا ، في بادىء الامر ، من خمس الأسرى المخصصين للدولة ، بموجب الشريعة • ووجد الى جانب الجيش النظامي هذا ، الغزاة الذين كانوا ، شأنهم دائما ، يستقرون في مناطق الحدود ، ويفرضون تأثيراتهم عليها ، ويعملون ، بدافع من حماسهم الديني ، على جعل سكانها يعتنقون الدين الاسلامي ، بينما تبقى المناطق الداخلية ، التي احتلها الجيش العثماني ، على دينها المسيحي ، ويدفع اصحابها الجزية ، ويفيد هذا مالية الدولة • وان استقرار الغزاة على الحدود يفسر ، الى حد كبير ، وجود جاليات اسلامية حتى اليوم تعيش في مناطق الثغور العثمانية الاولى في البلقان ، وأهمها في تراقية والبانيا والبوسنة • أما الجاليات الاسلامية في منطقة الدوبر دجا ، بين الدانوب والبحر الاسود شمال شرقي بلغاريا ، فيعتقد أنهم ، في الاصل ، من الاتراك اتباع

السلطان السلجوقي الرومي عز الدين كيكاووس الثاني ، الذي لجأ الى البيزنطيين في عام ١٢٦١ وأقام بينهم .

ويبدو أن هذه العناصر المسلمة ، في مناطق الحدود في البلقان، قد رفدت فيما بعد بعناصر أخرى حين طبق العثمانيون سياسة النفي ،والترحيل Surgun (حورت بالعربية الى سركن) التي سبق للسلاجقة ان استخدموها على نطاق واسع ، فنقلوا جماعات من الأناضول الى البلقان ، أو بالعكس ، لأسباب تأديبية أو لايجاد عناصر موالية للحكم ، أو لنقل الخبرات . وتذكر سجلات الاوقاف ، في القرن الخامس عشر ، أن موجـات كبيرة من فلاحي غربي الاناضول قد هاجروا الى تراقية ومناطق البلقان الشرقية ، وسكنوا في مئات القرى ، بمعزل عن السكان المحليين . ونقل الاتراك أيضا الى المدن التي قاومت العثمانيين ، وسرعان ماتحولت الى مدن مسلمة . ويذكر مثلا أن مدينة سكوبية (في يوغسلافيا حاليا) ، التي احتلها العثمانيون في عام ١٣٩١ قد اصبح فيها ، في عام ١٤٥٥ ، اثنان وعشرون حيا مسلما مقابل ثمانية أحياء مسيحية فقط[١١] .

استغل العثمانيون انتصاراتهم في البلقان للتوسع في الأناضول . وكان هذا التوازن في الفتوحات ملازما للدولة العثمانية طوال وجودها ، فكل توسع في البلقان وازنه توسع في آسيا ، لتبقى للعثمانيين قاعدتهم الآسيوية ــ الأسلامية . وبالمقابل ، فكل خسارة في أوروبا ، فيما بعد ، اعقبتها خسارة مماثلة في آسيا . وحين فقدت الدولة العثمانية البلقان ، في الربع الأول من القرن العشرين ، فقدت في الوقت نفسه بقية البلاد العربية . وعادت بعد ستة قرون من وجودها ، الى حيث خرجت الى الأناضول ، وكان تاريخها خلال ستمائة سنة ، هو مجرد توسع ، ثم انحسار،دون تأثيرات حضارية عميقة .

وفي السنة التي تمركز فيهـا العثمانيون في غاليبولي (١٣٥٤) . احتلوا انقره ، التي كانت آنذاك مركزا اقتصاديا وسياسيا هاما ، وبدأ بذلك التوسع العثماني في المناطق الداخلية الاسلامية ، وهذا ما أوقع العثمانيين في خلاف مـع أمير سيواس ، ومع أمير كرمان ، الذي عد نفسه ، بعد احتلاله قونيه ، وريثا لسلطنة سلاجقة الروم . والتف من حول هذين الأميرين أمراء الغزاة في الاناضول

الذين أخافهم التوسع العثماني • ولكن الامير العثماني مرادا الأول هاجم قونية ، وسحق مقاومة كرمان في عام ١٣٧٨ دون أن يقضي عليها •

واتبع العثمانيون ، الى جانب الحرب ، أساليب أخرى لضم امارات الغزاة ، كالتزاوج مع أسرها الحاكمة ، أو شراء أراضيهم ، أو منحهم بدلها اقطاعات في البلقان • ولكن الأمير العثماني بايزيد الأول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) الذي خلف مرادا الاول ، عزم على القضاء على أمراء الغزاة المتمردين ، وتم له ذلك بمساعدة فرق بلقانية ، ثم عمد الى تطبيق القواعد العثمانية في الفتح ، التي شاعت آنذاك وهي احصاء السكان ، ومسح الأراضي وتوزيعها ، على شكل اقطاعات ، على اتباعه وجنوده ، مما يجعل لهم مصلحة في الدفاع عنها • وكان يسجل ذلك في سجلات تسمى دفاتر •

أدى احتلال بايزيد للامارات المسلمة في الأناضول الى أزمات في الامارة العثمانية ، كادت أن تقضي عليها • فسرعة الاطاحة بامراء هذه الامارات ، الذين كانوا قبل كل شيء مسلمين وغزاة واستخدامه قوات غير مسلمة ، مثل الفرق البلقانية والبيزنطية ، وكذلك الانكشاريين الذين كانوا يعدون رغم اسلامهم من أصل مسيحي ، أثار عليهم نقمة الغزاة والعلماء • وفي محاولة منه ليسبغ على عمله ، في القضاء على امارات الغزاة صفة الشرعية ، أرسل في عام ١٣٩٤ ، يطلب من الخليفة العباسي المقيم في مصر اعطاءه لقب سلطان الروم ، رغم أنه كان يتمتع، في الواقع بسمعة أعظم من هذا اللقب • وقد منحه الخليفة ذلك ، لأن تحديد اللقب بالروم كما في عهد سلاجقة الروم ، لم ينتقص نظريا ، من صلاحية السلطان المملوكي ، الذي أقام الخليفة في كنفه • وربما ليؤكد للعالم الاسلامي أنه لازال زعيم الغزاة فقد أرسل السلطان بايزيد الأول جيشا لحصار القسطنطينية ، ولم يرفع الحصار عنها الا بظهور تيمور ، الذي يعد آخر فاتح مغولي ، خرج من سهوب آسيا الوسطى ، في أعقاب تشكل السلطة السياسية لدى المغول وقد افتتح آسيا الغربية ، بما فيها بلاد الشام ، في الفترة بين ١٤٠٠ — ١٤٠٢ •

لجأ كثير من أمراء الغزاة ، الذين هربوا من وجه العثمانيين ، في الأناضول الى تيمور ، وشجعوه على مهاجمة العثمانيين • وكان تيمور ، أثناء توسعه باتجاه

بلاد الشام ، قد خشي توسع بايزيد في الاناضول واحتمال تحالفه مع المماليك ضده ، وبعد أن احتل تيمور دمشق ، هاجم الجيش العثماني قرب أنقرة في ٢٨ تموز ١٤٠٢ وهزمه ، وأسر بايزيد وانتحر في العام التالي ، وأعاد تيمور امارات الغزاة الى سابق عهدها • ولم يبد رغبة في دمج الأناضول بدولته لأنه كان يهتم بقتال المماليك • وأدرك العثمانيون ، بعد ذلك ، أن مجال توسعهم الرئيس هو في البلقان • وأظهر لهم فشلهم العسكري تسرعهم في احتلال امارات الغزاة ،وعدم رسوخ قواعد دولتهم في البلاد التي احتلوها • ومما ساعد العثمانيين على سرعة استعادة قواعد دولتهم نظام الاقطاع العسكري الذي اتبعوه ، اذ هرع الجنود السباهية الى اقطاعاتهم للتمتع بوارداتها ، وعادت بذلك هيبة الدولة العثمانية الى الريف أولا • ومع ذلك ، فقد دفع العثمانيون ثمن هزيمتهم حربا أهلية دامت عشر سنوات (١٤٠٣ ـــ ١٤١٣) ، بين ابناء بايزيد : سليمان الأكبر ، في ادرنة ، الذي اعترف به تيمور حاكما على البلقان ، ومحمد الأصغر ، الذي أعلن نفسه حاكما على منطقة سيواس ، وموسى ، الذي انحاز الى محمد في البدء ، ثم عمل لحسابه في البلقان ، وعيسى حاكم بورصة • ويعكس هـــذا التنوع في الأسماء اختلاط العثمانيين منذ أن كانوا غزاة ، بالبيزنطيين والبلقانيين وتزاوجهم معهم • وبنتيجـــة هذا الصراع بين الأخوة ، انتصر محمد •

حاول السلطان محمد الأول (١٤١٣ ـــ ١٤٢١) ايجاد حلول لمختلف المشكلات التي أثارتها الحرب الأهلية ، ومن قبلها هزيمة أنقرة أمام تيمور ، فأهتم بالغزو في البلقان وشجع الغزاة كما أنه قام بنفسه باحتلال مناطق جديدة فيه ، واستمر هذا الاتجاه في عهد خلفيه : مراد الثاني ومحمد الثاني • ومما يدل على اهتمام السلطان محمد الاول بمتابعة الغزو نقله مركز العاصمة العثمانية من بورصة ، في الأناضول ، الى أدرنة ، في البلقان والتي عرفت بدار الغزاة •

أما سياسة محمد الأول تجاه الامراء المسلمين في الاناضول ، فانه حاول ، على خلاف بايزيد الأول ، أن يربط نفسه بهم بروابط الصداقة ، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج • واستمرت سياسة اللين تجاههم في عهد خلفائه . ويذكر أن السلطان مرادا الثاني حصل ، في عام ١٤٤٤ ، من علمـــاء مصر ، على فتوى تعلن للعالم

الاسلامي وبخاصة الى شاهرخ ، خليفة تيمور ، شرعية الحملة التي كان على وشك القيام بها ، ضد امارة كرمان ، وكانت حجة العثمانيين أن الأسرة الحاكمة في كرمان قد تعاونت مع القوى المسيحية •

وأبدى محمد الأول اهتماما أيضا بعامة الاتراك ، فكسب عطفهم وعطف علماء المسلمين • كما أنه استبعد بذلك قيام تذمر بينهم واستغلال هذا التذمر من قبل مغامرين ، مثل قاضي العسكر الشيخ بدر الدين ، الذي ترأس حركة اجتماعية ـ دينية ، في الاناضول ، تدعو الى التآخي بين الاتراك والمسيحيين ، وشجع قيام ثورة على السلطان محمد الاول ، في ولاية ايدين في عام ١٤١٥ مستميلا اليه طبقات الشعب الفقيرة • وعمد السلطان محمد ، بعد القضاء على هذه الثورة الى التقرب من هذه الطبقات الفقيرة بأن رعى حركة خيرية ذات طابع صوفي أسسها ولي في أنقرة هو الحاج بيرم •

ولم تكن رعاية الدولة العثمانية لهذه الحركة الصوفية حادثا منعزلا ، كما لم تكن الرعاية الاولى والأخيرة من نوعها • ان ذلك ، في الحقيقة ، تعبير عن الرابطة القوية ، التي شدت الدولة العثمانية الى الطرق الصوفية في مختلف فترات تاريخها • وقد ذكرنا كيف أن البدع المضطهدة ، وبينها الحركات الصوفية ، لجأت الى مناطق الثغور ، وطبعت الغزاة بطابعها • وهناك أمثلة أخرى عن عمق هذه الرابطة ، ضمن الدولة العثمانية حين شكل دراويش الطريقة البكطاشية الصوفية فرقة خاصة بهم في الجيش الانكشاري • وقد أهتم السلطان سليم الأول العثماني ، اثر احتلاله دمشق ، بتكريم مثوى محي الدين بن عربي (توفي عام ١٢٠٤ م) ، المدفون في صالحيتها ، فزاره ، وأمر ببناء تكية عند قبره • وحين قام الوالي العثماني ، جان بردى الغزالي ، في عام ١٥٢٠ ، بثورته ضد العثمانيين ، واحتل قلعة دمشق ، وجد فيها الصوفية بصحبة الجنود الانكشارية • وكان أيضا من بين ما هاجمته الحركة الوهابية ، في القرن الثامن عشر ، تبني العثمانيين للعادات الصوفية المتطرفة ، التي أبعدتهم عن تعاليم الاسلام •

بقي على السلطان محمد الأول وخلفائه تبني سياسة واضحة تجاه الشعوب الخاضعة لهم في البلقان ، بعد أن أصبح أمر ذلك ضروريا الآن • فالفتوح لم تعد

ميسور، كالسابق، لامتداد السلطنة العثمانية الى مناطق واسعة، ولمعارضة القوى الاوربية لتوسعها • وكان توقف الفتح، أو الحد منه يعني توقف، أو أنقاص، وارد الخمس من الغنائم، بما في ذلك خمس الأسرى، الذين جندوا في فرق الانكشارية • كما أن امتداد السلطنة العثمانية الى مناطق واسعة قد أوجد لها التزامات جديدة • وترتب على ذلك ضرورة ايجاد قوات اضافية لاقرار الأمن وتثبيت الادارة في هذه المناطق، فلو جند العثمانيون أبناء الشعوب الخاضعة لهم في البلقان لأمكنهم، من ناحية، تلافي العجز في عدد القوات، وأتيح لهم، من ناحية أخرى، افقار هذه الشعوب الخاضعة من عنصرها الشاب، وجعلها بالتالي أقل قدرة على التحرر • ولهذه الأسباب مجتمعة طبق العثمانيون، في الفترة بين ١٤٣٠ و ١٤٣٨، في عهد السلطان مراد الثاني، ماعرف بالدفشرمه، أي جمع الشبان • وكانت ترسل، كل خمس سنوات لجان تطوف روميلية لانتقاء الشبان الأشداء منها، وتدريبهم في مدارس خاصة، فيصبح بعضهم موظفين اداريين، وأحيانا صدورا عظاما، وتدخل كثرتهم في الجيش الانكشاري • وكانت المدن غالبا مستثناة من الدفشرمه، التي اقتصرت على سكان الريف، حيث يوجد عادة السكان الاشداء، وغالبيتهم من الصقالبة والالبانيين وهذا مايفسر بروز هؤلاء بين الانكشارية وكون اللغة السلافية هي السائدة بينهم •

وبانحطاط الدفشرمه تدريجيا، انتقلت الى آسيا الصغرى، وأصبح المسلمون الأحرار يجندون في فرق الانكشارية • وانهار نظام المدارس نتيجة لذلك، واشتدت الفوضى، وكثر التمرد في صفوف الانكشارية، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر • وبعد أن كان الانكشارية يرهبون أوروبا أصبحوا، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، يرهبون بصورة متزايدة، سلاطينهم العثمانيين الى أن قضى عليهم السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ •

لم يبق أمام العثمانيين، وقد بلغوا هذا المبلغ من السلطة، الا احتلال القسطنطينية، التي أصبحت أشبه بقطعة بيزنطية وسط بحر عثماني، فاحتلها السلطان محمد الثاني (الفاتح) في عام ١٤٥٣، وجعلها عاصمة العثمانيين، وبدأت بذلك فترة الامبراطورية العثمانية •

مظاهر من الادارة العثمانيـة

من الضروري ، قبل البدء بمعالجة الحكم العثماني في الاقطار العربية،التعرف على بعض مظاهر الادارة العثمانية ، التي أثرت ، في اوجهها المختلفة ، في تطورات الأحداث في الاقطار العربية ، ويرئس الادارة السلطان العثماني ، الذي عرف بلقب خنكار ، ويعني بالتركية السلطان الأعظم وأحيانا عرف بلقب باديشاه الفارسي ويعني الحاكم الأعلى • أما لقب الخليفة فلم يتخذه السلطان العثماني ، بصورة فعلية ، حتى عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان هذا متفقا مع السياسة الاسلامية التي تبناها لمجابهة الحركات القومية ، وبخاصة العربية ، من ناحية ، ولاخافة الدول الاوروبية ، وبخاصة بريطانيا ، التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند ، من ناحية أخرى • وسبق للسطان العثماني أن أضاف لقب خليفة الى القابه في معاهدة كجك قاينارجه مع روسيا ، في عام ١٧٧٤ ، والتي تنازل بموجبها ، لأول مرة عن مناطق تركية مسلمة ، في القرم • وكان اللجوء الى اللقب الديني لتغطية الهزيمة العسكرية والسياسية التي مني بها السلطان العثماني • ثم توارى اللقب حتى ظهر ثانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني •

وباستثناء فترات قصيرة ، كما في الاقتتال بين أبناء السلطان بايزيد الأول على السلطنة بعد وفاته ، في عام ١٤٠٣ ، وكذلك في ثورة الأمير جم على أخيه السلطان بايزيد الثاني في عام ١٤٢١ ، لم تشهد السلالة العثمانية نزاعاتمميتة ، على غرار ماجرى في أوروبا • وكان الابن الأكبر يخلف أباه عادة • وأعتاد السلطان العثماني تعيين ابنائه حكاما على الولايات ، مما أكسبهم خبرة ادارية أفادتهم في الحكم • ولكن ازدياد خطر الأخوة على أخيهم الذي أصبح سلطانا ، دعت السلطان محمد الثاني ، (١٤٥١ — ١٤٨١) ، الى اصدار قانون يبيح للسلطان قتل اخوته • وجاءت ثورة جم على بايزيد وثورة أخوة السلطان سليم الأول عليه اثر اعتلائه الحكم في عام ١٥١٣ ، لتؤكد ضرورة ذلك • وحين توفي السلطان أحمد الاول ، في عام ١٦١٧ ، خلفه أخوه مصطفى الأول لأن أبناءه كانوا صغارا • وصدر فرمان (مرسوم) آنذاك يقضي بأن تعطى السلطنة لأكبر الأعضاء الذكور

سنا في أسرة عثمان . وقد قلل هذا كثيرا من نصيب الأبن في تولي السلطنة بعد أبيه .

ويلاحظ أن الحكام العثمانيين ، منذ بداية امارة عثمان وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، كانوا أقوياء ، بصورة عامة ، كما اقتضت الظروف التي مرت بهم والفتوحات التي قاموا بها . ثم مالوا نحو الضعف ، في أعقاب توقف الفتوحات ، ولم يظهر في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني ومجيء السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) ، من استحق الشهرة سوى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) الذي ارتفع الى مستوى المسؤولية الكبرى الملقاة عليه .فاستعاد بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٩ ، وكان قد قضى على الأمير فخر الدين المعني الثاني في عام ١٦٣٥ .

ونتج من توقف الفتوحات العثمانية ، وتحول الانكشارية بالتالي من ارهاب الأعداء الى ارهاب السلاطين والسكان ، وقيام دول أوربية قوية تعارض العثمانيين ، أن انقطع السلاطين الى حياة القصر (حياة الحريم) بما فيها من متعة ، وايضا بما فيها من مؤامرات ، وتركوا تصريف شؤون الدولة الى الصدر الأعظم .

وكان الصدر الأعظم ، حتى فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، يعين من المسلمين الأحرار ، وبخاصة من أسرة جندرلي . ثم أصبح يعين من نتاج الدفشرمه، وضمن السلطان بذلك ولاءه وطاعته . وبازدياد مسؤولياته ، في أعقاب انقطاع السلطان الى القصر ، أصبح له مقر خاص ، في عام ١٦٥٤ عرف بالباب العالي حيث صرف شؤون الدولة ، التي كانت قبلا تتم في قصر السلطان . وبالتدريج أطلق اسم المكان على ساكنه .

واستفاد أيضا من انقطاع السلطان الى حياة القصر المسؤول عن أمور الحريم ، وهو الكزلار آغا (من Kiz التركية وتعني فتاة)، وكان له مساعدون من الخصيان الطواشية . وقد أتي بالقسم الأكبر منهم ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من القفقاس . وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥) أصبح المخصيان السود اليد العليا في الدولة ، وكان يؤتى بهم من السودان ، بطريق مصر . ونظرا لازدياد نفوذ الكزلارآغا فقد دخل في صراع على السلطة مع الصدر

الأعظم • وهكذا أصبحت السلطة ثنائية في استانبول وانعكس أثر ذلك في الولايات •

ويمثل السلطة العثمانية في مركز كل ولاية حاكم يلقب عادة بالباشا وهذا اختصار لكلمة باديشاه الفارسية • وكانت رتبته في البدء بيلربي ، أي بك البكوات ، أو والي ، وعلامة رتبته طوخان (ذنبا حصان) ، يعلقان على الراية أمامه • وهي عادة قبيلة قديمة • وحين منح لقب وزير الى كثيرين من أصحاب الحظوة ، وعينوا على الولايات علق على راية كل منهم ثلاثة أطواخ •

وتقسم بعض الولايات الى اقسام ادارية أصغر ، تعرف بالصنجق ، ويعرف حاكمها بالصنجق بك ، أي أمير اللواء • وتعني كلمة الصنجق التركية الراية أو اللواء ، وأطلقت على المنطقة التي يحكمها الصنجق بك ، والذي يعلق على رايته عادة طوخ واحد • وفي بداية الامارة العثمانية كان الصنجق الوحدة الادارية الاساسية ، ثم باتساع الدولة ، جمعت عدة صناجق لتشكل ولاية أو ايالة ، يرئسها بك البكوات ، اي بك الصناجق (يشار اليه أيضا بالجمع الفارسي مير ميران ، المحرفة من أمير أميران) • وفي مصر أطلق على الوحدة الادارية (الصنجق) تعبير كشوفية ، وعلى حاكمها تعبير كاشف ، وهي استمرار للمصطلحات المملوكية ، بينما استخدم تعبير صنجق فيها للدلالة على رتبة ، وليس على منصب • وينوب عن الوالي ، أثناء غيابه ، المتسلم (في مصر يشار اليه غالبا بلقب قائم مقام) ، ويطلق على النائب الذي يتسلم الحكم بين عزل الوالي وتولية آخر لقب متسلم مابين ، ويعينه عادة الوالي الجديد •

ومن المؤسسات العثمانية الرئيسية الدفترخانة التي تعنى بشؤون المالية • والجدير بالذكر أن اراضي الدولة ، التي عرفت عادة باسم الأراضي الأميرية ، أو الميرية ، نسبة الى أمير ، كان يوزع قسم منها على شكل اقطاعات ، بينما تجبى ضرائب القسم الآخر بواسطة الملتزمين •

وكانت الاقطاعات على ثلاثة أنواع : التيمار ، ويعطي واردا سنويا أقصاه ١٩٫٩٩٩ اقجة (وحدة النقد العثمانية الفضية ،وتسمى أيضا اسبر) والزعامت

ويتراوح دخله بين ٢٠٫٠٠٠ و ٩٩٫٩٩٩ أقجة ثم اقطاع الخاص ويزيد دخله على مائة ألف اقجة . وقد أعطيت التيمارات للجند السباهية (الفرسان) ، ليعيشوا منها ، ويجندوا آخرين من واردها . ومنحت الزعامت لضباط السباهية وكبار الموظفين ، بينما منح الاقطاع الخاص الى أفراد الأسرة الحاكمة والمقربين اليهم . كما الحق ببعض المناصب الادارية لينفق أصحاب هذه المناصب من وارداته . وفي عهد السلطان سليمان القانوني احتكرت سلطات استانبول حق منح الاقطاعات (وكان قبلا يتصرف به الولاة) ، الا في حالات قليلة ، حين يكون الاقطاع صغيرا أي يقل دخله عن ستة آلاف أقجة ، فيخول ذلك الى الوالي . ويتمتع صاحب الاقطاع به مدى الحياة ، لأن الاقطاع لا يورث ، بل يعود الى الدولة في حالة وفاة صاحبه . ويرئس الدفتر خانة ، التي تعنى بشؤون الاقطاع ، الدفتر اميني ، ويساعده موظفان : واحد يعنى بأمور التيمار ، ويسمى دفتر دار التيمار وآخر يعنى بأمور الزعامت ويسمى كاخيا الدفتر . وبانحطاط الاقطاعات وأصحابها، وبخاصة الجنود السباهية ، انحطت هذه الدائرة ، ودمج كثير من وظائفها في يد موظف واحد .

وبالمقابل ازدادت أهمية الدائرة التي تعنى بالشؤون المالية ، أي حساب واردات ومصروفات الدولة ، وتسمى الدفتردارية ، ويرئسها الدفتر دار . وفي البدء كان هناك دفتر داران في الدولة العثمانية : واحد في الأناضول وآخر في روميلية . وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني نجد هناك دفتر داريا واحدا لولايات بلاد الشام والعراق مركزه حلب ، ولقب بدفتردار عرب وعجم . ثم أقيم دفتر دار خاص بكل ولاية ، نظرا لتشعب الأمور المالية فيها . ويعطى حق جمع الضرائب الى أشخاص يسمون مقاطعجية ، نسبة الى مقاطعة ، أو ملتزمين . وكانت مدة الالتزام في الأساس ، سنة واحدة ، واشترط على الملتزم عدم تحصيل أكثر من النسبة المعينة . ولكن بانحطاط الدولة أصبح الملتزمون يستغلون مناصبهم ويجمعون أكثر من المبالغ القانونية ، ويسيئون بذلك الى الفلاحين والى اقتصاد الريف بصورة عامة . وبلغ من ازدياد سلطة بعض الملتزمين ، ازاء ضعف الدولة ، أن احتكروا الالتزام عدة سنوات ، وأورثه بعضهم الى ابنائهم

من بعدهم • واصبحت غالبية الملتزمين تتمتع بسلطة سياسية ، ولا ادل على ذلك من ظاهر العمر ، في فلسطين ، في القرن الثامن عشر •

ويرئس الملتزمين موظف يسمى المحصل ، وهو مسؤول عن جمع الضرائب منهم • وكان منصب المحصل ، في بعض الاحيان ، مندمجا مع منصب الوالي في الولاية ، كما كان الأمر في ولاية الشام مثلا ، أو منفصلا عنه ، كما في ولاية حلب • وحين كان الوالي هو المحصل استخدم قوات الولاية لجمع مال الالتزام من الملتزمين • واضطر ، تبعا لذلك ، الى الاصطدام أحيانا مع الملتزمين المتمردين ، كما حدث مثلا في القتال الذي جرى بين والي الشام سليمان باشا العظم وظاهر العمر ، في الربع الثاني من القرن الثامن عشر • وعملت الدولة ، من ناحيتها ، على تخليص الفلاحين من ظلم الملتزمين ، الذين حاولوا ابتزاز أكبر مقدار من المال قبل عزلهم عن الالتزام ، فاحدثت في أواخر القرن السابع عشر ، نظام المالكانة ، الذي منح الالتزام مدى الحياة • وهذا يعني أن صاحب المالكانة لم يعد مهددا دائما بالعزل ، وبالتالي لم يعد مضطرا للاسراع في ابتزاز مال الفلاحين • وقد حد هذا النظام من الاستغلال وان لم يكن قد استأصله •

وكان الجند الاقطاعيون السباهية ، من أصحاب التيمارات ، من أقدم أنواع الجنود في الدولة العثمانية • وكان لهم مصلحة في دوام الاقطاعات وبالتالي استمرار الحكم العثماني ، الذي منحهم اياها • وقد ضم السباهية خليطا من الأجناس من أتراك وعرب واكراد ، وكان يرئسهم ضابط برتبة الآي بك ، ويختار من قبل أصحاب الاقطاعات ، ويعطى اقطاعا من درجة زعامت ، وقد وجد في الولايات التي وجد فيها الاقطاع ، مثل ولايات الشام • أما ولاية مصر ، مثلا ، فلم توجد فيها اقطاعات ، خوفا من تسلط المماليك عليها وعودتهم الى النفوذ من جديد ، ولذلك لم توجد فيها قوات اقطاعية • وقد أعطى موظفوها وجنودها المرتبات ، ولهذا عرفت بأنها ولاية من نوع ساليانلي •

وبانحطاط الجند الاقطاعي ، الذي تمسك بالأرض أكثر من تمسكه بالحرب ، فلجأ الى دفع مال البدل عوضا من الخدمة العسكرية ، ازداد الاعتماد على الانكشارية • وقد ترأس هؤلاء في استنابول آغا الانكشارية الذي كان مسؤولا

عن تعيين آغا الحامية الانكشارية في مركز ولاية • وكانت هذه الحامية تقيم في القلعة عادة ،ويعهد اليها بحراسة اسوار وأبواب المدينة ، كما يعهد لها في بعض الأحيان ، الاشتراك في حملات الوالي المحلية أو حملات السلطان في الجبهات الرئيســة •

وقد قسمت الانكشارية ، في الدولة العثمانية ، الى ١٩٦ فرقة ، تسمى احداها أورطة • ولما كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة ، تسمى بالتركية أوضة ، فقد استخدمت هذه الكلمة كبديل عن أورطة • ويختلف عدد أفراد الأورطة حسب المكان والزمان والحالة السياسية • ويتراوح ، في مختلف هذه الحالات ، بين خمسين وخمسمائة • والحقت الطريقة البكطاشية بالأورطة التاسعة والتسعين[١٢] •

وحين فسد نظام الانكشارية ، وأهملت الدفشرمة ، ثم ألغيت ، وأصبح بامكان السكان المحليين دخول هــذا الجيش ، حدث شبه اندماج ، بين الانكشارية والسكان المحليين ، عن طريق التزاوج ، أو عن طريق انتساب الانكشارية الى أصحاب الحرف ، وبالعكس ، ليستفيد كل فريق من الآخر • وبازديار انتساب السكان المحليين الى الفرق الانكشارية في الولاية للتمتع بامتيازاتها ، غلب الطابع المحلي على الانكشارية حتى أصبحوا يعرفون ، في بعض الولايات ، كما هو الحال في ولاية الشام باسم يرلية ، من التركية Yer ، وتعني المحل • واضطر السلطان ، في كثير من الأحيان ازاء اندماج الانكشارية بالسكان المحليين ، وعملهم لمصلحتهم قبل مصلحة الدولة ، أن يرسل فرقا جديدة لتسلم المسؤوليات الرسمية من اليرلية ، وتكون أكثر خضوعا للسلطان • ومن ذلك أرساله في عام ١٦٥٩ ، فرقة الانكشارية القابي قول (عبيد السلطان) الى دمشق لموازنة الانكشارية اليرلية كما سنرى في بحث لاحق •

والى جـانب السباهية والانكشارية وجـد الجند الخاص أو المرتزقة ، واستخدمهم حكام الولايات ، بصورة خاصة ، وكانت نفقاتهم تدفع عادة من واردات الولاية • وقد ازداد اعتماد الولاة على الجند المرتزقة بازدياد الفوضى وانعدام النظام في صفوف السباهية والانكشارية ، وبخاصة في القرن الثامن عشر • ولم يكن الولاة وحـدهم الذين استخدموا هـؤلاء الجند المرتزقة ، بل

نجد بعض الامراء المحليين ، مثل فخر الدين المعني الثاني وعلي باشا جانبلاط ، وحتى بعض الملتزمين ، الذين اصبحوا أمراء محليين مثل ظاهر العمر ، يحتفظون بمثل هذه القوات لتدعيم سلطتهم ضد الاعداء ، وبخاصة ضد حكام الولايات التابعين لها .

واختلفت أنواع الجند المرتزقة باختلاف الزمان والمكان ، واقدمهم السكبان . وهذه الكلمة فارسية الاصل تتألف من مقطعين : سك وتعني الكلب ، وبان وتعني الصاحب أو الحامي ، وتعنيان معا الكلابي ، أي الذي يقود الكلاب ، ويسير مع الأمير الى الصيد . وبالتدريج اطلقت هذه الكلمة على من كان موصوفا بالبطالة . وقد أطلق هـــذا التعبير على الجنود الذين استأجرهم الولاة العثمانيون ، أو السلاطين ، في القرن الخامس عشر وسلحوهم بالبنادق . وأشتهر السكبان في القرن السادس عشر كرديف للجيش العثماني ، وعدوا ، مع الانكشارية ، أقوى عناصره . وكانوا يتقاضون المرتبات في أوقات الحرب فقط . أما في أوقات السلم فكانوا يهيمون في الأناضول يبيعون خدماتهم لمن يطلبها . واستغلهم الثائرون ، المعروفون بالجلالية ، لتوطيد سلطتهم ، ومن بين هؤلاء آل جانبلاط في منطقة كلس ــ حلب ، وكان زعيمهم علي باشا جانبلاط حليفا لفخر الدين المعني الثاني ، أمير الشوف في جبل لبنان ، الذي استخدمهم هو الآخر في الثورة على العثمانيين .

ولم يعتمد الولاة في بلاد الشام ومصر ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر على الجند المرتزقة بشكل ملحوظ ، بسبب قوة سلطة الولاة نسبيا ، وبسبب عدم وجود متطلبات محلية تستدعي ذلك . وقد ازداد الاعتماد على هذه القوات في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، بسبب ماحدث من اضطرابات بين فرقتي اليرليه والقابي قول ، وبسبب تكليف ولاة دمشق بامارة الحج باستمرار ، منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر ، مما اقتضى استخدام قوات اضافية لحماية الحجاج . وعلى عكس الوضع في بلاد الشام ، حيث الظروف مناسبة والحاجة ملحة للجند المرتزقة فان الجنود المرتزقة لم يلعبوا في ولاية مصر العثمانية في القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني ، دورا هاما كالدور الذي لعبوه في بلاد الشام ، ولم تكن أنواعهم متعددة في مصر كما في هذه البلاد . ويمكن ارجاع ذلك الى طبيعة

تكوين مختلف القوات العسكرية في مصر ، فالطوائف العسكرية السبع في مصر كانت كافية نسبيا للمحافظة على الأمن • وكان الحاكم في مصر ، اذا ما ثارت أو تمردت طائفة ما يلجأ الى الطوائف الأخرى لكبحها • وحين ضعفت الادارة العثمانية وانحطت بالتالي سلطة الولاة ، في القرن الثامن عشر ، لم يعتمد ولاة مصر على الجند المرتزقة لموازنة القوى العسكرية كما حدث في بلاد الشام آنذاك ، بل ظهرت قوة جديدة قامت بهذا العمل عوضا من الولاة ، وهي طائفة المماليك التي كانت توطد قوتها منذ القرن السادس عشر ، وطغت على سلطة الولاة وعلى سلطة الطوائف العسكرية العثمانية الأخرى •

واشتهر من الجند المرتزقة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر كل من اللاوند ، والدالاتية ، والمغاربة ، والتفنكجية • وقد اشتهر اللاوند في الأناضول ، منذ عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١١) • والتسمية مشتقة من كلمة (Levantino) التي اطلقها سكان البندقية على البحارة الذين خدموا في اسطولهم ، وكانوا من أصل شرقي ، من سواحل آسيا الصغرى • واستعيرت هذه التسمية لبحارة الاسطول العثماني ، وحورت الى لاوند • وقد تمرد اللاوند ، أثناء خدمتهم في الاسطول ، فاستبدلوا بنوع جديد من البحارة عرفوا بالعزب ، في عهد بايزيد الثاني ، وانساح اللاوند المسرحون في الأناضول وبلاد الشام يبيعون خدماتهم لمن يطلبها • وبقيت التسمية قائمة رغم اختلاف اجناس العناصر التي اتخذتها ، كالأكراد والتركمان •

أما الدالاتية فتسميتهم مشتقة من كلمة (Deli) التركية ، وتعني الاحمق أو المجنون ، ودعوا بذلك نظرا لطيشهم ، وجندوا من أجناس مختلفة من الأناضول • وكان المغاربة عادة من أصل مغربي ، من شمال أفريقية • وقد أتوا الى بلاد الشام ومصر بطريق القرصنة ، أو الحج ، أو المجاورة (قرب الأماكن المقدسة) ، واستخدموا كمرتزقة في البلدين • وقد وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق ، في القرن الثامن عشر ، منتسبة الى المناطق الجغرافية التي قدمت منها ، وهي : الفاسية ، والجزائرية ، والسوسية ، والتونسية ، والطرابلسية ، والدراوية ، والمراكشية ، ويرئس كلا منها شيخ يرعى شؤونها ، ويرئس الجميع شيخ المشايخ •

أما التفنكجية فنسبتهم مشتقة من (تفنكة) أي بندقية ، نظرا لكونهم من المشاة حاملي البنادق ، وكانت عناصرهم من أصل محلي • فالتفنكجية مثلا ، الذين استخدموا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر كانوا في أكثريتهم من أصل موصلي أو بغدادي ، وغالبا ماعملوا كشرطة •

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهبا رسميا للدولة • ولعب المفتون في استانبول وفي مراكز الولايات ، دورا هاما في مختلف المجالات • وكانت الاولوية ، في بدء عهد الدولة العثمانية لقاضي العسكر ، الذي رافق الجيش المحارب ، ثم أصبح المفتي رئيس العلماء ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، ولقب بشيخ الاسلام ، نظرا للدور الذي لعبه في التوفيق بين القوانين التي أصدرها السلطان سليمان (ومن هنا لقبه بالقانوني) والشريعة • وكان يحق لمفتي استانبول أصدار فتوى بعزل السلطان نفسه • كما أنه هو الذي عين المفتين في مراكز الولايات • أما المذاهب الأخرى فقد اختار أفرادها مفتيها من بينهم ، وغالبا ما شغل المفتي منصبه حتى نهاية حياته •

وكانت الاولوية بين القضاة للقاضي الحنفي ، على خلاف ماكان عليه الوضع في السلطنة المملوكية حين اعترف بقضاة المذاهب الاربعة • ويعين القاضي الحنفي في مراكز الولايات العربية ، من قبل قاضي عسكر الأناضول في استانبول ، ويبقى في منصبه عادة لعام واحد بسبب وجود كثرة من المرشحين لهذا المنصب • وقد يمدد العام ، كما يمكن للقاضي أن يعين أكثر من مرة للمنصب ذاته • وعلى خلاف المفتين الذين عينوا جزئيا ، في القرن السابع عشر ، من بين السكان المحليين ، وكليا ، في القرن الثامن عشر ، من بينهم ، فقد كان القضاة الحنفيون بمجموعهم تقريبا من الأروام ، أي سكان الاناضول وروميلية • وكان قاضي دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام ، وعد في مستوى قاضي مصر ، لكون البلدين عاصمتين سابقتين للخلافة • وقد لقب بلقب قاضي القضاة ، وأحيانا بلقب ملا ، وتذكر أحيانا منلا ، والكلمتان مشتقتان من كلمة مولى العربية وتعني السيد • وأقام قاضي دمشق في المحكمة الرئيسة التي سميت عادة بمحكمة الباب ، وله نواب يصرفون شؤون

القضاة في المحاكم الفرعية في الأحياء • وناب عن القاضي الحنفي ، بين عزله وتعيين خلفه ، نائب عرف بنائب مابين •

وهناك منصب نقيب الاشراف في مركز الولاية . ويعين من قبل نقيب الاشراف في استانبول ، ويشرف على شؤون الاشراف المختلفة • وعلى غرار المفتي ، فقد استمر نقيب الاشراف في منصبه فترة طويلة ، وعين من بين السكان المحليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر •

ولم يقتصر الاشراف على مذهب معين ، ولا على طبقة اجتماعية معينة ، وقد وجد بينهم أناس من مختلف المهن والمراتب ، وان العلاقة القوية التي وجدت بين أصحاب الحرف والأشراف ، نظرا لوجود كثير من الأشراف بين الحرفيين أفادت الاشراف من ناحيتي التنظيم والقوة ، ودعمهم أصحاب الحرف ، وهم عادة ذوو سلطة سياسية • ولقد لعب الاشراف دورا سياسيا هاما ، وبخاصة في ولاية حلب ، حيث عارضوا الانكشارية • ويبدو أن اشتهار أشراف حلب سياسيا سببه كونهم الطائفة الوحيدة التي امكن للسكان المحليين أن يعبروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وأن يقاوموا ظلم الانكشارية • ويمكننا تفسير هذا الأمر بأن قرب حلب من مركز العثمانيين ، ووقوعها في متناول قواتهم قد أبقى الجنود الانكشاريين فيها أكثر مناعة تجاه محاولات السكان المحليين في الانضمام اليهم ، على عكس ماحدث في ولاية الشام حيث تحولت الفرق الانكشارية الى يرلية ، نتيجة التحاق السكان المحليين بها ، وكذلك بمثابة متنفس لهؤلاء السكان عبروا بواسطته عن قوتهم ، في عهد ضعف الدولة • ومثلما وقف يرلية دمشق يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم التابي قول ، وقف اشراف حلب يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم الانكشارية • ونتج من ازدياد نفوذ الاشراف في حلب وحاجة رؤسائهم للدعم المحلي ان حدث كثير من اساءة الاستعمال بالنسبة لامتيازات الاشراف ، مما جعل نقيب الأشراف يوجه عدة مذكرات الى القضاة المحليين لوضع حد لذلك •

★ ★ ★

١ ـ انظر :

Bernard Lewis, **The Arabs In History**, Hutchinson's University Library, London, 1968, PP. 146 - 148.

٢ ـ انظر : محمد بن محمد أبي السرور البكري الصديقي، عيون الاخبار ونزهة الابصار ، مخطوط في دار الكتب المصرية ، رقم ٧٢ م ، الاوراق ١٣٨ ب ـ ١٣٩ آ .

٣ ـ انظر حول تركيب الجيش المملوكي وعوامل انهياره كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨) ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ـ٢٤ .

٤ ـ انظر : أحمد بن زنبل الرمال ، (تاريخ مصر) ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا، رقم Cod - Arab- 411 ، الورقة ٤٦ آ .

٥ ـ انظر ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري تحت عنوان بغداد في الموسوعة الاسلامية في طبعتها الجديدة . **Encyclopaedia of Islam**, new edition (E.I.2)

وانظر أيضا :

B. Spuler, « The Disintegration of the Caliphate in the East», **The Cambridge History of Islam,2** vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, vol. I, PP. 150 ff.

٦ ـ انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ أجزاء ، بغداد ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦ ـ ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ ، جـ ٣ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٢ .

٧ ـ انظر :

G. Rentz, **E. I.2,** s.v. Djazirat al-'Arab.

٨ ـ انظر :

P.M. Holt, **A Modern History of the Sudan,** London, 1961, PP. 3-19.

٩ ـ انظر :

P. Wittek, **The Rise of the Ottoman Empire**, London, 1938, PP. 6-15.

١٠ ـ انظر حول هذه الاحداث :

Claude Cahen, «La Campagne de Mantzikert d'après les. Sources Musulmans», **Byzantion,** IX (1943), **Pre-Ottoman Turkey,** London, 1968; Osman Turan, « Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks», Halil Inalcik, « The Emergence of the Ottomans», **The Cambridge History of Islam,** vol. I.

١١ ـ انظر :

Halil Inalcik, «Ottoman Methods of Conquest», **Stvdia Islamica,** II (1954).

١٢ ـ انظر حول تفاصيل الادارة العثمانية :

H.A.R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West,** vol. I in 2 parts, London, 1951, 1957

الفصل الثاني

السيطرة العثمانية في الاقطار العربية
في القرن السادس عشر

الفتح العثماني

تمهيد

وجدت ، في الربع الأول من القرن السادس عشر ، ثلاث قوى ، تجابه الواحدة الأخرى ، في منطقة الشرق الادنى : الامبراطورية العثمانية ، والسلطنة المملوكية والدولة الصفوية . وقد حدث الاصطدام الأول بين العثمانيين والصفويين ، وبنتيجته خرج الصفويون من ميدان السباق الى السيطرة والنفوذ في المنطقة العربية والأناضول . وكان الصفويون ، في عهد الشاه اسماعيل ، قد هزموا امارة الحمل الأبيض . وأصبحوا أكبر امارة تركمانية ، تمتد من هراة في الشرق الى بغداد وديار بكر في الغرب وعاصمتها تبريز . وقد أثارت هذه الامارة مخاوف العثمانيين بسبب دخولها الصراع على النفوذ حول امارة البستان ، واتصالها بالاوروبيين ، في محاولة لايجاد الحلفاء ، وأهم من ذلك كله كونها تتبنى المذهب الشيعي ، وتحاول أن تنشره بحماس بين القبائل التركمانية ضمن الأراضي العثمانية في شرقي الأناضول . وكانت هذه القبائل تعارض التنظيمات العثمانية التي سلبتها استقلالها الذاتي . وفي أكثر من مناسبة اعتدى التركمان على الموظفين العثمانيين ، الذين حاولوا القيام بالاحصاء بينهم . وكان الحد من غزوات التركمان في الريف وبالتالي حماية الفلاح والزراعة منهم ، واجبا أساسيا للدولة العثمانية التي يقوم اقتصادها على الزراعة . وزاد في الامر أن التركمان اظهروا تعلقا بالطرق الصوفية

التي تدعو الى تعاليم وطقوس تتفق مع حياتهم ، ومن هنا تجلت كثرة انتشار الطرق الصوفية بين التركمان ، وبخاصة في أواسط آسيا ، منذ القرن الثالث عشر • وفي الواقع أخذت القبائل التركمانية في شرقي الاناضول تتجاوب مع دعوة الشاه اسماعيل الصوفية الشيعية ، لأنه تركماني مثلها • وقامت في عام ١٥١١ ثورة بين تركمان الأناضول ، بقيادة رجل عرف بلقب شاه قولي (عبد الشاه) ، وفي بعض المصادر بلقب شيطان قولي • وقد أعلن ولاءه للشاه الصفوي ، وتكاثر اتباعه ، واحتل كوتاهية ، وحاصر بورصة ، مما اضطر السلطان العثماني الى أرسال قوات قضت عليه • وكان ذلك نذيرا للعثمانيين بالخطر الذي يمثله الشاه اسماعيل بالنسبة لسكان الامبراطورية العثمانية بالذات •

وازدادت العلاقات العثمانية ـ الصفوية تأزما ، في مطلع عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) ، حين ثار عليه بعض اخوته الطامعين في الحكم • فلجأ أحمد ابن أخيه الثائر ، الى الشاه اسماعيل ، الذي استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم • وسار هذا الأخير لقتال الصفويين ، وهزمهم في موقعة جالديران ، قرب تبريز ، في ٢٣ آب ١٥١٤ ، واحتل عاصمتهم تبريز ، وذكر أسمه في الخطبة في جوامعها • واتضحت بنتيجة هذه المعركة ثلاث نقاط رئيسة : أولا ، فعالية بندق الرصاص والمدفعية التي استخدمها العثمانيون ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان • وكان ذلك حاسما في تاريخ المنطقة ، بخاصة بعد أن انتصر هذا السلاح ، بعد سنتين على المماليك ، ثانيا ، ضم الأناضول الشرقية نهائيا الى الامبراطورية العثمانية ، واحتلال ديار بكر ، ومنطقة مرعش في عام ١٥١٥ ، من أيدي زعماء التركمان ، وكان لذلك فوائد استراتيجية واقتصادية هامة ، فقد حمت الهضبة الاناضولية في الشرق الدولة العثمانية من الغزاة القادمين من أواسط آسيا ، كما سيطر العثمانيون ، نتيجة لذلك ، على طرق نقل الحرير الفارسي ، بين تبريز وحلب ، وبين تبريز وبورصة وقدرت واردات ولاية ديار بكر في عام ١٥٢٨ بثمن واردات البلقان بكامله ، ثالثا ، الحاجة الى اعادة تنظيم الجيش والادارة في الدولة الصفوية ، بعد أن وهنت العلاقة السياسية بين الشاه والقبائل التركمانية المعروفة بالقزلباش ، وكذلك العلاقة

الصوفية بينه كمرشد أكبر ، وبينهم كمريدين • وقد شغل ذلك الصفويين طوال القرن السادس عشر مما مكن العثمانيين من احتلال العراق دون معارضة صفوية تذكر • ولم يتابع العثمانيون ، بعد احتلالهم تبريز ، التوغل في الأراضي الصفوية لأسباب متعددة منها صعوبة اختراق الهضبة الفارسية ، والقحط في المنطقة بسبب سياسة « الأرض المحروقة » التي اتبعها الشاه الصفوي بعد انسحابه ، اذ اتلف كل ما يمكن ان يفيد منه العدو ، وهذه سياسة اتبعها الصفويون باستمرار • ويذكر أن الشاه طهماسب الأول (١٥٢٣ ــ ١٥٨٨) ازاء الصعوبات الداخلية في بلده ، جعل سياسته الدفاعية مبنية على الابقاء على مناطق الحدود في اذربيجان جرداء باستمرار في وجه العثمانيين • وقد تمرد الانكشارية أيضا على فكرة متابعة الهجوم • وفي الواقع ، لم يكن هدف العثمانيين اشغال قواتهم في فتوحات غير ضرورية استراتيجيا وسياسيا وتجاوز السلطنة المملوكية الهامة وتركها تهدد مؤخرتهم • وقد قام العثمانيون باحتلال الموصل في طريق عودتهم •

وقد بددت هزيمة جالديران أسطورة الشاه المرشد الأكبر ، الذي لايقهر ففقد احترام اتباعه ومريديه ، الذين لم يعودوا يقدمون له طاعة عمياء كالسابق واحتاج الى مقدرة كبيرة لاخضاع جنوده لأوامره ، ولجأ الى استجداء محبتهم وعواطفهم نحوه • وفي السنوات العشر التالية لم يقد الشاه عباس جنوده الى أية معركة ، بل انصرف الى الصيد أو الى الخمرة لتبديد حزنه ، وفقد تعبير الصوفي كثيرا من أهميته على توالي الزمن • وازاء فقدان الشاه اسماعيل لكثير من نفوذه فقد ازدادت ، بالمقابل ، سلطة زعماء القبائل التركمانية وكبار الموظفين في البيروقراطية الفارسية • وخلال عام من وفاة الشاه اسماعيل في ١٥٢٤ ، نشبت حرب أهلية بين قبائل القزلباش المتنافسة على السلطة ، ولم يتمكن الشاه طهماسب الأول ، وله من العمر عشر سنوات حين خلف اباه اسماعيل ، من السيطرة على الأمور • وأدرك الصفويون أنه ، لتوطيد سلطتهم في وجه التركمان المعارضين والاعداء الخارجيين ، يجب التخلي عن الجيش القبلي ، وايجاد قوات جديدة وبدأ ذلك في عهد طهماسب الأول ، الذي طرد افراد القبائل المتمردة من الجيش وبدأ بادخال عناصر كرجية وشركسية مكانها • وساعده على ذلك قيام سلم بينه وبين العثمانيين دام ثلاثين عاما ،

بموجب معاهدة أماسيا في عام ١٥٥٥ • وبلغت عملية تحديث الجيش أوجها في عهد الشاه عباس الأول (١٥٧٨ — ١٦٢٩) الذي انقص عدد جنود القبائل الى حد كبير ، وأوجد جنودا من العبيد مزودين بالاسلحة النارية ، ويدينون بالولاء للحكومة المركزية • وكان يؤتى بالقائم الأكبر من هؤلاء الجنود الجدد من مناطق جيورجيا والقفقاس ويدربون في مدارس خاصة • واستعادت بذلك الدولة الصفوية ، كثيرا من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطداماتها في القرن السابع عشر ، مع الدولة العثمانية ، في مناطق الحدود • (١)

فتح بلاد الشام ومصر

منذ أن احتل العثمانيون القسطنطينية ازداد اهتمامهم بالسلطنة المملوكية ، واتخذ ذلك مظهر العداء أو الدعم حسب الظروف • وحدث بين الطرفين صراع على النفوذ حول امارة البستان ، التي امتدت على الفرات الأعلى بين مرعش وملاطية ، وهي واحدة من عدة امارات تركمانية (مثل الحمل الأسود والحمل الأبيض) ، نشأت في مناطق الثغور بسبب تجمع التركمان فيها ، وسميت هذه الامارة (بألبستان) نسبة الى عاصمتها ودعيت كذلك بامارة ذي القدر ، أو القدرية ، على أسم اسرة تركمانية حكمتها في الفترة بين حوالي ١٣١٣—١٥٢٢ حين احتلها العثمانيون • وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الامارة العازلة بين منطقتيهما ، فأيد كل منهما أميرا تركمانيا ، ومارس النفوذ من خلاله • ونتج من هذا اقتتال بين افراد الأسرة الحاكمة في امارة ألبستان ، وتأزم في العلاقات المملوكية العثمانية •

ومما زاد هذه العلاقات سوءا ايواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين ، مثل الامير جم ، ابن السلطان محمد الثاني ، الذي ثار على أخيه بايزيد ، حين خلف أباه في السلطنة في عام ١٤٨١ • وقد لجأ جم الى المماليك ، وأيده سلطانهم قايتباي ، ولكن جم هزم ، ولجأ الى أوروبا حيث توفي عام ١٤٩٥ •

واتجهت العلاقات العثمانية المملوكية نحو التحسن ، في العقد الاول من القرن السادس عشر ، بسبب تهديد البرتغاليين والصفويين لكل من الدولتين • وقد أدى

تدخل البرتغاليين في البحر الأحمر ، في هذه الفترة ، الى طلب المماليك الدعم من العثمانيين ، وارسل هؤلاء الى المماليك ثلاثين سفينة ، تحمل ثلاثمائة مدفـع ، وأخشابا • ولكن فرسان القديس يوحنا في رودوس استولوا عليها • وفي عام ١٥١١ نجح العثمانيون بايصال أربعمائة مدفع وأربعين قنطار (قرابة طنين) من البارود الى المماليك • كما ارسلوا قبيل عام ١٥١٢ عددا من ضباط البحرية الى مصر للاشراف على سفنها•وزود العثمانيون المماليك بالخشب والقطران والحديد لصناعة السفن • ويبدو أيضا أن قراصنة عثمانيين من غربي الأناضول قد استخدموا في الأسطول المملوكي[٢] • ويفسر هذا الدعم العثماني للمماليك بحرص العثمانيين على حماية مؤخرتهم في البلاد العربية من خطر برتغالي داهم ، مما يهدد استراتيجيتهم وحتى زعامتهم المنتظرة للعالم الاسلامي • كما أن صفة العثمانيين كغزاة ، يقاتلون اعداء الدين ، تحتم عليهم مقاومة البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز • ومن أجل هذا أوقف السلطان سليم العثماني ، كما فعل اسلافه من قبله ، الأوقاف في الأناضول للانفاق على الأماكن المقدسة ، وحظي مقابل ذلك باعتراف شريف مكة بحماية العثمانيين للأماكن المقدسة ، وتأكد ذلك بهزيمة المماليك على يـد العثمانيين •

والخطر الآخر الذي قرب ما بين العثمانيين والمماليك ، في القرن السادس عشر ، هو الخطر الصفوي • ففي عام ١٥٠٧ هاجم الشاه اسماعيل امارة البستان ، وأخضعها لنفوذه ، وبذلك دخل ميدان الصراع على النفوذ حول هذه الأمارة ، بعد أن كان ذلك مقتصرا على العثمانيين والمماليك • وقـد أثار تبني الصفويين المذهب الشيعي بصورة رسمية قلق جيرانهم ، من عثمانيين ومماليك ، بخاصة وأنهم حاولوا نشره بين القبائل التركمانية • وزاد في الامر محاولة الشاه اسماعيل ايجاد حلفاء له في أوروبا ، وعثور المماليك على مكاتبات بينه وبين البنادقة بهـذا المعنى ، مما يهدد مصالح العثمانيين والمماليك على حـد سواء • ولكن المماليك لم يدعموا العثمانيين ، حين هاجموا الصفويين وانتصروا عليهم في جالديران ، وذلك بسبب ضعفهم ، وأيضا بسبب خوفهم من ازدياد قوة العثمانيين • وفي الواقع حاول المماليك التفاهم مع الصفويين أثناء ذلك ، واستاء العثمانيون ، واتهموا

المماليك بالتعرض الى قوافل المؤن العثمانية المتجهة نحو الجبهة الصفوية • واشتكى المماليك بدورهم من تعرض العثمانيين لتجار المماليك ، الذين يأتون بالمماليك الشراكسة الى السلطنة المملوكية • وزاد في الامر رفض المماليك تسليم ابن أخ السلطان سليم الاول العثماني الذي لجأ اليهم ، وكان قد ثار عليه وهرب أولا الى الصفويين •

اصطدام الجيشان العثماني والمملوكي في ٢٣ آب ١٥١٦ في مرج دابق ، قرب حلب ، وهزم المماليك وتوفي السلطان قانصوه الغوري أثناء المعركة • ويعزى انتصار العثمانيين الى استخدامهم السلاح الناري اليدوي ، الذي لم يستخدمه المماليك • وقد حرص السلطان الغوري على سلامة مشترواته وتوفيرهم لحمايته فلم يدفع بهم الى القتال ، في حين رمى في لظى المعركة بالقرانصة من مماليك السلاطين السابقين ، فتقاعسوا عن القتال حين علموا بهذا التمييز • كما أن الخيانة انتشرت في صفوف المماليك ، وانتقل خاير بك ، والى حلب المملوكي ، الى جانب العثمانيين ابان القتال [٣] •

واتجه السلطان سليم نحو حلب يرافقه الخليفة العباسي المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله ، الذي كان بصحبة السلطان الغوري • ودخل حلب برضى اهلها ، الذين قاسوا من عساكر المماليك في السابق • وذكر اسم السلطان سليم في الخطبة في جوا مع حلب يوم الجمعة في ٨ شعبان ٩٢٢/٣ أيلول ١٥١٦ ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين • ثم سار العثمانيون باتجاه الجنوب ، فاحتلوا حماة وحمص ، ووصلوا دمشق ، التي عين عليها جان بردى الغزالي نائبا من قبل المماليك المنهزمين ، ولكنه هرب بدوره الى مصر • وقدم زعماء دمشق الخضوع للعثمانيين ، وكان على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة ونقيب الاشراف ونائب القلعة المملوكي • وحاول العثمانيون ادخال تنظيمات جديدة تتعلق بالتأكد من هوية أصحاب الوظائف الدينية ومستنداتهم ، وكذلك أصحاب الاقطاعات ومنشوراتهم ، وأجروا احصاء للسكان والممتلكات بغية فرض الضرائب عليها ، فأثار ذلك نقمة الدمشقيين • وكان السلطان سليم مقيما انذاك في برزة في ضواحي دمشق ، يراقب الامور ، فتدخل ، كمنقذ ، وألغى هذه الاجراءات • وعزل الوالي

العثماني يونس باشا الذي أمر بها ، كما أنه وزع المال على العلماء ٠ وزين ثوب المحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج الى الحجاز ، وزار قبر زعيم الصوفية محي الدين بن عربي في الصالحية ووزع المـال على أهلها وجلهم مـن العلماء والصوفية ، وذلك في محاولة منه لكسب التأييد الشعبي ٠ ورغم القوة العسكرية التي تمتع بها العثمانيون والتي أذهلت الدمشقيين ، حين أطلقت قواتهم المدافع في تظاهرة عسكرية في برزة ، فظن أهل دمشق « ان السماء انطبقت على الارض » فقد كان العثمانيون بحاجة الى التأييد الشعبي ، لأن الخطر المملوكي في مصـر ما زال قائما ، على الاقل في أذهان الناس [٤] ٠

ويبدو أن السلطان سليما لم يكن ، في هذه الأثناء ، مهتما كثيرا ، بفتح مصر ٠ لقد حطم امكان التحالف بين الصفويين والمماليك ، واحتل بلاد الشام ، وحصل على لقب حامي الحرمين الشريفين ، وفي كل هذا فوائد عسكرية ودينية كثيرة ٠ ثم انحملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز سيناء ، بما في ذلك تعرضه لهجمات البدو فيها ، وامتداد خطوط مواصلاته ٠ وكان المماليك يجمعون قواتهم في مصر برئاسة السلطان طومان باي ، الذي بايعه والد الخليفة العباسي المحتجز لدى العثمانيين ٠ ويضاف الى ذلك ان توجه العثمانيين الى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استغلال ذلك وتهديد مناطقهم ٠ كما أن احتلال العثمانيين لمصر ستترتب عليه مسؤوليات دفاعية كبيرة ، وبخاصة تجاه البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي ٠ ولهذه الاسباب عرض السلطان سليم ، وهو في دمشق ، على طومان باي البقاء في حكم مصر شريطة ان يذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكة ٠ ولكن طومان باي رفض عرض التبعية هذا ، بتحريض من أمراء المماليك ٠ وازاء هذا الرفض ، وبالحاح من خاير بك ، الذي خشي على حياته من بقاء السلطنة المملوكية ، وطمع في حكم مصر ، توجه السلطان سليم الى مصر ، وهزم المماليك في موقعة الريدانية في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ ٠ ودخل العثمانيون القاهرة ، وخطب للسلطان سليم في جوامعها ، ودار قتال في شوارعها بين العثمانيين والمماليك ، استمر ثلاثة أيام ٠وكان الخليفة العباسي بصحبة العثمانيين لاسباغ الشرعية ،أمام الشعب،على فتحهم ٠ولجأ طومان باي الى شيخ بدو البحيرة

حسن بن مرعي فسلمه الى العثمانيين ، فقتلوه وعلقوه على باب زويله في القاهرة ، في ١٣ نيسان ١٥١٧ ، وسيطر العثمانيون على مصر[٥] .

ومما يلاحظ على الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر أن العثمانيين لم يلقوا مقاومة تذكر في الأولى لان المماليك كانوا قلة في بلاد الشام ، لأن معظمهم قد هرب الى مصر في أعقاب هزيمة مرج دابق . كما أن الشعب لم يقاوم العثمانيين ولم يدافع في الوقت نفسه ، عن المماليك بسبب ظلمهم السابق له ، بل وقف كالمتفرج ، وهو يستبدل حاكما غير عربي بحاكم آخر غير عربي . أما في مصر ، حيث تمركز المماليك ، فقد قاوموا العثمانيين بعنف أكبر . وحاول كل من الفريقين كسب الشعب المصري الى جانبه ، فقد أعلن العثمانيون ، عند وصولهم بلبيس ، في طريقهم لقتال المماليك ، أنهم سيعاملون السكان المحليين ، بما في ذلك الفلاحين ، باللين ، في محاولة منهم للتفريق بينهم وبين المماليك . وبالمقابل ، اعلن طومان باي اسقاط الضرائب عن الفلاحين والبدو لمدة ثلاثة أعوام ، لكسب تأييدهم له . وفي الواقع ، كان موقف البدو ، المنتشرين في المناطق الاستراتيجية على الطريق الى بلادالشام ، وفي الدلتا والصعيد حاسما في تأييدهم للعثمانيين وتخليهم عن المماليك . واستخدم العثمانيون بعض أمراء البدو في قتال المماليك .

وشعر العثمانيون ، بعد سيطرتهم على مصر ، بحرية أكثر في التعامل مع السكان المحليين واعقبوا كل انتصار لهم باتخاذ اجراءات غير شعبية كانوا قد ترددوا في تنفيذها في السابق . فبعد انتصار الريدانية ، أرسل العثمانيون البشائر بذلك الى دمشق ، واعقبوها بابطال العملة القديمة واصدار عملة جديدة ، كما شددوا قبضتهم لضمان الأمن . وحين أرسل العثمانيون الى دمشق أنباء شنقهم طومان باي والقضاء على مقاومة المماليك ، اعقبوا ذلك باجراء آخر « غير شعبي » وهو تخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف فتضرر الدمشقيون كثيرا ، ولكنهم لم يجرأوا على الثورة . واتخذت اجراءات أمن مشددة لردع (الزعر) ، الذين نشطوا في دمشق في اعقاب الانباء المتضاربة عن مصير العثمانيين في مصر . ويمثل (الزعر) العنصر المحلي الذي قاوم المماليك والعثمانيين على حد سواء . وأقام العثمانيون (الخوازيق) في الحارات لارهاب الاهلين ، وأوعز الوالي والقاضي

والدفتردار في دمشق بتسجيل الممتلكات ، داخل المدينة وخارجها ، وبالتفتيش على المستندات المتعلقة بها لمعرفة التزوير فيها ، كما طلبت مستندات الأوقاف لتدقيقها .

وفي مصر استمرت الادارة المملوكية في أعقاب الفتح العثماني ، وأبقى كثير من الموظفين المماليك ، مثل اينال السيفي وجانم السيفي ، في مناصب الكشوفيات . وكذلك في امارة الحج والدفتردارية . واستمر شيخ قبيلة هوارة في امارة الصعيد. وبقي أصحاب الاقطاعات والأوقاف يتمتعون بامتيازاتهم . وأرسل السلطان سليم عددا من أصحاب الحرف والصنائع الى استانبول للمساهمة في نشاطاتها ، كما فعل سابقا حين احتل تبريز عاصمة الصفويين . ثم غادر السلطان سليم مصر في ١٠ أيلول ١٥١٧ ، بعد أن عين عليها واليا خاير بك المملوكي . وكان قد سبقه الى استانبول الخليفة العباسي المتوكل على الله ، بناء على أوامر السلطان سليم ، ولكنه عاد في أعقاب وفاة السلطان سليم الأول ، واستمر في الخلافة حتى وفاته في ١٢ شعبان ٩٥٧ / ٢٦ آب ١٥٥٠ .

وفي أعقاب عودة السلطان سليم الى دمشق من مصر أدخل اليها بعض التنظيمات ، فأمر بحصر البيوت ، وكتابة أسماء اصحابها ، وفرض عليهم ضريبة جماعية ، وزعت عليهم بشكل متفاوت ، حسب مراتبهم في الغنى والفقر ، وفرضت كذلك ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق .

وقد أبقى العثمانيون كثيرا من مظاهر الادارة المملوكية في بلاد الشام لفترة مؤقتة وذلك لدوام استمرار الأمور ، وعينوا جان بردى الغزالي ، والي حماة في عهد المماليك والذي انتقل الى صفوف العثمانيين عند فتحهم مصر ، واليا على دمشق . وأزالوا من السلطة بعض الأمراء الذين وقفوا الى جانب المماليك ، مثل التنوخيين أمراء جبل لبنان ، وأحلوا مكانهم المعنيين ، الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق . وطرد العثمانيون الامير البدوي ناصر الدين بن الحنش ، الذي سيطر على منطقة البقاع الغنية ، وبالتالي على الطريق الرئيسة التي تربط دمشق مع بيروت ، وعينوا مكانه الامير محمد بن قرقماس الشركسي ، ولكن آل الحنش

عادوا بعد ذلك الى حكم البقاع • وأبدى السلطان سليم اهتماما بسلامة قافلة الحج الشامي •

فتـح العـراق

كان طبيعيا ، بعد أن احتلت الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر أن تتطلع الى احتلال مركز الخلافة الآخر ، بغداد ، فتجمع بذلك بلاد المشرق العربي تحت سلطتها ، وتحـول دون محاولات الصفويين الاستيـلاء على العراق • وكان العثمانيون ، في أعقاب انتصارهم على الصفويين في جالديران عام ١٥١٤ ، قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حكاما من قبلهم عليها • كما هرع امراء أردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر ، لتقديم الولاء لهم • واقيمت حامية عثمانية قوية في ولاية وان • ونتيجة لهذا التوسع في النفوذ العثماني ، فقد ضعف الحكم الصفوي في بغداد وأصبح اسميا في العراق الأوسط بصورة عامة • واستغل هذا الضعف زعيم قبيلة كردية ، يدعى ذو الفقار ، وكان حاكما في أطراف لورستان ، فاغتال حاكم بغداد الصفوي ، وحل مكانه في عام ١٥٢٤ • ولكنه شعر بالعزلة والاخطار المحيطة ، فتحول وجهة استانبول ليكسب دعمهـا ، وذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكة •

وحاول الشاه طهماسب الاول الصفوي ، في عام ١٥٣٠ ، اعادة فرض سيطرته على بغداد ، لكن بدون جدوى ، الا أن الخيانة نجحت حيث فشل السلاح • وتوصل طهماسب الى تأليب شقيقي ذي الفقار ضده ، فقتلاه في عام ١٥٣٠ ، وانتهت بذلك وصاية استانبول على حاكم بغداد ، واخذ النفوذ الصفوي يتزايد فيها • وزاد في الأمران حاكم بتليس ، شرف خان ، قد خضع للنفوذ الصفوي ، بعد ان كان مواليا للعثمانيين • وبالمقابل ، لجأ حاكم تبريز الصفوي الى العثمانيين فبعثوا به لقتال شرف خان • ورغم هزيمة هذا الاخر ومقتله ، فقد كسب الشـاه طهماسب مناطق جديدة ، ووجب على السلطان العثماني ان يحـد من توسعه • واستاء العثمانيون أيضا مـن محاولة الشاه طهماسب الأول اثارة القزلباش في الاناضول مقتفيا بذلك خطا سلفه الشاه اسماعيل • وبتشجيع من الصفويين حدثت

ثورة في الاناضول بقيادة قلندر جلبي ، في عام ١٥٢٧ • ولم ينظر العثمانيون بارتياح الى العلاقات الحسنة بين الشاه طهماسب وشارل الخامس (شارلكان) ، الذي اعتلى عرش آل هابسبورغ في فيينا في عام ١٥١٩ • واستقبل الشاه مبعوثي شارل الخامس في عـام ١٥٢٩ • وتضيف بعض المصادر اناستنجاد السنة في بغداد بالسلطان العثماني قد دفعه ايضا لانقاذهم من ضغط الصفويين •

عين العثمانيون الصدر الاعظم ابراهيم باشا قائدا على الجيش المتجه لاحتلال العراق ، وغادر استانبول في ٢ ربيع الآخر ٩٤٠ / ٢١ تشرين الاول ١٥٣٣ ، فأمضى فصل الشتاء في حلب ، ثم اتجه نحو ديار بكر • وجرت بعض الاشتباكات بينه وبين الامراء المحليين ، في مناطق الحدود ، واعترف كثيرون منهم بالعثمانيين • ثم اتجه نحو تبريز ، فاحتلها في ١ محرم ٩٤١ / ١٣ تموز ١٥٣٤ ، وقدم له فيها الامراء المحليون خضوعهم ، ومن بينهم احد المقربين من الشاه طهماسب ، ويسمى محمد خان بن ذي القدر • وخضع لـه كذلـك امراء غيلان وشـروان ، الذين استمدوا ثروتهم من تجارة الحرير ، الذي يمر عبر تبريز الى حلب وبورصة ، ولهذا فان ارضاء العثمانيين يهمهم • وقد لحق السلطان سليمان القانوني بابراهيم باشا في تبريز ، واتجه الاثنان نحو بغداد ، عن طريق همذان ، بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق • وقطعت القوات العثمانية بذلك امكانية نجـدة الصفويين لبغداد • ولم يحاول الشاه طهماسب مجابهة الهجوم العثماني ، مما أخاف الأمراء الخاضعين للصفويين والمنتشرين على الطريق الى بغداد فخضعوا للعثمانيين • ويذكر أن فصل الشتاء وكثرة الفيضانات ، وصعوبة اجتياز المناطق الجبلية في العراق الشمالي الحقت بعتاد العثمانيين وقواتهم خسارة أكبر مما أوقعه بهم الاعداء • ثم جاءت الامدادات لتعوض من ذلك • ووصل العثمانيون الى همذان في ٢٢ ربيع الثاني ٩٤١/٣١ تشرين الأول ١٥٣٤ ثم تابعـوا مسيرهم الى خانقين ، فأرسل حاكم بغداد الصفوي ، محمد خان يعلن خضوعه للعثمانيين ، بعد أن عجز الشاه طهماسب عن مده بالمعونة • ودخل الصدر الاعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثاني ٩٤١ / ٣١ كانون الاول ١٥٣٤ وبعد يومين دخلها السلطان سليمان القانوني ، وسط مظاهر الحفاوة الشعبية • واصدر السلطان أوامر مشـددة الى

عسكره بعدم التعرض للأهالي ، وحاز على رضاهم أيضا بزيارته الأماكن المقدسة في بغداد ورصده المال لها ، سواء منها السنية أو الشيعية ، وقام بجهد خاص لاكتشاف قبر أبي حنيفة ، وأمر ببناء قبة عنده .

وهرع زعماء القبائل الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني ، وكان من بينهم أمير البصرة البدوي ، راشد بن مغامس ، الذي كان قد استقل بها ، وذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة ، فأبقاهم السلطان سليمان ولاة من قبله . وهكذا خضعت للعثمانيين البصرة ، والتلال اللورية ، والحويزة وسيطر العثمانيون بذلك على واحد من الطرق التجارية الهامة التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا ، بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل وحلب ، أو بواسطة بغداد ودمشق وصيدا . وترتب على العثمانيين نتيجة ذلك مسؤوليات دفاعية جديدة ، وبخاصة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج .

وبعد أن عين السلطان حاكم ديار بكر العثماني سليمان باشا واليا على بغداد، وأبقى فيها قرابة الفين من الجنود ، غادرها في ٢٨ رمضان ٩٤١ / ٢ نيسان ١٥٣٥ ، باتجاه اذربيجان ، واحتل كثيرا من القلاع الاستراتيجية ، في منطقة كركوك ، لحماية مناطقه المفتتحة . ووصل تبريز في ١ محرم ٩٤٢ / ٢ تموز ١٥٣٥ ، فاستسلمت له ، واضطر الشاه الصفوي الى طلب الصلح ، ووافق السلطان سليمان على ذلك ، وأخلى له تبريز مقابل تقديم الشاه الطاعة للسلطان . ثم غادر السلطان سليمان المنطقة ، ووصل استانبول في ٤ رجب ٩٤٢ / ٢٩ كانون الاول ١٥٣٥ .

وقد قسمت العراق الى أربع ولايات : بغداد وفيها ثمانية عشر صنجقا ، الموصل وفيها ستة صناجق ، البصرة بدون صناجق ، وشهرزور وفيها عدد من الصناجق بلغت أحيانا العشرين ، بما فيها القلاع . وتقع ولاية شهر زور في منطقة جبال كردستان ، على الحدود مع الصفويين ، ولهذا تعرض الحكم العثماني فيها باستمرار الى الاخطار . أما البصرة ، التي تقع في منطقة قبائل قوية ، فكانت دائما مثار نزاع ، بين سلطات بغداد وهذه القبائل[٦] .

واحتل العثمانيون في عام ١٥٥٠ ، القطيف ، في منطقة الخليج ، ثم مدوا نفوذهم الى الاحساء ، التي احتلوها في عام ١٥٥٢ ، وابعدوا عن حكمها قبيلة

بني خالد القوية • ولكن هذه القبيلة بقيت تقوم بالثورة تلو الاخرى حتى استعادت حكمها في عام ١٦٧٠ • وجعلت الاحساء ولاية عثمانية وقاعدة امامية للدفاع ضد البرتغاليين المتمركزين في هرمز ، وكذلك ضد الصفويين • واشترك والي الاحساء مع والي البصرة في صد غزوات البدو عند مناطق الحدود مع الجزيرة العربية • وجرت محاولة فاشلة ، في عام ١٥٥٨ ، من قبل والي الاحساء لاحتلال البحرين ، التي كان يحكمها أمير تابع لخان منطقة لار • وكان هذا الامير حريصا على عدم الخضوع للصفويين أو العثمانيين • واضطر الى الاستعانة بالبرتغاليين في هرمز لمقاومة مخططات والي الاحساء ضده • وعندما غزا البرتغاليون القطيف في ١٥٥٢ ، و ١٥٥٩ و ١٥٧٣ ارسلت الاوامر الى البصرة ، وأحيانا الى بغداد ، وليس الى الاحساء للدفاع عنها ، مما يدل على أن أمر الخليج ترك لولاة البصرة بصورة رئيسة ، بينما اقتصر والي الاحساء على اخضاع البدو [٧] •

فتح اليمن وشرقي السودان

تعرض المحيط الهندي وسواحل البحر الاحمر ، منذ أواخر عهد السلطنة المملوكية ، الى غزوات البرتغاليين • واضطر المماليك الى تركيز مدفعيتهم على سواحل البحر الاحمر للدفاع عنه ، كما ارسلوا نجدات عسكرية الى سلطان الهند المسلم مظفر شاه الذي استنجد بهم ضد البرتغاليين • وكانت القوات التي ارسلها السلطان المملوكي قانصوه الغوري لنجدته تتألف من اللاوند ، الذين كانوا من أصل رومي • وهذه القوات ارسلها العثمانيون الى مصر ، بقيادة سليمان رئيس وحسين الكردي ، لخدمة المماليك ، وبقيت فيها حتى الفتح العثماني • واتخذت هذه القوات مدينة جدة قاعدة لها ، وعين قائدها الامير حسين الكردي واليا على جدة • ولم يثبت الامير حسين الكردي في الهند طويلا ، ازاء الخطر البرتغالي المتزايد فيها وضعف المماليك انذاك ، فعاد منها ، واستخدم قواته في القضاء على قوات السلطان عامر بن عبد الوهاب ، آخر ملوك بني طاهر في اليمن (بدأ حكم هذه الاسرة في اليمن حوالي ٩٥٨ / ١٤٥٤ — ١٤٤٥) • وتمكن الامير حسين بمساعدة الزيدية ، اعداء السلطان عامر ، من احتلال زبيد في ١٩ جمادى الاول ٩٢٢/ ٢٠ تموز ١٥٢٢ ثم توجه لاحتلال عدن وكانت آنذاك مركزا هاما للتجارة

والسفن القادمة من الهند ، ويحكمها الامير مرجان العامري ، الذي كان تحت نفوذ حكام اليمن • وقد فشل الامير حسين في احتلال عدن ، بعد أن تلقت مساعدة عسكرية وصلتها من تعز بقيادة شقيق السلطان عامر • واضطر الامير حسين في ٢١ رجب ٩٢٢/٢٠ آب ١٥١٦ الى رفع الحصار عن عدن ، والعودة الى جدة ، حيث تلقى أنباء هزيمة المماليك أمام العثمانيين •

وكان السلطان سليم قد تلقى ، وهو في مصر ، خضوع شريف مكة السيد بركات بن يحيى ، فولاه على الحجاز وجدة • وتمكن الشريف بركات من قتل الأمير حسين الكردي ، نائب جدة ، فهربت قواته المملوكية ، من الحجاز الى زبيد ، في اليمن ، حيث الامير برسباي المملوكي وتقووا فيهـا بدعم الزيدية ، وقتلوا السلطان عامر بن عبد الوهاب ، الذي كان قد تحصن في تعز ، وذلك في ٢٣ ربيع الاول ٩٢٢ / ١٥ نيسان ١٥١٧ • وبقتله انقرضت الدولة الطاهرية ، واستمر بعض افرادها في حكم عدن لبعض الوقت •

وكـان يتزعم القوات المملوكية في اليمن الامير برسباي والامير اسكندر والامير رمضان وهو قائد اللاوند • وقد قتل عربان اليمن الامير برسباي ، فخلفه الامير اسكندر ، قائدا على القوات المملوكية ، الا أن الامير رمضان ، وقواتـه الرومية الاصل ، اعلنوا الولاء للأروام (العثمانيين) • واضطر الامير اسكندر الى اعلان ولائه لهم ، فأرسل السلطان سليم اليه امرا باستمراره واليا على اليمن ، وذكر اسم السلطان سليم في الخطبة ومن بعده اسم السلطان سليمان •

وتميزت الفترة بين ٩٢٤ ــ ٩٤٤ / ١٥١٨ ــ ١٥٣٨ ، باضطراب كبير في أحوال اليمن ، نظرا لوجود قوى مختلفة فيها تتصارع على النفوذ ، فهناك الولاة المحليون من اللاوند ، الذين قبلوا الخضوع للعثمانيين ، ولكنهم عارضوا استبدال باشوات عثمانيين بهم ، وهناك أيضا الزيديون ، والعربان المحليون ، وولاة جدة ، الذين يطمعون بالوصول الى حكم اليمن ، ثم هناك بقايا الاسرة الطاهرية الحاكمة في عدن • وقد شجع على هذه الفوضى في اليمن ارتباك احوال مصر ، في الفترة بين الاحتلال العثماني والقضاء على الثورات فيها ، في عام ١٥٢٥ ، وكذلك ازدياد تهديد البرتغاليين لسواحل اليمن •

وازاء هذا الوضع المرتبك قام السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٣٨ بارسال حملة الى الهند ، بقيادة سليمان باشا الخادم والي مصر ، لمقاومة البرتغاليين والسيطرة على تجارة الشرق الاقصى • وأمر سليمان باشا بالتعريج على اليمن ليصلح ما فسد من حالها ، وقد احتل سليمان باشا عدن من حاكمها عامر بن داود من بقايا بني طاهر وذلك في النصف الاول من عام ٩٤٥ / النصف الاخير ١٥٣٨ ، وعين على اليمن حاكما يسمى بهرام • ثم سار الى الهند ، ولكنه كسابقه الامير حسين الكردي ، عاد منها بعد قليل ، وقيل في تفسير ذلك انه عاد بسبب نزاعه مع أمراء الهند لغطرسته • وقد توقف سليمان باشا في اليمن ، في طريق عودته ، فقتل حاكمها ، في ٨ شوال ٩٤٥/٢٧ شباط ١٥٣٩ ، ووطد السلطة العثمانيــة في بعض مدنها الرئيسة ، وأقام الحكام فيها • وعد ذلك ابتداء الفتح العثماني لليمن، لان السلطة العثمانية قبل ذلك كانت تقوم على ولاء الامراء المحليين لها • وفي عام ٩٤٧/١٥٤٠ ـــ ١٥٤١ ، أطلق العثمانيون لأول مرة لقب باشا على حاكم اليمن ، وكانت رتبته بيلربي (بك البكوات) ، وكان قبلا يحمل لقب بك فقط •

ورغم التواجد العثماني في عدد من مدن اليمن ، وابرزها زبيد ، فقد سيطر الائمة الزيديون ، بقيادة الامير شرف الدين وابنــه مطهر ، على جزء كبير مــن اليمن ، وبخاصة الجبال بين كوكبان وعدن ، وحصنوا مدينة تعز • وفي عام ٩٥٣ / ١٥٤٦ ـــ١٥٤٧ ، وصل ادريس باشا واليا على اليمن ، فأحتل تعز من الزيدية ، ووطد السلطة العثمانية في المنطقة الممتدة بين زبيد وسمارة • وتألف جنوده من جماعة من اليمنيين ، الى جانب العثمانيين • فغدروا به وقتلوه • وقام أزدمر من بين صفوف العساكر ، وضبط امرهم وقاتل الزيديين ، وأحتل صنعاء منهم ، وأقام بها ، وذلك في سنة ٩٥٤ / ١٥٤٧ ـــ ١٥٤٨ • وكان ازدمر مملوكا شركسيا في الاصل ، ثم أصبح في خدمة العثمانيين ، وعين واليا على اليمن ، واستمر في ذلك حتى عام ٩٦٣ / ١٥٥٥ ـــ ١٥٥٦ ، حين خلفه مصطفى باشا الشهير بالنشار • وتوالى ارسال الولاة العثمانيين الى اليمن في السنوات التالية [٨] •

ثم كلف السلطان سليمان ازدمر باشا بفتح الحبشة ، بقصد حماية البحر الأحمر من هجمات البرتغاليين ، فغادر استانبول الى مصر ، حيث جمع جيشا

وأحتل النوبا السفلى ، الواقعة بين الشلالين الاول والثالث ، مستفيدا من الصراع بين القوى المحلية • وأقيمت الحاميات العثمانية في أسوان وأبريم وغيرها ، وعين كاشف مملوكي لادارة هــذه المنطقة التي عرفت باسم بربر ستان • ثم تقدم ازدمر باتجاه البحر الاحمر ، ليقيم فيه قاعدة ضد البرتغاليين ، من ناحية ، فاحتل منطقة حبش ، ولاتعني هذه الكلمة بلاد الحبشة الرئيسة ، بل المنطقة الساحلية على البحر الاحمر ، التي تضم مينائي سواكن ومصوع ، وذلك حوالي عام ١٥٥٧ ، كما أنــه احتل زايله من البرتغاليين ، وأصبحت الحبش ولاية يحكمها حاكم عثماني برتبة بيلربي ، وعين ازدمرعليها • وبعد وفاته في عام ٩٦٧ / ١٥٧٩ ــ ١٥٦٠ خلفه ابنه في حكمها [٩]• وبالاضافة الى الفائدة الاستراتيجية التي حصل عليها العثمانيون من فتوحاتهم الافريقية هذه ، يبــدو أنهم استفادوا من المتاجرة بالذهــب الافريقي وتمكنوا من المشاركة بتجارة التوابل مع الشرق الأقصى ، بحكم سيطرتهم عــلى موانيء هامة في الساحل الافريقي الشرقي •

وهــكذا شملت الفتوحات العثمانية معظم اقطار الوطن العربي وأصبح العثمانيون القوة العظمى في العالم الاسلامي ، حماة الاماكن المقدسة والمدافعين عن الحج • وزادت هذه الفتوحات مــن احترام العثمانيين في العالم الاسلامي وخارجه ، كما أتت اليهم بفوائد اقتصادية كبيرة ، اذ تحكموا بالطرق التجارية ، بين الشرق الاقصى واوروبا ، المارة في بلاد الشام ومصر ، وحصلوا على موارد كبيرة من عائدات التجارة والزراعة ، مما زاد في دعم الجهد الحربي والتوسع العثمــاني •

وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية العثمانية تزداد سيطرة واتساعا كانت اوروبا في النصف الاول من القرن السادس عشر ، تعاني من التمزق السياسي المتمثل بظهور الدول القومية ، والتمزق الديني ، المتمثل بالكنيسة البروتستانتية ، التي حطمت هيمنة البابوية • وفي السنة التي فتح فيها العثمانيون مصر (١٥١٧) كان لوثر يعلق بنوده الخمسة والتسعين على بــاب كنيسة ويتنبورغ ، مهاجما البابوية ، مما زاد في تمزق اوروبا ، بينما تجاوزت الامبراطورية العثمانية الحروب

المذهبية ، بعد هزيمتها الصفويين في جالديران عام ١٥١٤ ، ووصلت الى مستوى الحروب العالمية في الخارج .

وأضعف الصراع داخل الدول الاووبية ، وبين بعضها بعضا مقدرتها على الوقوف في وجه العثمانيين . وفي حين امتدت الامبراطورية العثمانية ، في عهد سليمان القانوني ، من الجزائر الى بغداد ، ومن عدن الى الدانوب، دب الشقاق بين دول غربي اوروبا ، فتعرض الامبراطور شارل الخامس الهابسبورغي ، الذي تزعم أوروبا ضد الاتراك ، الى مجابهة فرانسوا الاول ، ملك فرانسا ، الذي تحالف مع العثمانيين ضده ، في أعقاب هزيمته على يد آل هابسبورغ ، في عام ١٥٢٥ . ويذكر ان فرانسوا الاول شجع العثمانيين على الاتصال بحلفائه الامراء البروتستانت في المانيا ، أمعانا منه في أزعاج آل هابسبورغ . وأدرك العثمانيون أهمية هذا الاتصال . وفي رسالة بعث بها السلطان سليمان الى البروتستانت في عام ١٥٢٢ ، حرضهم ضد البابا والامبراطور الهابسبورغي ، ودعاهم لتوطيد تعاونهم مع ملك فرانسا ، ووعد ، مقابل ذلك ، بعدم ايذائهم في حملاته المقبلة في المانيا . ولاشك ان الضغط العثماني على آل هابسبورغ ، الذي حولهم عن الاهتمام بالانشقاق الديني ، في الفترة بين ١٥٢١ و ١٥٥٥ ، كان عاملا هاما في توطيد قوى الاصلاح الديني في اوروبا . وبقي دعم الامراء البروتستانت والتحالف مع فرانسا من دعائم السياسة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والهدف من ذلك ابقاء اوروبا منقسمة على نفسها . وسمح العثمانيون لاتباع كالفن بحرية التبشير في هنغاريا ، وهذا مايفسر اعتناق السكان في المناطق الخاضعة للعثمانيين في هنغاريا المذهب الكالفني ، بينما بقيت تلك الاجزاء منها ، الخارجة عن نفوذهم ، تابعة للكاثوليكية . وقد وعد السلطان العثماني الامراء اللوثريين ، في البلاد المنخفضة وغيرها من المناطق الخاضعة لاسبانيا ، بالدعم العسكري ، بسبب مقاومتهم البابا والامبراطور الهابسبورغي . وبالمقابل ، دعا البروتستانت الفرنسيون (الهوغونوت) ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، الى العودة الى سياسة التحالف بين فرانسا والعثمانيين ، ومن هنا جاءت ردة الفعل القوية عند العثمانيين لدى سماعهم بأنباء مجازر سان برثولميو ضد البروتستانت في فرانسا ، في عام

١٥٧٢ . كما أن العثمانيين حصلوا على دعم كبير من مسيحي البلقان الارثوذكس ، الذين فضلوا الحكم العثماني وما منحه اياهم من امتيازات على الخضوع للدول الكاثوليكية في غربي أوروبا .

ومما يلاحظ أيضا على فترة الفتوحات العثمانية اشتهار عدد من السلاطين ، كان آخرهم سليمان القانوني ، ارتفعوا الى مستوى المسؤوليات وهيأت لهم ظروف الدولة التوسعية مجالات الشهرة . وبالمقابل ، نجد أن التحديات العثمانية للشعوب المجاورة اوجدت لديها زعامات قوية ، سواء في أوروبا مثل شارل الخامس وفيليب الثاني وفرانسوا الاول ، أم في بلاد فارس مثل الشاه اسماعيل ، والشاه طهماسب الاول والشاه عباس . وهكذا كان القرن السادس عشر عصر عمالقة الملوك والسلاطين الذين أوجدتهم ظروف الفتح ومجابهته .

القضاء على الثورات

ظهرت في أعقاب الفتح العثماني للاقطار العربية ، وخلال ثلاث سنوات منه ، سلسلة من ثورات قامت بها قوى مملوكية ، عملت لاعادة السلطنة المملوكية ، أو قوى عثمانية ناقمة على الادارة في استانبول ، أو قوى بدوية ومحلية حاولت الحفاظ على نفوذها .

وقد بدأ ثورات المماليك على العثمانيين جان بردي الغزالي ، والي دمشق العثماني ١٥١٧ ــ ١٥٢٠ الذي عين لهذا المنصب مكافأة له على مساعدة العثمانيين أبان الفتح ، وكان قبلا يشغل منصب والي حماة المملوكي . وكان الغزالي ، منذ مطلع ولايته على الشام ، مغاليا في اظهار الولاء للعثمانيين فوطد الامن في دمشق وخارجها ، وقاد حملة ضد أمير البقاع البدوي ناصر الدين بن الحنش ، فقتله في عام ١٥١٨ ، بعد أن فشل السلطان سليم في ذلك . وعين مكانه حاكما عثمانيا . وبطش الغزالي أيضا ببعض الامراء المحليين في نابلس وغيرها . وشن عدة حملات ضد بدو حوران وعجلون الذين تعرضوا لقافلة الحج الشامي . وسر السلطان من أعمال الغزالي هذه ، وبخاصة حمايته قافلة الحج ، واغدق عليه الخلع . واستفاد

الغزالي من ذلك ، وكسب رضى المسلمين ، وازداد بالتالي نفوذه في دمشق ، وهيبته في الولايـة •

واستغل الغزالي انتصاراته لتعميق نفوذه في دمشق ، فعارض القاضي الحنفي ، ولي الدين بن الفرفور الدمشقي ، المعروف بطموحه وولائه للعثمانيين ، واضطره الى الهرب الى حلب ، وأقام مقامه القاضي شرف الدين بن مفلح • كما أن الغزالي أعاد بعض العادات المملوكية ، التي كان السلطان سليم قد أبطلها ، مثل دق الطبل في القلعة وعلى أبواب المدينة •

وما أن علم الغزالي بموت السلطان سليم في ٢٢ أيلول ١٥٢٠ حتى أعلن الثورة على العثمانيين ، فشرع بمحاصرة قلعة دمشق ، حيث الانكشارية الموالون للسلطان ، واحتلها في ٢٩ تشرين الاول ومنع خطباء المساجد من ذكر اسم السلطان سليمان • وفي محاولة لجمع المؤيدين ، أعاد الغزالي آل الحنش الى حكم البقاع • والتف من حوله ، في دمشق ، بقايا المماليك وشبان الحارات من الزعر ، الذين اغتنموا المناسبة كعادتهم ، لابراز قوتهم • وأبطل ملابس العثمانيين ، وأظهر ملابس المماليك • وأمر بايقاف بناء الجامع والتكية ، عند قبر محي الدين بن عربي التي كان السلطان قد أمر ببنائها • وحاول الغزالي مد سلطته خارج دمشق ، فعين بعض الولاة من قبله على طرابلس وحمص وحماه ، ثم سار نحو حلب لاخضاعها • وبعد أن حاصرها اضطر الى التراجع ، في ٢٠ كانون الاول ، بسبب اقتراب الجيش العثماني المتجـه اليه ، وعاد الى دمشق ، حيث أعلن نفسه سلطانا ، ولقب بالملك الأشرف ، وخطب باسمه في الجامع الاموي يوم الجمعة في ١ شباط ١٥٢١ • • في القتال الذي دار بينه وبين القوات العثمانية في برزة في ٥ شباط ١٥٢١ ، هزم الغزالي وقتل ، واحتل العثمانيون دمشق • وكانت هذه الثورة آخر ثورة للمماليك في بلاد الشام • (١٠)

وحدثت الثورة المملوكية الاخرى في مصر ، بعد أعلان ثورة الغزالي بعامين • ومما يلفت النظر عدم التوافق بين الثورتين ، وعدم دعم مماليك مصر لثورة الغزالي ، رغم طلبه الى زميله في الخيانة ، خاير بك ، الذي عينه العثمانيون واليا على مصر ، اعلان الثورة ودعمه • ولعل خاير بك كره أن تكون المبادرة في الثورة للغزالي ، الأقل شأنا منه سابقا ولاحقا ، أو لعله كان أكثر ادراكا لقوة الدولة وصعوبة نجـاح

ثورة مملوكية ، ولهذا لم يمتنع فقط عن تأييد الغزالي ، بل اظهر استعداده أمام السلطان العثماني لقتال الغزالي ، ربما لدفع أي شك في نواياه • وهكذا افتقد المماليك في مصر الزعامة التي تطلع اليها بعضهم لقيادتهم في الثورة ضد العثمانيين • ورغم أن كثيرا من المماليك في مصر قد أعلنوا ولاءهم للعثمانيين ، واستمروا في الادارة العثمانية كقوات عسكرية ، وأمراء للحج ، وحكام مناطق (كشاف) ، فان بعضهم أضمر العداء للعثمانيين • وحاول بعض الغلاة من المماليك الناقمين الالتحاق بالغزالي ، فبطش بهم خاير بك •

واذا كان مماليك مصر قد أعوزتهم القيادة للاسهام في الثورة ، ولم يغتنموا فرصة وفاة السلطان سليم للثورة على خلفه ، فقد فعلوا ذلك اثر وفاة خاير بك ، في عام ١٥٢٢ • وكان الثائرون بزعامة اينال السيفي ، كاشف الغربية ، وجانم السيفي ، كاشف البهنسا والفيوم • ويذكر أن هذين المملوكين قد ثأرا من مشايخ بدو آل مرعي في منطقة البحيرة ، بسبب تسليمهم السلطان المملوكي طومان باي للعثمانيين ، الذين قتلوه • وأدعى الثائرون أنهم لن يطيعوا السلطان سليمان الصغير السن ، ولن يتركوا الحكم لهؤلاء التركمان الذين لايعرفون ملاقاة الفرسان • وتمركز الثائرون في منطقة استراتيجية ، في اقليم الشرقية ، حيث سيطروا على الطريق الرئيسة التي تربط مصر مع بلاد الشام ، كما أنهم تحكموا بطريق المواصلات والمؤن بين الصعيد والقاهرة • وقد بطش العثمانيون بالثائرين المماليك هؤلاء ، ولكن لم يقضوا على وجود المماليك في مصر أو يمنعوا مجيئهم اليها ، ولهذا تكررت ثورات المماليك في المستقبل •

ولم يكد يمضي عام على ثورة اينال وجانم السيفيين حتى ثار ، في أواخر عام ١٥٢٣ ، والي مصر العثماني أحمد باشا ، الذي عرف تبعا لذلك بالخائن • وكان أحمد باشا قد أسهم في الفتوحات العثمانية بخاصة في البلقان ، وطمع بمنصب الصدارة العظمى ولكن منافسه ابراهيم باشا ، الذي عين في هذا المنصب ، نجح في ابعاده بتعيينه واليا على مصر • وقد توفر لاحمد باشا في مصر ، عناصر الثورة الضرورية ، كبعد مصر ، وغناها ، ووجود المماليك الناقمين فيها ، والذين يجمع بينه وبينهم النسب الشركسي • وفي ١ شباط ١٥٢٤ احتل أحمد باشا القلعة التي سيطر

عليها الانكشارية الموالون للسلطان ، ثم أعلن نفسه سلطانا في ١٢ منه ، وذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة •

وبعد أن وطد أحمد باشا سلطته في القاهرة ، بتأييد عدد كبير من المماليك التفت الى خارجها ليحصل على ولاء الدولة • وكان هدفه اقامة قوة مناصرة له من بينهم تسيطر على الطريق الرئيسة ، بين الشام ومصر ، لمنع تقدم القوات العثمانية ضده • ولم يبرهن البدو عن وفائهم لاحمد باشا ، بل تحولوا ضده منذ أن علموا برجحان كفة العثمانيين • وأشيع في القاهرة أن أحمد باشا ، باغراء ظهير الدين الاردبيلي ، قد تحول عن السنة ، وأصبح من أتباع الشاه اسماعيل الصفوي • ونجحت هذه الشائعة ، التي تفتقر الى البرهان ، في اثارة الأهلين ضده ، وأعلن قضاة المذاهب الاربعة كفره وأوصوا بالجهاد ضده • وقد قتل الاردبيلي في ٢٠ ربيع الثاني ٩٣٠/٢٦ شباط ١٥٢٤ ، كما قتل أحمد باشا بعده بسبعة أيام • (١١)

وقد حدثت عدة ثورات للبدو في بلاد الشام ومصر ، في أعقاب الفتح العثماني ولكنها لا تتساوى ، من حيث الأهمية ، مع ثورات المماليك ، لانها مألوفة في تاريخ المنطقة التي شهدت باستمرار الصراع بين سلطات المدن والقوى البدوية • ويرجح أحد الطرفين على الآخر بنسبة ما يكون عليه كل منهما من قوة وضعف • وطبيعي أن يثور البدو في فترة انتقال السلطة من دولة الى أخرى ، للحصول على ما يمكن من الامتيازات • وطبيعي أيضا ألا تقف الدولة العثمانية ، وهي في أوج قوتها ، لا مبالية ازاء ما يحدث •

وقد سبقت الاشارة الى ماقام به الغزالي من حملات ضد بدو البقاع وحوران وعجلون للمحافظة على الأمن ، وبالتالي ازدهار الريف والاقتصاد • وكان مهتما ايضا في تأمين سلامة قافلة الحج من البدو • ولكن مثاله في الثورة على السلطة العثمانية واعتماده على الزعماء المتنفذين ، من بدو واعيان ، شجع هؤلاء على اقتفاء أثره • وربما لم يكن مجرد مصادفة أن البدو قد هاجموا قافلة الحج في العلا في السنة التي ثار فيها • واذا أمكن للعثمانيين القضاء على ثورة الغزالي فلم يكن من السهل القضاء على تمرد البدو • وبقيت هذه المشكلة شوكة في جنب حكام المدن طيلة الحكم العثماني • واضطر ولاة دمشق الى شراء البدو بالمال ، حين لم يتمكنوا

من اخضاعهم بالقوة ، وذلك لضمان سلامة قافلة الحج ، وعرف هذا المال بالصر . وكان يدفع نصفه لدى ذهاب القافلة ، ونصفه الآخر لدى عودتها ، ويتضمن هـذا المبلغ حق المرور ، والحماية، وأجرة البدو كأدلاء للقافلة . وكثيرا ما امتنع أمراء الحج عن دفع النصف الثاني من الصر ، أثناء العودة وهذا مايفسر كثرة اعتداء البدو على القافلة حين عودتها . وشجع البدو على القيام بذلك الطمع بالبضائع التي تحملها القافلة في طريق العودة . وقد تنوعت اشكال اعتداءات البدو على قافلة الحج ، وكانوا عادة يملأون برك الماء في منازل الحج ، على الطريق السلطانية بين الشام والحجاز ، بالمواد السامة ، مما دعا السلطان الى بناء القلاع وأقامة الحاميات للمحافظة عليها . ونشطت الدولة العثمانية في بناء هذه القلاع في عهد السلطان سليمان القانوني .

ولم يقتصر خطر البدو ، في بلاد الشام ، على طريق الحج بل تعداه الى مناطق الريف وضواحي المدن . وقد قام بدو آل علي ، في عام ١٥٢٦ باعتداء على منطقة المرج في ضواحي دمشق ، وخرج والي الشام لطفي باشا وقاتلهم ، واعدم اثنين من زعمائهم . ولكن هذا العنف لم يقض على تمرد هؤلاء البدو ، اذ اعتدوا بعد سنتين على منطقة القسطل شمالي دمشق . (١٢)

أما في مصر فقد لعب البدو ، وبخاصة في مناطق الشرقية والغربية والبحيرة ، حيث سيطر على التوالي بنو بقر ، وبنو بغداد ، وبنو مـرعي ، دورا هامـا في تأييد أو تقويض الثائرين على الدولة ، كما رأينا في مثال ثورات زعماء المماليك وأحمد باشا الخائن . وقد عانى السلطان سليم ، أثناء فتحه لمصر ، وكذلك واليها خاير بك ، صعوبات كبرى في اخضاع البدو في فترة تبدل السلطة . وتكمن أهمية البدو في سيطرتهم على مناطق هامة استراتيجيا تتحكم بشبكات المواصلات الرئيسة، أو على مناطق هامة اقتصاديا ، تتحكم بطرق التجارة أوبمناطق الانتاج . وقد سيطرت على الصعيد ، الـذي زود مصر بالحبوب ، قبيلة هوارة التي اعترف العثمانيون بزعامتها وحكمها له ، طالما أنها تقدم الخضوع لهم . واستمر امراء هذه القبيلة يحكمون الصعيد حتى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، حين عين العثمانيون حاكما من قبلهم عليه ، مركزه جرجا . وقد كسبت السلطات العثمانية

ولاء القبائل باعترافها بزعامتها ، أو بمنحها اقطاعات للدفاع عنها وعن زراعتها ، مما جعلها أكثر استقرارا • ولجأ العثمانيون أيضا الى السياسة التقليدية بتحريض زعيم قبلي ضد آخر ، ضمن القبيلة ، أو باثارة قبيلة على أخرى ، لاضعافهم ، أو بشراء ولاء قبيلة لاستخدامها ضد قبيلة أخرى •

وقد فاقت الاخطار التي لاقاها العثمانيون من تمرد البدو في العراق وبخاصة مناطقه الجنوبية ، في أعقاب فتحهم له ، جميع مالاقوه من أخطار البدو في بلاد الشام ومصر • وسبب ذلك أن البدو في البلدين الاخيرين ، وبخاصة منهم أولئك الذين هم على أطراف البادية ، قد تألفوا من قبائل صغيرة نسبيا ، اذا ما قيست بقبائل العراق ، وتستطيع السلطة ان تسيطر عليها بقوة السلاح أو المال ، أو بأثارة قبيلة ضد أخرى • وكثيرا ماكانت تستخدم هذه القبائل لصالحها ، لنقل الحجاج مثلا ، أو كعناصر عازلة بين سكان المناطق الآهلة من ناحية والقبائل الكبرى ، مثل العنزة ، داخل البادية ، من ناحية أخرى • أما في العراق فعدد أفراد القبائل كان أكبر ، وحجمها أضخم ، وطموحها يتناول المدن ، وبخاصة البصرة • ويفسر ذلك كون جنوبي العراق أشبه بفوهة تتدفق منها القبائل من الجزيرة العربية ، وكونه أيضا منطقة هامة في تجارة المرور مما يغرى القبائل بالسيطرة عليه • وقد تساهل العثمانيون ، شأنهم عقب فتوحاتهم ، مع الاسر المحلية التي قدمت لهم الخضوع • ومن هذه الأسر أسرة راشد بن مغامس البدوية ، التي كانت تحكم البصرة ، فأبقاها العثمانيون في مكانها بعد أن قدمت لهم الخضوع في عام ١٥٣٨ ، ولكن اجراءات العثمانيين في المحافظة على الأمن في منطقة البصرة ، لضمان سلامة الطرق التجارية ، جعلت أسرة راشد تثور عليهم في عام ١٥٤٦ • فأرسل والي بغداد ، أياس باشا ، جيشا ضدها ، وقد هزمها ، ودخل البصرة ، وأقام الحكم العثماني المباشر فيها وفي مناطق الأطراف ، في واسط والجزائر ، حيث تسيطر قبائل آل عليان ، التي تنتسب الى طيء • وكان أياس باشا أثناء سيره نحو البصرة ، قد هزم قشعم البدوي ، الذي ترأس مجموعة القبائل بين بغداد والبصرة ، وذلك كخطوة أولى في سبيل اخضاع قبيلة راشد في البصرة • وبتلاشي زعامة قشعم وتسلطها على غيرها من القبائل ، ظهرت قبيلة المنتفق ، وأصبح

لها النفوذ بعد ذلك • ويبدو أن حملات العثمانيين ضد القبائل ، بين بغداد والبصرة ، وفي منطقة البصرة ، قد أثارت احقادها ، فعادت الى الثورة ، في ٩٥٦/١٥٤٩ — ١٥٥٠ بعد ثلاث سنوات من هزيمتها ، وهددت طرق المواصلات فعين السلطان لقتالها والي بغداد ، علي باشا ، الذي نقل قواته برا ونهرا الى واسط ، ثم الى المدينة على دجلة ، حيث مركز آل عليان المسيطرين على منطقة الجزائر • وبعد معارك شديدة مع البدو ، امتدت حتى العام التالي ، فرضت السلطة العثمانية هيبتها ، ولكن لفترة قصيرة • (١٣)

ثم انتقل مركز التمرد ، في عام ٩٥٨/١٥٥١ ـ ١٥٥٢ ، الى شمالي العراق ، في منطقة شهرزور ، حيث سيطر الاكراد • وكان زعيم الاكراد في هذه المنطقة ، قد أعلن ولاءه للعثمانيين ، أثناء الفتح ، فأبقوه ، مثلما فعلوا مع أمير البصرة • ولكن الاضطراب بدأ يعم الآن منطقة شهرزور بتأثير عناصر تركمانية ــ صفوية • فكلفت الدولة والي حلب ، عثمان باشا ، بقيادة حملة تأديبية تضم عددا من جيوش الولايات الأخرى ، بما في ذلك بغداد • وهب للدفاع عن شهرزور عدد من الامراء الأكراد ، واستخدم الطرفان الاسلحة النارية ، ولكن مناعة شهرزور حالت دون فتحها ، وتوفي القائد العثماني ، وتراجع الجيش عنها • وعين السلطان والي بغداد ، على باشا ، الذي سبق وهزم قبائل البصرة ، قائدا للجيش العثماني وأمره بمتابعة القتال • ويبدو أن مناعة شهرزور جعلت والي بغداد يميل الى المصالحة ، فاستخدم نفوذ بعض الزعماء الاكراد ، وحصل على خضوع حاكم شهرزور للدولة ، ووقع صلحا معه ، وفعل ذلك مع الأمراء الاكراد المجاورين • وهكذا أبقى هؤلاء الامراء على نفوذهم المحلي ، كما حافظت الدولة العثمانية على هيبتها • ويبدو أن قوة الطرفين ، وخطر استغلال الصفويين للقتال وتهديدهم بغداد قد شجع على هذا التفاهم • كما أن موقع شهرزور على الحدود بين العثمانيين والصفويين ، وتركيب سكانها من الاكراد ، جعلها تحت تأثير الطرفين ، فكانت تميل الى طرف أو آخر حسب قوة الفريقين • وفي فترة القوة العثمانية الآن مال معظم زعماء الاكراد الى جانب العثمانيين • ومن أشهرهم أمير العمادية ، الذي استخدمه العثمانيون في ٩٦١ / ١٥٥٣ ــ ١٥٥٤ لردع التركمان القزلباش ، الذين عاثوا فسادا في أماكن

قريبة من بغداد • وقد بقي زعماء شهرزور على ولائهم للعثمانيين طوال القرن السادس عشر ، الى أن قوي الصفويون ، وبدأوا تدخلهم من جديد في شؤون العـراق •

ولكن الاستقرار في العراق الجنوبي ، في منطقة البصرة ، كان أقل دواما من الشمال بسبب طبيعة المنطقة الاستراتيجية والتجارية مما أغرى القبائل على التمرد • كما أن كثرة القبائل في هذه المنطقة وتأثرها بالضغط أو التمدد القبلي ، في شمال الجزيرة العربية ومنطقة البادية ، من شأنه أن يؤثر في سلوكها السياسي أيضا •وهكذا عادت القبائل الى التمرد • ولكن الدولة ، نظرا لاهمية منطقة جنوبي العراق ، وخوفا من استغلال البرتغاليين المتربصين عند مداخل الخليج ، كانت تعمد الى سياسة القمع الشديد •

وكان العثمانيون قد أرسلوا القبطان بيري بك من مصر ، في عام ٩٥٩/١٥٥١ــ ١٥٥٢ ، لاسترداد عدن التي استخلصها البرتغاليون قبل قليل من العثمانيين ، وتم له ذلك • ثم توجه لاحتلال الطرف الشرقي من الجزيرة العربية لقطع خطوط التموين المحلي وتعطيل نقاط الاستناد على البرتغاليين ، فاحتل مسقط ، التي تسيطر على مدخل الخليج من أيدي البرتغاليين ، وتابع مسيره فسيطر على مضيق هرمز • ثم سار نحو البصرة ، ودخلها • ولكن الشائعات عن احتمال هجوم برتغالي معاكس ، لقطع خط الرجعة على الأسطول العثماني ، جعلت بيري بك يتراجع الى السويس ، فاتهم بالخيانة ، وأعدم • ويبدو أن صراعا خفيا دار بينه وبين والي البصرة العثماني ، فدبر أمر التخلص منه •

ويبدو أن البرتغاليين تعرضوا في مضيق هرمز للأسطول العثماني المنسحب الى مصر ، فارتدت بعض قطعه الى البصرة حيث حصرت فيه • فكلف السلطان سليمان في عام ٩٦٠ / ١٥٢ ــ ١٥٥٣ واحدا من قادة بحريته المشهورين ، سيدي حسن علي بن حسين الذي اشتهر في خدمة خير الدين بربروسا وسنان باشا ، فتوجه في اوائل عام ٩٦١ الى البصرة ليترأس قطع الاسطول فيها • وقد اعترض طريقه البرتغاليون في مكانين : عند مضيق هرمز ، وقرب مسقط ، وأمكنه التخلص منهم •

ولكن الأنواء البحرية دفعت به الى ساحل الهند • فعاد برا الى بغداد بعد أن باع السفن خوفا من خطر البرتغاليين عليه فيما اذا عاد بطريق البحر • (١٤)

ويبدو أن فشل الأسطول العثماني في خليج البصرة قد أضعف الهيبة العثمانية في المنطقة • فاستغلت القبائل ذلك للعودة الى التمرد • ويذكر ان والي بغداد مصطفى باشا ، عزم في عام ٩٦١ / ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤ على استخلاص الحويزة من أيدي طائفة محلية سيطرت عليها مستفيدا من وجود الاسطول العثماني في البصرة ، فعهد الى القائد سيدي حسن أن يتحفظ على ابن عليان ، زعيم بدو الجزائر ، خوفا من استغلاله انشغال الوالي للثورة عليه ، ولكن أبن عليان صد الحملة العثمانية وقتل عددا من أفرادها •

وازدادت جرأة القبائل في منطقة البصرة ، اثر انسحاب الأسطول العثماني منها وهزيمته • واستغلت وفاة السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، لتعلن الثورة من جديد بزعامة ابن عليان • فنظمت الدولة حملة ، في عام ١٥٧٦ ، بقيادة اسكندر باشا والي بغداد ، واصطحب معه والي شهرزور والبصرة ، بالاضافة الى عدد من الأمراء الاكراد وامراء البدو من المناطق الشمالية ، وهزم البدو في منطقة البصرة • وبنت الدولة القلاع لتعزيز وجودها العسكري هناك•ولجأت أيضا الىقطع أشجار النخيل التي تعيش عليها القبائل • واضطر ابن عليان الى طلب الصلح ، لقاء دفعه ضريبة سنوية الى خزينة البصرة وتسليم بعض أولاد المشايخ كرهائن • ويذكر المؤرخون العثمانيون ان هذه أول مرة استخدم فيها القتال النهري ، من الجانبين ، على هذا النطاق • ويبدو أن القبائل في منطقة البصرة قد استكانت ، لفترة ، للقوة العثمانية ، أثر هذه الموقعة • وستبقى قبائل البدو ، وبخاصة في منطقة البصرة ، مراكز تحد دائمة للدولة العثمانية •

وعلى غرار ماحدث في مناطق الأطراف في العراق ، ثارت ، في أعقاب الفتح العثماني لليمن ، الاسرة الزيدية مستغلة زعامتها الدينية المحلية والتأييد الذي تمتعت به من قبل قوى متعددة • ولم يكن العثمانيون ، في فترة قوتهم ، في القرن السادس عشر ، أقل تصميما على اخضاع هذه الأسرة مما كانوا عليه في العراق ، بخاصة

وأنه يهمهم عدم الافساح في المجال للبرتغاليين لاستغلال الاضطراب في اليمن للتدخل وتهديد طرق التجارة في البحر الاحمر وكذلك سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز .

وقد واتت الزيديين الفرصة لاعلان ثورتهم ، في أعقاب مغادرة الوالي العثماني ازدمر ولاية اليمن ، في حوالي ١٥٥٥ ، وتكليفه بمهمة فتح مناطق جنوبي مصر . وصادف ، في هذه الاثناء ، اضطراب الاوضاع الاقتصادية ، بسبب انهيار الدينار الذهبي وارتفاع الاسعار . وأثر ذلك في العساكر العثمانيين في اليمن فانهارت ، قيمة مرتباتهم ، ولجأوا الى الامام الثائر مطهر بن شرف الدين الزيدي ، فاستغلهم لتعميق ثورته على العثمانيين . واستفاد الزيديون من تقسيم العثمانيين اليمن الى قسمين ، يحكم كلا منهما حاكم برتبة بيلربي ، فقد جعلت منطقة التهايم ، التي تضم زبيد والسواحل ، حيث المدن والغنى ، قسما ، وجعلت صنعاء والجبال حتى تعز ، حيث الثورة والقتال ، قسما آخر . وهدف العثمانيون من ذلك توطيد السلطة العثمانية ، ولكن الذي حدث نقيض ذلك ، اذ أدى هذا الانقسام الاداري الى قيام الخلاف بين حاكمي القسمين ، كما أصبح العساكر فرقتين . وازدادت الثورة الزيدية حدة في أعقاب وفاة السلطان سليمان القانوني واعلان الخطبة لابنه سليم الثاني في مدينة تعز . وكان الامام مطهر الزيدي قد أحتل صنعاء في ٢٩ آب ١٥٦٧ ، واستولت قواته على مناطق اخرى ، بما فيها تعز وعدن . وقد كلف السلطان سليم الثاني والي مصر سنان باشا التوجه الى اليمن للقضاء على الثائرين ، فغادر مصر في ٢٩ آذار ١٥٦٩ ، واستعاد المناطق التي احتلها الزيديون . وبقي في اليمن قرابة عامين يوطد السلطة العثمانية ، ثم غادرها الى جدة في آذار ١٥٧١ بعد وصول الوالي العثماني بهرام باشا المعين على اليمن . وقد وصف قطب الدين محمد المكي انتصار سنان باشا على الثائرين بأنه الفتح الثاني العثماني لليمن (الفتح الاول كان في عام ٩٤٥ / ١٥٣٩) . وكان هذا الانتصار سبب تأليف كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني » وقد كتبه بتكليف من سنان باشا . (١٥)

تنظيم الادارة العثمانية

لجأ العثمانيون ، في اعقاب القضاء على الثورات ، الى تنظيم الادارة العثمانية في البلدان العربية المفتتحة . وقد استمر تقسيم بلاد الشام الى ثلاث ولايات ،

هي : الشام ، وحلب ، وطرابلس ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية • وامتدت ولاية الشام من معرة النعمان حتى العريش ، ولكن ثورة الغزالي جعلت العثمانيين يعيدون النظر في حدود هذه الولايات بشكل لا يتمكن معه الثائرون من استغلال اتساعها وضخامة مواردها المالية ، فأقتصرت ولاية الشام ، بعد ذلك ، على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش وقسمت بدورها الى الصناجق التالية : دمشق أو الشام مركز الولاية ، القدس ، غزة ، صفد ، نابلس ، عجلون ، اللجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك • وقسمت ولايـة حلب الى الصناجق التالية : حلب مركز الولاية ، أضنه ، كلس ، بيره جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، وتركمان حلب واعزاز • وتألفت ولاية طرابلس من صناجق : طرابلس مركز الولاية، حماه ، حمص ، سلمية ، جبلة ، اللاذقية ، والحصن • ولم تكن هذه التقسـيمات نهائية اذ كثيرا ما كان يلغى صنجق ما ، أو يدمج بآخر ، أو يؤسس صنجق جديد • وقد حدث في عام ١٦٦٠ ان سلخ كل من صنجق صفد ، وصنجق صيدا مع بيروت ، عن ولاية الشام ، وتأسست منهما ولايةرابعةفي بلاد الشام ، هي ولاية صيدا • وكانت بعض الصناجق في ولاية ما تلحق ، احيانا ، بولاية أخرى لاسباب معينة ، كما حصل مثلا في القرن الثامن عشر ، حين ألحق صنجقا حمص وحماه بمنصب والي الشام ، على شكل مالكانة ، أي التزام ضرائبها مدى الحياة ، ليستفيد من عائداتها ، وذلك بعد أن أصبح ولاة دمشق أمراء لقافلة الحج الشامي ومسؤولين مباشرة عن تأمين نفقاتها •

وقد أبقى العثمانيون ، في المناطق خارج المدن ، الزعماء المحليين ، الذين قامت زعامتهم على أسس دينية ، أو اقطاعية ، أو بدوية ، طالما أنهم يقدمون الطاعة والضرائب للسلطة العثمانية • واعترف السلطان سليم الاول ، أثناء وجوده في دمشق ، بالمعنيين ، الذين قدموا له الولاء ، امراء على جبل لبنان ، محل التنوخيين ، الذين كانوا امراء الجبل في عهد المماليك ، والذين ايدوا ناصر الدين بن الحنش ، أمير البقاع البدوي ، الذي حاربه السلطان سليم • وليوازن العثمانيون قوة المعنيين اعترفوا بمنافسيهم آل عساف التركمان ، الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالي، التابع لولاية طرابلس ، ووقفوا الى جانب العثمانيين ، فأعطوهم حكم كسروان

وجبيل ، وجعلوا مركز حكمهم في غزير • وليحد العثمانيون من توسع آل عساف ، فقد اعترفوا بمنافسيهم آل سيفا الاكراد ، الذين تمركزوا في منطقة طرابلس ، وحكموها حتى النصف الاول من القرن السابع عشر • وقد دفع آل الحنش ثمن تمركزهم في البقاع الغني بقتال السلطان سليم لهم ، ومن بعده الغزالي ، الذي قتل زعيمهم ناصر الدين ، وطردهم من الحكم ، ثم اعادهم الغزالي الى السلطة ، أثناء ثورته ، ولكنهم اضعفوا بعد القضاء عليه • وحلت محلهم في البقاع ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، أسرة بدوية أخرى هي آل فريخ • واعترف العثمانيون بامارة زعيمها منصور بن فريخ ، لكي يوازنوا بـه قوة آل الحرفوش المتاولة المسيطرين على منطقة بعلبك • كما أنهم اعترفوا بأسرة آل حمادة في البقاع الشمالي ليراقبوا بواسطتهم آل الحرفوش • وقدم أمير منطقة صفد البدوي ، ابن طراباي ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله نائبا على صفد •

واعترف العثمانيون ، في عهـد السلطان سليمان القانوني ، بأسرة الامير مصطفى بن شاهين في حكم غزة ، واستمرت فيها حتى نهاية القرن السادس عشر • ومن مماليك هذه الاسرة المشهورين فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والبلقاء • واعترف العثمانيون كذلك بسلطة الامير قانصوه الغزاوي في منطقة عجلون ـ الكرك ، بعد أن تعهد بالطاعة وتقديم أموال الميري •

وفي مصر أوفد السلطان سليمان ، في أعقاب القضاء على ثورات المماليـك وثورة أحمد باشا الخائن ، وزيره الاعظم ابراهيم باشا اليها لينظم أمورها • وصدر تبعا لذلك القانون نامه ، الذي نظم امور مصر العسكرية والمدنية • فمن الناحيـة العسكرية ذكر القانون نامه ست طوائف عسكرية : ١ ـ الجنليان ، وتعني المتطوعين وذكرت أيضا باسم جمليان (جمع فارسي لكلمة جملي ، أي صاحب الجمل) ، بسبب استخدام افرادها الجمال ، وأيضا باسم كمولية ، كما عند ابن اياس • وأفراد هذه الطائفة من الفرسان الذين اشتركوا في فتح مصر • ٢ ـ التفنكجيان وافرادها من حاملي البنادق الفرسان ، والتسمية نسبة الى تفنك ، أي بندقية • ٣ ـ الشراكسة وافرادها من المماليك • وقد أشير الى هذه الطوائف الثلاث باسم السباهية أي الفرسان • وكانت مهمتهم ، بصورة رئيسة توطيـد الأمن في الاقاليم • ٤ ـ

المستحفظان ، وهم الانكشارية ويسمون أحيانا بالينكجرية ، وقد اشتركوا في فتح مصر ، وأقاموا في القلعة وعرفوا بطائفة السلطان ، لانهم مثلوا ، بصورة خاصة ، السلطة العثمانية في مصر • وعهد الى هذه الطائفةبمهمة الشرطة ، ومن هنا جاءت قوتها في القاهرة ، وسيطر أفرادها على الالتزامات المربحة ، وعلى دار ضرب النقود ، وعنابر المؤن ، ومراكز المكوس ، مما زاد في نفوذها • ٥ ــ العزبان (من عازب) ، وكانوا مشاة مثل الانكشارية ، ومثلهم أيضا اقاموا في القلعة ، ووازنوا قوة الانكشارية • وكانت مهمتهم حماية القلاع في القاهرة وخارجها • وتحكمت هاتان الطائفتان بالسياسة في القاهرة ، وكثيرا ما اصطدمتا مع بعضهما بعضا • ٦ ــ الجاووشان ، وتذكر في المصادر العربية بالجاويشية ، ويبلغ أفرادها أوامر الدولة ، ويكلفون بجباية الضرائب ، وقد سيطر المماليك حين تعاظم نفوذهم ، في القرن الثامن عشر ، على هذه الطائفة •

ولم يذكر القانون نامه الطائفة العسكرية السابعة ، المتفرقة ، التي شكل أفرادها الحرس الخاص للباشا ، والتي لايوجد لها مثيل بهذا الاسم في الولايات العثمانية الاخرى ، باستثناء استانبول ، حيث عرف حرس السلطان بهذا الاسم • ويذكر أنها تأسست في مصر في عام ١٥٥٤ من المماليك ، ثم انتسب اليها أناس جلبوا خصيصا من استانبول ، ومنح أفرادها امتيازات كثيرة واعطوا مرتبات عالية • وبازدياد سيطرة المماليك ، في القرن الثامن عشر ، اصبحت هذه الطائفة ميدانا لنفوذهم • وعهد الى أفرادها أيضا بملاقاة الحجاج العائدين لتأمين سلامتهم • ويبدو أن هذه الطائفة كانت استمرارا لفرقة مملوكية عرفت بالخاصاكية ، وشكل أفرادها حرس السلاطين المماليك • (١٦)

اما من الناحية الادارية فقد أبقى القانون نامه كثيرا من التنظيمات المملوكية بأسمائها المملوكية أحيانا • ويرئس الادارة الباشا ، أي الوالي ، وهو من رتبة وزير ، ويسكن القلعة ، ويوازن سلطته آغاوات (قادة) الطوائف العسكرية ، والقاضي الحنفي ، والدفتردار • وينوب عن الباشا القائم مقام ، الذي يعرف في بلاد الشام باسم المتسلم • أما المتسلم في مصر فهو موظف عند الباشا يبلغ أوامره الى مختلف الجهات • واشترط القانون نامه على الباشا دعوة ديوان للمشاورة أربع

مرات في الاسبوع • ولم يوجد مثل هذا الديوان بشكل منظم في الشام ، بل كان يعقد فيها حين تقتضي الحاجة •

وقد ألغى القانون نامه الاقطاعات في مصر ، وجعلها ولاية من نوع ساليانلي ، أي أن موظفيها يتقاضون مرتبات • وربما الهدف من ذلك منع المماليك من السيطرة على الاقطاعات ومايترتب على ذلك من اقامة مناطق نفوذ لهم • وكانت أموال الميري تجمع من قبل ملتزمين ، وبعد أن تغطى النفقات المحلية ترسل المبالغ المتبقية الى السلطان عادة بطريق الشام ، وتسمى ارسالية خزينة ، أو خزنة • وقد نظم ، في عام ٩٣٣/ ١٥٢٦ — ١٥٢٧ ، دفتر التربيع ، الذي عينت وضبطت فيه مساحات جميع الاقاليم في مصر ، وأعطى الالتزام بموجبه • [١٧]

وتألفت مصر من ولاية واحدة ، مركزها القاهرة • وقسمت الى أقسام ادارية عرفت باسم كشوفيات (مفردها كشوفية ، ويقابلها في بلاد الشام الصنجق) ، ويحكم كلا منها كاشف ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية • وكانت مهمات الكشاف الرئيسة صيانة شبكات الري ، حماية الزراعة ، وجباية الضرائب • وقد استخدم تعبير الصنجق في مصر ليدل على رتبة وليس على وظيفة ، وعرف صاحبه بلقب بك وتقاضى مرتبا من الدولة • ويبدو أن الصناجق في مصر استمرار للامراء المماليك • ورغم أن ذكر الصناجق ورد في القانون نامه بشكل عابر ، الا أن نظامهم ومهماتهم كانت غامضة في مطلع الحكم العثماني • وبدأوا يشتهرون في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، حين أتهم أثنان منهم بقتل والي مصر محمود باشا في عام ١٥٦٧ ، كما اشتركوا بعد سنتين في الحملة التي قادها سنان باشا الى اليمن لاخضاع الزيديين الثائرين فيه • وازداد الصناجق شهرة في النصف الاول من القرن السابع عشر ، حين اتخذ هذا اللقب المماليك أصحاب السطوة انذاك • وعين الصناجق كشافا ، وأمراء لقافلة الحج ، ودفتر دارين ، وقادة للحملات العسكرية •

وقد قسمت العراق في أعقاب الفتح العثماني الى أربع ولايات : ولاية بغداد ، وتضم بالاضافة الى بغداد مركز الولاية ، ثمانية عشر صنجقا أو لواء ، ستة منها تضم اقطاعات من نوع زعامت وتيمار ، وهي : الحلة ، زنك آباد ، الجزائر ، الرماحية ، جنكولة ، قره طاغ ، والبقية لاتضم أي زعامت او تيمار ، ولكن يوجد

فيها اقطاع من نوع الخاص لامير اللواء ، وهي : درتنك ، السماوة ، البيات ، درنة ، ده بالا ، واسط ، كرته ، دمير قبو ، قرانيه ، كيلان ، آل صاح ، والعمادية ، ولاية البصرة ، ولم يكن فيها صناجق أو اقطاعات وتجبى ضرائبها بواسطة الالتزام ، ولاية الاحساء ، ولا توجد فيها زعامت أو تيمار ، ولايـة الموصل ، وتضم ستة صناجق او ألوية ، وهي : باجوان ، تكريت ، اسكي موصل ، خرور ، بأنه ، ثم ولاية شهرزور ، وتضم اقطاعات من نوع زعامت وتيمـار ، وتقسم الى واحد وعشرين صنجقـا ، بالاضافة الى شهرزور ، وغالب أسمائها لاتعرف اليوم . وباستثناء ولايتي البصرة والاحساء ، اللتين كانت لهما أوضاع خاصة اذ سيطرت عليهما ، لفترات طويلة ومتعددة ، أسر محلية حاكمة ، معظمها بدوي ، فأن الولايات تتشابه الى حد كبير مـع ولايات الشام في نوعية الوظائف والموظفين الاداريين الموجودين فيهـا .

ومنذ أن فرض العثمانيون نفوذهم على بعض مناطق اليمن ، وبخاصة الساحلية منها ، جعلوها ولاية عثمانية واحدة ، ولم يعرف الاستقرار النسبي في المناطق التي سيطر عليها العثمانيون الا في عهد الوالي أزدمر الذي حكمها حوالي خمسة أعوام، بين ١٨ جمادى الاول ٩٥٦ / ١٤ حزيران ١٥٤٩ وعام ٩٦٢ / ١٥٥٤ — ١٥٥٥ . وعمد العثمانيون في شوال ٩٧٣/ نيسان — أيار ١٥٦٦ الى تعيين واليين في اليمن : أحدهما أعطى ولاية زبيد والتهائم والسواحل والآخر ولاية تعز وصنعاء والجبال في محاولة لتوطيد السلطنة العثمانية في الظاهر ، وأيضا لايجاد المناصب للمرشحين . وكان لهذا الاجراء أثر سلبي اذ انقسمت العساكر وتشتت الامكانات الاقتصادية بنتيجته ، وضعف النفوذ العثماني بالتالي ، مما شجع الناقمين المتربصين من زعماء البلاد على الثورة على الدولة العثمانية . وصادف في هذه الاثناء وصول نبأ وفاة السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، فاستغل ذلك الامام مطهر الزيدي للثورة على العثمانيين ، وكلف الوالي سنان باشا بالقضاء على ثورته ، كما سبق القول . ويبدو أن ولاية اليمن عادت ، في أعقاب ذلك ، الى حكم وال واحد ، لان المصادر المحلية لم تعد تذكر تعيين واليين . ويعلق صاحب « الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » ، على الفترة التي تلت هزيمة الزيدية بقوله :

فلم تزل البكلربكية تتوالى من الابواب العالية واحدا بعد واحد .. الى الآن »(١٨)
أي ربيع الثاني ١٠٣١ / شباط ـ اذار ١٦٢٢ الذي توقفت عنده احداث المخطوط .

ولم توجد في ولاية اليمن اقطاعات بل تقاضى موظفوها، بما في ذلك الجنود ، المرتبات السنوية ، وعرفت تبعا لذلك بأنها من نوع ساليانلي ، أي سنوي . وما كان يزيد عن الموارد ، بعد تسديد النفقات كان يرسل الى استانبول .

وفي السودان اقتصر الوجود العثماني على ولاية الحبش ، التي ضمت مينائي سواكن ومصوع . وقد تضاءل النفوذ العثماني ، في هذه الولاية . بعد عهد أزدمر الذي انشأها . وربما كانت هذه الولاية مقسمة الى صناجق في القرن السادس عشر ، ولكن اوليا جلبي في القرن السابع عشر ، يذكر انها لم تضم صناجق في عهده ، كما لم تضم زعامت او تيمار . ولم تختلف سلطة العثمانيين ، في هذه الولايــة ، في القرن السابع عشر ، عما كانت عليه في ولايتي اليمن والاحساء ، اذ كانت اسمية في جميعها ، لكونها مناطق اطراف . ويذكر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أن حاكما قبليا حل مكان الوالي العثماني في حكم هذه الولاية ، ولقب بالنائب .

فترة الهدوء بالقــوة

سادت الولايات العربية ، في اعقــاب القضاء على الثورات فيها وادخال التنظيمات الادارية اليها ، فترة من الهدوء دامت في بلاد الشام ومصر والعراق قرابة نصف قرن ، وتخللها كثير من الاضطرابات في ولايات الاطراف في البصرة والاحساء واليمن وشمال افريقية . وانعكست قوة الدولة وشهرتها المتزايدة ، بخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني ، على الولايات العربية ، فسادها جو من الرهبة ، وهى تشهد ، على فترات متقاربة ، اقامة الزينات فيها تخليدا لانتصار عثماني كبير في أوروبا ، أو فيغيرها من الجبهات . وتجلت هيبة الدولة ونشاط الادارة فيها في أشخاص الولاة الذين عينوا على الولايات العربية . فقد اتوا اليها ووراءهم امجاد عريضة في ميدان المعارك ، وهو المجال الرئيس لصنع البطولات في عهد الفتوحات آنذاك ، وبرهنوا انهم على مستوى المسؤولية الادارية ، فحققوا الأمن ، وشيدوا الاوابد ، ومعظمها ذات نفع خيري ، كالجوامع والمدارس والسبل

لتخليد ذكراهم • ولم تشهد أية فترة ، في العهد العثماني ، ماشهدته الولايات العربية ، في هذه الفترة ، من نشاط اداري وعمراني •

وتجلى النفوذ العثماني في بلاد الشام ، في أعقاب القضاء على ثورة الغزالي في عام ١٥٢٠ ، في هوية كبار الموظفين ، فكان الولاة ، بلا استثناء من أصل رومي ؛ أي من غير السكان المحليين ، يتقبلون عزل الدولة لهم وينفذون اوامرها بدون تمرد • وكان القضاة الحنفيون ، منذ أن عز ل ولي الدين بن الفرفور الدمشقي ، عن منصب القاضي الحنفي في ٩٣٥ / ١٥٢٨ ــ ١٥٢٩ ، من أصل رومي • أما المفتون فنظرا لبقائهم في مناصبهم عادةحتى وفاتهم ، كانوا يضمون أناسا من أصل محلي وآخرين من أصل رومي • وكانت نسبة هؤلاء الاخيرين غالبة في هذه الفترة •

وقد أخلد السكان في ولاية الشام الى الهدوء، وأذهلهم مارأوه من كثرة الجنود وعربات المدافع التي استخدمها العثمانيون في القضاء على ثورة الغزالي • وقد عزز العثمانيون الحامية الانكشارية في القلعة في أعقاب ذلك • كما أن انتصارات العثمانيين بصورة خاصة في البلقان ، والزينة التي كانت تأمر بها الدولة في دمشق ، كما في غيرها من الولايات ، في مثل هذه المناسبات ، أظهرت للسكان قوة الدولة وجبروتها • ويقول ابن جمعة ، مثلا، في أحداث سنة ٩٣٢ / ١٥٣٥ ــ ١٢٥٦ ، «وفي يوم الاربعاءسادس عشرى القعدة وصلت الى دمشق البشائر بأن السلطان قد انتصر على ملك مدينة بدون مع مدينة قرون وأربع وعشرين قلعة • وقتل فيها من المشركين مايتان وثمانون ألفا ومن المسلمين ثمانون ألفا ، فنودى بالزينة سبعة أيام ، ثم بعد خمسة أيام قدم البشير فنودي بالزينة سبعة أيام آخر »[١٩] •وفي الفترة بين٩٢٧و٩٣٦ زينت دمشق أربع مرات احتفالا بانتصارات العثمانيين العسكرية • كما أن حملات ولاة دمشق ضد أمراء جبل لبنان ، عقب القضاء على الغزالي ، والاتيان برؤوس القتلى من الجبل ورميها في دمشق ، أرهبت سكان الجبل بقدر ما أرهبت سكان دمشق ، وزادت بالتالي من هيبة الدولة • ولم يتورع العثمانيون عن سجن العلماء أصحاب الشأن في دمشق آنذاك • ويذكر ان والي دمشق أياس باشا سجن في ٩٢٧ / ١٥٢١ الشيخ تقي الدين القاري الشافعي بسبب انتقاده للحنفية وقوله بأن العثمانيين أهل بدع • وقد أفرج عنه بتوسط أحد المعتقدين بابن عربي ، ولكنه

حرم من امتيازاته [٢٠] • وحدث أيضا في ٩ شعبان ٩٤٢ / ٢ شباط ١٥٣٦ ان قتل والي دمشق محمد كزل باشا اثنين من العلماء ، رغم معارضة مفتي الحنفية ، بتهمة أنهما رافضيان [٢١] • وقام والي دمشق فرهاد باشا في ١٥٢١/٩٢٨ ــ ١٥٥٢ بسجن وتغريم الدمشقيين ، الذين هدموا الاصطبلات في بيوتهم بقصد عدم ايواء العثمانيين فيهـا •

وفي حلب شدد واليها عيسى باشا (٩٣٥ ــ ٩٣٧ / ١٥٢٨ ــ ١٥٣١) قبضته ضد نفر من أعيانها ، في أعقاب مقتل قاضي حماة الرومي فيها ، بسبب احتكاره الملح والحنطة ، وأهان بخاصة العلماء • ووصف حسـين باشا ، والي حلب ، في ١٥٣٤/٩٤١ ــ ١٥٣٥ بأنه «كان كثير القتل بغير سـجل شرعي ، سفاكا للدمـاء على صورة قبيحة من تكسير الاطراف والاحراق بالنار » [٢٢] وتتبع مصطفى باشا ، والي حلب ، في ١٥٤٤/٩٥١ ــ ١٥٤٥ ، قطاع الطرق ، ليلا ونهارا ، بنفسه وعسكره وأظهر سطوته على اللصوص •

والى جانب هذه النماذج من تسلط الولاة ، نجد ان بعضهم ترك في هذه الفترة آثارا هامة ، فالوزير لالا مصطفى باشا ، الذي ولي على دمشق في الفترة بين ٩٧١ ــ ١٥٦٣/٩٧٦ ــ ١٥٦٩ ، بنى الخان المعروف بأسمه تحت قلعة دمشق ، ويقوم مكانه اليوم سوق الهال ، كما أنه بنى جامـع المرادية نسـبة له ، ولا يزال قائما حتى اليوم • وحين ولي درويش باشا على دمشق في عام ١٥٧١/٩٧٩ ــ ١٥٧٢ أمر ببناء جامع فيها عرف باسمه ، وهو جامع الدرويشية المعروف اليوم قرب بـاب الجابية ، وذلك بالاضافة الى مآثر أخرى ، كعمارته لسبل مختلفة ولحمام ، بالقرب من الجامع الاموي ولقيسارية قرب سوق الجوخ • وفي عام ٩٩٩ / ١٥٩٠ ــ ١٥٩١ تم بناء جامع السنانية بدمشق قرب باب الجابية ، وكان قد أمر ببنائه سنان باشا الوزير الأعظم ، الذي عين واليا على دمشق عام ١٥٨٩/٩٩٨ ــ ١٧٩٠ ، وعزل في العـام ذاته •

وفي حلب بنيت آثار هامة في هــذه الفترة • ففي عـام ٩٥٢ / ١٥٤٥ ــ ١٥٤٦ ، أمر خسرو باشا ، وكان وزيرا آنذاك في استانبول ، وسبق ان تولـى حلب في عـام ٩٣٨ ، كتخداه فروخ ، والي حلب ، ببناء جامع وتكية ضمت المدرسة

الخسروية ، وأوقف عليهما خان وسوق • وبنى محمد باشا دوقه كين ، والي حلب في٩٥٧ ، عدة خانات فيها منها الخان المعروف اليوم بخان الفرايين ، وخان النحاسين والخان المشهور بخان العلبية • وبنى بهرام باشا اثناء توليه حلب عام ٩٨٨/١٥٨٠ ١٥٨١ ، جامعه المشهور بالبورامية في محلة الجلوم •

والآن نتساءل لماذا بنيت هذه الابنية ذات النفع العام في هذه السنوات المتلاحقة ولماذا لم يبن مثلها في السنوات السابقة أو اللاحقة من الحكم العثماني ؟ اذا تمعنا في شخصيات البناة ، وجدنا أن لالا مصطفى باشا مثلا كان في السابق وزيرا اعظما وقد اشترك في فتح قبرص • أما مراد باشا فيوصف أنه صاحب الخيرات والحسنات • وكان درويش باشا وزيرا اعظما ، وقد توجه الى الحجاز أميرا على قافلة الحج في عام ٩٧٤ / ١٥٦٧ • اما سنان باشا فكانت له أعمال خيرة كثيرة في مختلف البلدان وقد اشتهر أمره باخضاع الثائرين في اليمن (١٥٦٩ — ١٥٧١) ، وبنى مالايقل عن اربعين مسجدا جامعا في مناطق مختلفة • وحاز محمد دوقه كين والي حلب المناصب العالية في الدولة ، وكان ايضا يمت بالقرابة الى السلطان العثماني ، وهكذا فبالاضافة الى صفات الغنى والخير والشهرة التي اتصف بها هؤلاء الولاة ، يجب أن نذكر أنه في هذه الفترة التي حكموا فيها بلغت الامبراطورية العثمانية أوج مجدها ونالوا هم من هذا المجد الشيء الكثير • فلاعجب بعد أن حاز هؤلاء الاشخاص المناصب العالية والشهرة في الدولة ان يخلدوا ذكرهم بهذه الاعمال الخيرية بخاصة في دمشق عاصمة الخلافة سابقا ومركز انطلاق الحجاج القادمين من اقطار مختلفة فيرى هؤلاء أعمالهم ، وينقلون أخبارها الى بلادهم • ولعل هذه الأسباب هي التي حدت بالسلطان سليمان القانوني أن يأمر ببناء التكية السليمانية في دمشق ، في موضع القصر الأبلق بالوادي الاخضر (مقابل متحف دمشق اليوم) • وقد بوشر ببنائها في عام ٩٦٢ / ١٥٥٤ — ١٥٥٥ وانتهى ذلك في اوائل صفر ٩٦٧ / اوائل تشرين الاول ١٥٥٩ •

ويدل بناء الخانات على نشاط التجارة في بلاد الشام في هذه الفترة • وكان الفرنسيون ، منذ عام ١٥٣٦ يتمتعون بامتيازات شملت العلاقات التجارية ، في الدولة العثمانية ، وقد اعفتهم هذه الامتيازات من الخضوع لكثير من قوانين البلاد •

وفي حين أن الفرنسيين اهتموا بالتجارة مع المناطق الجنوبية من بلاد الشام ، بواسطة مينائها الرئيس صيدا ، فقد حصر الانكليز اهتمامهم في منطقة حلب ، واعتمدوا ، أكثر من الفرنسيين ، على تجارة المرور ، واستخدموا ميناء الاسكندرونة لنقل بضائعهم . وكانوا يستوردون الحرير من بلاد فارس ، ويصدرون اليها ، والى بلاد الشام ، المنسوجات الانكليزية ، ومواد الصباغة . وقد أسسوا في عام ١٥٨١ شركة بلاد المشرق التي تركز نشاطها في بلاد الشام .

وكانت علاقات الولاة بالامراء في ولاياتهم تدور حول تحقيق الامن في أرجاء الولاية وجمع الضرائب (مال الميري) من الأمراء الملتزمين . وفي عامين متتالين ، ١٥٢٣ — ١٥٢٤ ، شن والي الشام خرم باشا ، الحملات على دروز الشوف ، فأخلدوا الى السكينة ، واستمر الامر كذلك حتى قيام فخر الدين المعني الثاني وتحديه للعثمانيين في العقد الإخير من القرن السادس عشر .

وقد شجع العثمانيون قيام امراء محليين متعددين في بلاد الشام ، لايجاد نوع من توازن القوى بينهم ، ولعدم جعل أي أمير قويا الى درجة يهدد معها أمن المنطقة ولهذا نجد في ولايتي الشام وطرابلس ، في القرن السادس عشر ، عدة أمراء محليين استطاعوا أن يثبتوا نفوذهم محليا ، فاعترف العثمانيون بسلطتهم .

وحاول العثمانيون اخضاع القبائل البدوية ، وذلك بشن الحملات التأديبية ضدها وبناء القلاع وتحصينها لمراقبتها . وعمدوا كذلك الى شراء خضوعها بالمال ، وذلك لتأمين سلامة قافلة الحج الشامي . وفي الواقع فقد ساد الاستقرار في الريف في هذه الفترة ، مما شجع الزراعة ونشط حياة القرية ، ويفسر هذا ازدياد عدد القرى في بلاد الشام في القرن السادس عشر .

وشهدت ولاية مصر ، اثر القضاء على الثورات فيها ، واصدار القانون نامه الناظم لشؤونها ، فترة من الهدوء تجلت فيها قوة الولاة في مصر وخارجها . فقد ذكر عن الوالي مسيح باشا الخادم (١٥٧٥ — ١٥٨٠) انه قضى على اللصوص وقطاع الطرق في مصر ، وأرهب الكشاف فيها . وشددت الدولة من قبضتها على الصعيد ، الذي يزود مصر بالحبوب ، فعينت عليه حاكما من قبلها ، في الربع الاخير

من القرن السادس عشر ، بدلا من حكامه التقليديين ، مشايخ البدو من قبيلة هوارة ، الذين اعترفت بامارتهم عليه في أعقاب الفتح العثماني .

واشتهر من الولاة خارج مصر كل من سليمان باشا الخادم ، الذي ولي مصر مرتين بين ١٥٢٥ ــ ١٥٣٥ و ١٥٣٦ ــ ١٥٣٨ ، وسنان باشا الذي وليها أيضا مرتين ١٥٦٧ ــ ١٥٦٨ و ١٥٧١ ــ ١٥٧٤ . واشتهر الاول بحملاته في اليمن والمحيط الهندي فاحتل عدن في ١٥٣٦ ، وقاوم البرتغاليين في المحيط الهندي ، وحاول السيطرة على تجارة الشرق الاقصى . وفي طريق عودته وطد السلطة العثمانية في مدن اليمن الرئيسة وعد ذلك بدء الفتح العثماني لها . واشتهر سنان باشا بحملاته في اليمن ضد الثائرين الزيديين ، وعد ذلك الفتح العثماني الثاني لها . ويلاحظ في هذه الفترة ، طول عهد الولاة في مصر ، بالنسبة للفترات اللاحقة . ويذكر مثلا أن داود باشا حكم مصر أحد عشر عاما (١٥٣٨ ــ ١٥٤٨) ويمكن تفسير ذلك بالهدوء النسبي الذي عم مصر ، وبالنفوذ الذي حصل عليه الولاة ، وبالخدمات التي أدوها الى الدولة ، وقد أصبح عدد منهم صدورا عظاما في الدولة العثمانية .

وعلى غرار الولاة في الشام ، قام الولاة العثمانيون في مصر ببناء ابنية مختلفة منها ماهو للنفع العام ، ومنها ماهو للنفع الخاص ، وجميعها خلدت أسماءهم ، وكانت تعبيرا عن النفوذ والغنى اللذين بلغوهما . وقد بنى سليمان باشا الخادم عدة جوامع وأسواق ووكالات (أي خانات أو قيساريات ، في تعابير بلاد الشام) . وبنى داود باشا مدرسة جعل لها أوقافا . كما بنى سنان باشا عدة جوامع وربط وتكايا ، وقد اشتهر بذلك حيثما حل . وبنى الوالي اسكندر باشا (١٥٥٦ ــ ١٥٥٩) جامعا ومدرسة وتكية وسبيلا ، واوقف عليها الأوقاف ، وبنى الوالي مسيح باشا مدرسة سميت بالمسيحية نسبة اليه ، ورصد لها الأوقاف[٢٣] .

وفي العراق أظهر الولاة العثمانيون كثيرا من النشاط والبأس في تأمين النظام داخل المدن ، وفي قتال القبائل البدوية والكردية خارجها ، وكذلك في صد تدخلات وهجمات الصفويين عبر الحدود . ويلاحظ أن الولاة الذين اشتهروا في هذه الاعمال ، أو تمتعوا بالسمعة في غيرها ، قد خلدوا أمجادهم في بغداد ببناء الجوامع

وغيرها من الأعمال ذات النفع العام ففي عام ٩٧٨/١٥٧٠ بنى والي بغداد مراد باشا جامع المرادية في حي الميدان • وفي عام ٩٩١/١٥٨٣ ، عمر مرقد الحسين في بغداد من قبل واليها • وفي عام ٩٦٦/١٥٨٧ عمر والي بغداد سنان باشا جغال زادة ، الذي قام بحملات ناجحة ضد الصفويين ، جامع الصاغة ، أو جامع الخفافين ، وأعاد بناء التكية المولوية التي تعرف باسم جامع أصافية • كما بنى خانا ، وأسواقا في بغداد ، مما يدل على ازدهار الحالة الاقتصادية فيها • وفي عام ١٠٠٨/١٥٩٩ بنى حسن باشا جامع الوزير في بغداد ، في أعقاب انتصاره على الثائر مبارك في منطقة البصرة ، وأحاط الكرخ بسور وخندق لحمايتها من البدو •

ونشطت الحياة التجارية في العراق ، في هذه الفترة ، وأصبحت بغداد مركزا تجاريا كبيرا للجزيرة العربية ، وبلاد فارس ، والامبراطورية العثمانية ، وزارها عدد من الرحالة والتجار الأجانب • وقد شاهد سيزار فريد ريغو في بغداد في عام ١٥٦٣ ، عددا من التجار الاجانب • وذكر انطوني شيرلي أنه رأى في بغداد ، في عام ١٥٩٠ ، أنواعا مختلفة من البضائع الممتازة بأسعار مناسبة • وشاهد رالف فيتش في عام ١٥٨٣ ، رصيفا للمراكب التجارية في بغداد • وكانت بغداد الشرقية محصنة بسور وخندق ، بينما كانت المنطقة الغربية مفتوحة وهي أشبه بقرية كبيرة • ووجد في بغداد دار لضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية(٢٤) •

أما في اليمن فبعد أن قضى سنان باشا على تمرد الزيديين وأعاد الهيبة العثمانية الى البلاد ، استتب الأمن في أعقاب ذلك • ويقول صاحب « الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » أن البلاد أمنت وطابت خواطر العباد(٢٥) • وكان الولاة العثمانيون ينشرون في اليمن أجنحة العدل والاحسان والأمن والأمان •

وكان الهدوء من أبرز مظاهر حكم الوالي بهرام باشا ، الذي تلا سنان باشا • وقد حكم اليمن مدة خمسة أعوام ، وعرف عنه الشدة والتنكيل ، مما أرهب الاهلين في كافة أرجاء اليمن ، وجمع الأسلحة النارية من السكان المحليين لمنعهم من القيام بالثورات • ومع ذلك انصرف بهرام باشا الى التنظيم والعمران ، فضرب السكة في مدينة ملحط ، فعرفت تبعا لذلك بالملحطية • وبنى فيها جامعا وأبنية أخرى ، فيها وفي تعز ، شارك فيها مساعدوه • وفي عهد الوالي مراد باشا (٩٨٤ ـ

٩٨٨/١٥٧٦ ــ ١٥٨١) ، تأكد الأمن والهدوء • وقد كافح مظاهر التسلط بين الاداريين والجنود العثمانيين مما أرضى السكان المحليين ، وجعلهم أكثر خضوعا ، بخاصة وأنه كافح أية بادرة للثورة بينهم • ولم يتدخل هذا الوالي في نزاعات الزيديين الداخلية اعتقادا منه أن أي تدخل سيساعد على رص صفوفهم وتكتلهم ضد العثمانيين • وقد أتاحت فترة الهدوء لمراد باشا بناء عدد من الابنية الهامة منها السمسرة الكبيرة (أشبه بالتكية) ، شرقي مدينة تعز ، التي ضمت أربعا وستين مسكنا موزعة على طابقين وبنى سمسرة أخرى في تعز ، واشترى بيوتا وبساتين أوقفها عليها • كما أنه بنى جامعا كبيرا في صنعاء[٢٦] • وحين ولي بهرام باشا ، بعد ذلك ، على دمشق عام ٩٨٩/١٥٨١ ــ ١٥٨٢ ، بنى فيها سوقا عند باب البريد وقيسارية لاعمال التجـار •

ومن الولاة المشهورين في اليمن ، في القرن السادس عشر ، الوالي حسن باشا الذي عين على اليمن بين ٩٨٨ و ١٠١٣/١٥٨٠ و ١٦٠٥ • وقد استفاد من الاستقرار الذي تحقق في عهد سابقيه ، وأتاح له طول ولايته وسياسة الشدة واللين التي اتبعها ، التمتع بسمعة كبيرة في اليمن وخارجها ، وبخاصة بعد احباطه محاولة الامام القاسم الزيدي للثورة على العثمانيين ، مما دعا بعض الاخباريين الى وصفه بفاتح اليمن الثاني ، ونافس بذلك سنان باشا • وأمر حسن باشا ببناء عدة أبنية في اليمن منها قصر له في تعز ، ومساجد وأقنية وغيرها •

واذا حدثت بعض الاضطرابات في هذه الفترة في اليمن ، فهي ضمن الطبقـة الحاكمة العثمانية ، ومبعثها التنافس وتدخل العساكر فيها • ويبدو أن هذا الوضع قد شجع الأسرة الزيدية ، ممثلة بالامام القاسم ، على الثورة في الفترة بين ١٥٩٧ و ١٦٠٢ • ولكن العثمانيين ، في عهد الوالي حسن باشا ، قضوا على ثورته ، ثم عاد الزيديون الى الثورة ، بشكل أوسع ، بعد ذلك ، حتى سيطروا على اليمن في عام ١٦٣٥ •

★ ★ ★

١ ــ انظر :

R. M. Savory, « The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il (907-930 / 1501-24), **Bulletin of the School of Oriental and African Studies**, XXIII, 1 (1950), pp. 19-99.

٢ ــ انظر :

Halil Inalcik, « The Rise of the Ottoman Empire», **The Cambridge History of Islam**, Vol. I, p. 317.

٣ ــ انظر حول تفاصيل هذه الاحداث كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٩٦ ــ ١٠١ .

٤ ــ انظر تفاصيل هذه الاحداث في : محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ٣٠ .

٥ ــ انظر حول فتح مصر : محمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الاجزاء ٣ ــ ٥ ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٠ ، جزء ٥ ، ١٥٩ ــ ١٧٧ .

٦ ــ انظر حول تفاصيل احتلال بغداد :

S. Longrigg, **Four Centuries of Modern Iraq**, Oxford, 1825,pp.12-26.

R. Mantran, « Bagdad à l'époque Ottoman», **Arabica**, 1962, pp. 311-313.

٧ ــ انظر حول احتلال العثمانيين الاحساء :

J. Mandaville, «The Ottoman Province of Al-Hasa in the sixteenth and seventeenth centuries», **Journal of the American Oriental Society (JOAS)**, vol. 90, No.3 (July-Sept. 1970), pp. 486-512.

٨ ــ انظر حول احداث اليمن : قطب الدين محمد بن احمد النهروالي المكي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، نشره حمد الجاسر تحت عنوان : غزوات الاتراك في جنوب الجزيرة العربية ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧ ، ص ١١ ــ ١٥٢ ، عبد الصمد بن اسماعيل الشهير بالموزعي ، الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، نسخة بالميكرو فيلم مصورة عن نسخة مكتبة علي اميري باستانبول ، معهد المخطوطات المصورة ، الجامعة العربية ، القاهرة ، رقم ١٠١ تاريخ ، فيلم ٧١٢٠ ، الاوراق ١ ، ١ ــ ١٠ .

٩ ــ انظر :

P.M. Holt, **A Modern History of the Sudan**, London, 1961, pp. 23-25, **Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922**, London, 1966, pp. 52-54.

١٠ ــ انظر تفاصيل هذه الثورة في كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١١٥ ــ ١٢١ .

١١ ــ انظر : ابن زنبل ، ٨٨ آ ، محمد بن عبد المعطي الاسحاقي ، اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول ، القاهرة ، ١٣١٥ ، ص ١٣٥ ، نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة ، ٣ اجزاء ، تحقيق جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ ــ ١٩٥٩ ، ج ١ ، ١٥٦ ــ ١٥٩ ، ٢١٦ ، مرعي بن يوسف الحنبلي ، نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod-Arab. 889 ، الاوراق ، ٦ ــ ٢ ب ، ٧ ــ ٢ آ ، وكذلك :

H. Inalcik, **E. I.** 2, s.v. Ahmad Pacha Kha'in

١٢ ــ انظر تفاصيل ذلك في كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٥٤ ــ ١٥٧ .

١٣ ـ العزاوي ، ج ٤ ، ص ٤٩ ـ ٥١ ، ٥٦ ـ ٥٧ .

١٤ ـ المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٦ ـ ٨١ .

١٥ ـ انظر : قطب الدين المكي ، ص ١٤ ـ ١٦ ، ١٥١ ـ ٦٠٣ ، ابن ابي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٥ آ ، الاسحاقي ، ص ١٣٧ .

١٦ ـ انظر :

S. J. Shaw, **The Financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798**, Princeton, 1962, pp. 191-196, **Ottoman Egypt in the age of the French Revolution,** Harvard, 1964, pp. 84-89, 94-95; P.M. Holt, «The Beylicate in Ottoman Egypt during the seventeenth century», BSOAS, XXIV,2(1961), pp. 216,223,

١٧ ـ انظر : احمد شلبي ، اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، مخطوط في جامعة Yab ، في الولايات المتحدة ، رقم Landberg, 3 ورقة ٤ آ .

١٨ ـ ورقة ١٦ آ ، الاوراق ١٦ ب ـ ١٧ آ .

١٩ ـ محمد بن جمعة ، الباشات والقضاة ، مخطوط حققه د. صلاح الدين المنجد مع مخطوط رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق ، في كتاب بعنوان : ولاة دمشق في العهـد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ ، انظر ، ابن جمعة ، ص ٩ .

٢٠ ـ محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق الشيخ محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٢٣٨ .

٢١ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

٢٢ ـ محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥ /١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

٢٣ ـ انظر حول هؤلاء الولاة : احمد شلبي ، الاوراق ، ٥ آ ـ ٧ أ ، الاسحاقي ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، ابن ابي السرور ، التحفة البهية ، الاوراق ، ٤١ آ ـ ٤٧ آ .

٢٤ ـ انظر : A. Duri, E.I.2, S.V. Bagdad

٢٥ ـ الورقة ، ٦ آ .

٢٦ ـ المصدر السابق ، الاوراق ، ١٨ ب ـ ٢٢ب

الفصل الثالث

الثورة على العثمانيين

من النصف الثاني للقرن السادس عشر وحتى الربع الاول من القرن الثامن عشر

الضعف العثماني

بلغت الدولة العثمانية أقصى توسعها في عهد السلطانين سليم الاول وسليمان القانوني ، وطغت انتصاراتها على بذور الضعف التي أخذت في الظهور منذ عهد سليم الاول • وفي عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ — ١٥٧٤) ظهرت علائم الضعف العثماني ، فتجمدت حدود الامبراطورية ، ثم أخذت بالتقلص بعد ذلك • ففي أوروبا واجه العثمانيين أعداء أشداء يتزعمهم امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة شارلكان (شارل الخامس) واضطروا الى عقد معاهدة مع آل هابسبورغ في عام ١٥٦٢ •

وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون مشتغلين بالاخطار على الجبهة الصفوية ، في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) ، كانت أوروبا تمزقها حروب الثلاثين عاما (١٦١٨ — ١٦٤٨) ، التي كانت في أساسها حروبا سياسية ودينية ، بين كاثوليكي وبروتستانتي ألمانيا • وسرعان ما اشتركت فيها السويد وفرانسا واسبانيا • وحين استعادت الجبهة الاوروبية نشاطها في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، صد جيش نمساوي — الماني — بولوني هجوم العثمانيين للمرة الثانية على فيينا في صيف عام ١٦٨٣ • واندفع النمساويون ، في أعقاب ذلك، فاحتلوا مناطق عثمانية في هنغاريا واليونان وعلى سواحل البحر الاسود • وهزم النمساويون وحلفاؤهم العثمانيين في معركة موهاج الثانية في عام ١٦٨٧ ، وفي معركة زيتا في عام

١٦٩٧ • ووقع العثمانيون في ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩ معاهدة كارلوفيتز مع آل هابسبورغ وتخلوا لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا • وكانت هذه أول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمور في ١٤٠٢ • كما كانت هذه أول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين ، وتخلوا بموجبها عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة • ولم يتمكن العثمانيون بعد ذلك من استعادة ماخسروه ، بل تخلوا عن مناطق اخرى • وفي عام ١٧١٨ تخلت الدولة العثمانية عن مناطق بنات تمسفار والافلاق الصغرى وبلغراد وأجزاء من شمالي صربيا للنمسا ، بموجب معاهدة باساروفيتز •

وقد ظهر عداء قياصرة روسيا للدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر وكان هدفهم السيطرة على البحر الاسود • ولم يشعر العثمانيون ، من ناحيتهم ، بخطر دوقية موسكو الكبرى حتى عام ١٥٣٠ ، حين اصطدمت هذه الدوقية مع خانات القرم الذين وقفوا في وجه توسعها في اصطراخان وقازان • وعندما فرض العثمانيون نفوذهم على شبه جزيرة القرم هرع الروس الى فرض نفوذهم على اصطراخان وقازان في النصف الثاني من القرن السادس عشر • وفي عام ١٦٩٦ توصل القيصر بطرس الاكبر الى الاستيلاء على بعض مناطق آزوف • ورغم استعادة العثمانيين هذه المناطق ، بعد قليل ، فقد بقيت روسيا أكثر دول أوروبا عداء وتهديدا للدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر •

وفي الجبهة الشرقية توقفت الجيوش العثمانية عند حدود العراق مع فارس ، ولم تستطع التوغل أبعد من ذلك لاسباب سياسية وعسكرية واستراتيجية • وقد حاول الصفويون ، في عهد الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ــ ١٦٢٩)، اقامة تحالف مع آل هابسبورغ ضد العثمانيين ، وتمكنوا من احتلال بغداد وأجزاء اخرى من العراق في عام ١٦٢٣ • ولم يستطع العثمانيون طردهم منها حتى عام ١٦٣٨ • وانحسر بعد ذلك الخطر الصفوي عن العراق الى أن قضي الافغان على نفوذ السلالة الصفوية في عام ١٧٢٢ وتجددالعداء بين سلطات فارس والعثمانيين في أعقاب ذلك •

وتوقف النفوذ العثماني عند أطراف الجزيرة العربية بسبب صعوبة اختراق المحيط الهندي وخطر مجابهة البرتغاليين المسيطرين عليه • واقتصرت السلطة

العثمانية على سواحل اليمن وعدن ، وعلى مناطق سواكن ومصوع على الساحل الافريقي الشرقي • وسيطر العثمانيون ، في الخليج العربي ، على البصرة والاحساء ، وقاموا بمحاولات لاحتلال هرمز من البرتغاليين • ومكنهم ذلك من التحكم بتجارة الهند مع اوروبا ، عبر البصرة • واستمرت هذه التجارة ناشطة حتى الربع الاول من القرن السابع عشر حين بدأت تنافسها التجارة الهولندية والانكليزية التي اعتمدت على سفن كبيرة سارت حول رأس الرجاء الصالح •

واقتصر الحكم العثماني في شمال افريقية ، على المناطق الساحلية ، باستثناء المغرب الاقصى • وحدت الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقة الداخلية من توسع العثمانيين فيها • وفي المتوسط تخلى العثمانيون عن مالطة في ١٥٦٦ ، ولكنهم احتلوا قبرص في ١٥٧٠ ــ ١٥٧١ ، قبل أن يحطم أسطول غربي ، ضم قوات بندقية واسبانية وبابوية ، الاسطول العثماني في موقعة ليبانتو في ٧ تشرين الاول ١٥٧١ وفقد العثمانيون ، في أعقاب ذلك ، السيطرة البحرية في المتوسط •

وظهر تقهقر القوة العثمانية ، في فترة الضعف هذه ، في تبدل الاماكن التي عقد فيها اتفاقيات الصلح • ففي فترة القوة العثمانية كان الاعداء يأتون صاغرين الى استانبول لتوقيع الاتفاقيات كمنهزمين • وفي فترة الضعف انتقل العثمانيون الى الحدود لتوقيع المعاهدات كخاسرين • وفي فترة الانحطاط في القرن الثامن عشر ، ذهب العثمانيون الى مدن الاعداء لتوقيع الاتفاقيات كمنهزمين •

وقد أثر توقف التوسع العثماني في تطور الدولة ككل ، بخاصة وأن الدولة العثمانية قد ازدهرت على الغزو ضد أعداء الدين في أوروبا ، والى حد ما في فارس • وظهر ضعف الدولة في شخصيات السلاطين أنفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش وفي الادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر الخاصة ومؤامراتــه •

ونتج من التخلي عن حصر السلطنة بابن السلطان الحاكم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، والسماح لأكبر أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة تولي السلطنة ، أن ازدادت المكائد ضد السلاطين ، وضعفت نوعية المرشحين ، نظرا لاهتمام السلطان

الحاكم بابنائه أكثر من عنايته بأخوته أو أقربائه • وباستثناء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـــ ١٦٤٠) ، الذي أظهر مقدرة كبرى ازاء الأخطاء المهددة للدولة في الداخل والخارج ، وبخاصة في الجبهة الصفوية ، اثر احتلال الصفويين بغداد ، لم يظهر في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني ، في ١٥٦٦ ، وحكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـــ ١٨٠٧) ، الذي قام بأول محاولات الاصلاح ، أي سلطان قوي •

ونتج أيضا من تقلص نفوذ السلاطين في الحياة العامة أن انتقل زمام المبادرة الى الصدر الأعظم فأصبح له مقر خاص به ، في عام ١٦٥٤ عرف باسم الباب العالي • وبلغ من شهرة هذا المكان وصاحبه ، فيما بعد ، أن شاع خطأ أن الباب العالي هو مقر السلطان ، وأن أوامر الباب العالي تعني أوامر السلطان • واشتهر من الصدور العظام، في هذه الفترة ،أفراد من أسر كوبريلي الذين احتكروا الصدارة العظمى ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وأعادوا الى الدولة العثمانية بعض هيبتها • ونظرا لانقطاع السلاطين الى حياة القصر الخاصة ازداد شأن موظفي القصر ، وعلى رأسهم الكزلار آغا ، فأخذ ينافس الصدر الاعظم على السلطة • وتوقف على نتيجة الصراع بين هذين القطبين مصير كثير من حكام الولايات ، الذين اعتمدوا على دعم واحد أو آخر من هذين الموظفين •

ومن مظاهر ضعف الدولة العثمانية انحطاط الجيش فيها ، في أعقاب توقف الفتوحات وتناقص السلطة الفعلية للسلاطين ففسد نظام الجيش،وبخاصة الانكشارية، وطمع المسلمون الأحرار بالتجنيد في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم • وأهملت الدفشرمة، بالتدريج حتى بطلت في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وبذلك انقطع المورد الذي كان يأتي بشبان البلقان الأشداء ، فيدربون ، ويصبحون اما انكشارية أو اداريين كبارا • وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين الى صفوفهم • ففي استانبول كان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني الذي عزلوه ، ثم قتلوه في ١٦٢٢ • ومارسوا كثيرا من التعسف في الولايات بشكل أرهق أهلها لما ابتزوه منهم من مال •

وكان قد نتج من اعتماد الدولة ، بشكل كبير ، على الانكشارية ، منذ عهد

السلطان محمد الثاني ، أن أهل الجند الاقطاعي ، من السباهية الفرسان . ولم يظهر هؤلاء كفاءة عسكرية أمام الجنود الاوروبيين بسبب عدم أخذهم بأساليب القتال الحديثة ، من ناحية التنظيم والعتاد . ولهذا فقد استخدموا في مهام عسكرية ثانوية ، كشق الطرق ، واقامة التحصينات وأدى انحطاط الجنود الاقطاعيين الى انحطاط نظام الاقطاع ، وكان تأثير ذلك حاسما بالنسبة للحياة الاقتصادية في الدولة العثمانية . فالجندي الاقطاعي لم يعد قادرا على مجابهة الجندي الاوروبي الأحسن تدريباً ، ولكن وجوده بالنسبة للاستقرار وحسن الانتاج في الريف ، ظل ضروريا . وهكذا ، فان ضعف الجندي الاقطاعي ، الذي كانت سلطته في البداية مستمدة من سلطته العسكرية ، أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة ، استطاعت أن تسيطر على الريف وتستثمره لصالحها . وكانت تتصرف بالارض اما بأخذها كاقطاع — وهذا أصبح نادرا — أو بالتزام ضرائبها . وقد شاع نظام الالتزام بشكل كبير في أراضي الدولة ، بعد انحطاط الاقطاعات واضمحلالها ورافق ذلك كثير من التلاعب بأموال الدولة . وظهرت قوى محلية ثائرة مستمدة سلطتها من التزام الضرائب . وأفقر الريف بالتدريج واندثر كثير من القرى بسبب هجرة أصحابها منها . وانتقل عدد كبير من الفلاحين الى عداد القوات غير النظامية وأصبح قسم كبير منهم من قطاع الطرق ، وهاجر قسم آخر الى المدن حيث دخل بعضهم المدارس الدينية المجانية وعرفوا بالسُّطة ، ثم تجولوا في الريف ، بعد تخرجهم يجمعون مال الاحسان . ولم يختلف بعضهم عن العصابات . بسبب الاضطرابات التي أثارها وبخاصة في عهد السلطان سليم الثاني .

واشتهر في فترة ضعف الدولة العثمانية الجنود المرتزقة بسبب توفر العناصر البشرية ، وبخاصة الريفية ، التي لاعمل لها فأخذت تبيع خدماتها . وأيضا بسبب ظهور زعماء محليين ثائرين عمدوا الى استئجار هذه العناصر لدعم سلطتهم ضد السلطنة العثمانية وضد بعضهم بعضا . ففي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر استخدم فخر الدين المعني الثاني ، حاكم الشوف ، وحليفه علي باشا جانبلاط ، الذي ثار في ولاية حلب ، قوات مرتزقة من السكبان .

وتتج من توقف الفتوحات العثمانية ، وبالتالي انقطاع مواردها ، أن

ارتباك الاقتصاد العثماني . وصادف ذلك مع ازدياد عدد الجنود الانكشاريين والموظفين الذين يتقاضون المرتبات ، بعد أن تضاءل الاعتماد على الجنود والموظفين الاقطاعيين . وقد تناقصت واردات الدولة بسبب فساد نظام الالتزام ، وجباية الضرائب . وتأثر الاقتصاد العثماني أيضا بنقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في الاراضي العثمانية ، وأصبح بعض هذه البضائع، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، يصدر مباشرة الى أوروبا عبر هذا الطريق ، وأحيانا يعاد تصديره من أوروبا الى الدولة العثمانية . ورغم أن قسما كبيرا من بضائع الشرق الاقصى بقي يمر في القرن السادس عشر ، عبر موانيء البحر الاحمر وكذلك ميناء البصرة ، الا أن حجم هذه البضائع تناقص بمرور الزمن ، بسبب ازدياد قوة الامبراطوريات الغربية في الشرق الاقصى . وخسرت الدولة العثمانية من جراء ذلك موارد مالية كبيرة .

وقد نتج من العوامل السابقة ضغط على النقد العثماني ، ولم تستطع موارد الدولة من المعادن تلبية الحاجة المتزايدة للنقد . وحدث في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والازمة النقدية العثمانية في أوجها ، أن تدفقت الفضة الرخيصة الى بلاد البحر الابيض المتوسط من العالم الجديد — أمريكا — بواسطة المستعمرين الاسبان . فارتبك النقد العثماني ، تبعا لذلك ، وانهارت وحدته الفضية ، وهي الاقجة (تسمى أيضا الاسبر) ، وارتفع سعر الذهب ، وقل وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة . واصدرت الدولة العثمانية وحدة نقدية فضية عام ١٦٢٠ ، وهي البارة ، ولكنها لم تفد في القضاء على التضخم النقدي وغلاء الاسعار .وفشلت كذلك محاولة اخرى لاحقة لاصدار عملة جديدة هي القرش ، في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ولم تجد محاولة الدولة العثمانية تخفيض سعر الاقجة عام ١٥٨٤ ، في القضاء على الازمة النقدية اذ ارتفعت الاسعار في أعقاب ذلك[1] . وللدلالة ،على انهيار قيمة الاقجة الفضية بالنسبة للذهب نذكر المثال التالي: بلغ متوسط واردات الدولة العثمانية ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، ٥٣٧ مليون اقجة ، تعادل عشرة ملايين قطعة ذهبية ، بينما في عام ١٦٥٣ قدرت الواردات بـ ٥٠٧ ملايين أقجة ، تساوي أربعة ملايين ومائتي ألف قطعة ذهبية . ولتلافي العجز المالي عمدت

الدولة الى اعادة تقييم بعض الضرائب ، مثل ضريبة الجزية على غير المسلمين ، كما انها أوجدت ضرائب جديدة عرفت باسم عـوارض ديوانيـة ، وهذا تعبير استخدم في الاصل للدلالة على الخدمات التي فرضها العثمانيون على السكان لتلبية متطلبات عسكرية طارئة ، أو على المال الذي دفعه هؤلاء السكان لقاء هذه الخدمات • وقد أصبحت العوارض الديوانية ، امنذ أواخر القرن السادس عشر ، ضرائب سنوية ثابتة شملت مختلف سكـان الامبراطوريـة ، وازدادت قيمتها عاما بعد آخر • وعـدت العوارض المصدر الثالث في ايرادات الدولة ، الى جـانب العشر والجزية • وخـول العثمانيون الولاة أن يجمعوا من السكان ضريبة أخرى سميت سلمه لدفع مرتبات الجنود المرتزقة ، مثل السكبان في الولايات • وعمد العثمانيون أيضا ، في محاولتهم زيادة الواردات ، الى الاستيلاء على واردات اقطاعات التيمـار وعهدوا بجمـع ضرائبهما الى ملتزمين[٢] • ولم تجد جميع هذه المحاولات في انقاذ الاقتصاد العثماني من الانهيار • وعم خلط العملة بمواد رخيصة ، وأحيانا انقص وزنها ، مما أدى الى انهيار قيمتها • وترتب على ذلك ارتفاع الاسعار ، وتأثر بنتيجة ذلك أصحاب المرتبات بنوع خاص ، فعمت الرشوة بين الموظفين ، وانهار مستوى الاخلاق العامة • ولجأ العساكر المتنفذون الى فرض الضرائب ، بدون حق ، على الاهلين،والى الثورة على السلطة حين عارضتهم في ذلك • ومما زاد في تضاؤل قيمة المرتبات أن الدولة كانت تدفعها على أساس الاشهر القمرية ، في حين أن الضرائب كانت تجبى على أساس الاشهر الشمسية •

ثورات العسـاكر

ظهر التمرد على العثمانيين ، أول الأمر ، في صفوف العساكر ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انتشر بين الامراء المحليين في القرن السابع عشر ، وبلغ القواعد الشعبية ، في الريف والمدن ، بانحطاط السلطة العثمانية ،في القرن الثامن عشر • وقد بدأت ثورات العساكر في مناطق الاطراف ، حيث السلطة العثمانية ضعيفة، كاليمن وشمال افريقية ثم عمت مصر ، بشكل عنيف ، وشملت بغداد ، حيث تسلم قائد عسكري السلطة في عام ١٦٢٢ • أما في بلاد الشام فكان تمرد العسكر أقـل عنفا ، واقتصر على الابتزاز الاقتصادي وتسرب العناصر المحلية الى طائفة الانكشارية•

كانت ولاية اليمن من نوع ساليانلي ، أي أن موظفيها ، بما في ذلك العساكر ، يتقاضون المرتبات وليس الاقطاعات • وحدث في أوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر ، أن انخفضت القيمة الشرائية للعملة الفضية في اليمن ، المسماة محليا بالعثماني ، بسبب خلطها بالنحاس ، وذلك بالنسبة لقيمة الدينار الذهبي السلطاني ، الذي تدفع الرواتب على أساسه • وقاسى أصحاب المرتبات من جراء ذلك • ولم يكن هذا الاضطراب النقدي مقتصرا على اليمن ، بل كان جزءا من ظاهرة عامة شملت الامبراطورية العثمانية ، واختلفت انعكاساتها من ولاية الى اخرى • وفي كل مكان بحثت السلطة عن كبوش فداء تحملهم أمام الشعب مسؤولية انخفاض العملة • ففي اليمن قتل الوالي العثماني محمود باشا ، أمين دار الضرب عبد الله اليمني ، في أوائل ٩٦٨/ أواخر ١٥٦٠ وحمله مسؤولية اختلال قيمة النقد ، وقد وصف عبد الملك أنه كان مثريا ذا أموال كبيرة ، ومن شأن هذا أن يقنع الشعب بمسؤوليته • وتلا قتله ، كما يتوقع المرء ، مصادرة أمواله لصالح الوالي محمود باشا ، وكان ذلك ابتداء تسوله ، على حد تعبير قطب الدين المكي ، الاخباري اليمني المعاصر(٣) • ولا أدل على التخبط في معرفة الاسباب الحقيقية ، العثمانية والعالمية ، لانخفاض قيمة العملة من تبني قطب الدين المكي لمسؤولية عبد الملك اليمني عن ذلك والقائه التبعة على الولاة العثمانيين السابقين بسبب طمعهم وحبهم جمع المال • ورغم هذه الفوضى في توزيع المسؤولية ، فقد كانت آثار انخفاض العملة واضحة وبخاصة بالنسبة لمرتبات العساكر الذين تأثر سلوكهم تبعا لذلك • ويذكر قطب الدين « ان الدينار الذهب السلطاني الذي وزنه الآن درهم وقيراطان ، هو الآن في الروم بستين عثمانيا ، وفي مصر بثمانين عثمانيا ، وصار في اليمن بثلثمائة عثماني ، ولا زال يتزايد الى أن صار الدينار بألف عثماني •• وتلفت السكة بعد عبد الملك المذكور ، الى أن صار الدينار الذهب بألفين من العثامنة ، وكان ذلك سببا لخراب العسكر وفقرهم » • ويضيف قطب الدين « ان علوفة العسكر من عشرة عثامنة ، الى مائة عثماني ، فصار الذي له مائة عثماني علوفة في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ••• فيصرف له من الديوان عن ثلاثة الآلاف عثماني دينار واحد ونصف ، وذلك لايفي بثمن القهوة التي يشربها فضلا عن سائر حوائجه وضرورياته ، فشرعوا في ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن انصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ، الى

أن دهكوا الرعية وأضعفوها »[٤] • ولكن ابتزاز العساكر العثمانيين للمال من سكان اليمن لم ينقذ وضعهم المادي فلجأوا الى بيع متاعهم ، وحتى أسلحتهم • ويقول قطب الدين المكي في ذلك : « ثم لما ضعفت الرعية وانكسرت ، ولم يبق معهم شيء ينهمه العسكر أو يأخذونه بالقهر منهم ، صار العساكر يبيعون أثواب بدنهم الى أن أفنوها ، فباعوا أسلحتهم وما أبقوها ، فشرعوا يهربون الى مطهر ، وافتقروا ، وامتلأت بهم البلاد ، وضعفوا عن قتال العدو ، الى أن استولى العدو على بلادهم شيئافشيئا »[٥] • ويقصد بالعدو هنا الثائرين الزيديين • وهكذا نرى أن العساكر في اليمن قد ردوا على الضائقة المالية التي عانوا منها ليس بثورة واستئثار بالحكم وتمتع بموارده ، كما فعل أسمياؤهم في مصر ، بل بلجوئهم ، بسبب ضعفهم ، الى الامام مطهر الزيدي ، الذي استفاد من ذلك لاعلان الثورة على العثمانيين • أما العساكر الذين بقوا موالين للعثمانيين ، ومعظمهم في زبيد ، فقد حاصرهم الزيديون • وكلفت الدولة العثمانية سنان باشا باخضاع الزيديين ، وتم له ذلك ، في الفترة بين ١٥٦٩ — ١٥٧١ • وفي محاولة من سنان باشا لتحسين حال العساكر وتشجيعهم بالتالي على البقاء موالين للدولة ، فقد زاد من قيمة مرتباتهم وما يمنحونه من مدفوعات سلطانية أخرى •

وعلى نقيض ثورات العساكر في شمال افريقية ، حيث شكل هؤلاء عنصرا هاما في السلطتين العسكرية والمدنية ، كانت ثورات العساكر في مصر حادثا طارئا اقتضته ظروف آنية ، اقتصادية وسياسة ، ومن هنا كانت أهميتها كظاهرة متميزة في ثورات العساكر بوجه عام ، وفي تاريخ مصر بشكل خاص •

قام العساكر في مصر بسلسلة من الثورات كانت أولاها في ٢ شوال ٩٩٧/١٤ آب ١٥٨٩ وآخرها في ١٠ ذو القعدة ١٠١٧/١٥ شباط ١٦٠٩ ، واتصفت جميعها بالعنف والبطش من جانب كل من العساكر والسلطات العثمانية • ففي الثورة الاولى هاجم العساكر الوالي العثماني ، اويس باشا ، وهو في الديوان ، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة الحنفي العثماني ، وقتلوا عددا من اتباعهما • واعتدوا كذلك على الحوانيت في القاهرة وعلى بيوت الاعيان ، وبخاصة أولاد العرب منهم (أي السكان المحليين) ، ونهبوا الكثير منها ولم تهدأ ثورتهم الا بعد أسبوع ، حين وافق أويس باشا على قبول مطالبهم • وتتلخص هذه المطالب بالسماح لهم بأخذ الطلبة ، وهي

مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الاطيان في الريف ، كما يقول الاخباري المصري المعاصر محمد بن ابي السرور البكري الصديقي ، ويأخذونها لانفسهم دون وجه شرعي . ويذكر ابن أبي السرور أنله بلدة بالمنوفية كان مقررا عليها من الضرائب في السنة مائة ألف نصف (أي نصف فضة ، وهذا تعبير عامي استخدم للدلالة على البارة المتداولة آنئذ في مصر) ، ولكنها غرمت بالطلبة ضعف هذا المبلغ . وطالب العساكر الثائرون أيضا بمنع أولاد العرب من الانتساب الى الطوائف العسكرية ومن استخدام المماليك البيض[٦] .

وقد ازداد نفوذ العساكر بسبب تخاذل أويس باشا ، وبلغت بهم الجرأة في أول رجب ١٠٠٦/٧ شباط ١٥٩٨ أن جمعوا جموعهم واعترضوا طريق حاكم مصر الشريف محمد باشا قرب قلعة القاهرة ، واطلقوا النار عليه ، فهرب والتجأ الى القلعة . وأصبحت السلطة الفعلية بيد العساكر ، « وبطلت أحكام الوزير المذكور ؛ وصار الحل والعقدلطائفة الاسباهية»[٧]. وقتل العساكر الثائرون بعض كبار الامراء والموظفين والاعيان ممن كانوا يعارضون مصالحهم . وتتبعوا أولاد العرب ، وقتلوا كل من وجدوه منهم يتزي بزي الاروام على حد تعبير ابن أبي السرور . وربمايقصد بذلك الذين أصبحوا منهم عساكر وموظفين عثمانيين ، في محاولة من العساكر كما يبدو ؛ للحيلولة دون تسرب أولاد العرب الى الطبقة الحاكمة .

وكان أجرأ عمل قام به العساكر قتلهم حاكم مصر ابراهيم باشا ، في ١ جمادى الاول ١٠١٣/ ٢٥ ايلول ١٦٠٤ ، فعرف تبعا لذلك ، بالمقتول ، وكان مكلفا بازالة الطلبة والقضاء على تمرد العساكر . ثم نصب هؤلاء قائم مقام مكانه ، وكأنهم أصحاب السلطة الوحيدون في مصر . وحفز هذا التحدي السلطة العثمانية على ملاحقة العساكر المتمردين فبطشت بعدد منهم في عام ١٦٠٥ . ولكن القضاء عليهم نهائيا لم يتم حتى عهد محمد باشا (١٦٠٧ ــ ١٦١١) الذي أبطل الطلبة ، مما أثار العساكر ، فجمعوا جموعهم عند مقام احمد البدوي في طنطا ، وتحالفوا على عدم رفع الطلبة ، وعينوا من بينهم سلطانا ووزراء ، وتقاسموا حارات القاهرة لنهبها . ولكن قوات محمد باشا ، التي استخدمت المدافع ، هزمت الثائرين في موقعة الخانقاه بضواحي القاهرة ، في ١٠ ذي القعدة ١٠١٧/١٤ شباط ١٦٠٩ وقتل عدد

كبير منهم ، ونفي كثيرون الى اليمن • ويعلق ابن أبي السرور على هذا الانتصار بقوله : « وهو في الحقيقة الفتح الثاني لمصر في الدول الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى »[8] • ويدل هذا القول على مدى النفوذ الذي بلغه الثائرون وعلى أهمية القضاء عليهم بالنسبة للهيبة العثمانية • ووضع ابن أبي السرور ، بهذه المناسبة مؤلفا : أسماه تفريج الكربة بدفع (أو رفع) الطلبة • واطلق على محمد باشا عدة ألقاب ، مثل (معمر مصر) و (مبطل الطلبة) و (قول قيران) بالتركية ، أي محطم المماليك • وادخل محمد باشا ، اثر ذلك ، عددا من الاصلاحات أهمها تنظيم الضرائب ، والعمل بمقتضى دفتر التربيع الذي أحله العثمانيون ، في ٩٣٣/١٥٢٦ — ١٥٢٧ ، محل دفتر الشراكة • وكان المماليك قد عادوا الى العمل بدفتر الشراكسة للاستفادة من امتيازاتهم القديمة • وأمر محمد باشا بدفع الرواتب بكاملها في اليوم الثامن والعشرين من كل شهر لتحاشي تذمر أصحابها •

ويجدر بنا ، قبل معالجة هذه الثورات ، التعرف على هوية العساكر الثائرين • فقد كانوا خليطا من طوائف التفنكجية ، والجنليان ، والمماليك الشراكسة ، وجميعهم من السباهية الفرسان المتمركزين في الاقاليم ، حيث عهد اليهم بتوطيد الامن ، وحماية الفلاحين ، ومساعدة الكشاف في جمع الضرائب • ولما كانوا من اصحاب المرتبات ، فقد قاسوا من انخفاض قيمة العملة التي أخذ أمرها بالاختلال ، بشكل واضح ، منذ عهد حاكم مصر علي باشا الصوفي (١٥٦٤ — ١٥٦٦) حين بدأت دار ضرب النقود في مصر تمزج كمية أكبر من النحاس مع العملة الفضية ، فانهارت قيمتها تبعا لذلك ، وضجت الرعايا ويعلق ابن أبي السرور على ذلك بقوله « ولازال يختل نظام المعاملة الى يومنا هذا »[9] أي فترة النصف الاول من من القرن السابع عشر التي عاصرها • وفي عام ١٥٨٤ قبيل ثورة العساكر بحوالي خمسة أعوام ، انخفضت قيمة البارة الفضية ، المعروفة محليا بنصف فضة ، بمقدار النصف • وقد تم هذا في الوقت الذي انخفضت فيه قيمة الاقجة الفضية العثمانية بالمقدار ذاته ، بالنسبة لقيمة النقد الذهبي الاجنبي المتوفر محليا والنقد الذهبي العثماني المعروف بالشريفي • وارتفعت بنتيجة ذلك تكاليف المعيشة ، وحدثت ثورات بين الجند أصحاب الرواتب حتى في قلب العاصمة استانبول •

وكان أفراد الطوائف السباهية الثلاث ، الذين اشتركوا في الثورات في مصر ، أقل الطوائف العسكرية راتبا وأكثرها استعدادا للثورة . وهذا مايفسر مبادرتهم الى الثورة ، قبل غيرهم من الطوائف العسكرية . كما أن وجودهم في الريف وطبيعة أعمالهم فيه سهل عليهم ابتزاز المال ، كما سهل لهم الثورة ، بعيدا عن متناول السلطة . فلا عجب اذا أن يستغل هؤلاء العساكر قوتهم وسلطتهم في الريف ، حيث رقابة الباشا العثماني ، في فترة ضعف الدولة شبه منعدمة ، أو نائية في أحسن الظن ، لاستثمار الفلاحين ، وأن يثوروا عندما يجدون أن القواعد التي بدأوا يجنونها مهددة بالزوال .

ورغم أن ثورات العساكر في مصر مردها الضائقة الاقتصادية ، وساعد عليها ضعف الهيبة العثمانية ، فان اهميتها ، بالنسبة للصراع على النفوذ بين القوى المختلفة، تكمن في بروز عنصر المماليك فيها . ويبدو أن طائفة المماليك الشراكسة التي اشتركت في الثورات كانت لها اليد العليا فيها بدليل أن ابن أبي السرور وصف الثائرين بأنهم من الغز . وهذا تعبير اطلق على المماليك في مصر في العهد العثماني . ويذكر أيضا أن المماليك ، بازدياد نفوذهم في مصر في العهد العثماني ، قد تكاثر انتسابهم الى طائفتي التفنكجية والجنليان ، اللتين اشتركتا في الثورات حتى اقتصرت تقريبا عضوية هاتين الطائفتين عليهما في القرن الثامن عشر . وقد أطلق على محمد باشا ، الذي قضى على ثورات العساكر في مصر في عام ١٦٠٩ ، لقب قول قيران ، أي محطم المماليك ، مما يدل على اشتهار المماليك بين الثائرين ، واعتبار القضاء على الثائرين قضاء بالدرجة الاولى على نفوذ المماليك الذين سيطروا بينهم . ولاشك أن العنف الذي رافق ثورات العساكر ضد ممثلي السلطة العثمانية في مصر ، وتسمية الثائرين سلطانا ووزراء من بينهم ، انما يدل على مطامع مملوكية استغلت الثورة لاهدافها ، وحاولت تقويض السلطة العثمانية من أساسها .

وهكذا يمكننا أن نرى في ثورات العساكر في مصر محاولة مملوكية اخرى ، بعد ثورات اينال وجانم السيفيين في مطلع الحكم العثماني ، للسيطرة على شؤون مصر او على الاقل للاحتفاظ بمركز ممتاز فيها تجاه أولاد العرب . والمهم في ثورة المماليك الآن انها حدثت بعد اكثر من نصف قرن من الهدوء ، اثر صدور القانون

نامه في ١٥٣٤/٩٣١ — ١٥٢٥ • وستتلوها محاولات مملوكية أخرى ، بأساليب واشكال مختلفة ، للسيطرة على مصر ، مستفيدة من ضعف السلطة العثمانية ، ثم انحطاطها • والجدير بالذكر أن طبيعة الحكم العثماني في مصر ، في ابقائه المماليك في عدد كبير من الوظائف الهامة ، بما في ذلك الجيش ، وسماحه باستيراد المماليك الى مصر ، شجعهم على الطموح ، ثم التمرد ، ثم الاستئثار بالسلطة في عهد علي بك في القرن الثامن عشر ، كما سنرى في بحث لاحق •

ويفسر نفوذ المماليك بين العساكر الثائرين الشعارات المعادية لاولاد العرب التي طرحوها ومطالبتهم بمنع هؤلاء من الانتساب الى الطوائف العسكرية ، خوفا من مقاسمتهم نفوذهم وامتيازاتهم ، ومعارضتهم في استخدام المماليك البيض لأنهم من جنسهم •

والجدير بالذكر أن استيراد المماليك البيض الى مصر كان يرفد احيانا ، في حالة عدم سدهم الحاجة المحلية ، باستيراد مماليك من افريقية • وكثيرا ما كان العداء يحدث بين المماليك البيض والسود • ومن هنا ، كما يبدو ، جاء اقتصار مطالبة الثائرين بمنع أولاد العرب من استخدام المماليك البيض فقط •

وتعني معارضة الثائرين لأولاد العرب في دخول الجيش أن هؤلاء قد بدأوا يتسربون الى الطوائف العسكرية العثمانية ويتمتعون بامتيازاتها • ولتبيان الدور الذي بدأ يلعبه أولاد العرب الى الحد الذي أثار حقد الثائرين ولتوضيح أصول العداء بين المماليك وأولاد العرب يحسن استعراض العلاقة بين هذين الفريقين منذ الفتح العثماني •

لم يتبدل وضع أولاد العرب ، من الناحية السياسية ، اثر الفتح العثماني ، اذ حل حاكم غير عربي مكان حاكم آخر غير عربي • واستغل البدو تبدل السلطة فحاولوا التمرد على التنظيمات المملوكية السابقة ، وعلى محاولات العثمانيين فرض سيطرتهم عليهم • ولعبوا دورا هاما في دعم ، أو التخلي عن دعم ، الثائرين الأوائل على العثمانيين : اينال السيفي ، وجانم السيفي ، وأحمد باشا الخائن • واعترف العثمانيون بأمراء بدو هوارة الاشداء في الصعيد ، ولكن بالنسبة للقبائل الاخرى ،

الأقل قوة والأكثر أهمية بسبب موقعهم في أقاليم الشرقية والغربية والبحيرة ، فقد عمد العثمانيون الى فرض سيطرتهم عليهم بضرب قبيلة بأخرى ، أو زعيم بآخر ضمن القبيلة الواحدة وباجراءات تنظيمية أخرى •

وأصبح وضع أولاد العرب ، بصورة عامة ، أكثر تعقيدا ، عقب الفتح العثماني ، لأنهم دخلوا في صراع مع طائفة المماليك التي سعت لاسترداد سلطتها من العثمانيين وابقاء أولاد العرب أدنى مرتبة منها كما كان الامر في زمن السلطنة المملوكية • وهكذا حاول المماليك ، بدافع من سيطرتهم السابقة واستمرار نفوذهم العسكري والاداري في العهد العثماني ، أن تكون لهم اليد العليا محليا كخطوة أولى في سبيل سيطرتهم ، ومن هنا بدت شدة عدائهم لازدياد نفوذ أولاد العرب • وقد ظهر ذلك منذ مطلع الحكم العثماني حين قتل المماليك اثنين من مشايخ بدو آل علي ، في اقليم البحيرة ، ثأرا لتسليمهما السلطان المملوكي طومان باي الى العثمانيين ، وكذلك حين عاد المماليك الى اشغال امارة الحج المصري في عام ١٥١٩ ، بعد أن شغل هذا المنصب في العامين السابقين موظفون محليون •

وقد رضخ المحكومون ، من مماليك وأولاد عرب ، في ولاية مصر ، كما في غيرها من الولايات العربية ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، لقوة العثمانيين • وحين بدأ الضعف يستفحل في الدولة العثمانية ، بعد ذلك ، استغله اولاد العرب في مصر ، وحاولوا ، كما حاول أسمياؤهم في الشام ، الانتساب الى الطوائف العسكرية ، بعد أن اختلت انظمتها ، للاستفادة من امتيازاتها • ولكن المماليك وقفوا حجر عثرة في سبيلهم ، وحالوا دون ازدياد نفوذهم عسكريا • ويذكر في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر كيف تكتل العساكر السباهية ، الذين ازدادت سيطرة المماليك عليهم ، مع أقوى طائفتين عسكريتين ، الانكشارية والعزب ، في محاولة لاخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية • وحدثت ، نتيجة ذلك ، فتنة كبرى بين الطوائف العسكرية السبع ، من عزل وتولية ونفي وغير ذلك • ونستدل من هذا على استمرار أولاد العرب في محاولاتهم الانتساب الى الطوائف العسكرية وعلى اشتداد معارضة المماليك واتساعها ضدهم(١٠) •

وشهدت ولاية بغداد في الربع الاول من القرن السابع عشر ، ثورات عسكرية موجهة ضد السلطة العثمانية • وكانت اكثر عنفا مما جرى في الولايات العربية الاخرى • وربما يفسر ذلك مركز العراق الاستراتيجي أمام اعداء أشداء متربصين، هم الصفويون ، مما استلزم قوة عسكرية عثمانية كبرى لتقف في مواجهتهم ، كما أنه سهل ظهور زعامات عسكرية لم تشهدها الثورات العسكرية في مصر أو في بلاد الشام • ولاشك أن مركز العراق الجغرافي على أطراف الامبراطورية العثمانية واحتواءه على قبائل بدوية وكردية متعددة الأجناس والولاء قد اقتضى زعامة قوية ، وأدى الى عنف الثورات التي قامت فيه •

وقد فرض عساكر بغداد نفوذهم في مطلع القرن السابع عشر وتحدوا الوالي حسن باشا ، واضطروه للخروج من بغداد حين سمعوا أنه تشكى عليهم الى السلطان • وقد أقام في الموصل واستمر يحارب عساكر بغداد الى أن عزل وأمر بالتوجه لقتال الثائر عبد الحليم اليازجي في نواحي سيواس • ويبدو أن فرض العساكر لنفوذهم ، وطردهم الوالي ، واعتراف السلطان ضمنيا بذلك حين عزله قد شجعهم على القيام بأعمال أكثر جرأة فيما بعد • ولم يكن ماحدث الآن الا مرحلة أولى من مراحل ازدياد النفوذ العسكري • وقد أعقب ذلك ، في١٠١٢/١٦٠٣، قيام محمد بن أحمد الطويل ، وكان برتبة بلوك باشي في كتيبة الفرسان في بغداد ، مثل أبيه من قبله ، واستيلاؤه على الحكم في بغداد ، مستغلا فساد الادارة وكره الأهلين للعثمانيين • وبعد ثلاثة اعوام في الحكم ، استمال اليه خلالها عددا من زعماء البدو الأكراد ، هزم في ٦ شعبان ١٠١٥/٨ كانون الأول ١٦٠٦ ، جيشا وجهه السلطان العثماني لقتاله ، بقيادة والي ديار بكر نصوح باشا ، الذي خانته قواته المرتزقة من السكبان • ولكن محمد الطويل قتل في ١٠١٦/١٦٠٧ ـ ١٦٠٨ أو في ١٠١٧/١٦٠٨ ـ ١٦٩ ، في مؤامرة دبرها كاتب ديوانه واشتركت فيها زوجته، وخلفه أخوه مصطفى بك • وعين السلطان محمود باشا بن جغال واليا على بغداد، فاستمال اليه عددا من أفراد البدو والأكراد ، وبمساعدتهم حاصر مصطفى باشا بن الطويل في بغداد • ثم تم الصلح بينهما في أواخر ربيع الثاني ١٠١٧ / أواسط آب ١٦٠٨ • وعين مصطفى باشا على لواء الحلة • ثم هرب الى بلاد فارس • وانتهى بذلك حكم آل الطويل العسكري ، الذي دام قرابة خمسة أعوام [11].

ثم حدثت أخطر ثورة قام بها العساكر في العراق في القرن السابع عشر وهي ثورة بكر الصوباشي في عام ١٦٢٢ ، الذي سيطر على بغداد • وخطورة هذه الثورة تكمن في أن الصفويين استغلوها للتدخل في شؤون العراق والسيطرة على بغداد ومناطق أخرى • وحدثت هذه الثورة في وقت تزايد فيه تحدي فخر الدين المعني الثاني للعثمانيين في بلاد الشام الجنوبية • واقتضى هذا الخطر العسكري من الطرفين قيام حكم قوى في الدولة العثمانية تمثل في السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) •

وينتسب بكر الصوباشي الى طائفة انكشارية بغداد • ويذكر صاحب «خلاصة الأثر »[١٣] أنه من أصل رومي ، تدرج في المراتب العسكرية ، فاصبح صوباشيا (مديرا للشرطة) ، ثم آغا الانكشارية • وقد اشتهر بالصوباشي ربما لأن الناس العاديين ومن بينهم الاخباريين ، اعجبوا بهذا الصوباشي ، ذى الرتبة الدنيا ، الذي نصب نفسه واليا ، وتحدى السلطان والولاة الذين عينهم ، وفاقهم شهرة • وقد اعتمد بكر الصوباشي ، في الاساس ، على الانكشارية ، ثم وسع قاعدة دعمه فشملت الأعيان والأهلين ، مما جعل والي بغداد العثماني يخشى نفوذه •

بدأ نفوذ بكر الصوباشي يلفت النظر منذ عام ١٠٢٨/١٦١٨ = ١٦١٩ ، ربما حين أصبح صوباشيا • ولم يترك فرصة لتعميق نفوذه الا واستغلها فترأس في عام ١٠٣١/١٦٢١ — ١٦٢٢ حملة تأديبية ضد بعض القبائل التي هددت الأمن • ورغم أن خروجه من بغداد ومخاطر الحملة أمر يرحب به والي بغداد العثماني ، لأنه يبعده عن مركز قوته من ناحية ، ويعرضه لخطر القتل من ناحية أخرى ، الا أن بكرا احتاط للأمر فأقام ابنه محمدا في مركز الصوباشي في بغداد • واستغل والي بغداد يوسف باشا غياب بكر ، فاستمال اليه اثنين من كبار ضباط الانكشارية في محاولة لتأليف جبهة ضد بكر • وشعر ابناؤه بالخطر فهربوا ، وصادر يوسف باشا أموالهم ، وأخذ يستعد لقتال بكر • وكان هذا قد عاد منتصرا من قتال القبائل ، فبدأ بمحاصرة بغداد • وكان يتزعم المعارضة لبكر الصوباشي ، الى جانب الوالي العثماني ، محمد قنبر ، آغا طائفة العزب ، وعدد من السباهية والاشراف والاعيان • ونشط بالمقابل اتباع بكر في بغداد ، واحتلوا فيها مناطق استراتيجية ، وأرهبوا اتباع الوالي • وبدأ

بكر هجومه على بغداد ، في منطقة الميدان ، وتصدى له يوسف باشا ، ولكنه هزم، وتراجع في القلعة ، ثم قتل بطلق ناري ، وتسلم بكر حكم بغداد في عام ١٠٣٢/١٦٢٢ ـ ١٦٢٣ ، وارسل يطلب من السلطان العثماني الاعتراف به واليا على بغداد . ولكن الدولة رفضت ذلك ، وعينت واليا على بغداد ، سليمان باشا ، واعتبرت بكرا ثائراء وتقدم سليمان باشا ، تؤيده قوات من الموصل وكركوك ومن الأكراد ، فحاصر بغداد ، ونهبت قواته القرى المحيطة بها . وعمت بغداد ضائقة اقتصادية ، بسبب الحصار ، وانحباس المطر ، وتدفق سكان الريف الى المدينة . فخرج جيش بكر الصوباشي ، وهزم الجيش العثماني . وصادف في هذه الاثناء ، ارتقاء السلطان مراد الرابع الحكم ، وسط اضطراب اداري وعسكري في استانبول . وكانت ثورة بكر تحديا له ، في مطلع عهده ، فعين والي ديار بكر ، أحمد باشا الحافظ ، على رأس حملة جديدة ضد بكر . وكان هذا الوالي قد شغل ولاية الشام بين عامي ١٦٠٩ ـ ١٦١٤ ، وأرهب فخر الدين المعني الثاني ، أمير الشوف ، واضطره الى الهرب من لبنان ، في عام ١٦١٣ ، الى ايطاليا ، حيث أقام خمسة أعوام . وكان الحافظ يميل الى المصالحة مع بكر خوفا من أن يتحول الى جانب الصفويين فتزداد الأمور تعقيدا . ولكن هذا الرأي لم يلق تأييدا ، فحمل الحافظ على جيش بكر وهزمه ، فقرر هذا واعوانه المحاصرون ، وقد رأوا الخطر المحدق بهم ، الاستعانة بالشاه اسماعيل الصفوي . وعرض بكر على الشاه عباس ، لقاء مساعدته ، أن تكون الخطبة والسكة في بغداد باسم الشاه . فوافق على ذلك ، وعين قوة لنجدة بكر ، بقيادة حاكم همذان صفي قولي خان ، واشترك فيها حاكما لورستان وأردلان . وتوقف الجيش الصفوي في خانقين ، وقد بلغ تعداده ثلاثين ألفا . وخشي أحمد باشا الحافظ نتيجة المجابهة ، ولاسيما أن قواته قد انهكها التعب ، وان مجيء القوات الصفوية سيدفع بقوات بكر الصوباشي المحاصرة في بغداد الى معاودة الهجوم . وقد أرسل الشاه يحذر الحافظ من التدخل وخرق الصلح بين الدولتين ، بعد أن ضربت النقود في بغداد باسمه ، فلجأ الحافظ الى الحيلة ، وأرسل فرمانا باسم السلطان الى بكر بالعفو وبتوليته على بغداد وولاية الرقة أيضا ، وعين ابن بكر على لواء الحلة . وقد ارتبك بكر ازاء هذا العرض العثماني ، بعد أن تورط مع

الشاه عباس • وحاول رد صفي قولي خان شاكرا اياه على مساعدته ، ولكن المصلحة الصفوية تقتضي الوصول الى بغداد ، فجهز الشاه قوات اضافية ، وجاء بنفسه وحاصر بغداد • ويبدو أن هذا التطور فاجأ الجيش العثماني ، الذي لم يكن قد استكمل استعداده بعد • وكان احمد باشا الحافظ قد ابتعد عن بغداد باتجاه ديار بكر خوفا من خطر الاصطدام بالصفويين • وكانت استانبول مشغولة ، في هذه الاثناء بمراسم تولي السلطان مراد الرابع الحكم • وأوكل بكر حماية القلعة الى ابنه محمد ، وأبواب القلعة الى أقربائه ومقربيه ، ولكن الابن سلم القلعة الى الشاه مدفوعا ، حسب قول بعضهم ، بالرغبة في الحكم في ظل أي سيد ، أو يائسا، كما يقول آخرون ، من امكانية الدفاع • ودخلت قوات الشاه بغداد في ٢ صفر ١٠٣٣/٢٧ تشرين الثاني ١٦٦٣ ، وقتل بكر الصوباشي وعدد من مؤيديه[١٣] • وفي رواية للمحبي[١٤] أن الشاه عباس كلف قاضي بغداد العثماني بالتوسط لدى السلطان مراد الرابع بأن يعترف بابن الشاه واليا على بغداد ، وتبقى السكة والخطبة باسم السلطان العثماني ، ويدفع ابن الشاه له خمسين الف غرشا كل سنة • ولكن الشاه حنق على القاضي فقتله ، ولا يعلم ماذا تم بالعرض •وربما قصد به خديعة السلطان لارباك موقفه ، أو تضليل الرأي العام السني في بغداد • وتذكر بعض المصادر أن الشاه عباس كرر هذه الرغبة في وقت لاحق ، عام ١٦٢٥ ، حين حاصر جيش عثماني ضخم بغداد •

وهكذا انتهت ثورات العساكر في بغداد بخروج هذه المدينة من أيـدي العثمانيين وسيطرة الصفويين عليها حتى عام ١٦٣٩ ، وسيطر الصفويون أيضا على كركوك والموصل لفترة أطول • وفي الواقع تمثل ثورة بكر الصوباشي أكثر من مجرد تمرد عسكري • فقد ظهر فيها الطموح السياسي وتطلع بكر الى انشاء حكم خاص به ، ولكنه فشل في محاولته هذه بسبب أهمية المنطقة التي ثار فيها ، بالنسبة للطرفين المتصارعين على النفوذ ، وهم العثمانيون والصفويون •

وعلى غرار ماحدث في الولايات العربية الأخرى ، فقد تمرد العساكر في بلاد الشام على السلطات العثمانية • ولكن تمردهم لم يبلغ حد العنف ، الذي تميزت به ثورات العساكر في القاهرة ، كما لم تظهر بينهم زعامات عسكرية تطمح الى الحكم،

على غرار ماجرى في بغداد . وقد حاول انكشارية دمشق اغناء انفسهم بابتزاز الاموال ، بخاصة من الفلاحين .

وقد حدث في الربع الاخير من القرن السادس عشر تطور هام في بنية الطائفة الانكشارية في دمشق اذ انتسب اليها ، كما حدث في كثير من الولايات اخرى ، أناس من أصل محلي ، أي غير تركي ، ليستفيدوا من الامتيازات الكثيرة التي تمتع بها افراد هذا الجيش . ويدل ذلك على انحلال انظمة الجيش الانكشاري التي حظرت ، في الاصل ، على غير الاروام الانتساب اليه . وأخذ انكشارية دمشق يعيشون خارج القلعة ، ويدخلون الحرف ، وأصبحوا تجارا ، كما تعاطوا الربا . ولم يعد الجيش الانكشاري جيشا مغلقا على السكان المحليين . وكان خطر هذه المساوىء باديا للسلطان العثماني ، ولهذا أصدر في جمادي الاول ٩٨٥/ (تموز ١٥٧٧) ، فرمانا موجها الى حاكم دمشق يأمره فيه بأن يعين في الوظائف التي تشغر بين الانكشارية أناسا من أصل رومي ، وليس من السكان المحليين أو الغرباء مثل الأكراد . ويبدو أن انتساب غير الاروام الى طائفة الانكشارية في دمشق قد بدأ قبل تاريخ صدور هذا الفرمان بفترة ، ولم يتوقف بصدوره ، بل ازداد شدة . ولهذا عمت الفوضى بين انكشارية دمشق ، وكثر تحديهم للسلطات القائمة ، ووسعوا مجال تسلطهم خارج دمشق .

وفي أواخر القرن السادس عشر وسع انكشارية دمشق دائرة نفوذهم الى ولاية حلب ، حيث كانت تذهب طائفة منهم كل عام للخدمة ، وأحيانا لفرض خدمتها ، في تحصيل أموال الميري من قرى الولاية . واستفاد انكشارية دمشق من دعوة الدولة لهم لقتال الثائرين (يشار اليهم بالتركية باسم الجلالية) شمالي حلب ، في هذه الفترة ، لتوطيد نفوذهم في ولاية حلب ، ومارسوا كثيرا من الظلم وابتزاز الأموال حتى ضجت الناس منهم . واضطر ولاة حلب لقتالهم واخراجهم من الولاية بالقوة ، بمساعدة علي باشا جانبلاط ، الذي حكمت اسرته كلس وحلب، ومن هنا ظهر العداء بين علي باشا جانبلاط وانكشارية دمشق . وقد اشتهر بين انكشارية دمشق هؤلاء خدا وردي ، آق يناق ، قره يناق ، وحمزة الكردي ، الذين تدل اسماؤهم على أنهم كانوا غرباء ، في الأصل ، عن دمشق [١٥].

ويفسر تمرد انكشارية دمشق ، في هذه الفترة ، بعوامل مختلفة • ويأتي في مقدمة هذه العوامل اختلال انظمة تجنيد الانكشارية وتدريبهم وانضباطهم لاسباب عامة في الدولة • وكان انفتاح انكشارية دمشق على غير الاروام مظهرا لهـذا الانحطاط العام ، وعاملا في ازدياد تفشي الفساد بين صفوفهم • ومن الطبيعي أن يتجلى فساد الانكشارية في ممارستهم ابتزاز الاموال ، بسبب قدرتهم على ذلك • وهناك سبب أعمق جعل انكشارية دمشق يلجأون وفي هذه الفترة بالذات الـى محاولة اغناء أنفسهم ، وهو اضطراب الوضع الاقتصادي في الدولة العثمانيـة ، وانهيار قيمة العملة ، وبالتالي القوة الشرائية للمرتبات • ويبدو أن هذه الأزمـة النقدية كانت مسؤولة أيضا ، الى جوانب عوامل طبيعية كالقحط والطاعون ،عن غلاء الحبوب في بلاد الشام ، في هذه الفترة ، فارتفعت اسعار الخبز الى حد أدى الى استغراب الاخباري المعاصر ، شرف الدين موسى الانصاري[١٦] • ولم تنفع جهود الدولة في استيراد القمح من مصر وقبرص وطرحه في الاسواق ، اذ سرعان مـا ارتفعت أسعاره • وكان جشع التجار وأصحاب الأفران مسؤولا ، الى حد ما ، عن تفاقم الازمة ولكن جذورها كانت اعمق من ذلك ، بدليل أنه لم يقض عليها بالقضاء على جشـع التجار •

وقد برز بين زعماء الانكشارية في دمشق ، في النصف الاول من القـرن السـابع عشر، أفراد من اسرة حسن التركماني ، الذين شكلوا ، مع اتباعهم ، حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق • وبرز أيضا علي بن الارناؤوط ، الذي خلفه ، بعد وفاته في ١٠٣٥/١٦٢٥ ، ابناه خدا وردي وعلي[١٧] • وقد لعب كيوان ، وكان سابقا مملوكا لدى رضوان حاكم غزه ، دورا هاما في الجيش الانكشاري في دمشق ، في هذه الفترة ، وكان ، نظرا لما بلغه من سلطة ، اذا انتسب اليه شخص عرف هـذا الشخص بابن كيوان • ونستدل من اسماء زعماء الانكشارية هؤلاء أنهم من اصل غير دمشقي • ورغم أن بقاءهم في دمشق وانتسابهم اليها ، بخاصة في الجيلين الثاني والثالث ، قد قرب بينهم وبين السكان المحليين ، الا أنهم بقوا يشكلون مجموعات متميزة في الجيش ، تتوارث السلطة • وتتمتع بالنفوذ المحلي ، وتعارض دخول غير اتباعها الى طائفة الانكشارية • وتناقص ، بنتيجة ذلك ، عدد الاروام بـين

الانكشارية ، وازداد نفوذ هؤلاء الانكشارية في دمشق حتى أنهم أصبحوا يعرفون بأكابر واعيان دمشق .

وكانت سلطة ولاة الشام ، في الربع الأول من القرن السابع عشر ، قبل تولي السلطان مراد الرابع السلطنة في ١٦٢٣، تتميز بالضعف أو بالقوة تبعا للظروف. وقد تمكن الثائران علي باشا جانبلاط وفخر الدين المعني الثاني من تحديهم في ساحة المعركة . وكان من نتيجة ضعف الولاة أن قويت شوكة الانكشارية في دمشق . ولم يهتم الانكشارية ، بعد ذلك ، بسبب ضعف انضباطهم ، بالتفوق في الحملات التي أشركهم فيها ولاة الشام . ففي عام ١٠١٥/١٦٠٦ ، مثلا ، هرب الانكشارية من القتال ضد الثائر علي باشا جانبلاط[١٨] . وكان سجلهم في الحملات ضد المعنيين مخزيا .

وفي عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) ، ازدادت سلطة الولاة ، بسبب نشاط الادارة في استانبول . وقتل ولاة الشام ، في عهده، عددا كبيرا من زعماء الانكشارية في الشام ، مثل ابن اغجفران ، وابن الصباغ ، وعلي الارناؤوط ، كما قتل كيوان على يد حليفه السابق فخر الدين المعني الثاني . واذا نظرنا الى النفوذ الذي حازه المقتولون ، سواء في الجيش الانكشاري أم لدى الشعب في دمشق ، ووضعنا هذه الاحداث في اطارها التاريخي ، وجدنا أنها تشكل حلقة في سلسلة الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الانكشارية . وقد زادت حوادث القتل في العداء بين الفريقين . وظهر ذلك جليا في فترة الضعف العثماني التي تلت وفاة السلطان مراد الرابع . ففي عام ١٠٥٧/١٦٤٧ — ١٦٤٨ حدث قتال بين الانكشارية واتباع المتسلم في دمشق . ويظهر أثر هذا العداء في الحملة التي قام بها مرتضى باشا والي الشام ، في العام التالي ، على بلاد صفد ، اذ حدث نزاع ، أثناء الحملة ، بين انكشارية دمشق وجنود الوالي ، ادى الى القتال بين الفريقين ورجوع الحملة الى دمشق . وازداد تأزم العلاقات بين الطرفين في الحملة التي شنها والي دمشق في عام ١٠٥٩/١٦٤٩ — ١٦٥٠ ، ضد دروز الشوف ، واصطحب فيها الانكشارية ، ولم يصب هؤلاء بأي أذى في القتال الذي هزم فيه الوالي وجنوده، بسبب تجنب الانكشارية الاشتراك الفعلي في القتال . وقد حقد الوالي على

الانكشارية نتيجة لذلك[١٩] . وحدث في العام ذاته أن قتل جماعة الوالي رجلا من الانكشارية في دمشق ، فعمت الفوضى فيها ، واغلقت اسواقها .

وتعاظم نفوذ الانكشارية بعد ذلك حتى أنهم وصفوا ، في عام ١٠٦٣ / ١٦٥٢ — ١٦٥٣ بأنهم يحكمون دمشق . وبالفعل تمكن الانكشارية ، آنذاك ، من طرد الوالي من دمشق ، بعد أن وجهوا مدافع القلعة الى السرايا التي اقام فيها . وفي عام ١٠٦٥/١٦٥٤ — ١٦٥٥ نهب الانكشارية بيت صوباشي دمشق ، وبيت أحد اتباع الوالي .

ولا أدل على ازدياد نفوذ الانكشارية من تعيين الدولة بعض أفرادهم امراء لقافلة الحج الشامي ، اذ انه بعد قضاء فخر الدين المعني الثاني ، اثناء توسعه ، على نفوذ الأمراء المحليين الذين كانوا يعينون امراء لقافلة الحج الشامي ، منذ الربع الاول للقرن السادس عشر ، ضعف هؤلاء الامراء ، وأصبح الانكشارية ، بازدياد سلطتهم ، يعينون امراء لقافلة الحج للمحافظة عليها . وشهدت الادارة المركزية في استانبول ، من جديد ، فترة قوة ونشاط في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، حين عين أفراد من اسرة كوبريلي صدورا عظاما وموظفين كبارا في الدولة ، وانعكست قوة الادارة المركزية على الادارة في الولايات ، وشددت الدولة العثمانية تبعا لذلك قبضتها على انكشارية دمشق . وحدث في عام ١٠٦٧/١٦٥٦ — ١٦٥٧ حادثان هامان من حيث نتائجهما ، فقد عين مرتضى باشا على دمشق للمرة الثانية ، وكان قد تخاصم في المرة الاولى في عام ١٠٥٨/١٦٤٨ — ١٦٤٩ مع انكشارية دمشق أثناء الحملة على بلاد صفد . فخاف انكشارية دمشق الآن من ان يبطش بهم ، وكان يرافقه نحو الف وخمسمائة من الجنود البشانقة (نسبة الى بوسنة) فمنعوه من دخول المدينة ، وطردوا متسلمه منها ، وقد عين محمد باشا (يذكر أحيانا أحمد باشا) ابن الطيار خلفا له . وكان هذا ظفرا كبيرا للانكشارية ، وزاد من نفوذهم ، بخاصة وأن السلطان قبل بالامر الواقع .

أما الحادث الاخر فهو ان السلطان محمدا الرابع ارسل يطلب فرقا من الجنود من بعض الولايات ومن بينها دمشق وحلب ، للاشتراك في القتال في روميلية . وعين والي حلب ابازة حسن باشا قائدا عاما (صاری عسکر) على جنود الشام

وحلب وانضم اليه والي دمشق ابن الطيار وانكشاريتها • وقد استغل حسن باشا منصبه الجديد والقوات التي تجمعت لديه ، فأعلن العصيان ، وطالب السلطان بقتل محمد باشا كوبريلي الصدر الاعظم ، وكان ذلك بداعي الحسد كما ذكر • وايد ابن الطيار وانكشارية دمشق حسن باشا في عصيانه • وخشي السلطان استغلال الصفويين لهذه الثورة ، فعمل بحزم وارسل جيشا لقتال حسن باشا ، ولكنه هزم • واخيرا تمكن والي حلب العثماني من الفتك بحسن باشا ، في ٢٤ جمادي الاول ١٠٦٩/١٧ شباط ١٦٥٩ ، بعد ان خدعه باعطائه الامان • وهكذا انتهت هذه الثورة التي عرفت بالحسنية (نسبة الى حسن باشا) •

وعزل السلطان محمد باشا ابن الطيار عن ولاية الشام بسبب تأييده لحسن باشا وأمر بقتله مع متسلمه بعد ذلك • كما قتل الوالي الجديد عبد القادر باشا (يذكر ايضا قدري باشا) ، في ٢٧ رمضان ١٠٦٩/١٨ تموز ١٦٥٩ ، عددا من كبار انكشارية دمشق الذين ايدوا حسن باشا • وكان من بينهم عبد السلام المرعشي ، وعبد الباقي اليازجي ، ومحمد التركماني • وارسل السلطان الى دمشق قوة من الجنود الانكشارية القابي قول ، فازاحت الانكشارية اليرلية عن مهامها في المحافظة على القلعة وابواب المدينة والاسواق ، وتولتها بنفسها • وأصبحت مهمة الانكشارية اليرلية المحافظة على القلاع في طريق الحج ، ولكن معظمهم لم ينفذوا ذلك في الواقع ، وظلوا يقيمون في دمشق • وهكذا أصبح في دمشق طائفتان من الانكشارية: طائفة القابي قول ، ومركزها القلعة ، وطائفة الانكشارية المحلية المعروفة باليرلية (من يرلي ، أي محلي) لأن أفرادها كانوا بمعظمهم من الدمشقيين أو من المقيمين في دمشق •

ومما يجدر ذكره أن مقتل كثير من أفراد الانكشارية البارزين في الاعوام السابقة ، الذين كانوا من أصل غير دمشقي ، قد افسح في المجال للدمشقيين للانتساب الى الانكشارية ، والارتقاء الى أعلى الرتب • وان دراسة اسماء زعماء الانكشارية ، منذ أواخر القرن السادس عشر وحتى عام ١٦٥٩ ، تدل على التحول الذي طرأ على هوية الانكشارية ، فمن اسماء كردية تركية الى أخرى تركمانية أو مرعشية • وبزوال هذه العناصر الغريبة من طائفة الانكشارية ، اشتهر الدمشقيون

في صفوفها ، وبرز بين هؤلاء ،في النصف الثاني من القرن السابع عشر، افراد من اسرتي طالو وترجمان •

وفي القرن الثامن عشر سيطر الدمشقيون تماما على طائفة الانكشارية اليرلية ، وأصبحت تبعا لذلك فرقة عسكرية دمشقية تدافع عن مصالح الدمشقيين • ولم يحدث مثل هذا التطور بين انكشارية حلب ، وبقيت صفوفهم مغلقة في وجه السكان المحليين ، نظرا لقوة النفوذ العثماني فيها • ولم يمنع ذلك انكشارية حلب من تعاطي التجارة وغيرها لحاجتهم الى ذلك من ناحية ولعدم وجود مشاغل عسكرية كبيرة لديهم من ناحية اخرى • وتذكر سجلات المحاكم الشرعية في حلب في القرن السابع عشر كيف ان الفلاحين في ولاية حلب استدانوا المال من الانكشارية ولما لم يستطيعوا تسديده لهم ، باعوهم الاراضي • وهكذا اصبح عدد من انكشارية حلب في عداد الملاكين الكبار في الريف •

ثـورات الأمـراء

واستغل ضعف الدولة العثمانية ، الى جانب العساكر ، عدد من الامراء المحليين وبعض الكتل ذات النفوذ ، مثل المماليك ، وذلك للثورة على العثمانيين ، أو لتعميق نفوذهم المحلي • وقد استفادت هذه القوى من طبيعة المناطق التي وجدت فيها ، مثل منطقة جبال طوروس حيث الثغور الاولى وبقايا القبائل والامارات التركمانية ، أو مثل جبل لبنان الذي التجأ اليه عدد من القبائل العربية ، منذ الفتوحات العربية الاولى ، أو مثل البصرة حيث تلتقي البادية بالريف وتنصب تجارة المرور بين اوروبا والشرق الاقصى ، أو مثل مصر حيث استغل المماليك قوتهم وغنى مصر وبعدها عن مركز السلطنة ، ليعمقوا نفوذهم • أما اليمن فقد خرجت بكليتها عن سلطة الدولة العثمانية ، كما تحكمت في شمال افريقية أسر وأفراد عسكريون أقوياء •

وقد ثار في بلاد الشام ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، زعيمان محليان ، هما فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف في جبل لبنان وعلي باشا جانبلاط الزعيم الكردي في منطقة حلب ـ كلس ، اللذان تحالفا في الثورة • ولكن الدولة قضت عليهما ، فتلاشى نفوذ الاسرة الجنبلاطية في منطقة حلب ، وانتقلت الى جبل لبنان

فيما بعد ،بينما بقيت الاسرة المعنية ، بعد القضاء على فخر الدين ، لانها تمثل مذهبا وزعامة اقطاعية وحزبا قيسيا .

وقد سبق القول ان السلطان سليما الاول ، بعد عودته من فتح مصر في عام ١٥١٧ ، عين الامير فخر الدين المعني أمير الشوف ، أميرا على جبل لبنان ، محل التنوخيين الموالين للمماليك . وكان هذا منسجما مع السياسة العثمانية بابقاء الزعماء المحليين الموالين ، الذين اثبتوا نفوذهم ويصعب بالتالي القضاء عليهم . ولما كان الامراء المحليون ،وبخاصة في جبل لبنان ، قد لعبوا دورا هاما في التطورات السياسية في بلاد الشام الجنوبية فيجدر التعرف على أساس قوتهم في المناطق التي سيطروا عليها .

أدرك الحكام والمحكومون ، منذ أقدم العصور ، أهمية المنطقة الجبلية المحاذية للساحل السوري في الدفاع عن الداخل ضد الهجمات من البحر فأقام الحكام فيها الحاميات للدفاع ، كما هرع اليها المضطهدون دينيا في الداخل بحثا عن الملجأ . وفي فترة الفتح العربي لبلاد الشام لجأت قبائل مسيحية من أطراف الامانوس الى جبل لبنان وقد عرفت بالمرادئة (المردة) أو الجراجمة . وفي عهد الامويين اضطهد البيزنطيون الرهبان اتباع مار مارون الذين كانو يسكنون قرب العاصي ، فهرب بعضهم الى جبل لبنان وأوجدوا فيه الطائفة المارونية . وقد أثاروا مع المرادئة كثيرا من المشكلات للامويين ومن بعدهم للعباسيين ، بسبب قطعهم الطرق . فأقام هؤلاء الحاكمون ، وبخاصة العباسيون ، قبائل عربية على الساحل بين طرابلس وجنوبي بيروت ، للحد من تمرد سكان الجبل . ومنذ أواخر القرن العاشر سيطر الشيعة المعتدلون الاثنا عشرية (المتاولة) على مناطق واسعة من جبل لبنان وبخاصة على البقاع الشمالي وعلى جبل عامل ، وتمتعوا بدعم الفاطميين الحاكمين في مصر وبلاد الشام . وحين بدأت الحملة الصليبية الاولى ، في أواخر القرن الحادي عشر ، كانت منطقة طرابلس تحكم من قبل اسرة بني عمار الشيعية . وبضعف الفاطميين أمام الغزو الصليبي ، ضعفت الجاليات العربية التي كانت تدافع عن الساحل السوري ، وبخاصة بعد احتلال الصليبيين بيروت وصيدا ، في أوائل القرن الثاني عشر . ولهذا قامت السلالات السنية الحاكمة في بلاد الشام ، وعلى رأسها أتابكة دمشق ثم الايوبيون ، بنقل جاليات مسلمة جديدة ، غالبيتها من القبائل العربية الى مناطق

لبنان الساحلية • وهكذا اتى بنو بحتر وسكنوا منطقة الغرب ، وجاء المعنيون الى الشوف ، ثم تبعهم آل نكد • وسكن الشهابيون ، في أواخر القرن الثاني عشر ، في منطقة وادي التيم ، عند البقاع الجنوبي ، وبقوا على المذهب السني ، بينما اعتنق الاخرون مذهب السكان الذين اقاموا بينهم ، وهو المذهب الدرزي • والتسمية نسبة الى محمد بن اسماعيل الدرزي ، أحد مؤسسي المذهب الدرزي ، الذي نشره في جبل لبنان في القرن الحادي عشر وقد دعا الى الخليفة الحاكم الفاطمي (٩٩٦ ـ ١٠٢١) •

وبعد طرد الصليبيين ، في أواخر القرن الثالث عشر ، مد المماليك نفوذهم على جبل لبنان وأقاموا فيه عددا من الجاليات السنية • ولكي يخفف المماليك من النزاع بين الموارنة والدروز في مناطق كسروان والمتن ، اقاموا اسرة تركمانية عرفت ببني عساف ، في منطقة التلال الساحلية شمالي نهر الكلب ، كما أقاموا اسرة كردية ، عرفت ببني سيفا ، في مناطق الكورة وعكار لمراقبة موارنة الشمال • وبقيت هاتان الاسرتان على المذهب السني •

وعلى نقيض الموارنة الذين كانت تنقصهم الوحدة الداخلية ويمزقهم الصراع على السلطة بين الامراء والكهنة ، فقد نجحت الاسرة الاقطاعية الدرزية برئاسة بني بحتر في جعل المماليك يعترفون بسلطتها الوراثية في المناطق التي تسكنها وذلك في حوالي عام ١٣١٤ • واعترف المماليك بالامير البحتري ناصر الدين حسين ، أمير منطقة الغرب (١٢٨٨ ـ ١٣٤٨) أميرا على جبل لبنان الجنوبي • وحين أقام العثمانيون المعنيين امراء على جبل لبنان محل البحتريين أيدهم هؤلاء وانتسبوا اليهم بالزواج[٢٠] •

وكانت الاسر في جبل لبنان منقسمة الى حزبين : قيسية ويمنية ، وهذا من بقايا العصبيات التي اتت بها القبائل العربية • وكان المعنيون من القيسية بينما كان اعداؤهم من مذاهب مختلفة كالسنة والمتاولة والموارنة • واستطاع المعنيون رغم هذا الانقسام القيسي اليمني ، اثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي • وقد وازن قوة المعنيين في الشوف امراء آل عساف التركمان وامراء آل سيفا الاكراد في منطقة طرابلس والبقاع الشمالي ، وكانت هاتان الاسرتان توازن الواحدة

منهما الأخرى . وقد احرز الأمير منصور غساف ، الذي تولى الامارة في عام ١٥٢٣ سلطة واسعة في منطقة طرابلس ومد نفوذه حتى حدود اللاذقية وحماه ، واعترف به العثمانيون أميرا على هذه المنطقة في عام ١٥٧٢ ،وحكم الى جانب الوالي العثماني في طرابلس . وقد بنى سرايا وجامعا في بيروت ولكن العثمانيين الذي شجعوه في البدء خشوا اتساع سلطته بعد ذلك ، فعينوا منافسه يوسف سيفا واليا على طرابلس في عام ١٥٧٩ . وتوفي الامير منصور في عام ١٥٨٠ فخلفه ابنه محمد وكان آخر امراء آل عساف . وقد قتل في عام ١٥٩٠ من قبل يوسف باشا سيفا وأصبحت السلطة في شمال لبنان بعد ذلك بيد آل سيفا .

وحدث في عام ١٥٨٤ أن هوجمت خزنة مصر التي تضم الفائض من عائدات مصر الموجهة الى السلطان في منطقة عكار بلبنان . وقد اتهم قرقماس المعني والد فخر الدين المعني الثاني بالتخطيط للهجوم وكان ذلك بدسيسة منافسه يوسف باشا سيفا . وهرب الامير قرقماس ، وتوفي في العام ذاته وهو مختبىء . ولجأت زوجته بابنيه فخر الدين ، الذي خلفه في الامارة ، ويونس الى آل الخازن الموارنة ، في منطقة كسروان واقامت لديهم ستة أعوام عاد بعدها فخر الدين الى امارة الشوف . ومن هنا نشأ التعاطف بين فخر الدين والموارنة ، فيما بعد ، وتم تعيينه أحد أفراد آل الخازن مستشارا له(٢١) .

كان هدف فخر الدين أثر تسلمه الامارة ان يمد سلطته على لبنان الشمالي منطقة نفوذ آل سيفا وعلى البقاع في الشرق منطقة نفوذ آل فريخ الذين خلفوا آل الحنش . وقد حرص فخر الدين في هذه الفترة من توطيد سلطته على كسب عطف العثمانيين بالهدايا وبتقديم مال الميرى بدون تأخير . ولكنه لم يستطع القضاء على يوسف باشا سيفا والي طرابلس وعلى نفوذ اسرته حتى عام ١٦٢٧ ، وكان آل سيفا طوال هذه الفترة شوكة في جنب فخر الدين وقد حدوا من توسعه في الشمال . ولكن بقيت له حرية التوسع في الشرق والجنوب .

كانت سياسة فخر الدين أكثر نجاحا في البقاع . وكان يحكم هذه المنطقة الامير منصور بن فريخ الذي ازدادت سلطته الى حد أخاف العثمانيين وبخاصة ولاة

دمشق • وقد مد الامير منصور سلطته على صناجق صفد وعجلـون ونابلس ، واعترف العثمانيون به أميرا عليها وملتزما لاموالها الاميرية ، بعد أن وطد الامن فيها • وفي عام ٩٩٨/١٥٨٩ ــ ١٥٩٠ عين الامير منصور بن فريخ أميرا على قافلة الحج الشامي ، واستمر ذلك في العام التالي • وقد خشي ولاة الشام من ازدياد قوة منصور بن فريخ فحاولوا التخلص منه • وتم لهم ذلك في ١٣ ربيع الاول ٧/١٠٠٢ كانون الاول ١٥٩٣ • واشترك الامير فخر الدين المعني بقواته مع والي دمشق في تتبع بقية افراد اسرة منصور ، وقضوا عليهم في العام التالي (٢٢) •

واستغل فخر الدين المعني القضاء على آل فريخ ، فمد سلطته على البقـاع حتى صفد ، وافاد من ذلك اقتصاديا ، نظرا لغنى البقاع ، كما زاد من نفوذه في جبل لبنان فخضع له آل الحرفوش الامراء المحليون في منطقة بعلبك ، والشهابيون امراء وادي التيم • وتحمل فخر الدين مسؤولية الدفاع عن هاتين الاسرتين تجاه ولاة الشام • ولكن زوال آل فريخ ، الذين كانوا يشكلون قوة عازلة بين ولاة دمشق وفخر الدين ، وامتداد نفوذ هذا الاخير على البقاع الخاضع مباشرة لهؤلاء زاد من الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين لاسيما وان المنطقة التي اصبح يسيطر عليها فخر الدين كانت تسر فيها الطرق التي تربط بين دمشق والساحل ، وبين دمشـق وفلسطين ومصر وتتحكم في سلامة قافلة الحج الشامي • وبدأت بذلك المشاحنات بين فخر الدين وولاة دمشق • ولمواجهة خطر ولاة دمشق أقام فخر الدين عيونا أي وكلاء له في استانبول لرعاية مصالحه • كما أنه جند بالاضافة الى اتباعه من الدروز والقيسية جيشا خاصا من السكبان المرتزقة وحصن القـلاع في منطقتـه • وقام بالاتصالات مع آل مديتشي حكام توسكانيا في ايطاليا للحصول على المساعـدة العسكرية والفنية ، ولتنشيط تجارة بلاده معهم ، وبخاصة تجارة الحرير التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف • وكان فخر الدين يتمتع بتأييد كيوان،أحد كبار انكشارية دمشق ، والذي كان سابقا من مماليك رضوان حاكم غزة •

وقد استفاد من اشتغال فخر الدين في تقوية نفسه لمواجهة ولاة دمشق واعدائه آل سيفا عدد من الامراء المحليين في فلسطين فتنفسوا الصعداء اثر القضاء علـى آل فريخ الذين وسعوا نفوذهم على حسابهم • وأشهر هؤلاء الامراء أحمد بن رضوان

حاكم غزة ، الذي توفي عام ١٠١٥/١٦٠٦ ـ ١٦٠٧ ، وأحمد بن قانصوه ، أمير بلاد عجلون والكرك ، وطراباي حاكم اللجون الذي خلفه بعد وفاته في عام ١٠١٠/١٦٠١ ـ ١٦٠٢؛ ابنه أحمد،وكانت حيفا تابعة له أيضا،والامير فروخ بن عبدالله حاكم نابلس والقدس الذي كان في الاصل من مماليك الامير بهرام شفيق الامير رضوان حاكم غزة سابقا • وكانت امارة الحج الشامي تنتقل من أمير الى آخر من هؤلاء الامراء المحليين حسب قوتهم ورضى الدولة عنهم • ولم يلبث هؤلاء الامراء ان تعرضوا لضغط فخر الدين وقتاله لهم بعد أن ازدادت قوته ونفوذه • [٢٣] وكان ضغطه يخف عنهم حين يشتغل بالقتال مع الولاة العثمانيين كما حدث مثلا حين تحالف في أوائل القرن السابع عشر مع علي باشا جانبلاط ، الذي ثار في ولاية حلب ، ضدالعثمانيين•

وقد حدثت في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، عدة اضطرابات أثارها متمردون محليون شمالي حلب • ولم يكن حدوث هذه الاضطرابات في هذه المنطقة والفترة بالذات بالامر الغريب • فقد كانت تسكن منطقة الحدود ، بين بلاد الشام والاناضول ، أقوام وأقليات مختلفة يعود أصل بعضها الى الفترة حين كانت هذه المنطقة تعج بالثغور ، وقد ساعدت جغرافية المنطقة الجبلية والهضبية على حماية هذه الاقوام والاقليات وعلى تشجيع غيرها في اللجوء اليها •

واستغلت أقوام هذه المنطقة فرصة ضعف السلطة العثمانية لتثور ضدها • وكثيرا ما وجد المغامرون الطامعون بالسلطة في هذه الأقوام مرتعا خصبا لاعلان عصيانهم • وكما أن جغرافية المنطقة شجعت قيام الثائرين فانها ، من جهة اخرى ، ساعدت على القضاء عليهم ، لان وقوع منطقة حلب على الطريق الرئيسة التي تسلكها الجيوش العثمانية الى الجبهة الصفوية جعلها في متناول السلطة العثمانية ولهذا كان عمر هؤلاء الثائرين قصيرا •

وكان المتمردون الذين ظهروا شمالي حلب ، ومنهم علي باشا جانبلاط ،امتدادا لمجموعات من الثائرين عرفوا في التاريخ العثماني باسم الجلالية ، وانتشروا في الاناضول في هذه الفترة ، وكانوا يعتمدون على قوات المرتزقة السكبان المتوافرة في الاناضول لتوطيد زعامتهم •

ولم تكن للثائرين برامج سياسية أو اجتماعية واضحة ، كما أنهم لم يتبنـوا النهب والقتل كغايات في حد ذاتها وانما كرهوا ، وبخاصة السكبان منهم ، الامتيازات المتعددة التي حصل عليها الانكشارية القابي قول ، وارادوا مشاركتهم فيها . ويمكن القول أن الجلالية والسكبان يمثلون ردود فعل الولايات على سيطرة السلطـة المركزية الخاضعة لنفوذ الانكشارية ، وقد أوجدالجلالية نوعا من الرعب في الاناضول، فهجر الفلاحون أراضيهم الى المدن المحصنة ولجأ الأحسن حالاً منهم الى استانبول أو البلقان أو القرم ، واقفرت مناطق بكاملها في الاناضول من السكان . ويشار الى هذا التحرك السكاني في التاريخ العثماني بالهرب الكبير . ونتج عن اهمال الزراعة حدوث المجاعات ، كما سيطر الامراء الثائرون على الاراضي الشاغرة وحين عـاد أصحابها لاسترجاعها اصطدموا بالامراء .

واستغل الجلالية اشتغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا وعلى الجبهة الصفوية ، في الفترة بين ١٥٩٦ و ١٦١٠ ، ومارسوا نشاطهم بشكل كبير . وبرز من بينهم حسين باشا وعبد الحليم اليازجي المعروف في المصادر التركية بلقب قره يازجي (أي الاسود) وكانا مكلفين في الاصل من قبل الدولة لتجنيد الجنود من أواسط الاناضول لدعمها في الحروب الخارجية فاستغلا ذلك للثورة . وقد ثار حسين باشا الذي كان سابقا واليا على الحبش ، في بلاد كرمان ، ونافسه في الشهرة عبد الحليم اليازجي الذي جمع حوالي عشرين ألف ثائر معظمهم من السكبان (بعض المصادر تضاعف العدد) وتحصن في قلعة الرها ، واجبر سكان الريف والمدن على دفع الضرائب له وسيطر على ولايتي سيواس وذي القدر . وعندما توفي في عام ١٦٠٢ ، خلفه في الزعامة أخوه دلي حسين (وتعني حسين المجنون) الذي حاصـر كوتاهية . ولكن الدولة العثمانية اشترت خضوعه بتعيينه واليا على بوسنة وبمنح اتباعه مناصب الصناجق أي حكام الالوية أو بتعيينهم في الجيش النظامي .وحرصت الدولة العثمانية على عدم استغلال الصفويين حركات الجلالية ، ولذلك عمدت الى القضاء عليهم كمقدمة لتدعيم جبهتها ضد الصفويين[٢٤] .

وكان علي باشا جانبلاط من هؤلاء الجلالية ، وقد اشتهرت اسرته التي كانت من أصل كردي في منطقة كلس ــ حلب في مطلع القرن السابع عشر . وكلمـة

جانبلاط تحوير لكلمتي جان بولاد وتعنيان النفس الفولاذية . وقد اشتهر من هذه الأسرة حسين باشا جانبلاط الذي عين في أول أمره حاكما على كلس . وفي عام ١٥٩٩ كان محمد باشا ابن الوزير المشهور سنان باشا يقاتل حسين باشا ، والي الحبش سابقا الذي ثار في منطقة حلب . فاستنجد بحاكم كلس حسين باشا جانبلاط . وحين ازداد في هذه الفترة تسلط العساكر الدمشقيين في ولاية حلب استنجد واليها نصوح باشا في عام ١٦٠٠ بحسين جانبلاط لطردهم . فأنجده بأبن أخيه علي جانبلاط ، الذي فتك بهم بشدة . ومن هنا جاء أصل العداء بين آل جانبلاط وعساكر دمشق . وقد حاول نصوح باشا ، بعد ذلك ، ان يتخلص من جاره وحليفه حسين باشا جانبلاط الذي تزايد نفوذه بكثرة فعلم هذا بما كان يدبر له ونهض لقتال نصوح باشا وحاصره في حلب واخرجه منها بالقوة . وفي عام ١٦٠١ عين حسين باشا جانبلاط واليا على حلب وكان يعتمد في توطيد سلطته على جنده من السكبان وعلى دعم بعض أصحاب النفوذ في استانبول مثل سنان باشا الذي أرسله السلطان لقتال قوات الشاه عباس الاول الصفوي . ولكن العلاقات ساءت بين سنان باشا وحسين باشا جانبلاط بسبب تقاعس هذا الاخير عن نصرة الاول أثناء قتاله مع الصفويين ، مما أدى الى هزيمته في ٢٦ جمادى الثاني ١٠١٤/٨ تشرين الثاني ١٦٠٥ ، وحين عاد سنان باشا من حملته الفاشلة قتل حسين باشا جانبلاط في أواخر عام ١٦٠٥ .

ثار علي بن أحمد بن جانبلاط لمقتل عمه وأخذ ولاية حلب عنوة وجمع جيشا كبيرا برز فيه السكبان ، وامتنع عن دفع أموال الميرى . وقد تطوع يوسف باشا سيفا حاكم عكار وبلاد طرابلس لدى السلطان العثماني أحمد الاول لقتال علي باشا جانبلاط . وكان يوسف باشا سيفا يحاول بعد قضائه على آل عساف واتساع نفوذه أن يوطد سلطته بموافقة السلطان لاسيما وان فخر الدين المعني الثاني منافسه في جبل لبنان كان هو الآخر يزداد نفوذا . وقد عين السلطان العثماني يوسف باشا سيفا قائدا على عساكر الشام ، فبدأ يجمع قواته في حماه ، حيث تحارب مع علي باشا جانبلاط في ١٦ ربيع الاول ١٠١٥/٢٤ تموز ١٦٠٦ . وقد هزم يوسف باشا وفر بحرا الى حيفا التي كان يحكمها الامير أحمد طراباي ، وتحصن مملوكه يوسف في قلعة طرابلس وعمه محمود في حصن الاكراد . وازداد نفوذ علي باشا جانبلاط اثر

ذلك فأرسل الى الامير فخر الدين المعني يطلب التحالف معه وتم ذلك بوساطة كيوان أحد كبار انكشارية دمشق وصديق فخر الدين . واجتمع الحليفان عند نبع العاصي ثم سارا لاحتلال طرابلس ومحاصرة دمشق حيث لجأ يوسف باشا سيفا وأخذ يجمع القوات العثمانية من جديد . واحتلت قوات علي باشا مدينة طرابلس باستثناء القلعة، ثم توجه الحليفان نحو البقاع فسرا ببعلبك ونصبا فيها يونس الحرفوش الذي عارضا به الفرع الحرفوشي الآخر الذي يتزعمه موسى الحرفوش المؤيد ليوسف باشا سيفا. وكان أحمد شهاب حاكم وادي التيم يؤيد الامير فخر الدين وعلي باشا . وحين وصلت قوات علي باشا وفخر الدين الى منطقة العراد قرب دمشق خرجت العساكر الشامية لقتالها وتخلف ابن سيفا متظاهرا بمرضه ، ودبت الخيانة في صفوف العساكر الشامية فهزموا في القتال الذي جرى في العراد في ٢٧ جمادى الاولى ١٠١٥/٣٠ ايلول ١٦٠٦ وهرب بعضهم الى قلعة المزيريب ولجأ آخرون الى دمشق . وقد اعتصم أهل دمشق ضمن أسوار المدينة ، وتقدم علي باشا وفخر الدين بقواتهما فأقاما في المزة، ووقع النهب من قبل عساكرهما في اطراف دمشق واصاب ذلك بخاصة مناطق الصالحية وقبر عاتكة والشويكة وباب مصلى والقبيبات . وكان يوسف باشا قد هرب من دمشق ، ولم يمكنه أهلها من ذلك الا بعد أن دفع لهم مئة الف قرش . فخرج الآن بعض أعيان دمشق للتفاوض مع علي باشا وفخر الدين وذكروا لهما هرب يوسف باشا وبرفقته موسى الحرفوش ، وانهما قصدا حصن الاكراد حيث الامير محمود بن سيفا . وقد ذكر علي باشا أثناء المفاوضات أنه لولا لجوء عدوه يوسف باشا سيفا الى دمشق لما قصد اليها . وبالفعل ارتد عنها حين علم بهربه وبعد أن دفع له الدمشقيون المئة الف قرش التي أخذوها من ابن سيفا . وبموجب هذه المصالحة تقرر اعطاء عشرين الف قرش الى فخر الدين ، وقد اقتطع منها مبلغ اثني عشر ألف قرش لقاء ما تأخر عليه من مال الميرى في منطقة بعلبك ، ودفع له ثمانية آلاف قرش اخذت ، كما يقول نجم الدين الغزي(٢٥) ، من مال كان مودعا في قلعة دمشق لبعض الناس . ثم افترق الحليفان اثر هذا الانسحاب فتوجه فخر الدين الى بلاده وسار علي باشا لحصار حصن الاكراد.وأخيرا تم الصلح بينه وبين يوسف باشا سيفا وتصاهرت الاسرتان وعاد علي باشا الى حلب .

نتساءل هنا لماذا تراجع علي باشا عن احتلال دمشق ، بعد أن هزم قواتها وأقام في اطرافها في المزة وعاثت عساكره في ضواحيها ؟ لاشك ان تفسير ارتداده عنها بخروج عدوه ابن سيفا منها لاينفذ الى الاسباب العميقة الكامنة وراء ذلك فلم تكن دمشق آنذاك لتثبت امام قوته وقوة حلفائه ، وبشهادة المؤرخ المعاصر البوريني(٢٦) : « لو أرادها (أي دمشق) لأوصل نفسه مرادها لانها ما كانت تحمل الحصار يوما واحدا لقلة مافيها من زاد » .

ان عدم احتلال دمشق من قبل علي باشا وهو صاحب الكلمة العليا بين حلفائه يعد نقطة تحول في موقفه السياسي . لاشك أن فتح دمشق ستكون له مضاعفات هامة في الدولة العثمانية وسيثير السلطان ، نظرا لما تتمتع به دمشق من أهمية دينية، لكونها مركز تجمع الحجاج ، وأهمية سياسية . كما أن احتلال علي باشا لدمشق سيبعده عن مركز قوته في منطقة كلس ـ حلب . وفي الحقيقة فان علي باشا عرض الصلح مرتين على سلطات دمشق : الاولى حين كان في أطراف حمص ، بعد هزيمته لابن سيفا في حماه،وقد توسط في أمر الصلح الامير موسى الحرفوش ، أمير بعلبك، وعرض شروط علي باشا على والي دمشق،وتتلخص باعطاءحوران للشيخ عمر شيخ بدو المفارجة واعطاء البقاع لابن الفريخ منصور بن بكري وارجاع كيوان كبير الانكشارية الى دمشق.وقد رفضت هذه الشروط ولا ندري هل كان تحقيقها سيخدم مصلحة علي باشا أو مصلحة حليفه فخر الدين ، والثانية : حين عرض الصلح على عساكر دمشق قبل اصطدامه بهم في أرض الغراد ولكن بعض الغلاة منهم اضطروه للقتال . ومن الاسباب الاخرى التي يبدو أنها استمالت علي باشا للانسحاب كون معظم قواته من السكبان المرتزقة الذين كان هدفهم الرئيسي النهب والسلب ، واذا كانوا يصلحون للغزو ، الذي يتفق مع أهدافهم ، فلن يفيدوا في تدعيم حكم علي باشا في مدينة كدمشق التي روع سكانها من تعدياتهم في اطرافها . ويبدو أيضا أن علي باشا لم يعد متحمسا لتحالفه مع فخر الدين بدليل أنهما افترقا في البقاع بعد ارتدادهما عن دمشق . وربما كان فخر الدين وهو صاحب امارة متوارثة قد خشي من تمادي علي باشا في محاربة قوات السلطان وأراد تحاشي تهمة الثورة معه . وربما كان فخر الدين قد خشي أيضا ازدياد قوة علي باشا في منطقة قريبة منه وعد ذلك تهديدا له لاسيما وأنه اذا نجح

علي باشا في تسلم حكم ولاية الشام فسيكون فخر الدين تابعا له بصفته أمير الشوف والبقاع وبلاد صفد التي كانت تتبع ولاة الشام •

ولعل أهم سبب جعل علي باشا يقرر الانسحاب هو عدم رغبته الاشتراك في مغامرات بعيدة عن مركز قوته في منطقة حلب ، ذلك المركز الذي كان مهددا آنذاك بقوات السلطان • وربما يفسر هذا الامر تصالحه فيما بعد مع يوسف باشا سيفا ، ومصاهرته معه لحماية حدوده من الجنوب • وقد زاد هذا الانفاق من نفوذ يوسف باشا لانه يعد تحولا في سياسة علي باشا تجاه فخر الدين المعني • وتقاسم النفوذ في بلاد الشام كل من علي باشا الذي عاد الى حكم حلب وامتدت سلطته حتى حمص ، ويوسف باشا الذي امتدت سلطته على حمص والمنطقة في جنوبها وغربها ولكنه كان عمليا تحت نفوذ علي باشا • ودام الامر كذلك مدة سنتين الى ان فرغت الدولة العثمانية من حروبها في المجر ، ووقعت مع النمسا معاهدة صلح في ستيفاتورك في ١١ تشرين الثاني ١٦٠٦ فجهزت جيشا بقيادة الصدر الاعظم مراد باشا للقضاء على علي باشا جانبلاط وعلى ثائرين آخرين أقل شأنا في منطقة حلب ـ سيواس •

وبعد أن تغلبت القوات العثمانية على الثائرين الصغار اصطدمت بقوات علي باشا في ٢٧ جمادي الثاني ١٠١٦/١٩ تشرين الاول ١٦٠٧ في منطقة مرعش ، فهزم علي باشا رغم النجدات من السكبان التي تلقاها من ابن سيفا وفخر الدين ، وقد تفوق مراد باشا بسبب استخدامه المدافع واحكامه الخطط الحربية . وتمكن علي باشا من الفرار ودخل مراد باشا حلب • وقد قضى والي الشام سليمان باشا (ويلقب كجك سليمان) على قوات الثائرين من السكبان الذين هربوا باتجاه الشام وروعوا سكانها •

أدت هزيمة علي باشا الى اضطراب ميزان القوى في بلاد الشام • فقد هب عساكر دمشق لنجدة مراد باشا ، بينما تباطأ فخر الدين ويوسف باشا سيفا في مساعدته • وحين تيقنا من هزيمة علي باشا قدما الى مراد باشا المساعدة والهدايا • واكتفى احمد بن قانصوه حاكم عجلون والكرك ، وأحمد بن طراباي حاكم اللجون ، وفريدون بك حاكم نابلس وأمير قافلة الحج آنذاك ، وفروخ حاكم القدس ، وابراهيم

بن طالو حاكم تدمر بتقديم الاعذار والهدايا للتهرب من ارسال نجدات عسكرية الى مراد باشا • وقد حاول علي باشا جانبلاط الانضمام الى بعض الثائرين في الاناضول ولكنه لم يوفق فذهب الى استانبول حيث قبل السلطان طاعته وعينه حاكما في روميلية ثم قتل بأمر السلطان في حوالي ١٠٢٠/١٦١١ ـ ١٦١٢ • وقد زال نفوذ الاسرة الجانبلاطية في منطقة حلب اثر ذلك ولجأ بعض أفرادها في ١٦٣٠ الى حكام الشوف المعنيين نظرا لما كان بين الاسرتين من الصداقة القديمة ودخلوا في خدمتهم(٣٧) • وبعد قرن من ذلك لمع اسم الجانبلاطيين في بلاد الشوف ، واعتنقوا مثل سكانه المذهب الدرزي ، واستفادوا من ضعف الامراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان بعد المعنيين •

وبعد القضاء على الثائرين وزعيمهم علي باشا جانبلاط في منطقة حلب انتقل مركز ثقل الاحداث الى بلاد الشام الجنوبية حيث الثائر الآخر الامير فخر الدين المعني الثاني • ويختلف فخر الدين عن علي باشا والثائرين الاخرين في الشمال بأنه ينتسب الى أسرة امراء في جبل لبنان اعترف العثمانيون بسلطتهم وبوضعهم الخاص ضمن الامبراطورية • كما أن منطقة فخر الدين وانعزالها نسبيا وطبيعة ارضها ، بالاضافة الى تاريخها ساعدت على استمرار الامراء المحليين فيها • وتحولت الدولة العثمانية ، بعد صلحها مع النمسا في ١٦٠٦ والقضاء على قوات علي باشا جانبلاط في ١٦٠٧ الى مقاومة فخر الدين المعني الذي كان قد مد سلطته على البقاع وصفد وبيروت وصيدا وتحالف مع علي باشا • فكلفت ولاة الشام بالتصدي له خوفا من ازدياد سلطته وتهديده لطريق الحج وطريق التجارة مع مصر وطعنه العثمانيين من الخلف وهم مشغولون في حربهم مع الصفويين •

وقد حدث في هذه الاثناء ، أن عين لولاية الشام في عام ١٦٠٩ احمد باشا الحافظ وبقي يحكمها حتى ١٦١٤ وجعل همه مقاومة فخر الدين الذي اصبح بازدياد نفوذه خطرا على سلطته • وقد بدأ أحمد باشا الحافظ باثارة الامراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده ، فشجع بني سيفا حكام طرابلس ، وأثار الاضطرابات على فخر الدين في منطقة البقاع ــ عجلون الخاضعة لسيطرته ونفوذه • وحاول أحمد باشا الحافظ القضاء على الامير يونس الحرفوش حاكم بعلبك والامير أحمد شهاب حاكم

وادي التيم ، وهما من حلفاء فخر الدين ، الا أن ارسال فخر الدين النجدة لهما أرهب أحمد باشا .

واشتكى أحمد باشا الحافظ الى استانبول من عمل فخر الدين فأرسلت اليه الاوامر بالزحف اليه . وانضم الى أحمد باشا كل من الامير فروخ ، وأحمد بك طراباي حاكم منطقة اللجون ، وحسين بن يوسف باشا سيفا ،وانجده السلطان بقوات من حلب والاناضول . وحين رأى فخر الدين قوة والي الشام وشدة حصاره لقلعة شقيف التي حصنها فخر الدين وارساله قوات اخرى ضد الشوف خشي القضاء على امارته من اساسها فهرب في ايلول ١٦١٣ الى ايطاليا حيث بقي مدة خمسة اعوام عند اصدقائه آل مديتشي حكام توسكانيا الذين كانت تربطهم بفخر الدين معاهدات تجارية . وخلفه ابنه علي في امارة الشوف ، وكان يساعده عمه الامير يونس المعني. وقد عاد أحمد باشا الحافظ مع قواته الى دمشق بعد أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين وفرض عليهم مبلغا كبيرا من المال .

ولم يتوقف العثمانيون عن محاولاتهم لاضعاف قوة المعنيين بعد هرب فخر الدين .وكان هدفهم هدم قلعتي شقيف وبانياس حيث تحصنت قوات المعنيين والسكبان المستخدمين لديهم . واذا تحقق للعثمانيين ذلك فمن شأنه أن يقضي على مراكز المقاومة والحصار المعنية .

وقامت القوات العثمانية بحملة على بلاد الشوف احرقت خلالها كثيرا من القرى. وكان حسين باشا بن يوسف سيفا يساعد العثمانيين في قتال المعنيين،وقد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام في ١٦١٤ قبل أن يتم له تحقيق هدفه في احتلال قلعتي شقيف وبانياس . وتعايش ولاة الشام من بعده مع علي بن فخر الدين الذي قبل بدفع مال الميرى لهم . وقد صدرت أوامر من استانبول في ١٦١٤ بانشاء ولاية في صيدا تتألف من صنجقي صيدا (مع بيروت) وصفد لاحكام الطوق على المعنيين ولكن ليس هناك من دليل آخر على أن هذه الولاية قد وجدت بالفعل في ١٦١٤ وانها استمرت في الاعوام التالية . ولا تظهر ولاية صيدا بشكل ثابت حتى عام ١٦٦٠ .

خف العداء في استانبول ضد فخر الدين أثناء غيابه في ايطاليا وذلك بعد عزل

عدوه نصوح باشا عن الصدارة العظمى وبسبب اشتغال الدولة العثمانية بالقتال مع الصفويين • وبوساطة كيوان الانكشاري والامير يونس الحرفوش أمير البقاع لدى السلطات العثمانية عاد فخر الدين الى جبل لبنان في عام ١٦١٨ وبدأ اثر ذلك بتوطيد سلطته من جديد • فاهتم بتطوير اقتصاديات بلاده وبخاصة الزراعة واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا الخاضعتين له لتمويل جيشه • وقد سمح فخر الدين للفرنسيين وللبنادقة ، الذين كانوا يتاجرون تحت علم فرنسا بافتتاح مراكز تجارية وقنصليات في صيدا وفي بعض الموانىء المجاورة ، وكانوا يستوردون من هذه المناطق الحرير والمنتجات الزراعية ومادة القلى المستخدمة في صناعة الزجاج والصابون بخاصة في البندقية ومرسيليا . ويصدرون اليها بالمقابل المنسوجات بصورة رئيسية •

وبدأ فخر الدين من جديد يمد نفوذه الى المناطق المجاورة للشوف فاصطدم بيوسف باشا سيفا ، والي طرابلس ، الذي قبل أخيرا الخضوع لسلطة فخر الدين وتقديم المال اليه • وقد مد فخر الدين نفوذه شمالا حتى حدود انطاكية • وتوسع فخر الدين أيضا في جنوب الشوف وشرقه وفرض سلطته من جديد على مناطق صفد ونابلس وعجلون ولكنه اصطدم بأمير البقاع يونس الحرفوش الذي خشي توسعه بعد أن كان حليفا له فهزمه فخر الدين في معركة جرت في البقاع عام ١٦٢٢ واستولى اثر ذلك على مركز قب الياس الاستراتيجي الذي يسيطر على طريق دمشق — بيروت • وقد اثار يونس الحرفوش والي الشام مصطفى باشا ضد فخر الدين فشنا حملة عليه ، ولكنهما هزما في موقعة عنجر في ١٦٢٣ ، واسر فخر الدين مصطفى باشا ثم اطلق سراحه ، وبذلك بلغ نفوذ فخر الدين الذروة • واصطدم فخر الدين أثناء توسعه في فلسطين بآل طراباي حكام منطقة اللجون فتغلب عليهم كما خضع لنفوذه آل فروخ • وأعطى الامير فخر الدين حكم صنجق صفد لابنه علي ، وصنجق عجلون لابنه حسن ، وصنجق نابلس لابنه مصطفى •

وبعد أن وطد فخر الدين سلطته في هذه المنطقة الواسعة وجد العثمانيون انه يصعب عليهم اخضاعه بسبب اشتغالهم آنذاك ضد خطر الصفويين . ولذلك اعترف السلطان مراد الرابع بسلطة فخر الدين ومنحه في ١٦٢٤ فرمانا ولاه بموجبه على بلاد

عربستان من حدود حلب الى حدود العريش ، شريطة ان يقدم فخر الدين مال الميرى لخزينة الدولة وان يحافظ على الامن في منطقته • ويقصد بمنطقة عربستان هنا كما يرجح المناطق الواقعة خارج المدن التي كان يقطنها العرب أي البدو في مفهوم ذلك الزمن • ورغم ماعرف عن السلطان مراد الرابع من القوة والبأس فقد اضطر ، في أول عهده ، لهذه المصالحة مع فخر الدين ليتفرغ لقتال الصفويين • وبدأ فخر الدين يعزز الدفاع عن بلاده فبنى حصنا في المنطقة بين حلب وانطاكية وحصنا آخر في قب الياس في البقاع وآخر في بانياس في الجنوب وله حصن في تدمر لايزال يعرف باسمه • وكان هدفه من ذلك حماية منطقته من تحول العثمانيين ضده • وقد ازدادت ثقة فخر الدين بقوته فاتخذ لنفسه لقب سلطان البر • وعارض في ١٠٤١/١٦٣١ — ١٦٣٢ اقامة الجنود السباهية العثمانيين في المناطق الخاضعة لنفوذه ، وكانوا آنذاك يقضون فصل الشتاء في بلاد الشام موزعين على مناطقها بناء على أوامر السلطان مراد الرابع • ويبدو أن السلطان العثماني قد خشي في الوقت الذي كان مشغولا فيه بقتال الصفويين ان يتشجع فخر الدين على الثورة بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والتحدي • ولهذا عين أحد الوزراء المشهورين ويسمى أحمد باشا (المعروف بلقب كجك أحمد) على ولاية الشام وأمره بقتال فخر الدين ووضع تحت تصرفه قوات كثيرة من جملتها قوات من مصر ، كما حاصر الاسطول العثماني فخر الدين من البحر • وكان فخر الدين قد عطل الموانيء ، في المدة الاخيرة ، لكي يمنع وصول الاسطول العثماني اليها ، وبقيت معطلة فيما بعد حتى أواخر القرن السابع عشر •

انتصر كجك أحمد باشا على الامير علي بن فخر الدين في البقاع في عام ١٦٣٤ وفتك بمعظم قواته ، وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لفخر الدين الذي ارتكب خطأ توزيع القسم الاكبر من قواته على القلاع المبعثرة التي اخذت الآن تنهار واحدة بعد الاخرى • وحوصر فخر الدين في قلعة جزين ، وعندما رأى عقم المقاومة استسلم الى كجك أحمد باشا فاقتيد الى دمشق وارسل منها الى استانبول حيث قتل في ١٦٣٥ [٢٨] •

ولم تكن نهاية فخر الدين نهاية حكم المعنيين في جبل لبنان اذ بقي هؤلاء يحكمون حتى ١٦٩٧ • ولكن مما لاشك فيه أن القضاء على فخر الدين قد أضعف

اسرته كثيرا واضعف بالتالي امارة جبل لبنان ، وأهم ما يذكر عن حكم فخر الدين استغلاله ثروات بلاده في سبيل اقامة جيش قوى وامارة موطدة وتسامحه تجاه المذاهب المختلفة وبخاصة الموارنة الذين لجأ اليهم اثر وفاة أبيه في الفترة بين ١٥٨٤ ــ ١٥٩١ ، ونتيجة لسياسة التسامح هذه حدث تمازج بين السكان ، وانتقل كثير من الموارنة الى جبل لبنان الجنوبي وادى هذا بصورة غيرمباشرة ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، في أواسط القرن التاسع عشر ، الى الاضطرابات المذهبية المعروفة في جبل لبنان التي بدأت في الاصل بثورات الفلاحين من مختلف المذاهب ضد الاقطاعيين الذين كان معظمهم من الدروز في لبنان الجنوبي ولكن وجد في الداخل والخارج من استغل هذه الثورات وحرفها عن غرضها في التحرر من الاقطاع ، وكان أيضا من نتائج تسامح فخر الدين وصداقته مع آل مديتشي ان تشجعت الارساليات التبشيرية الاجنبية على توسيع أعمالها في جبل لبنان ،

وقد أدى القضاء على فخر الدين الى حدوث شبه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين ، ولم يستطع أي أمير محلي ان يملأ هذا الفراغ الى أن سيطر ظاهر العمر في القرن الثامن عشر على فلسطين وطغى بنفوذه على امراء جبل لبنان والولاة العثمانيين ، وفي هذه الاثناء تمتع ولاة الشام بكثيرمن النفوذ في هذه المناطق وشاركهم في ذلك بعد سنة ١٦٦٠ ولاة صيدا ، والجدير بالملاحظة أن فخر الدين قد اضعف أثناء حكمه الامراء المحليين من آل فريخ وآل فروخ وآل طراباي وأبناء قانصوه الغزاوي وغيرهم ، وحين تضي عليه كان بعض هذه الاسر الحاكمة قد تلاشى على يديه وكان بعضها الاخر في طريق الانحلال بتأثيره ، ولذا دام نفوذ بعضها لفترة اخرى فمرد ذلك الى القضاء على فخر الدين ،

وقد أثر الصراع على النفوذ بين الامراء المحليين بعضهم مع بعض وبينهم وبين ولاة الشام على تعيين امراء قافلة الحج وتنوع هوياتهم ، وكان الامراء المحليون يعينون منذ الربع الاخير للقرن السادس عشر امراء على قافلة الحج نظرا لتمكنهم من توطيد سلطتهم ولقدرتهم على تأمين سلامة قافلة الحج من البدو ، وكانوا ينفقون من أموال الميرى التي يجمعونها من مناطقهم بصفتهم ملتزمين على تمويل قافلة الحج

والجردة التي كانت تخرج لملاقاة الحجاج والتي كانوا يعينـون في هـذه الفترة امـراء عليها .

وبعد ضعف الامراء المحليين على يدي فخر الدين دخل الى ساحة المنافسة على امارة الحج انكشارية دمشق ، الذين كانوا في ذلك الوقت طائفة متنفـذة . ويتفق هذا مع الخط العام آنذاك في ملء الفراغ السياسي في بلاد الشام من قبل السلطات المتنفذة في دمشق ، مثل الولاة وزعماء الانكشارية الذين كانوا بدورهم يتصارعون مع الولاة على النفوذ . ورغم ان بعض انكشارية دمشق عينوا الآن امراء للحج الا ان بقايا الامراء المحليين الذين احتفظوا ببعض السلطة اثر القضاء على فخر الدين استمروا يعينون بشكل متقطع ومتناقص ، امراء للحج . ويعكس هذا المصاعب التي لاقاها انكشارية دمشق (الذين عرفوا باليرلية) في توطيـد نفوذهم .

وبازدياد ضعف الانكشارية بعد البطش بهم في ١٦٥٩ عين موظفون عثمانيون من الروم أمراء على الحج ، وكان واحدهم يعطى عادة، مثل الانكشارية ،حكم صنجق أو أكثر في فلسطين بمناسبة تعيينه لمنصب امارة الحج . والهدف من ذلك كما يبدو تأمين مورد ومكان لامراء الحج هؤلاء وتمكين الدولة من جمع مال الميري مـن انحاء ولاية الشام للانفاق على قافلة الحج . ويدل أيضا تعيينهم حكاما على هذه الصناجق على محاولة الدولة ملء الفراغ الذي تركه ضعف أو تلاشي نفوذ الامراء المحليين . وسنرى أهمية ونتيجة ذلك حين معالجتنا للفترة التالية .

واعترف العثمانيون بعد القضاء على فخر الدين بالامير علي علم الدين من الحزب اليمني أميرا على الشوف، وبالتالي على جبل لبنان . وكان علي هذا قد ساعد العثمانيين ضد عدوه فخر الدين الذي تزعم الحرب القيسي ولكن الامير ملحما المعني الذي خلف عمه فخر الدين لجأ الى الشهابيين في وادي التيم فساعدوه مع القيسية الذين تكتلوا لطرد اليمنية ، واسترجع مركزه أميرا على الشوف وعلى جبل لبنان في عام ١٦٣٥ . واستمر العثمانيون يؤيدون آل علم الدين زعماء اليمنية ضد المعنيين لاضعافهم . وبقيت المشاحنات قائمة طوال القرن السابع عشر بين المعنيين الذين ايدهـم

الشهابيون الاقوياء في وادي التيم وبين آل علم الدين الذين أيدهم ولاة دمشق . ومما تجدر الاشارة اليه أن السلطة التي بلغها فخر الدين قد زادت من أهمية منصب أمير الشوف . ولكن خلفاء فخر الدين المباشرين لم يستطيعوا نظرا للظروف المحيطة بهم بلوغ المستوى نفسه من النفوذ الى ان رقي امارة جبل لبنان الامير بشير الشهابي الثاني الذي حكم من ١٧٨٨ الى ١٨٤١ .

وكان الصدر الاعظم محمد باشا كوبريلي مهتما في هذه الاثناء بالقضاء على الفتن في الدولة العثمانية . وبعد أن قضى على تمرد ابازه حسن باشا في حلب وعلى تمرد انكشارية دمشق عين ابنه احمد باشا كوبريلي واليا على دمشق في ١٦٦٠ وأمره باخضاع الشهابيين وحلفائهم المعنيين ففعل ذلك ، وطرد امراء الاسرتين بمساعدة آل علم الدين وآل طراباي . وعاد آل علم الدين الى حكم جبل لبنان . وانشئت ولاية صيدا في هذه الاثناء من صنجقي صيدا (مع بيروت) وصفد لتشديد الرقابة على جبل لبنان ، ولم يبق آل علم الدين في حكم جبل لبنان فترة طويلة . وفي عام ١٦٦٦ تغلب عليهم الامير المعني احمد بن ملحم بمساعدة القيسية ففر آل علم الدين الى دمشق . وعاد الامير أحمد الى امارة الشوف وجبل لبنان وبقي في منصبه حتى موته في ١٦٩٧ . وقد أعلن الولاء للدولة العثمانية وقدم لها مال الميري بانتظام ، وبموته انقرضت السلالة المعنية وحلت الاسرة الشهابية مكانها .

وعلى غرار ثورات الامراء في بلاد الشام ظهر في أواخر القرن الخامس عشر ثائرون محليون في منطقة البصرة استغلوا القبائل البدوية وقواتهم الخاصة واحيانا القوى الصفوية لتوطيد نفوذهم . وكان ابرز هؤلاء الثائرين السيد مبارك وأفرا اسياب .

ثار السيد مبارك حاكم الحويزه وأمير بدو المشعشعين في منطقة البصرة في عام ١٥٩٧/١٠٠٦ مستغلا ضعف الدولة . وايده البدو وبعض الفرس المقيمين في منطقته . وامتد نفوذه على انحاء البصرة وسواحل الاحساء بما في ذلك الموانىء التجارية . ولكثرة مالحق بالسكان المحليين من ضرره وجماعته فقد توجهوا بنداءات النجدة الى كل من الشاه الصفوي والسلطان العثماني . ويدل هذا على عدم اهتمام

السكان بهوية الحاكم الذي يستطيع اقامة العدل والامن . ويذكر احد المصادر ان الدولة العثمانية طلبت الى الشاه الصفوي ان يتدبر أمر السيد مبارك ، ولهذاالطلب، أن صح ، دلالته لانه يشير الى نفوذ الصفويين في جنوبي العراق ويدل أيضا على اشتغال العثمانيين في مشكلات اخرى كانت تجابههم مثل الحرب مع النمسا والثورات الجلالية في الاناضول . ومهما كان الامر فالنفوذ الصفوي في العراق حقيقة واقعه وكل ضعف للنفوذ العثماني يفيد منه الصفويون .

عهد السلطان العثماني في أوائل رمضان ١٠٠٦ / النصف الاول من نيسان ١٥٩٨ الى حسن باشا الطوبال بولاية بغداد وبرئاسة الجيوش الموجهة لقتال السيد مبارك . ولا نعرف شيئا عن الحملة بعد ذلك ، ولكن يبدو أن السيد مبارك استمر لعدة سنوات في زعامته المحلية ، تحت حماية الصفويين بدليل أن العثمانيين اشترطوا على الصفويين في الصلح الذي عقدوه معهم في عام ١٦١٣ احترام الحدود التي كانت ايام السلطان سليمان القانوني وعدم مساعدة السيد مبارك والاعتراف به تابعا الى بغداد وليس البصرة ، التي أقام نفوذه في منطقتها ، بسيطرة زعيم آخر على البصرة في هذه الاثناء هو علي باشا ابن افراسياب الذي يمثل سلالة حاكمة فيها . وكان افر اسياب قد قضى على نفوذ السيد مبارك وسيطرته في القسم الشرقي من شط العرب ومنعهمن جباية الضرائب في تلك المنطقة .

وتذكر المصادر ان والي البصرة العثماني قد عجز ، في عام ١٠٠٥ / ١٥٩٦ عن دفع مرتبات الجند فباع البصرة لأفراسياب بالمال شريطة الابقاء على أسم السلطان العثماني في الخطبة . وكان افر اسياب كاتبا للجند في البصرة آنذاك . واختلف حول أصله فمن قائل أنه ينتسب الى الدير وهو موضع شمالي البصرة والتسمية نسبة الى نهر الدير من انهار البصرة ،ومن قائل انه ينحدر من سلاجقة الروم ، وأن أهل الدير أخواله . ويبدو أن النسبةالاخيرة قدنشأت بعد اشتهاره لربطه بجذور تاريخية مشهورة .

وقد تقرب افراسياب من الاهلين تُوفر لهم الاستقرار والعدل . ثم قضى على نفوذ الامراء المجاورين بما فيهم السيد مبارك حاكم الحويزة ، الذين انتعشوا

بسبب ضعف حاكم البصرة العثماني . وسيطر على معظم منطقة الجزائر المتدة بين القرنة والعمارة، والمحصورة بين دجلة والفرات. ويبدو أن السيد مبارك عاد الى الاشتهار في عهد علي باشا ابن افراسياب الذي خلف اباه في حكم البصرة . وكانت وفاة افراسياب في عام ١٠١٢ / ١٦٠٣ بعد حكم دام سبع سنوات . وامتد نفوذ علي باشا ابن افراسياب حاكم البصرة على جميع الجزائر . كما أنه احتل كوت معمر ، التابع لوالي بغداد وكوت الزكية من حسن بن النائب وربما كان تابعا لبغداد أيضا.
وأفاد علي باشا من اشتغال العثمانيين بثورات محمد الطويل وبكر الصوباشي في بغداد ومن اشتغال الصفويين في المحافظة على بغداد بعد احتلالهم اياها في عام ١٦٢٣ وصدهم الحملات العثمانية المتكررة لاسترجاعها ، فزاد منطقته اتساعا ونفوذه عمقا ، مما أثار مخاوف كل من الشاه عباس ، وصفي قولي خان ، والي بغداد الصفوي (١٦٢٣ — ١٦٣١) ، فوجها حملة ضده بقيادة امام قولي خان في عام ١٠٣٦ / ١٦٢٧ ، استمرت تحاصر البصرة حتى عام ١٠٣٨ ، حين توفي الشاه عباس ، وارتد الصفويون . ويعزو الكعبي[٢٩] ثبات علي باشا في البصرة الى حب الرعية له وعدم وقوع الخيانة في صفوفه . ولم يعد الصفويون في فترة حكمهم بغداد ١٦٢٣ — ١٦٣٩ الى مهاجمة البصرة مرة أخرى . وكل ماقاموا به جنوبي بغداد ، هجومهم على الحلة واحتلالها في عام ١٠٤٠ / ١٦٣٠ .

وقد تسامحت الدولة العثمانية بحكم آل افراسياب في البصرة لانهم اعترفوا بسلطنها اسميا كما أنهم كانوا يمدونها بالمساعدة ضد الصفويين . ورغم اخراج العثمانيين الصفويين من بغداد في عام ١٦٣٩ ، فقد استمر آل افراسياب في حكم البصرة والمناطق المحيطة بها حتى القرنة ، وذلك لأنهم اقاموا الاستقرار في المنطقة وحموا مداخل الخليج من هجمات البرتغاليين والامراء المحليين وامنوا سلامة التجارة فيه . وكانت مخاطر ازالتهم أكثر من فوائد التخلص منهم . ولكن النزاع ضمن أسرة افراسياب بدأ يستفحل في أعقاب وفاة علي باشا وحلول ابنه حسين باشا مكانه في عام ١٦٥١ مما أثار حسد افراد آخرين من الأسرة . واستغل العثمانيون الفرصة فأيدوا مطالبا بالحكم ضد آخر ضمن أسرة افراسياب . وصادف في هذه الأثناء وصول آل كوبريلي الى الصدارة العظمى في استانبول ، فأعادوا

للدولة هيبتها في كثير من الولايات العربية وقضوا على أسرة افراسياب في عـام ١٦٦٧ [٣٠] • وهكذا خضعت البصرة من جديد لنفوذ العثمانيين الذين سيطروا بذلك على الطريق التجارية الرئيسة بينها وبين حلب بعد استعادتهم حكم بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٩ •

وفي حين كان الامراء الذين قاموا بالثورات في بلاد الشام والعراق يمثلون عناصر محلية تقوم سلطتها على أسس بدوية أو أقطاعية أو مذهبية فان العناصر التي قامت بالثورات في مصر في القرن السابع عشر كانت مملوكية بمعظمها ، ولعبت العناصر المحلية فيها من أولاد العرب دورا ثانويا بسبب معارضة المماليك لها • وقد رأينا كيف ان العساكر الثائرين الذين سيطر عليهم المماليك قد عارضوا انخراط أولاد العرب في الجيش واقتناءهم المماليك البيض • واستمر هذا الحظر بوحي من المعارضة المملوكية قائما فيما بعد • وحتى حين أصيب المماليك بنكسة أخرى ، كما حدث مثلا في اعقاب القضـاء على نفوذ الطائفة الفقارية في مصـر في عام ١٦٦٠ فاننا نجد السلطة العثمانية التي تقوت انذاك في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي قد شددت قبضتها ضد ازدياد النفوذ المحلي وأرسلت أمرا الى مصر في شـوال ١٠٧١ / حزيران ١٦٦١ باخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية • وبانتهاء هـذه الطفرة من القوة العثمانيـة في عهد آل كوبريلي ، في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، اشتد الانحطاط في السلطة العثمانية واستغل ذلك المماليك ، الذين اشتهروا كثيرا في القرن الثامن عشر ، واصبحوا حكام مصـر الفعليين وطغوا على نفوذ أولاد العرب • وحتى القبائل البدوية التي مارست نفوذا كبيرا في مصر في أعقاب الفتح العثماني في الثورة على العثمانيين أو في الولاء لهم وفي تقديم الدعم للثائرين على السلطة العثمانية أو في معارضتهم فانها لم تستفد من الضعف العثماني في القرن السابع عشر كما استفادت مثيلاتها في العراق والى حد ما في بلاد الشام في ذلك القرن ، بل نرى السلطة العثمانية تعزل أكثرها نفوذا وهي قبيلة هوارة عن امارة الصعيد التي اعترفت لها بها في أعقاب الفتح العثماني وتقيم موظفا عثمانيا برتبة بك حاكما على الصعيد ، في عام ١٥٧٦ ، وتجعل مركزه مدينـة جرجـا •

وهكذا فعوضا من ازدياد النفوذ المحلي لأولاد العرب ، كما حدث بالنسبة لأسميائهم في الشام منذ القرن السابع عشر فقد ازداد نفوذ المماليك . وكان هؤلاء منذ مطلع الحكم العثماني يشغلون مراكز هامة في ولاية مصر مثل وظائف قائم مقام ودفتر دار وأمير قافلة الحج المصري وأمير الخزنة وحاكم الصعيد وسردار (أي قائد) حملة . وسبق للمماليك أن ثاروا مرتين : الاولى بزعامة اينال السيفي وجانم السيفي في عام ١٥٢٢ والثانية من خلال العساكر في الفترة بين ١٥٨٩ و ١٦٠٩ ، وعادوا الى الظهور بعد ذلك من خلال رتبة الصنجقية . ويتمتع افراد هذه الرتبة بمرتب وبلقب بك ويعرف وأحدهم باسم أمير . ومنذ ان اشتهر الصناجق سياسيا وعسكريا في مصر حين اتهموا بتدبير مقتل والي مصر محمود باشا في ٢ كانون الاول ١٥٦٧ واشتركوا في حملة سنان باشا على اليمن في عام ١٥٦٩ فقد برز بينهم المماليك بدليل اسم ماماي بك ، الذي أسهم في العمليتين .

وقد عمل الصناجق في فترة توطيد سلطتهم الى جانب الولاة ولكن بعضهم كان على استعداد للعمل خارج نطاق التعاون مع الولاة كما حدث مثلا حين وقف عدد منهم الى جانب العساكر الثائرين . وكان هذا بداية استقلال الصناجق في الرأي عن الولاة واتخاذ موقف خاص بهم كقوة قائمة بذاتها . وبعد القضاء على العساكر الثائرين ، في عام ١٦٠٩ ، حدث بعض الفراغ السياسي فملاءه الصناجق كمنافسين ومن ثم كأعداء للولاة . وقد استفادت رتبة الصنجقية من انتساب المماليك الأقوياء اليها وازدادت قيمتها بازدياد قوتهم وأصبح معظم الصناجق في هذه الفترة من المماليك . واذا كان المماليك الاقوياء قد رفعوا قيمة الصنجقية بانتسابهم اليها فانهم أدخلوا اليها أيضا انقساماتهم التقليدية ، واستفحل بين الصناجق المماليك الانقسام الفقاري القاسمي ، واستفاد الولاة العثمانيون من ذلك، فضربوا طائفة بأخرى الى أن تمكنوا من القضاء على الطائفتين بين عامي ١٦٦٠ — ١٦٦٢ ، وانهارت أثر ذلك قيمة الصنجقية .

وقد حدثت أول مجابهة بين الصناجق وحاكم مصر في ذي الحجة ١٠٤٠ / تموز ١٦٣٠ في عهد الوالي موسى باشا حين قتل واحدا من بينهم ويدعى قيطاس بك . وكان هذا مملوكا وعين قائدا لحملة موجهة من مصر الى الجبهة الصفوية .

ولكن موسى باشا استولى على الأموال التي جمعها قيطاس بك لتمويل الحملة وصرف النظر عنها • وحين احتج قيطاس بك قتله موسى باشا • فتجمع الصناجق وقتلوا أربعة من أتباع الباشا وأيدهم العساكر بينما لعب العلماء دور الوساطة • ثم عزل الصناجق الباشا وعينوا قائم مقام مكانه • واعترف السلطان بعملهم مما عزز نفوذهم وشجعهم بالتالي على الاستمرار في معارضة الولاة • وقد برز بين الصناجق المعارضين لموسى باشا كل من رضوان بك الفقاري وعلي بك الفقاري وقاسم بك • وشغل الاول منصب أمير قافلة الحج المصري باستمرار تقريبا منذ ١٦٣٠ وحتى وفاته في عام ١٦٥٦ ، كما عهد الى علي بك بامارة الصعيد ، واشترك أيضا مع قاسم بك بمهمات عسكرية في الحجاز وعلى الجبهة الصفوية •

ويعد رضوان بك بن عبد الله وهو مملوك كرجي الاصل المؤسس الفعلي لطائفة الفقارية التي تنتسب الى ذي الفقار • وليس هناك من دليل على وجود هذا الاخير ولا على وجود قاسم المؤسس الاسمي لطائفة القاسمية • ورغم ادعاء الجبرتي[٣١] بأنهما كانا أخوين معاصرين للسلطان سليم الاول فالثابت أن طائفتي الفقارية والقاسمية اشتهرتا في مصر منذ الربع الاول من القرن السابع عشر وأن الأولى تميزت باللباس الابيض ، والثانية باللباس الأحمر ، وكانتا استمرارا لطائفتين ظهرتا في السابق وهما نصف سعد ونصف حرام • ويوازي هذا الانقسام ما ظهر في بلاد الشام من انقسام بين القيسية التي اتخذت الراية الحمراء واليمنية التي اتخذت الراية البيضاء •

وقد كون مماليك رضوان بك الكتلة الرئيسة ضمن طائفة الفقارية التي ضمت ايضا مماليك آخرين أبرزهم علي بك الفقاري حاكم الصعيد • ونتج من ازدياد أهمية المماليك في مصر في هذه الفترة ان ازداد جلب المماليك اليها • ورافق هذا الانتعاش في قوة المماليك السياسية في مصر ظهور الكتابات وغالبها لا صحة له تربط هؤلاء المماليك بمماليك السلطنة المملوكية ، وأحيانا بقريش أو غيرها لاسباغ الشرعية والوجاهة عليهم وفرض قبولهم الاجتماعي والسياسي على السكان • واشهر هذه الكتابات كتيب مجهول المؤلف عنوانه : قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش[٣٢] • ويستدل من كلام المؤلف أنه كان

يتمتع برعاية الأمير رضوان بك الفقاري الذي حمله على كتابة هذا النسب ، والهدف من ذلك اثبات العلاقة بين الامير رضوان بك والسلاطين الشراكسة المماليك وبين هؤلاء وقبيلة قريش . الا أن الادلة التي استخدمها المؤلف واهية جدا مما لايدع مجالا للشك بأن الكاتب كان يحاول البرهنة على أفكار مسبقة لاتستند الى الواقع . والنقاط التي أثارها المؤلف لها مغزاها فهو يحاول ان يربط بين رضوان بك، والشراكسة بشكل عام ، وبين قريش دون غيرها وهذا له قيمة هامة . فرواية ابن خلدون عن أصل الشراكسة والتي كانت معروفة آنذاك في مصر تذكر أنهم من سلالة الغساسنة ولو كان المؤلف يبحث عن القدم التاريخي فقط لكان اكتفى برواية ابن خلدون . ولكن الغساسنة مسيحيون يمينيون ، وهذا لا يتفق مع منصب رضوان بك كأمير لقافلة الحج المصري ، ولهذا ربط المؤلف أصل رضوان بك بكساء القرشي القيسي . ولعل أهم مافي هذا النسب محاولة الربط بين رضوان بك والسلاطين الشراكسة مما يظهر العثمانيين كمغتصبين فيما لو قدر لرضوان بك الاستقلال بأمور مصر[٣٣] .

وفي الحقيقة فقد ازداد نفوذ رضوان بك الفقاري الى درجة جعلت ولاة مصر يخشون بأسمه فأخذوا يتحينون الفرص للايقاع به . وقد نقم عليه والي مصر محمد باشا بسبب رفضه قيادة حملة الى الجبهة الفارسية في عام ١٦٣٨ ورفض أيضا قبول تعيينه واليا على الحبش في عام ١٦٣٩ وأوغر صدر السلطان مراد الرابع ضده . وكانت الدولة العثمانية في تلك الأثناء قد أثبتت قوتها على أكثر من صعيد فقتلت فخر الدين المعني الثاني في عام ١٦٣٥ ، واستعادت بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٩ ، ولذلك لم تتسامح بظهور مراكز قوة أخرى في مصر بخاصة وأن رضوان بك قد تمتع بنفوذ ضخم بين المماليك وبدعم شعبي كبير . وحين ذهب رضوان بك الى استانبول ليشتكي على والي مصر سجنه السلطان مراد الرابع في عام ١٦٣٩ ولم ينقذه الا وفاة السلطان في عام ١٦٤٠ فعاد الى مصر وعين لامارة الحج من جديد . ويصف ابن أبي السرور شعبية رضوان بك التي تبدت عند عودته بقوله : وما فضل في مصر أحد الا جاء للسلام[٣٤] . وفي هذا تحد ضمني لاعدائه وبخاصة طائفة القاسمية .

وكان زعماء القاسمية قد استغلوا فترة غياب رضوان بك وما أشيع عن زوال سلطته للتحالف مع بعض العساكر ، ويجمع بين الفريقين الاصل البشناقي • ورغم قبول طائفة القاسمية بالأمر الواقع واستكانتها لزعامة الفقارية اثر عودة رضوان بك فقد كانت تتحين الفرصه للايقاع بهم • فاتهمت في عام ١٦٤٦ زعماء الفقارية بأنهم السبب في فتنة أثارها في الواقع فجور الانكشارية • وحين عرض الامر على السلطان أبرأ ساحة الفقارية الذين كانوا يتمتعون آنذاك بنفوذ كبير في استانبول ، ورد رضوان بك باتهام زعيمي القاسمية ما ماي بك وقانصوه بك بالتلاعب بأموال الدولة فقتلا مع عدد من اتباعهما ، على يد الصوباشي (قائد الشرطة) قيطاس بك الفقاري •

وحاول حاكم مصر محمد باشا في عام ١٦٤٧ اضعاف الفقارية بأن أمر علي بك الفقاري حاكم الصعيد الموجود آنذاك مع قواته في القاهرة بالعودة الى مركز عمله وذلك بغية الانفراد برضوان بك • ثم عزل رضوان بك عن امارة الحج وعلي بك عن امارة الصعيد ، وأعد حملة لقتال الفقارية ، الذين اخذوا يتجمعون خارج القاهرة • ولكن قادة الحملة عدلوا عنها بضغط من الفقارية وبحجة عدم جواز ذلك في شهر رمضان • ويدل هذا على مدى ماتمتع به الفقارية من نفوذ • وقد تأكد هذا بوصول أوامر السلطان بتعيين رضوان بك أميرا لقافلة الحج مدى الحياة وأبقاء علي بك في امارة الصعيد مدى الحياة أيضا • ويدل دعم القاسمية للحملة ضد الفقارية على ضعف نفوذهم بعد مقتل زعمائهم • وقد حاول والي مصر احمد باشا في اواخر عام ١٦٥٠ الايقاع بين زعيمي الفقارية بان استحصل على أمر بعزل رضوان بك من امارة الحج وتعيين علي بك حاكم الصعيد مكانه ، ولكن عزل أحمد باشا في هذه الاثناء زاد من شعبية رضوان بك لأن الشعب اعتبر العزل انتقاما من الله له • وشعر علي بك بضعف مركزه اثر هذا الالتفاف الشعبي حول رضوان بك ، فامتنع عن قبول منصبه ، وعاد الى منصبه في الصعيد •

توفي علي بك في عام ١٠٦٣/١٦٥٢ ــ ١٦٥٣ ، وخلفه في حكم الصعيد مملوكه محمد بك • وفي نيسان ١٦٥٦ توفي رضوان بك الفقاري • وكان هذا بداية ضعف الفقارية والصناجق بوجه عام • وقد حاول القاسمية ، اثر ذلك ، بزعامة

احمد بك بشناق (المعروف أيضا بلقب احمد بك بقناطر السباع نسبة الى حي قناطر السباع بالقاهرة) وبالتحالف مع الوالي العثماني تأكيد سيطرتهم ضد الفقارية . وقد ظهر بين الفقارية ، اثر موت علي بك ورضوان بك ، زعماء كثيرون تنقصهم الخبرة والتجربة ، وتبهرهم المناصب والنفوذ مما جعلهم يصطدمون ببعضهم بعضاً ولا أدل على ذلك من مجيء محمد بك الفقاري حاكم الصعيد الى القاهرة وسط تظاهرة قوة اذ احاط به الآلاف من أتباعه ومماليكه مما اسخط عليه الصناجق بما فيهم الفقارية ، لكثرة تبجحه . وحين استثير بتعيين أحمد بك بشناق زعيم القاسمية حاكما على الصعيد مكانه واستعد لقتال الوالي محمد باشا المسؤول عن ذلك وقف في الصف المعارض له كثير من الفقارية مما يدل على ان انقساما قد حدث في صفوفهم ، وهكذا فان الفراغ الذي خلفه موت رضوان بك وعلي بك لم يملأ بشخصية قوية . وكان مقتل محمد بك الفقاري في القتال الذي حدث مشجعا للولاة والقاسمية على متابعة تحالفهم للقضاء على الفقارية، وتم لهم ذلك في موقعه الطرانة في ٢٧ تشرين الاول ١٦٦٠ وأبيد معظم الفقارية . وأرخ ابراهيم الصالحي الحنبلي لهذه الواقعة في مؤلف أسماه تراجم الصواعق في واقعة الصناجق(٣٥) . ويقصد بذلك واقعة الصناجق الفقارية . ويدل هذا التعبير الشامل على ان الفقارية كانوا عماد الصناجق ، وهكذا قضي على النفوذ السياسي للفقارية ولم يظهروا من جديد حتى اواخر القرن السابع عشر باطار جديد .

كان حلف باشا مصر مع القاسمية مؤقتا وبمجرد ازالة العدو المشترك وهو الفقارية حاول الباشا القضاء على القاسمية وتم له ذلك في ٢٦ تموز ١٦٦٢ وانحسر نفوذ هذه الطائفة حتى أواخر القرن السابع عشر . وكانت الدولة العثمانية آنذاك في فترة قوة في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي وقد تبدت قوتها في أكثر من ولاية عربية . ولكن مما يلفت النظر في تاريخ الصراع على النفوذ بين الفقارية والقاسمية ان القاسمية كانوا يشتهرون عادة أثناء ضعف الفقارية وليس العكس هو الصحيح . لذلك لم يستغرق القضاء على نفوذ القاسمية أكثر من عامين بعد القضاء على الفقارية . وقد أدى القضاء على نفوذ هاتين الطائفتين الى اضعاف المكانة السياسية للصناجق ، وبالتالي لرتبة الصنجقية . وليس أدل على ذلك من انخفاض

خدمة الصنجقية وهي القيمة التي يدفعها المرشح للحصول على رتبة الصنجقية الى ما يقرب من نصف وحتى ثلاثة أرباع ماكانت عليه قبل عشرين سنة • وذكر أن عدد الصناجق ومرتباتهم تناقصت أيضا تبعا لذلك[٣٦] • واذا كان المماليك قد رفعوا من قيمة الصنجقية بانتسابهم اليها فان القضاء على نفوذ الصناجق يعد في الوقت ذاته قضاء على نفوذ المماليك • وبذلك فشلت محاولة أخرى من المماليك لفرض سيطرتهم في مصر • ومع ذلك فسيحاول المماليك من جديد الوصول الى السلطة ، وسيتم لهم ذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مستفيدين من تشتت خصومهم في داخل مصر ومن انحطاط السلطة العثمانية •

ولم يستطع العثمانيون ترويض الأئمة الزيدية في اليمن واخضاعهم لحكمهم رغم الحملات المظفرة التي قاموا بها في اليمن ، في عهد ازدمر (بين ٩٥٤/١٥٤٧ — ١٥٤٨ و ٩٦٣/١٥٥٥ — ١٥٥٦) وسنان باشا (١٥٦٩ — ١٥٧١) وحسن باشا الذي حكم اليمن خمسا وعشرين سنة (آخر ٩٨٨/١٥٨٠ — ١٥٨١ وآخر ١٠١٢ / ١٦٤٠) ثم كتخدا هذا الاخير سنان باشا الذي خلفه في ولاية اليمن وبقي فيهـــا ثلاثة أعوام ونصف • وفي عام ١٦١٩ وقع العثمانيون صلحا مع الامام قاسم الزيدي، واعترفوا بموجبه بسيادة الزيديين في المناطق التي سيطروا عليها ومعظمها في المناطق الداخلية الجبلية • واظهر الزيديون من ناحيتهم جبهة شبه موحدة تجلت بمبايعـة مؤيد ابن الامام قاسم اماما عليهم في عام ١٦٢٠ • وبعد فترة من الهدوء دامت ستة أعوام جهد كل فريق خلالها في توطيد سلطته في المناطق التي سيطر عليها حاول الزيديون في عام ١٦٢٦ طرد العثمانيين من المناطق الشمالية • واستفاد الزيديون كثيرا في هذه الاثناء حين انضم اليهم أمير كوكبان الموالي للعثمانيين ، ووجه الأهمية كون هذا الامير من الاسرة الزيدية وقد انشق على الامام الزيدي فوالى العثمانيين ، وبارتداده الان لم يبق للعثمانيين مـن حلفاء محليين سوى بعض القبائل المتفرقة الصغيرة التي اخذت بالانضمام تباعا الى الجبهة الزيدية المنتصرة • وفي عام ١٦٢٩ استسلمت صنعاء وتعز للزيديين ، وأرهب ذلك أمير عدن البدوي فاعلن ولاءه لهم • ولم يبق بأيدي العثمانيين سوى زبيد ومناطق تهامة المحيطة بها • وعبثا حاول ولاة

مصر ارسال النجدات الى اليمن . وامتنع الجنود العثمانيون من السفر اليها ونظروا اليها كمنفى ، كما كان الأمر في كثير من الأحيان .

وشن العثمانيون حملة جديدة على الزيديين بقيادة والي اليمن قانصوه باشا ولكنه هزم واضطر لتوقيع الصلح مع الامام الزيدي في عام ١٦٣٠ . وحين تجددت الحرب بين الطرفين في عام ١٠٤٣ / ١٦٣٣ — ١٦٣٤ هزم العثمانيون من جديد وخرجوا من اليمن في أواخر عام ١٦٣٥[٣٧] . وكان اليمن بذلك أول ولاية تتخلص من الحكم العثماني . ويعزى ذلك بالدرجة الأولى الى الصعوبات الجغرافية والاستراتيجية التي لقيها العثمانيون في اليمن والى سيطرة الأئمة الزيدية على معظم القبائل . وكانت الدولة العثمانية مشغولة آنذاك باسترجاع بغداد من الصفويين وبالقضاء على الثائرين في مناطق أكثر أهمية وخطورة مثل الأناضول حيث عاش بقايا الجلالية ، وجبل لبنان حيث استفحل خطر الامير فخر الدين المعني . ولاشك ان اشتغال ولاة مصر في النصف الأول من القرن السابع عشر بثورات العساكر ثم بتمرد الصناجق ، ومن وراء ذلك معارضة المماليك الاقوياء لهم قد حال دون اهتمامهم بأمور اليمن وهم المسؤولون تقليديا عن تدبر أمورها نظرا لأهمية اليمن بالنسبة لأمن مصر ، وكذلك اهمية مصر في منطقة البحر الاحمر والجزيرة العربية ، فمن مصر خرجت الحملات العثمانية لاحتلال اليمن والدفاع عنه ضد البرتغاليين وحلفائهم ، ومنها أيضا أرسلت القوات للقضاء على الثائرين في اليمن والحجاز . وبعد أكثر من مائتي عام من انفراد الزيديين بأمر اليمن ، حاول العثمانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في اعقاب ازدياد المركزية العثمانية واصدار قانون الولايات في عام ١٨٦٤ استعادة سيطرتهم على اليمن واستفادوا من تحسن المواصلات وبخاصة فتح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ففرضوا سيطرتهم على بعض مدن اليمن الرئيسة في حوالي ١٨٧٠ ، وكان ذلك ضرورة استراتيجية لهم لمجابهة احتلال الانكليز لجزيرة عدن منذ عام ١٨٣٩ . وقد حدثت عدة ثورات فيما بعد على العثمانيين في ١٨٩٢ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، واستمر العثمانيون يحكمون اليمن حتى عام ١٩١٨ .

محاولات الدولة العثمانية فرض هيبتها

رغم الضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية في القرن السابع عشر فقد

شهدت طفرتين من القوة : الاولى في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) والثانية في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وكانت هذه آخر ردود فعل قوية من جانب السلطة المركزية العثمانية للارتفاع الى مستوى المسؤوليات الجسام التي ألقيت عليها حتى مجيء السلطان سليم الثالث (١٧٩٢ ــ ١٨٠٧) الذي حاول اصلاح الدولة على أسس جديدة وفشل .

وقد قام السلطان مراد الرابع بعدد من التنظيمات الداخلية في الوقت الذي اهتم فيه بالقضاء على الثورات الداخلية والاخطار الخارجية[1] ، فعلى صعيد الادارة قام باصلاحات في طائفة الانكشارية بغية فرض النظام بين أفرادها[2] ، كما أنه اعاد تنظيم السباهية أصحاب التيمارات[3] ، وعمل على حماية الفلاحين . وبعد وفاته مارس الانكشارية نفوذا كبيرا في استانبول وعاد الثائرون الجلالية في الاناضول الى الشهرة وأصبح أحدهم أبشير باشا حاكم سيواس صدرا أعظم . وقد وصل استانبول على رأس قوات من السكبان ولكن الانكشارية قتلوه في عام ١٦٥٤ . ثم فرضت الدولة هيبتها من جديد في عهد محمد باشا كوبريلي الذي شغل الصدارة العظمى بين ١٦٥٦ و ١٦٦١ في وقت تعرضت فيه استانبول الى خطر الغزو من قبل اسطول البنادقة . ووثق السلطان محمد الرابع بآل كوبريلي فعين ابن محمد باشا كوبريلي فاضل احمد باشا في منصب الصدارة العظمى بعد أبيه وبقي يشغل هذا المنصب من ١٦٦١ الى ١٦٧٦ . وأصبح الباب العالي في عهد آل كوبريلي المركز الفعلي لادارة الدولة . ورغم الاصلاحات التي تمت في هذه الفترة مثل انقاص الانكشارية وتخفيف أعباء الدولة المالية وحماية الفلاحين بتأمين الأمن لهم واقرار ضرائب عادلة عليهم ــ رغم كل ذلك لم ينجح ايقاف تدهور الادارة . وعاد الجلالية الى الثورة في الاناضول في عام ١٦٨٧ مستغلين اشتغال الدولة بالحرب مع النمسا ، وأصبح زعيمهم يكن عثمان باشا صاحب سطوة في الدولة وعين قائدا للجيش المتجه ضد النمساويين . واستفادت الدولة من زعامته بأن سيطرت من خلاله على الثائرين في الأناضول . وحين دبر السلطان أمر اغتياله في عام ١٦٨٨ أخذت عصابات الثائرين تروع الاناضول . وقد انعكست سلطة الدولة ، قوة وضعفا ، على الولايات العربية ، في هذه الفترة ، ففي بلاد الشام فتكت الدولة في عهد السلطان مراد الرابع بزعماء الانكشارية المتمردين

وقضت على ثورة فخر الدين المعني الثاني .وفي فترة الضعف التي تلت وفاة السلطان مراد الرابع استعاد زعماء الانكشارية في بلاد الشام نفوذهم وأيدوا اباظه حسين باشا والي حلب الذي ثار على الدولة في ١٦٥٩ فبطشت الدولة به وبهم في العام ذاتـه في عهد الصدر الأعظم محمد باشا كوبريلي . وتعززت سلطة والي دمشق وبالتالي هيبة الـدولة اثر ارسال قوات القابي قول اليها وسيطرتهم على القلعة والاسوار وأبواب المدينة ومعارضتهم الانكشارية اليرلية أصحاب النفوذ المحلي . وأطلـق السكان المحليون لقب دولة القلعة على القابي قول بينما سموا اليرلية ، الذيـن أصبحوا يقيمون في أحياء دمشق وبخاصة منها الميدان وسوق ساروجه ، دولةدمشق .

ويبدو أن البطش الذي تعرض له الانكشارية اليرليه في عام ١٦٥٩ وضعفهم بعد النفوذ الذي بلغوه جعلهم أكثر حرصا للحفاظ على مابقي لهم من سلطة . ففي عــام ١٠٩٩ / ١٦٨٧ ــ ١٦٨٨ أظهر والي الشام حمزة باشا كثيرا من التسلط والطغيان في دمشق ، واعتدى اتباعه على الدمشقيين ، فثار (أبناء دمشق) على حد تعبير ابن جمعة وقتلوا اتباعه وأهانوهم ، وأشار المحبي الى الذين عارضوا حمزة باشا وثاروا عليه بأنهم من الجند الشامي . ومن الممكن أن بعض الدمشقيين قد ساعدوا الجند الشامي فيالثورة ، نظرا للمصالح المشتركة التي تجمع بينهم . ويتبين من تعبيري (ابناء دمشق) و (الجند الشامي) اللذين استخدمهما المؤرخان الدمشقيان للدلالة على الذين ثاروا ، أنهما يشيران الى أفراد اليرلية الذين أصبحوا مندمجـين مع الدمشقيين .

وفي عام ١١٠٠ / ١٦٨٨ ــ ١٦٨٩ قتل القابي قول صالح آغا بن صدقة أحد أعيان اليرلية وكان هذا الحادث بداية محاولة جديدة للقضاء على زعماء اليرلية ، كما أنه يظهر في الوقت ذاته الصراع الشديد على النفوذ بين اليرلية والقابي قول . وقد قتل في عام ١١٠٣ / ١٦٩١ ــ ١٦٩٢ تسعة من زعماء اليرلية من قبل والي دمشق بناء على أوامر السلطان . ويبدو أن هذا كان ردا على ثورة اليرلية قبل قليل ضد حمزة باشا . وكان من بين الذين قتلوا خليل آغا بن طالو ، وسليمان آغا بن الترجمان وموسى آغا بن الترجمان ومحمد آغا بن صدقة ومصطفى آغا الكيواني . وهرب آخرون الى الامير أحمد المعني في الشوف .

ولما كان هؤلاء الأفراد بارزين في طائفة اليرلية وفي دمشق فقد وصفهم المؤرخون المحليون بأنهم آغاوات الوجاق ، وأعيان دمشق ، وأكابر دمشق ، وكبار دولة دمشق • ولو قورنت هذه الاسماء مع أسماء كبار الانكشارية في مطلع القرن السابع عشر أمثال آق يناق وقره يناق وحمزة الكردي وخداوردي ، لتبين لنا كيف أن الدمشقيين بدأوا يتسربون الى طائفة الانكشارية ويحتلون المناصب العليا فيها وبخاصة بعد سنة ١٦٥٩ حين قضي على كثير من زعماء الانكشارية الذين لم يكونوا من أصل دمشقي •

وكان من نتيجة حملة القمع الموجهة ضد اليرلية أن ضعف نفوذهم في دمشق واستمر ذلك عدة سنوات • ونظرا لأن اليرلية الدمشقيين كثيرا ماقاوموا محاولات الولاة لفرض المظالم على الاهلين فقد قاسى الآن سكان دمشق من ظلم الولاة نتيجة لضعف اليرلية • ومع ذلك فلم يعدم الدمشقيون من يدافع عنهم اذ برز العلماء وملأوا الفراغ السياسي الذي تركه ضعف اليرلية ودافعوا عن الأهلين ضد مظالم الولاة والقابي قول •

ففي عام ١١٠٧/١٦٩٥ــ ١٦٩٦ عارض علماء دمشق ظلم الوالي عثمان باشا السلحدار فاشتكى ضدهم الى استانبول ، وكانت النتيجة ان نفي بعض العلماء لفترة من الزمن ، الى طرابلس والى قلعة القسطل ، وكان من بينهم نقيب الأشراف عبد الكريم بن حمزة ،وخطيب الجامع الأموي سليمان المحاسني ، والشيخ عثمان القطان • ثم جاء الامر بالعفو عنهم بعد فترة قصيرة • وفي ٢٠ ذي الحجة ١١١٨ / ٢٥ آذار ١٧٠٧ نفي فريق آخر من علماء دمشق الى قلعة صيدا ، وكان من بينهم أسعد أفندي البكري ، وعبد الرحمن أفندي البكري ، وعبد الرحمن أفندي القاري ، وسليمان المحاسني وذلك لأنهم قاوموا محاولة الباشا في فرض المال على الدمشقيين • وحين عفا السلطان عنهم بعد قليل ، تأيد موقفهم في مقاومة الظلم •

واعتمد الولاة في سياسة العنف التي اتبعوها على دعم جنودهم الخاصين وعلى قوة القابي قول الذين أيدوهم ضد اليرلية والدمشقيين • وفي عام ١١١٨ / ١٧٠٦ ــ ١٧٠٧ وصلت فرق اضافية من القابي قول الى دمشق مما زاد في نفوذ أفراد هذه الطائفة ، وجعلهم يصطدمون باليرلية في العام التالي ويقتلون منهم عشرة أنفار •

ورغم أن اليرلية ردوا على ذلك بمحاصرة القلعة وأخذوا ثمن دم المقتولين فقد أرهبهم القابي قول وغاب اليرلية عن المسرح السياسي بضع سنوات[٣٨] .

وحظي بالاهتمام في هذه الأثناء والي الشام نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام مدة ستة أعوام تقريبا بين ١١٢٠ / ١٧٠٨ — ١٧٠٩ و ١١٢٦/١٧١٤ — ١٧١٥ وقد أظهر كثيرا من السلطة داخل دمشق وخارجها ، وأمن بصورة خاصة سلامة قافلة الحج الشامي التي اعطي امارتها الى جانب منصبه كوال للشام . وقد ترتب على ذلك ابقاء والي الشام في منصبه مادام يؤمن سلامة الحج ، وكان نصوح باشا أول ولاة الشام في القرن الثامن عشر الذين حكموا لفترة طويلة نسبيا.وهذا أمر لم تشهده هذه الولاية في القرن السابع عشر حين لم يكن ولاة الشام أمراء الحج بشكل مستمر . والجدير بالملاحظة أن السلطان أوعز بقتل نصوح باشا في عام ١١٢٦ / ١٧١٤ — ١٧١٥ رغم تأمينه سلامة الحج . ويفسر قتل نصوح باشا بخوف السلطان من ازدياد قوته . وسنرى أمثلة أخرى في الفترات التالية عن مصير مماثل لولاة مشهورين في دمشق أمنوا سلامة الحج ولكنهم قتلوا لأسباب متعددة ، وأبرز مثال على ذلك هو أسعد باشا العظم .

زاد نصوح باشا من هيبة منصب والي الشام بسبب أعمال البطش والارهاب التي قام بها أثناء ولايته . وقد حاول خلفاؤه ، بنسب متفاوتة ، السير على سياسة القوة هذه ، فأصطدموا بأغلب القوى في دمشق . وقد فرض والي الشام يوسف باشا بأمر من السلطان في النصف الاول من ١١٢٨ / النصف الاول من ١٧١٦ ضرائب مجحفة على الدمشقيين ، وكان نصوح باشا قد امتنع عن فرضها . فثار الأهلون ، وابتهلوا الى القاضي للتوسط برفعها ، وهاجمت جماعة من القابي قول سرايا الوالي للاحتجاج على الضرائب فقتل أحد افرادها ، ولم ينبدل شيء . ومما يلفت النظر في هذه الحادثة مشاركة الأهلين وهذا أمر لم تعهده فترة القوة العثمانية فيما سبق . وسنرى في الفترات التالية أمثلة اخرى من ذلك تدل على اتساع قاعدة التحدي للعثمانيين ، وشمولها سكان المدن ثم الريف . ومما يلفت النظر أيضا ثورة القابي قول على فرض الضرائب . لقد مضى على وجود القابي قول في دمشق أكثر من نصف قرن فأصبحت لهم مصالح فيها . ورغم تمركزهم

في القلعة فقد بدأوا يمتزجون بالدمشقيين بالتدريج شأن الانكشارية في أول عهدهم. وعوضا من أن يقرب هذا بينهم وبين اليرلية ، كما يمكن أن يظن ، نجد ان العداء قد ازداد بين الفريقين لأن اليرلية وجدوا في توسع نفوذ ومصالح القابي قول في دمشق خطرا على مصالحهم وعلى نفوذهم ، وهكذا أضيفت المنافسة على المصالح الى الصراع على النفوذ بين الفريقين ، وهذا مايفسر الصراع الدامي بينهما في بلاد الشام في القرن الثامن عشر . واستفاد من ذلك الوالي الذي حاول بجنوده المرتزقة ضرب فريق بآخر لاضعافهما .

واشتهر في ولاية الشام بعد الوالي نصوح باشا عثمان أبوطوق الذي ولي الشام مرتين الاولى بين ١٧١٩ و ١٧٢١ والثانية بين ١٧٢٣ و ١٧٢٥ . وكان أحد ابنائه ، أثناء ولايته الثانية على الشام ، يحكم ولاية صيدا . وقام أبو طوق بكثير من المظالم وابتزاز المال في دمشق معتمدا على دعم السلطان والصدر الأعظم في استانبول والتف من حوله جماعة من العوانية مارسوا الظلم وابتزاز المال من الأهلين . وقد اعتقل أبو طوق عددا من الأشخاص الذين حاولوا رده عن الظلم ، وكان من بينهم أفراد من آل تغلب ، أصحاب الطريقة الشيبانية الصوفية ، مما أثار الرأي العام الديني .

ولم يتمكن القاضي الحنفي الرومي من عمل شيء لايقاف أبي طوق عند حده كما لم تجد محاولة ارسال وفد يمثل القطاعات المتنفذة في دمشق الى استانبول للاحتجاج . ولذلك هب المفتي الحنفي محمد خليل البكري الصديقي لنجدة المظلومين وقادهم في ثورة ضد أبي طوق في النصف الثاني من ربيع الثاني ١١٣٧ / النصف الاول من كانون الثاني ١٧٢٥[٣٩] . وقتل الثائرون بعض العوانية من اتباع أبي طوق ، الذي كان آنذاك عند أبنه حاكم صيدا . ولم يستطع السلطان تجاهل نقمة الدمشقيين على واليهم فعزله ، وعين اسماعيل باشا العظم مكانه في أوائل آذار ١٧٢٥ . وكان اسماعيل باشا أول وال من آل العظم يعين على دمشق وتلاه ولاة اخرون من الأسرة نفسها في دمشق وغيرها . وكان ظهور آل العظم كولاة ، في هذه الفترة ، جزءا من ظاهرة هامة عمت كثيرا من الولايات العربية وغيرها في القرن الثامن عشر حين تسلم الحكم ولاة من أصل محلي برضى السلطة المركزية العثمانية أو رغما

عنها . وسندرس في الفصل التالي أسباب هذه الظاهرة وأبعادها وأهميتها في العلاقة بين الحاكمين والمحكومين .

وقد شهدت بلاد الشام في هذه الأثناء تطورا هاما يتعلق بانتقال امارة الحج الى دمشق ، وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ ١١٢٠ / ١٧٠٨ ــ ١٧٠٩ فما هي الأحداث المختلفة التي أدت الى هذا التطور وماهي نتائج انتقال امارة الحج الى ولاة الشام .

ذكرنا فيما سبق التطورات التي أدت الى تناقص تعيين الامراء المحليين في ولاية الشام أمراء للحج ، والى تزايد تعيين انكشارية دمشق في هذا المنصب ، ونظرا لضعف نفوذ هؤلاء الانكشارية بعد ١٦٦٠ ، فقد عين موظفون عثمانيون الى جانب الامراء المحليين وزعماء الانكشارية لامارة الحج . وازداد تعيين هؤلاء الموظفين بالتدريج بسبب تزايد ضعف الفريقين الاخرين . ونتج من هذا التنوع في هويات أمراء الحج عدم استقرار في علاقتهم مع البدو مما دفع هؤلاء الى مهاجمة قافلة الحج ، بخاصة وان الموظفين العثمانيين المعينين أمراء للحج لمدة عام أو نحو ذلك ، غالبا ماامتنعوا عن دفع الصر ، أي المال المخصص من الدولة لشراء ارضاء البدو .

ونلاحظ أيضا أن بعض المعينين لامارة الحج عينوا في الوقت نفسه حكاما على صنجق أو أكثر من الصناجق التابعة لولاية الشام . وهذا استمرار لتقليد سبقت الاشارة اليه ، وقد شاع في النصف الأول من القرن السابع عشر حين عين أغلب أمراء الحج من حكام هذه الصناجق . وكانت العادة ان يأتي أمير الحج ــ حاكم الصنجق مع قواته الى قبة الحج ، الواقعة جنوبي حي الميدان بدمشق خارج باب الله (سمي بذلك لأنه يؤدي الى الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس) لتسلم قيادة قافلة الحج . واستفادت دمشق من عدم دخول أمير الحج اليها ، لأنها سلمت من تعديات القوات المرافقة له . وحين عين الموظفون العثمانيون أمراء لقافلة الحج لم يعين جميعهم حكام صناجق ولذلك أقاموا مع قواتهم في دمشق وقاسى الدمشقيون نتيجة لذلك من وجودهم . وقد حفز هذا الأمر الشيخ مراد المرادي جد صاحب « سلك الدرر » للطلب من السلطان كمايقول خليل المرادي (٤٠) : « رفع

أمارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الأمر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها حتى أن الجد اجتمع بالمرحوم السلطان أحمد بن محمد خان في أحد رحلاته في دار المملكة قسطنطينية وذكر له ذلك فقبل منه رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع ووجهها للشريف يحيى بركات المكي بمنصب القدس لأنه كان موجودا حينئذ في الروم بعد خلعه عن شرافة مكة المكرمة فذهب المذكور في تلك السنة أميرا للحج وارتفع عن أهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج ثم ان الشريف يحيى المذكور سها سهوة باذية بعض الحجاج وبغى العرب فلما أخبرت الدولة العليا بصنيع الشريف يحيى عزل من ذلك وأعيدت امارة الحج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن » . وكانت امارة الشريف يحيى للحج في عام ١١٠٢ / ١٦٩٠ — ١٦٩١ ، وقد عزل عنها اثر مهاجمة البدو قافلة الحج بسبب اهماله . واصبحت دمشق منذ هذا التاريخ ، مركز امراء الحج ، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار ، اثر ذلك ، امراء للحج .

ونلاحظ في الفترة بين ١١٠٢ — ١١٢٠ / ١٦٩٠ — ١٧٠٨ ، حين عين نصوح باشا واليا على الشام ، أن ثمانية من ولاة الشام على الأقل عينوا أمراء للحج . وقد تزايدت هجمات البدو على القافلة في هذه الفترة نظرا لكثرة تبدل الولاة ، وطمع بعضهم بأخذ الصر المخصص للبدو لأنفسهم . ولتأمين سلامة الحج بدأ السلطان ، منذ ١١٢٠ / ١٧٠٨ — ١٧٠٩ يعين باستمرار ولاة الشام امراء الحج . وكان والي الشام يبقى في الولاية والامارة مادام يؤمن سلامة الحج . وأصبح المؤرخون المحليون يذكرون بمناسبة تعيين كل وال جديد للشام بأنه تولى الحكم والامارة . وقد نتج من نقل مركز امارة الحج الى دمشق ، ومن تكليف ولاة الشام بهذه الامارة باستمرار تطورات هامة تركت آثارها في تاريخ بلاد الشام بكاملها . وكان تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج ذروة تطور سياسي وصراع على النفوذ حدثا في بلاد الشام في القرن السابع عشر .

فقد رأينا كيف أن فخر الدين المعني الثاني أضعف الأمراء المحليين

الذين كانوا يعينون أمراء للحج • وبعد القضاء على فخر الدين قوي نفوذ ولاة الشام ، وتمكنوا من القضاء على نفوذ الانكشارية المحليين • وازدهرت سلطة هؤلاء الولاة بعد ذلك ، بسبب الفراغ السياسي الذي حدث في دمشق وخارجها • وأخيرا القيت عليهم مسـؤولية امارة الحج بسبب كثرة اعتداء البدو على الحجاج • وكان السلطان العثماني يعاني ، آنذاك،من انكسارات عسكرية متوالية، ولم يستطع التغاضي عن اعتداء البدو على قافلة الحج لأن سمعته الدينية كحاكم للحرمين الشريفين ستتأثر تبعا لذلك • ولهذا عين أصحاب النفوذ الوحيدين في بلاد الشام وهم ولاة الشام أمراء للحج •

وقد نتج من تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج الشامي تغيبهم عن دمشق لفترة طويلة • وكان الوالي أمير الحج يغادر دمشق مع القافلة عادة في النصف الاول من شهر شوال ، ويعود اليها من الحجاز في حوالي النصف الأول من شهر صفر • وقد تتأخر عودته أكثر من ذلك اذا ماهدد البدو قافلة الحج واعاقوا سيره • وكثيرا ماعاد الحجيج في مثل هذه الحالات بواسطة الطريق الفرعي عبر غزة • وهكذا وجب على والي الشام ـ أمير الحج أن يتغيب عن دمشق مع قافلة الحج قرابة أربعة أشهر •

وبالاضافة الى ذلك ، استلزم تعيين الوالي لهذا المنصب غيابه عن دمشق فترة أخرى • فقد ألقيت عليه الآن المسؤولية المباشرة للاعداد لقافلة الحج وتمويلها بالمال اللازم • وكنا قد رأينا ، في هذه الفترة ، قبل تعيين ولاة الشام أمراء للحج الشامي كيف ان أمراء الحج المعينين من بين حكام صناجق ولاية الشام، كانوا ينفقون على الاعداد للقافلة من واردات صناجقهم بالاضافة الى ما خصصه السلطان لذلك من عائدات ثابتة • ولكن ولاة الشام اضطروا الآن للذهاب بأنفسهم لجمع الأموال الميرية من الملتزمين في ولايتهم • ويمكن القول ان والي الشام كان مسؤولا على أية حال عن جمع مال الميري من ولايته بصفته محصلا ولكنه لم يكن مضطرا ، قبل الآن ، أن يذهب في كل سنة لجمع هذا المال ، لأن حاكم الصنجق ـ أمير الحج هو الذي تكفل أمر ذلك • ونظرا لعدم اشتغال والي الشام ، في الفترة السابقة ،

مباشرة بذلك فقد كان يـكلف أحيانا بنجدة جيوش السلطان في ميادين القتـال المختلفـة .

وقد بدأ والي الشام ـ أمير الحج يخرج الآن كل سنة قبيل خروج قافلـة الحج بفترة من الزمن ليجمع المال اللازم لتمويلها ، لأنه أصبح المسؤول المباشر عن ذلك . وسمي خروجه هذا لجمع المال من الملتزمين في الولاية بالدورة . وفي حين كان تاريخ خروجه للدورة يتوقف على مشاغله ورغبته الخاصة ، فان تاريـخ عودته من الدورة كان يقرره موعد خروجه مع قافلة الحج الى الحجاز .وكان الوالي يضطر أحيانا الى قتال الملتزمين الأقوياء الذين يرفضون دفع مال الميري . وتزداد عادة في هذه الحالة مدة الدورة . ونظرا لاشتغال الوالي في هذه المهمات التي لا يمكن التهاون فيها بسبب طبيعتها الدينية ، فقد أعفي من الخروج مع عساكر دمشق لنجدة الدولة في حروبها الداخلية أو الخارجية كما كان الأمر قبل ذلك . ولانسمع في القرن الثامن عشر أن ولاة الشام قد قاموا بمثل أعمال النجدة هذه .

ونتج من غياب الوالي عن دمشق أن ضعفت السلطة الحاكمة فيها ، ولم يتمكن معظم المتسلمين ، الذين نابوا عن الولاة ، من ممارسة سلطة حازمة . واننـا نجد في الحقيقة بعض المتسلمين يستغلون السلطة أو يتآمرون مع القوى الاخرى ، كاليرلية والقابي قول والقوات المرتزقة ، للاستفادة من غياب الوالي . وقد شجع هذا الوضع المنازعات المحلية والصراع على النفوذ ، وقاست دمشق من ذلك الشيء الكثير . واضطر الوالي بسبب حاجته الى المزيد من القوا تلتأمين سلامة الحـج الى استئجار قوات مرتزقة اضافية كالمغاربة والدالاتيه واللاوند . وكثيرا ماتحالفت هذه القوات المرتزقة مع اليرلية ضد القابي قول ، أو بالعكس ، واضطر الوالي الى الاعتماد على قوات أخـرى ، وكان هذا مشجعا لفوضى الجند ومثار نقمـة الأهلـين .

وعلى غرار التطور الذي أصاب امارة الحج ، فان امراء الجردة الذين كانوا يخرجون لتموين وحماية قافلة الحج في طريق العودة ، عينوا من الموظفين العثمانين بعد ضعف الأمراء المحليين والانكشارية . وفي الوقت الذي أصبح فيه ولاة الشام امراء للحج ، انحصرت امارة الجردة بوالي صيدا أو بوالي طرابلس ، وفي حـالات

نادرة بوالي حلب • ويعود سبب كثرة اختيار ولاة صيدا وطرابلس لهذه المهمة الى قرب هاتين الولايتين من دمشق وبصورة أهم الى كون هؤلاء الولاة يمتون غالبا بصلة القربى الى ولاة الشام •

وقد عمد السلطان ، بالحاح أحيانا من والي الشام ، الى تعيين ابناء أو أقرباء هذا الوالي حكاما على ولايتي صيدا وطرابلس • وازداد نفوذ والي الشام تبعا لذلك • وضمن السلطان من ناحيته دعم والي الشام لولاة صيدا وطرابلس اذا ما هددت سلطتهم •

ومن الطبيعي أن تزداد مخاوف السلطان بسبب ازدياد سلطة ولاة الشام ولكن الدولة العثمانية لم تعوزها الوسائل لفرض هيبتها ، كأن تعمد الى عزل الولاة ومصادرة أموالهم ، أو الى اثارة وال ضد آخر ، كما سنرى في مناسبات مختلفة في القرن الثامن عشر • والذي يهمنا هنا أن أمير الجردة بعد تعيين ولاة صيدا وطرابلس لهذا المنصب ، أصبح يأتي الى دمشق بعد شهر على الأكثر ، من مغادرة أمير الحج لها • وبعد أن يتم استعداداته في دمشق يغادرها في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة ، لملاقاة قافلة الحج • وكثيرا ماقاست دمشق من القوات المرافقة له • واضطرت أحيانا الى المساهمة في تمويل الجردة التي كانت تعين لها عادة موارد ثابتة • وكان يفرض على دمشق ، في الحالات الاستثنائية ، مثل مهاجمة البدو للجردة ، اعداد وتمويل جردة ثانية •

ورغم هذه المصاعب التي تجشمها ولاة الشام فانهم أفادوا من امارة الحج ببقائهم مدة أطول في مناصبهم ماداموا يؤمنون سلامة قافلة الحج ، وأفادوا أيضا من الناحية الدينية ، نظرا لما تمتع به أمير الحج من مكانة مرموقة ، كما أنهم كسبوا ماديا لأن قافلة التجار كانت ترافق قافلة الحج • وكثيرا ما اضطر التجار الى شراء حماية أمير الحج لهم من خطر البدو • وبالاضافة الى ذلك جرت العادة ان ينال امير الحج حصة كبيرة من أموال الحجاج المتوفين •

وأصبح لولاة دمشق ، في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي ، سلطة أكبر على جبل لبنان ، وبخاصة في أعقاب القضاء على فخر الدين

المعني الثاني ، فشجعوا آل علم الدين الدروز اليمنية على منافسة الدروز القيسية ، على امارة جبل لبنان • ورغم انشاء ولاية صيدا ، في عام ١٦٦٠ ، لاحكام الرقابة على الجبل ، فان المسؤولية المباشرة عن امراء الشوف بقيت عمليا بأيدي ولاة دمشق، الذين تمتعوا بنفوذ كبير في المنطقة •

وفي حين كان ولاة الشام يعينون عادة من بين أصحاب رتبة وزير (علامته ثلاثة اطواخ) كان ولاة صيدا يعينون عادة من بين أصحاب رتبه بيلربي (علامته طوخان)• وعدا عن هذا التفاوت في النفوذ فقد زاد من اعتماد ولاة صيدا على ولاة الشام صلة القربى بينهم•وقد تدخل الولاة العثمانيون فيشؤون جبل لبنان الداخلية، وأثاروا النزاع بين القيسية واليمنية • وانقطعت السلالة المعنية ، في عام ١٦٩٧ ، بوفاة الامير أحمد المعني ، دون أن يخلف ولدا ذكرا • وقد اجتمع مشايخ جبل لبنان من مقاطعات الشوف والعرقوب والشحار والجرد والغرب والمتن وكسروان في السمقانية وانتخبوا الامير بشير بن حسين الشهابي ، أمير راشيا وابن أخت الأمير أحمد المعني ، خلفا له • ووافق والي صيدا والسلطان العثماني على هذا الاختيار بعد فشل محاولة قام بها اليمنية من آل علم الدين لدى السلطان لاختيار شخص آخر •

ومما يسترعي الانتباه في اختيار الامير بشير الشهابي أن مشايخ جبل لبنان هم الذين اجتمعوا وقرروا ذلك ، في حين كان أول أمير معني على جبل لبنان قد عين من قبل السلطان سليم الاول • ويظهر من هذا أن مشايخ جبل لبنان كانوا أصحاب سلطة • وقد تأكدت سلطتهم وتبلورت بعد انتخابهم الامير بشيرا ،وازداد تأثيرهم فيه نتيجة لذلك • وحين توفي الامير بشير في ١٧٠٦ اجتمع مشايخ جبل لبنان من جديد واختاروا الامير حيدر بن موسى الشهابي خلفا له • وكان ازدياد نفوذ المشايخ ، في الأصل ، أحد نتائج ضعف أمير الشوف ، اثر القضاء على فخر الدين المعني الثاني • ثم مالبث ضعف الامير أن استفحل ، بسبب ازدياد نفوذالمشايخ، وأدى ذلك الى ظهور منافسين لسلطته ، كما سنرى خلال دراستنا لتاريخ جبل لبنان فيالفصل التالي • ونلاحظ في طريقة اختيار الامير بشير أن القاسم المشترك الذي جمع بين المشايخ الذين اختاروه هو كونهم قيسية ، رغم انهم ضموا ممثلين عن

مختلف المذاهب • ومما يؤكد قوة التعاطف القيسي أنه طغى على الاختلافات المذهبية ، فاختير الشهابيون السنة خلفاء للمعنيين الدروز • وطبيعي أن صلة القربى بين الاسرتين قد ساعدت على ذلك ، ولكن التكتل القيسي كان ضروريا لهم لتوطيد سلطتهم ضد اليمنيين المتربصين من آل علم الدين •

وقد أصبح الصراع بين القيسية واليمنية أكثر حدة بعد هذا التكتل وبلغ أوجه ، وبالفعل نهايته ، في ١٧١١ حين اشتبك القيسية واليمنية في قتال دام في موقعة عين داره • وكان يؤيد اليمنية كل من والي الشام ووالي صيدا ، فيمحاولة منهما لاضعاف الامير الشهابي • ولكن القيسية داهموا اليمنية قبل تلقيهم مساعدة هذين الواليين ، وقتلوا معظمهم ،وأبادوا أكثر زعماء آل علم الدين • ومن سلم من ايمنية لجأ الى جبل حوران الذي أصبح يعرف تبعا لذلك بجبل الدروز • وكان تعبير جبل الدروز يطلق في الأساس على جبل لبنان ، ويستعمل أحيانا كبديل له • وهكذا ساد القيسية في جبل لبنان ولما كان أغلب اليمنية يتألفون من الدروز وبخاصة من آل علم الدين ، فأن قتل بعضهم وهرب بعضهم الاخر كان يعني اضعاف العنصر الدرزي في بلاد الشوف •

وكان من نتائج موقعة عين دارة اعادة النظر في التقسيمات الاقطاعية في جبل لبنان ، لملء الشواغر في الاقطاعات التي حدثت أثر مقتل الامراء اليمنيين ، ولمكافأة المؤيدين للامير الشهابي • وقد رفع الامير حيدر من شأن الأسر التي دعمته ، فمنح رؤساءها لقب شيخ (أي ملتزم ، أو مقاطعجي ، يجمع الاموال الميرية في منطقته) في المقاطعات التي كانوا يسكنونها ، وخاطبهم بلقب الأخ العزيز • كما أنه أبقى مشايخ الأسر الأخرى التي أيدته كملتزمين • واشتهر بنتيجة ذلك آل الخازن وآل حبيش وآل الدحداح من الموارنة القيسيين وآل العماد وال جانبلاط وآل نكد وآل عيد وآل تلحوق وآل عبد الملك من الدروز القيسيين • وكانت كل أسرة من هذه الأسر مسؤولة عن ادارة المقاطعة التي أعطيت لها ، وعن جمع عائدات الميري منها واعطائها للامير الشهابي الذي يقدمها بدوره الى والي صيدا المسؤول عن المنطقة • وخص الامير الشهابي آل أبي اللمع بلقب أمراء في منطقة المتن ، وتزوج منهم • ونتج من رفع شأن هذه الاسر ومخاطبة الامير الشهابي لرؤسائها

بلقب الأخ العزيز ان توطدت سلطة هؤلاء الرؤساء فعارضوا الأمير الشهابي في المستقبل . ونلاحظ أيضا أن زوال اليمنية كقوة سياسية في جبل لبنان أزال الخطر الذي كان يوحد بين القيسية . وكان من نتائج ذلك أن انقسم القيسية فيما بعد على أنفسهم وتجمعوا حول حزبي الجنبلاطية واليزبكية في أواسط القرن الثامن عشر .

وقد تجلت السلطة العثمانية أكثر شيء في عهد السلطان مراد الرابع في استرجاع بغداد من الصفويين الذين كانوا قد احتلوها في عام ١٦٢٣ ، اثر ثورة بكر الصوباشي واستنجاده بهم . ولاشك أن السيطرة الصفوية على بغداد قد امنت لهم أكثر من مجرد الاستيلاء على مدينة هامة استراتيجيا ، فبالاضافة الى سمعة بغداد التاريخية ، فانها تضم وكذلك المناطق المجاورة لها ، أماكن مقدسة هامة ، وبخاصة للصفويين الشيعة ، كما أن احتلال الصفويين لبغداد سيحمي الفرس المارين بها من تعنت وابتزاز سلطاتها . وبالاضافة الى ذلك فالذي يحكم بغداد يسيطر على الطرق النهرية التي تربطها بالخليج العربي وبالمناطق الشمالية والغربية .

وقد ركز الصفويون اهتمامهم بعد سيطرتهم على بغداد ، على العراق الشمالي لان ذلك يفيد من ناحية في حماية حكمهم في بغداد ، وفي شمالي فارس ، من الخطر العثماني ، ويمكنهم من ناحية اخرى من السيطرة على طرق التجارة مع الاناضول وحلب ، بخاصة وأن حرير المناطق الشمالية من بلاد فارس كان يصدر عن طريق حلب . كما أن ذلك يفيد في تمكينهم من الوصول الى سهوب روسيا لتمويل جيشهم بالعناصر البشرية منها . وقد دخل الصفويون كركوك ، بعد ان هرب واليها العثماني ، ثم احتلوا الموصل بعد مقاومة يسيرة . ولكن القوات العثمانية تمكنت من استعادة هاتين المدينتين من الصفويين . ويبدو أن قرب هذه المناطق من الاناضول ، وكونها بمتناول القوات العثمانية المرابطة في ديار بكر وحلب جعل تكاليف الاحتفاظ بها باهظة . ولجأ الصفويون عوضا من ذلك الى فرض نفوذهم عن طريق الامراء المحليين فأقاموا لهم الاتباع بين الأمراء الاكراد في شهرزور ليوازنوا النفوذ العثماني بين أمراء آخرين من الاكراد .

ويبدو أن الصفويين كانوا يتطلعون الى عمل أكبر يفيد في توطيد سلطتهم فقد حاولوا في مناسبتين الاستيلاء على بلاد الكرج ، في جنوبي روسيا ، لان ذلك سيمكنهم من تطويق العثمانيين في شرقي الاناضول وتهديد خطوط مواصلاتهم مع الموصل • ويفيد أيضا في تمكين الصفويين من الحصول على مصدر بشري لتجنيد الجنود • وقد قام الصفويين بمحاولتين لاحتلال بلاد الكرج : الاولى في عام ١٦٢٤ ، وقد فشلت ، والثانية في عام ١٦٣٢ وقد نجحت • واحتل الصفويون في الثانية المنطقة الممتدة قرب بحيرة وان • ولكن العثمانيين استعادوها منهم في العام التالي • وأدى هذا الى اقتتال شديد مع العثمانيين في تلك الاماكن • وكانت الحرب سجالا ، ولم يتم الصلح بينهما ، في تلك المناطق حتى معاهدة عام ١٦٣٩ اثر استرجاع العثمانيين بغداد التي حددت بموجبها الحدود بين الطرفين •

أما موقف الصفويين ، بالنسبة للعراق الجنوبي ، فكان أقل طموحا في الاستيلاء عليه ، وربما يفسر ذلك بأن منطقة الخليج والبصرة لم تكون مصدر تهديد عثماني رئيسي للحكم الصفوي في بغداد ، على الرغم من امداد حكام البصرة المتوارثين ، من آل افر اسياب ، السلطات العثمانية ببعض المساعدات والسماح لبعض قطعهم بالتقدم نحو بغداد • كما ان احتلال الصفويين لجنوبي العراق دونه عقبتان : سيطرة آل افر اسياب على البصرة وقد صدوا بنجاح عام ١٦٢٦ حملة صفوية للاستيلاء على المدينة ، ثم خطر المنافسة الاوروبية في الخليج •

وقد قام العثمانيون في الفترة بين احتلال الصفويين بغداد في عام ١٦٢٣ واستعادتهم لها في عام ١٦٣٩ بثلاث محاولات رئيسية لاسترجاعها واشتبكوا مع الصفويين في معارك ضارية • وكان حاكم بغداد الصفوي طوال هذه الفترة صفي قولي خان • وقد جرى اول هجوم عثماني على بغداد في صفر ١٠٣٥ / تشرين الثاني ١٦٢٥ وكان على رأس القوات العثمانية احمد باشا الحافظ ، الذي سبق أن فشل في الحيلولة دون وقوع بغداد في أيدي الصفويين ، ابان ثورة بكر الصوباشي • وتمتعت القوات العثمانية على ضخامتها بدعم مادي من قبل حاكم

البصرة علي باشا ابن أفراسياب وكذلك من بعض قوات البدو • وخلال ثمانية أشهر من بدء الحصار العثماني لبغداد من صفر ١٠٣٥ وحتى شوال من العام ذاته حين تراجع الجيش العثماني مهزوما ، حدثت ثلاثة اشتباكات رئيسة بين العثمانيين والصفويين ، ولكن الهزيمة حلت أخيرا بالجيش العثماني لأن قيادته لم تكن تسيطر على أفراده ، ولأن استانبول لم تمده بالمؤن بشكل مناسب بسبب ماذكر من الفتن فيها والاخطار الخارجية على أكثر من جبهة • وفي المقابل نرى الشاه يترأس الجيش الصفوي ويرمي في المعارك بمعظم قواته •

وجرت محاولة عثمانية اخرى لاستعادة بغداد خلال عام من وفاة الشاه عباس الصفوي (١٥٨٧ — ١٦٢٩) الذي عرف بالكبير نظرا لأهميته • وقد قام بها الصدر الأعظم خسرو باشا الذي غادر استانبول في ١٨ شوال ١٠٣٨ / ١٠ حزيران ١٦٢٩ فتوجه الى منطقة شهرزور ، حيث دعمه عدد من الأمراء الأكراد • وفي رمضان ١٠٣٨ /نيسان — ايار ١٦٣٠ تغلبت قواته على جيش صفوي في مهربان (قرب همذان) • وكان في نيته المتابعة وحصار اصفهان ، عاصمة الصفويين، ولكن السلطان مراد الرابع أمره بالتوجه الى بغداد • وشرعت قواته بمحاصرتها في ٢٠ صفر ١٠٤٠ / ٢٨ أيلول ١٦٣٠ • وظهرت من جديد مساوىء التنظيم العسكري العثماني اذ أن الجيش المحاصر لبغداد سرعان مابدأ يشكو قلة المؤن • وعوضا من التريث والاستمرار في الحصار ، قام العثمانيون بهجوم على بغداد فهزموا وتراجعوا بعد اصابات كثيرة • وهكذا فشلت المحاولة الثانية لاستعادة بغداد •

وجرت المحاولة الثالثة والناجحة لاستعادة بغداد في عام ١٦٣٩ • وترأس الحملة السلطان مراد الرابع ، وذلك بعد أن وطد حكمه في الداخل وأمن الوضع مع جيرانه في الخارج ، وكان قد وضع حدا لتمرد فخر الدين المعني الثاني ، وانتصرت قواته عليه ، وقتله في عام ١٦٣٥ ، وأزال بذلك عنصر عدم استقرار وتهديد في بلاد الشام • واستطاع السلطان الآن أن يركز جهوده وقواته في جبهة بغداد • وقد بدأ مراد الرابع استعداداته لمعركة بغداد في أوائل رجب ١٠٤٧ النصف الثاني من تشرين الثاني ١٦٣٧ وغادر استانبول في ٢٣ ذي الحجة ١٠٤٧/ ٨ أيار ١٦٣٨ • ومر بحلب وبديار بكر ، ثم توقف بالموصل حيث استقبل موفد ملك الهند ، خرم شاه ، الذي

استغل استعداد السلطان للهجوم على بغداد واشتغال الصفويين في صده ليعلن الحرب على الصفويين في الجبهة الشرقية ويسترد منهم قندهار ٠ وازاء هذا الخطر من الجانبين بدأ الشاه الصفوي السعي للتحالف مع الدول الاوروبية ٠

وما أن وصل الجيش العثماني الى أطراف بغداد حتى ركز اهتمامه على الباب الاوسط للمدينة الذي كان أقل تحصينا من الباب الشرقي وباب الامام الاعظم ، اللذين تعرضا للهجومين العثمانيين السابقين على التوالي فأعاد الصفويون تحصينهما اثر ذلك ٠ وقد أربك هذا الهجوم العثماني الصفويين الذين كعادتهم لجأوا الى الحصار ومشاغلة العدو ، دون الهجوم بهدف ارهاق العثمانيين ٠ وتمكنت القوات العثمانية من نسف جانب من سور بغداد بواسطة لغم من البارود ومكنها ذلك من التدفق الى بغداد ٠ وقد حاول الشاه الصفوي المفاوضة ، لكسب الوقت ولكن العثمانيين ، وامكانات النصر متوافرة لديهم ، رفضوا ذلك ، وتابعوا القتال الى أن سقطت بغداد في ايديهم في ١٨ شعبان ١٠٤٧/٢٥ كانون الاول ١٦٣٨ ، بعد حصار دام أربعين يوما ٠ وقد غادرها السلطان مراد الرابع في ١٢ رمضان ١٠٤٨/١٧ كانون الثاني ١٦٣٩ ، وفي ٤ محرم ١٠٤٩/١٧ أيار ١٦٣٩ عقدت معاهدة صلح مع الصفويين وتم بموجبها تحديد الحدود بين الطرفين[٤١] ٠ وهكذا عادت بغداد الى الحكم العثماني واستمرت كذلك حتى الحرب العالمية الاولى ٠ ولاشك أن الخاسرين الوحيدين في هذا الصراع على النفوذ في العراق هم السكان المحليون ٠ ورغم أن الولاء المذهبي كان يجعل بعض الفئات تميل الى غلبة الاتراك وبعضها الآخر الى انتصار الصفويين ، فتكافأ كل فئة على موقفها ، فقد نظر معظم الشعب الى المتصارعين على السلطة بأنهم أغراب ، وبقي الشعب منفعلا أكثر منه فاعلا ، ودفع ثمن القتال دون أن يستفيد من نتائجه ، وغالبا ماكان يبرز الاعيان المحليون لا ليفرضوا موقفا مستقلا بل لتأييد حاكم أو معارضة آخر ، وزمام الامر بيد غيرهم ٠ وكانت جماهير الشعب تجند لهذا المطلب أو ذاك ٠ ووجد الشعب في ثورة بكر الصوباشي حاكما ان لم يكن يمثله فهو على الأقل يبعده عن خطر كل من الطرفين المتنازعين ، أي العثمانيين والصفويين ٠ ولأن بكر الصوباشي لايمثل أيا من هذين الطرفين فقد وقع ، ومعه الشعب ، تحت نار الطرفين ٠

وتلاحظ في أوقات الحصار والقتال هجرة سكانية الى خارج الحدود وهجرة داخلية من الريف الى المدينة ، وبخاصة في المناطق المحيطة ببغداد التي تعرضت الى حصار العثمانيين وردود فعل الصفويين ، في فترات متلاحقة • ومن شأن هذا أن يزيد في الأزمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مراكز المدن ، وبخاصة بغداد • وتنتج من تكاثر الجيوش وآثار القتال ، بالاضافة الى فيضانات الانهار ، أن انتشر الطاعون عدة مرات خلال قرن من احتلال العثمانيين العراق • ورغم ما يسببه هذا عادة من تعطيل للفعاليات البشرية والاقتصادية ، فان نتائجه الاخلاقية ، كدرس وعبرة بالنسبة لاصحاب التفسير الديني للاحداث ، لم تفد سوى بالقبول بالأمر الواقع ولم تتفوق في المدى البعيد على المساويء التي سببتها الحروب • وتولد لدى السكان ، بنتيجة ذلك ، نوع من اللامبالاة بقواعد الأخلاق •

وقد تميز الحكم العثماني لبغداد في الفترة التي تلت اعادة احتلالها بالحزم والشدة وبخاصة في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي • وشهدت هذه الفترة أيضا ازدياد نفوذ الانكشارية ، على غرار ماجرى في ولاية الشام • ولا أدل على شده نفوذهم من توصل آغا الانكشارية الى حكم ولاية بغداد أكثر من مرة • وتخلل ذلك محاولات من قبل الدولة للبطش بهم • وقد قام العثمانيون أثر استعادتهم بغداد باعادة تنظيم الادارة • وعاد الفارون من الحكم الصفوي اليها ، واستقر الامن والهدوء ، ودعمت أبراج بغداد كما بنيت تحصينات أخرى لتقوية الدفاع عن المدينة ، ولكن فترة الهدوء هذه لم تطل في بغداد اذ سرعان ماهددها تمرد الانكشارية •

ويذكر أن ابراهيم باشا ، والي بغداد في عام ١٠٥٧/١٦٤٧ قد فقد حاميه ، الصدر الاعظم صالح باشا ، الذي قتل ، وخشي أن يلحق الاذى به ، فتقرب الى عساكر بغداد المعروفين بجيش بغداد ، أو الجيش الأهلي ، أو قول بغداد ، ليتقوى بهم ويقاوم المؤامرات ضده • وكان أفراد هذا الجيش ، كما تذكر المصادر المعاصرة ، يتقاضون مرتباتهم من مالية بغداد ويقيمون في المدينة • ولا يوجد مثلهم في البصرة في هذه الفترة على الاقل • والى جانب هذا الجيش المحلي وجدت الطائفة الانكشارية ، وتسمى أيضا بالقابي قول ، وكان أفرادها يقيمون في القلعة ، ويسيطرون على منطقة الميدان ، ويتنافسون مع الجيش الاهلي • وقد وقف الانكشارية هؤلاء الى جانب

المتسلم ، وتمكنوا بالحيلة من اعتقال ابراهيم باشا وحجزه في القلعة وصد هجمات الجيش الأهلي الذي حاول انقاذه . وقتل ابراهيم باشا بأمر سلطاني كما قتل مساعده (الكاخيا) وبعض مؤيديه من قادة الجيش الاهلي،وسجن آخرون وصودرت أموالهم وهرب آخرون الى فارس .

ويبدو أن الجيش الأهلي قد فقد كثيرا من نفوذه اثر هذه الضربة الساحقة التي لحقت به . وقد لوحق من بقي من أفراده في المدينة . وتذكر المصادر المعاصرة أن الاهلين تضايقوا في أعقاب ذلك ، مما يدل على أن الجيش الاهلي كان يدافع عن مصالح الأهلين ، ويشده اليهم ،كما يبدو،اختيار بعض أفراده منهم واقامتهم في المدينة وتسلط أعدائهم الانكشارية على السكان المحليين . وسيطر الانكشارية اثر ذلك على بغداد وفرضوا نفوذهم على الولاة ، وكانت كلمتهم نافذة في استانبول .

ونتج من ازدياد نفوذ الانكشارية في بغداد ازدياد الفواحش والرذائل وحاول الولاة فرض سلطتهم ومعاقبة المسيئين . ولكن اشتغالهم في محاولات اخضاع والي البصرة من آل افراسياب صرف اهتمامهم عن بغداد . وكانت كل هزيمة لهم في البصرة تضعف نفوذهم في بغداد كما حدث ، مثلا ، في عام ١٦٥٣ حين هزم والي بغداد في حروب البصرة فكثرت الاقاويل في بغداد وانتشر اللصوص فيها ولجأ الاهلون الى السلاح للدفاع عن انفسهم ، واستغل بعض الانكشارية الوضع فقام أحدهم ، عبدي ، بالعصيان ، وحين قتله الوالي اجتمع أعوانه واصطدموا به .وعين ، في هذه الاثناء ، آغا للانكشارية من استانبول ، وخول قتل الوالي فهدأت الفتن ، اثر ذلك ، ولكن نفوذ الانكشارية تعاظم كثيرا .

أدى زوال نفوذ الجيش الاهلي وتوطد سلطة الانكشارية الى ظهور الانقسام في صفوفهم ، وحدث ذلك بشكل واضح ابان حملة تأديبية ضد البدو في أواخر عام ١٦٥٦ ، وانقسم الانكشارية على أنفسهم ، سواء منهم الذين في الحملة أم في المدينة ، واستغل ذلك أفراد الجيش الاهلي المغلوبين فعادوا الى الظهور .

وتدخل الوالي لفرض النظام ، يؤيده كبار ضباط الانكشارية . ولكن الانكشارية سرعان ماتناسوا خلافاتهم ووجهوا جهودهم ضد السلطة فطالبوا بقتل

رئيس نقابة التجار (الشاه بندر) والروزنامجي ، وأمين المخزن ، وتم لهم بالفعل قتل الأخيرين ، واضطر الوالي الى التهرب من وجههم • ويبدو أن كبار قادة الانكشارية قد خشوا رد فعل استانبول ، وأهم من ذلك عودة الجيش الاهلي الى النفوذ من جديد فاستدعوا الوالي ، وطردوا أفراد الجيش الاهلي مجددا ونكلوا بزعمائهم وأفرادهم الذين أثاروا الفتنة ، ولم يعد الجيش الاهلي الى الشهرة حتى أواخر القرن السابع عشر • واستغل الولاة العثمانيون اعادة فرض هيبتهم مدعومين بالجيش الانكشاري ، فعمدوا الى فرض الضرائب الاضافية على الاهلين لصالح الدولة التي كانت تفرض احترامها في كل مكان في العالم العربي ، في أعقاب وصول آل كوبريلي الى الصدارة العظمى • ومما يدل على وحدة المصلحة بين الانكشارية والسلطة تعيين آغا الانكشارية في بغداد واليا عليها في عام ١٦٦١ ، وكذلك في عام ١٦٧٤ ، وكان هذا الارتباط مدعاة لازدياد هيبة الدولة •

ويبدو أن ازدياد تسلط الانكشارية جعلهم يصطدمون في عام ١٦٧٦ بالسكبان، وهم جند الوالي المرتزقة•وتمكن الوالي من اعادة الامن•ونظرا لعمق نفوذ الانكشارية وتمتعهم بعدد من الامتيازات في بغداد،مما زاد في الارتباط بينهم وبين الاهلين،عمدت الدولة الى اخراج بعض الوظائف من أيديهم وتغيير بعض أفرادهم ، وبلغ عدد المستبدلين الألف ، وذلك بغية فرض هيبتها على طائفة الانكشارية • ونتج من ذلك ظهور عداء شديد بين الافراد القدامى والافراد الجدد ، داخل الانكشارية أدى الى اشتباك بينهم ، في عام ١٦٧٨ • وكانت اليد العليا للقدامى ، الذين قتلوا آغا الانكشارية ، وأرسلت الدولة في عام ١٦٨٣ نحو ألف من الانكشارية لاضعاف نفوذ القدامى وقاموا بكثير من الفوضى • وفي عام ١٦٨٨ عاد الانكشارية الى التمرد ، وقتلوا بعض أعيان بغداد ولم يهدأوا حتى قتل ثلاثة من زعمائهم •

وتعرضت بغداد والعراق بصورة عامة في الفترة بين عامي ١٦٨٩ و ١٦٩٠ الى قحط جعل الناس يهربون من القرى ، بما في ذلك أطراف الموصل ، الى بغداد مما زاد في الازمة الاجتماعية والاقتصادية والصحية • وانتشر الطاعون في أعقاب ذلك وأخذ يفتك بالاهلين فتكا ذريعا • وأدى ذلك الى كثير من الفوضى • فكثرة المتوفين والرسومات المفروضة عليهم ولجوء الدولة الى الضرائب الاضافية لمعالجة الحالة

الاقتصادية جعلها تصطدم بالأهلين • كما أن القبائل استغلت اشتغال وضعف السلطات لتعلن تمردها في منطقة الجزائر ، وتسلطت على أنحاء كثيرة مما أنقص عائدات الضرائب الحكومية • ويبدو أن خطر البدو قد طغى ، في هذه الفترة ، على اخبار الانكشارية • فما هو موقف السلطات العثمانية في العراق من القبائل البدوية والامراء المحليين في هذه الفترة الثانية من الحكم العثماني • ؟

لقد استعاد العثمانيون سلطتهم على بغداد ، ولكن أمر اخضاع البدو كان أكثر صعوبة من ذلك بخاصة وأن بعض القبائل كانت تستمد الدعم من الصفويين أو تلجأ الى مناطقهم حين يشدد العثمانيون قبضتهم عليها • وقد وجه العثمانيون أثر احتلالهم بغداد حملة على مجموعة قبائل خزعل في أطراف السماوة ، بسبب تهديدهم الأمن في المنطقة وميلهم الى الصفويين ، فهرب شيخهم الى بلاد فارس ، بعد قتال مع العثمانيين واكتفى هؤلاء بتعيين شيخ آخر من القبيلة ذاتها • ومن قبائل البدو المشهورة آنذاك قبيلة أبي ريشة وتنتسب الى طيء ، وكانت متمركزة في منطقة عانة ، وتتحكم بالطريق التجارية مع بلاد الشام ، وبخاصة تلك المتجهة الى حلب • وكان يرئس قبيلة أبي ريشة ، في هذه الفترة ، خالد العجاج وقد اعترف العثمانيون بسلطته ، ولقبوه (حاكم البر) و (أمير الصحراء) وكان في السابق يميل الى حاكم بغداد الصفوي وهاجم بأمر منهأطراف حلب • وقد قتل مملوك لاحد التجار ، حين هاجم القافلة المتجهة من بغداد الى حلب • وخلفه في زعامة قبيلة أبي ريشة الامير عساف ، واعترف به العثمانيون أميرا في منطقة حلب ، وتقاضى مرتبا منهم • ويبدو أن الامير عساف قد أساء التصرف ، وفرض ضرائب كثيرة (تعرف بالاتاوة أو الخوة) على القرى ، وعبث بأمن المنطقة • وحاولت الدولة الايقاع به في عام ١٦٤٤ ولكنها فشلت واستمر هذا الامير يمارس نفوذه حتى أطراف بغداد • ولم تكن جميع القبائل البدوية مناوئة للعثمانيين ، وقد استغل هؤلاء عداء القبائل بعضها لبعض ، فاعتمدوا على فريق لضرب الآخر ، كما حدث مثلا في عام ١٦٦٥ حين تحالف العثمانيون مع علي الشديد ، أمير الموالي في منطقة بغداد أثناء قتالهم لشيخ قبائل المنتفق في منطقة البصرة الذي كان مواليا لحسين باشا افر اسياب حاكم البصرة • وفشل العثمانيون في الوصول الى النصر •

ورغم نجاح الدولة في بعض حملاتها ضد بعض القبائل ، فقد ظل البدو عنصر عدم استقرار • وترتب على تمردهم نتائج اقتصادية سيئة مما أعاق الزراعة في الريف • ونتج مـن سيطرة البدو على مناطق متعددة حرمان الحكومة من عائدات ضرائبها • وعمد البدو أحيانا الى فرض الضرائب على المسافرين لتأمين سلامتهم ، وكثيرا ما تعرض البدو للحجاج المتوجهين من بغداد الى الحجـاز وفرضوا المـال عليهم ، واضطروهم للعـودة •

والى جانب مشكلة البدو بقيت قضية البصرة واستيلاء آل افرسياب عليها شوكة في جانب السلطات العثمانية • وقد حاولت الدولة العثمانية اثر استعادتهـا السيطرة على بغداد ، القضاء على آل افراسياب ، فعمدت أولا الى الحد من توسعهم وفرض نفوذهم على المناطق المجاورة ثم لجأت الى استثارتهم مباشرة •

وقد توفي والي البصرة علي باشا افراسياب في عام ١٦٥١ ، وخلفه في الولاية حسين باشا افراسياب ، ويبدو أن عمي حسين باشا قد أثارهما تعيينه فأخذا يسعيان للوشاية به لدى العثمانيين • وحاول هو بدوره الايقاع بهما ، فهربا الى السلطان العثمانية ، التي اغتنمت الفرصة للتدخل ووجهت والي بغداد في حملة ضد حسين باشا ، ووقف السكان المحليون الى جانب العثمانيين بسبب كرههم حسين باشا • ودخلت القوات العثمانية البصرة في عام ١٦٥٣ ، وهرب حسين باشا الى بلاد فارس • ولكن الولاية بقيت في اسرة افراسياب ، وعين العثمانيون عليها واحدا من الجنـاح الموالي لهم ضمن هذه الاسرة ويدعى أحمد بك ،وهو عم حسين باشا،وانصرف أحمد باشا الى ابتزاز المال واضطهاد الأهلين مما أثارهم • واستغل والي بغداد العثماني ذلك فبطش بأحمد باشا • وحاول اعادة البصرة الى الحكم العثماني المباشر ، فتمرد عليه الناس واضطر للهرب • وعاد حسين باشا افراسياب الى حكم البصرة ، في عام ١٦٥٤ واستمر في ذلك حتى عام ١٦٦٦ • وقد حاول حسين باشا ، اثر استتباب الامر له في البصرة ، مد نفوذه على الاحساء • وكانت هذه الولاية تابعة للعثمانيين منذ فترة حكمهم الأولى لبغداد • وقد تعاقب على حكمها ولاة عثمانيون في البدء ثم برز في حكمها أمراء قبيلة بني خالد باسم العثمانيين وسيطر عليها آل افراسياب منذ مطلع القرن السابع عشر • وأثناء القتال داخل اسرة افراسياب انحاز حاكم الاحساء الى

معارضي حسين باشا افراسياب فرد هذا بتحالفه مع بني خالد ، واستطاعت قواتهما احتلال الاحساء ، وحاول بنو خالد الانفراد بحكمها، ولكن حسين باشا استعادها منهم في عام ١٦٦٧ ، لم يكن هذا الاتفاق سوى محاولة عثمانية لكسب الوقت لجعل حلفاء حسين باشا ينفضون من حوله ، وفي عام ١٦٦٧ جدد العثمانيون هجومهم على حسين باشا واحتلوا القرنة والبصرة ، وهرب حسين باشا الى بلاد فارس ، ولم يقبل الشاه الصفوي دعمه بقواته خوفا من العثمانيين ، واخيرا توجه الى الهند وانقطع حكم الاسرة من العراق ، والجدير بالملاحظة أثناء القتال بين العثمانيين وحسين باشا افراسياب أن الصفويين لم يستغلوا ذلك للتدخل في شؤون العراق ، فماذا كان عليه موقفهم منذ استرجاع بغداد من يدهم في عام ١٦٣٨ .

لقد عقد العثمانيون مع الصفويين معاهدة صلح في عام ١٦٣٩ ، واستمر احترام هذه المعاهدة قائما لان العثمانيين لم يكن بمقدورهم أو في خططهم مهاجمة بلاد فارس ، وبالمقابل ، لم يكن بمقدور الصفويين العودة الى احتلال أجزاء من العراق بسبب الضعف الذي أصاب سطلتهم ، ولا أدل على اشتغال الصفويين بمشكلاتهم الداخلية من عدم انتهازهم فرصة وفاة السلطان مراد الرابع في عام ١٦٤٠ للتدخل في شؤون العراق ، بعد سنة فقط من اخراجهم بالقوة من بغداد ، وكان الشاه الصفوي يخطب ود السلطان العثماني بارسال الهدايا اليه ، ورد العثمانيون بمثل ذلك ، ويبدو أن الصفويين حاولوا التدخل في النزاع بين العثمانيين وحسين باشا افراسياب ،وحين طلب هذا الاخير النجدة من الصفويين تدخل العثمانيون وذكروهم بضرورة احترام معاهدة الصلح ، ويمكن القول أن مصلحة البلدين واشتغال كل منهما بمشكلاته الخاصة ، دعت استمرار الصلح بينهما ، ولم تسوء العلاقات حتى الربع الاول من القرن الثامن عشر حين حلت محل الصفويين ، في حكم بلاد فارس ، زعامات قوية تركمانية بمعظمها ، وقد تبنى الافغانيون منهم المذهب السني ، بينما تبنى نادر شاه وأتباعه المذهب الجعفري ، وهو شيعي معتدل ، وأدى هذا التبدل في الزعامة الى تجدد النزاع مع العثمانيين كما سنرى في الفصل التالي ، وأدت المجابهة مع الصفويين

في القرن الثامن عشر الى ظهور زعماء أقوياء في بغداد والموصل أسسوا مايشبه السلالات واغتصبوا ، في الواقع ، السلطة لانفسهم •

وعلى غرار ماحدث في بلاد الشام والعراق ، فقد انعكست قوة الدولة في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي ، على مجرى الاحداث في مصر • ففي عهد الأول جرت محاولات من قبل ممثلي الدولة في مصر للحد من نفوذ الصناجق والمماليك،ومن ذلك اصطدام حاكم مصر،موسى باشا،في عام ١٦٣٠ مع الصناجق ــ المماليك ، وقتله أحد زعمائهم قيطاس بك ، ثم محاولة الدولة التخلص من زعيم الفقارية رضوان بك ، في عام ١٠٤٩/١٦٣٩ ــ ١٦٤٠ • ونجحت الدولة في الفترة بين ١٦٦٠ ــ ١٦٦٢ في القضاء على الفقارية والقاسمية • واستغل ولاة مصر القضاء على نفوذ الفقارية والقاسمية لتوطيد سلطتهم واستمدوا القوة والتصميم من محاولة السلطة المركزية في استانبول اعادة هيبتها في الولايات ، ولكن سرعان ما ظهرت في مصر قوى جديدة تسلمت زمام المبادرة السياسية من الولاة وملأت الفراغ السياسي الذي خلفه زوال نفوذ الصناجق الفقارية والقاسمية • وتألفت هذه القوى اما من زعماء انكشاريين مثل كجك محمد وافرنج أحمد أو من بيوتات عسكرية تشكلت من أفراد عسكريين أحاطت بكل منهم طائفة من الاتباع عرفت باسمهم مثل طائفة البلفية المؤلفة من اتباع القائد العسكري حسن آغا البلفي ، وطائفة القازدغلية المؤلفة من اتباع القائد العسكري مصطفى كاخيا القازدغلي • وانتسبت هذه البيوتات العسكرية المتنافسة الى طائفة أو أخرى من طائفتي الفقارية والقاسمية• ونتج من هذا الاندماج عودة الصراع بين الطائفتين في أواخر القرن السابع عشر وبذلك لم تعد الطائفتان تقتصران تقريبا على الصناجق المماليك ، كما في الفترة قبل سنة ١٦٦٢ • واشترك الآن في صراع الطائفتين وبالتالي انضوى تحت لوائهما ، المماليك والطوائف العسكرية ، وبخاصة الانكشارية والعزب ، وعلى هذا فلم يعد الصراع بين الفقارية والقاسمية صراعا ضيقا يقتصر تقريبا على الصناجق ، ولكنه شمل الفرق المختلفة •

وقبل ذكر التطورات السياسية التي حدثت في هذه الفترة يجدر التعرف على الطريقة التي تكونت بها البيوتات العسكرية ، والأسس التي قامت

عليها • فالى جانب ورود المماليك الى مصر وتأسيسهم فيها بيوتات مملوكية تقوم على العلاقة بين الاستاذ وعتقائه وعلى الخشداشية بين المماليك ، تماما كما في عهد السلطنة المملوكية ، كان يرد أيضا اليها شبان من الروم أغلبهم من المسلمين • وعند وصولهم الى مصر يلتحق أحدهم أو جماعة منهم بخدمة أحد الاغاوات العسكريين كحرس خاص ويسمى واحدهم في هذه الحالة سراجا • وبعد خدمة بضع سنوات لدى الآغا يزداد الولاء بينه وبين سراجيه ، فيتقوى الآغا ، ويدافعون عنه ، وينفق عليهم من ماله الخاص • ثم يعمد الآغا الى الحاق سراجيه باحدى الطوائف العسكرية• ويتقاضون عندئذ مرتباتهم من الطوائف التي انتسبوا اليها ، أي من مال الدولة ، وينتسبون أيضا الى نقابة تجار جدة الاغنياء للفائدة المادية وينقلب اسم السراج في هذه الحالة الى تشراك • ولايعني هذا أن ولاء التشراك قد انقطع عن سيده ، بل يبقى ولاؤه له • والمقصود من هذه العملية أن السراج الذي تحول الى تشراك ، يأخذ نفقته الآن من موارد الدولة ، عوضا من موارد سيده الآغا • ويتمكن الآغا في هذه الحالة أن ينفق ماله في استخدام سراجين آخرين • وهكذا تنشأ حول الآغا طائفة يعيش أكثرها على موارد الدولة ، ويتمتع هو بولائها قبل غيره • ولم يكن مجال الترقي مغلقا أمام أفراد التشراك في الطوائف العسكرية ، فبعضهم كان يرتقي الى أعلى المناصب • ويبدو أن السراجين أصبحوا يؤخذون بالتدريج من غير الشبان الأروام ، وظهر بينهم خليط من الأجناس • وقد اتيح لهذه البيوتات العسكرية الشهرة بسبب ضعف الصناجق الفقارية والقاسمية •

وكانت السنوات القليلة التي تلت سنة ١٦٦٢ بمثابة امتحان لمختلف القوى في مصر اذ حاولت كل منها ملء الفراغ السياسي الذي حصل • وليس بغريب في مثل هذا الوضع أن يكون زمام المبادرة السياسية بأيدي حكام مصر الذين كانوا يحكم مناصبهم ، والقوة التي أظهروها حديثا والدعم الذي نالوه من استانبول ، أقرب الى ملء هذا الفراغ • وقد بطش عمر باشا السلحدار (١٧٠٤ ـــ ١٠٧٧/١٦٦٤ ـــ ١٦٦٧) بزعماء فتنة ضارية في مصر أثارها في ١٠٧٥/١٦٦٤ ـــ ١٦٦٥ محمد بك حاكم جرجا الذي كان يؤازره الزرب (جمع زربة التركية) أي العصاة من العساكر ، وقاسى الاهلون من اذاهم الشيء الكثير • ويشير ظهور الزرب في هذه الفتنة الى استغلال

العناصر الانتهازية للوضع في غياب الزعماء التقليديين من الطائفتين الفقارية والقاسمية • كما أن شدة رد فعل عمر باشا ضدهم كانت بمثابة تحذير للعناصر الاخرى كالانكشارية والعزب الذين قتلوا الدفتردار ، قبل قليل ، بتهمة قتل أحد افرادهم •

ونلاحظ في الفترة بين ١٠٧٧ – ١٠٨٦/١٦٦٧ – ١٦٧٦ أن سلطة الولاة كانت موطدة في مصر • واستغل بعضهم هذه السلطة للاثراء وابتزاز الاموال ، وبطشوا بالذين عارضوا أوامرهم دون أن يخشوا أحدا • ولكن مظالم هؤلاء الولاة أتاحت الفرصة للعساكر ليظهروا كمدافعين عن السكان • ولذلك ما أن علم العساكر بنية الوالي الجديد أحمد باشا الدفتردار (١٠٨٦ – ١٠٨٧/١٦٧٥ – ١٦٧٦) فرض الضرائب على البيوت والمرافق العامة كالخانات والطواحين حتى ثاروا عليه وعزلوه ، وعينوا قائم مقام عوضا منه ، وقتلوا أحد الموظفين القائمين على الشونة • وعندما حاول موظفو الديوان والصناجق التوسط ، صدهم العساكر ، وأظهروا معارضتهم لبقاء الباشا ، وأسلوا العروض الى السلطان فعين حاكما آخر على مصر • ولم يكن عمل العساكر فريدا في نوعه ، ولكن المهم هنا أنه بعد زوال نفوذ الصناجق ظهر العساكر كقوة توازن قوة الولاة وعاد الصناجق ، في فترة ضعفهم ، الى الوقوف بجانب الولاة يدعمون سلطتهم وينفذون أوامرهم • ويذكرنا هذا بالوضع الذي ساد في مصر في الفترة بين ١٥٨٩ و ١٦٠٩ حين تمرد العساكر ووقف الصناجق الى جانب الولاة ، ولكن العساكر الآن بسبب انقسامهم الى طوائف ، أشهرها الانكشارية والعزب ، وبسبب عدم وجود عدو قوي مشترك يوحد بينهم ، لأن الولاة لم يكونوا جميعهم أقوياء أو مهتمين بكبح العساكر ، تعرضوا الى أزمات داخلية عنيفة • وقد حدثت هذه الازمات اما داخل الطائفة الواحدة – ومصدرها عادة في هذه الحالة مغامر يريد استلام زمام المبادرة – أو بين الطوائف المختلفة • وانضم الباشا والصناجق والفقارية والقاسمية والعلماء الى فريق أو آخر • وقد شغل المسرح السياسي في مصر في الفترة بين ١٦٧٥ و ١٧١١ انكشاريان برتبة باش أوضه باشي وهما كجك محمد وأفرنج أحمد على التوالي • وقد شغل كجك محمد منصب باش أوضه باشي في طائفة الانكشارية منذ عام ١٠٨٥/١٦٧٤ – ١٦٧٥ • ولايعرف شيء عن أصله أو نشأته

ولكنه من منصبه المتواضع هذا تحدى كبار ضباط الانكشارية ، وتخلص من عدد منهم بالقتل . وكان الوالي العثماني يدعمه أحيانا ضدهم ، ويؤيد في الوقت ذاته ، أعداء كجك محمد ضده لاضعاف الفريقين . وضاقت الانكشارية ذرعا بأعمال كجك محمد ، فقاموا عليه في ٢٠ آب ١٦٧٨ يريدون قتله ، فالتجأ الى طائفة العزب ، ثم اتفق على نفيه الى الروم(٤٢) .

ويبدو أن هذه الاضطرابات بين الانكشارية قد اضعفتهم ، وساعدت في الوقت ذاته على اظهار نفوذ طائفتي القاسمية والفقارية ، االتين انتسب اليهما فريق أو آخر واشتهرت معهما الصنجقية من جديد . والجدير بالذكر أن كجك محمد منح رتبة الصنجيقية وامارة الحج الى المملوك ذي الفقار الفقاري في محاولة منه كما يبدو لكسب دعم الفقارية . ويدل هذا على أن الفقارية مازالوا على ارتباط وثيق بالمماليك وعلى درجة من القوة تستحق كسب دعمهم . أما القاسمية فكانوا ، شأنهم في فترة الصراع مع الفقارية في النصف الاول من القرن السابع عشر ، يقفون الى جانب السلطة بدليل تعيين أحدهم ، قيطاس بك بقناطر السباع ، قائم مقام ، من قبل حاكم مصر في عام ١٦٨٠ . وبعد ثلاث سنوات عين ذو الفقار أمير الحج في هذا المنصب . وقد قتل كجك محمد في عام ١٦٩٤ بتحريض من كاخيا الانكشارية مصطفى القازدغلي .

واشتهر افرنج أحمد ، في أعقاب مقتل كجك محمد وأثار في عام ١٧١١ فتنة كبرى ، بين مؤيديه ومعارضيه ، اشتركت فيها الطوائف العسكرية السبع ، والصناجق ، والمماليك ، وطائفتا الفقارية والقاسمية ، والموظفون الدينيون والمدنيون . ولشدة احداث تلك السنة عدت سنة الفتنة أو الواقعة الكبيرة ، وأصبحت تستخدم للتاريخ .

ولم يلعب الباشا العثماني أي دور قيادي في النزاع الذي دار بخاصة بعد انتهاء عهد آل كوبريلي في الوزارة العظمى في عام ١٦٧٦ ، وكان أبطاله الانكشارية والعزب والفقارية والقاسمية ، وتوطدت سيطرة القاسمية في أعقاب فتنة ١٧١١ ، واحتكروا نصف عدد الصناجق الذين قدروا آنذاك بأربعة وعشرين . ولكن

القاسمية ، بنتيجة انتصارها ، بدأت تتفكك من الداخل ، وبرز فيها جناحان متنافسان يمثلهما اتباع ايوازبك واتباع ابراهيم بك أبي شنب • واستغل الفقارية ذلك وقضوا نهائيا على تفوق القاسمية في عام ١٧٣٠ ، وتسلموا الرئاسة (السلطة الفعلية) في القاهرة واستمروا كذلك حتى حملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨ • ولكن الفقارية بعد زوال القاسمية الذين وحدوا صفوفهم بدأوا ينشقون على أنفسهم • وظهرت بينهم كتلتان متنازعتان ومختلفتان في التركيب وهما القازدغلية ، من اتباع مصطفى كاخيا القازدغلي ، وهم ابرز البيوتات العسكرية ، والمماليك • وبزوال القازدغلية بعد قليل ، انقسم المماليك ، بدورهم ، على أنفسهم ، ونشأت المنازعات بينهم • ثم ظهر علي بك بلوط قبان في الستينات ، وتوصل الى زعامة مصر •

★ ★ ★

١ ـ انظـر :

Braudel, pp. 417-420; Gibb and Bowen, I. ii. 51ff.; B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, pp. 27-33.

٢ ـ انظـر :

Inalcik, « The Heyday and Decline of the Ottoman Empire », The Cambridge History of Islam, vol. I, pp. 344-345.

٣ ـ البرق اليماني ، ص ١٢٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

٦ ـ انظر حول هذه الاحداث : ابن ابي السرور ، التحفة البهية ، الاوراق ، ٥٥ ب ـ ٥٦ ا ، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ١٩٢٦ ، الاوراق ، ٨١ ب ـ ٨٢ آ .

٧ ـ احمد شلبي ، الورقة ٩ ا ، الاسحاقي ، ١٤٣ .

٨ ـ التحفة البهية ، الورقة ٥٠ آ .

٩ ـ المصدر السابق ، الورقة ٤٣ آ .

١٠ ـ انظر حول ثورات العساكر في مصر في هـــذه الفترة والمصادر التي اعتمدنـــا عليها ، بحثنـــا : « ثورات العساكر في القاهرة ، في الربـــع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ، ومغزاها » ، وقد القي في الندوة الدولية لتاريـــخ القاهرة (آذار ـــ نيســـان ١٩٦٩) ، بمناسبة مرور الف عام على تاريخها ، وقشر في : ابحاث الندوة الدولية لتاريـــخ القاهرة ، مارس ـ ابريل ، ١٩٦٩ ، وزارة الثقافة ، ٣ اجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، ج ٢ ، ٧٤٥ ـ ٧٧٥ .

١١ ـ العزاوي ، ج ٤ ، ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ١٥٧ ـ ١٥٩ ، ١٦٠ ـ ١٦٢ .

١٢ ـ المحبي ، ج ١ ، ٤٥٥ .

١٣ ـ انظر حول ثورة بكر الصوباشي : العزاوي ، ج ٤ ، ١٦٥ ـ ١٨٢ ، المحبي ، ج ١ ، ٣٨٢ ـ ٣٨٥ ، ٤٥٥ .

١٤ ـ ج ١ ، ٣٨٣ .

١٥ ـ المحبي ، ج ٢ ، ٨٥ ، ١٢٩ ، ج ٤ ، ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ، نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، مخطوط في الظاهرية ، برقـم ٤١ ، الاوراق ، ١٩٥ ب ـ ١٩٦ آ ، ٢٠٨ آ ، ٢١٣ ب ، الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٦ ، ج ١ ، ٣٢٠ ، ج ٢ ، ١٥٥ ـ ١٦١ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، الطباخ ، ج ٣ ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجـزاء ، حلب ، ١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ ، ج ٢ ، ٢٦٦ ـ ٢٧١ .

١٦ ـ نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٧٨١٤ ، الاوراق ، ٣٣٥ آ ، ٣٣٥ ب ، ٣٣٨ آ ، ٣٣٩ آ ، ٣٤٠ آ ، ٣٤٢ آ ، ٣٤٢ ب ، ٣٨٨ ب .

١٧ ـ المحبي ، ج ٢ ، ١٥٩ .

١٨ ـ المصدر السابق ، ج ٣ ، ١٣٧ ، البوريني ، ج ٢ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

١٩ ـ ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ٣٦ ـ ٣٧ .

٢٠ ـ انظر : كمال سليمان الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٧ ، وانظر حول اصل هذه الاسر وتاريخها : صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق الاب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٢٧ ، وطنوس الشدياق ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ، ١٩٥٤ .

٢١ ـ انظر حول هذه الاحداث : أحمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٤٦ ـ ٦١ ، الشدياق ، ج ١ ، ٢٩٢ ـ ٢٩٤ ، ج ٢ ، ٦ .

٢٢ ـ الشدياق ، ج ٢ ، ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ، عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦ .

٢٣ ـ انظر بشان الامراء هـؤلاء : المحبي ، ج ١ ، ١٨٧ ـ ١٨٩ ، ٢٢١ ، ج ٢ ، ١٢٧ ، ٢٧٣ ـ ٢٨٩ ، الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ ، البوريني ، ج ١ ، ١٩١ ـ ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ج ٢ ، ٢٧٣ ـ ٢٨٩ .

٢٤ ـ انظر حول الجلالية : المحبي ، ج ١ ، ٢٨٦ ، ج ٢ ، ٤٣ ، ٣٢٢ ـ ٣٢٤ ، البوريني ، ج ١ ٢٢٥ ـ ٢٢٨ ، ج ٢ ، ١٤٥ ـ ١٦١ ، ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وانظر ايضا :

Halil Inalcik, « The Heyday and Decline of the Ottoman Empire», **The Cambridge History of Islam,** Vol. 1, pp. 347-349.

٢٥ ـ لطف السمر ، ١٨٢ ب .

٢٦ ـ ج ٢ ، ٢٨١ .

٢٧ ـ انظر حول ثورة آل جانبلاط : المحبي ، ج ١ ، ٢٨٧ ، ج ٢ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ج ٣ ، ١٣٨ ـ ١٤٠ ، ج ٤ ، ٢٥٧ ، البوريني ، ج ٢ ، ٢٣١ ـ ٢٣٤ ، ٢٨٢ ـ ٢٩٦ ، الغزي ، لطف السمر ، ١٧٤ آ ، ٢٠٠ ب ، ٢٠٧ آ ، ٢١١ آ ، الطباخ ، ج ٣ ، ٢٣٦ ـ ٢٣٩ ، الشدياق ، ج ١ ، ١٥٠ ـ ١٥١ .

٢٨ ـ انظر بشان المصادر حول حكم فخر الدين المعني الثاني ، كتابنا ، العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق، ١٩٧٤ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٧ .

٢٩ ـ فتح الله بن علوان الكعبي ، زاد المسافرولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب ، مخطوط في التحف العراقي ، برقم ٢١١٣ ، الاوراق ، ٣ ب ، ٤ آ .

٣٠ ـ انظر حول حكم آل افراسياب : العزاوي ، ج ٤ ، ١٩٥ ـ ١٩٦ ، ج ٥ ، ٢١ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٤٦ ـ ٥٠ ، ٧٥ ـ ١٠٠ .

٣١ ـ عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبـــار ، ٤ اجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ ، ج ١ ، ٢١ ـ ٢٣ .

٣٢ ـ طبع في القاهرة عام ١٣١٦ (على ذمة محمد افندي حافظ الجركسي الباجي) .

٣٣ ـ انظر الدراسة النقدية الهامة لهذا النسب التي قام بها :

P. M. Holt, «The Exalted lineage of Ridwan Bey», **BSOAS**, XXII,2 (1959), pp. 221-220.

٣٤ ـ ابن ابي السرور ، الكواكب السائرة ، ٥٣ آ ، ٥٥ آ ، أحمد شلبي ، ١٦ آ ، ١٧ آ .

٣٥ ـ انظر الورقة ٣ ب من هذا المخطوط ، نسخة المكتبة الوطنية في باريس ، برقم Arabe 1835 وانظر حول تفاصيل الاحداث السابقة : بلاد الشام ومصر ، ص ٢٧١ ـ ٢٨٠ .

٣٦ ـ انظر :

P. M. Holt, **Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922**, London, 1966, p. 8; « The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century», **BSOAS**, XXIV.2 (1961), pp. 214-248.

٣٧ ـ انظر حول اليمن العثماني في هذه الفترة : السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الاول لليمن ، ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٣٨ ـ انظر حول الاحداث السابقة : العرب والعثمانيون ، ص ١٩١ ـ ١٩٥ .

٣٩ ـ للحصول على دراسة مفصلة لاحداث هذه الثورة ومغزاها ، انظر كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, 1970, pp. 77-85.

٤٠ ـ محمد خليل المرادى ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 ، الاوراق ، ٢٦ ب ـ ٢٧ آ .

٤١ ـ انظر حول هذه الاحداث : العزاوي ، ج ٤ ، ١٨٣ ـ ٢٠١ ، ٢٠٨ ـ ٢٢٨ ، المحبي ، ج ٤ ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

٤٢ ـ انظر حول سيرة كجك محمد :

P.M. Holt, « The Career of Kuçuk Muhammad (1674-94) », **BSOAS**, XXVI.2 (1962).

الفصل الرابع

تعاظم النفوذ المحلي في القرن الثامن عشر

الانحطاط العثماني

فقد العثمانيون منذ معاهدة كارلوفيتز في عام ١٦٩٩ زمام المبادرة العسكرية في أوروبا ، وجابهتهم دول أوروبية مختلفة ، ففي الربع الاول من القرن الثامن عشر أظهرت جمهورية البندقية عجزها عن الاحتفاظ بسيادتها في البحر الابيض المتوسط ، فتخلت للعثمانيين بموجب معاهدة بساروفيتز في عام ١٧١٨ عن شبه جزيرة المورة ، بعد ان احتلتها مدة عشرين عاما • وبالمقابل كسبت الامبراطورية النمساوية ،بنتيجة هذه المعاهدة ، بنات تمسفار ، والافلاق الصغرى ، وبلغراد وأجزاء من صربيا ،ولكن العثمانيين ، بدعم من فرنسا ، استعادوا هذه المناطق بموجب معاهدة بلغراد في عام ١٧٣٩ • ولم تعد النمسا تشكل بعد ذلك خطرا كبيرا على العثمانيين، وأنهى صلح سيستوفا بينهما في عام ١٧٩١ أكثر من قرنين ونصف من العداء • وكانت الدولة الرئيسة في أوروبا الوسطى والغربية مشتغلة آنذاك بمشكلاتها الداخلية وبخلافاتها مع بعضها بعضا مثل حروب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ــ ١٧٤٨) وحرب سبع السنوات (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) •

ثم حلت روسيا محل النمسا في تهديد العثمانيين • وكان الخطر الروسي قد أخذ بالازدياد في عهد القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) الذي سعى جاهدا للوصول الى مياه البحر الاسود الدافئة واحتلال منطقة آزوف • ورغم انتصار روسيا على الدولة العثمانية في القتال الذي دار بينهما في الفترة بين ١٧٣٥ و ١٧٣٩ فان المكاسب التي حصلت عليها روسيا كانت ضئيلة • وبعد فترة من السلم استمر حتى عام ١٧٦٨، استؤنف القتال بين الدولتين واستمر حتى عام ١٧٧٤ ، وكانت روسيا قد ازدادت قوة في عهد القيصرة كاترين الثانية التي تبنت مبدأ فلسفة التنور ، وادخلت

الاصلاحات الى الدولة فهزمت الدولة العثمانية في هذه الحرب • وهدد اسطول روسي مواصلاتها وشواطئها في البحر المتوسط ، وقدم المعونة الى علي بك المملوكي وظاهر العمر ، اللذين استغلا الحرب الروسية العثمانية فتمردا على الدولة واحتلت قواتهما دمشق في حزيران ١٧٧١ • وبموجب معاهدة كجك قاينارجة ، التي انهت الحرب الروسية العثمانية ، استقل تتار القرم عن الدولة العثمانية ثم ضمتهم روسيا اليها في عام ١٧٨٣ وبذلك خسر العثمانيون لاول مرة مناطق يسكنها أتراك مسلمون • وكان هذا ضربة كبيرة لنفوذهم لأن خسائرهم قبل ذلك اقتصرت على مناطق مسيحية في أوروبا • وهكذا وصلت روسيا الى شواطيء البحر الاسود وحصلت على حرية الملاحة التجارية في المياه التركية وعبر البوسفور والدردنيل • واستخدم السلطان لأول مرة في وثيقة رسمية لقب خليفة في معاهدة كجك قاينارجة ، بغية اظهار نفوذه على كافة المسلمين وللتعويض عما فقده من سمعة سياسية وعسكرية • ثم تجدد القتال بين العثمانين والروس ، في الفترة بين ١٧٨٧ و ١٧٩٢ ، وانتهى بصلح ياسي في عام ١٧٩٢ وبموجبه مدت روسيا حدودها حتى نهر الدنيستر ، وأصبح هذا النهر منطقة الحدود بين الدولتين •

وشهدت الدولة الفارسية منذ مطلع الربع الاول من القرن الثامن عشر تجدد القتال بين العثمانيين والحكام المتعاقبين في بلاد فارس ، مثل الافغانيين ، الذين اطاحوا بالحكم الصفوي في عام ١٧٢٢ ، ونادر شاه الذي بعد ان تستر وراء الحاكم الصفوي الشرعي وطرد الافغانيين من الحكم في عام ١٧٢٩ استقل بحكم بلاد فارس في عام ١٧٣٦ •

وقد حدثت اثر هزائم العثمانيين المتكررة في القرن الثامن عشر محاولات عثمانية للاصلاح ، وبخاصة في المجال العسكري ، لتتمكن الدولة من مقاومة الجيوش الاوروبية المتفوقة • وكان العثمانيون قد اطلعوا على تفوق الغرب ، بواسطة احتكاكهم به عن طريق الحرب ، والتجارة ، والبعثات الدبلوماسية الاوروبية المقيمة في استانبول ، والوفود العثمانية التي كانت ترسل بين فترة وأخرى الى أوروبا ، واللاجئين من الغرب الى الامبراطورية العثمانية الذين نزحوا اليها في أعقاب فشل الثورات القومية في شرقي أوروبا • وقد أدخل العثمانيون، منذ الربع الاول للقرن الثامن عشر ، اصلاحات في مجالات الطباعة والبحرية والهندسة

والمدفعية . ولكن الخطوة الاساسية التي كان على المسؤولين العثمانيين اتخاذها هي اصلاح الجيش العثماني ، وكان الانكشارية ، الذين شكلوا عماد هذا الجيش ، قد وصلوا الى درجة كبيرة من الفوضى والتسلط ، ولم يعودوا يرهبون سوى السلاطين العثمانيين الذين قاسوا منهم وقتل بعضهم بسبب ثوراتهم .

واغتنم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) توقيع معاهدة ياسي مع روسيا في ١٧٩٢ واشتغال الدول الاوروبية بمشكلات الثورة الفرنسية آنذاك فأصدر في سنتي ١٧٩٢ — ١٧٩٣ عدة قرارات سميت بالنظام الجديد لاصلاح الادارة المالية ، وادارة الولايات ، والتجارة ، ولايجاد جيش جديد على الطراز الاوروبي . وبالتدريج اقتصر تعبير (النظام الجديد) على الجيش الجديد لانه كان أبرز هذه الاصلاحات . ولم يتمكن السلطان سليم الثالث من الصمود في وجه المقاومة لاصلاحاته وبخاصة من قبل الانكشارية والعلماء ، وعبثا حاول استبعاد النقمة ضده بالتخلي عن الاصلاح . وفي سنة ١٨٠٧ عزله الانكشارية عن السلطنة بموافقة شيخ الاسلام في استانبول ، وحل الجيش الجديد ، وأصيب بنكسة قوية [1] .

ورغم فشل السلطان سليم الثالث في اصلاحاته فان محاولاته وضعت عناصر الاصلاح وجها لوجه أمام العناصر المحافظة ذات المصلحة في الابقاء على الامبراطورية كما هي . ولم ينفذ الاصلاح ويقض على الانكشارية حتى عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . ولو استعرضنا قائمة السلاطين العثمانيين منذ عهد مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) وحتى نهاية القرن الثامن عشر لوجدنا أن سليما الثالث هو أول من أعاد زمام المبادرة السياسية في هذه الفترة الى السلاطين . وكان يتنازع على السلطة العليا في استانبول كل من الصدر الاعظم والكزلار آغا . وانتسب حكام الولايات الى هذين الموظفين ، وتوقف مصيرهم على نتيجة الصراع بينهما .

وتأثرت ، تبعا لذلك ، الادارة في الولايات كما حدث مثلا حين عزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام في ١٧٥٧ بسبب عداء الكزلار آغا له . وسعى الكزلار آغا في تعيين صنيعته حسين باشا بن مكي على الشام ، وكان واليا ضعيفا ، فهاجم البدو قافلة الحج في عهده وأبادوها تقريبا . ونتج من ضعف الدولة العثمانية تجاه الدول

الأجنبية ومن الصراع على النفوذ في استانبول ، أن تناقصت هيبة السلطة المركزية في الولايات وعجزت عن تحقيق الامن • وأتاح ذلك الفرصة لظهور حكام محليين في كثير من الولايات العربية وغيرها في القرن الثامن عشر • ففي روميليه والاناضول ظهر أعيان محليون ، سموا في الاناضول باسم سادة الوديان ، وكانوا اما من كبار الملاكين ، أو أصحاب الاقطاعات ، أو الملتزمين • وقد أمنوا النظام في مناطقهم ، فاعترفت الدولة بسلطتهم لأنه ليس بامكانها القضاء عليهم أو القيام بتأمين النظام مثلهم •

واختلف الوضع في الولايات العربية عنه في الاناضول وروميلية فيما يتعلق بنوعية الحكام • ففي بلاد الشام وولاية الموصل ظهرت على الصعيد السياسي ، أسر محلية حاكمة : آل العظم في الاولى ، وآل الجليلي في الثانية • وتمكن أفراد هاتين الاسرتين أن يصبحوا ولاة محليين خلال القسم الأكبر من القرن الثامن عشر • وقد عاصر آل العظم ، في منطقة فلسطين ، الزعيم المحلي ظاهر العمر ، الذي بلغ درجة كبيرة من السلطة ، وتحدى العثمانيين في ساحات القتال ، ثم خلفه في حكم بلاد الشام الجنوبية أحمد باشا الجزار (١٧٧٤ — ١٨٠٣) الذي اعتمد على قوات مملوكية استمرت تحكم ولاية صيدا من بعده • وظهر في ولاية بغداد ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، حكم وراثي تمثل في حسن باشا وابنه احمد باشا ثم تلاهما مماليكهما في حكم بغداد والبصرة ، واستمر هؤلاء في الحكم حتى عام ١٨٣١ • كما ظهرت على الشاطيء الشرقي من الجزيرة العربية أسر بدوية حاكمة وضعت أسس الامارات اللاحقة في الكويت والبحرين وقطر وأبي ظبي وعمان •

وبلغ المماليك في مصر ، في القرن الثامن عشر ، ذروة نفوذهم وسلطتهم في عهد علي باك ، ولم يعد الباشا العثماني يتمتع بسلطة فعلية كبيرة • وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة للنفوذ العثماني في مصر ، اذ بعد اضعاف سلطة المماليك ، نتيجة لحملة نابليون بونابرت ، ظهر محمد علي الالباني ، وسيطر على مقدرات البلاد •

وظهرت في طرابلس الغرب ، في القرن ذاته ، الاسرة القرمانلية التي استمرت في الحكم من عام ١٧١١ حتى عام ١٨٣٦ وكانت تركية الأصل من قرمان ، هاجر أحد

أفرادها الى طرابلس الغرب حيث عمل بحارا وأصبح ابنه باش آغا فرسان الساحل • ثم خلفه في هذا المنصب ابنه احمد القرمانلي ، الذي توصل الى حكم ولاية طرابلس الغرب في عام ١٧١١ • وفي تونس والجزائر ظهرت حكومات محلية عسكرية تصرفت وكأنها مستقلة بسبب التلاشي التدريجي للوجود العثماني فيها •

وتجدر الاشارة الى أن أيا من الحكام المحليين السابقين لم يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية رغم ما تمتعوا به من سلطة مطلقة تقريبا في مناطقهم ، ويفسر ذلك بأن السلطان العثماني ، مهما بلغ ضعفه السياسي والعسكري ، كان لا يزال زعيم المسلمين ، وان أي خروج عليه من شأنه أن يؤلب الرأي العام الاسلامي ضد الثائر • كما أن الانفصال عن الدولة العثمانية سيجعل المنفصل عرضة ليس فقط لمقاومة الدولة العثمانية بل لاطماع القوى المعادية الخارجية التي يسهل عليها عندئذ الانفراد به •

واضطر السلطان العثماني الى القبول بوجود هؤلاء الحكام المحليين ، رغم ازدياد نفوذهم ، لانهم كانوا يقدمون الطاعة له ، ويحافظون على الامن في مناطقهم وأهم من ذلك لانه يصعب عليه القضاء عليهم • واذا كانت أوضاع الدولة العثمانية والانحطاط الذي أصابها ، في القرن الثامن عشر • قد ساعدت على ظهور هؤلاء الحكام المحليين ، الذين ملأوا الفراغ الذي تركه ضعف السلطة العثمانية في الولايات، فان هنالك أسبابا محلية أيضا مكنت هؤلاء الحكام من الظهور في هذا القرن وفي هذه الاماكن بالذات ، واتاحت لهم الاستمرار في الحكم رغم اختلافهم في الاسس التي استمدوا منها قوتهم ، ففي دمشق أدى تكليف ولاتها باستمرار بامارة الحج منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر ، الى اطالة حكم هؤلاء الولاة ، من آل العظم وغيرهم ، طالما أنهم يؤمنون سلامة القافلة • وفي العراق أبقي الولاة المحليون الذين استطاعوا صد هجمات حكام بلاد فارس • وتعد شهرة المماليك في مصر استمرارا لمحاولات مملوكية لم تنقطع ، منذ بدء العهد العثماني للسيطرة في مصر•واسهمت الاسرة القرمانلية في طرابلس الغرب في صد الاعتداءات الخارجية على السواحل • ويعد الحكم العسكري في تونس والجزائر ظاهرة محلية ازدهرت على نشاط العساكر وصدهم الاخطار الداخلية والخارجية •

وليست الامثلة السابقة عن ازدياد نفوذ القوى المحلية وظهور سلالات حاكمة ضمن الاطار العثماني ، سوى مظهر واحد من ردود الفعل المحلية ، من الوجهة السياسية ، على انحطاط السلطة العثمانية . وقد حدث في القرن الثامن عشر تحد من نوع آخر لسلطة العثمانيين على الصعيد الديني فظهرت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية احتجاجا على البدع وبخاصة الطرق الصوفية المتطرفة ، التي انتشرت في الدولة العثمانية برعاية السلاطين العثمانيين .

وانتقدت الحركة الوهابية أيضا ضعف السلطان العثماني وعدم أهليته للدفاع عن العالم الاسلامي في وجه الاعداء . ويمكن اعتبار هذه الحركة بشخص مؤسسها، والمنطقة التي ظهرت فيها والدعوة الى تعاليم الاسلام في عهده الاول رد فعل عربي باطار ديني ، على انحطاط الدولة العثمانية ، ومحاولة لارجاع زمام المبادرة في البلاد الاسلاميــة الى العرب .

والى جانب هذه القوى السياسية والدينية ، التي دافعت عن العالم العربي كل في منطقتها وبأسلوبها في وجه الاخطار المحيطة به فقد ازداد أيضا دور المنظمات المحلية المرتبطة بالشعب في الدفاع عن مصالحه مثل الطوائف الحرفية والاشراف ومشايخ الحارات والانكشارية اليرلية .

وأصبح ايضا للقبائل البدوية في مختلف الولايات العربية دور أكبر مماسبق، رغم ما في ذلك من سلبيات وايجابيات . وسنرى تفاصيل هذه التطورات في الابحاث التالية . ويكفي أن نؤكد هنا أن تعاظم النفوذ المحلي ، على هــذه المستويات المختلفة ، هو في أساس القطيعة ، ثم الثورة ، التي قامت في البلاد العربية ، على العثمانيين ، وأن أية دراسة لا تأخذ بعين الاعتبار التطورات المحلية التي حدثت في القرن الثامن عشر تقصر عن فهم واقع العالم العربي في القرن التــالي .

ازدياد النفوذ المحلي في بلاد الشام

رأينا في الفصل السابق كيف أن ردود الفعل ، في الولايــات العربية ، على ضعف السلطة العثمانية قد تجلت منذ النصف الثــاني من القرن الساس عشر ، بثورات عسكريــة ، سرعان ما تلتهــا ثورات الامراء من الزعمــاء المحليين ، أو

العسكريين أو المماليك . ثم بدأت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين بالاتساع في القرن الثامن عشر ، كرد الفعل على انحطاط السلطة العثمانية من ناحية وبسبب التطورات المحلية من نـاحية أخرى .

ونلاحظ ازديـاد النفوذ المحلي في بلاد الشـام في القرن الثامن عشر ، على مختلف المستويات . وقد أصبح كبار الموظفين الدينيين مثل المفتين ونقباء الاشراف يعينون من بين الاسر المحلية ، والاستثناء الوحيد استمرار تعيين القضاة الحنفيين في مراكز الولايات من الأروام لحرص الدولة العثمانية أن يكون أمر تطبيق الشريعة في يدهـا ، وأيضا بسبب وجود كثرة من المرشحين في استـانبول لمنصب قاضي دمشق بصورة خاصة . وكان القضاة يتبارون في دفع المال للحصول على هذا المنصب الهام في دمشق مركز الخـلافة السابق . ولكـن نواب القاضي الحنفي العثماني ، وكذلك قضاة المذاهب الأخرى ، الذين نابوا عنه في النظر في قضايا اتباع مذاهبهم ، كانوا بمجموعهم من السكان المحليين . ولو درسنا قوائم أسماء المفتين الحنفيين في دمشق مثلا منذ الفتح العثماني لوجدنا أن حوالي نصف المفتين في القرن السادس عشر كانوا من أصل رومي ، والبقية من أصـل محلي . واختلف الأمـر في القرن السابع عشر حين تناقص عـدد المفتين الذين من أصل رومي الى اثنين من أصل ثلاثة عشر مفتيا . وكان جميع المفتين في القرن الثامن عشر من الأسر المحلية . وتبرز منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى الربع الاول من القرن التـالي أسرتان في الافتاء وهما : آل العمادي وآل المرادي . وحتى حوالي عام ١٧٥٠ كان حوالي ثلث المفتين الحنفيين في دمشق من آل العمادي ، ثم اشتهرت أسرة المرادي بعد ذلك .

وتبدى النفوذ المحلي ، في بلاد الشـام ، أكثر شيء في ظهور الولاة من آل العظم ، منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وقد عدوا (أولاد عرب) من قبل معاصريهم ، وكذلك في ظهور اليرلية ، وهم دمشقيون تسربوا الى طائفة الانكشارية وسيطروا عليها ، فعرفت تبعا لذلك بالانكشارية اليرلية ، أي المحليـة . واحتكر دائرة الدفتر دار في دمشق موظفون من أسرة الفلاقنسي ، نسبة الى قرية فلاقنس في ضواحي حمص ، واشتهر من بينهم فتحي الدفتري ، الذي نافس الولاة من آل العظم . واشتهر في حلب ، في القرن الثامن عشر ، الأشراف ، الذين عبر السكان

المحليون ، من خلالهم ، عن ازدياد نفوذهم ، ودخلوا في صراع مرير مع السلطة العثمانية المتمثلة بالانكشارية • وسيطر في المناطق الريفية من بلاد الشام ، في هذا القرن ، ظاهر العمر في فلسطين ، وبدو العنزة في البادية الشامية •

بداية حكم آل العظم : تتفق معظم المصادر على أن آل العظم أسرة محلية اشتهرت في منطقة معرة النعمان ـ حماه وتوصلت الى حكم هذه المنطقة في الربع الأول من القرن الثامن عشر،ويذكر رسلان القاري أن اسماعيل باشا العظم أول ولاة آل العظم في بلاد الشام كان فلاحا من المعرة (اختصار معرة النعمان) [٢]•ويشير ابن كنان [٣]المعاصر الى اسماعيل باشا بأنه ابن العظم النعماني ،أي من معرة النعمان•وعندما عزل سليمان باشا العظم عن ولايته الثانية على دمشق،ذكر ابن كنان أنه خرج من دمشق وذهب الى بلاده أي الى حماه حيث أقامت أسرة سليمان باشا وحيث بنى سرايا ، وتعني هنا بيتا كبيرا • وقد أعطي آل العظم ، أثر أزدياد سلطتهم ، معرة النعمان وحماه وحمص على شكل (مالكانه) ، وذلك في الربع الأول من القرن الثامن عشر • ويذكر الخوري ميخائيل بريك المعاصر أن أولاد العضم أصلهم من معرة حلب أولاد عرب • ويقصد بتعبير (أولاد عرب) أنهم من السكان المحليين • وعد بريك وصول آل العظم المحليين الى الحكم في ١٧٢٠ حادثا هاما جعله بالاضافة الى اسباب أخرى، يبدأ تاريخه لحوادث الشام من هذه السنة[٤] • وكان بريك حريصا على ابراز اختلاف هوية السكان المحليين عن الاروام (تعني هذه اللفظة العثمانيين عادة ولكن بالنسبة لبريك فانها تعني الروم الارثوذكس) ، فذكر أن أحد بطاركة دمشق في أوائل العشرينات من القرن الثامن عشر كان (من أولاد العربيين) •وذكر القناصل الفرنسيون المعاصرون المقيمون في بلاد الشام بأن آل العظم كانوا عربا • ويذكر المؤرخ الحلبي عبد الله بن ميرو الذي عاصر ولاة آل العظم أن ابراهيم العظم ، والد اسماعيل باشا ، كان جنديا في المعرة في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وقد قتل في المعارك التي نشبت بين أهل المعرة والتركمان المجاورين[٥] وولد ابنه اسماعيل في المعرة قبل سنة ١٠٧٠/١٦٥٩ ـ ١٦٦٠ ثم اصبح في الربع الاول من القرن الثامن عشر حاكما على المعرة وحماه • وبوساطة والي حلب ، عارفي أحمد باشا ، اعطي اسماعيل طوخين ، وعين واليا على طرابلس في أوائل العشرينات من

القرن الثامن عشر ، وأعطي بهذه المناسبة امارة جردة الحج . وفي عام ١٧٢٥ عين واليـا على الشـام .

لقد تمتع آل العظم بغنى وافر من (مالكاناتهم) في المعرة وحماه وحمص ، وأفادوا من الازدهار الاقتصادي في ولاية طرابلس . فقد نشطت في هذه الولاية تجارة التبغ والحرير ، بعد انقطاع حرير فارس الذي كان يستورده التجار الانكليز عبر حلب والاسكندرونة اثر غزو قيصر روسيا بطرس الاكبر لبلاد فارس الشمالية ، كما صدرت منها مادة القلي الى اوروبا لصناعة الصابون والزجاج فيها . واشترى آل العظم بمالهم المتزايد الدعم لهم في استانبول ، وكـان لهم وكيل فيها يرعى مصالحهم يسمى خليل افندي الذي استمد نفوذه من كاخيـا الصدر الاعظم .
وتميز حكم اسماعيل باشا العظم في دمشق باحتكاره بيع المواد الغذائية وخاصة اللحوم ، وأفاد من ذلك ببيعه المواشي التي يملكها بالأسعار التي يريدها . واعتمد اسماعيل باشا على قواته المغاربة في تدعيم سلطته ومنع حدوث ثـورة ضده على غرار الثورة التي قام بها الدمشقيون قبل قليل ، ضد عثمان باشا أبي طوق . كمـا أرضى الرأي العام الدمشقي بحمايته ، في أول ولايته ، الدمشقيين الذين نفاهم أبوطوق من دمشق وأرسلهم الى استانبول فتحطم مركبهم قرب طرابلس ، وأنقذهم حاكمها سليمان باشا العظم بناء على أوامـر أخيه اسماعيل باشا ، ورحب أيضا في دمشق بشريف مكة المعزول الشريف يحيى ، الذي اضطهده سابقـا أبو طوق . وأرضى الرأي العام الديني أيضا ببنائه مدرسة وحماما في سوق الخياطين وبنى حماما آخر في حي الخراب . وأمن اسماعيل باشا سلامة الحج من البدو باستثناء سنة حكمه الأخيرة في الشام ، في ١٧٣٠ حين هاجم بدو بني حرب في الحجاز قافلة الحج الشامي.
وقد شدد اسماعيل باشا قبضته على المناطق الريفية خارج دمشق فمنع الرعاة مـن ممارسة رعي المواشي دون اذن منه ، وذلك لانجاح سـياسة احتكار اللحـوم في دمشق . واتبع سياسة التوازن بين القوى المحلية في الولاية لايجـاد الاستقرار فاعترف بنفوذ اسرة طوقان في نابلس ليوازن بها القوى البدوية المجاورة كما أنه وازن قبائل البدو بعضها مع بعض . وحين ازداد نفوذ الشيخ جبر طرده اسماعيل باشا الى منطقة الخليل ، وأقام مكانه الشيخ طاهر بن كليب ، واستفاد اسماعيل باشا من

هذا التوازن ، فقام بابتزاز الاموال من الفلاحين ، وبلغ بهم الامر أن تمردوا عليه في ١٧٢٩ في منطقة القدس ، وخف لنجدته أخوه سليمان باشا حاكم صيدا • وبلغ آل العظم درجة من السلطة كبيرة بين ١٧٢٥ و ١٧٣٠ • وقد عين سليمان باشا العظم على ولاية طرابلس بعد نقل اسماعيل باشا الى ولاية الشام في ١٧٢٥ • وفي سنة ١٧٢٧ عين ابراهيم باشا العظم ، ابن اسماعيل باشا ، على ولاية طرابلس ، ونقل سليمان باشا الى ولاية اورفه ولكنه عزل عنها في سنة ١٧٢٨ وعين على ولاية صيدا • وهكذا حكم آل العظم ولايات الشام وطرابلس وصيدا في آن واحد • وعين ابراهيم باشا ابنه ياسين بك حاكما على اللاذقية التي كانت تتبع ولاية طرابلس ، كما عين اسماعيل باشا ابنه أسعد بك متسلما (نائبا) له على (مالكانات) حماه والمعرة ، وامتد بذلك حكم آل العظم الى المنطقة الواقعة بين حلب والعريش • ولكن احداثا هامة كانت تجري ، آنذاك في استانبول وقد قاسى آل العظم من نتائجها •

ثار الانكشارية في استانبول في ١٥ ربيع الاول ١١٤٣ / ٢٨ أيلول ١٧٣٠ احتجاجا على الحرب الخاسرة في الجبهة الفارسية وعلى ابتزاز الحكام المال من الأهلين لتمويل تلك الحرب في الظاهر بينما كانوا ينفقونها في الواقع على بذخهم • وطالب الثائرون بقتل الصدر الأعظم وكاخياه والقبطان باشا (قائد الاسطول) ، فنفذ السلطان أحمد الثالث ذلك • وكان هذا بداية الضعف من جانبه • وكانت خطوة الثائرين التالية عزل السلطان أحمد الثالث وتنصيب محمود الأول مكانه • وقاسى آل العظم من هذه الثورة لان وكيلهم في استانبول ، خليل أفندي ، فقد نفوذه بمقتل كاخيا الصدر الاعظم • ونتج من الثورة أيضا تبدل واسع بين كبار الموظفين في الولايات • وصدرت الاوامر بعزل جميع الحكام من آل العظم في بلاد الشام وسجنهم ومصادرة أموالهم • ورغم أن ولاة آخرين قد عزلوا بهذه المناسبة أيضا الا أن ما حل بآل العظم يفوق المألوف في مثل هذه الحالات ويثير الاهتمام • ويبدو أن سياسة الولاة من آل العظم في ابتزاز الاموال أثناء حكمهم قد أثارت عليهم السكان المحليين والمسؤولين الذين تلقوا عدة شكاوى حول ذلك ومما يؤيد هذا أن ثورة شعبية حدثت ضد ابراهيم باشا العظم والي طرابلس وابنه ياسين بك حاكم اللاذقية بمجرد وصول انباء ثورة استانبول • ولم تحدث ثورة في دمشق ضد

اسماعيل باشا لان سياسته في السابق كانت تقوم على ابتزاز الاموال واسترضاء السكان في ان واحد ، وايضا لان القابي قول واليرلية استغلوا انباء الثورة للقتال فيما بينهم ، وربما ألهى ذلك السكان عن اسماعيل باشا . اما سليمان باشا العظم فقد تجنب ثورة السكان ضده لانه تودد اثناء ولايته الى سكان المدينة ، بينما شدد قبضته على الفلاحين في الريف الذين اصبحوا اغنياء نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة وبسبب ازدياد شراء الفرنسيين للقطن والحرير والقلي المنتجة محليا. وقد تعرض قبل عزله الى مقاومة مسلحة من قبل سكان منطقة طبرية بسبب ظلمه لهم . ولما كان التزام طبرية في عهدة ظاهر العمر، فقدتأزمتالعلاقةبينهوبين سليمان باشا بعد ذلك .

وكانت الادارة العثمانية في استانبول مستاءة من اسماعيل باشا بسبب هجوم بدو بني حرب في الحجاز على قافلة الحج ، التي كان اميرها في ١٧٣٠ . ومن الاسباب الاخرى التي دعت الى عزل آل العظم رغبة الدولة في مصادرة اموالهم الكثيرة بسبب حاجتها اليها لتمويل حربها مع حكام فارس . وتشهد كثرة الاموال التي صودرت منهم على غنى آل العظم واستخدامهم مناصبهم كعادة حكام ذلك الزمن ، للاثراء كما ان مجيء موظفين جدد الى الحكم في استانبول اتى بمرشحين اخرين لحكم الولايات .

ولم تكد تنقضي سنة واحدة على سجن الولاة من آل العظم ومصادرةاموالهم حتى أطلق سراح اسماعيل باشا وأبنائهفيجمادىالاول ١١٤٤/تشرين الثاني ١٧٣١ . وعين اسماعيل باشا واليا في جزيرة كريت حيث توفي في ١١٤٥ / ١٧٣٢ — ١٧٣٣ ورافقه الى كريت ابنه ابراهيم باشا . اما اسعد باشا فتخلف عن الذهاب مع ابيهبسبب مرضه . وكان سليمان باشا الوحيد من آل العظم الذي عين على ولاية محلية ، اذ ماكاد يطلق سراحه من قلعة صيدا في ١٥ ربيع الثاني ١١٤٤ / ١٧ تشرين الاول ١٧٣١ حتى عين واليا على طرابلس .

ونستدل من عفو الدولة عن آل العظم وتعيينهم مجددا انهم قد استعادوا نفوذهم ، وبالفعل فقد حدثت تطورات لصالحهم في استانبول اذ قضي فيها ، في

اذار ١٧٣١ على زعماء الثورة . واستعاد خليل افندي ، وكيل آل العظم ، بعض نفوذه وعاد الى حماية مصالح آل العظم .

والجدير بالملاحظة ان سليمان باشا برز الآن اكثر من اخيه وابنائه لانه عين على ولاية طرابلس ، بينما عين اسماعيل باشا واليا في كريت التي كانت عادة تستخدم كمنفى . ولم يعط احد من ابناء اسماعيل باشا اية ولاية . ويفسر تعيين سليمان باشا على طرابلس بعدم تمكن واليها الذي خلف ابراهيم باشا العظم من القضاء على ثورة قامت ضده فيها . واتفق ذلك مع ازدياد نفوذ آل العظم فعين سليمان باشا على طرابلس دون اخيه وابنائه لان سجل هؤلاء في طرابلس واللاذقية وحتى دمشق لم يكن نظيفا اما سليمان باشا فقد عرف عنه حين ولي طرابلس (١٧٢٥ — ١٧٢٧) وصيدا (١٧٨٢ — ١٧٣٠) تودده الى سكان المدينة ، وهم الذين يصنعون الثورات عادة ، وتشديد قبضته على سكان الريف الضعفاء . ويستدل من ذلك ايضا ان سليمان باشا كان اوسع نفوذا من اخيه اسماعيل ، وقد بقي بعد ذلك الشخصية المسيطرة بين آل العظم حتى وفاته في ١٧٤٣ وانتقال الزعامة في الاسرة الى ابن اخيه اسعد باشا العظم . واهتم سليمان باشا الان بالحصول على ولاية الشام ، وقد تم له ذلك في شعبان ١١٤٦ / كانون الثاني ١٧٣٤ بعد ان عين عبد الله باشا الايضنلي ، الذي حكم هذه الولاية منذ عزل اسماعيل باشا العظم ، في منصب عسكري في الجبهة الفارسية . ويدل تعيين سليمان باشا على ولاية الشام على ازدياد نفوذه ونفوذ آل العظم ككل . والجدير بالذكر ان اخاه اسماعيل باشا كان مقررا ان يخلفه في ولاية طرابلس ، ولكنه توفي قبل مغادرة كريت . وقد حاز سليمان باشا اثناء ولايته على طرابلس ، شهرة كبيرة حين اخمد ثورة فيها ، في بدء ولايته وحين اسهم في حماية الحج بصفته اميرا للجردة .

اهتم سليمان باشا في ولايته الاولى على الشام (١٧٣٤ — ١٧٣٨) بتوطيد الامن في دمشق ، فقضى على بعض اللصوص وقطاع الطرق ، وازال بعض المظالم في اول ولايته وزرع الهيبة في نفوس الدمشقيين . كما انه وضع حدا لمنازعات اليرلية والقابي قول . وبطش بعدة افراد منهم .

وأمن سليمان باشا سلامة قافلة الحج ، طوال عهده ، مما حببه الى الرأي

العام المسلم • وزاد من ذلك اشراكه الدمشقيين في الحفلات التي اقامها والاجتماعات الرسمية التي دعا الى عقدها • وبنى مدرسة قرب بيته ، في زقاق البريد ، كما بنى حمامين : في الهرمية وفي حي الخراب • وشيد ايضا قيسارية (خانا ، او وكالة) في سوق العبي • ويدل تشييد القيسارية على الازدهار الاقتصادي الذي عم الشام في هذه الفترة بسبب نشاط التجارة الاوروبية في بلاد الشام الجنوبية • واستفادت دمشق من ذلك لانها كانت مركز التبادل التجاري بين الساحل والداخل وبالتالي سوقا لبضائع الحجاج والتجار المرافقين لهم • واستفاد سليمان باشا من هذاالازدهار الاقتصادي ومن بيع واردات (مالكانته) في حماه التي منحتها الدولة لهبالاشتراك مع ابن اخيه اسعد باشا ، وذلك بعدوفاة اسماعيل باشا •

واشترى سليمان باشا عدة بيوت وبساتين في دمشق ، مما يدل على رغبته في جعل دمشق مركزا اخر لاسرته • وحول بعض هذه الممتلكات الى وقف اهلي (ذري) ليتحاشى بذلك مصادرة امواله وممتلكاته من قبل الدولة •

وطبق سليمان باشا في دمشق سياسته التقليدية في الحكم التي تقضي بالتودد الى سكان المدينة لكسب رضاهم وتوطيد نفوذه بينهم ، وبالتشدد مع سكان الريف لابتزاز المال منهم بحجة اخضاعهم الى سلطة الدولة • وقد جرد سليمان باشا في أواخر سنة ١٧٣٦ ، حملة ضد الامير ملحم الشهابي امير جبل لبنان بسبب هجمات اتباعه على منطقة البقاع الخاضعة لولاة الشام • وفشلت الحملة من الناحية العسكرية بسبب الخلاف بين سليمان باشا ووالي صيدا ، الذي اشترك في الحملة بناء على امر السلطان • وقد تمت المصالحة بين سليمان باشا والامير ملحم بوساطة القنصل الفرنسي في صيدا ، وقبل الامير ملحم بدفع مائة وخمسين الف قرش الى سليمان باشا مقابل التخلي عن الحملة ضده ، ووضع بعض الرهائن لدى القنصل الفرنسي حتى يتم دفع المال (٦) •

وجه سليمان باشا ، بعد ذلك ، اهتمامه نحو ظاهر العمر الزيداني ، الذي تقوى كثيرا • وينتسب الزيادنة الى عمر الزيداني • وقد اختلفت المصادر حول اصلهم فمن قائل انهم اسرة بدوية ومن قائل ان اصلهم من الاشراف • وقد رأينا كيف ان

الامير بشير الشهابي عين في سنة ۱۷۰۰ عمر الزيداني ملتزما في منطقة صفد ، وجعله تحت امرة الامير منصور الشهابي • وحين توفي الامير منصور في ۱۷۰۲ خلفه عمر الزيداني في حكم صفد • واستمر في ذلك حتى بعد ان استعاد والي صيدا في ۱۷۰٦ المسؤولية المباشرة في حكم صفد وبلاد المتاولة من أمير الشوف الشهابي • وبعد وفاة عمر الزيداني ، اشتهر ظاهر العمر ، من بين جميع اخوته كملتزم في منطقة صفد ، وبدأ في أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر يوطد نفوذه في تلك المنطقة •

وقد تحالف ظاهر مع الامراء المحليين ليدعم بواسطتهم نفوذه ثم مالبث ان تخلص منهم • وكان آل ماضي وآل جرار ، زعماء منطقة نابلس ينافسون سلطة ظاهر العمر الذي كان تابعا لوالي صيدا بسبب التزامه مناطق صفد وطبرية التابعة لولاية صيدا • وحين اعتدى ظاهر العمر على مناطق آل ماضي وآل جرار ،التابعين لوالي الشام ، استغل سليمان باشا الفرصة للقضاء على نفوذ ظاهر الذي قوى تحصينات طبرية لمقاومة مثل هذا الهجوم • وقاد سليمان باشا حملة ضده ،واشترك معه فيها بدو بني صقر اعداء ظاهر • واسر بنتيجة الحملة اخ لظاهر واعدم في دمشق• وتنفس ظاهر الصعداء حين عزل سليمان باشا عن ولاية الشام في تموز ۱۷۳۸ (۷) •

ازدياد نفوذ اليرلية : رأينا فيما سبق درجة الضعف التي وصل اليها اليرلية في دمشق في الربع الاول من القرن الثامن عشر • وقد سيطر القابي قول الذين دعموا الولاة ضدهم • وبرز العلماء يدافعون عن الدمشقيين ضد مظالم الولاة وعدوانيتهم•

واستعاد اليرلية بعض نشاطهم في ولاية اسماعيل باشا العظم على الشام وكان ذلك رد فعل على سياسته في احتكار بيع اللحم بخاصة • وحين تعرض كاخيا اسماعيل باشا ، في ۱۷۲٦ ، أثناء غياب الوالي للحام من الاشراف خرق أنظمة الاحتكار ، انتصر له اليرلية ، وأغلقت البلد بنتيجة ذلك وهوجمت المحكمة • ولم تهدأ الحالة حتى اطلق سراح المعتقلين واوقفت العقوبات • وحدث في صيف السنة نفسها أن تعرض الصوباشي (مدير الشرطة) ومساعدوه التفنكجية الى حرمة منزل عبد الله بن صدقة من أعيان اليرلية في حي الميدان • فاستثار هذا العمل اليرلية والعلماء والاشراف الذين كانوا في حفل في بيت عمر آغا الناشف ، مقابل بيت أبن صدقة ، وقتلوا الصوباشي • وتدخل المفتي والقاضي للنظر في أسباب النزاع ، واصطدم اليرلية في ايلول ۱۷۲٦

بالقابي قول ، واغلقت دمشق ثلاثة أيام ، وحدثت عدة اصابات بين الفريقين • ومما يلفت النظر في هذه الاحداث أن اليرلية ، الذين أصبحوا يجندون من الدمشقيين قد تعاونوا[1] مع الاشراف وبعض العلماء في معارضة السلطة العثمانية والقابي قول ، وفي هذا تأكيد للمصلحة المشتركة التي جمعت بينهم • ونظرا لقوة اليرلية الآن، عاد كبار العلماء الى دورهم التقليدي في التوسط في النزاع واقامة حدود الشريعة بين المتخاصمين • وكان المفتي محمد خليل البكري الصديقي الذي قاد الدمشقيين أثناء ضعف اليرلية في الثورة ضد الوالي عثمان باشا أبي طوق ، قد عزل عن منصب الافتاء بعد تعيين اسماعيل باشا على الشام وخلفه حامد أفندي العمادي [٨] •

وحين وصلت الى دمشق أنباء الثورة في استانبول في ١٧٣٠ وعزل آل العظم ، استغل اليرلية والقابي قول المناسبة للقتال فيما بينهم • وقد اغلقت دمشق أربعة أيام، وحدثت عدة اصابات نتيجة لذلك • وتدل هذه الاصطدامات المتلاحقة بين الفريقين على شدة العداء بينهما وعلى ضعف السلطة العثمانية في دمشق • وكانت الاصطدامات تحدث عادة أثناء غياب الوالي عن دمشق، بسبب تكليفه بامارة الحج وقيامه بالدورة، أو حين ورود الأوامر بعزله ، كما سنرى أيضا في مناسبات أخرى •

وتمكن متسلم والي الشام عبد الله باشا الايضنلي (١٧٣٠ ــ ١٧٣٤) في أول حكمه ، من اعادة الهدوء بين اليرلية والقابي قول في دمشق • وخنع اليرلية طوال عهد هذا الوالي لعدة أسباب أهمها قوة عبد الله باشا ، وكثرة وشجاعة قواته الخاصة المرافقة له • وحدث في عهده طاعون في دمشق والمناطق المجاورة دام حوالي سنة من ١١٤٤ الى ١١٤٥/١٧٣١ الى ١٧٣٢ ونتجت منه وفيات كثيرة ، مما ألهى الطوائف المختلفة عن متابعة منازعاتها •

وازدهرت بعد ذلك الحالة الاقتصادية في دمشق ، في عهد عبد الله باشا ولم يلجأ الى ابتزاز الاموال مما ساعد على عدم اثارة اليرلية والدمشقيين ضده• وبالاضافة الى ذلك ، فانه أولى العلماء رعاية خاصة •

ولم يقم اليرلية في ولاية سليمان باشا العظم الاولى (١٧٣٤ ــ ١٧٣٨) بأي تمرد يذكر بسبب قوة الوالي وموازنته بين مختلف الطوائف في دمشق • وحين ثار

القابي قول على آغا طائفتهم وقتلوه في ١١٤٨/١٧٣٥ ــ ١٧٣٦ تدخل سليمان باشا وقتل أثنى عشر شخصا منهم • كما أنه اعتقل في السنة نفسها ثمانية أفراد من البرلية دون أن يعلم سبب ذلك • وبلغ نفوذ البرلية درجة كبيرة من القوة حين قادوا الدمشقيين في الثورة ضد والي الشام في جمادى الاول ١١٥١ / آب ١٧٣٨ • وبدأ حكمه في دمشق بتظاهرة قوة حين شنق شخصين وتركهما معلقين فترة من الزمن • ثم بدأ بابتزاز المال من الاهلين ، وبلغ ماجمعه خلال شهر من تعيينه مقدار تسعمائة كيس [٩]• وقد أبطل بعض الاحتفالات الصوفية كالتهليلة • ورغم أن المؤرخ المعاصر ابن جمعة حبذ ضمنيا ذلك الا أن بعض المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية احتجوا والتف من حولهم الشعب الذي قاسى من ظلم حسين باشا •

وتزعم الثورة ضد حسين باشا البرلية ومؤيدوهم من الدمشقيين ووقعت عدة اصابات في الاصطدامات التي حدثت بين الفريقين في ١٢ جمادى الثاني ١١٥١/٢٧ أيلول ١٧٣٨ • وكان حسين باشا يعتمد على قواته المرتزقة من المغاربة والدالاتية • ودعم القابي قول الثائرين ، ووجهوا مدافع القلعة على سرايا الباشا • ويبدو أن القابي قول قد تضرروا من مظالم حسين باشا بعد أن أصبحوا مثل الانكشارية في أول عهدهم أصحاب مصالح في دمشق • وربما وجدوا قضية حسين باشا خاسرة نظرا لاجماع المعارضة المحلية ضده فاشتركوا في الثورة عليه • ورد حسين باشا بمهاجمة حي الميدان ، مقر البرلية الرئيس ، ووقعت عدة اصابات نتيجة لذلك وحدث كثيرمن النهب • ثم تلت فترة هدوء بسبب خروج حسين باشا لأجل الدورة ثم قيادته قافلة الحج الى الحجاز واغتنم الدمشقيون فرصة غياب حسين باشا فعززوا الدفاع عن أسوار وأبواب المدينة ، واشتكوا الى السلطان ، ولكن لم يجدهم ذلك شيئا بسبب حماية الصدر الاعظم لحسين باشا •

وما أن عاد حسين باشا من الحجاز حتى وجد المعارضة ضده قد اشتدت • وهاجم البرلية والقابي قول مقره في دمشق ، وتمكنوا من طرده من المدينة ، وعاثت قواته فسادا في القرى المجاورة فلجأ أهلها الى دمشق • ونقم الدمشقيون على أعمال قوات الباشا ، وبخاصة المغاربة فطردوهم من دمشق وطردوا كذلك المغاربة المقيمين فيها • ولم يستطع السلطان التغاضي عن استفحال الثورة في دمشق مقر تجمع الحجاج،

وفي وقت كان مشتغلا فيه بخطر نادر شاه من جهة بلاد فارس ، فعزل حسين باشا في جمادى الثاني ١١٥٢ / أيلول ١٧٣٩ وأقيمت الاحتفالات في دمشق بهذه المناسبة[١٠].

قوي موقف الدمشقيين وبخاصة البرلية ، اثر ذلك ، وتشجعوا على الثورة في وجه الولاة ، لاسيما وأن السلطان قد أيد موقفهم . وليس بغريب أن توجه نقمتهم ضد الجند المغاربة نظرا لما قاموا به من مظالم أما أن تشمل نقمة الدمشقيين حتى المغاربة المقيمين في دمشق فهذا له أسباب أخرى . صحيح أن المغاربة كانوا يقيمون في دمشق كمجاورين ولكنهم لايلبثون أن ينضموا الى الجند المرتزقة . وبالفعل ازداد عددهم كثيرا في دمشق وهددوا مصالح الدمشقيين . وليس طرد جميع المغاربة من قبيل أخذ الطائفة بكاملها بجريرة بعض أفرادها ، بل كان في جذوره رد فعل دمشقية ازاء الطوائف الغريبة ، كالمغاربة والقوات المرتزقة الاخرى مثل القابي قول ، التي كان يستخدمها الولاة لاذلال السكان المحليين ، وقد تشجع البرلية اثر طرد المغاربة فطالبوا بعد قليل ، بطرد اعدائهم القابي قول الاغراب عن دمشق بحجة أنهم فاسقون .

ورغم أن أهالي دمشق ، بعد تقوية الدفاع عن المدينة لمقاومة حسين باشا قد ازدادوا ثقة بأنفسهم الا أنهم خسروا ماديا نتيجة للاضطراب الاقتصادي الذي عم المدينة والريف بفعل الثورة . وزاد في الامر أن الاضطرابات السياسية هذه جعلت التجار الفرنسيين ، الذين كانت تجارتهم ناشطة آنذاك مع بلاد الشام الجنوبية ، يخشون اقامة مراكز تجارية أو قنصلية لهم في دمشق ولذلك جعلوا مركز بيعهم وشرائهم في صيدا وبقي الامر كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر تقريبا . وخسرت دمشق من جراء ذلك لانها كانت تبيع كثيرا من مصنوعاتها للفرنسيين وتشتري بالمقابل كثيرا من منتجاتهم .

لقد جمع بين البرلية والقابي قول ، في الثورة السابقة ، عداؤهما المشترك لحسين باشا ، وما أن عزل حسين باشا حتى عاد النزاع بين الطائفتين أشد مما سبق ، بعد أن تقوى البرلية اثر نجاحهم في طرد المغاربة . ونشب القتال بينهما في محرم ١١٥٣ آذار ــ نيسان ١٧٤٠ في ولاية عثمان باشا المحصل على الشام (جمادى الثاني ١١٥٢ ــ شعبان ١١٥٣ / ايلول ١٧٣٩ ــ تشرين الاول ١٧٤٠) . وازداد تأزم الموقف

بوصول فرقتين جديدتين من القابي قول الى دمشق ، في هذه الاثناء ، وسرعان ما اتسب افرادهما الى الحرف مما يدل على أن هذا كان شيئا مألوفا بالنسبة للقابي قول قبل ذلك .

وعد اليرلية تقوية أعدائهم انتقاصا لنفوذهم وتهديدا لمصالحهم ، فطالبوا السلطان باخراج القابي قول من دمشق نظرا لفسادهم ، وأيدهم العلماء وعثمان باشا في ذلك . ورضخ السلطان لهذا الاجماع في الرأي وأصدر فرمانا بطرد القابي قول من دمشق في ربيع الثاني ١١٥٣/تموز ١٧٤٠ وقد قتل بعضهم وطرد بعضهم الآخر ، وسمح لذوي السلوك الحسن من بينهم من أصحاب الأسر بالبقاء في دمشق شريطة أن يصبحوا مواطنين عاديين . وكان عدد كبير من القابي قول من أصل موصلي وبغدادي . وأدى طرد القابي قول الى ازدياد نفوذ اليرلية في دمشق فعادوا الى التمركز في القلعة وحماية أسوار وأبواب المدينة [11] .وقد ازداد نتيجة لذلك تمرد بعض أفراد اليرلية وتحديهم لكبار المسؤولين ، بما في ذلك آغا طائفتهم والوالي . وعرف هؤلاء اليرلية الخارجون على القانون باسم الزرب أو الزرباوات (مفردها زربة وهي يونانية الاصل) وأطلق عليهم أحيانا تعبير أشقياء الجند أو الرعاع . وقد أخاف الزرب الولاة والدمشقيين في هذه الفترة الى أن قضى عليهم أسعد باشا العظم في عام ١٧٤٦ .

ذروة نفوذ آل العظم : حكم آل العظم ولاية الشام في هذه الفترة مدة ست عشرة سنة تعاقب خلالها على الولاية سليمان باشا العظم (١٧٤١ — ١٧٤٣) وابن أخيه أسعد باشا (١٧٤٣ — ١٧٥٧) .

ولم يحدث في التاريخ العثماني أن واليين من آل العظم تعاقبا على حكم ولاية الشام . وبدا كما لو أن حكم الولاية أصبح وراثيا في هذه الاسرة . ورغم أن الولاة من آل العظم تعاقبوا ، لفترات قصيرة نسبيا ، على حكم ولايتي صيدا وطرابلس ، الا ان أهمية حكمهم الآن ، في ولاية الشام ، تنبع من أهمية الولاية ومن سعيهم دوما للحصول عليها . ولم يكن حكم آل العظم ليستقر أو يدوم في ولايتي صيدا وطرابلس مالم تكن ولاية الشام في يدهم . كما أن طول المدة التي قضاها أسعد باشا في حكم

ولاية الشام والتي بلغت أربع عشرة سنة ليس لها مثيل في العهد العثماني • ووصل آل العظم في عهد أسعد باشا الى ذروة نفوذهم في بلاد الشام •

حاول سليمان باشا العظم اثر عزله عن ولاية الشام في ١٧٣٨ أن يعود اليها بسرعة ، وأنفق أموالا كثيرة في استانبول لهذه الغاية ، ولكنه فشل مؤقتا • ولم يكن عزله اذ ذاك نتيجة نقمة عليه بدلالة أنه عين في ١١٥٢/١٧٣٩ على ولاية مصر ، ولم تصادر أمواله اثر عزله على عكس ماحدث مثلا في ١٧٣٠ • ويبدو أن عزل كاخيا الصدر الاعظم في استانبول الذي كان يعتمد عليه وكيل سليمان باشا وحماية الصدر الاعظم نفسه لحسين باشا البستنجي الذي خلف سليمان باشا في ولاية الشام ، هما السببان الرئيسان اللذان أديا الى عزل سليمان باشا العظم • وعين سليمان باشا للمرة الثانية على ولاية الشام في ربيع الثاني ١١٥٤ / تموز ١٧٤١ ، ولم يكن تعيينه مجدداً حادثاً فريداً في ولاية الشام في العهد العثماني على الرغم من أن تكرار تعيين الوالي أصبح في القرن الثامن عشر أقل حدوثا منه في القرنين السابقين • ويعد تعيين سليمان باشا الآن ظفرا له ولآل العظم ، بصورة عامة ، بسبب محاولتهم الدائمة للوصول الى حكم ولاية الشام •

وتعرض سليمان باشا في دمشق الى تحدي اليرلية لسلطته بعد أن ازداد نفوذهم اثر طرد القابي قول • ولم ترهبهم تظاهرة القوة التي قام بها سليمان باشا في أول ولايته حين شنق ثلاثة عصاة من البدو • وحين تأخر وصول الفرمان السلطاني بشأن استمراره في حكم الشام سنة أخرى ، ازدادت شرور الزرب وعبثهم بالنظام الى أن وصل الفرمان في ٤ جمادى الثاني ١١٥٥/٦ آب ١٧٤٢ • وعقد سليمان باشا ديوانا، بعد ذلك ، أقر معاقبة بعض الزرب ولكن هذا القرار لم ينفذ رغم وصول أمر سلطاني بقتل الزرب • ويدل هذا على مدى نفوذ اليرلية وعلى تراجع سليمان باشا أمامهم • وازداد نفوذهم اثر طرد سليمان باشا لبقايا القابي قول من دمشق بسبب اتهامهم باثارة الفوضى والفتن • ويبدو أن سليمان باشا لم يكن مهتما جديا بالقضاء على المتمردين بين اليرلية ، ربما بسبب عدم قدرته على ذلك • وقد طبق ، من جديد، سياسته التقليدية في المصالحة مع مختلف فئات القوة في المدينة ، فتغاضى عن استغلال تجار الحبوب وأصحاب المطاحن والمخابز حاجة الشعب لهذه الخدمات ورفعهم الاسعار حسب

رغبتهم . والسبب في تسامحه هذا استفادته هو من هذه الأوضاع ، وانتساب كثير من أصحاب المصالح هؤلاء الى طائفة اليرلية . وحين ثار الفقراء على الغلاء وهاجموا المخابز والمحكمة بسبب مسؤولية القاضي في تطبيق قواعد الشرع وقيامه بدور المحتسب ، تدخل سليمان باشا فأمر بتخفيض الاسعار ، ولم يدم ذلك الا فترة قصيرة . وقد خفف سليمان باشا من النقمة ضده بأن ألغى كثيرا من المظالم التي فرضت على أصحاب الحرف والصنائع والحارات . كما وأنه أحسن الى الفقراء وتودد الى العلماء لينال تأييدهم ، وبنى الاقنية على نهر قنوات ونظم حقوق المستفيدين من مياهه .

واستغل دفتردار دمشق فتحي الدفتري (نسبة الى دفتردار) تساهل سليمان باشا مع اليرلية فانتمى اليهم ، وحاول بواسطة دعمهم منافسة آل العظم على السلطة . وكان جد فتحي من قرية فلاقنس قرب حمص ، وقد هاجر الى دمشق ، واشتهر أحفاده فيها كموظفين ماليين . وعين فتحي دفتردارا في عام ١١٤٨/١٧٣٥ — ١٧٣٦ ، وبقي يشغل هذا المنصب حتى مقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ [١٢] وقد عينه والي الشام حسين باشا البستنجي متسلما له في ١١٥١/١٧٣٨ — ١٧٣٩ . وتذكر أغلب المصادر أن فتحي كان من الاشراف وهذا يعني أنه تمتع بالاضافة الى دعم اليرلية بدعم الاشراف أيضا . ويبدو أن أصل آل العظم المحلي وتوصلهم الى الحكم قد أثار منافسة فتحي الدفتري الذي كان هو الآخر من أصل محلي ويطمح بالوصول الى الحكم .

وحاول فتحي الدفتري توطيد نفوذه في دمشق فجدد منارتي التكية السليمانية وعمر طريق الصالحية في ١١٥٥/١٧٤٢ — ١٧٤٣ ورمم في العام التالي الجامع الاموي . وبنى مدرسة في حي القيمرية حيث مقر اسرته ، كما أنه عمر حماما ومقهى في الميدان حيث يسكن اليرلية مما زاد من نفوذه بينهم . وامتدح فتحي كثير من العلماء والشعراء في دمشق ، وفي طليعتهم سعيد السمان الذي عينه فتحي اماما وخطيبا في مدرسته . وللتعبير عن امتنانه وولائه جمع سعيد السمان تراجم الشعراء الذين امتدحوا فتحي في كتاب عنوانه : الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح [١٣] . وقد وصف البديري المعاصر النفوذ الذي بلغه فتحي بقوله انه كان السلطان في الشام . وانتهز

فتحي فرصة زواج ابنته من ابن أخيه فأكد نفوذه علنا بالاحتفالات التي أقامها في ربيع الاول ١١٥٦/نيسان ــ أيار ١٧٤٣ ، والبذخ الذي أظهره مما فاق الاحتفالات التي أقامها سليمان باشا العظم ، قبل أيام ، بمناسبة ختان ابنه(١٤) . واذا كانت العلاقة بين فتحي وآل العظم ودية في الظاهر ، حتى الآن ، فذلك لأن فتحي كان لايزال يوطد سلطته وينتظر الوقت المناسب لمقاومتهم .

توفي سليمان باشا قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ١١٥٦/٢٥ آب ١٧٤٣ وهو يحاصر ظاهر العمر . وقد أثارت وفاته كثيرا من الاضطرابات في دمشق . فقام اليرلية وقتلوا جماعة من الجند الدالاتية المرتزقة . واستغل فتحي الدفتري الفرصة فسجن كبار مساعدي سليمان باشا ، وتسلم السلطة الفعلية في المدينة ، وأعلم السلطان بما حدث . واذا كان فتحي ينتظر أن يعين واليا على الشام ، فقد خاب أمله بخاصة لان واليا آخر من آل العظم ، هو أسعد باشا ، قد عين خلفا لعمه سليمان باشا .

دخل أسعد باشا دمشق في ٢٤ شعبان ١١٥٦/١٣ تشرين ١٧٤٣ وكان له من العمر تسعة وثلاثون عاما . وقد سبق أن عين من قبل أبيه اسماعيل باشا ، متسلما على حماه والمعرة ثم أعطي بالاشتراك مع عمه سليمان باشا (مالكانة) حماه فأقام فيها يدير أمورها . وفي عام ١٧٤١ خلف أخاه ابراهيم باشا في حكم صيدا ثم عين في آذار ١٧٤٢ حاكما على حماه.وبوساطةبكر باشا ، والي جدة سابقا وصهر السلطان حاليا ، أعطى (مالكانة) حماه وحده ، ثم عين على ولاية الشام بعد ذلك .

يمكننا أن نلاحظ ثلاث فترات في حكم أسعد باشا العظم في الشام : فترة سلطة اليرلية وفتحي الدفتري ١١٥٦ ــ ١١٥٨/١٧٤٣ ــ ١٧٤٥ ، فترة انتصار أسعد باشا على اليرلية وفتحي ١١٥٩/١٧٤٦ ، وفترة توطيد نفوذه ١١٥٩ ــ ١١٧٠/١٧٤٦ ــ ١٧٥٧ . جابه أسعد باشا في الفترة بين ١١٥٦ ــ ١١٥٨/١٧٤٣ ــ ١٧٤٥ ازدياد سلطة اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق . وكان تساهل سليمان باشا العظم مع اليرلية ومع فتحي مسؤولا الى حد بعيد عن هذا الوضع وجاء أسعد باشا الآن ليقاسي من نتائج تلك السياسة .

خرج أسعد باشا ، بعد دخوله دمشق بعشرة أيام ، الى الدورة استعدادالقيادة

قافلة الحج . فاستغل ذلك أحد أتباع فتحي ، ويسمى لعنصه ، وهدد السيد علي أفندي العجلاني نقيب الاشراف والسيد علي أفندي المرادي من كبار العلماء ، وأطلق النار على هذا الاخير . وقد اجتمع الاعيان والعلماء وأصدروا فتوى بقتل لعفصة ، ولكنه لجأ الى أحد زعماء اليرلية في الميدان . وبعد أن كتب المجتمعون عريضة الى السلطان ضد فتحي ، حامي لعفصة وأصل الفساد ، عدلوا عن ارسالها في اليوم التالي .

ونستدل من ذلك قوة نفوز فتحي وخوف أعيان دمشق منه . ولكن مجرد تكتلهم ضده واعلانهم أنه رئيس المفسدين كان لصالح أسعد باشا لانه كسب الى جانبه الاعيان والعلماء ضد فتحي واليرلية . وفي غياب أسعد باشا في الحجاز ،وصل رسول من قبل السلطان الى دمشق في ٢٣ شوال ١١٥٦/١٠ كانون الاول ١٧٤٣ ، وبدأ بمصادرة أموال سليمان باشا . وقد دهش الدمشقيون من كثرة الاموال المصادرة ، واعتقدوا أن سليمان باشا قد جوع الناس حتى جمع هذا المال . ومما شجع على هذا الاستنتاج غلاء أسعار المواد الغذائية في ذلك الوقت . وكانت مصادرة أموال الولاة أمرا شائعا في الدولة العثمانية ، بخاصة وأن السلطان كان بحاجة ماسة للمال ، آنذاك ، لتمويل الحرب مع حكام فارس . وبلغ من حاجة الدولة للمال أنها رحبت بغنى المرشحين لمناصب الولاة ، وتقدم السن بهم ، لتتمكن من مصادرة أموالهم بسرعة .

ودهش الدمشقيون من موقف اللامبالاة الذي اتخذه أسعد باشا تجاه مصادرة أموال عمه وتجاه فتحي الذي ساعد في ذلك . وفي جمادى الثاني ١١٥٧/آب ١٧٤٤ استدعي فتحي الى استانبول ، فاستغل بعض علماء دمشق غيابه وكتبوا شكوى ضده ، ولكنهم سرعان ماعدلوا عن ارسال الشكوى الى استانبول . ويبدو أن مؤيدي فتحي من العلماء مثل الشيخ سعيد السمان قد ثنوهم عن عزمهم . الا أن معارضي فتحي الاشداء أرسلوا شكوى ضده الى استانبول . ولكن فتحي لم يمس بأذى بسبب دعم انكزلار آغا له . وعاد الى دمشق أشد قوة ، وانتقم من معارضيه . وتفاقم تعدي الزرب . ولم يحرك أسعد باشا ساكنا فلقبه الناس سعدية كاضن (كلمة تركية تعني امرأة) وفي هذا اهانة مزدوجة لأسعد باشا [١٥] .

وكلما ازداد تعدي فتحي والزرب ازدادت الكراهية لهم بين الدمشقيين . واستفاد أسعد باشا من ذلك ، ولم يبق عليه الا أن يستنفر قواته للبطش بالمفسدين. وقد استغل نقمة الجماهير على ازدياد أسعار المواد الغذائية لخلق جو من الازمة وتركيز الاهتمام عليه كمنقذ لهم من أزمتهم . وحين أرسل أسعد باشا الجماهير الى القاضي للاحتجاج على غلاء الاسعار ، خاف القاضي ، وأطلق أتباعه النار على المتظاهرين . وتوجهت الجماهير ، بعد ذلك ، بأنظارها الى أسعد باشا ، فاستغل نقمتها للقضاء على نفوذ اليرلية وفتحي الدفتري .

بطش أسعد باشا باليرلية وبفتحي في عام ١١٥٩/١٧٤٦ ، واعتمد في ذلك على قواته المرتزقة من الدالاتية . وقد بدأ باحتلال قلعة دمشق من اليرلية في ٢٢ صفر ١١٤٩ / ١٧ آذار ١٧٤٦ . وكانت قوة اليرلية الرئيسة في حي الميدان ، وبعضها في حي سوق ساروجا . وقد تجمع اليرلية في باب الجابية لحماية حي الميدان، ولكن أسعد باشا خدعهم بمهاجمة سوق ساروجة الاقل شأنا والأقل حماية ، وهرب زعيم هذا الحي أحمد القلطقجي . والتفت أسعد باشا ، بعد ذلك ، الى اخضاع حي الميدان حيث كان مصطفى آغا بن خضري زعيم الزرب والذي لقب نفسه سلطان الشام . وأصاب الذعر يرلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على سوق ساروجا ، فهرب المدافعون عنه قبل احتدام القتال ، ونهب عساكر أسعد باشا حوالي خمسمائة دار فيه وهدموا بعضها . وقضى أسعد باشا ، بعد ذلك ، على الاشقياء ، الباقين في المدينة ، وساعده في ذلك مشايخ وأئمة الحارات تحت طائلة العقوبة .

ورغم الفوضى التي أحدثها عساكر أسعد باشا فقد سر الدمشقيون من عمله . وطلب أسعد باشا من السلطان اعادة القابي قول الى دمشق لموازنة قوة اليرلية وابقائهم خاضعين لسلطته وتم له ذلك . وهكذا اعيد القابي قول الى دمشق بعد أن طردوا منها في عام ١٧٤٠ .

وكانت خطوة أسعد باشا التالية التخلص من فتحي الدفتري ، فقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ . وكان فتحي قد ضعف كثيرا اثر القضاء على أتباعه من اليرلية . كما أن حاميه في استانبول ، الكزلار آغا ، توفي في ١ جمادى

الاول ١١٥٩ • وزاد في الامر أن الصدر الاعظم حسن باشا كان يكره فتحي بسبب عداوة شخصية • وأيد كثير من علمـاء دمشق ، من بينهم محمـد خليل البكري الصديقي ، طلب أسعد باشا الى السلطان بوجوب التخلص من فتحي • وضمن أسعد باشا للسلطان أن يدفع له ألف كيس من ثروة فتحي اذا أمر بقتله • وقد تعرض أتباع فتحي وعدد من أقربائه الى كثير من الأذى نتيجة لمقتله •

وانصرف أسعد باشا ، في الفترة بين ١١٥٩/١٧٤٦ ونهاية ولايته في ١١٧٠/ ١٧٥٧ ، الى توطيد نفوذه واغناء نفسه وبناء آثاره المشهورة • وبعد أن وازن قوة البرلية باعادة القابي قول تعرض أسعد باشا الآن الى تمرد الدالاتية الذين ازداد غرورهم اثر انتصارهم على البرلية واللجوء اليهم ، بعد ذلك ، لحماية دمشق ضد خطر مهاجمة البرلية الفارين لها • وعاث الدالاتية فسادا في القرى المحيطة بدمشق والتي أوكل اليهم أمر الدفاع عنها • ولما كان يصعب على أسعد باشا التخلص من الدالاتية فانه أعاد عساكر المغاربة الى دمشق ، وكانوا قد طردوا منها في عام ١٧٣٩ ، واستخدمهم لموازنة قوة الدالاتية • ولم يكن البرلية في وضع قوي ليعارضوا عودة أعدائهم ، وأصبحوا خاضعين لسلطة أسعد باشا الذي صحبهم معه في حملاته ضـد أمراء جبل لبنان • وازدادت أيضا سلطة آغا البرلية على أفراد طائفته بعد القضـاء على الزرب • وقوى نفوذ القابي قول بسبب دعم الباشا لهم وضعف منافسيهم ، وكثرت تعدياتهم على السكان ، وبخاصة على الاشراف الذين ظهورا الآن ليملأوا الفراغ الذي تركه ضعف البرلية • وهزم الاشراف في عدة اصطدامات جرت بينهم وبين القابي قول في ١١٦١/١٧٤٨ • وحين هاجم الزرب الفارون مدينة دمشق في شوال ١١٦١/تشرين الاول ١٧٤٨ أثناء غياب أسعد باشا في الحج ، قاتلهم المتسلم موسى كاخيا وردهم على أعقابهم بمساعدة قواته المرتزقة والقابي قول • ونفذ حكم الاعدام بكثير من الدمشقيين بتهمة مساعدتهم الزرب ، وكان ذلك بناء على توصية القابي قول • وازدادت شرور التابي قول وجرائمهم ولاسيما بعد أن أضيفت اليهم فرقة جديدة في جمادى الثاني ١١٦٤/أيار ١٧٥١ [١٦] •

وظهر الآن في دمشق انقسام واضح بين الدمشقيين والبرلية الضعفاء ، من ناحية ، وبين القابي قول والدالاتية والمغاربة ، من ناحية أخرى • وتضايق الدمشقيون

من تسلط هذه القوى الغريبة ، لاسيما وأن أبناء الشام تمتعوا ، لفترة قبل ذلك ، بالسلطة وحدهم • ومنع القابي قول الآن ، تحت طائلة العقوبة ، من قبول انتساب أي من الدمشقيين الى صفوفهم • ورغم أن هذا قصد منه قطع علاقة القابي قول مع السكان المحليين وابقاؤهم أقوياء ، الا انه بالمقابل حال دون قيام أي تعاطف بين القابي قول وبين الدمشقيين ، وزاد بالتالي من حدة العداء بين الفريقين •

وقاست دمشق اجتماعيا من تعدي وفوضى هذه القوات الغريبة التي ازدادت الآن اعتدادا بقوتها • فقد تبجح الدالاتية بقضائهم على اليرلية ، وعاد القابي الى القلعة والى ممارسة نفوذهم ، وأعيد المغاربة الى دمشق بعد أن طردوا منها ،وكثرت تعدياتهم • وازداد الفسق والفجور في دمشق تبعا لازدياد فوضى هذه القوات • وقد دهش الشيخ عبد الله السويدي الذي أقام في دمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/٣٠ ايلول ــ ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٢ ، من كثرة الخلاعة وجرأة الزناة والزواني في المدينة (١٧) •

واستفاد أسعد باشا من التهاء مختلف القوى بخلافاتها وشرورها ومن دعم القابي قول له مقابل دعمه لهم ، فانصرف الى جمع الثروة • وقد حاول ، بالتعاون مع شيخ الطحانة ، ابقاء أسعار المواد الغذائية مرتفعة ليستفيد من بيع حاصلات « مالكانته » في حماه • واستفاد من هذا الوضع بعض كبار التجار وغيرهم من الذين تعاونوا مع أسعد باشا ، وتغاضى الآخرون عن تلك المساويء خوفا من الشخصيات الكبيرة ذات العلاقة • ولم تجد ثورات الفقرات أو تخفيض سعر العملة النقدية ، في التخفيف من الغلاء •

وقد خفف من شدة هذا الاستغلال ازدهار الحالة الاقتصادية في دمشق ، آنذاك ، بسبب نمو المبادلات التجارية بين التجار الفرنسيين المتمركزين على ساحل بلاد الشام الجنوبية ، والتجار الدمشقيين ، ونشطت تجارة المنسوجات الدمشقية التي ازداد الطلب عليها • كما أن تأمين أسعد باشا لسلامة الحج طوال عهده شجع الحجاج على الذهاب الى الحجاز بأعداد كبيرة ، وازداد بالتالي عدد التجار المرافقين لقافلة الحج ، وقد استفادت دمشق من ازدهار التجارة بهذه المناسبة •

وازدادت ثروة أسعد باشا على مرور الزمن ، ويدل بناؤه خانه المشهور في البزورية في ١١٦٦/١٧٥٢ ــ ١٧٥٣ ، على الحالة الاقتصادية الناشطة في دمشق ، وعلى استفادة أسعد باشا من ذلك . واشترى أسعد باشا كثيرا من الممتلكات في دمشق التي أصبحت الآن مركزا آخر لأسرة آل العظم، الى جانب حماة والمعرة . وحول أغلب ممتلكاته الى وقف أهلي لمنفعة ذريته ، بعد أن رأى بنفسه مصادرة أموال عمه سليمان باشا . وفي عام ١١٦٣/١٧٤٩ ــ ١٧٥٠ بدأ أسعد باشا ببناء قصره المشهور في البزورية ، وانتهى من بنائه في العام التالي وقد أتى آية في الروعة وفن العمارة ، وأنفق أسعد باشا على بنائه كثيرا من المال والجهد ، وجند امكانات فنية وموارد اقتصادية كبيرة لذلك [١٨] .

ولم يكن قصر أسعد باشا مجرد بناء عادي قام به أحد ولاة الشام العاديين . فلم تشهد بلاد الشام ، في العهد العثماني ، قصرا لوال محلي بمثل هذه الضخامة ، باستثناء قصر بيت الدين للامير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ ــ ١٨٤٠) ، ولكن الامير بشيرا هذا يختلف عن أسعد باشا في كونه يمثل اسرة حاكمة اعترف العثمانيون بوراثتها الحكم في جبل لبنان . ويبقى قصر أسعد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانيين . ويدل بناؤه على مقدار النفوذ الذي بلغه أسعد باشا مع اسرته في الشام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة . والجدير بالملاحظة أن الابيات الشعرية الموجودة الآن على جدران وسقوف القصر لاتذكر ، كما يبدو ، اسم السلطان العثماني ، وتكتفي بتمجيد أسعد باشا . ويدل ذلك على الاهمال التدريجي لذكر السلطان العثماني الذي لم تعد تسمع أخبار فتوحاته العسكرية ، كما كان الامر في عهد السلطان سليمان القانوني ولم تعد دمشق تزين لمثل هذه المناسبات ، واقتصرت زينتها الآن على الاحتفال بولادة أبناء السلاطين وشتان بين المناسبتين .

لقد رمم أسعد باشا واصلح كثيرا من الجوامع والمدارس والمزارات ، وبنى عدة خانات في حماه والمعرة وخان شيخون ، ونسب اليه بناء دار كبيرة في حماه . ولكننا نلاحظ أن أسعد باشا وغيره من الولاة ، في القرن الثامن عشر ، الذين شيدوا عدة أبنية في دمشق ، لم يبنوا أية جوامع على غرار جامع الدرويشية الذي بناه درويش باشا وجامع السنانية الذي بناه سنان باشا في النصف الثاني من القرن

السادس عشر • وربما يفسر ذلك أن أحدا من هؤلاء لم يبلغ من المجد والشهرة الواسعة الدرجة التي نالها درويش باشا وسنان باشا • وفي الحقيقة ، لم يعد هناك من مجال ، في فترة ضعف الدولة التي تلت عهد هذين الواليين ، لاشتهار الولاة في الميداز العسكري • وأصبح هم أغلب الولاة ، الذين عينوا لمناصبهم بدون كفاءة مناسبة جمع المال لأنفسهم • واستفاد ولاة آل العظم من شهرتهم المحلية ومن غناهم في توطيد نفوذ ومجد أسرتهم في دمشق عن طريق بناء الابنية الخاصة بهم • واذا كان درويش باشا وسنان باشا قد أرادوا تخليد ذكرى حكمهما في دمشق ببناء الجوامع فيها فهذا يعود الى كونهما غرباء عن دمشق •

واشتهر من آل العظم ، في فترة ولاية أسعد باشا على الشام ، اخوته ابراهيم باشا وسعد الدين باشا ومصطفى باشا • وقد توفي ابراهيم باشا في ١١٥٩/١٧٤٦ ـ ١٧٤٧ ، بعد عزله عن ولاية صيدا بسنتين • أما سعد الدين باشا فقد عين في١٧٤٦ واليا على طرابلس ، واستمر فيها حتى ١١٦٤/~~١٧٥٠~~ ـ ١٧٥١ حين عين واليا على حلب • ويبدو أنه عين في العام التالي على صيدا ، ونقل سنة ١٧٥٣ الى ولاية طرابلس حيث استمر فيها الى عام ١٧٥٦ ، وشغل امارة الجردة طوال هذه الفترة • وقد منح مصطفى طوخين (رتبة بيلربيي)في١١٦٦/١٧٥٥ ،ثم عين واليا على صيدا • وهكذا حكم آل العظم ولايات الشام وصيدا وطرابلس ، كما في عام ١٧٣٠ • ولكن تطورات هامة كانت تجري في استانبول ، في هذه الفترة ، وقد أثرت في مصير الولاة من آل العظم • فبعد وفاة السلطان محمود الاول في ١٧٥٤ واعتلاء السلطان عثمان الثالث ، ازدادت سلطة الكزلار آغا أحمد أبو قوف الذي كان عدوا شخصيا لأسعد باشا • وذكر أن الكزلار آغا استاء من أسعد باشا لانه لم يوله عناية مناسبة حين مروره بدمشق ، في طريقه الى الحجاز ، في عام ١٧٥٤ ، على عكس موقف حسين بك بن مكي حاكم غزة ، الذي رحب كثيرا بالكزلار آغا فعمل على ترقيته وتعيينه حاكما على القدس أولا في عام ١٧٥٦ ، بعد أن فصلها ، كما يبدو ، عن دمشق ، ثم عينه في العام التالي على ولاية الشام بعد أن أعيدت اليها القدس •

وقد عزل أسعد باشا عن ولاية الشام في آخر ربيع الثاني ٢١/١١٧٠ كانون الثاني ١٧٥٧ ، وعين على ولاية حلب • واصطدم في حلب بواليها المعزول راغب باشا،

الذي كان مقررا أن يخلفه في الشام ولكنه عين صدرا أعظم • وعين حسين باشا بن مكي واليا على الشام • وهكذا أصبح كل من الصدر الاعظم الجديد والكزلار آغا في استانبول من أعداء أسعد باشا ، وعزل أخواه عن ولايتي طرابلس وصيدا ، في الوقت نفسه •

وشعر أسعد باشا بازدياد النقمة ضده في استانبول ، فعمد الى تخفيض أسعار الحبوب في حلب ، وزود المدينة بالمؤن من عنابره الخاصة • وكسب بذلك دعم السكان له ، فثاروا لدى سماعهم ، في شباط ١٧٥٧ ، نبأ عزله عن حلب وتعيينه على مصر ، وأبقوه بالقوة • وبدا لفترة كما لو أن آل العظم سينجحون في الابقاء على بعض نفوذهم ، وقد عين سعد الدين باشا على مرعش ، كما عين أخوه مصطفى باشا على الموصل • ولكن في ٢٥ ايلول ١٧٥٧ عزل أسعد باشا من جديد ، وعين على سيواس • ولم تجد احتجاجات الحلبيين ولا محاولات آل العظم في استانبول وحلب لالغاء قرار العزل • ولم يلجأ أسعد باشا الى السلاح للمقاومة ، كما نصحه مستشاروه ، بل بقي الوالي المطيع حتى النهاية • وفي ٥ شعبان ١١٧١/١٤ نيسان ١٧٥٨ ، قتل أسعد باشا في الاناضول بأمر الدولة ، وتلا ذلك مصادرة أمواله الكثيرة •

لقد شاع في دمشق ، وفي غيرها ، أن سبب مقتل أسعد باشا تحريضه البدو على مهاجمة قافلة الحج والجردة ، في عهد خلفه حسين باشا بن مكي ، وذلك احتجاجا على عزله ، وذكر التهمة كثير من المؤرخين الدمشقيين وغيرهم ، بينما لزم الصمت آخرون مثل البديري • وقد حدث هجوم البدو من بني صخر على الجردة في ٢٠ ذي الحجة ١١٧٠/٥ ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان ، وعلى قافلة الحج في حوالي ١٠ صفر ١١٧١/٢٤ تشرين الاول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين تبوك وذات حج • وكان الهجوم من الشدة بحيث ابيدت تقريبا الجردة والقافلة • ولم تحدث مثل هذه الكارثة ، قبل ذلك في العهد العثماني • فارتاع السلطان لهول المصيبة لاسيما وأن سمعته الدينية كانت كل شيء له الآن بعد انهيار سمعته العسكرية • فبحث عن ضحية مناسبة يحملها اللوم ، ووقع على أسعد باشا الذي ازداد نفوذه في بلاد الشام الى درجة كبيرة وثار الحلبيون لابقائه بينهم • وكان أعداء أسعد باشا في استانبول ، وأشهرهم راغب باشا الصدر الاعظم وأحمد أبو قوف الكزلار آغا ، يكيدون لأسعد

باشا ، فشجعوا السلطان على استغلال كارثة قافلة الحج لاتهام أسعد باشا ، وذلك لمصادرة ثروته الكبيرة . وكانت الدولة ، آنذاك ، بحاجة ماسة الى المال . وقد بلغ من كثرة أموال أسعد باشا المصادرة أن الدولة أجرت تبديلا في سعر النقود ،وزادت، بصورة عامة ، من قيمتها .

ومما ينفي التهمة عن أسعد باشا الاحداث التي جرت ، آنذاك ، في استانبول. ففي ١٦ صفر ١١٧١/٣٠ تشرين الاول ١٧٥٧ توفي السلطان عثمان الثالث ، وخلفه أخوه مصطفى الثالث . وتنج من ذلك ، كالعادة ، تبدلات بين كبار الموظفين . وفي ٢٤ صفر من السنة نفسها نفي الكزلار آغا أحمد أبو قوف الى رودس ، وأشيع أن أمواله قد صودرت . وقد بقي راغب باشا صدرا أعظم . ووصلت أنباء الهجوم على قافلة الحج الى استانبول بعد اعتلاء السلطان مصطفى الثالث بفترة وجيزة . وكانت تعم استانبول ، آنئذ ، نقمة شعبية بسبب غلاء أسعار المواد الغذائية وتدفق القرويين الى المدينة . وعمد السلطان ، ارضاء للشعب ، الى تبديل كثير من الموظفين، والى قتل الكزلار آغا محمد ابي قوف في ١٥ ربيع الاول ١١٧١/٢٧ تشرين الثاني ١٧٥٧ . وذكر على اللوحة التي علقت على رأسه الذي عرض أمام الجماهير أن الكزلار آغا كان سبب عزل حاكم الشام القوي أسعد باشا العظم وتعيين صنيعته حسين باشا ابن مكي الذي هوجم الحج أثناء امارته . وفي هذا مديح لاسعد باشا المعزول ونفي ضمني لتهمة اشتراكه بتحريض البدو . ولم يفد أسعد باشا من ذلك لأن عدوه الآخر الصدر الأعظم راغب باشا كان لايزال قويا . وقد ازدادت سلطة راغب باشا بعد التخلص من منافسة الكزلار آغا ، ودبر التهمة ضد أسعد باشا للاستيلاء على ماله بالدرجة الاولى .

أما الأسباب الحقيقية التي أدت الى هجوم البدو على قافلة الحج فتعزى الى امتناع حسين باشا عن دفع مال الصر الى البدو ، في وقت كان البدو يعانون فيه من شدة القحط وجفاف المياه وقلة المرعى ، والى استبعاد قبيلة بني صخر ، منذ ولاية أسعد باشا ، من عملية نقل الحجاج وتأجير الجمال لهم ، مما أدى الى خسارة كبرى لبني صخر ، فتحينوا الفرصة الآن للتعبير عن احتجاجهم . وكان أسعد باشا ، أثناء ولايته على الشام ، قد شدد قبضته على القبائل الصغيرة مثل بني صخر في منطقة

البلقاء ، وبني فضل في حوران ، في حين أنه تودد الى القبائل الكبيرة ، مثل العنزة في البادية السورية ، وبني حرب في الحجاز • ولذلك استغلت القبائل الصغيرة مناسبة عزل أسعد باشا لتثور على سلطة والي الشام • واتيح لهم ذلك بسبب ضعف حسين باشا بن مكي الذي وصفه المرادي: «انه كان بطيء الحركة عن شهامة الوزارة» [19]. وكان حسين باشا من أهالي غزة ، وقد تعامل معه البدو المحليون قبل ذلك وعرفوا ضعفه • وأصبح الآن واليا على الشام وأميرا لقافلة الحج بدون جدارة ، فانتهز بنو صخر الفرصة لتصفية حسابهم مع السلطات العثمانية [20] •

وكان القضاء على أسعد باشا ضربة كبيرة لنفوذ آل العظم • وقد عزل أخوه مصطفى وجرد من أطواخه في الوقت نفسه • أما سعد الدين باشا فلم يصب بأذى ، ولكنه فقد كثيرا من نفوذه ، وتوفي في ١١ ذي القعدة ١١٧٥/٣ حزيران ١٧٦٢ • وهكذا انتهى جيل آخر من حكام آل العظم ، وكان جميع أفراده من أولاد اسماعيل باشا • ولم يتوصل محمد باشا العظم ، الذي يمثل الجيل الثالث من حكام هذه الأسرة ، الى ولاية الشام حتى سنة ١٧٧١ • ولكن أحدا من آل العظم لم يبلغ بعد أسعد باشا درجة النفوذ التي وصل اليها بسبب ضعف الأسرة العظمية من ناحية ، وبسبب انهيار سلطة ولاة الشام عامة تجاه ازدياد قوة ظاهر العمر وعلي بك المملوكي ثم أحمد باشا الجزار ، من ناحية أخرى •

سيطرة ظاهر العمر : لا بد لنا أثناء دراستنا لازدياد نفوذ ظاهر العمر ، في هذه الفترة ، من معالجة الصراع على السلطة ، في بلاد الشام الجنوبية ، بين الأمراء الشهابيين والمتاولة وظاهر العمر وولاة الشام وصيدا ، وأيضا الصراع داخل صفوف هذه الفئات ، وذلك لنتفهم كيف تمكن ظاهر العمر من الوصول الى ما يقرب السلطة المطلقة في فلسطين بخاصة •

وقد ذكرنا كيف أن سليمان باشا العظم اشتبك ، في أواخر ولايته الاولى على الشام ، في قتال مع ظاهر العمر بسبب اعتدائه على مناطق آل ماضي وآل جرار الخاضعين لاشراف سليمان باشا • وأستفاد ظاهر العمر من سرعة تبدل ولاة الشام في الفترة بين ١٧٣٨ — ١٧٤١ ، حين تعاقب على الولايــة حسين باشا البستنجي

وعثمان باشا المحصل وعلي باشا ، ومن اشتغال الوالي الاول بثورة الدمشقيين ضده ، والوالي الثاني بطرد القابي قول من الشام • أما الوالي الثالث فقد اتصفت علاقاته بالمصالحة مع اليرلية ومع ظاهر •

وما أن عين سليمان باشا العظم للمرة الثانية على الشام في ١٧٤١ حتى عاد الى استئناف القتال ضد دروز جبل لبنان وظاهر العمر • ويتفق هذا الموقف مع سياسة سليمان باشا التقليدية في تشديد قبضته على القوى المحلية في الريف والتسامح مع سكان المدن •

وبدأ سليمان باشا ولايته بقيادة حملة ضد دروز جبل لبنان بسبب اعتدائهم على البقاع • وكما حدث في ولايته الاولى ، فقد تصالح معهم ، قبل أن يبدأ القتال ، لقاء مبلغ كبير من المال •

ثم وجه سليمان باشا كامل جهده لاخضاع ظاهر العمر الذي كان يثير مخاوف سليمان باشا بسبب ازدياد سلطته في منطقة صفد وتحصنه في قلعتي طبرية ودير حنا ، وأيضا بسبب اعتدائه على منطقة نابلس التي تتبع ولاة الشام • ورغم أن منطقة صفد ـ طبرية تقع تحت اشراف ولاة صيدا ، الا أن اشغال هذه الولاية ، أثناء حكم سليمان باشا في الشام ، من قبل أبناء أخيه ، ابراهيم باشا أو أسعد باشا ، ولجوء هذين الواليين الى عمهما لمساعدتهما ضد ظاهر ، ألقى المسؤولية على سليمان باشا • وكان سليمان باشا يهتم بأن يدفع ظاهر أموال الميري بانتظام الى والي صيدا لانفاقها على تمويل جردة الحج • وخرج سليمان باشا بحملة كبيرة من دمشق في ٣ رجب ١١٥٥/٣ ايلول ١٧٤٢ لمحاصرة ظاهر العمر في طبرية ، وذلك بمناسبة الدورة • وساعده الامير ملحم الشهابي ، أمير جبل لبنان ، ببعض قواته نظرا لعدائه لظاهر • ودعم سليمان باشا أيضا بدو بني صخر وبدو بني صقر الذين كانوا على خلاف مع ظاهر ولكن سليمان باشا فشل في احتلال قلعة طبرية ، رغم حصاره لها مايقرب من ثلاثة اشهر واضطر الى التراجع الى دمشق بسبب دنو موعد خروج قافلة الحج • وليس صحيحا ماشاع ، آنذاك ، في دمشق بأن سليمان باشا احتل قلعة طبرية •

واغتنم ظاهر العمر فرصة انسحاب سليمان باشا فبدأ بتقوية نفسه عسكريا • كما أنه اتصل بالقنصل الفرنسي في صيدا لكسب دعمه وللتوسط له لدى السلطات العثمانية لمنع والي الشام من شن الحملات عليه • واتصل القنصل بالسفير الفرنسي في استانبول ليتوسط فيها لصالح ظاهر • وتردد السفير في ذلك لأن ظاهر العمر يعد ثائرا في استانبول ، كما أن ذلك سيغضب سليمان باشا وسيسيء للمصالح الفرنسية في بلاد الشام الجنوبية ، لاسيما وأن الفرنسيين لم يتأكدوا بعد من مقدرة ظاهر العمر على البقاء ومقاومة سليمان باشا •

وخرج سليمان باشا ، بعد عودته من الحجاز ، بحملة ثانية ، بناء على أوامر السلطان ، ضد ظاهر وضد متاولة جبل عامل الذين رفضوا دفع مال الميري لوالي صيدا ، ابراهيم باشا العظم • واستنهض ابراهيم باشا الامير ملحما الشهابي لمساعدته ضد المتاولة ، وتمكن من هزيمتهم • ولم يشترك سليمان باشا بقتال المتاولة ، بل عمل ، بعد هزيمة الامير الشهابي لهم ، على كسبهم الى جانبه واشراكهم معه في قتال ظاهر ، بعد أن رفض مساعدة الأمير الشهابي له • ويبدو أن سليمان باشا كان يخشى ازدياد قوة الامير الشهابي ولجوء المتاولة الى ظاهر ، فقرب اليه المتاولة ، ثم بدأ بمهاجمة قلعة دير حنا حيث تحصن أخو ظاهر • ولو نجح سليمان باشا باحتلال هذه القلعة لقطع المؤن عن قلعة طبرية وأرهب المحاصرين فيها • ولكنه توفي في قرية لوبية قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ١١٥٦ / ٢٥ آب ١٧٤٣ • وتنفس ظاهر الصعداء[٢١] •

واستفاد ظاهر العمر من اشتغال اسعد باشا العظم بتوطيد سلطته ضد اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق ، في الفترة بين ١٧٤٣ ــ ١٧٤٦ ، فقوى نفسه • وحين تفرغ أسعد باشا من ذلك وأصبح سيد الموقف في دمشق ، لم يستأنف سياسة العنف ، التي اتبعها عمه سليمان باشا ، نحو ظاهر العمر بل اتخذ منه موقف التعايش السلمي ، في حين شدد قبضته على دروز جبل لبنان ، فما أسباب هذه السياسة ؟

لقد تكررت حملات أسعد باشا ضد أمير جبل لبنان أما بسبب مماطلته في دفع مال الميري أو بسبب تعدي سكان الجبل على منطقة البقاع الغنية التابعة لولاة

الشام • ورغم أن مسؤولية جمع مال الميري من أمير جبل لبنان تقع على والي صيدا ، فقد أمر أسعد باشا من قبل السلطان ، في ١٧٤٥ ، بالانضمام الى والي صيدا وطرابلس في حملة ضد الامير ملحم ، وتوصلوا الى تسوية معه بدفع مال الميري المتأخر • وقد أظهرت هذه الحملة لأسعد باشا ضعف دروز جبل لبنان ، واستاء هؤلاء من الحملة فردوا بمهاجمة البقاع • كما أن بعض الزرب الذين هربوا من دمشق ، أثناء قمع أسعد باشا لليرلية ، وجدوا ملجأ بين الدروز وبخاصة آل تلحوق ، وعادوا بصحبتهم يهددون الشام • ولهذا شن أسعد باشا حملة أخرى ضد الدروز في جمادى الاول ١١٦٠ / أيار ١٧٤٧ • وقد استغل أسعد باشا موسم الحصاد في جبل لبنان فنهبت قواته القرى ، وصادر الحبوب ثم باعها في دمشق بأسعار مرتفعة • صحيح أن اتلاف مؤن العدو ضرورة عسكرية ، ولكن يتساءل المرء هنا فيما اذا لم يكن توقيت الحملة مدبرا بقصد المصادرة والاثراء • ولم تصل الحملة الى اتفاق مع الدروز بسبب مماطلة والي صيدا في تأييد أسعد باشا • ورد الدروز بأن هاجموا في رجب / تموز ــ آب ، من السنة نفسها ، بعض قرى البقاع • وخرج أسعد باشا لقتالهم في ٧ شعبان / ٤ آب ، وحدثت عدة أصابات بين الفريقين • وهاجم الدروز في منتصف عام ١١١٦ / منتصف ١٧٤٨ منطقة الزبداني ، واشتركوا ، بعد ذلك ، مع الزرب في الهجوم على الشام • ويجب الاشارة هنا الى أن الأمير ملحما الشهابي لم يكن مسؤولا عن جميع هذه الهجمات، بل كانت بعض قوات الجبل تقوم ، على مسؤوليتها الخاصة ، بمهاجمة البقاع وتأييد الزرب • وما يؤكد ذلك الخلاف الذي حدث بين الامير ملحم وآل تلحوق وآل عبد الملك بسبب حمايتهم للزرب ، والذي أدى الى قتاله لهم • ويدل هذا على رغبة الامير ملحم العيش بسلام مع أسعد باشا • وبالفعل لم تحدث بعد ذلك ، اصطدامات هامة بين أسعد باشا وسكان الجبل بسبب اشتغاله بتشييد أبنيته المختلفة في دمشق • كما أن طلب أسعد باشا الى السلطان تعين أخيه مصطفى باشا على ولاية صيدا لاحكام الطوق على أمراء جبل لبنان لم يتحقق حتى ١٧٥٥ ، أي قبل عامين من عزل اسعد باشا •

وشغل الامير ملحم بدوره بمحاولة الحصول على التزام بيروت لدعم نفوذه تجاه ظاهر العمر القوي والمتاولة الذين لم يعودوا يقبلون الخضوع لامراء جبل لبنان • كما أن سلطة الامير ملحم بين المشايخ المحليين في جبل لبنان قد ضعفت كثيرا ، ولم يدفعوا له أموال الميري بانتظام ، ومن هنا جاء تأخـره في دفعها الى الدولة • وعلى هذا ، فان حصوله على التزام بيروت سيتيح له ، الى جانب النفوذ الذي سيجنيه منه ، الحصول على موارد اقتصادية اضافية • واذا كان ظاهر قد حصل على التزام عكا في ١٧٤٦ فلماذا لا يحصل الأمير ملحم على التزام بيروت ؟ • وبالفعل ، تم للأمير ملحم ذلك في حوالي سنة ١٧٤٩ •

لقد تمكن الامير ملحم من الابقاء على نفوذه تجاه المشايخ المحليين باتباع سياسة التفرقة بينهم • ولكن النقمة المحلية ضده أخذت تتعاظم ، ولم يدفع له السكان أموال الميري الا بضغط شديد • وعندما مرض الامير ملحم في ١٧٥٤ ، استغل المشايخ المحليون ذلك ، وشجعوا أخويه : الامير منصور والامير أحمد للحكم سوية مكانه • واضطر الامير ملحم ، ازاء ذلك ، الى الاستقالة ، واختير أخواه للحكم مكانه • ويعكس اختيارهما للامارة انقساما بين مشايخ جبل لبنان ؛ وقد زاد حكمهما في تدعيم هذا الانقسام • وظهر في هذه الاثناء حزبان رئيسان : الحزب الجانبلاطي ويرئسه علي جانبلاط ، والحزب اليزبكي ويرئسه عبد السلام العماد (وسمي الحزب كذلك لنسبة الى يزبك وهو جد عبد السلام) • وسنرى أثر هذا الانقسام في دراستنا الفترة التالية • وقد استفاد من ذلك ظاهر العمر •

لقد جرد أسعد باشا ، كما رأينا ، أكثر من حملة على دروز جبل لبنان ، بينما لم يجرد حملة واحدة على ظاهر العمر • ويفسر ذلك ، من ناحية ، بسهولة الهجوم على الدروز • فهؤلاء كانوا يسكنون منطقة واسعة ، ويكفي لأسعد باشا ان يهاجم قرية من قراهم حتى يعد عمله حملة ضد الدروز • ولم يكن الامر بمثل هذه السهولة بالنسبة لظاهر • فلم يكن ظاهر رئيس طائفة مثل الدروز ، بل كان رئيس أسرة ، هي أسرة الزيادنة ، التي بنت قوتها بالاعتماد على القبائل المحلية وعلى استغلال الموارد الاقتصادية في المنطقة • وان هجوم أسعد باشا على ظاهر يعني بالضرورة مهاجمة قلعتيه الحصينتين في طبرية ودير حنا • وقد فشل سليمان باشا العظم ،

قبل ذلك ، في احتلال هاتين القلعتين ، وتوفي وهو يحاصر قلعة دير حنا . وقد ازدادت استعدادات ظاهر العمر وقوته اثر هذه الهجمات . وعلى هذا ، فان قيام أسعد باشا بحملة ضد ظاهر العمر فيه كثير من المخاطرة ، وقد يؤدي الى هزيمته أو الى الاضرار بنفوذه . كما أن ظاهر العمر قد وطد سلطته ، ولم يعد مجرد ثائر بالنسبة للفرنسيين فاعترفوا به وتعاملوا معه ، وكذلك تغافلت عنه الادارة المركزية في استانبول . وقد جرت العادة ان يحدد سعر القطن في المناطق التي يسيطر ظاهر العمر على التزامها ، من قبله ومن قبل التجار الفرنسيين . ولكن ظاهر العمر ، بازدياد نفوذه بعد صد هجمات سليمان باشا العظم أصبح وحده يحدد الأسعار . و تضايق الفرنسيون من ذلك ، كما تضايقوا أيضا حين حصل ظاهر في ١٧٤٦ على التزام عكا من والي صيدا لأنه اصبح يتحكم بأحد الموانئ الرئيسة وبأهم مركز للتجارة الفرنسية . وحين بدأ ظاهر بابتزاز الأموال من التجار الفرنسيين ، ابتهلوا الى السفير الفرنسي في استانبول ليتدخل لدى السلطات العثمانية . وبالفعل ، كتب الصدر الاعظم حول هذا الموضوع الى أسعد باشا ليتدخل في الأمر ، ولكن لم يكن الصدر الأعظم وأسعد باشا جادين في معاقبة ظاهر .

وكان ظاهر العمر حريصاً ، في هذه الاثناء ، على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية ، فدفع أموال الميري بانتظام ، كما أنه قبض على عدد من الزرب الهاربين من دمشق ، وقتل بعضهم وأرسل رؤوسهم الى استانبول للتدليل على طاعته ومحافظته على القانون . وكان يهدف أيضا من ذلك الى الحصول على فرمان من السلطان تستثنى بموجبه منطقة طبرية ، التي كان يسيطر عليها ظاهر ، من دورة ولاة الشام . وقد رأى السفير الفرنسي في استانبول عدم جدية الدولة في القضاء على ظاهر لأسباب كثيرة ، منها اشتغال الدولة ، آنذاك ، بقضايا أكثر الحاحا ، وأيضا لأن ظاهر العمر تمكن من توطيد سلطته ، وان القضاء عليه سيكلف الدولة جهدا كبيرا سيما بعد أن رأت فشل حملات سليمان باشا ضده . ومادام ظاهر العمر يدفع مال الميري ، ويقيم الامن والنظام في المنطقة التي يسيطر عليها ، فلا بأس من بقائه حتى يحين وقت مناسب للدولة العثمانية للقضاء عليه . واضطر الفرنسيون ازاء ذلك ، الى توقيع اتفاق تجاري مع ظاهر في ١٧٥٣ لتنظيم التجارة بينهما .

وازدادت سلطة ظاهر بعد ذلك ، وحصل على التزام حيفا ، التي كانت تحت اشراف ولاة الشام ، كما حصل على التزام مناطق أخرى ، تابعة لولاة الشام ، مثل بعض القرى في مناطق نابلس وبلاد حارثة وجبل عجلون . وانعكس هذا التوسع على الالقاب التي اتخذها ظاهر فلقب نفسه : ضابط عكا وبلادها ، وضابط عكا وبلاد الجليل .

وبازدياد سلطة ظاهر بدأت مظاهر الانشقاق تظهر داخل أسرته . ويذكر حدوث خلافات بين ظاهر وبعض أبنائه وبخاصة عثمان ، منذ عامي ١٧٥٢ و ١٧٥٣ . ولكن هذه الخلافات التي كانت على نطاق ضيق في هذه الفترة والتي طغت عليها شهرة ظاهر ، ستستفحل في الستينات ، وستكون عاملا رئيسا في تقويض قوة ظاهر من الداخل . وسندرس عندئذ الأسباب التي أدت اليها .

الاضطرابات في بلاد الشام (١٧٥٧ - ١٧٧١) : حدثت عدة اضطرابات في بلاد الشام في هذه الفترة نشأت عن الهجوم على قافلة الحج ، وعن النزاع بين اليرلية والقابي قول ، في عهد حسين باشا بن مكي ، وعن الصراع على النفوذ ، خارج دمشق ، بين أمراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة . وبلغت الاضطرابات ذروتها باحتلال دمشق ، من قبل قوات علي بك المملوكي وظاهر العمر والمتاولة ، في حزيران ١٧٧١ .

وقد عين حسين باشا ، بمساعي الكزلار آغا ، على ولاية الشام في جمادى الثاني ١١٧٠ / ٢٥ شباط ١٧٥٧ ، عقب عزل أسعد باشا العظم . وكان تغيير الوالي مناسبة استغلتها الفئات الناقمة في دمشق للتعبير عن سخطها ضد خصومها . وقام الفقراء والعامة ، أثناء دخول الوالي الجديد الى دمشق ، وأيضا حين ذهب الاعيان الى السرايا في اليوم التالي للسلام عليه ، بتظاهرة احتجاج على ماعانوه من غلاء الاسعار والفقر في السابق بسبب جشع التجار والاعيان ، وابتهلوا الى الباشا للأخذ بيدهم ، ورجموا الاعيان ، وصاحوا عليهم أن ارجعوا لابارك الله فيكم أنتم منافقون وتعينون الحكام على ظلم الفقراء والمساكين وأكثروا من سبهم وشتمهم[٢٢] . وعمد حسين باشا الى التفتيش عن سبب الغلاء ، وانخفض سعر الخبز بمقدار النصف تقريبا . ولكن ذلك دام لفترة قصيرة .

واستغل اليرلية عزل أسعد باشا فبدأوا ينظمون صفوفهم للثأر من القابي قول الذين سلبوهم نفوذهم المطلق ، واستعد القابي قول بدورهم المدفاع • وعمت حالة من الفوضى والذعر في دمشق ، واقفلت الدكاكين • وتمرد أيضا الجنود المغاربة ، الذين فقــدوا رعاية اسعد باشا لهم ، واصطدموا بالمرتزقة من جنود الــلاوند •

وما ان غادر حسين باشا دمشق للقيام بالدورة حتى بدأت الاشتباكات بين اليرليه والقابي قول في ١٨ رمضان ١١٧٠ / ٦ حزيران ١٧٥٧ • ووقف الفقراء الى جانب اليرلية بسبب الغلاء الذي تفاقم من جديد • واستنفر القابي قول القوات المرتزقة الغريبة عن دمشق ، مثل الدالاتية واللاوند والموصلية والبغادة (نسبة الى بغداد) ، وحدث بذلك انقســام بين القوات المحلية الدمشقية التي يتزعمها اليرليه ، وبين القوات الغريبة عن دمشق التي يتزعمها القابي قول • ووقعت عدة اصابات في القتال الذي جرى بين الفريقين ، ولم يهتم حسين باشا ، بعد عودته مــن الدورة بالتحقيق حول أسباب ذلك ، او بمعاقبة المعتدين •

ومما يؤيد الانقسام في الولاء بين مختلف القوات في دمشق قيام أهل الشام « بصوت واحد » ومطالبتهم حسين باشا ، قبيل خروجه مع قافلة الحج الى الحجاز ، باخراج الغرباء من المدينة • وزاد في كره الدمشقيين لهذه القوات الغريبة ، ليس فقط استخدامها في قمعهم بل منافستها لهم في المجال الاقتصادي[٢٣] • ولم يلتزم القابي قول حدود القلعة ، بل أقاموا في الاحياء ، وبخاصة حي العمارة • ولم تجد محاولة حسين باشا مصالحة اليرلية مع القابي قول ، وسرعان ما استأنف الطرفان اشتباكاتهما في غياب حسين باشا في الحجاز • ووقف الاشراف الى جانب اليرلية ، وقد قتل القابي قول عدة أفراد منهم • ولم يخفف من حدة القتال ورود أنباء الاعتداء على قافلــة الحــج •

وقد سبق القول أن بدو بني صخر هاجموا ، في هذه الاثناء ، الجردة وقافلة الحج وأبادوهما تقريبا • وعم الحزن دمشق والعالم الاسلامي • وتمكن حسين باشا من الهرب ، ولم يعد الى دمشق بعد ذلك وتفاقم القتال ، وسط هذه الفوضى ، بين اليرليه والقابي قــول • وعين السلطان مصطفى الثالث أحد القادة العسكريين

المشهورين ، ويدعى عبد الله باشا الشتجي (أو الجته جي ، وتعني المغوار) على ولاية الشام للقضاء على الفوضى فيها ، ودخل دمشق في ٢٧ ربيع الثاني ١١٧١ / ٨ كانون الثاني ١٧٥٨ • وكان دخوله بمثابة تظاهرة قوة بسبب كثرة الجنود الذين رافقوه وتنوعهم • وسرعان مابدأ بالتفيش عن المشاغبين بين اليرلية ، فرد هؤلاء باستنفار أفرادهم واطلاق النار باتجاه السرايا • ودعا عبد الله الباشا الى ديوان حضرة الاعيان وكبار العلماء لاعطاء عمله ضد اليرلية صفة الشرعية ، ثم هاجم ، على رأس عساكره حي الميدان ، حيث تجمع اليرلية وحدث كثير من القتل والعنف ، ولا أدل على فظاعة ما حصل من قول المؤرخ المعاصر ، البديري : « واتكبت أهل الشام نكبة في ذلك العام ماعهدت من أيام تيمور »[٢٤] • وكان القضاء على نفوذ اليرلية حاسما ، ولم يستطيعوا بعد ذلك منافسة القابي قول والولاة العثمانيين وقويت السلطة العثمانية ، وعبر المؤرخ المعاصر ، ميخائيل بريك ، عن ذلك بقوله ان عبد الله باشا «فتح الشام»[٢٥] • وهذا تعبير استعمله مؤرخون اخرون فيمناسبات مشابهة للدلالة على القضاء على أصحاب النفوذ المحلي واعادة هيبة الدولة •

وتعرض الدمشقيون ، بعد ذلك ، الى شدة عبد الله باشا ومظالم اتباعه وجنوده • وقد فرض على الدمشقيين قبول عملة نقدية بطل استعمالها ، وأغلقت الدكاكين احتجاجا على ذلك • وكثر تجسس عبد الله باشا على الشعب • وقويت سلطة القاضي ، تبعالذلك ، فدار على الاسواق ، وتأكدمن صحة الموازين والاوزان • ورغم أنه قضي بذلك على كثير من الفساد ، الا أن الشعب تضايق من مظالم عبد الله باشا وأعوانه • وكان عبد الله باشا قد قرب اليه العلماء ، لاهتمامه هو بالعلم ، فنصحوه بانصاف الشعب ، وقرعه المفتي علي المرادي على مظالمه واتباعه •

وأظهر عبد الله باشا من السلطة خارج دمشق بقدر ما أظهر داخلها • وقد خرج الى الدورة تصحبه المدافع والعساكر الكثيرة • واستولى على قلعة الكرك ، وكانت في حالة مهدمة ، من يد البدو ، وحصنها ، ووضع فيها اليرلية للمحافظة على سلامة الحج • وكان عمله هذا جزءا من حماية طريق الحج من الدروز ، لاسيما وأن الكرك تقع على مسافة قريبة من القطرانة ، في المنطقة حيث هاجم بنو صخر قافلة الحج • وتدل اقامة اليرلية في الكرك على خضوعهم للاوامر والتزامهم

بمهمتهم الرئيسة في حماية القلاع على طريق الحج ، بعد أن عاد القابي قول الى حماية قلعة دمشق وأبواب المدينة وأسوارها •

ولم يصطدم عبد الله باشا بظاهر العمر أو بأمير جبل لبنان ، أثناء الدورة ، ربما بسبب انهماكه بالعودة الى دمشق لتأمين سلامة الحج ، وأيضا بسبب اشتغال ظاهر العمر وأمير جبل لبنان بالخصومات الداخلية في صفوفهما ، كما سنرى في البحث التالي • وقد أرسل عبد الله باشا حملة هزمت بني صخر •

وحين خرج عبد الله باشا في ١٧ شوام ١١٧١ / ٢٤ حزيران ١٧٥٨ على رأس قافلة الحج الى الحجاز ، رفض ان يدفع لبني صخر صرهم المعتاد • وتلقى عبد الله باشا في المدينة المنورة رسول بني حرب ، المسيطرين على الطريق السلطاني بين المدينة ومكة المكرمة ، الذي طالبه بدفع الصر • فاستغل عبد اللـه باشا هذه المناسبة ليثأر من اهمال بني حرب حماية الحجاج وتمردهم على شريف مكة ، وهاجمهم بقواته ، وقتل شيخهم عيد ، ونصب آخر مكانه ، بمشورة شريف مكة • وقد حاز انتصار عبد الله باشا رضى واسعا ، وخلده جعفر البرزنجي ، أحد علماء المدينة المشهورين ، في كتاب خاص عنوانه : النفح الفرجي في الفتح الجته جي[٢١] •

وقد تعرض بنو صخر لقافلة الجردة التي كان يقودها والي طرابلس ، بسبب رفضه ، هو الاخر ، دفع الصر لهم ، واصطدم بهم قرب منزل الحسا ، بين القطرانة ومعان • وخف لنجدته عبد الله باشا الشتجي ، في طريق عودته من الحجاز ، وهزما سوية بني صخر •

وسر الدمشقيون من تأمين عبد اللـه باشا سلامة الحج ، وامتدحه كثير من العلماء بهذه المناسبة • وأمن عبد الله باشا سلامة الحج في العام التالي • وعزل ، وهو في الحجاز ، شريف مكة مساعد بن سعيد ، وعين أخاه جعفر ، مكانه • وقد استعاد الشريف مساعد منصبه بعد قليل ، ووافق الباب العالي على ذلك • وذكر لة عبد الله باشا عزل عن ولاية الشام بسبب شكوى الشريف مساعد ضده في استانبول •

ولم يثر البرلية في دمشق اثر عزل عبد اللـه باشا في حوالي جمادى الثاني

١١٧٣ / كانون الثاني ــ شباط ١٧٦٠ ، بسبب شدة بطشه بهم سابقا ، وأيضا بسبب ماكانت تعانيه دمشق بخاصة ، وبلاد الشام بعامة ، آنذاك ، من أخطار الزلازل التي تكرر حدوثها فيها • وكانت أقواها زلزلتان حدثت الاولى منهما في ٨ ربيع الاول ١١٧٣ / ٣٠ تشرين الاول ١٧٥٩ ، والثانية في ليل ٥ ــ ٦ ربيع الثاني ٢٦ ــ ٢٧ تشرين الثاني من السنة نفسها • ورغم أن الدمار كان شاملا ، فقد قاست دمشق أكثر من غيرها • وأعقب ذلك طاعون شديد نتج من الدمار الذي احدثته الزلازل ، وشمل المنطقة بين انطاكية وحلب ، في الشمال ، وغزة في الجنوب • وكانت الوفيات في دمشق وحدها ، في أوج الطاعون الذي دام مدة اسبوع في فترة عيد الفطر ١١٧٣ ، تقدر بحوالي ألف وفاة في اليوم • وطغت أخبار هذه الكوارث وآثارها في عهد الوالي محمد باشا السالك الذي خلف عبد اللــه باشا الشتجي • وحين عزل محمد باشا السالك عن ولاية الشام ، في ٧ ٢ربيع الاول ١١٧٤ / ٦ تشرين الثاني ١٧٦٠ ، سر الناس ، لان ولايته اقترنت بالمصائب(٢٧) •

وانتقل ثقل الاحداث في القسم الأكبر من ولاية عثمان باشا الكرجي (الصادق) على الشام (١١٧٤ ــ ١١٨٥ / ١٧٦٠ ــ ١٧٧١) ، الى خارج دمشق ، حيث حدث صراع على السلطة بين أمراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وازداد الموقف تعقيدا بتدخل علي بك المملوكي في شؤون بلاد الشام في ١١٧٠ ــ ١٧٧١ •

كان عثمان باشا الكرجي مملوكا كرجي الأصل (من بلاد جيورجيا) ، وعمل في خدمة اسعد باشا العظم الذي عينه حاكما من قبله ، على حماة • وحين قتل أسعد باشا وصودرت أمواله ، بادر عثمان باشا الى اعلام السلطات العثمانية عن مخابىء أموال سيده ، فلقب بالصادق تبعا لذلك • وعين في كانون الثاني ١٧٦٠ واليا على طرابلس ، ثم نقل في ٦ تشرين الثاني ، من السنة نفسها ، الى ولاية الشام ، نظرا لخدماته للدولة ، ولتفانيه في تأمين سلامة الحج حين عين أميرا للجردة ، أثناء ولايته على طرابلس • وخلفه ابنه محمد باشا في ولاية طرابلس •

ولقد أثار تعيين عثمان باشا على ولاية الشام آل العظم الذين كانوا يطمعون بتعيين مرشحهم الجديد محمد باشا بن مصطفى باشا العظم ، واليا على الشام حيث

توطدت الأسرة ، ولاسيما وأن عثمان باشا الكرجي كان مملوكا لديهم وبنى أمجاده على حسابهم • وليس صحيحا ماذكره الجبرتي[٢٨]، ونقله عنه آخرون ، بأن عثمان باشا هو (ابن العظم) وهذه النسبة هي من قبيل اشتهار شخص ما بانتسابه الى أسرة مشهورة ، كما حدث مثلا في مطلع القرن السابع عشر ، حين عرف الشخص الذي كان ينتسب الى كيوان ، أحد كبار انكشارية الشام آنئذ ، بابن كيوان • ورغم أن محمد باشا العظم عين على ولاية صيدا في أذار ١٧٦٣ ، الا أنه بقي يسعى للحصول على ولاية الشام الى أن عين عليها في ١١٨٥ / ١٧٧١ • ومن هنا جاء النزاع بين عثمان باشا ، الذي كان يحاول ان يعين احد أبنائه علىولاية صيدا ، ومحمد باشا العظم • وقد أثار عثمان باشا الاضطرابات على محمد باشا العظم في ولاية صيدا بقصد الاساءة اليـــه •

ويبدو أن عثمان باشا كان شاعرا بأصله الوضيع وبأهمية ولاية الشام التي عين عليهاوقد وصفه الاخباري المعاصرابن الصديق[٢٩]، بأنه قليل الأصل، بالمقارنةمع آل العظم • وحاول عثمان باشا التقرب من الدمشقيين والتخفيف من المظالم التي كانت مفروضة عليهم • فخفض أسعار المواد الغذائية ، وبخاصة الخبز ، واغــدق الهدايا على الحرفيين والصناع في الاحتفالات ، وتعاون مع المفتي علي المرادي في ازالة المظالم التي فرضها الحكام في السابق على التجار والفقراء • وانقص بدل الخدمة العسكرية الذي كان يدفعه الجند الاقطاعيون ، أصحاب الزعامت والتيمار • كما أنه عمر القلاع وبرك الماء على طريق الحج ، وأمن سلامة الحجاج • وكسب عثمان باشا بهذه الاعمال المختلفة عطف الفئات المتنفذة في دمشق التي بامكانها دعم الباشا أو الثورة عليه • ولم يقم اليرلية بأية اضطرابات تستحق الذكر في عهده بسبب ما عانوه في السنوات القليلة الماضية من قمع وبطش بهم • ومكن هدوء الحالة في دمشق عثمان باشا من توجيه اهتمامه الى ظاهر العمر الذي تعاظم أمره منذ سنوات بخاصة بسبب موقف المسالمة الذي وقفه منه أسعد باشا العظم ، وبسبب الاضطرابات داخل دمشق وعلى طريق الحج التي تلت عزل أسعد باشا • وساعدت النكبات الطبيعية ، التي حلت بعد ذلك ، في الابقاء على الوضع الراهن • ويبدو أن الاضرار المادية التي نتجت من هذه النكبات قد جعلت ظاهر العمر يشدد قبضته على التجار الفرنسيين في عكا ويمد نفوذه الى مناطق أخرى خاضعة لوالي الشام ،

وذلك للتعويض مما أصابه من خسارة • ويدل ذلك في الوقت نفسه على قـوة نفـوذه •

وقد جرد عثمان باشا ، بعد حوالي شهرين من تعيينه على الشام ، حملة ضد ظاهر العمر ، بمناسبة الدورة ، واستولى على قلعة طرطورة (في الجنوب الشرقي من حيفا) العائدة لولاة الشام ، والتي كانت خاضعة لظاهر العمر • ورغم أن ظاهراً احتل القلعة من جديد ، بعد قليل ، فان الحادثة بكاملها تدل على محاولة عثمان باشا اخضاع ظاهر كما تدل على استعداد هذا الاخير للقيام برد فعل مناسب •

وقام عثمان باشا ، بعد ذلك ، بعمل أكثر جرأة ضد ظاهر العمر ، اذ حاول السيطرة على حيفا التي تخضع له نظريا ، والتي كان التزامها بيد ظاهر • وكانت حيفا قد استفادت من ازدهار عكا الاقتصادي ومن صلاحيتها لرسو السفن • وبعد محاولة فاشلة قام بها عثمان باشا لاحتلال حيفا ، من طرف البحر ، في أيار ١٧٦١ ، تمكن من احتلالها في أواخر ١٧٦١ • ولكن ظاهر العمر عاد الى احتلالها بعد قليل • وهكذا فشلت محاولات عثمان باشا للحد من سلطة ظاهر العمر • ومن أسباب فشله عدم الانسجام ، وبالتالي فقدان العمل المشترك ، بينه وبين والي صيدا • ولهذا حاول عثمان باشا الحصول على ولاية صيدا لابنه درويش باشا لتشديد قبضته على ظاهر • وكان ابن آخر لعثمان باشا ، هو محمد باشا ، واليا آنئذ على طرابلس • ولم يتم له ذلك حتى عام ١٧٧٠ ، وازدادت عندئذ العلاقات تأزما بين الفريقـين •

وكانت علاقة عثمان باشا مع أمير جبل لبنان الشهابي سلمية ، في البدء ، بسبب اشتغال الامير الشهابي بالنزاع الداخلي بين أسر جبل لبنان ، وبسبب نزاع عثمان باشا مع ظاهر العمر • ولم يمنع ذلك عثمان باشا من مهاجمة الامير اسماعيل الشهابي ، قريب الشهابيين أمراء جبل لبنان وحاكم حاصبيا التي تتبع ولاة الشام• وهدم عثمان باشا الحصن الذي بناه الامير اسـماعيل في بانياس ، وذلك لتأمين سلامة خطوط مواصلاته[٣٠] •

وشهدت الفترة بين ١٧٦٢ و ١٧٧٠ انقسامات داخلية وصراعا على النفوذ بين

أسر جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وكان عثمان باشا ، في هذه الاثناء مشغولا ، هو الآخر ، باضطرابات في المناطق الريفية من ولايته •

ذكرنا فيما سبق استقالة الامير ملحم من امارة جبل لبنان لصالح أخويه الامير منصور والامير أحمد • وما لبث الامير ملحم أن شجع ابن أخيه الامير قاسم بن عمر على منافسة الاميرين الحاكمين • وحين توفي الامير ملحم في ١٧٦١ ، فقد الامير قاسم دعمه ، وفشل بالتالي في الحصول على امارة جبل لبنان ، وتصالح أخيراً مع عميه • وأدى زوال خطر الامير ملحم والامير قاسم الى ظهور النزاع بين الاميرين الحاكمين • ولم يكن ذلك مجرد نزاع شخصي صرف ، بل كانت جذوره عميقة تتصل بالنزاع بين حزبي الجانبلاطية واليزبكية اللذين أيد كل منهما أميرا دون آخر • وان وجود الحكم الثنائي في الامارة يعكس ، في الحقيقة ، هذا الانقسام الحزبي • وعلى هذا ، فان أي صراع بين الحزبين ستنعكس آثاره على علاقة الأميرين الحاكمين مع بعضهما بعضا •

وحدث في ١١٧٧/١٧٦٣ نزاع بين الشيخ عبد السلام العماد ، زعيم اليزبكية ، والشيخ علي جانبلاط ، زعيم الجانبلاطية ، وامتد ذلك الى الاميرين ، فحاول كل منهما الانفراد بالامارة • ولم يكن سعي الأميرين الى ذلك أمرا طارئا ، اذ أن الامير منصورا حاول سابقا ، في استانبول ، الحصول على الامارة لنفسه ، وذلك بدعم والي صيدا نعمان باشا • وبالفعل ، وردت أوامر من استانبول الى والي صيدا محمد باشا العظم ، الذي خلف نعمان باشا في ١٧٦٣ ، بتأييد الامير منصور ضد الامير أحمد • ولما رأى الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، وهما من كبار مؤيدي الامير أحمد ، ازدياد سلطة الامير منصور ، انضما اليه وتخليا عن تأييد الامير أحمد الذي اضطر ، تبعا لذلك ، الى التخلي عن حصته في الامارة • وأصبح الامير منصور في ١٦٧٣ الحاكم الوحيد في جبل لبنان ، بعد حكم ثنائي دام حوالي تسع سنوات •

ولم يؤد انفراد الامير منصور بالامارة الى ازالة الانقسام الحزبي بين الاسر في جبل لبنان ، لأن جذور هذا الانقسام كانت عميقة ، وهي استمرار للانقسام

القيسي ـ اليمني ، بأشكال وأسماء أخرى ، ولم يكن وجود الاميرين سوى انعكاس لهذا الانقسام . وأدت شدة الأمير منصور واستعلاؤه على رؤساء الأسر المحليين، بدعم من والي صيدا محمد باشا العظم ، الى قيام معارضة ضده دعمت مرشحا جديدا للامارة هو الامير يوسف بن ملحم المتوفي وابن أخ الامير منصور الحاكم.

وذكر عن الامير يوسف أنه كان يؤيد عمه المعزول ، الامير أحمد ، ولهذا السبب عادى الامير منصورا . وقد رد هذا الأخير بأن استولى على أموال وممتلكات الامير يوسف ، ورفض طلب الشيخ علي جانبلاط اليه بالغاء الاستيلاء . فسحب الشيخ علي جانبلاط تأييده للامير منصور ، ودعم الامير يوسف ، وانضم اليه في ذلك الشيخ كليب نكد من الحزب الجانبلاطي وعمل الاثنان على كسب تأييد الشيخ اسماعيل ابي حمزة ، شيخ عقل الدروز ، للأمير يوسف . وقد لعب سعد الخوري مستشار الامير يوسف ، دورا كبيرا في الحصول على هذا الدعم للامير يوسف . ومهما يكن ، فان سببين رئيسيين جعلا الشيخ على جانبلاط ومؤيديه يلجأون الى هذا التبديل في الولاء : أولا ، تحول زعماء اليزبكية ، وهما الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، عن دعم الامير أحمد الى دعم الامير منصور، مما جعل من الصعب على زعماء الجانبلاطية الانضمام اليهم ، ثانيا ، تعالي الامير منصور وعدم احترامه أحدا من أكابر البلاد لانه تقوى بتأييد محمد باشا العظم ، والي صيدا . وهكذا عاد الحزبان الجانبلاطي واليزبكي ، الى التنافس من جديد .

وتمكن الامير يوسف في ١٧٦٣ من الحصول على حكم منطقة جبيل من والي طرابلس محمد باشا ، وذلك بوساطة والد محمد باشا ، عثمان باشا الكرجي والي الشام . واصطدم الامير يوسف بآل حمادة المتاولة ، وهم زعماء منطقة جبيل ،وتغلب عليهم بمساعدة مؤيديه من الحزب الجانبلاطي . واشتبك الامير يوسف ، في منطقة بعلبك ، مع طائفة أخرى من المتاولة من بني حرفوش ، وذلك بناء على أوامر تلقاها من استانبول . فسار الى بعلبك في ١٧٦٧ ، وعزل حاكمها الامير حيدر الحرفوش ، الذي حكمها منذ خمس عشرة سنة تقريبا اثر قتله أخيه الامير حسين . ولجأ الامير حيدر الحرفوش الى متاولة عامل ، ونصب الامير يوسف أحد أخوة الامير حيدر مكانه .

وتكشف أعمال الامير يوسف هذه في الاعتماد على عثمان باشا الكرجي ، والي الشام ، وفي مقارعة المتاولة ، عن اتجاه سياسته في المستقبل • كما أن هذه المعارك التي خاضها الامير يوسف كانت مفيدة له من عدة نواحي • فقد ازدادت سمعته العسكرية ، ورضيت عنه السلطات العثمانية لتنفيذه أوامرها وتوطيده الامن • كما أن نفوذ الامير يوسف قد تعاظم بين الدروز وغيرهم ، اثر ذلك ، وازداد شأنه في معارضة الامير منصـــور •

وانعكست التطورات السياسية السابقة على توازن القوى في المنطقة • وبينما اعتمد الامير يوسف ، في سعيه لتوطيد سلطنه ، على عثمان باشا الكرجي ، استمد الامير منصور العون من محمد باشا العظم والي صيدا • وقد استمرت هذه الاحلاف في المستقبل ، وساعد على ذلك طول ولاية عثمان باشا في الشام وتكرار تعيين محمد باشا العظم ، في الفترة بين ١٧٦٣ ــ ١٧٧٠ ، على ولاية صيدا • وزار الامير منصور صيدا أكثر من مرة ، وقدم مساعدة عسكرية لواليها محمد باشا العظم ضد الشيخ عباس المتوالي • وباستثناء بعض سوء التفاهم بينهما حول مال الميري ، والذي زال بعد قليل ، فان العلاقات الودية استمرت بينهما • وفي الحقيقة ، كان موقف الامير منصور تجاه مناوئيه ، بين الدروز وغيرهم ، يقرره ، الى حد كبير ، دعم محمد باشا العظم له • ووقف الامير يوسف ، من ناحيته ، الى جانب عثمان باشا الكرجي ، ودعمه بجيشه في محاولته فتح قلعة سانور التي تحصن فيها محمد جرار• وقد قام الامير يوسف بذلك على مضض ، واتهم بعدم الاشتراك جديا في القتال بسبب كون محمد جرار قيسيا مثله • ومع ذلك ، فقد عرف عن عثمان باشا أنه حامي الامير يوسف •

ونظرا للاحلاف السابقة ، فقد زاد استفحال النزاع بين عثمان باشا الكرجي ومحمد باشا العظم من شقة الخلاف بين حليفيهما الامير يوسف والامير منصور • وأن أي تبدل في سلطة الواليين من شأنه أن يترك آثاره في سلطة الأميرين • وحين عين درويش باشا ابن عثمان باشا الكرجي واليا على صيدا في ١٧٧٠ ، كان ذلك ضربة قوية لنفوذ الامير منصور ، كما سنرى بعد قليل •

واستفاد متاولة جبل عامل من اشتغال أعدائهم ، أمراء جبل لبنان ، بخلافاتهم وانقساماتهم الداخلية ، اذ انحسر خطرهم عنهم • ولكن تراخي قبضة أمراء جبل لبنان بالنسبة للمتاولة ساعد ، بالمقابل ، على تفشي الانقسام في صفوف المتاولة • وشجع على ذلك أيضا ازدهار منطقة المتاولة اقتصاديا في هذه الفترة ، وبخاصة بعد أن حصلوا على التزام مرفأ صور في ١٧٥٩ • وكانت معظم المراكب الاوروبية المتوجهة الى صيدا تفرغ بضائعها في ميناء صور الصالح لرسو السفن ، ثم تنقل البضائع في زوارق صغيرة الى صيدا • وقد ساعد على ازدهار صور زراعة التبغ في جوارها ، ثم تصدير قسم كبير منه ، عن طريقها ، الى سوقه الرئيسة في دمياط •

وعلى عكس السلطة الضعيفة لامراء جبل لبنان ، فان ازدياد سلطة ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، في المنطقة جنوبي جبل عامل ، شجعه على التدخل في شؤون المتاولة الذين ، بعد أن كانوا أعداءه ، أصبحوا بالتدريج حلفاءه • وعلى غرار انقسام الامراء الشهابيين ، فان فريقا من المتاولة أيد ظاهرا ، بينما أيد الفريق المعارض عثمان باشا الكرجي •

وكان الشيخ ناصيف النصار ، الذي ينحدر من علي الصغير ، زعيم المتاولة الاكبر في جبل عامل ، وبقي على ذلك حتى وفاة ظاهر العمر في ١٧٧٥ • وقد نافسه على السلطة عمه الشيخ قبلان الذي حصل على التزام صور من والي صيدا • وفي أواخر عام ١٧٥٩ ساءت العلاقات بين الشيخين ، ووقف معظم مشايخ المتاولة ضد الشيخ قبلان • وحين حدث الخلاف بين ظاهر العمر وابنه علي ، في أوائل الستينات ، أيد الشيخ قبلان ظاهر العمر بينما أيد الشيخ ناصيف عليا ، ولم يتمكن ظاهر العمر من تأييد الشيخ قبلان ضد الشيخ ناصيف بسبب اشتغاله ، في هذه الفترة ، بخلافاته مع أولاده • وبالتدريج ، أصبحت السلطة العليا بين المتاولة للشيخ ناصيف ، وبقي الشيخ قبلان شوكة في جنبه •

وتفاقم تمرد أبناء ظاهر العمر عليه أثناء ولاية عثمان باشا الكرجي على الشام • وكنا رأينا بداية هذا التمرد في عامي ١٧٥٢ و ١٧٥٣ • وقد عمد عثمان باشا ، بعد أن فشل في اخضاع ظاهر العمر بالقوة ، الى تشجيع الخلاف بين ظاهر وأبنائه • ونتساءل الآن عن الاسباب العميقة لهذا الخلاف في أسرة ظاهر والذي استفحل الآن •

حاول ظاهر العمر ، قبل ولاية أسعد باشاعلى الشام ، توطيد سلطته ضد القوى المحلية والولاة العثمانيين ، وبخاصة ضد سليمان باشا العظم • ولم تكن منطقته قد توسعت كثيرا ولا ثروته قد ازدادت الى درجة تثير جشع أبنائه • وكان هؤلاء آنئذ صغارا نسبيا وموالين لابيهم الذي يحاول مجابهة المخاطر • وتمتع ظاهر العمر ، في عهد أسعد باشا العظم ، بفترة سلام نسبي لاشتغال الولاة العثمانيين عنه ولتقيده يدفع مال الميري • وأدى انعدام الضغط الخارجي الى تراخي تكتل الزيادنة والى انصراف ظاهر لتوسيع مناطق نفوذه • وقد رأينا كيف حصل ظاهر في عهد أسعد باشا على التزام عكا ومناطق أخرى • وكلما ازداد توسع ظاهر وغناه ازداد طمع أفراد اسرته به • وقد تخلص ظاهر أولا من ابن عمه محمد العلي ، وبعد ذلك من أخيه سعد ، بعد أن أديا مهمتهما في المراحل الاولى من توطيد سلطته ، وأصبحا بعد ذلك خطرا كامنا يهدده • وكان التخلص منهما سابقة خافها وقلدها ، أبناء ظاهر فيما بعد ، ولاسيما ابنه عثمان الذي اشترك في اغتيال عمه سعد ، وكان أول من ثار على أبيه •

وطمع أبناء ظاهر بالاستيلاء على السلطة بعد أن بهرهم الازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة • وساعد على ذلك وجود طوائف محلية ناقمة ، مثل بدو بني صخر وبني صقر ، الذين دعموا شخصا ضد آخر ، وأيضا وجود أعداء مجاورين ، مثل الولاة العثمانيين ، الذين استغلوا الخلاف • وبالاضافة الى ذلك فان سياسة ظاهر في تزويج أبنائه من أسر الزعماء المحليين بقصد كسب تأييدهم ، على مافي ذلك من سياسة حكيمة شريطة توفر شروط أخرى ، كانت لها نتائج معاكسة اذ التفت هذه الأسر حول الأبناء الطموحين ، وبذلك تمزق الولاء الظاهر •

ولم يكن سبب الثورات هذه كثرة عدد أبناء ظاهر اليافعين • فلم يتجاوز عدد هؤلاء الخمسة ، أو ربما الستة ، في أوائل السبعينات • ورغم ذلك فلم يثوروا كلهم دفعة واحدة • ونادرا ماثار اثنان في وقت واحد • والجدير بالذكر أن أبناء ظاهر لم يثوروا على أبيهم لكي يعينهم حكاما من قبله ، فقد كانوا حكاما وثاروا طمعا بتوسيع مناطق نفوذهم • وطبيعي أن أساس قوة الزيادنة كأسرة ، وليس كطائفة دينية أو مذهب ، كما في جبل لبنان ، قد شجع الخلاف بينهم • وتوقف كل شيء على

مهارة رب الأسرة ، أي ظاهر • وقد أدى طول عهده وطبيعة حكمه الشبيه بالقبلي الى ظهور هذه المنازعات • وربما لانحيد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان ظاهر العمر قد انتصر وتوسع أكثر مما كانت طبيعة سلطته مهيأة له •

وكان ظاهر العمر قد بدأ ، بعد أخذه التزام عكا في ١٧٤٦ ونقل مركزه اليها من طبرية ، بتعيين أبنائه حكاما من قبله • فأعطى طبرية الى ابنه الاكبر صليبي ، وأعطى صفد الى علي ، وشفا عمر الى عثمان ، وصفورية الى سعيد ، وجبل عجلون ، التابع لوالي دمشق ، الى أحمد بعد أن أقام فترة مع أخيه صليبي • ويبدو أن هذا التوزيع قد استمر باستثناء مايتعلق بسعيد حتى حوالي ١٧٧٣ •

ولم تحدث ثورات من قبل أبناء ظاهر في الفترة بين ثوراتهم الاولى في ١٧٥٢ و ١٧٥٣ وبين سنة ١٧٦١ حين بدأت ثوراتهم بالاستعار ، لانهم كانوا ، آنئذ ، حديثي العهد في الحكم ، وأيضا بسبب القوة التي أظهرها عبد الله باشا الشتجي ، وتهديده للزيادنة • كما أن والي صيدا ، سعد الدين باشا العظم ، الذي عاصر الشتجي ، أعلن عداءه السافر لظاهر ، فبدأ هذا يقوي دفاعه ، والتف أبناؤه من حوله ازاء هذا الخطر المشترك • ثم أتت كوارث الزلازل والطاعون التي أصابت شدتها مناطق ظاهر ، فعم الشعور بالمصيبة • وعندما فشل عثمان باشا الكرجي عسكريا ضد ظاهر ، ساد الهدوء بينهما ، وتراخى تكتل الزيادنة • وعمد عثمان باشا الى تشجيع الخلاف بينهم •

واستؤنفت ثورات أبناء ظاهر في عام ١٧٦١ ، وحدثت عدة اصابات بين قوات ظاهر وقوات أبنائه الثائرين • وفي عام ١٧٦٢ ثار علي على أبيه ظاهر ، ودعمه اخوته من أمه • وتجدر الاشارة هنا الى أن انحدار أبناء ظاهر من أمهات مختلفات شجع التحاسد بينهم ، كما أن تفضيل ظاهر لزوجة ، وبالتالي لأولادها ، دون غيرها ، زاد في تعقيد الصراع • وقد أيد علياً كل من عثمان باشا الكرجي والشيخ ناصيف ، ووقف الى جانب ظاهر الشيخ قبلان • وقد انتهت هذه الثورة ، كسابقتها ، بالمصالحة • ثم ثار عثمان على أبيه في ١٧٦٥ بسبب حقده على الامتيازات التي نالها أخوه علي ، وزاد في ذلك كونهما من أمين مختلفتين • وتمكن ظاهر من القبض على ابنه عثمان ، وسجنه ستة أشهر ، ثم وضعه تحت الاقامة الجبرية • ولكن عثمان هرب الى المتاولة ،

ودعمه الشيخ ناصيف ، وشن عدة هجمات ، لمدة سنة تقريبا ، على مناطق ظاهر • وتعطلت المواصلات بين عكا وصيدا ، وتضرر الريف من جراء ذلك • وتدخل الامير منصور الشهابي والامير اسماعيل من حاصبيا وكبار مشايخ جبل لبنان مثل علي جانبلاط وعبد السلام العماد وكليب نكد ، وأصلحوا بين الاطراف المتنازعة • ومما يلفت النظر تجمع الفئات المتنوعة السابقة وقيامها بعمل مشترك • ويفسر غياب الأمير يوسف من بينها بعدائه للأمير منصور وبميله الى عثمان باشا الكرجي ، عدو ظاهر العمر •

وتمرد في عام ١٧٦٧ علي وسعيد على أبيهما ظاهر مطالبين باضافة مناطق أخرى لحكمها • وذكر أن عثمان باشا الكرجي حرضهما على الثورة • وقد أيدهما الشيخ ناصيف المتوالي • ولجأ ظاهر ، لأول مرة ، الى والي صيدا محمد باشا العظم ، عدو عثمان باشا الكرجي ، طالبا مساعدته ضد أبنائه ومؤيديهم من المتاولة • وأرسل محمد باشا الى ظاهر بضعة جنود لعدم تمكنه من الاستغناء عن أكثر من ذلك بسبب اشتباكه في نزاع مع الامير منصور حول مال الميري • ويفسر ظاهر المعونة من والي صيدا بحاجته الفعلية الى ذلك بسبب ارهاقه ، أو بمحاولة اسباغ الشرعية على عمله والحصول على دعم رسمي • وبعد شهر من بدء الثورة تصالح ظاهر مع أبنائه(٣١) •

وحدث في أواخر عام ١٧٦٧ انفراج في العلاقات بين معظم الفئات المتنازعة ، واستمر ذلك حتى عام ١٧٧٦ • وقد توصل محمد باشا العظم والي صيدا الى اتفاق مع الامير منصور حول مال الميري ، كما أن عثمان ، ابن ظاهر ، أصلح بين أبيه والشيخ ناصيف ، وتطورت هذه المصالحة الى تحالف بينهما بعد قليل • واشرك عثمان والشيخ ناصيف في التوفيق بين الامير يوسف والامير حيدر الحرفوش حاكم بعلبك •

وعلى خلاف الانفراج السابق ، ازدادت العلاقات تأزما بين ظاهر العمر وعثمان باشا الكرجي بسبب محاولة عثمان باشا اللجوء الى القوة لاسترجاع مقاطعات ولايته التي استولى عليها ظاهر • وقد حال دون هجوم عثمان باشا على ظاهر ، قبل الآن ، سببان رئيسان : أولا ، عدم دعم الادارة المركزية العثمانية لعثمان باشا ، وكانت

استانبول تعلم أن قوة ظاهر قد ازدادت الى درجة كبيرة ، وان اي هجوم عليه ستكون له مضاعفات خطيرة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية مشغولة في حربها التي بدأتها مع روسيا في عام ١٧٦٨ • ثانيا ، ان محاولة عثمان باشا تعيين ابنه درويش على ولاية صيدا ، لتمكينه من احكام الطوق على ظاهر في وقت كان فيه ابنه الآخر محمد باشا يحكم طرابلس ، لم تنجح حتى ايلول ١٧٧٠ • وعندما تم هذا انفجر الموقف بمساعدة عوامل خارجية ، وذلك بتدخل علي بك المملوكي في شؤون الشام •

وكان عثمان باشا ، أثناء ولايته على الشام ، قد شدد قبضته على المناطق الريفية ، على عكس سياسته في دمشق • فتمرد عليه سكان الرملة ويافا في عام ١٧٦٧ • وحدثت ثورات أخرى ضده ، في السنوات التالية ، في مناطق متفرقة من فلسطين • وقد أشار علي بك في البيان الذي وزعه في بلاد الشام ، حين هجومه عليها ، الى مظالم عثمان باشا هذه ، واستغلها ضده • وبطش عثمان باشا بالثائرين ، ولجأ بعضهم الى ظاهر العمر الذي كان يدعمهم • وكانت سياسة عثمان باشا هذه حاسمة في تحول سكان الريف ضده أثناء هجوم قوات علي بك •

وما أن عين درويش باشا على ولاية صيدا في ايلول ١٧٧٠ حتى اشتد تهديد عثمان باشا لظاهر العمر • وبدأ ظاهر يعزز تحصيناته في عكا ، واستنفر قواته • وانتشرت ، في هذه الاثناء ، شائعات في صيدا حول غزو مرتقب من قبل علي بك لغزة • وتأكد في صيدا في ٤ كانون الثاني ١٧٧٠ نبأ احتلال قوات علي بك غزة والرملة •

حملة علي بك على بلاد الشام واحتلال دمشق: بلغت الاضطرابات ذروتها في بلاد الشام باحتلال دمشق في حزيران ١٧٧١ من قبل قوات علي بك وظاهر العمر وناصيف النصار • وكان هذا الحادث نتيجة تطورات حدثت في مصر ، بقدر ماكان انعكاسا لانحطاط الادارة المركزية العثمانية ولضعف سلطة عثمان باشا والي الشام • وسندرس في قسم لاحق الاسباب والاوضاع المحلية التي أدت الى تسلط علي بك في مصر والى حملته على بلاد الشام • وقد نتج من احتلال دمشق اضطراب عميق في ميزان القوى في بلاد الشام ، وفقد ولاة الشام في أعقاب ذلك سيطرتهم المحلية •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر واختبر مقدرة قواته في القضاء على منافسيه في الداخل وفي الحملة الناجحة الى الحجاز في ١٧٧٠ ، وجه أنظاره نحو بلاد الشام • واستغل اشتغال الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا ، دامت من ١٧٦٨ الى ١٧٧٤ ، للقيام بحملته • وذكر أن علي بك عقد اتفاقا مع الكونت أورلوف، قائد الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط ، في الربع الأخير من عام ١٧٧٠ ، للحصول على مساعدته العسكرية ، وذلك بعد أن هزم الاسطول الروسي الاسطول التركي في البحر الابيض المتوسط في موقعة تشسما في ٥ تموز ١٧٧٠[٣٢]•وكان علي بك على خلاف شخصي مع عثمان باشا الكرجي والي الشام بسبب نزاع بينهما في الحجاز عام ١٧٦٤ ، حين كان الاول أميرا على الحج المصري والثاني أميرا على الحج الشامي • وحرض عثمان باشا ، بعد ذلك ، أعداء علي بك في مصر ضده • وهرب علي بك الى غزة في رمضان ١١٧٩/آذار ١٧٦٦ ، ولكن عثمان باشا أمر متسلمه في غزة بطرد علي بك ، فعاد الى مصر • وفي شوال ١١٨٢/شباط ١٧٦٩ اشتكى علي بك الى السلطان ضد عثمان متهما اياه بايواء المصريين الفارين ، وطالب بعزله •

وكان علي بك عالما بنقمة سكان الريف في ولاية الشام على عثمان باشا ، وذلك نتيجة لجوئه الى غزة ، وأيضا بواسطة شكاوي غزة اليه من ظلم عثمان باشا • ولهذا ادعى علي بك في بيانه الى سكان بلاد الشام ، الذي وزعه أثناء الحملة ، أنه قادم لانقاذهم من عثمان باشا • ويبدو أن علي بك قد تعرف ، أثناء لجوئه الى غزة ، على مدى قوة ظاهر العمر • ولكن لايعقل أن اتفاقا أو تحالفا قد عقد بينهما ، في تلك الاثناء ، لأن علي بك كان مجرد لاجيء ، ولم يكن ظاهر متأكدا من سلطته في المستقبل في مصر • وعلى هذا ، فلم يكن علي بك في وضع يسمح له بالتأثير في ظاهر ، كما أن ظاهر العمر لم يكن آنذاك مضطرا ، من الناحية العسكرية ، للتحالف مع (بك) لاجيء وعدو لعثمان باشا لأن ذلك سيغضب والي الشام • وقد اعتاد ظاهر وسكان غزة على رؤية البكوات الهاربين اليهم من مصر ، لأن غزة والصعيد هما المكانان المفضلان للجوء الزعماء المنهزمين من القاهرة • ومضت أربع سنوات تقريبا قبل أن تحدث اتصالات جدية بين ظاهر العمر وعلي بك ، وذلك قبيل بدء الحملة على

بلاد الشام . وفي أوائل ١٧٧٠ زود علي بك ظاهر العمر بمبلغ من المال لتجنيد الجنود له . وكان هذا بداية التحالف بينهما .

ليس بغريب أن ينصب الفاتح نفسه مدافعا عن حقوق السكان المحليين ليكسب تأييدهم . ولكن هل يعقل أن يكون علي بك قد أرسل آلاف الجنود الى الشام وتكبد كل هذه الجهود ليطرد عثمان باشا ، كما ادعى في بيانه ؟ ان ذلك مجرد دعاية ليكسب الى جانبه عطف سكان بلاد الشام المتألمين حقا من عثمان باشا ، ولاضفاء بعض الشرعية على عمله لتلافي ظهوره بمظهر الثائر على السلطان . وحين انسحب محمد بك أبو الذهب ، قائد حملة علي بك ، من دمشق بعد فتحه لها ، وادعى بخبث أمام علي بك في مصر انه فعل ذلك بعد تنفيذ مهمته بطرد عثمان باشا ، انزعج علي بك لأن خطته الكبرى قد فشلت . وكان أبو الذهب يستخدم هدف علي بك الظاهري حجة لتبرير تآمره على علي بك . أما خطة علي بك الكبرى وهدفه الحقيقي من الحملة فكانا اعادة تأسيس السلطنة المملوكية التي ضمت سابقا بلاد الشام ومصر . وسنرى في قسم لاحق كيف أن علي بك المملوكي قد مثل ذروة قوة المماليك في مصر في العهد العثماني . ويذكر أن علي بك قد قرأ كتب التاريخ وانه قال مرة لبعض خاصته : « ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك ... وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها »[٣٣] .

تحركت قوات علي بك من مصر برا باتجاه بلاد الشام في رجب ١١٨٤/ تشرين الثاني ١٧٧٠ . واحتل اسماعيل بك ، قائد هذه القوات ، غزة والرملة في النصف الثاني من تشرين الثاني برضى أهلها الذين كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا . وأعلن الحكام المماليك الجدد في المدينتين الغاء ضريبة مال الميري لمدة أربع سنوات. وكان الهدف من ذلك الدعاية وحمل قرى فلسطين على عدم مقاومة الفاتحين . وقد اعلنت عدة قرى من التي أرهقتها مطالب عثمان باشا ولاءها لعلي بك[٣٤] .

وهرع عثمان باشا الكرجي من دمشق لصد عدوان قوات علي بك ، ودخل يافا ، في وجه معارضة أهلها له ، للدفاع عنها . ويدل هذا على مدى النقمة المحلية ضده . وحين رأى عثمان باشا انضمام ظاهر العمر الى اسماعيل بك وتصميمهما على قتاله ، انسحب من يافا في ٩ كانون الاول ، وارتد الى دمشق ، بعد أن يئس من

وصول المعونة التي وعده بها ابن جرار حاكم قلعة سانور • واحتلت قوات اسماعيل بك وظاهر العمر ، بعد ذلك ، يافا ، وكسب الحليفان ميناء آخر الى جانب عكا التي كانت بيد ظاهر ، واستخدماه لانزال المعدات المنقولة بحراً من مصر •

ولم تحدث أية اشتباكات في الفترة بين عودة عثمان باشا الى دمشق في ١٨ كانون الاول وتهديد اسماعيل بك وحلفائه الحج الشامي في المزيريب في أواخر كانون الثاني ١٧٧١ ، والسبب في ذلك مرض ظاهر العمر في هذه الفترة واستعداد الاطراف المعنية للخطوة التالية • وكان اسماعيل بك حريصا ، في هذه الاثناء ، على عدم تبديد قوته في فتح القدس وقلعة سانور ، الخاضعتين لعثمان باشا ، لأن ذلك سيعرضه الى مخاطر بامكانه تفاديها ، كما أن هذه الاماكن هي مراكز دفاعية أكثر منها هجومية ، وسيضطر في حال فتحها الى التخلي عن قسم كبير من قواته لتعسكر فيها ، لذلك تجنبها • وكان اسماعيل بك ينتظر أيضا النتائج التي سيحدثها فيدمشق ارسال بيان علي بك الى أهلها الذين استلموه في كانون الاول ١٧٧٠[٣٥] • وقد أكد علي بك في بيانه على ناحيتين أساسيتين : الاولى ، أنه ليس خارجا على السلطان ، ووصف نفسه بانه قائم مقام في مصر وأمير الحج سابقا ، والثانية ، أنه آت لانقاذ السكان من مظالم عثمان باشا • وأشار الى اعتداء عثمان باشا على علماء غزة وعلى الحجاج والتجار ، واستشهد علي بك بأحاديث شريفة لتبرير عمله ، وذكر أن المذاهب الاربعة أباحت له قتال عثمان باشا • وطلب أخيرا من الدمشقيين تأييده ، وأعلمهم أنه سيعين أميرا للحج الشامي من قبله • وقد عقد ديوان في دمشق ، حضره عثمان باشا ، للتداول في أمر البيان ، وقرر المجتمعون اعلام السلطان بذلك •

وخرج عثمان باشا من دمشق في ٨ شوال ١١٨٤/٢٥ كانون الثاني ١٧٧١ ، على رأس قافلة الحج الشامي ، متوجها نحو الحجاز • وخف اسماعيل بك وحلفاؤه الزيادنة والمتاولة الى المزيريب للاستيلاء على امارة قافلة الحج • ورغم اصرار ظاهر على تنفيذ ذلك مهما كانت النتائج ، فان اسماعيل بك تراجع خوفا من ايذاء الحجاج• ويدل هذا على تدينه الذي بلغ ذروته ، فيما بعد ، حين اقنع أبا الذهب للانسحاب من دمشق لان عمله مخالف لرضى الله والسلطان • وقد احتج ظاهر العمر لدى علي بك على موقف اسماعيل بك المتخاذل • وكان علي بك يستعد لارسال قوات اضافية

الى بلاد الشام ، وبالفعل غادرت بضعة آلاف منها مصر الى بلاد الشام في آذار ١٧٧١ •

وبدأت تصل الى دمشق ، في هذه الاثناء ، القوات العثمانية التي عينها السلطان لقتال المعتدين • وعين نعمان باشا ، والي أورفة ، واليا على مصر وصارى عسكري (قائدا عاما) على القوات العثمانية في بلاد الشام • ويبدو أن وصول هذه القوات الى دمشق قد أرهب اسماعيل بك وظاهر العمر ، وتجدد الخلاف بينهما حول مهاجمة قافلة الحج في طريق العودة • وانفض « الحلفاء » ، فذهب اسماعيل بك لحصار ابن جرار في سانور ، وتوجه المتاولة الى بلادهم ، وحاول زعيمهم الشيخ ناصيف احتلال صيدا ، وعاد ظاهر الى منطقة صفد • وقدم عثمان باشا بقافلة الحج الى دمشق بسلام • وكان ذلك ضربة لنفوذ ظاهر العمر الذي فشل في أخذ زمام المبادرة من حلفائه • وحين قدم محمد بك أبو الذهب بعد قليل ، من مصر على رأس قوات اضافية وتسلم قيادة العمليات ، فقد ظاهر العمر كل أمل له بالسيطرة على الحملة ، ولم يعد يقود قوات الزيادنة بنفسه بل كلف بذلك ابناءه •

وصل محمد بك أبو الذهب وقواته الى الرملة في ٣ صفر ١١٨٥/١٧ أيار ١٧٧١ • وقدم اليه الزيادنة والشيخ ناصيف ولاءهم ودعمهم • وسارت قواتهم المشتركة فوصلت سعسع، قرب دمشق، في ١٨ صفر ١١٨٥/٢ حزيران ١٧٧١ ، دون أن تلقى أية مقاومة • وكان تفوق قوات أبي الذهب باديا بسبب تنظيمها وتسليحها، وقد سبق أن ظفرت في حملتها الى الحجاز • أما القوات المدافعة عن دمشق فكانت تتألف من أنواع متنافرة من الجنود الذين لاتجمع بينهم رابطة قوية ، مثل التي جمعت بين المماليك ، وتنقصهم القيادة الفعالة •

تلقى عثمان باشا في ١٧ صفر/١ حزيران انذارا من أبي الذهب يطلب اليه فيه مغادرة دمشق حالا ، ويعلمه بتعيينه حاكما عليها • وبدأ عثمان باشا يستعد للقتال ، وخرجت طلائع قواته ، بدون أي تنظيم ،للتمركز في داريا ،ولكن أبا الذهب هزمها في ١٩ صفر/٣ حزيران • وانتقل القتال بعد ذلك الى أطراف دمشق •

ولم تستغل القوات المختلفة المجتمعة في دمشق هذه المناسبة للاصطدام ببعضها بعضا أخذا لثأر أو تصفية لخلاف سابق بينها ، فالخطر كان شديدا يهدد وجودها •

وقد رأينا كيف أن اليرلية ضعفوا في السنوات السابقة اثر البطش بهم ، ولكنهم لم يتخلوا عن نفوذهم بكامله . وحين خرج عثمان باشا للدفاع عن يافا رافقه اليرلية ، الى جانب القوات المرتزقة وبقايا الجند الاقطاعيين ، مما يدل على انصياع اليرلية لأوامر الباشا . وحدث أثناء تراجعه الى دمشق خلاف بين اليرلية واللاوند المرتزقة فعاد كل منهما عن طريق مختلف الى دمشق . وبعد الهزيمة في سعسع في ٣ حزيران، بدأ الجند العثمانيون ، الذين أرسلهم السلطان لحماية دمشق ، يهربون باتجاه بلادهم ، وهاجم بعضهم أحياء دمشق الخارجية مثل الميدان والصالحية لنهبها ، وبدأ أهلها يطلقون النار عليهم . وبرز الآن للدفاع عن دمشق أبناء دمشق ، أي اليرلية والسكان المحليون ، وكذلك القابي قول الذين أوكلت اليهم حماية القلعة وأسوار وأبواب المدينة . وكان آغا اليرلية هو يوسف بن جبري .

وبعد مناوشات بين المهاجمين والمدافعين في حي الميدان وباب الجابية ، بين ٢٠ — ٢٢ صفر/٤ — ٦ حزيران ، هرب عثمان باشا من دمشق ، وهو الذي لم يتجشم قيادة جنوده لقتال أبي الذهب . وبدأت المفاوضات بعد ذلك بين علماء وأعيان المدينة وبين أبي الذهب لحقن الدماء . وصمم أبو الذهب على احتلال دمشق، وتم له ذلك في ٢٤ صفر/٨ حزيران . وامتنعت القلعة عن الاستسلام . وساد الوجوم بلاد الشام واستانبول ، بينما عمت الفرحة في مصر حيث نظم علي بك الاحتفالات .

وانسحب أبو الذهب فجأة من دمشق في ٥ ربيع الاول ١١٨٥/١٨ حزيران ١٧٧١ ، وعاد الى مصر . وكان ذلك مفاجأة للسكان المحليين ولحلفائه ولأعدائه ولرؤسائه . وذكرت عدة أسباب في تفسير تراجعه ، وفيها جميعا بعض الصحة . فقد ذكر أنه انسحب بسبب عدم استسلام قلعة دمشق ، وان اسماعيل بك أخافه بأن عمله مخالف لرضى الله والسلطان ، وان أبا الذهب خشي القوات التي أمر السلطان بتوجيهها ضده ، وأن الصرة أميني (المسؤول عن الصرة التي يرسلها السلطان الى الحجاز مع قافلة الحج) قد وعد أبا الذهب ، في اجتماع بينهما في دمشق ، بالتوسط لدى السلطان لصالحه ، وأن عثمان باشا الكرجي أبلغ أبا الذهب بأن السلطان قد وعد بتعيين أبي الذهب مكان علي بك في مصر . ومهما يكن ، فان

انسحاب أبي الذهب يدل على تبدل موقفه تجاه علي بك • وبالفعل ، فقد اصطدم بعلي بك حين عاد الى مصر ، وطرده واحتل مكانه[٣٦] •

الصراع على النفوذ في بلاد الشام (١٧٧١ – ١٧٧٥)

نتج من تدخل علي بك في شؤون الشام واحتلال أبي الذهب لدمشق ثم انسحابه منها ، اضطراب في ميزان القوى في بلاد الشام • واشترك في الصراع على النفوذ لملء الفراغ السياسي الذي حدث بعد انسحاب أبي الذهب كل من عثمان باشا الكرجي وظاهر العمر والأمير يوسف الشهابي والمتاولة • وقد عاد أبو الذهب المتدخل من جديد في بلاد الشام ، اثر مقتل علي بك • وتلا ذلك التدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر • وقد أظهر ولاة الشام في هذا الصراع ضعفهم وانعدام مبادرتهم السياسية مما أتاح المجال لظهور أحمد باشا الجزار الذي ملأ الفراغ السياسي في المنطقة بين ١٧٧٦ و ١٨٠٤ •

عاد عثمان باشا الكرجي الى دمشق في ١٣ ربيع الاول ١١٨٥/٢٦ حزيران ١٧٧١ ، وبدأ بالقضاء على معارضيه ، فقتل يوسف بن جبري آغا اليرلية الذي اتهمه بالتواطؤ مع أبي الذهب ، وصادر أمواله الكثيرة • وكان ذلك محاولة من عثمان باشا لفرض هيبته من جديد وللحصول على المال • كما أنه استرضى بذلك كثيرا من الدمشقيين المعارضين لابن جبري مثل سليمان المحاسني الذي ألف فيه رسالة البغي والتجري في ظهور ابن جبري • وازداد عثمان باشا غرورا عندما وصله فرمان الاستمرار في الحكم من استانبول في ١٩ ربيع الثاني/١ آب ، وشكره السلطان على همته وأثنى على شجاعته • ولم يغب عن أذهان الدمشقيين أن عثمان باشا قد زيف الحقائق لدى السلطان وامتدح جهده في طرد أبي الذهب •

وحاول عثمان باشا الكرجي ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب أبي الذهب ، فهب لنجدة ابن جرار ، صاحب قلعة سانور ، ضد تهديد ظاهر العمر له • ولكنه هزم في القتال الذي جرى بينه وبين ظاهر قرب بحيرة الحولة في ٢٢ جمادى الاول ١١٨٥/٢ ايلول ١٧٧١ ، وعاد الى دمشق في ٦ ايلول • وكان عثمان باشا قد استنجد بالأمير يوسف الشهابي ، ولكن هذا تباطأ عن نجدته •

وكانت تجري ، في هذه الأثناء ، تطورات هامة في ولاية صيدا أدت الى ازدياد قوة ظاهر العمر واصطدامه السابق بعثمان باشا ، والى تباطؤ الأمير يوسف الشهابي عن نجدة عثمان باشا . ويجب الرجوع قليلا الى الوراء لتقصي أسس هذه التطورات . فقد حدث أثر احتلال أبي الذهب لدمشق ، أن هرب درويش باشا بن عثمان باشا الكرجي ، من ولاية صيدا في ١١ حزيران ، رغم دعم الامير يوسف الشهابي له والحاحه عليه بالبقاء . وتسلم ظاهر والمتاولة حكم مدينة صيدا . ولكن الامير يوسف الشهابي ، الذي طغى نفوذه ، في جبل لبنان ، على الامير منصور الحاكم الاسمي ، استولى بمساعدة مؤيده الشيخ علي جانبلاط ، على صيدا في ٢٠ حزيران . ولم يدافع عنها ظاهر والمتاولة لانهم كانوا مشتغلين بانسحاب أبي الذهب من دمشق .

وقد احرج موقف ظاهر والمتاولة اثر رجوع أبي الذهب الى مصر . ولكن علي بك بقي على اتصال مع ظاهر ، ووعده بارسال قوات أخرى ، ولذلك احتلت قوات ظاهر يافا لاستقبال المعونة من علي بك ، بينما احتلت قوات عثمان باشا الكرجي غزة والرملة . وكان هدف ظاهر العمر من مهاجمته لابن جرار تجريد عثمان باشا من حليفه القوي هذا . ومن شأن هذا الهجوم أيضاً أن يبقي أبناء ظاهر ملتفين حول أبيهم ، ويعطي دليلا آخر لعلي بك على مقدرة ظاهر العسكرية . وبالفعل ، نقل ظاهر الى علي بك أنباء انتصاره على عثمان باشا قرب بحيرة الحولة .

واهتم ظاهر ، بعد انتصاره الاخير ، بانتزاع صيدا من درويش باشا . وكان يدعم درويش باشا ، الذي عاد الى صيدا بعد عودة والده عثمان باشا الى دمشق ، الأمير يوسف الشهابي الذي اختاره ، قبل قليل ، أعيان جبل لبنان المجتمعون في الباروك خلفا للامير منصور الذي اعتزل الحكم . وكان الأمير منصور قد أيد أبا الذهب ، بناء على نصيحة ظاهر ، وذلك بعد أن احتل أبو الذهب دمشق . وكانت غاية الامير منصور اضعاف خصمه الأمير يوسف الذي أيد عثمان باشا . ولكن انسحاب أبي الذهب وعودة عثمان باشا الى دمشق وازدياد نفوذ الأمير يوسف ، تبعا لذلك ، جعلت الأمير منصورا يعتزل الحكم في عام ١٧٧١ . ومع ذلك ، بقي الامير منصور يشكل خطرا على الامير يوسف بسبب دعم ظاهر العمر له . كما أن المتاولة ، حلفاء ظاهر ، أثاروا الاضطرابات على الامير يوسف ، فتوجه لقتالهم . وتمكن

المتاولة ، بمساعدة ظاهر ، من الانتصار على الأمير يوسف في النبطية في ٢٠ تشرين الاول ١٧٧١ • وانسحبت في اليوم التالي من صيدا قوات الامير يوسف ، برئاسة الشيخ علي جانبلاط ، وكانت تدعم درويش باشا فيها ، فاضطر هذا الى الانسحاب بدوره • وفي ٢٣ تشرين الاول سقطت صيدا في يد قوات ظاهر والمتاولة ، التي دخلتها من البر ، وقوات علي بك ، التي دخلتها من جهة البحر • وكانت قوات علي بك قد وصلت منذ أيام قليلة من مصر ، واحتلت غزة والرملة ويافا • ولم يكن أبو الذهب قد أعلن بعد عن عدائه لعلي بك •

عزل عثمان باشا وأبناؤه عن ولايات الشام وصيدا وطرابلس في ١٣ رجب ١١٨٥/٢٢ تشرين الاول ١٧٧١ • وعين على ولاية الشام محمد باشا العظم الذي يمثل الجيل الثالث من حكام آل العظم في الشام • ولم تحدث أية اضطرابات في دمشق اثر تغيير الوالي بسبب شعور المهانة الذي سيطر على طوائفها العسكرية • وقرب محمد باشا العظم اليه اليرلية والقابي قول ليتمكن بمساعدتهم من جمع المال اللازم في دمشق لتمويل قافلة الحج ، لاسيما وأنه لم يتمكن من الخروج للدورة بسبب معارضة ظاهر العمر • وكان ظاهر يسيطر ، مع قوات حليفه علي بك ، على معظم مناطق فلسطين الغنية • وهاجم علي بن ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، المناطق التابعة لدمشق ، واستولى على مال الميري فيها • وقد أرهق الدمشقيون أيضا بطلب المال منهم من قبل نعمان باشا قائد القوات العثمانية المعينة لاخضاع علي بك في مصر •

وخرج محمد باشا العظم بقافلة الحج الى الحجاز ، وعاد بها الى دمشق بسلام • ولكن صيحات الاستغاثة من سكان الريف ، في ولاية الشام ، كانت تترى على سلطات دمشق لانقاذهم من تعديات علي بن ظاهر • ولم تكن القوات المتجمعة في دمشق ، بما في ذلك قوات القائد العثماني الجديد عثمان باشا الوكيل ، أو المصري ، الذي خلف نعمان باشا وعين واليا على مصر ، في وضع يمكنها من فرض سيطرتها على بلاد الشام الجنوبية حيث طغى نفوذ ظاهر • وقد حاول محمد باشا العظم وعثمان باشا الوكيل التفاوض مع ظاهر للتوصل الى اتفاق معه ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل • وكان ظاهر مهددا بثورات جديدة من قبل أبنائه • وحاول كسب الوقت بالمفاوضة ريثما يتأكد من سيطرة حليفه علي بك في مصر • وجرت ، في هذه الاثناء ،

أحداث هامة في مصر ، وانتقل اثرها ، بعد قليل ، الى بلاد الشام ، واختل بنتيجة ذلك توازن القوى في بلاد الشام ومصر .

هرب علي بك من مصر في ٢٥ محرم ١١٨٦/٢٨ نيسان ١٧٧٢ ، اثر نزاعه مع أبي الذهب ، ولجأ الى ظاهر العمر . ومع أن قيمة التحالف بين علي بك وظاهر العمر قد انعدمت وأصبح علي بك عبئا على حليفه ، فلم يغتنم والي الشام محمد باشا العظم ، أو قائد القوات العثمانية عثمان باشا الوكيل ، الفرصة لاستعادة زمام المبادرة العسكرية . والقيت مسؤولية مقاومة ظاهر وعلي بك على الزعماء المحليين مثل مصطفى بك طوقان متسلم نابلس وأبي مرق حاكم غزة سابقا [٣٧] .

وبدأت الاحداث تسير بسرعة ، وأخذ كل من الفرقاء المعنيين يعمل لاهدافه الخاصة . فالامير يوسف الشهابي كان يطمع بالسيطرة على صيدا من ظاهر والمماليك، ولذلك رمى بثقله وراء السلطات العثمانية لتحقيق ذلك . وكان ظاهر حريصا على عدم التخلي عن المناطق التي يحتلها . أما علي بك فكان هدفه الرئيسي اعادة سلطته في مصر ورؤية ظاهر موطد السلطة ليحميه من القوات العثمانية البرية . وكان المتاولة ، بحكم كراهيتهم لأمراء جبل لبنان ، الى جانب ظاهر وعلي بك .

وظهر الآن الاسطول الروسي على المسرح العسكري ، واقتربت مراكبه من حيفا في ١ حزيران ١٧٧٢ لدعم علي بك وظاهر العمر تنفيذا لاتفاق سابق مع علي بك . وكان للطرفين مصلحة في ذلك ، فالروس يودون خلق المشكلات للدولة العثمانية التي كانوا مشتبكين معها في حرب كبرى ، وعلي بك وظاهر يريدان انقاذ نفوذهما . وبناء على طلبهما ، توجه الاسطول الروسي الى بيروت لتحطيم المراكب العثمانية فيها ولاشغال الأمير يوسف بالدفاع عنها . فقصفها بالمدافع في ١٨ حزيران ، وأنزل فيها قواته التي مالبثت أن انسحبت منها في ٢٣ حزيران بضغط الأمير يوسف الذي كان يحكم بيروت . وكان الأمير يوسف قد لجأ ، اثر انتصار ظاهر العمر عليه في ١١ حزيران ، الى عثمان باشا الوكيل وطلب منه حماية بيروت ، فأرسل اليها طائفة من الجند كان على رأسهم أحمد بك الجزار الذي اشتهر فيما بعد[٣٨] .

وعاد علي بك الى مصر في أوائل آذار ١٧٧٣ ، تدعمه بعض قوات ظاهر ، لقتال

أبي الذهب . واصطدمت قواتهما في الصالحية ، حيث تلتقي الصحراء بالدلتا ، في ٥ صفر ١١٨٧/٢٨ نيسان ١٧٧٣ ، وجرح علي بك ، ثم توفي بعد أيام .

واحرج ظاهر العمر سياسيا وعسكريا ، اثر وفاة علي بك ، لا لانه خسر دعما عسكريا ، اذ أن علي بك كان يحتاج قبل موته الى الدعم ، ولكن لانه فقد حليفه الذي بدأ الثورة على العثمانيين ، وتركزت الانظار عليه وحده الآن . كما أن أبا الذهب ، بعد أن تخلص من تهديد علي بك ، وجه جهده لاحكام الطوق ، مع العثمانيين ، على ظاهر الذي بدأ يقوي دفاعه في عكا .

وحدث الآن انقلاب في ميزان القوى . فبعد أن أتى الامير يوسف الشهابي بالجزار للدفاع عن بيروت ، بدأ الجزار يزيد من قوته ، وتحدى الامير يوسف . ولم تجد محاولة استنجاد الامير يوسف بسلطات دمشق للضغط على الجزار .فاتجه الامير يوسف نحو ظاهر والمتاولة ، وكانوا أعداءه سابقا ، وتحالف معهم في ٩ حزيران ١٧٧٣ ، بعد أن شعروا بعزلتهم وضعفهم . وطلب هؤلاء الحلفاء من الاسطول الروسي مهاجمة بيروت لاخراج الجزار منها ، فهاجمها ، وهرب الجزار ولجأ الى ظاهر ، ثم ما لبث أن هرب منه أيضا وذهب الى دمشق .

وبدأت المفاوضات بين ظاهر العمر والسلطات العثمانية في دمشق للمصالحة . ورغم أنها لم تؤد الى نتيجة ، فقد أظهرت تزايد ضعف موقف ظاهر . وكان الزمن يسير لصالح السلطات العثمانية فعزلت في تموز ١٧٧٤ عثمان باشا الوكيل ، قائد القوات العثمانية ووالي مصر ، بعد أن ضمن أبو الذهب الموالي لها خضوع مصر . وذهب أبو الذهب أبعد من ذلك فجهز جيشا وخرج به من مصر في أوائل محرم ١١٨٩/أوائل آذار ١٧٧٥ لقتال ظاهر . وخضعت له غزة والرملة ويافا وعكا وصيدا، وهرب ظاهر . وقد تآمر علي بن ظاهر مع أبي الذهب ضد أبيه . ولكن أبا الذهب توفي في عكا في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩/١٠ حزيران ١٧٧٥ ، وعاد جيشه الى مصر .

وما كاد ظاهر العمر يتخلص من خطر أبي الذهب ، حتى أرسلت الدولة العثمانية قوة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء عليه . وكانت الدولة قد انتهت في سنة ١٧٧٤ من حربها مع روسيا بتوقيع معاهدة كجك قاينارجة ، وهي على وشك

الاصطدام مع حاكم فارس كريم خان زند ، فأرادت ، في هذه الاثناء ، التخلص من خطر ظاهر الذي أقلقها عدة أعوام • واستسلمت حيفا الى حسن باشا في ٧ آب١٧٧٥ ، فانتقل منها الى حصار عكا ، مركز ظاهر • وذكر أن مستشار ظاهر ، عبود الصباغ ، قد رفض شراء انسحاب حسن باشا بالمال بسبب بخله • وخان أحمد الدنكزلي ، قائد المغاربة الذين كانوا في خدمة ظاهر ، سيده • وحين حاول ظاهر الهرب قتلـه مغاربته في أواخر آب ١٧٧٥ • ووصل والي الشام محمد باشا العظم الى ضواحي عكا بعد مقتل ظاهر ، ويعكس ذلك ضعف سلطته وفقدانه المبادرة السياسية(٤٠) •

وهكذا انهار حكم ظاهر العمر ، وقتل معظم أبنائه بعد سنوات من مقتل أبيهم • ونشأ عن ذلك فراغ سياسي في بلاد الشام الجنوبية ، ولكن سرعان ما ظهر أحمد باشا الجزار وملأ هذا الفراغ •

سيطرة أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ — ١٨٠٤) : كان أحمد الجزار مملوكـا بشناقي الاصل بدأ عمله في استانبول ، ثم اشتهر في مصر حيث خدم عدة أشخاص من بينهم علي بك ونال في مصر رتبة البكوية ، ولقب بالجزار لشدة بطشه ببدو اقليم البحيرة • وانتقل بعد ذلك ، مع بعض مماليكه ، الى بلاد الشام ، وكلف من قبل سلطات دمشق بحماية بيروت ، ولكنه تمرد على حاكمها الامير يوسف الشهابي • وقد عينه السلطان ، اثر القضاء على ظاهر ، محافظا لعكا • وحين عزل والي صيـدا العثماني ، ملك محمد باشا ، في ١٨ كانون الاول ١٧٧٥ ، أرسل الجزار متسلما الى صيدا ليحكمها باسمه • وفي ١١ آذار ١٧٧٦ دخل أحمد الجزار صيدا واليـا عليها من قبل السلطان ، وأعطي رتبة وزير بهذه المناسبة •

وعلى نقيض ظاهر العمر الذي « ورث » الالتزام في منطقة صفد طبرية عن أبيه ، وبقي طيلة حياته في عداد الملتزمين ، فان أحمد باشا الجزار ، أشبه بآل العظم ، اشتهر في بلاد الشام كوال ، وحكم ، مثلهم ، مدة طويلة • ولكن الجزار ، على نقيض آل العظم ، حافظ على سلطته واستمر واليا بالقوة ، وهو بهذا أقرب الى ظاهر العمر الذي اعتمد على القوة في ابقاء نفوذه • ويختلف عن ظاهر العمر ، ومن قبله فخر الدين المعني الثاني ، بأنه مغامر غريب عن المنطقة التي توصل الى حكمها ، في حين أن ظاهرا وفخر الدين ورثا السلطة المحلية ، بمقادير مختلفة ، عن أبويهما •

ويتشابه الجزار مع المماليك الذين حكموا في بغداد والبصرة في هذه الفترة بأنه مملوك مثلهم ، واعتمد ، كما اعتمدوا هم ، على المماليك في تدعيم قوته . ويتشابه معهم أيضا في أن السلطان رضي بوجوده ، رغم ازدياد سلطاته وبطشه ، بسبب قوته واخضاعه القوى المحلية والخارجية . وبتعيين أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا ، انتقل زمام المبادرة السياسية في بلاد الشام الجنوبية من ولاة دمشق اليه ، وأصبحت دمشق تدور في فلك قوته .

لقد كان احتلال أبي الذهب لدمشق في ١٧٧١ ضربة قاصمة لنفوذ ولاتها . لم تلعب السلطات العثمانية في دمشق ، سواء الوالي أو قائد القوات العثمانية فيها (الصاري عسكر) ، أي دور سياسي هام في توجيه الاحداث في الفترة بين ١٧٧١ و ١٧٧٥ ، أو في القضاء على الثائرين . فقد قتل علي بك من قبل محمد أبي الذهب، وتوفي هذا الاخير بمرض مفاجيء في عكا . اما ظاهر العمر فقد أمكن القضاء عليه بعد فقده حليفه القوي علي بك . وقد ازداد ضعف ظاهر اثر هجوم أبي الذهب عليه وبفعل ثورات أبنائه . وجاءته الضربة الحاسمة على يد الاسطول العثماني بقيادة القبطان حسن باشا ، ثم قتل بتآمر جنوده المرتزقة عليه . ولم يشترك والي الشام محمد باشا العظم في تصفية الثائرين هؤلاء . وحين ظهر الجزار ، بعد ذلك ، وبدأ يهتم باخضاع المتاولة وأمراء جبل لبنان ، لم يعد لولاة الشام من مشاغل كبرى خارج دمشق سوى تأمينهم سلامة الحج . ولكنهم تعرضوا الآن الى مؤامرات الجزار الذي أخذ يسعى بجد للحصول على ولاية الشام .

وقد سبق القول ان محمد باشا العظم عين على ولاية الشام في ١٣ رجب ١١٨٥/٢٢ تشرين الاول ١٧٧١ ، اثر عزل عثمان باشا الكرجي . وبقي محمد باشا واليا على الشام (باستثناء فترة قصيرة بين ربيع الاول ١١٨٦ وجمادى الثاني ١١٨٧/ حزيران ١٧٧٢ وآب ١٧٧٣) حتى وفاته في ١٣ جمادى الاول ١١٩٧/١٦ نيسان ١٧٨٣ . وكان هدف محمد باشا في ولايته تأمين سلامة الحج وزيادة نفوذه ونفوذ أسرته في دمشق ، لا سيما وأن امكانية تسلطه على القوى المحلية خارج دمشق كانت محدودة بسبب سيطرة الجزار واهتمامه باخضاع أمراء جبل لبنان والمتاولة . وحين حاول

محمد باشا التدخل في منازعات أمراء جبل لبنان ، لم يستطع الثبات أمام منافسه الجـزار •

ولم تحدث اضطرابات في دمشق في عهد محمد باشا العظم بسبب الاخطار التي أحدقت بدمشق في أول ولايته ، وأيضا بسبب تجمع القوات العثمانية في دمشق مما فرض الهيبة في نفس أهلها • وحين قضي على الثائرين الذين هددوا سلطة ولاة دمشق ، ساد الهدوء • وازدهرت الحركة الاقتصادية في دمشق بسبب ازدهـار قافلة الحج من جديد ولم يعوز محمد باشا الحزم عندما استدعت الظروف ذلك • وقد قتل آغا اليرلية عثمان بن شبيب دون أن يثير ذلك اليرلية • صحيح أن عثمان هذا كان ، في الاصل ، صنيعة محمد باشا العظم الذي أتى به الى هذا المنصب ، وصحيح أيضا أن آغا اليرلية لم يعد يمثل ، في الواقع ، مصالح اليرلية المتباينة ، بدليل أن آغا اليرلية السابق يوسف بن جبري قد قتل ولم يثأر اليرلية له ، ولكن مما ساعد محمد باشا على السيطرة على اليرلية ومنحه دعما كبيرا في دمشق اشغال أفراد كثيرين من آل العظم المناصب العليا في طائفة اليرلية • ويصف خليل المرادي حالة الهدوء في دمشق في عهد محمد باشا العظم بقوله : « وراقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لاهلها العيش ونامت الفتن وسلم الناس من الاحن »[٤١] • ولعل اعجاب المرادي بسيرة محمد باشا حين يقول : « وبالجملة فهو أحسن من أدركناه من ولاة دمشق » يفسر لماذا لم يذكر المرادي في كتابه « سلك الدرر » ترجمة أحد من آل العظم ، باستثناء محمد باشا • ومما يجدر ذكره أن خليل المرادي أصبح مفتياً في عهـد محمد باشا •

وقد أتاح هذا الهدوء لمحمد باشا أن يقوم ببناء عدة أبنية في دمشق كالسوق الذي بناه بين سوق الاروام والقلعة ، كما رمم أبنية اخرى مثل السرايا ومحكمـة الباب • وعمر القاعة والبركة في منزل بئر الزمرد على طريق الحج •

وكان الجزار مشغولا ، في هذه الاثناء ، بتوطيد سلطته ، وقد قضى ، بالاشتراك مع القوات العثمانية الموجودة في المنطقة ، على أولاد ظاهر العمر الثائرين في عام ١٧٧٦ • كما أنه استولى على بيروت من الامير يوسف في السنة نفسها ، كما يبدو ،

وفي عام ١٧٨١ أخضع الجزار المتاولة ، وقتل الشيخ ناصيف ، وأخذ مدينة صور منهم •

وشرع الجزار في تقوية دفاعه ، واتخذ عكا مركزا له • وكان يقيم فيها حوالي عشرة أشهر ويقيم المدة الباقية في صيدا التي كانت مركز الولاية الرسمي • وقد استفاد من تطوير ظاهر العمر لعكا ومن التحسينات التي أدخلها في الزراعة والتجارة والى الموانى •

واستخدم الجزار جيشا من المماليك والمرتزقة ضم البشانقة والارناؤوط والاكراد والمغاربة وعمد ، لتمويل هذا الجيش ، الى الحصول على المال بأية طريقة • وقد صادر أموال التجار الاجانب ، مما أضر بالنشاط التجاري • وابتز الاموال من الفلاحين فهجر كثير منهم قراهم • وكان الريف قد افتقر بفعل الاضطرابات التي حدثت فيه ، فنقصت بنتيجة ذلك الموارد الاقتصادية • ولجأ الجزار الى أعمال السخرة في تحصين عكا ، وطلب الى الفلاحين تقديم خدماتهم مجانا ، مما أضر بالزراعة• وقد نتج من أعمال الجزار هذهومن الاضطرابات السابقة في المنطقة ، بما في ذلك الدمار الذي أحدثته جيوش أبي الذهب أثناء هجومه للقضاء على ظاهر ، والتخريب الذي حدث في بيروت بنتيجة هجوم الاسطول الروسي عليها ودفاع الأمير يوسف والجزار عنها ، ثم الدمار الذي أحدثته قوات القبطان حسن باشا ، نتج من ذلك كله انحطاط النشاط الاقتصادي في بلاد الشام الجنوبية •وبقيت دمشق أحسن حالا من غيرها بسبب استفادتها من تجارة قافلة الحج • ولم يقابل هذا الانحطاط التجاري في الجنوب انتعاش في تجارة منطقة حلب لان هذه المنطقة قاست بدورها من الاضطرابات التي سادت على الجبهة الفارسية ومن انعدام الامن على الطرق الرئيسية • وكان هذا الانحطاط الاقتصادي العام في بلاد الشام نهاية فترة بالنسبة للنشاط التجاري الانكليزي والفرنسي فيها • وانتقلت المبادرةالتجارية الانكليزية في الشرق الادنى من شركة بلاد المشرق الى شركة الهند الشرقية التي اعتمدت على طريق البحر الاحمر(٤٢) •

ولجأ الجزار ، بسبب حاجته الى المال ، الى الضغط على الملتزمين في منطقته وشدد قبضته بخاصة على الامير يوسف لاضعافه • واضطر الامير يوسف ، بعد أن

خسر بيروت ، الى فرض الضرائب على سكان الجبل لارضاء طلبات الجزار المالية • وازدادت المقاومة المحلية ، تبعا لذلك ، للامير يوسف ، وتشجع اثنان من اخوته ، وهما الامير أفندي والامير سيد أحمد ، على المطالبة بامارة جبل لبنان لهمـا . ودعمهما الجزار والفئات المعارضة للامير يوسف • واضطر الامير يوسف ، ازاء الضغط عليه ، الى التنازل عن الامارة لاخويه ، ولجأ الى محمد باشا العظم يطلب دعمه له • وعندما رأى الجزار تفوق الامير يوسف ، بعد ذلك ، في النزاع مع أخويه بدأ يدعمه • وقد تمكن الامير يوسف من استعادة امارته على جبل لبنان • وقتل الامير أفندي • ولجأ الامير سيد أحمد الى محمد باشا العظم ، ولكن الامير يوسف ، الذي دعمه الجزار ، هزمهما في موقعة في البقاع عام ١٧٨١ • وبقي الجزار يتحكم بشؤون الامير يوسف ، وتسبب بعزله في ١٧٨٨ • واعتلى الامارة في جبل لبنان الامير بشير الشهابي المشهور • وحاول الجزار اثارة الامير يوسف على الامير بشير لابتزاز المال منهما ، ودبر في عام ١٧٩٠ قتل الامير يوسف بسبب تواطئه مع مماليك الجزار الذين ثاروا عليه في السنة السابقة • ثم سعى الجزار ، فيما بعد ، الى اثارة ابناء الامير يوسف على الامير بشير •

وحاول السلطان عزل الجزار بسبب ازدياد نفوذه ، ولكن الجزار تحدىأوامر السلطان بعزله ، وطرد الباشا الذي عين مكانه • واضطر السلطان الى التغاضي عنه ، لا سيما وأن الجزار كان يوطد الامن في منطقته ، وقد أصبح قويا الى درجة يصعب معها عزله بسهولة • وينطبق هذا الامر على علاقة السلطان بولاة بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر •

توفي محمد باشا العظم في ١٣ جمادى الاول ١١٩٧/١٦ نيسان ١٧٨٣ • وانتهى بموته الجيل الثالث من الولاة من آل العظم في القرن الثامن عشر • وكان ابنـه عبد الله باشا واليا ، آنذاك ، على طرابلس ، وقد عين واليا على الشام، أكثر مـن مرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر • واشتهر ابن آخر لمحمد باشا هو يوسف باشا الذي عين ، في عهد أبيه ، واليا على طرابلس أحيانا •

وكان الجزار يطمع بالوصول الى ولاية الشام • وذكر شاهد عيان في عكـا

أن الجزار عد تعيينه على الشام أمرا مفروغا منه ، بعد وفاة محمد باشا العظم ؛ وبدأ يتقبل التهاني بهذه المناسبة . وقد خاب ظنه اذ عين محمد باشا بن عثمان باشا الكرجي واليا على الشام . وحين توفي محمد باشا في ٩ شعبان ١١٩٧/١٠ تموز ١٧٨٣ ، ازدادت آمال الجزار بالحصول على ولاية الشام ، ولكن السلطان عين عليها ابنا آخر لعثمان باشا الكرجي ، هو درويش باشا . وأخيرا عين الجزار على الشام اثر عزل درويش باشا في ١٨ ربيع الثاني ١١٩٩/٢٨ شباط ١٧٨٥ . وقد عين الجزار بعد ذلك ثلاث مرات على الشام .

وبعد تعيين الجزار على ولاية الشام حدثا هاما في تاريخ الصراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية . وعوضا من أن يمد ولاة الشام نفوذهم على ولاية صيدا ، كما جرت العادة قبل ذلك حين عين أبناء أو أشقاء والي الشام ولاة على صيدا وطرابلس لتشجيع والي الشام على دعمهم ، حدث العكس الآن . وبقيت ولاية صيدا ، ومدينة عكا بخاصة ، مركز قوة الجزار ، كما عين مملوك آخر ، يدعى سليمان ، على ولاية طرابلس في الوقت نفسه .

وتعرضت دمشق أثناء ولاية الجزار الى كثير من ظلمه ، وكان مهتما بصورة خاصة بجمع المال . وقد جهر الدمشقيون بالشكوى ضده الى السلطان فعزله عن الشام في ١٣ صفر ١٢٠١/٥ كانون الاول ١٧٨٦ . ومما يدل على ضعف مختلف القوى في دمشق عدم مقاومتها لمظالم الجزار ، على عكس مواقفها الجريئة ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، في مقاومة الولاة الظالمين . وكأن هذه القوى أرادت أن تثأر للذل الذي لحق بها في عهد الجزار ، ومن سبقه من الولاة الذين بطشوا بها ، فثارت على ابراهيم باشا الذي عين على ولاية الشام في ١٧ جمادى الثاني ١٢٠٢/٢٥ آذار ١٧٨٨ ، واشتبك في نزاع مع آغا القابي قول . ولكنه بطش بها . ويدل اشتراك مختلف القوى في عمل موحد ضد ابراهيم باشا على المصالح المشتركة التي جمعت بينها وعلى الضعف الذي لحق بها مما جعلها تتآزر مع بعضها بعضا .

وما لبث الجزار أن عين من جديد على ولاية الشام في ٣ شوال ١٢٠٥/٥

حزيران ١٧٩١ ، وعاد الى ممارسة الظلم وابتزاز المال ، أكثر مما سبق ، دون أن يجرأ أحد على مقاومته بسبب شدة بطشه • وتكررت هذه المظالم في ولايتيه التاليتين على الشــام[٤٣] •

وازداد الجزار عنفا وشدة اثر قضائه على ثورة قام بها مماليكه ضده ، وأوشكوا أن يطيحوا به • وقد قامت الثورة في ٧ شعبان ١٢٠٣/٣ أيار ١٧٨٩ ، بقيادة اثنين من كبار مماليك الجزار المقربين اليه ، وهما سليم باشا وسليمان باشا ، وذلك احتجاجا في الظاهر على محاولة الجزار معاقبة بعض مماليكه • ويبدو أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو الصراع على النفوذ بين الجزار وكبار مماليكه الذين توصلوا ، مثله ، الى أن يكونوا ولاة • وتمكن الجزار، بمساعدةقواته من الارناؤوط والمغاربة، من القضاء على الثورة •

وبقي الجزار ، بعد ذلك ، سيد الموقف في بلاد الشام • ولم يهدد سلطته خطر كبيرا الى أن غزا نابليون بونابرت بجيوشه مصر ، في صيف عام ١٧٩٨ ، وتوجــه في أوائل العام التالي الى احتلال بلاد الشام • وقاومت عكا الهجوم ، وارتد نابليون على أعقابه • وتعد الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام بداية مرحلة جديدة في تاريخ البلدين ، تميزت بالتدخل الغربي ، على مختلف المسويات ، في شؤونهما ، وبردود الفعل المحلية على ذلك •

الاشراف في حلب :مارس الاشراف في ولاية حلب ، في القرن الثامن عشرسلطة سياسة لم يعرفها أمثالهم في أي مكان في الدولة العثمانية آنذاك[٤٤] • ويبــدو أن السبب في ذلك هو أن الاشراف ، في ولاية حلب ، كانوا الطائفة الوحيدة التي أمكن للسكان المحليين أن يعبروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وأن يقاوموا ظلم الانكشارية • ويمكننا تفسير هذا الامر بأن قرب حلب من مركز العثمانيين،ووقوعها بمتناول قواتهم التي كانت تغدو وتجيء باستمرار من الجبهة الفارسية ، قد أبقى الجنود الانكشاريين فيها أكثر مناعة تجاه محاولات السكان المحليين في الانضمام اليهم ، على نقيض ما حدث في ولاية الشام ، حيث تحولت الفرق الانكشارية الى يرلية ، بنتيجة التحاق السكان المحليين بها • وكان ذلك بمثابة متنفس لهؤلاء السكان

عبروابواسطته عن قوتهم، في عهد ضعف الدولة. ومثلما وقف برلية دمشق يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم القابي قول ، وقف أشراف حلب يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم الانكشارية . ونتج من ازدياد نفوذ الاشراف في حلب وحاجة رؤسائهم للدعم المحلي ان حدث كثير من اساءة الاستعمال بالنسبة لامتيازات الاشراف ، مما جعل نقيب الاشراف يوجه عدة مذكرات الى القضاة المحليين لوضع حد لذلك . وقد أمر بالتدقيق في صحة النسب ومنع استعمال العلامة الخضراء بدون حق ، وهي العمامة الخضراء التي يستعملها الاشراف عادة للدلالة على نسبهم .

وقد انتسب كثير من أعيان حلب الى الاشراف للاستفادة من امتيازاتهم وللعمل بواسطتهم ، على فرض نفوذهم السياسي في المدينة . وكان كثير من أصحاب المالكانات والملتزمين في ولاية حلب ، من الاشراف . وقد لعب نقيب أشراف حلب محمد بن أحمد طه زاده ، منذ أوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، دورا سياسيا هاما في المدينة وأصبح مساعده ابراهيم قطر أغاسي محصلا في حلب ، ثم واليا عليها في أوائل القرن التاسع عشر . وقد ازداد نفوذ الاشراف في عهد محمد قدسي افندي ، الذي اصبح نقيب الاشراف ومفتي حلب في عام ١٧٩٣ ، وتعاون مع ابراهيم قطر أغاسي . ورغم معارضة جناح من الاشراف ، من آل الجابري ، لزعامة محمد قدسي أفندي ، مثلما عارض الاشراف من آل الكواكبي زعامة شبلي أفندي ، فقد اعترف بزعامة هذين النقيبين في حلب، وبمعارضتهما الانكشارية. وبلغ من تنظيم الاشراف وقوتهم أن الدولة أرسلتهم الى مصر لمقاومة حملة نابليون بونابرت[٤٥] .

وقد اشتبك أشراف حلب مع الانكشارية ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، في منازعات دامية . وكثيرا ما ثار الاشراف مباشرة ضد الحكم العثماني ، كما حدث مثلا في ١١ آب ١٧٧٠ . وقد حدث أعنف اصطدام بين الأشراف والانكشارية في رمضان ١٢١٢/شباط ١٧٩٨ ، والتجأ فريق من الاشراف الى جامع الاطروش ، قرب القلعة ، وذبح الانكشارية معظمهم . وقام الصراع بين هاتين الطائفتين في نواحي حلب ، وبخاصة عنتاب .

ولم يلعب الاشراف في دمشق دورا هاما كالدور الذي لعبه أسمياؤهم في حلب نظرا لان السكان المحليين وجدوا متنفسا لقوتهم ونفوذهم من خلال الانكشارية البرلية • ويمكننا اعتبار ظهور الاشراف بهذه القوة في ولاية حلب ، وقيام البرلية بدور سياسي هام في ولاية الشام ، جزءا من ظاهرة عامة لفرض النفوذ المحلي ، بأشكال مختلفة ، في الولايات العربية •

ازدياد نفوذ البدو : تعرض العثمانيون ، منذ احتلالهم بلاد الشام في عام ١٥١٦ ، الى خطر تمرد البدو وتعدياتهم ، سواء في البقاع ، أول الامر ، في عهد اسرة آل الحنش ، أم على الطريق الرئيسة ، بين حلب ودمشق ، أو على طريق الحج السلطاني ، الذي ربط دمشق بالحجاز • وتمكن العثمانيون ، بالقوة أحيانا ، أو بشراء خضوع القبائل بالمال ، أحيانا اخرى ، من تسوية الامور مع هذه القبائل • وكان يتم ذلك بصورة مؤقتة نظرا لتبدل هوية هذه القبائل ، بين الفترة والاخرى ، وما ترتب على ذلك من ضغطها المتجدد على سلطات المدن • وطبيعي أن موقف السلطات هذه كان يمليه ، الى حد كبير ، ما كانت عليه الادارة العثمانية في استانبول من قوة وضعف •

ومما يجدر ذكره أن فخر الدين المعني الثاني قد فرض سيطرته ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، على القبائل البدوية في البقاع ، وحوران ، وفلسطين ، ومد نفوذه الى مناطق الريف حتى أنطاكية وحلب شمالا ، والى مناطق البادية حتى تدمر شرقا ، وقد لقبه السلطان مراد الرابع بأمير عربستان ، ولقب هو نفسه بسلطان البر • وتعرض العثمانيون بعد مقتله في عام ١٦٣٥ ، الى صعوبات في السيطرة على القبائل ، التي استغلت ذلك للعودة الى تعدياتها ، مما عرض كثيرا من القرى الى خطرها ، فهجرها اهلها ، كما لاحظ ذلك الرحالة الفرنسي تيفينو(٤٦) ، الذي زار بلاد الشام في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر • وفي عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، حاول العثمانيون فرض سيطرتهم على القبال التركمانية والبدوية ، ولاقوا صعوبات كبيرة في التعامل مع هذه الاخيرة •

وقد سيطر الموالي من آل أبي ريشة على المنطقة الممتدة بين الفرات ، بين عانه القرن السابع عشر قبائل الموالي ، التي تدعى النسبة الى قبيلة طيء القحطانية ،

وكان أمراؤها من أسرة أبي ريشة ، وأحيانا اطلق هذا الاسم على القبيلة بكاملها • وكان الامراء قبل ذلك ، من أسرة الحيار ، وعرف الموالي بهذا الاسم تبعا لذلك ، اذ كانت العادة أن تكني القبيلة بكنية زعيمها •

وقد سيطر الموالي من آل أبي ريشة على المنطقة الممتدة بين الفرات ، بين عانه على مجراه الاوسط في الشرق (وسيطرت بعد ذلك ، حتى البصرة ، قبائل المنتفق)، وحلب في الشمال ، وحماه وحمص في الغرب ، وحوران في الجنوب ، ولقب أميرهم، بسبب سلطته الكبيرة ، بأمير الصحراء أو حاكم البر • واصطدم الموالي ببدو السردية في حوران وأوقفوا توسع قبائل بني خالد ، الذين اتجهوا ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، من منطقة الاحساء ، في شمال شرقي الجزيرة العربية ، نحو حمص والسلمية •

واختلفت علاقات الموالي بالسلطات العثمانية بين وقت وآخر • فحين لمس العثمانيون بهم ضد قبائل المنتفق ، التي تحالفت مع حاكم البصرة من آل أفراسياب • على الموالي • وقد تعاون أمير الموالي ، خالد العجاج ، ابان الاحتلال الصفوي لبغداد بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، مع الصفويين ، وهاجم ، بناء على أوامرهم ، أطراف حلب • ولكن خلفه خرج على الصفويين ، بعد أن استماله العثمانيون بهبات من المال والاراضي • وقد فشل العثمانيون ، بعد استعادتهم بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٨ ، في السيطرة على هذا الامير (الموالي لهم) ، حين أرسلوا حملة ضده في عام ١٦٤٤ ، ولجأوا بعد ذلك الى شراء ود الموالي • وفي عام ١٦٥٥ استنجد بهم ضد قبائل المنتفق ، التي تحالفت مع حاكم البصرة من آل افراسياب •

وقد قام بدو السردية ، وبخاصة بدو بني خالد ، بعد هزائمهم الاولى على يد الموالي بسلسلة من الهجمات ضدهم ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، ضعف الموالي على اثرها • وفي أوائل القرن الثامن عشر رمى بدو شمر ، الخارجين من الجزيرة العربية ، بثقلهم ضد الموالي • ولكن الضربة الحاسمة للموالي كانت على يد قبائل العنزة ، التي خرجت من نجد في تلك الفترة • وقد تمزق الموالي ، اثر ذلك ، وانسحبوا الى مناطق حلب وحماة ، وتركوا البادية لقبائل العنزة •

وقد تسربت قبائل العنزة على دفعات ، فأتى منها أولا الحسنة وولد علي ، ثم تلاهما الفدعان والسبعة والعمارات ، وأخيرا الرولة • ودام هذا التسرب أكثر من عام ، وتسارعت حركته في أواخر القرن الثامن عشر بتأثير ضغط الوهابيين •

وعندما وطدت العنزة قدمها في البادية اندفعت القبائل الصغيرة ، خوفا منها ، الى مناطق الاطراف • وانحصر الموالي في المنطقة الواقعة بين حلب وحماة ،واقتصرت شمر على منطقة الجزيرة ، في شمال شرقي بلاد الشام • واندفع زعماء السردية ، الذين تزعموا مجموعة من القبائل الصغيرة ، ضمت بني صخر وبني صقر ، الى مناطق نهر الاردن وفلسطين ، وتحولت الزعامة بالتدريج لبني صخر •

ولا شك أن انحطاط السلطة العثمانية لم يكن السبب المباشر ، أو الوحيد ، لهجرة قبائل العنزة الى بادية الشام ، فهناك الجفاف ، وكثرة السكان ، وضغط القبائل بعضها على بعض ، في الجزيرة العربية ، التي أسهمت في هذه الهجرة • ولكن انحطاط السلطة ساعد العنزة على توطيد نفوذهم ، فسيطروا على طريق الصحراء ، وبخاصة التي تربط بغداد بدمشق ، وفرضوا الضرائب على التجار والمسافرين •

وتضايقت القبائل الصغيرة من قدوم العنزة ، الذين نافسوها في أسباب معاشها ، وبخاصة المساهمة بنقل الحجاج الى الحجاز ، وغطوا على نفوذها محليا • وتشجع الولاة ، كما رأينا في مثال باشا العظم ، فاستغلوا ضعف هذه القبائل ، وفرضوا عليها الضرائب وكانت ردود فعلها عنيفة عندما واتتها الظروف • ونتج أيضا من تحركات قبائل العنزة ، حسب الفصول ، وتوسعها في الربيع طلبا للمرعى، وارتدادها الى الداخل في الشتاء ، ان اثر ذلك في القبائل في الاطراف ، فاندفعت الى داخل الريف ، أو تراجعت عنه ، تبعا لذلك ، وترتب على هذا اصطدامها بالفلاحين والسلطات المدنية[٤٧] •

الاسر الحاكمة والمماليك في العراق

مثلما شجع انحطاط السلطة العثمانية ، وقيام ظروف محلية خاصة ببلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، على ظهور الحكام من آل العظم ، واقامة ظاهر العمر

« امارته » وازدياد نفوذ اليرلية ، وكذلك القبائل البدوية ، فان انحطاط السلطة العثمانية ، وقيام ظروف محلية خاصة بالعراق ، شجع على قيام حكم متوارث في كل من بغداد والموصل وحكم مملوكي في كل من بغداد والبصرة •

وأهم الظروف المحليةفي العراق كونه منطقة حدود، وازدياد تسلط الانكشارية في بغداد ، والقبائل البدوية في الريف • وتعرض العراق أكثر من مرة ، في القرن الثامن عشر ، الى هجمات حكام بلاد فارس ، الذين اختلفت هوياتهم ومذاهبهم بشكل متكرر ، وانعكس ذلك على أطماعهم في العراق • ولهذا ، فان الحاجة العسكرية في الدفاع عن الحدود هي التي جعلت السلطان العثماني يعترف بوجود الحكام الاقوياء في العراق ، مثل آل الجليلي في الموصل ، وحسن باشا وابنه أحمد باشا ، ومن بعدهما مماليكهما ، في بغداد والبصرة • ولم تجد محاولات السلطان الاطاحة بهم ، رغم اتهامهم أحيانا بالخيانة للعثمانيين ، واستمروا في الحكم بسبب عجز السلطة عن استبدالهم •

وكانت ولايات العراق قد شهدت ، منذ استرداد العثمانيين بغداد في عام ١٦٣٨ ، تطورات عامة • ففي عام ١٦٦٧ قضى العثمانيون ، في عهد آل كوبريلي ، على أسرة أفراسياب الحاكمة في البصرة • ولكن خطرا آخر واجههم في تلك المنطقة تمثل في قبائل المنتفق ، بزعامة مانع بن مغامس ، الذي احتل البصرة في عام ١٦٩٤ • ولم يتمكن والي بغداد من استعادتها ، فشجع والي الحويزة الصفوي على القيام بذلك اعتقادا منه بولاء هذا الوالي للعثمانيين ، ولكن والي الحويزة احتل البصرة والقرنة باسم الصفويين • ولم يتكمن والي بغداد من استعادة البصرة حتى عام ١٧٠١ ، بعد أن تقوى بنجدات عثمانية هرعت الى العراق من أوروبا ، اثر توقيع صلح كارلوفيتز في عام ١٦٩٩ •

وكان قد تعاقب على بغداد ، في الفترة بين ١٦٣٨ و ١٧٠٤ ، أربعة وثلاثون واليا ، لم يبلغ أحد منهم الشهرة التي بلغها حسن باشا الذي عين عليها في عام ١٧٠٤ • وقد ولد حسن باشا في عام ١٦٥٧ ، ودرب في سراي السلطان في استانبول وشغل عدة مناصب قبل تعيينه على بغداد • وطبق في هذه الولاية النظام الذي ربي عليه

في اسنانبول ، فاستقدم شبانا من بلاد الكرج والقفقاس ، ودربهم كمماليك فيمدرسة أقامها لهذا الغرض ، وعلمهم مبادىء القتال والدين الاسلامي • وبلغ عددهم في البدء مائتين ، وعهد اليهم ، بعد تخرجهم بالمناصب الادارية والعسكرية العليا في الولاية • وبالتدريج ، أصبح هؤلاء المماليك قوة هامة وازنت بل فاقت قوة الانكشارية والبدو ، وعين منهم الكاخيا (الكتخدا) أي مساعد الوالي • وجدد حسن باشا الديوان • الذي حضره ، الى جانب الوالي ، كل من الكاخيا ، والقاضي ، والخزينة دار ، والدفتردار ، والديوان افندسي • واستمر هذا النظام في عهد أحمد باشا ، الذي خلف أباه حسن باشا في عام ١٧٢٤ ، وفي عهد مماليكهما من بعدهما بدءا من عام ١٧٤٧ وحتى عام ١٨٣١ • واتاحت المدة الطويلة ، التي حكم خلالها كل من حسن باشا وابنه أحمد باشا لهما تهيئة هذا الجهاز الاداري والعسكري المملوكي ، والذي مكنهم من معارضة قرارات استانبول(٤٨) •

وقد تقرب حسن باشا من السكان المحليين بالغائه الضرائب على المواد الغذائية وعلى الاخشاب المستوردة الى بغداد • وجدد جامع السرايا • وتمكن بالقوة والدبلوماسية من اخضاع القبائل الكردية واليزيدية المتمردة في الشمال ، كما أنه ، في عام ١٧٠٨ ، وجه حملة الى منطقة البصرة هزم فيها قبائل المنتفق ، الذين هددوا الولاة العثمانيين في البصرة • واضطر الى ارسال حملات اخرى حتى أمكنه اخضاع الشيخ مغامس • ولما كان والي البصرة عاجزا عن الصمود بمفرده في وجه المنتفق فقد عهد العثمانيون الى حسن باشا بمهمة الدفاع عنها وتعيين واليها فسلمها الى كاخياه ، وهو زوج ابنته ، مصطفى آغا • وبذلك أصبحت البصرة تابعة للاسرة الحاكمة في بغداد •

وبعد ركود على الحدود العراقية ــ الفارسية استمر منذ معاهدة ١٦٣٩ أخذت هذه الحدود بالنشاط ، في أواخر ولاية حسن باشا ، وفي أعقاب سيطرة محمود الافغاني في بلاد فارس وانهائه مؤقتا السلالة الصفوية في عام ١٧٢٢ • ووجد العثمانيون الفرصة سانحة للتوسع في بلاد فارس ، لمقاومة الافغانيين الذين نافسوهم في زعامة العالم الاسلامي ، وللحيلولة دون انفراد القيصر الروسي بطرس الاكبر في احتلال مناطقها الشمالية • وكان هذا القيصر قد احتل قسما من هذه

المناطق المنتجة للحرير في عامي ١٧٢١ ــ ١٧٢٢ ، مما أثر في نشاط حلب التجاري، لان الانكليز كانوا يصدرون حرير بلاد فارس ، عبر حلب ومينائها الاسكندرونة الى اوروبا • فتدخل العثمانيون في بلاد الكرج ، وتوصلوا الى اتفاق مع روسيا ، في عام ١٧٢٤ ، باقتسام شمالي فارس بينهما • ومن ناحية اخرى ، توغلت القوات العثمانية ، بقيادة حسن باشا والي بغداد ، في بلاد فارس ، واحتلت كرمنشاه • وتوفي في هذه الاثناء حسن باشا فخلفه ابنه أحمد باشا ، في عام ١٧٢٤ ، في ولاية بغداد وفي قيادة الجيش العثماني في بلاد فارس • وباستثناء انقطاع دام سنتين (١٧٣٤ ــ ١٧٣٦) ، فقد حكم أحمد باشا ولاية بغداد حتى وفاته في عام ١٦٤٦ • وبدأ عهده باحتلال همذان في عام ١٧٢٤ ، ولكنه فشل في احتلال اصفهان ، عاصمة محمود الافغاني ، وتراجع في أعقاب ذلك •

وفي عام ١٧٢٦ أعلن العثمانيون الحرب على أشرف الافغاني ، الذي كان قد أطاح قبل عام ، بابن عمه محمود ، ونصب نفسه شاها • ولكن اعلانه السنة أوقع البلبلة في صفوف الجيش العثماني ، وتم الصلح بين الطرفين في عام ١٧٢٧ ، واعترف أشرف للعثمانيين بسيطرتهم على المناطق الغربية والشمالية الغربية من بلاد فارس • وكان الشاة الصفوي المعزول ، طهماسب الثاني ، يجمع المعارضة من حوله ضد الافغانيين ، فدعمه نادر خان ، من قبيلة أفشر ، وهي واحدة من القبائل التركمانية الرئيسة التي دعمت الصفويين ، وهزم الافغانيين في عام ١٧٢٩ ، واحتل شيراز ، وأعاد طهماسب الى الحكم • ونظرا لعمل نادر خان في ظل الشاه طهماسب فقد عرف بلقب طهماسب قولي خان ، أي عبد طهماسب • ولم يكن نادر خان مخلصا للصفويين بل استغل قضيتهم لكسب دعم مؤيديهم • وفي عام ١٧٣٢ أطاح بطهماسب ، ونصب ابنه الطفل مكانه ومارس السلطة الكاملة من وراء ابن طهماسب • وفي عام ١٧٣٦ أعلن نادر خان نفسه حاكما على بلاد فارس ، وأزال الصفويين من الحكم ، ولقب بالشاه • ثم تبنى المذهب الجعفري المعتدل (نسبة الى الامام جعفر الصادق) ، في محاولة للتوفيق بين المذهب الشيعي الصفوي والمذهب السني ، وذلك لكسب تأييد الشعب المحلي ، من ناحية ، ولتحدي زعامة

العثمانيين ، من ناحية اخرى • وقد فشلت هـذه المحاولة لان معظم الشعب رفض الجعفرية ، كما أن هذه الخطوة أثارت العثمانيين ضده •

وكان نادر شاه ، منذ أن ظهر على مسرح السياسة في عام ١٧٢٩ وحتى وفاته في عام ١٧٤٧ ، العدو الاكبر للعثمانيين • وقد أدت انتصاراته على العثمانيين في ١٧٣٠ ، الى حدوث ثورات شعبية في استانبول ، تزعمها الانكشارية ، احتجاجا على هزائم العثمانيين في الجبهة الفارسية ، وعلى ابتزاز أموال الشعب باسم الدفاع ضد حكام فارس ، بينما كانت تبذر في الحقيقة على بذخ الحكام في استانبول • وقد قتل الصدر الاعظم بنتيجة الثورة ، وأجبر السلطان أحمد الثالث على الاستقالة •

وفي عام ١١٤٥/١٧٣٣ حاصر نادر شاه بغداد مدة تسعة أشهر ، حتى انتصر عليه القائد العثماني طوبال عثمان باشا في ٧ صفر ١٤٦/٢٠ تموز ١٧٣٣ • وفي عام ١١٥٦/١٧٤٣ حاصر نادر شاه الموصل ، بعد حملات مظفرة قام بها في الهند ، ولكن والي الموصل حسين باشا الجليلي صده عنها • وأخيرا توصل نادر شاه الى اتفاقية سلام مع العثمانيين في عام ١١٥٩/١٧٤٦ • ومما يجدر ذكره أن العثمانيين رفضوا في اتفاقاتهم مع نادر شاه ، ومن قبله الحكام الافغانيين ، الاعتراف بقافلة حجج خاصة بالحجاج الاعجام ، تنطلق بهم من بلاد فارس الى الحجاز ، لان العثمانيين وجدوا في ذلك انتقاصا لسيطرتهم واشرافهم على الاماكن المقدسة •

واغتيل نادر شاه في حزيران ١٧٤٧ ، وانتهى بذلك حكم قبيلته • وعادت أمور بلاد فارس الى الاضطراب ، ولم تعد تشكل خطرا كبيرا على العثمانيين حتى قيام كريم خان زند وقتال العثمانيين في الفترة بين ١٧٧٤ و ١٧٧٩ • وبعد شهرين من وفاة نادر شاه توفي أحمد باشا والي بغداد ، وبدأ في أعقاب ذلك حكم المماليك[٤٩] •

عينت السلطات العثمانية ، اثر وفاة أحمد باشا ، واليا من قبلها على بغداد ، فعارضه المماليك وحلفاؤهم • وكان المرشح المملوكي لولاية بغداد سليمان باشا المملوكي ، الذي عرف بأبي ليلى ، وهو صهر أحمد باشا وكاخياه ، وقد عين على البصرة ، ولكنه كان يطمع بولاية بغداد • وفي عام ١١٦٣/١٧٤٩ سار سليمان

باشا نحو بغداد ، فطرد واليها العثماني ، وتولاها ، بالاضافة الى البصرة ، واعترف السلطان بذلك • وقد فرض سليمان باشا نفوذه على القبائل ، وأقام النظام والامن، وشجع التجارة •

وقد ازدادت قواعد النظام المملوكي ثباتا في عهد الولاة المماليك ، ولكن سيئاته كانت تظهر عند انتقال الحكم من وال الى آخر • وحدث صراع على السلطة اثر وفاة سليمان باشا ، في عام ١٧٦٢ ، فخلفه علي باشا المملوكي • ولكن معارضة عمر باشا المملوكي له ، الذي تمتع بدعم أكبر ، أطاحت به من الولاية في عام ١٧٦٤، وحل عمر باشا مكانــه •

وقد شهدت فترة ولاية عمر باشا بين ١٧٦٤ و ١٧٧٦ ، آحداثا جساما • ففي عام ١١٨٦/١٧٧٢ عم الطاعون بغداد ، واستمر فيها ستة أشهر ، كما حدث تنافس على السلطة بين عدد من مساعدي الباشا مما أوقع البلاد في الفوضى • وكذلك قامت الثورات في منطقة كردستان على والي بغداد • ولكن أهم خطر تعرض لههذا الوالي على الصعيد الخارجي قيام كريم خان زند ، الذي حكم بلاد فارس من وراء الصفويين المضعفين ، وتهديده سلطة والي بغداد في شهر زور ، وأهم منذلك احتلاله البصرة في عام ١٧٧٥ ، وأسره واليها المملوكي سليمان باشا • ولم يقم عمر باشا بجهد فعال لصد الخطر الفارسي عن البصرة ، التي ازدادت اهميتها بالنسبة للتجارة مع الخليج العربي ومع الهند • ويدل ذلك على ضعف حكمه ، ممـا أغرى العثمانيين بالتخلص منه ، وتعيين حاكم من قبلهم على بغداد في عام ١٧٧٦ •وافتقد المماليك الزعامة القوية الى أن توفي كريم خان زند في عام ١٧٧٩ وعمت الفوضى بلاد فارس من جديد فأخلى الفرس البصرة وأطلق سراح سليمان باشا المسجون في شيراز ، وعادت الى حكم البصرة • وبدعم من الممثل البريطاني هناك ، عين على بغداد وشهرزور بالاضافة الى البصرة في عام ١٧٧٩ ، ودخل بغداد في ١٧٨٠ وعرف سليمان باشا هذا في التاريخ باسم سليمان باشا الكبير (بيوك سليمان باشـا) ، واستمر حكمه حتى وفاته في عام ١٨٠٢ •

ويعد سليمان باشا الكبير من أشهر ولاة الامبراطورية في زمنه ، فقد امتدت سلطته من ماردين حتى الخليج العربي • وأخضع قبائل الاكراد والبدو لسلطنه

وحين احتل الشيخ تويني ، زعيم قبائل المنتفق البصرة في عام ١٧٨٦ ، طرده سليمان باشا منها ، وعزله عن امارة المنتفق • كما أنه صد هجمات الوهابيين ، الذين انطلقوا آنذاك من الجزيرة العربية وهددوا العراق تهديدا خطيرا • وفي عهده انحصر الخطر عن العراق من بلاد فارس التي عادت فعمتها الفوضى في الداخل ، ومكن هذا سليمان باشا من الانصراف الى الاصلاحات الداخلية ، فشجع الزراعة والبناء ، ورمم أسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور وخندق ، وبنى مدرسة السليمانية ، وجعل لها مكتبة ، ورمم عدة جوامع ، منها جوامع القبلانية ، والفضل ، والخلفاء •

وتوالى على ولاية بغداد في الفترة بين وفاة سليمان باشا الكبير في ١٨٠٢ ومجيء داود باشا ، الذي تمتع بشهرة كبيرة ، في ١٨١٦ ، أربع باشوات : علي باشا ، الذي اغتيل في ١٨٠٧ ، وكجك سليمان باشا (سليمان باشا الصغير) ، الذي قتله البدو في ١٨١٠ ، وعبد الله باشا ، الذي قتل في ١٨١٣ ، ثم سعيد باشا ، ابن سليمان باشا الكبير ، الذي قتل هو الآخر في عام ١٨١٦ • ويدل قصر عهد هؤلاء الباشوات والمؤامرات التي تعرضوا لها ، من قبل الانكشارية ، والاكراد ، والبدو ، والوهابيين ، الذين هاجموا كربلاء في ١٨٠٢ ، وسلطان استانبول ، على عدم استقرار الحكم المملوكي • وقد انشق المماليك على أنفسهم ، والتمست بعض فئاتهم مساعدة بدو المنتفق ، كما حدث مثلا مع سعيد باشا الذي دعمه المنتفق في الوصول الى الولاية • وقد استغل السلطان العثماني محمود الثاني خلافات المماليك فتدخل ، في عام ١٨١٠ ، ضد كجك سليمان باشا ، بحجة تأخره في سداد الاموال الميرية ، وحاصرته حملة عثمانية فهرب ، وقتله البدو • ورغم أن عبد الله باشا الذي خلفه كان من المماليك فقد اعترف بسلطة استانبول ، بخاصة بعد أن هدده فتح علي خان ، حاكم بلاد فارس [٥٠] •

وكان آخر الولاة المماليك في العراق ، وأطولهم مدة في الحكم ، داود باشا (١٨١٦ — ١٨٣١) ، الذي يعود أصله الى بلاد الكرج[٥١] • وقد ولد في تفليس في عام ١٧٦٧ ، وبيع مملوكا في بغداد في عام ١٧٨٠ ، والتحق بمماليك سليمان باشا الكبير ، وشغل منصبي دفتردار وكاخيا قبل أن يعين ، في سن الخمسين ، واليا

على بغداد • ويتميز حكم داود باشا بحادثين بارزين ، استئناف القتال مع فارس ، والغاء الانكشارية • وقد حدث في عهد فتح علي شاه حاكم فارس أن ابنيه ، عباس ميرزا حاكم اذربيجان ، الذي شجعته روسيا على مهاجمة الاراضي العثمانية في عام ١٨٢١ ومحمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه ، الذي طمع بدعم أكراد شهرزور ، قد قاما بهجومين على العراق ، أوائل العشرينات ، تحركهما المطامع الفارسية القديمة ، والنقمة على عدم صد سلطات بغداد الوهابيين أثناء هجومهم على كربلاء• وقد هزم داود باشا في قتاله مع الفرس ، ولم يتراجع محمد علي ميرزا عن احتلال بغداد الا بعد أن تفشى الطاعون بين قواته • وفي ١٨ تموز ١٨٢٣ وقعت معاهدة ارضروم ، بين والي بغداد وسلطات فارس ، واعترف بموجبها بالحدود التي كانت سائدة زمن السلطان مراد الرابع • أما الحادث الثاني فهو الغاء الانكشارية في بغداد ، اثر الغاء محمود الثاني لها في استانبول في عام ١٨٢٦ ، واقامة جيش مدرب على النظام الحديث • وقد استفاد داود باشا من ذلك ، لانه حول ولاء الجيش الجديد له ، بعد أن كان ولاء الانكشارية ، الذين جندوا محليا ، منصبا على المصالح المحلية • وعزز هذا الامر نفوذ داود باشا ، كما أنه زاد من مخاوف السلطان ، الذي خشي قيام « محمد علي » آخر في الجزء الشرقي من امبراطوريته وهذا ما جعله أكثر تصميما للقضاء عليه • وازداد في عهد داود باشا الاتصال مع اوروبا وبالتالي رسوخ النفوذ الاوربي في العراق • وكان هذا بالضرورة تجاريا ، ونشط فيه الانكليز ممثلين بشركة الهند الشرقية وكذلك الفرنسيون ، واعتمد هؤلاء على خطين من المواصلات مع الساحل السوري : خط البصرة ــ بغداد ــ الموصل ــ حلب ــ الاسكندرونة ، وهو أكثر أمنا من الخط الآخر الذي انطلق من البصرة ــ بغداد ــ دمشق ــ صيدا • ونشطت أيضا الرهبنات الفرنسية والايطالية ، وازداد عدد الرحالة ، ومعظمهم من التجار • ومن أبرز المقيمين الاجانب في بغداد الذين كتبوا عنها : روسو ، الذي شغل منصب القنصل الفرنسي في البصرة في ١٧٨٠ وفي بغداد في ١٧٩٦ ــ ١٧٩٨ ، والانكليزي ريتش ، الذي عين مقيما بريطانيا في بغداد في ١٨٠٨ •

واستدعى داود باشا خبراء فرنسيين من أشهرهم ديفو مساعد نابليون بونابرت سابقا ، لتدريب الجيش الذي بلغ تعداده عشرين الفا ، وفنيين أوربيين لتحسين مستوى الصناعات المحلية ، والزراعة • وبنى داود باشا عددا من الجوامع أهمها جامع حيد خانه ، وجامع ومدرسة آصافيا ، وكذلك بنى سوقا وقصرا ، وشجع العلم والعلماء ، وأمر الشيخ رسول الكركوكلي بتأليف كتابه : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء •

وقد صاحب احياء قوة المماليك في بغداد ، في عهد داود باشا ، نشاطمحاولات الاصلاح في الامبراطورية العثمانية بمبادرة السلطان محمود الثاني • وكان لا بد أن يوجه هذا الاخير جهوده للقضاء على مراكز القوة سواء في العراق أم في مصر • وزاد في العداء بين الطرفين رفض داود باشا الاسهام ماليا في حرب الدولة العثمانية مع روسيا في ١٨٢٨ ــ ١٨٢٩ ، كما أن السلطان محمود الثاني رفض طلب داود باشا اعطاءه الموصل • وأرسل السلطان محمود الثاني الدفتردار صادق أفندي لفرض النفوذ العثماني في بغداد ، فقتله أتباع داود باشا في ١٨٣٠ • وأمر السلطان والي حلب علي رضا باشا بقيادة حملة على بغداد ، وحاصرها مدة تسعين يوما انتشرت خلالها المجاعة والطاعون فيها ، ثم فتح سكانها الجائعون الباب الشرقي من المدينة ، فدخلها في ١٧ ايلول ١٨٣١ ، وقتل المماليك ، ولكنه أبقى على داود باشا ، الذي اقتيد الى استانبول ، وتقلد بعض المناصب حتى وفاته في المدينة المنورة في عام ١٨٥١ • وهكذا انتهى حكم المماليك في بغداد الذي أعطاها دورها السياسي والاداري ، وفرض هيبة والي بغداد على القبائل البدوية والكردية ، وأخضع لبغداد البصرة وشهرزور ، وكردستان ، وشجع الاقتصاد والعمران • ويذكر ان عدد السكان في بغداد ارتفع من مائة الف في عام ١٨١٦ الى مائة وعشرين الفا في عام ١٨٣٠ • وسلمت العراق ، في عهد المماليك ، من الوقوع بأيدي الدول المتعاقبة على بلاد فارس ، وحمى ذلك منطقة بلاد الشام بكاملها[٥٢] •

وتلا الاطاحة بحكم المماليك في بغداد القضاء على حكم آل الجليلي في الموصل وذلك في عام ١٨٣٤ • وكان الجد الاكبر لهذه الاسرة ، عبد الجليل من أصل مسيحي ، وقد خدم عند أحد ولاة الموصل ، وأصبح أبناؤه من بعده مسلمين •

ومن الرواة من أرجع أصل هذه الاسرة الى ديار بكر وأنها أتت الى الموصل في عام ١٦٠٠ • ولكن الثابت أن اسماعيل بن عبد الجليل ، مستفيدا من ثروته وشعبيته وقوة شخصيته ، توصل الى أن يصبح واليا على الموصل في عام ١٧٢٦ • وتمكن ، مع أحفاده من بعده ، من المحافظة على كيان ولاية الموصل في وجه الاخطار من بلاد فارس ومن الاكراد ، وبقيت أسرته بدون منافس محلي لاكثر من قرن • ولكنها لم تحكم الولاية بشكل مستمر اذ تخلل حكمها فترات شغلها حكام عثمانيون في محاولة لفرض نفوذ استانبول • وأعقب اسماعيل في الولاية ابنه حسين ، الذي عين على الموصل ثمان مرات ، في الفترة بين ١٧٣٠ و ١٧٥٩ • وقد صد ، ابان ولايته ، في أواخر عام ١٧٤٣ ، هجوم نادر شاه على الموصل ، وتدعم ، بنتيجة ذلك ، نفوذ اسرة الجليلي • وعين أمين ، ابن حسين باشا ، واليا على الموصل في عهد أبيه،وأحيانا بالتناوب معه • وشغل منصب الوالي سبت او سبع مرات • وتلاه في الولاية ابنه محمد، الذي حكم الموصل ثمانية عشر عاما ، بين ١٧٨٩ و ١٧٠٧ • وقضي على آخر الولاة من آل الجليلي ، ويدعى يحيى ، في عام ١٨٣٤ • وتعزز الوجود العثماني في الموصل ، كما في بغداد ، بعد ذلك[٥٣] •

ورغم أن مركز الثقل والاهتمام في العراق كان بغداد ، في عهد المماليك ، مما غطى على صورة آل الجليلي في الموصل ، فان هؤلاء لعبوا دورا هاما في الدفاع عن الموصل ، بخاصة ضد حكام فارس ، كما أنهم مارسوا نفوذا أكبر من نفوذ ولاة بغداد في شؤون الامبراطورية العثمانية فاشتركوا في حروب الدولة العثمانية ، وشغلوا وظائف هامة خارج الموصل ، وكثيرا ما قاموا بزيارة استانبول • وتبقى أهمية آل الجليلي في كونهم جزءا من ظاهرة عامة شملت الولايات العربية ، وغيرها ، في القرن الثامن عشر ، وتعبيرا عن ازدياد النفوذ المحلي ضمن الاطار العثماني •

الامارات العربية في الجزيرة العربية والخليج

دولة واحدة غير عربية مارست نفوذا في الجزيرة العربية في مطلع القرن الثامن عشر ، وهي الامبراطورية العثمانية التي عد سلطانها حامي الحرمين الشريفين في الحجاز ، منذ فتح السلطان سليم الاول الشام في عام ١٥١٦ • وتنازع على الشرافة،

منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين ، ثلاث أسر : ذوو زيد ، وذوو عبد الله ، وذوو بركات ، وجميعهم ينحدرون من أبي نمي الثاني بن بركات ، الذي ينحدر من قتادة بن ادريس ، مؤسس آخر سلالة من الاشراف .

وقد ازداد عدد الامارات المستقلة في الجزيرة العربية ، في القرن الثامن عشر وبخاصة في المناطق الشرقية . فالى جانب الائمة الزيديين الذين حكموا مستقلين في اليمن بعد أن طردوا العثمانيين منها في النصف الاول من القرن السابع عشر ، كانت السلالية المكرمية الاسماعيلية المتطرفة مسيطرة على وادي نجران ، قرب الحدود الشمالية لليمن . ولو استعرضنا المناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ، بدءا من الاحساء ، لوجدنا أن هذه الاخيرة كانت ولاية عثمانية ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . وكان ولاتها في صراع مستمر مع قبيلة بني خالد التي كثيرا ما حرضها على ذلك ولاة البصرة . وقد سيطر بنو خالد على الاحساء ، ثم انتزعها منهم السعوديون الوهابيون في العقد الاخير من القرن الثامن عشر كما سنرى بعد قليل .

ويذكر أنه في أواخر القرن السابع عشر اتحد عدد من القبائل العربية ، تحت اسم العتب (وهي كلمة عتب العربية ، أي تنقل) ، وانتقلوا من القسم الجنوبي من وسط الجزيرة ، بسبب الجفاف ، الى شواطىء الخليج العربي ، حيث تفرقوا ، ثم التقوا عند الكويت (وهي تصغير كوت ، وتعني الحصن الصغير) ، حيث شكلوا ، في حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، كتلة مستقلة عن بني خالد . واشتهر بين المتحالفين العتب آل الصباح وآل خليفة . وأصبح آل الصباح حكام الكويت في حوالي عام ١٧٥٠ . وفي أواخر القرن الثامن عشر توطدت مشيخة الكويت ، وأسهم اسطولها في نقل البضائع في الخليج ، وكان على الكويت في القرن الثامن عشر أن تتخذ موقفا بالنسبة للانكليز ، الذين حلوا محل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، وسيطروا في الخليج ، وبالنسبة للوهابيين ، والعثمانيين ، وحكام فارس . وقد ساعد الانكليز آل الصباح في صد الوهابيين عنهم في عام ١٧٩٥ .

وقد خضعت البحرين في القرن السادس عشر الى البرتغاليين ، ثم الى الذين حلوا مكانهم ، أي الهولنديين ، والفرنسيين ، والانكليز . وكان آل خليفة يعيشون

في الكويت ، مع العتب الآخرين ، واستمروا فيها حتى عام ١٧٦٦ ، حين هاجروا الى قطر ، وأقاموا في زبارة ، في قطر • وكانت البحرين آنذاك تحت حكم قبيلة عمانية أقام شيخها نصر آل مذكور في بوشير ، على الساحل الفارسي من الخليج• ونشأت منافسة بين العتب (في كل من الكويت وزبارة) ، وبين شيخ بوشير ، الذي هاجم زبارة مرتين ، في ١٧٧٨ و ١٧٨٢ • ورد عتب الكويت بمهاجمة البحرين واحتلالها في تشرين الثاني ١٧٨٣ ، وانتقل اليها آل خليفة ، وجعلوها مركز حكمهم • ومنذ هذا التاريخ لم يخضع أي جزء من الجزيرة العربية الى الاحتلال الفارسي • وشاركت البحرين في القرصنة في الخليج ، فتدخل الانكليز في شؤونها بحجة منع القرصنة ، واضطر شيخ البحرين الى توقيع معاهدة سلام مع الانكليز في عام ١٨٢٠ ، ووقعت الامارات الاخرى في الخليج ، التي عرفت بالامارات المتصالحة ، مثل هذه المعاهدات التي كانت تعدل باستمرار • وقد رفضت بريطانيا ادعاءات العثمانيين بحق السيادة على البحرين •

هجر آل خليفة زبارة ، في أواخر القرن الثامن عشر ، بعد انتقالهم الى البحرين بسبب هجمات الوهابيين المتكررة عليها ، وحاول آل خليفة بعد ذلك العودة الى زبارة بسبب أهميتها الاستراتيجية لهم ، ولكن قبائل اخرى أخذت تنافسهم في قطر • واشتهر بين هذه القبائل آل ثاني ، الذين حكموا أحيانا في زبارة ، وأحيانا في الدوحة ، وخضعوا لنفوذ آل خليفة لبعض الوقت ، ولم يستقلوا عنهم حتى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر ، حين أعاد العثمانيون سيطرتهم على ساحل الخليج العربي ، وبعثوا ولاية الاحساء من جديد • ولكن سلطة الوالي العثماني بقيت اسمه • وقد سبق القول أن العثمانيين ، بعد فتح قناة السويس ، قد فرضوا نفوذهم من جديد على سواحل اليمن •

وقد سيطر ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، على الشاطىء المتصالح ، الذي قامت فيه مشيخات أبي ظبي ، ودبي ، والشارجة ، ورأس الخيمة ، وفجيرة ، وأم القيوين ، وعجمان ، قبائل القواسم • ولكن بريطانيا ، متمثلة بشركة الهند الشرقية بدأت منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، بمهاجمة هذه المشيخات ، الواحدة تلو الاخرى ، وتوقيع المعاهدات معها • وهكذا فالشاطىء المتصالح الذي

كان متحدا في ظل القواسم ، بدأ ينقسم الى وحدات سياسية في ظل بريطانيا(٥٤) .

وكانت عمان مركز الاباضيين الذين يؤمنون بعودة الحكم الى الشورى ، وكانوا استمرارا للخوارج ، وقد أقاموا فيها في القرن الثاني للهجرة دولة عرفت باسم امامة عمان . وتعرضت عمان منذ عام ١٥٠٧ الى غزوات البرتغاليين الذين استقروا على الساحل ، وقاومهم العثمانيون والقبائل المحلية ، واستمر نفوذهم في المنطقة حتى منتصف القرن السابع عشر . وقد انتخب أحد أفراد اليعاربة اماما لعمان في عام ١٦٢٤ ، وبدأ بذلك حكم اليعاربة ، الذين وحدوا البلاد من ورائهم وطردوا البرتغاليين ، وسيطروا على التجارة في بحر العرب . وتعزى هزيمة البرتغاليين الى ضعف مواردهم ، ومنافسة القوى الاوروبية لهم ، وعداء العمانيين الشديد لهم ، ومقدرة هؤلاء البحرية ، اذ كانوا يأسرون السفن أو يشترونها ، ويستخدمون البحارة الاوروبيين ، وأحيانا الاسرى البرتغاليين ، في ادارة سفن الامام . واذا أضفنا الى ذلك المساعدة العسكرية التي قدمها الهولنديون والانكليز الى العمانيين ادركنا أسباب قوة الاسطول العماني وسيطرته على بحر العرب .

وتعرضت امامة اليعاربة ، في أواخر عهدها ، الى ما يشبه الحرب الاهلية بين القبائل في عمان ، دامت من ١٧١٩ الى ١٧٢٨ . وفي عام ١٧٤٣ انتقلت الامامة الى قبيلة اخرى من آل بوسعيد . وانصرف أئمة هذه الاسرة ، كسابقيهم من اليعاربة، الى التجارة البحرية والمغامرات الخارجية الى حد أنهم تخلوا ، بعد فترة ، عن الامامة .

وبدأ الانقسام في اسرة بوسعيد عام ١٧٨٩حين استغل حمد ، ابن الامام الحاكم سعيد بن أحمد ، نقمة القبائل على أبيه ، فاستولى على جزء كبير من البلاد لنفسه، وجعل عاصمته في مسقط على الساحل ، بعيدا عن نزوة ، المقر التقليدي للامامة في الداخل ، وعن رستق ، مركز الامامة زمن اليعاربة . ويدل نقل العاصمة الى مسقط على ازدياد الاهتمام بالبحر دون البر ، كما أنه يؤكد الاهتمامات التجارية والاسس العلمانية لامارة حمد ، بخاصة وأنه ترك أباه يمارس الامامة ويقيم في رستق ، ولم يقم حمد بمحاولة لتنصيب نفسه اماما ، وحين توفي في ١٧٩٢ استولى

عمه ، سلطان بن أحمد ، على مسقط ، وتوصل في العام التالي الى اتفاق مع أخويه، بحيث احتفظ لنفسه بمسقط ، واحتفظ أخوه سعيد بالامامة في رستق . وهكذا أصبح هناك مركزان للسلطة في عمان ، وعرف حاكم مسقط بلقب سيد ، (ولم يقصد بهذا شرف النسب) ثم سلطان ، وحاكم رستق بلقب امام[٥٥] .

وكانت الوهابية من أبرز حركات التحدي للعثمانيين التي ظهرت في الجزيرة العربية ، بل في العالم الاسلامي ، في القرن الثامن عشر . وتأتي أهميتها من أنها ظهرت في الوقت الذي ظهرت فيه مظاهر التحدي السياسي للعثمانيين في بقية الولايات العربية ، ومن أنها تحدت زعامة العثمانيين للعالم الاسلامي ، وكذلك من أنها قامت في منطقة عربية ، تعد مهد الاسلام الاول ، ودعت الى العودة بالاسلام الى صفائه الاول ، عندما كان بأيدي العرب . ولم تكن الوهابية حركة محلية ، فقد حاولت نشر دعوتها بالقوة في العراق وبلاد الشام ، كما أنها لعبت دورا هاما في تطور الفكر الاسلامي الحديث .

وكانت الجزيرة العربية ، عشية ظهور الوهابية ، تمزقها النزاعات القبلية والعداء بين البدو وسكان المدن . وحاول عدد من القبائل ومن المدن الابقاء على استقلاله . وبالنسبة لنجد فقد كانت ناشطة تجاريا بسبب مرور الحجاج من شواطىء الخليج العربي عبرها الى الحجاز ، وكذلك مرور الطريق المتجهة من بلاد الشام ، عبر وادي سرحان ، الى جبل شمر في المنطقة الشمالية منها . وبرزت في نجد أسر مستقلة عمليا ، مثل اسرة سعود التي تمركزت في وادي حنينة ، وجعلت مقرها مدينة الدرعية ، وأسرة ابن معمر التي كان مقرها مدينة العيينة .

وقد نشأت الوهابية بين سكان المدن ، وينحدر مؤسسها محمد بن عبد الوهاب من أسرة قضاة حنابلة متوارثين في العيينة ، حيث ولد في عام ١٧٠٣ . وقد درس في الحجاز وفي البصرة ، ولاحظ في تجواله مظاهر الوثنية تعود من جديد . ولم يتح له زيارة دمشق ولكنه تأثر كثيرا بتعالم فقيهها ابن تيمية ، الذي عاش فيها ، ابان السلطنة المملوكية ، في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، ودعا الى العودة الى ممارسة الاسلام ، كما في عهده الاول . ولم يجد ابن تيمية اتباعا له الا بين

الحنابلة ، ولا تلميذا يتبنى تعاليمه غير محمد بن عبد الوهاب • وقد لقيت دعوة ابن عبد الوهاب ، وحكمه في رجم زانية ، وأمره بمسح قبر زيد بن الخطاب ، الذي سقط في القتال ضد مسيلمة الكذاب ، معارضة من قبل أبيه ، وأبناء بلدته ، وقبيلة بني خالد في الاحساء ، التي كانت تمد امراء الداخل بالمال • ثم طرد محمد من العيينة في ١٧٤٤ ، بعد وفاة أبيه بثلاث سنوات ، واتجه نحو الدرعية ، حيث حظي بحماية أميرها محمد بن سعود • ومن التعاون بين الاثنين انبثقت الدولة الوهابية السعودية ، التي وحدت بين آل سعود وآل الشيخ (وهي التسمية التي عرف بها أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) •

لقد دعا محمد بن عبد الوهاب الى نبذ البدع ، وأهمها تقديس الاولياء ، وزيارة قبورهم ، وكذلك زيارة الاشجار المقدسة وهي عادة وثنية ، ومن هنا جاءت دعوته الى قطع هذه الاشجار • وقد منع كل وساطة بين الله والمؤمن ، وحرم التدخين ، الذي ساواه بشرب الخمر • وبايجاز ، كانت الوهابية طريقة في الحياة تلتزم بمبادىء الاسلام الاول ، وتضع وحدانية الله فوق كل شيء •

وقبل ان تنطلق الوهابية الى نشر دعوتها في أطراف الجزيرة وخارجها ، حاولت أن تسيطر على نجد والمناطق المجاورة • فسيطرت أول الامر ، في ١٧٥٠ ، على العيينة ، التي كان أميرها عثمان بن معمر ، ثم اصطدمت بأمير الرياض ، ودام الصراع بين الطرفين من ١٧٤٦ الى ١٧٧٣ ، حين هزم أمير الرياض • وفي عام ١٧٦٥ هزمت قبائل نجران ، بقيادة أمير اسماعيلي الوهابية ، التي وقعت معها صلحا • ثم التفت الوهابيون الى زعيم بني خالد ، الذي سار نحو الدرعية ، ولكنه لم يحرز أي نجاح ، وعاد أدراجه الى الاحساء • وتوفي في هذا العام محمد بن سعود ، وخلفه ابنه عبد العزيز ، وفي عهده سقطت الرياض ، واستسلمت حائل في ١٧٨٧ ، وتوطدت نهائيا سيطرة الوهابيين في نجد ، وبدأت المرحلة الثانية من توسعهم خارجها •

وقد شن الوهابيون عدة هجمات على منطقة الاحساء ، وهزموا بني خالد في ١٧٩٢ ــ ١٧٩٣ ، ونصبوا أميرا سعوديا فيها ، بعد أن دمروا بعض الاماكن في القطيف ، وسيطروا على البحرين والبريمي • ومما ساعد على قبول الوهابية في

سواحل الخليج العربي وجود عدد من السكان الحنابلة فيها • ثم تحولوا نحو الحجاز ، حيث سيطر أمير مكة ، غالب بن مساعد ، وبدأ يشن هجماته على الوهابيين، دينيا وعسكريا • ودام الصراع بين الطرفين حتى عام ١٨٠٣ حين دخل الوهابيون مكة ، وبعد عامين دخلوا المدينة ، واحتلوا كذلك عسير ، وانطلقوا منها الى تهامة على ساحل البحر الاحمر ، حتى وصلوا الى موانيء اليمن • ولكنهم لم يتوغلوا في اليمن ، حيث سيطر الائمة الزيديون • ورغم الحملات التي قام بها الوهابيون في حضرموت ، لم ينجحوا في اخضاعها الى نفوذهم وكذلك فشل الائمة الزيديون في اخضاع حضرموت لهم •

وكان محمد بن عبد الوهاب قد توفي في عام ١٧٩٢ ، وخلف وراءه أربعة أبناء برزوا في الفقه ، وعددا كبيرا من التلاميذ تبنوا نشر الوهابية • وقد شهد قبل وفاته تحقيق حلمه في اقامة دولة دينية ، كما أنه أسهم في اعطاء هذه الدولة صفتها السلالية السعودية حين انتزع من الولايات الخاضعة للوهابيين في ١٧٨٨ يمين الولاء لابن عبد العزيز ووريثه ، الامير سعود •

وكان أول رد فعل عسكري عثماني على الوهابيين دعم والي بغداد ، سليمان باشا الكبير ، في عام ١٧٩٧ ، قبائل المنتفق ، بقيادة تويني ، لمقاومة الوهابيين • ولكن اغتيال تويني أخاف بني خالد الذين أيدوه ، وفشلت الحملة • ونظمت حملة اخرى في العام التالي ، ولكنها فشلت بدورها • وفي عام ١٨٠٢ غزا الوهابيون كربلاء ، وهاجموا في العام التالي النجف ، وكذلك في عام ١٨٠٦ ، ولكنهم لم يستقروا فيها • وقامت كذلك جيوشهم بالتوغل في بلاد الشام الجنوبية ، وهددت دمشق ، ومنعت قافلة الحج الشامي ، في عام ١٨٠٧ ، وفي الاعوام الثلاثة التالية ، من دخول الحجاز • وهكذا فشل ولاة دمشق ، ومن قبلهم ولاة بغداد ، في فرض الهيبة العثمانية في وجه الوهابيين ، فوقع اختيار السلطان العثماني على محمد علي باشا ، حاكم مصر ، الذي هزم الوهابيين واحتل عاصمتهم الدرعية ، في عام ١٨١٨ • وانتقل ، اثر ذلك ، مركز الدولة الوهابية الى الرياض ، التي أصبحت منذئذ عاصمة هذه الدولة ، التي عادت الى الازدهار في ظل الاسرة السعودية[٥٦] • ومما يجدر ملاحظته أن التدخل الخارجي ، الاسلامي والاوربي ، في الجزيرة العربية ، في القرن

التاسع عشر ، كان أقوى من ذي قبل • فالى جانب التدخل المصري ــ العثماني العنيف شدد الانكليز قبضتهم على السواحل الجنوبية والشرقية في الجزيـرة ، واحتلوا في عام ١٨٣٩ عدن •

وربما تبادر الى الاذهان ، في مجال توسع الوهابية ، التساؤل عن موقف حنابلة دمشق ، مثلا ، من الوهابيين الحنابلة الذين هددوا مدينتهم • من المعروف أن حنابلة دمشق ، في القرن الثامن عشر ، كانوا قلة اذا مـا قورنـوا بأصحاب المـذاهب الاخرى • وتعود أصول معظمهم الى نابلس أو بعلبك ، أي الى مناطـق ريفيـة وقد انسجموا مع اصولهم هذه فسكنوا الصالحية خارج المدينة • ولم يكن اختلاف المذاهب في دمشق هاما من الناحية السياسية أو الاجتماعية • وقد عرف عن حنابلـة دمشق تساهلهم وتبنيهم الطرق الصوفية ، مثل الخلوتية والقادرية ، كما أنهم خضعوا للسلطة العثمانية التي كثيرا ما تدخلت في تعيين المفتين الحنابلة • وقد اندمج الحنابلة في مجتمع دمشق ، ورضوا بالوجود العثماني ، وتأقلموا معه وتعايشوا مع الصوفية، واستخدموا التعاويذ والتمائم ، ولم يهتموا بوهابية الجزيرة ، رغم أنهم تمسكـوا أحيانا ببعض المبادىء المتطرفة كتحريم التدخين • ولم يشكلوا على أية حال دعما للوهابيـة[٥٧] •

واذا كانت الوهابية قد فقدت الكثير من نفوذها السياسي في القرن التاسع عشر ، فان تأثيراتها كانت بادية في الطرق الصوفية التي نشأت في ذلك القرن ، والتي تخلصت من كثير من العادات الصوفية البالية ، وتبنت ممارسات أنقى • وتجلى هذا في الطريقة السنوسية التي انتشرت في برقة ، وفي الطريقة الختمية ، وكذلك بين أنصار المهدي في السودان • وتأثر أيضا ، المفكرون المسلمون ، في القرن التاسع عشر ، الذين عرفوا بالسلفية ، بتعاليم الوهابية[٥٧] •

ذروة النفوذ المملوكي في مصر

اختلفت صورة الاحداث في مصر ، في القرن الثامن عشر ، عنها في بلاد المشرق العربي بسبب اختلاف نوعية الفئات المتصارعة على النفوذ في كل منهما • ومع ذلك ، فاننا نرى في مصر تأكيدا للنفوذ المحلي تجلى بازدياد سلطة المماليك • ويجب التأكيد

أن لا علاقة بين مماليك مصر ومماليك العراق ، أو مماليك الجزار ، الا من حيث تشابه نوعية التجنيد ، والولاء للسيد ، والطموح للسلطة السياسية • وكان المماليك في العراق والشام ظاهرة طارئة دامت لفترة ثم زالت ، بينما لعب المماليك دورا هاما في مصر ، منذ الفتح العثماني ، وقاموا بعدة محاولات لاحتكار السلطة في مصر الى أن نجحوا في القرن الثامن عشر •

وكنا رأينا في نهاية الفترة السابقة من تاريخ ولاية مصر كيف قضي نهائيا على نفوذ القاسمية في سنة ١٧٣٠ وسيطر الفقارية • ولكن صراعا دب الآن بين الفئات المتنافرة ضمن الفقارية ، وهي البيوتات العسكرية والمماليك ، وذلك بعد أن زال العدو المشترك الذي وحد صفوفهم • وتمت السيطرة للمماليك الذين سرعان ما انقسموا بدورهم الى طوائف متنافرة • وظهر بنتيجة هذا الصراع علي بك الذي وصل نفوذ المماليك في عهده الى الذروة • واستغل علي بك ضعف السلطة العثمانية وازدياد قوته فاحتلت قواته الحجاز وبلاد الشام الجنوبية ، بما فيها دمشق ، وبقي مسيطرا الى ان قضى عليه مملوكه محمد بك أبو الذهب • ولم يظل حكم محمد بك اذ توفي وهو في أوج سلطته ونشب نزاع على السلطة بين مماليكه ومماليك علي بك • وانتهى الامر بزعامة مملوكية ثنائية تحدت محاولات العثمانيين للاطاحة بها • وتركت مهمة القضاء على نفوذ المماليك الى الحملة الفرنسية التي أتت الى مصر في ١٧٩٨ ، ومن بعدها الى محمد علي باشا الالباني •

ويمكننا ، والحالة هذه ، تقسيم تاريخ مصر في هذه الفترة الى ثلاثة أقسام : الصراع على النفوذ (١٧٣٠ ــ ١٧٦٠) ، فترة علي بك (١٧٦٠ ــ ١٧٧٣) ، سيطرة أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ ــ ١٧٩٨) •

الصراع على النفوذ في مصر (١٧٣٠ ــ ١٧٦٠) : اشتهر في مصر ، اثر القضاء على القاسمية ، كل من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ، وعلي بك ذو الفقار وعثمان بك ذو الفقار ، بالاضافة الى عدد من القازدغلية ، من بينهم عثمان وعبد الله وسليمان وحسن • ويتبين لنا من هذه الاسماء وجود ثلاث كتل متنفذة • وكان أبرز هذه الكتل الآن كتلة محمد بك قطامش وعلي بك قطامش ، اللذين عينا في ١١٤٥/١٧٣٢ ، الاول دفتردارا والثاني أمير حج • وفي

صفر ١١٤٦/تموز ١٧٣٣ عين محمد بك قطامش قائم مقام ، وكان صاحب الامر والنهي في مصر ، وأطلق عليه لقب شيخ البلد ، أي كبير البكوات وصاحب السلطة الفعلية في القاهرة • وفي جمادي الثاني ١١٤٩ / تشرين الاول ١٧٣٧ عين محمد بك قطامش أميرا على الحج • وقد حدثت في رجب ١١٤٩/تشرين الثاني ١٧٣٧ فتنة في القاهرة بسبب طلب شخص يسمى صالح كاشف الحصول على الصنجقية ، وكان يؤيده عثمان بك ذو الفقار • ولكن محمد بك قطامش شيخ البلد وكبير القوم (وهذا تعبير أقل استعمالا من تعبير شيخ البلد) ، رفض ذلك بحجة ارتباط صالح كاشف ببقايا القاسمية عن طريق زوجته ، وخوفا من اعادة نفوذ القاسمية • واتفق صالح كاشف مع عثمان كاخيا القازدغلي وغيره على التخلص من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ، وأيدهم الباشا في ذلك • وبالفعل تم قتل الاثنين ومعهما عدد من الاتباع • وضعف بذلك نفوذ الكتلة القطامشية • ودب الصراع الآن بين كتلة عثمان بك ذو الفقار الذي انفرد بزعامة الكتلة ، بعد وفاة علي بك ذو الفقار بالطاعون ، وكتلة القازدغلية الذين تزعمهم ابراهيم جاويش القازدغلي •

وعين عثمان بك ذو الفقار أميرا على الحج في سنة ١١٥٠/١٧٣٧ — ١٨٣٨ ، وفشلت محاولة لاغتياله دبرها ، في هذه الاثناء ، حاكم مصر سليمان باشا العظم ، (١١٥٢ — ١١٥٣ / ١٧٣٩ — ١٧٤٠) ، بالاتفاق مع ابراهيم جاويش القازدغلي • وانتهت اليه بعد ذلك الرئاسة في مصر • واشتدت المنافسة بين عثمان بك ذي الفقار وابراهيم جاويش القازدغلي حول الرئاسة • وحدث نزاع بينهما حول ايجار احدى النواحي، ثم تأزمت العلاقة بينهما بسبب دعم عثمان بك لهمام شيخ بدو هوارة الذي رهن احدى النواحي لدى ابراهيم جاويش القازدغلي ، ثم حاول التملص من الالتزامات المترتبة على ذلك • واستنجد ابراهيم جاويش بمؤيديه ، وهاجموا عثمان بك بعد أن تخلى عنه رضوان كاخيا الجلفي ، مؤسس احدى البيوتات العسكرية الصغيرة المعروفة بالجلفية ، وانضم الى صفوف معارضيه • وقد وقع القتل في اتباع عثمان بك ، ونهبت بيوتهم • وهرب عثمان بك الى الصعيد حيث التف حوله بقايا القاسمية اللاجئين هناك • وأرسل ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي حملة كبيرة الى الصعيد أرهبت عثمان بك فهرب ، وكان

ذلك ، كما يبدو ، في أواخر ١١٥٦ / أوائل ١٧٤٤ ، وتوجه نحو استانبول حيث بقي حتى وفاته في حوالي ١١٩٠ / ١٧٧٦ — ١٧٧٧ • وبلغ من أهمية عثمان بك ومن شدة المصيبة التي نزلت به حين اضطر للهرب أن الناس استخدموا سنة هربه لتأريخ حوادثهم •

وازداد نفوذ الحليفين ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي اثر هرب عثمان بك • وحين شعرا بتآمر حاكم مصر محمد باشا راغب ضدهما ، جمعا أعوانهما وهاجما المتآمرين ، واضطر الباشا الى اعتزال منصبه ومغادرة مصر في أواخر ١١٦١ / أواخر ١٧٤٨ • وأصبحت الرئاسة بعد ذلك الى هذين الحليفين • وقلد ابراهيم جاويش القازدغلي ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية ، وكان من بينهم علي آغا الذي عرف بالغزاوي (سمي بذلك بسبب هربه فيما بعد الى غزة) ، وحسين آغا الذي عرف بكشكش ، وأصبح لهذين شأن كبير فيما بعد • وقلد رضوان كاخيا الجلفي أيضا ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية •

وشغل ابراهيم جاويش القازدغلي ، في هذه الاثناء ، وظيفة كاخيا في طائفة المستحفظان (الانكشارية) ، لمدة ثلاثة أشهر ، فأصبح يعرف بابراهيم كاخيا القازدغلي • واستكثر ابراهيم كاخيا من شراء المماليك ، وقلدهم المناصب العليا مثل امارة الحج • وطغى المماليك بالتدريج بين أفراد طائفة القازدغلية ، وأصبحت السيادة لهم في هذه الطائفة فيما بعد • وتوفي ابراهيم كاخيا القازدغلي في صفر ١١٦٨ / تشرين الثاني — كانون الاول ١٧٥٤ •

بقي رضوان كاخيا الجلفي يتمتع بالرئاسة في مصر اثر وفاة ابراهيم كاخيا القازدغلي ولكن سرعان ماظهر ضعفه وعدم قدرته على الاحتفاظ بمركزه بسبب انصرافه الى الترف والبناء ، وأيضا بسبب تحرك أعدائه ضده ومنافسة القازدغلية الأقوياء له ولأتباعه الجلفية • وتزعم المعارضة ضده مماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي المتوفى • وفشل أحد زعماء القازدغلية ، ويسمى عبد الرحمن كاخيا ، في تسخير مماليك ابراهيم كاخيا لخدمته ودعم نفوذه لأن كلا منهم كان يطمح الى الرئاسة • وبقي القازدغلية متكتلين الآن لمقاومة رضوان كاخيا الجلفي وأتباعه • واشتبكوا معه أخيرا في القتال ، وتمكنوا من طرده من القاهرة ، وهرب باتجاه

الصعيد • ثم توفي ولما تمض بعد ستة أشهر على وفاة شريكه ابراهيم كاخيا القازدغلي •

واشتهر بعد وفاة رضوان كاخيا ثلاثة صناجق من أتباع ومماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي ، وهم : عثمان بك الجرجاوي ، وعلي بك الغزاوي ، وحسين بك كشكش ، وقد تقلدوا الصنجقية حين كان ابراهيم كاخيا حيا • ومن مماليكه الذين نالوا الصنجقية بعد وفاته واشتهروا نذكر حسين بك الصابونجي وعلي بك الذي احتلت قواته فيما بعد بلاد الشام والذي عرف بالتركية بلقب بلوط قبان ، أي قابض الغمام بسبب طموحه ، وبلقب جن علي (أي علي الشيطان) • وقد تسلم الرئاسة في مصر ، في هذه الفترة ، عثمان بك الجرجاوي ، ثم حسين بك الصابونجي الذي حاول القضاء على زملائه لابعاد خطرهم عنه • ولكنهم تمكنوا من قتله في صفر ١١٧١ / تشرين الاول ــ تشرين الثاني ١٧٥٧ ، وتسلم الرئاسة بعد ذلك علي بك الغزاوي (ويسمى أيضا علي باشا الكبير نسبة للقب (كبير البلد) الذي حصل عليه ، ويجب تمييزه عن علي بك بلوط قبان الذي احتلت قواته الشام وأشار اليه المؤرخون المتأخرون بلقب الكبير بسبب الشهرة التي وصل اليها وتحديه للسلطة العثمانية) •

وحاول علي بك الغزاوي القضاء على منافسه القوي عبد الرحمن كاخيا القازدغلي فعين أشخاصا لقتله ، وسافر الى الحجاز أميرا على الحج • ولكن عبد الرحمن كاخيا استغل غياب علي بك الغزاوي فنفى المتآمرين عليه ، بمساعدة علي بك بلوط قبان ، وعين هذا الاخير شيخا للبلد ، وكان هدفه ان يحكم من ورائه ريثما يوطد سلطته • وحين علم علي بك الغزاوي بما جرى ، وهو في طريق عودته من الحجاز ، ترك امارة الحج وهرب الى غزة ، وكان ذلك في أوائل ١١٧٤ / اب ١٧٦٠ • وعين على امارة الحج من بعده حسين بك كشكش • وبدأ أمر علي بك بلوط قبان يشتهر منذ هذه الفترة ، وأصبح أمير الحج في سنة ١١٧٧ / ١٧٦٤ • وقلد الصنجقية لعدد من أتباعه ، وطغى نفوذه على نفوذ عبد الرحمن كاخيا القازدغلي الذي نفي ، بعد ذلك ، الى الحجاز[٥٩] •

فترة علي بك (١٧٦٠ — ١٧٧٣) : كان علي بك مملوكا شركسي الأصل ، من منطقة القفقاس[٦٠] • وقد برز في مصر في خدمة استاذة ابراهيم كاخيا القازدغلي الذي عينه خزندارا ، أي المسؤول عن أمواله الخاصة ، ثم تدرج في مراتب الشهرة فأصبح صنجقا وشيخ بلد وأمير حج •

وحدث حين كان علي بك في الحجاز أميرا على الحج المصري ، في عام ١٧٦٤، أن اشتبك في نزاع مع عثمان باشا الكرجي والي الشام وأمير الحج الشامي • وبعد أن عاد علي بك الى مصر بدأ بالقضاء على منافسيه فيها ، وكان أشهرهم حسين بك كشكش وهو شيخ البلد آنذاك • وقد أغرى عثمان باشا الكرجي حسين بك كشكش بطرد علي بك من مصر • وبالفعل ، اضطر علي بك ، ازاء مقاومة حسين بك له ، الى الهرب الى غزة في رمضان ١١٧٩ / آذار ١٧٦٦ • ثم مالبث علي بك أن طرد من غزة بناء على أوامر عثمان باشا الكرجي ، وعاد الى مصر حيث بدأ صراعه من جديد ضد منافسيه •

وتمكن علي بك في الفترة بين ١٧٦٧ و ١٧٦٨ من التغلب على جميع اعدائه في مصر ، بما في ذلك الشيخ همام ، شيخ قبيلة هوارة القوية في الصعيد • وكان قائد قوات علي بك في هذا الصراع مملوكه محمد بك أبو الذهب • ويذكر ان علي بك اشترى مملوكه أبا الذهب في سنة ١١٧٥ / ١٧٦١ — ١٧٦٢ ، ثم أعتقه في سنة ١٧٦٤ • وحين قلد أبو الذهب الصنجقية في احتفال في القلعة ، وزّع الذهب على الحاضرين ، وعلى الفقراء وغيرهم أثناء عودته الى منزله ، ولهذا عرف أبي الذهب •

وقد اعترف محمد راقم باشا ، حاكم مصر العثماني ، في جمادي الثاني ١١٨٢ / تشرين الاول ١٧٦٧ ، بنفوذ علي بك ، وأقره في مشيخة البلد ، وأبقى صناجقة في مناصبهم ، وكان ذلك بمثابة تكريس لسلطة علي بك • وتشجع علي بك بهذا الدعم العثماني ، اثر تغلبه على منافسيه ، فعزل حاكم مصر محمد راقم باشا متهما اياه بالتآمر ضده ، وتقلد علي بك القائم مقامية في ١ شعبان ١١٨٢ / ١١ كانون الاول ١٧٦٨ • وبعد حوالي شهرين من ذلك أرسل علي بك هدايا الى

السلطان ، واشتكى اليه ضد عثمان الكرجي والي الشام متهما ايله بايواء المصريين الفارين ، وطالب بعزله .

وفي عام ١١٨٣/١٧٦٩ ــ ١٧٧٠ أصبح علي بك الحاكم الفعلي والقانوني في مصر بعد ان عزل الباشا الذي خلف محمد راقم باشا واصبح قائم مقام ، ومنع ورود الولاة العثمانيين الى مصر . وحضر علي بك صلاة الجمعة في جامع الداودية ، ويعتقد ان ذلك كان في ١ رمضان ١١٨٣/٢٩ كانون الاول ١٧٦٩ ، فدعا الخطيب للسلطان ، ثم دعا لعلي بك . وبذلك شارك علي بك السلطان في امتيازات السلطة وشعاراتها . وكانت الخطوة التالية أن أصدر علي بك عملة نقدية جديدة ذكر عليها اسمه الى جانب اسم السلطان .

ورغم ان نفوذ السلطان العثماني أصبح الآن سطحيا في مصر ، فلم يعلن علي بك انفصاله عن السلطان أو بقطع علاقاته به . واستمر علي بك يتمتع بلقبي شيخ البلد وقائم مقام . ويشير نقش على قبر الامام الشافعي في القاهرة الى علي بك الذي عمر قبة القبر ، في ١١٨٠/١٧٧٢ ، بأنه عزيز مصر . وقد أطلق هذا اللقب في السابق على بعض وزراء وحكام مصر ، ومن بينهم سلاطين المماليك .

ووطد علي بك الأمن في مصر ، وأقام العدل بين الناس ولم يراع في ذلك احدا وسر الشعب ، بصورة عامة ، من حكمه . وملأ علي بك بذلك الفراغ الذي خلفه ضعف السلطة العثمانية . وبنى علي بك عدة أبنية دينية هامة منها الجامع والقبة عند مقام أحمد البدوي في طنطا . وقد اكسبته هذه الاعمال عطف العلماء .

ونتساءل هنا عن الاسباب التي جعلت علي بك يبقي على علاقاته الرسمية مع السلطان . لاشك أن علي بك قد بلغ درجة كبيرة من السلطة الفعلية في مصر ، ولكن اعلان انفصاله عن السلطان سيسبب له مشكلات كثيرة . فالسلطان العثماني مهما بلغ ضعفه ، كان يعد زعيم المسلمين ، وأي انفصال عنه ، أو ثورة علنية عليه ، لايمكن أن يتقبلها المسلمون بسهولة . وبالاضافة الى ذلك ، فان علي بك ، رغم سيطرته في مصر لم يبدأ بعد في التوسع خارج حدوده ، ولم يكن هناك ، بالتالي مايقلق السلطان ويهدد نفوذه بدرجة كبيرة ، لاسيما وان الدولة العثمانية كانت

مشتغلة آنئذ في حرب كبرى مع روسيا • وقد ألفت الدولة العثمانية ، قبل ذلك ، ظهور حكام محليين أقوياء ، مثل ولاة بغداد وطرابلس الغرب • ولم يكن ظهور علي بك أمرا طارئا في تاريخ مصر بل كان ذروة تطورات سياسية وصراع على النفوذ بين مختلف القوى في مصر ، كانت الغلبــة بنتيجتها للمماليك • ولم تكن أيضا الدولة العثمانية مجرد شاهد على هذا الصراع بل كانت طرفا فيه ، وان ضعفها هو الذي ساعد على اشتداده . وقد استفاد علي بك من بعد مصر عن اسنانبول ، ومن مركزها الجغرافي ، ومن قوة أتباعه ومماليكه ازاء ضعف الدولة ، ومن الوضــع الدولي المناسب ، وهي الأسباب التي اعاقت في الوقتذاته الدولة العثمانيةعن البطش به ، فوطد نفوذه • وما دام علي بك يحتفظ ببعض مظاهر السلطة الرسمية للسلطان، فقد تغاضت الدولة عنه • ولو أعلن انفصاله ، فان الدولة مهما بلغ ضعفها ، لــن تتسامح بذلك ، كما رأينا من ارسالها الجيوش ضده حين احتلت قواته بلاد الشام• ومن الطبيعي أن تقرر القوة نتيجة الصراع بين الطرفين •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر تطلع الى التوسع خارجها • وقد اتيحت له فرصة التدخل في الحجاز في عام ١١٨٤/١٧٧٠ حين طلب منه السلطان ، كمــا ادعى علي بك ، اعادة الشريف عبد الله الى منصبه حاكما في مكة ، عوضا مــن الشريف مساعد الذي اغتصب الحكم منه . وعين علي بك مملوكه محمد بك أبا الذهب قائدا للقوات التي أرسلها الى الحجاز والتي اعادت الشريف عبد الله الى منصبه • ويبدو أن علي بك قد اتخذ قضية الشريف عبد الله ذريعة للتدخل فــي شؤون الحجاز بدلالة تعيينه أحد المماليك ، وهو حسن بك ، قائم مقام على جــدة (ومن هنا تسميته حسن الجداوي) مكان الحاكم العثماني الذي هرب من جدة • وبعد عودة أبي الذهب الى مصر ، عزل الشريف عبد الله من جديد من قبل الشريف أحمد الذي كان قد خلف الشريف مساعد اثر وفاته ، وذلك قبيل وصول الحملــة المصرية الى مكة • وطرد الشريف أحمد حسن بك الجداوي وقواته ، فعــادوا الى مصــر •

ورغم أن الانتصارات التي حققتها حملة علي بك في الحجاز لم تدم طويــلا ، الا أن الحملة تعد هامة من نواح متعددة • ان الاكتفاء بتعيين حسن بك قائم مقام،

وليس واليا ، فيجدة ،مكان واليها العثماني ، يظهر ان علي بك لم يكن راغبا في معاداة السلطان العثماني علنا في هذه المرحلة على الاقل • ويعد هذا الموقف استمرارا للموقف الذي اتخذه علي بك في مصر حين اكتفى باعلان نفسه قائم مقام • وان ارسال علي بك جيوشه الى الحجاز وجعل نفسه سيدا فيها ، أو بالاحرى حكما في شؤونها، أكسبه نفوذا سياسيا ودينيا • وقد هدف علي بك أيضا من حملته خدمة مصالحه الاقتصادية ، ولعل ذلك كان أهم هدف له ، اذ أن الاستيلاء على جدة سيمكنه من التصرف بوارداتها الضخمة من عائدات الجمارك • ولم يسمح العثمانيون ، آنذاك أو في الفترات السابقة ، للمراكب الاوروبية بتجاوز ميناء جدة الى السويس ، وذلك لسببين رئيسيين : أولا ، لتحاشي تهديد هذه المراكب للاماكن المقدسة في الحجاز ، وثانيا ، لكي تدفع في جدة المكوس عن البضائع التي تحملها هذه المراكب ، وذلك لسد نفقات الحاكم العثماني هناك ، في حين ان هذه المكوس ستكون تحت رحمة السلطات التي تتصرف في شؤون مصر فيما لو دفعت في السويس • وكان من مصلحة التجار الاجانب الفرنسيين والانكليز ، الذين يتاجرون بين الشرق الاقصى واوروبا ، ايصال بضائعهم مباشرة الى ميناء السويس ، ثم نقلها برا الى البحر الابيض المتوسط ومن هنا اهتمام شركة الهند الشرقية الانكليزية ، والمشاريع الفرنسية ، في هذه الفترة ، لربط البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط عن طريق السويس • ولكن شركة بلاد المشرق الانكليزية ، المرتكزة على الامبراطورية العثمانية وبخاصة بلاد الشام ، بقيت تعارض مشروع فتح طريق السويس لانه يهدد وجودها •

ان عدم استخدام طريق السويس ، على نطاق واسع ، من قبل التجار الاجانب حرم مصر من واردات مالية كبيرة • ولا أدل على ضآلة النشاط التجاري الفرنسي في مصر ، في هذه الفترة ، من قلة عدد التجار الفرنسيين المقيمين • ولم ينشط التجار الانكليز في مصر الا في عام ١٧٧٣ حين سمح لهم أبو الذهب بنقل بضائعهم عبر السويس . وبقيت ، مع ذلك ، بعض العقبات تحد من نشاطهم • وحرم علي بك من جراء ذلك ، من واردات مالية هامة • ورغم أنه قد استفاد من مصادرة أموال اعدائه الذين قضى عليهم في مصر ، الا انه كان عليه ان يبحث عن موارد اقتصادية خارج مصر لتمويل مشاريعه الكبرى في بناء دولة عظيمة واحياء السلطنة المملوكية •

وبعد أن عادت جيوش علي بك من الحجاز ، وجه انظاره للتوسع في بلاد الشام . وبالاضافة الى الاهداف السياسية ، فقد كان علي بك يطمع بالحصول على موارد اقتصادية باحتلاله بلاد الشام . وكان نجاح قواته في الحجاز مشجعا له لارسالهم في حملة اخرى . كما أن من مصلحة علي بك الآن تحويل انظار قادته العسكريين للتوسع خارج مصر لتجنب منافستهم له اذا بقوا بقربه . وقد ذكرنا فيما سبق الاسباب الاخرى التي جعلت علي بك يوجه حملته الى بلاد الشام ، وعالجنا مراحل الفتح واحتلال دمشق ، ثم انسحاب ابي الذهب ورجوعه الى مصر[٦١].

يعد انسحاب أبي الذهب من بلاد الشام بداية تحوله ضد علي بك . صحيح أن أسبابا متعددة جعلت أبا الذهب يتخلى عن فتوحاته في بلاد الشام ، ولكن هذه كانت كلها أسبابا خارجية . والشيء الهام انها لاقت قبولا في نفس أبي الذهب . لقد أمره علي بك ، كما ذكر الجبرتي ، « أن يستمر في سيره ويتعدى الحدود ويستولي على المماليك الى حيث شاء » ولكن أبا الذهب ، عوضا من ذلك ، فضل التراجع طمعا بالحكم في مصر بعد أن ضمن ، كما يبدو ، تأييد السلطان له في ذلك .

وليس بغريب ان يدب النزاع بين محمد بك أبي الذهب وعلي بك لان الصراع على السلطة بين مماليك مصر كان في أوجه في هذه الفترة . وزاد في الامر ان أبا الذهب قد أصبح ذا سمعة عسكرية واسعة ، فاقت سمعة علي بك نفسه . لقد قضى أبو الذهب على خصوم علي بك في مصر ، وقاد بنجاح الحملة المصرية الى الحجاز ، ونجح أيضا في احتلال دمشق ، وازدادت سلطته الى حد كبير ، ومع ذلك كان لايزال خاضعا لاوامر علي بك . وقد شعر أبو الذهب والمماليك في بلاد الشام أنهم في أرض غريبة ، لذلك عادوا الى مصر . وفضل أبو الذهب أن يكون واليا خاضعا للسلطان في مصر من أن يكون قائدا في بلاد الشام مهددا بالخطر ، وأهم من ذلك ، خاضعا لمملوك آخر هو علي بك .

ولم ينشب النزاع العلني بين علي بك ومحمد بك أبي الذهب مباشرة بعد وصول هذا الاخير الى القاهرة في أواخر رجب ١٣٨٥/أوائل تشرين الثاني ١٧٧١ . وكان علي بك ، الذي لم ينقطع عن ارسال النجدات الى حليفه ظاهر حتى بعد انسحاب

أبي الذهب ، يعمل ، في الظاهر ، على حمل أبي الذهب على العودة الى فتح بلاد الشام . ولكن الاثنين كانا في الواقع يعدان العدة للقتال . وفي ٤ شوال ١١٨٥/ ١١ كانون الثاني ١٧٧٢ حاول علي بك واتباعه اغتيال أبي الذهب ولكنه تمكن من الهرب الى الصعيد حيث انضم اليه مؤيدوه وبقايا القاسمية اللاجئين في الصعيد ، وأيضا بدو هوارة الذين بطش بهم علي بك في السابق . وأرسل علي بك حملة بقيادة اسماعيل بك ، في أواخر ذي القعدة/أوائل اذار ، لقتال أبي الذهب في الصعيد ، ولكن اسماعيل بك انضم الى أبي الذهب . والجدير بالذكر أن اسماعيل بك وأبا الذهب اشتركا في الحملة على بلاد الشام ، وان اسماعيل بك نصح أبا الذهب بالانسحاب من دمشق . وبدأ علي بك باعداد حملة أخرى ضد أبي الذهب واسماعيل بك . وكانت قواته قد أرهقت فقلد رتبة الصنجقية الى سبعة اشخاص ، ليسوا أهلا لذلك ، وزودوهم بالعتاد والجنود ، وأرسلهم للقتال . ولا أدل على عدم تمرسهم بالقتال من اطلاق أهل مصر عليهم لقب البنات السبع .وتقدمت قوات أبي الذهب باتجاه القاهرة ، وخرجت قوات علي بك ، بقيادة علي بك الطنطاوي لقتالهم . وحدث الاصطدام بين الفريقين في ضواحي القاهرة في محرم ١١٨٦/ نيسان ١٧٧٢ ، وهزمت قوات علي بك . وقد شعر علي بك بضعف موقفه فهرب مع أتباعه في ليلة ٢٥ محرم/٢٨ نيسان باتجاه بلاد الشام ، ولجأ الى حليفه ظاهر العمر .ودخل أبو الذهب الى القاهرة في اليوم التالي ، وأصبح سيد الموقف فيها ، وأبطل النقود التي كان علي بك قد صكها وذكر عليها اسمه . وأحدث ابطال هذه النقود اضطرابا اقتصاديا في منطقة ظاهر العمر حيث شاع استعمالها ، وهبطت قيمتها ، تبعا لذلك ، الى ما يقرب النصف . وبدأت هذه النقود تهرب من مصر الى عكا .

واشترك علي بك مع ظاهر العمر وحليفهما الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط ببعض العمليات العسكرية في فلسطين ، وعلى ساحل بلاد الشام الجنوبية . ولكن هدف علي بك الاساسي كان العودة الى مصر للقضاء على أبي الذهب . وفي ١٦ شباط ١٧٧٣ استسلمت يافا ، بعد حصار دام حوالي ثمانية أشهر ، لقوات ظاهر وعلي بك ، وكانت خاضعة لوالي الشام . وشعر علي بك أن طريق عودته الى مصر أصبح ممهدا . وكانت قد وصلته رسائل مزورة من بعض زعماء المماليك في مصر

تعده بالمساعدة اذا عاد الى القاهرة ، وكان ذلك للايقاع به بتدبير من أبي الذهب • وحاول ظاهر العمر منع علي بك من الذهاب الى مصر لشكه بصحة الرسائل ولعدم تمكنه فيهذه الاثناء منمساعدته كثيرا بسبب انتظاره مجيء القوات الروسية لدعمه محليا ، وأيضا بسبب اشتغال قواتظاهر المحلية بشؤون المواسم الزراعية • وزوده ظاهر ، مع ذلك ، ببعض قواته ، وخرج علي بك من بلاد الشام باتجاه مصر في اوائل اذار ١٧٧٣ • وفي القتال الذي دار بينه وبين أبي الذهب في ٥ صفر ١١٨٧/٢٨ نيسان ١٧٧٣ ، في الصالحية ، على الطريق المؤدية الى القاهرة ، جرح علي بك ، وهزمت قواته ، وتوفي في ١٥ صفر/٨ أيار ، وأصبحت السيطرة في مصر لابي الذهب •

سيطرة محمد أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ – ١٧٩٨) : تصرف محمد بك أبو الذهب بالسلطة الفعلية في مصر ، على غرار علي بك • ولم يكن للوالي العثماني خليل باشا ، الذي وصل الى القاهرة في ١٧ ربيع الاول ١١٨٧/٨ تموز ١٧٧٣ ، سوى سلطة اسمية • وقد أرسل السلطان الهدايا الى أبي الذهب مما زاد في دعم موقفه • وكان هدف السلطان من ذلك التعبير عن رضاه نحو أبي الذهب بسبب قتله علي بك ، وأيضا لاظهار نفوذه على أبي الذهب ليتزعم في مصر بموافقته وليس رغما عنه ، ولم يطرد أبو الذهب ، كما فعل علي بك ، الباشا العثماني من مصر ، ولكنه سعى لدى السلطان لتعيين أحد مقربيه من الموظفين العثمانيين ، وهو مصطفى باشا النابلسي ، واليا على مصر مكان خليل باشا ، وتم له ذلك في ربيع الثاني ١١٨٨/ حزيران ـ تموز ١٧٧٤ • وهكذا اصبح باشا مصر العثماني صنيعة لابي الذهب • وانصرف أبو الذهب ، اثر استتباب السلطة له ، الى تخليد حكمه ببناء الابنية المختلفة ، ومنها مدرسته التي بناها تجاه الجامع الازهر •

وجه أبو الذهب ، بعد ذلك ، للتوسع في بلاد الشام ، وكان يحاول التدخل في شؤونها منذ أن قتل علي بك • وقد أرسل أبو الذهب في ٢٧ آب ١٧٧٣ رسولا الى عكا أبلغ ظاهر العمر بوجوب اعادة الممتلكات التي تركها علي بك عنده ، وباخلاء نابلس والرملة وغزة ويافا ، التي ادعى أبو الذهب أن السلطان قد أعطاه اياها •

وقد لايكون صحيحا ان السلطان منح أبا الذهب هذه المناطق ، ولكن المهم هنا عداء أبي الذهب لظاهر العمر واستغلال أبي الذهب تأييد السلطان له ليتوسع في بلاد الشام على غرار علي بك .

خرج أبو الذهب من مصر على رأس جيش كبير في أوائل محرم ١١٨٩ / أوائل آذار ١٧٧٥ قاصدا بلاد الشام للقضاء ، كما ادعى ، على ظاهر العمر ، واقام مكانه في مصر مملوكه ابراهيم بك الذي اشتهر فيما بعد . وبدا كأن أبا الذهب يخدم ، بالدرجة الاولى ، مصلحة السلطان بمحاولته القضاء على أحد كبار الثائرين في بلاد الشام . ولكن محاولة القضاء على ظاهر لم تكن سوى ذريعة اتخذها أبو الذهب لاسباغ الشرعية على عمله ، وكسب تأييد السلطان والسكان المحليين ، وللتمويه على أهدافه الحقيقية في التوسع واعادة السلطنة المملوكية . وقد أفهم أبو الذهب قادة جيشه وجنوده ، أثر احتلاله ليافا وعكا وهرب ظاهر العمر من وجهه ، وقبيل وفاته بيوم واحد ، انه « يريد تقليدهم المناصب والاحكام بالديار الشامية وبلاد السواحل » ، وفي هذا دلالة واضحة على نيته بالتوسع لحسابه ، وتأكيد بان محاولته القضاء على ظاهر انما هي وسيلة اتخذها للتدخل في شؤون بلاد الشام . ويشبه أبو الذهب في ذلك أستاذه علي بك الذي سبق وأعلن ، حين أرسل قواته لاحتلال بلاد الشام ، أن هدفه انقاذ السكان المحليين من ظلم عثمان باشا الكرجي والي الشام . ولم يشكل ظاهر العمر الآن ، بعد وفاة حليفه علي بك واشتغاله بثورات أبنائه ، خطرا كبيرا يستدعي تدخل أبي الذهب ضده . ولا أدل على ضعف ظاهر من سرعة استسلام المناطق ، التي كان يسيطر عليها ، لأبي الذهب .

وقد استسلمت غزة في ٢٩ محرم ١١٨٩ / ١ نيسان ١٧٧٥ لقوات أبي الذهب وتبعتها الرملة ثم يافا . وقد قاوم سكان يافا هجوم أبي الذهب عليهم ، وحين تم له فتح المدينة فتك بكثير من سكانها . ويبدو ان ذلك أرهب المناطق المجاورة فهرب ظاهر من عكا ، واستسلمت هذه المدينة لأبي الذهب بدون مقاومة ، كما خضعت صيدا لقوات ابي الذهب البحرية . وبعث أبو الذهب بأنباء انتصاره الى مصر فأقيمت فيها معالم الزينة مدة ثلاثة أيام ، وذلك في أوائل ربيع الثاني/اوائل حزيران.

وذكر أن أبا الذهب أرسل يطلب من السلطان العثماني اعطاءه حكم مصر وبلاد الشام وأن السلطان وافق على ذلك • وما كاد أبو الذهب يعلم بموافقة السلطان ، كما ذكر ، حتى توفي في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩ / ١٠ حزيران ١٧٧٥ • وتخلى جيش أبي الذهب عن فتوحاته وانسحب عائدا الى مصر[٦٢] •

وكانت حرب السلطان مع روسيا قد انتهت في عام ١٧٧٤ ، ووقع معها معاهدة كجك قاينارجة في تموز ١٧٧٤ • وتمكن السلطان من ارسال قوات بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء على ظاهر العمر • وقد وصلت هذه القوات الى سواحل بلاد الشام الجنوبية بعد حوالي شهرين من وفاة أبي الذهب •

وتسلم الرئاسة في مصر ، بعد وفاة محمد بك ابي الذهب ، مملوكاه ابراهيم بك ومراد بك ، وعرف حزبهما بالمحمدية نسبة لاستاذهما محمد بك أبي الذهب • وعارضهما حزب العلوية المؤلف من بعض أتباع ومماليك علي بك الذين طمحوا الى السلطة • وكان ابراهيم بك شيخ البلد وكبير القوم ، ولاينفذ أمرا بدون اطلاع زميله مراد بك • ونافسهما على الرئاسة اسماعيل بك الذي كان ، في الاصل ، مملوكا عند ابراهيم كاخيا القازدغلي ثم جعله علي بك « تشراكاً » عنده، واستخدمه في فتح بلاد الشام وفي قتال أبي الذهب الذي ثار عليه ، ولكنه انضم الى أبي الذهب ، وخان سيده علي بك • وقد شغل اسماعيل بك منصبي أمير الحج والدفتردار • وخشي ابراهيم بك ومراد بك منافسة اسماعيل بك لهما على الرئاسة، ولاسيما وأنه كان يتمتع بنفوذ عظيم وشهرة كبيرة ، واصطدما معه فتغلب عليهما ، وطردهما من القاهرة • وأصبح اسماعيل بك شيخ البلد ، واعترف به الباشا العثماني ، وكان ذلك في ٢٢ جمادى الثاني ١١٩١ / ٢٨ تموز ١٧٧٧ •

وهرب ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد ، وأخذا يتحينان الفرصة للقضاء على اسماعيل بك ومؤيديه ، ومعظمهم من اتباع علي بك • وقد استوليا على أموال الميري في الصعيد ، وازدادت قوتهما ، ولم يستطع حاكم الصعيد الموالي لسلطات القاهرة ، مقاومتهما • وخرج اسماعيل بك من القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١١٩١ / ٢١ كانون الاول ١٧٧٧ باتجاه الصعيد ، لقتال قوات ابراهيم بك ومراد بك • ولكنه شعر بتآمر بعض قواته ضده ، فعاد الى القاهرة في ٩ محرم ١١٩٢ / ٧ شباط ١٧٧٨ •

وتناقص نفوذه في القاهرة اثر ذلك • ثم فوجيء بأنباء تقدم خصومه من الصعيد نحو القاهرة ، فهرب منها باتجاه غزة ، ثم ذهب الى استانبول • ودخل ابراهيم بك ومراد بك وقواتهما الى القاهرة • وفي ٢١ محرم ١١٩٢ استقر ابراهيم بك في مشيخة البلد ، واعترف به الباشا العثماني الذي كان مغلوبا على أمره ويمنح اعترافه لكل من يفوز بالسلطة • وعاد اسماعيل بك من استانبول بعد فترة قصيرة ، وتوجه نحو الصعيد • وكانت قوته قد ضعفت كثيرا ، وخرج لقتاله مراد بك ، ولكنه لم يعثر عليه • وبقي اسماعيل بك غائبا عن مسرح السياسة حتى مجيء الحملة العثمانية الى مصر في سنة ١٧٨٦ • فتعاون مع قائدها القبطان حسن باشا •

وحدثت في عام ١١٩٨ / ١٧٨٣ ـ ١٧٨٤ فتنة كبيرة بين ابراهيم بك ومراد بك سببها طموح مراد بك للسلطة ومحاولة ابراهيم بك الاستئثار بها • وزاد من شدة الفتنة محاولة اتباع كل من الزعيمين الايقاع باتباع الزعيم الآخر • وبعد أن توصل مراد بك الى طرد ابراهيم بك مـن القاهرة والحصول على مشيخة البلد ومنصب قائم مقام ، تصالح الزعيمان في ١٠ ربيع الثاني ١١٩٩ / ٢٠ شباط ١٧٨٥ ، وعادا الى ممارسة السلطة الفعلية في مصر • واستمر على ذلك حتى وصول الحملـة العثمانية ضدهما في ١٨٧٦ •

وصلت في أوائل رجب ١٢٠٠ / أوائل أيار ١٧٨٦ أنباء الى القاهرة حول وصول طلائع حملة عثمانية بحرية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، الى الاسكندرية • وفي ١٠ رجب ٩ أيار وصل رسول عثماني الى القاهرة يطالب ابراهيم بك ومراد بك بما انكسر عليهما من أموال للدولة ، وأنذرهما بتسليم ذلك خلال ثلاثين يوما • وجاء رسول آخر بالمعنى نفسه في ٥ رمضان / ٢ تموز • واستعطف ابراهيم بك ومراد بك السلطات العثمانية لامهالهما بدفع الاموال ، واتخذا ، في الوقت نفسه ، الاستعدادات للدفاع ، واتصلا بعرب الهنادي في البحيرة • ونزلت القوات العثمانية في الاسكندرية ودمياط ورشيد • وحاول القبطان حسن باشا اجتذاب السكان المحليين اليه فأرسل عدة فرمانات باللغة العربية الى مشايخ البلاد وزعماء البدو يعلمهم فيها بتخفيض الضرائب • وبرفع الظلم ، وبالعودة الى الانظمة التي صدرت في عهد سليمان القانوني • فسر الناس بذلك ، وتغيرت نياتهم نحو زعماء المماليك •

ولما رأى ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما أن الزمن يسير لصالح حسن باشا القبطان قررا مقاومته ، ولكن حدث خلاف في الرأي بينهما حول أسلوب القتال . وكان رأي ابراهيم بك ملازمة مراد بك له وقيامهما بعمل مشترك ضد حسن باشا ، واذا رأيا أن لاقدره لهما على ذلك أمكنهما الهرب وانتظار الفرصة السانحة ، كانسحاب حسن باشا من مصر ، للعودة . وحاول مراد بك الانفراد بالمقاومة ،وتخلف ابراهيم بك في القاهرة حيث حاول التودد الى العلماء لكسبهم الى جانبه . ولعب الباشا العثماني ، الذي تقوى بمجيء حسن باشا ، دورا سياسيا بارزا في القاهرة في هذه الأثناء . وقد هزمت قوات مراد بك في الرحمانية ، قرب رشيد ، حين اصطدامها بقوات حسن باشا . وفشل مراد بك وابراهيم بك بالقيام بعمل مشترك للدفاع عن القاهرة ، وهربا من بولاق حيث حاول التمركز لمقاومة تقدم القوات العثمانية ، واتجها نحو الصعيد (الوجه القبلي) ، وعرفا مع أتباعهما ، تبعا لذلك ، بالجماعة أو الامراء القبليين ، وأحيانا بالقبالى أو القبليين . ودخل حسن باشا الى القاهرة في ١٢ شوال ١٢٠٠ / ٨ آب ١٧٨٦ .

وعمد حسن باشا الى التودد الى الزعماء المحليين في القاهرة فخلع على كثير من الصناجق والأمراء لكسب تأييدهم ، وعطف على الاشراف . وقد صادر أموال الامراء الهاربين . وطرد من القاهرة البطالين الذين قدموا اليها من الريف ، وذلك في محاولة منه للتخفيف من الازمة الاجتماعية والاقتصادية فيها . ووطد حسن باشا الامن ، ومنع العساكر من الانتساب الى الحرف ، فسر الحرفيون بذلك . وقد عمد ، بالمقابل ، الى مصادرة الاموال ، بصورة غير شرعية بحجة قافلة الحج . وقاسى كثيرون من ذلك وبخاصة التجار .

واهتم حسن باشا بتوطيد سلطته بخاصة في اقليم البحيرة لتأمين خطوط مواصلاته مع الموانىء الساحلية . وقد عين كاشفا على اقليم البحيرة ، وشدد قبضته على البدو الثائرين فيه . وخلع على شيخ بدو بني حبيب في البحيرة لطاعته ، وأوكل اليه جمع الضرائب في المنطقة الممتدة بين بولاق وحدود دمياط ورشيد . وكان علي بك قد جرد مشايخ بني حبيب من هذه الصلاحيات التي

كانت سابقا في عهدتهم • وحين وطد حسن باشا سلطته ولم يعد بحاجة لدعم بني حبيب جردهم من مهمة جمع الضرائب ، وعهد بها الى أحد الصناجق •

واستدعى حسن باشا اسماعيل بك الهارب ، وهدفه من ذلك أن يملأ به الفراغ الذي خلفه في السلطة المحلية غياب شيخ البلد ابراهيم بك وزميله وان يستخدمه لمعارضة هذين الزعيمين الهاربيين • ودخل اسماعيل بك الى القاهرة في ٧ محرم ١٢٠١ / ٣٠ تشرين الاول ١٧٨٦ ، وجعله حسن باشا شيخا للبلد • ولم يكتف حسن باشا بهذا الاجراء لايجاد توازن في القوى بل عمد الى ارسال عدة حملات الى الصعيد للقضاء على الهاربين • وبعد عودة اسماعيل بك الى القاهرة أرسله حسن باشا على رأس حملة ضد العصاة في الصعيد مستفيدا من نفوذه السابق • وكان هدف حسن باشا من ذلك ايجاد معارضة محلية قوية للعصاة المحليين الهاربين ليتاح له الاهتمام بشؤون القاهرة وتوطيد السلطة العثمانية فيها • ولكن ابراهيم بك ومراد بك صدا الحملات التي ارسلت ضدهما ، وبقيت لهما السيطرة في الصعيد •

غادر حسن باشا القاهرة في ٢٣ ذي الحجة ١٢٠١ / ٦ تشرين الاول ١٧٨٧ متوجها الى استانبول بسبب حاجة الدولة اليه للاشتراك في حرب جديدة مع روسيا التي استأنفت توسعها على حساب العثمانيين في بلاد القرم • وقد ابقى حسن باشا اسماعيل بك في مشيخة البلد وزوده بالعتاد ، وترك في مصر ألفا وخمسمائة جندي • واصطحب حسن باشا معه بعض الرهائن لضمان طاعة التمردين في مصر •

واستغل اسماعيل بك انفراده بالرئاسة في مصر فعمد الى ابتزاز الاموال • وقد أكثر من شراء المماليك وبناء الأبنية الخاصة في القاهرة • واشتدت النقمة ضده • واغتنم ابراهيم بك ومراد بك فرصة انسحاب حسن باشا ثم وصول أنباء وفاته في منتصف رجب ١٢٠٤ / آواخر آذار ١٧٩٠ واشتغال الدولة بالحرب مع روسيا ، لاستعادة سلطتهما • وحدث طاعون ، في هذه الاثناء ، في مصر قضى على كثيرين ومن بينهم اسماعيل بك • وكانت وفاته في ١٦ شعبان ١٢٠٥ / ٢٠ نيسان ١٧٩١ • وقد أصبح شيخ البلد وكبير القوم من بعده تابعه عثمان بك طبل الذي

اختير كحل وسط بسبب طموح من هم أقوى منه سلطة الى خلافة اسماعيل بك •

ولم يتمكن عثمان بك طبل من ملء الفراغ التي تركه موت اسماعيل بك بسبب ازدياد تهديد الامراء العصاة له ومنافسة خصومه الطامعين بالسلطة • وحين وصلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى ضواحي القاهرة ، انهارت المقاومة في المدينة • وانضم الى المهاجمين كثير من أتباعهم ومماليكهم المقيمين في القاهرة • وكان في طليعة المنضمين الى ابراهيم بك ومراد بك شيخ البلد وكبير القوم عثمان بك طبل • وأسقط اذ ذاك في أيدي القلة الذين أرادوا مقاومة الهجوم ، وهربوا باتجاه الصعيد • ودخلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١٢٠٥ / ٢٢ تموز ١٧٩١ دون أن تلاقي أية مقاومة •

وخلع الباشا العثماني في مصر على ابراهيم بك ومراد بك ، وتوسط لهما لدى السلطات في استانبول فصدر عفو عنهما • ثم قاما بطرد القوات المرتزقة من القاهرة ، واستعدا لارسال حملة ضد اعدائهم الذين هربوا الى الصعيد • ولكن هؤلاء الهاربين ضعفوا كثيرا بسبب الاختلاف في الرأي بينهم وتفرقهم في جهات مختلفة • ولم تعد هناك حاجة لارسال حملة من القاهرة ضدهم • وتمت السيطرة لابراهيم بك ومراد بك ، واشتد ظلمهما • واستغلا طلب السلطات في استانبول جمع ما تأخر من أموال الميري ومن التزامات أخرى في مصر لابتزاز المال رغم احتجاج السكان المحليين ضدهما •

وبقيت سلطة ابراهيم بك ومراد بك بدون منازع حتى وردت الى القاهرة أنباء نزول قوات نابليون بونابرت في الاسكندرية في أول تموز ١٧٩٨ • وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لنفوذ المماليك في مصر ونشأ عن ذلك ماعرف بالمسألة المصرية ، وبدأ التدخل الاوروبي في شؤون البلاد العربية الداخلية[٦٣] •

١ ـ انظر حول محاولات الاصلاح في الامبراطورية العثمانية .
B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London, 1961, pp. 40 - 72.

٢ ـ انظر : منجد ، ولاة دمشق في العهد العثماني ، ص ٧٧ .

٣ ـ محمد بن عيسى بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، اوقامهما : 9479 - we. (II) III4, 9480.we. (II) III5 ج ٢ ، ١٦٣ ب .

٤ ـ الخوري ميخائيل بريك ، تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٣) ، تحقيق الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ٢ ، ٣ ، ٣٦ .

٥ ـ توفي سنة ١١٨٤/١٧٧٠ ـ ١٧٧١ . وقد ترك تاريخا لايعرف مكانه الان . واطلع عليه ونقل منه محمد خليل الراوي ، صاحب ((سلك الدرر)) ، انظر : الطباخ ، ج ١ ، ٣٦ ، ٣٧ .

٦ ـ انظر حول حكم ال العظم في هذه الفترة كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 77-131.

٧ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، تاريخ ظاهر العمر الزيداني ، تحقيق قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ ، ص ٤٦ ـ ٥٢ .

٨ ـ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٨٤ ، ابن كنان ، ج ٢ ، ١٦٥ ب ، ١٦٨ ب، ١٧٠أ .

٩ ـ الكيس وحدة عثمانية في التعامل النقدي . واختلفت قيمته باختلاف الزمان والمكان . وتالف الكيس الرومي من خمسمائة قرش .

١٠ ـ انظر حول تفاصيل هذه الثورة الوصف الذي كتبه حسين بن طعمة البيتماني المعاصر والحقه بديوانه المخطوط الذي توجد نسخة منه في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or - 3175 الاوراق ، ١٧ أ ـ ١٧ ب .

١١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ٦٨ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ص ٧٨ ، بريك ، ص ١٠ ، ابن كنان ، ج ٢ ، ١٥٩ أ ، ١٨٨ ب ، احمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٦ ، تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي ، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥ .

١٢ ـ ابن كنان ، ج١ ، ١٨١ أ ، المرادي ، سلك الدرر ، ج١ ، ١٦٧ ، ج٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

١٣ ـ يوجد مختصر مخطوط لهذا الكتاب في مجموعة برلين ، عنوانه : مختصر الروض الناقح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح ، برقم 8047. we. (II) 1771.

١٤ ـ البديري ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

١٥ ـ المصدر السابق ، ص ٥٨ ، المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٢٨٧ .

١٦ ـ انظر الدراسة التفصيلية لهذه الاحداث في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 169 - 175.

١٧ ـ عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Add - 23, 385 ، الورقة ٩٤ ب .

١٨ ـ انظر تفاصيل ذلك في البديري ، ص ١٤١ ـ ١٤٤ .

١٩ ـ سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦١ .

٢٠ ـ انظر تحليل الاسباب التي ادت الى عزل ومقتل اسعد باشا في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 204-207, 213 - 222

٢١ ـ البديري ، ص ٤٢ ـ ٤٦ .

٢٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

٢٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

٢٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

٢٥ ـ ص ، ٥٢ .

٢٦ ـ مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٨٧٢٤ .

٢٧ ـ انظر حول هذه الزلازل والطاعون واضرارها : الشيخ محمد احمد دهمان « زلـزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلة المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧ ، وانظر ايضا البديري ، ص٢٢٢ ـ ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

٢٨ ـ عجائب الآثار ، ج ١ ، ٢٠٩ .

٢٩ ـ حسن الشهير بابن الصديق ، غرائب البدايع وعجائب الوقايع ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9832. we. (II) 417 ، الورقة ٨٣ ب .

٣٠ ـ تعرف منطقتنا حاصبيا وراشيا باسم وادي التيم . انظر حول الحادثة : بريك ، ص ٧٢، حيدر احمد شهاب ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ٣ اجزاء ، تحقيق فؤاد افرام البستاني واسد رستم ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ج ١ ، ٥٣ ـ ٥٤ .

٣١ ـ انظر حول اخلافات ظاهر مع ابنائه وتدخل الفرقاء الاخرون : ميخائيل الصباغ ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ، عبود الصباغ ، الروض الزاهر في اخبار ظاهر ، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس ، برقم Arabe 4610 الورقة ١٠ أ ـ ١٤ أ .

٣٢ ـ انظر حول نشاط الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط في هذه الفترة
R.C. Anderson, **Naval Wars in the Levant, 1559-1853,** Liverpool, 1952, pp. 286-289.

٣٣ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٨١ .

٣٤ ـ انظر : ابن الصديق ، الاوراق ، ٨ ب ـ ٩ أ ، ١١ أ ـ ١١ ب ، ١٧أ، عبودالصباغ ، ١٦ ب ـ ١٨ أ ، وانظر ايضا الوثائق الخارجية الفرنسية المحفوظة في دار الارشيف الفرنسيةبباريس
A.E. B1 1034 : Seyde, 20.11.1770, Seyde, 3.12.1770, B1 1035 : Seyde. 4.2.1771.

٣٥ ــ انظر نص البيان في حيدر احمد شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٣ ــ ٨٥ ، حيدر احمدشهاب تاريخ احمد باشا الجزار ، تحقيق الاب انطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفة ، بـــيروت ١٩٥٥ ، ص ٤١ ــ ٤٤ .

٣٦ ــ انظر تفاصيل احتلال دمشق في مخطوط ابن الصديق .

٣٧ ــ للتوسع في الاحداث السابقة انظر كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 282-290.

٣٨ ــ انظر حول هذه الاحداث :

A.E.B1 1035: Seyde, 28.6.1772, Seyde, 31.7.1772; Anderson, p.298.

وانظر ايضا ، حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ص ٩٣ ــ ٩٤ ، تاريخ الجــزار ، ص ٤٨ــ٤٩ ، الشدياق ، ج ٢ ، ٤٥ ــ ٤٦ .

٣٩ ــ انظر : الجبرتي ، جـ١ ، ص ٤١٣ ــ ٤١٤ ، حيدر شهاب ، لبنان٢ ، جـ١ ، ص ١١٠ ، تاريخ الجزار ، ص ٦٣ ــ ٦٤ .

٤٠ ــ انظر : عبود الصباغ ، الاوراق ، ٣٣ ب ــ ٣٩ ب ، ميخائيل الصباغ ، ص ١٣٤ ــ ١٤٩، حيدر شهاب ، لبنان ، جـ١ ، ص ١١٢ ــ ١١٣ .

٤١ ــ سلك الدرر ، جـ ٤ ، ص ١٠١ .

٤٢ ــ انظر حول هذه التطورات :

The Province of Damascus, pp. 314-330

٤٣ ــ انظر حول هذه الاحداث : القاري ، تحقيق المنجد ، ص ٨٥ ــ ٩٠ ، ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان (١١٩٧ ــ ١٧٨٢/١٢٥٧ ــ ١٨٤١) ، تحقيق الاب لويس معلوف اليسوعي، بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤ ــ ١٤ ، عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣اجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ ــ ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ١٢٧ ــ ١٣٢ .

٤٤ ــ انظـر :

H. Bodman, **Political Factions in Aleppo, 1760-1826,** North Carolina Press, 1963, pp. 79-102; J. Sauvaget, **Alep,** Paris, 1941, pp. 196-200.

٤٥ ــ الطباخ ، جـ ٢ ، ٣٧٠ ــ ٣٧٤ .

Jean de Thévenot, **Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique, 5** vols., Amsterdam, 1727, vol, II, pp. 701-710.

٤٧ ــ انظر حول البــدو

'Anaza Bedouins, **EI2;** M.V.J. « Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus Arabes en Syrie», **Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire,** vol.8, Paris, 1804, pp. 281-324.

وانظر ايضا : عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ اجزاء ،دمشق١٣٦٨/١٩٤٩

٤٨ ــ انظـر :

R. Mantran, « Bagdad à l'époque Ottomane », **Arabica,** 1962, pp. 316-317.

٤٩ ـ انظر حول هذه الاحداث : عبد الرحمن بن عبد الله السويدي ، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، مخطوط في مكتبة المتحف البريطاني بلندن برقم Add. 18,507 وقد بدأ الدكتور صفاء خلوصي بنشر هذا المخطوط ، وظهر الجزء الاول منه في بغداد ، ١٩٦٢ ، الشيخ رسول الكركوتلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس ، بغداد(بدون تاريخ) ص ١٥ ـ ٩٥ ـ العزاوي ، جـ ٥ ، ص ١٦١ ـ ٢٨١ . Longrigg pp. 123-162.

٥٠ ـ انظر حول حكم هؤلاء الولاة : العزاوي ، جـ ٦ ، ص ـ ٢٣٦ ، الكركوتلي ، ص ٢٢١ ـ ٢٧٥ .

٥١ ـ انظر حول اصل داود باشا وسيرته : يوسف عز الدين : داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، بغداد ، ص ٢٣ ـ ٦٣ .

٥٢ ـ انظر حول حكم داود باشا : عثمان بن سند البصري ، مطالع السعود في اخبار اعظم الوزراء واعظمهم داود ، مخطوط في المتحف العراقي ببغداد ، برقم ٢٣٣ . وقد اختصر هذا الكتاب الذي اشير اليه باسم : مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود ، الشيخ امين بن حسن الحلواني المدني تحت عنوان : خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ، ١١٨٨ ـ ١٢٤٢ هـ ، القاهرة ١٣٧١ ، الكركوتلي ص ٢٧٥ ـ ٣٠١ العزاوي ، جـ ٦ ، ص ٢٣٦ ـ ٣١ ـ ٣٠٢ .

٥٣ ـ انظر حول حكم ال الجليلي : ياسين بن خير الله الخطيب العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوه جي ، الموصل ، ١٩٥٥ ، ص ٨١ ـ ٨٨ ، ١٧٨ ـ ١٩٣ ، العزاوي ، جـ ٥ وجـ ٦ ، القس سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ـ ٩ ـ ٣ .

٥٤ ـ انظر حول هذه الاحداث :

Ahmad Abu-Hakima, «The Development of the Gulf States», **The Arabian Peninsula: Society and politics,** ed. D. Hopwood, London, 1972, pp. 32-33, 40-48; G. Rentz and W.E. Mulligan, **E.I.2,** s.v. al-Bahrayn.

٥٥ ـ انظر :

J.C. Wilkinson, « The Origins of the Omani State», pp. 67-88; R.D. Bathurst, «Maritime Trade and Imamate Government: Two principal themes in the history of Oman to 1728», pp.89-106; J.B. Kelly, «A Prevalence of Furies», pp. 107-141, in **The Arabian Peninsula,** ed. Hopwood.

٥٦ ـ انظر حول هذه التطورات :

G. Rentz, «Wahhabism and Saudi Arabia, » in **Studies on Modern Asia and Africa, pp. 54-66;**

وانظر ايضا : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب (مجهول المؤلف) ، تحقيق احمد ابو حاكمة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، في جزئين ، الرياض ، ١٣٨٥هـ محمد بن عبد الله الانصاري ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، في قسمين ، الرياض ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ م .

٥٧ ـ انظر الدراسة التالية :

John Voll, «The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth-Century Damascus», in **Der Islam,** vol.49 (2), Nov., 1972, pp. 277-291.

٥٨ ـ انظر : Holt, Egypt and the Fertile Crescent, p. 155

٥٩ ـ انظر حول الاحداث السابقة :

مصطفى القينلي ، مجموع لطيف يشتمل علىوقائع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠ الى اخر تاريخ المجموع (أي ١١٥٢ هـ)، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، برقم Cod. Arab. 931, H.O.38 الاوراق ، ١٧٥ ب ـ ١٩٢ ، احمـــــد شلبـي ، الاوراق ٢٣٨ أ ـ ٢٦١ أ ، الجبرتـي ، جـ ١ ص ١٤٦ ـ ١٥٣ ، ١٦٨ ـ ١٦٩ ، ١٧٨ ـ ٢٠٣ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٢١٧ ـ ٢١٨ ، ٢٨٠ .

٦٠ ـ انظر الدراسات التالية :

P. M. Holt, «The (Cloud-Catcher): 'Ali Bey the Great of Egypt», **History Today,** London, IX.1 (January, 1959), pp. 48-58; J. W. Livingstone, « The rise of shaykh al-balad 'Ali Bey al-Kabir», **BSOAS,** vol. 33,pt.2 (1970), pp. 283-294.

٦١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : الجبرتي ، جـ ١ ، ٢٥٣ ، ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٦ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، ٤١٧ ، عبود الصباغ ، ١٥ ب ،حسن الشهير بابن الصديق ، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، محفوظفيمجموعة برلين،برقم 9832. We. (II) 417 الاوراق ، ٢ أ ، ٣ أ ـ ١٤ ، ٥ ب ـ ٧ ب ، وانظر ايضا :

James Bruce, **Travels to discover the sources of the Nile in the years,** 1768-1773, 8 vols., Edinburgh, 1831, VI, pp. 540-541; F. Charles-Roux, « La Politique Française en Egypte à la fin du XVIIIe siècle», **Revue Historique 91** (1906), pp. 2-3.

٦٢ ـ انظر حول الاحداث السابقة ومصادرها

The Province of Damascus, pp. 260-309

٦٣ ـ انظر الجبرتي ، جـ ١ ، ٤١٤ ، جـ٢ ، ٢ ـ ٣ ، ٨ ـ ٢١٥ ، ٢٠ ، ٧٩ ـ ٩٢ ، ١٠٥ ـ ٢٦٤ جـ ٣ ، ١٦٧ ـ ١٦٨ ، جـ ٤ ، ٢٦٢ ، مخطوط مجهول المؤلف بعنوان : تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ حتى ذي القعدة ١١٩٨) ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1856 الاوراق ، ١ ب ـ ٣١ أ ، يراجع حول الحملة الفرنسية علىمصر : عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، تحقيق محمد عطا ، جزءان ، برقمي ٥٩ و ٦٠ ، في سلسلة اخترنا لك ، ويراجع ايضا : نقولا الترك ، ذكر تملك جمهـورالفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشاميـة ، تحقيق Desgranges Ainé ، باريس ١٨٣٩ ، ثم تحقيق G. Wiet ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

الفصل الخامس

الانفصال عن العثمانيين

الاصلاح في الدولــة العثمانية

قام السلاطين العثمانيون بالاصلاح تحت ضغط الهزائم العسكرية التي منوا بها ولهذا تناول اصلاحهم ، بالدرجة الاولى ، الجيش • وهدفوا من وراء ذلك تثبيت حكمهم وليس القيام بالاصلاح حبا به • وكانوا بذلك يتبعون السياسة ذاتها التي سبقهم اليها ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الحكام المصلحون في بروسيا ، والنمسا ، وروسيا ، الذين طبقوا فلسفة الاستبداد المستنير ، وهي آخر محاولة من المملوك « للتوبة » عن سياستهم المطلقة ، بغية تحاشي قيام الثورات ضدهم • ولم يكونوا جميعا مخلصين للاصلاح بل قاموا به بالمقدار الذي يخدم مصالحهم فقط •

وجاءت جميع الاصلاحات في الدولة العثمانية ، في القرن التاسع عشر ، من الأعلى ، لخدمة الطبقة الحاكمة • وكان أول الســلاطين المصلحين سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) ، الذي قام بعدد من الاصلاحات ، أهمها في المجال العسكري ، حين أسس وحدات عسكرية حديثة عرفت بالنظام الجديد ، وأقام كذلك بعض الصناعات العسكرية • وبدأت المدارس العسكرية والبحرية ، التي سبق أن أنشئت، بتخريج ضباط مدربين على الطراز الغربي • وأقيمت البعثات الدبلوماسية التركية في عدد من عواصم أوروبا الغربية والوسطى • وقد أدت هذه الاصلاحات ، وبخاصة أوامر السلطان في عام ١٨٠٥ بتجنيد السكان وبعض الانكشارية في الجيش الجديد ، الى اثارة نقمة الانكشارية والعلماء ، الذين تمكنوا في عام ١٨٠٧ من الاطاحة بحكم السلطان سليم الثالث واصلاحاته ، بموافقة مفتي استانبول ، وهو شيخ الاسلام •

وفي العام التالي قام أحد كبار مؤيدي الاصلاح ، مصطفى باشا بيرقدار ، وكان قائد فرقة انكشارية في روميلية ، بانقلاب ضد السلطان مصطفى الرابع ، الـذي خلف سليما ، ودبر مقتله ، ونصب محمود الثاني مكانه ، وأصبح هو نفسه صدرا أعظم • ولكن الانكشارية قتلوه بعد أشهر • وهكذا فشلت محاولات الاصلاح الاولى ، وتبين استحالتها من خلال المؤسسات العثمانية التقليدية •

بدأت المرحلة التالية من الاصلاحات ، التي عرفت بالتنظيمات الخيرية ، في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) ، في أعقاب ثورة اليونان على العثمانيين في ١٨٢١، واثر الانتصارات التي حققهامحمد علي باشا، والي مصر ، ضد اليونانيين بفضل جيشه الحديث ، ممـا شجع السلطان محمودا على أعادة تشكيل النظام الجديد • وحين ثار الانكشارية احتجاجا على ذلك ، قضى عليهم وأبادهم بقوة السلاح في عام ١٨٢٦ • ثم حل السلطان الطريقة البكطاشية المرتبطة بالانكشارية ، واضطهد أفرادها ، وهدم عددا من زواياها ، وكان يدعمه في ذلك مفتي استانبول وكبار العلماء • ومما يجدر ذكره أن العلماء ، بعد أن فقدوا دعم الانكشارية ، انقسموا قسمين : الكبار منهم تحولوا الى دعم الدولة لأن معاشهم مرتبط بها ، بخاصة وان السلطان محمودا وضع الاوقاف تحت اشراف الحكومة ، التي قامت بتوزيع المخصصات للعلماء ، مما أنهى استقلالهم المالي ، وبالتالي حريتهم في العمل ضد الحكومة ، أما العلماء الادنى مرتبة ، الذين ضموا طلبة المدارس الشرعيـة المعروفين بالسفطة ، وكذلك أصحـاب الطرق ، فقد وقفوا ضد الحكومـة ، ومارسوا نفوذا كبيرا بين جماهير الشعب • وجاءت الاصلاحات والانقسام في الولاء لتعمق الخلاف بين طرفي العلماء • ومما انقص من نفوذ العلماء فتح الدولة المدارس على الطراز الغربي ، وهدفها في المرحلة الاولى تزويد الدولة بالكوادر العسكرية والادارية الضرورية ، ولهذا اعطي الطلاب المرتبات ، وعدوا موظفين حكوميين • ولتهيئة المدرسين استقدم الخبراء الاوربيون ، وكثير منهم اشتركوا في حروب نابليون بونابرت في أوروبا ، وحين انتهت وجدوا المجال مفتوحا أمامهم في الدولة العثمانية ، بعد أن اعتنق معظمهم الاسلام • كما أرسلت البعوث الى أوروبا بشـكل متزايد • وكان عمل محمد علي باشا في مصر ، في هذا المجال ، مثلا احتذاه السلطان العثمـاني •

ومن الاجراءات الهامة التي عززت سلطة الدولة المركزية القيام ، في عام ١٨٣١ . بأول مسح واحصاء للسكان ، والهدف من ذلك تجنيد الافراد في الجيش الجديد . وفرض الضرائب لتمويل هذا الجيش . وصدر ، في ذلك العام ، اجراء هام آخر ألغى نظام التيمار ، أي الاقطاع العسكري ، الذي كان دعامة الدولة في مطلع عهدها ، وزودها بالفرسان (السباهية) ، الذين اعطوا الارض لقاء خدماتهم . وقد انهار نظام التيمار على مر الزمن ، وألغيت السباهية بالغاء الانكشارية ، في عام ١٨٢٦ ، وتحولت الاقطاعات الى أراضي دولة ، وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد . وزاد هذا الاجراء من مركزية الدولة ومن هيبة السلطان في الولايات . ومن الاجراءات الهامة التي اتخذها السلطان محمود الثاني انشاء مديرية خاصة (تحولت الى وزارة فيما بعد) لتنظيم أمور الاوقاف ، بعد أن فسدأمرها ، وكثر تحويل الملك الى وقف اهلي أو ذري ، لتحاشي مصادرته من قبل الدولة . ولما كان الوقف مقتصرا عادة على المدن وجوارها المباشر ، حيث شاع الملك وعم تحويله الى وقف ، بينما كانت معظم الاراضي الزراعية في الريف أراضي دولة تعطى كاقطاع أو تجبى وارداتها عن طريق الالتزام ، فقد تحولت واردات الوقف لتقوية طبقة العلماء ، الذين كانوا نظارا ومتولين للاوقاف . وجاء هذا الاجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر هام من مصادر قوتهم ، وليزيد بالمقابل من سلطة الدولة[1] . ولعل أهم اجراء تشريعي سلب العلماء كثيرا من صلاحياتهم ، اصدار المجلة بفضل جهود الفقيه والمؤرخ احمد جودت باشا . وقد صدر قسمها الاول في عام ١٨٦٩ ، وتمت في ١٨٧٦ . ومع أن قانون الاسرة والارث بقي في أيدي السلطات الدينية ، فقد اشتملت المجلة على قوانين مدنية ، مبنية على مزيج من القوانين الاوروبية والشرعية. فيما يتعلق بالامور الجزائية ، والتجارية ، والعقارية ، وقضايا الجنسية . وأقيمت محاكم غير دينيـة لتنفيذ قوانين المجلة .

وقد صدرت ، على فترات ، سلسلة أخرى من الاصلاحـات ، أبرزها خط شريف كولخانة (غرفة الورد) ، من قبل السلطان عبد المجيد ، في عام ١٨٣٩ . وخط شريف همايون ، من قبل السلطان نفسه في عام ١٨٥٦ . وبلغ الاصلاح الذروة باعلان الدستور ، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، في عام ١٨٧٦ .

واقترنت هذه الاصلاحات بأسماء الوزراء رشيد باشا ، وعالي باشا ، وفؤاد باشا ، ومدحت باشا . وقد اتت من الاعلى لدعم سلطة الطبقة الحاكمة وامتصاص النقمة المحلية ، من ناحية ، ولارضاء الدول الكبرى ، وبخاصة باعطاء الامتيازات للسكان غير المسلمين ، من ناحية أخرى . وقد أكد خط شريف همايون ماورد في خط شريف كولخانة ، بل ذهب الى أبعد منه ، بأن أكد لغير المسلمين الحرية الدينية ، والمساواة أمام القانون ، وفي الضرائب ، والوظائف العامة ، والانتساب الى المدارس ، والخدمة العسكرية . وما دامت هذه الاصلاحات قد تمت ، على الورق ، لارضاء الدول الاوروبية ، في اوقات الحاجة اليها ، فلم تكن لتدل على سياسة تحررية مرسومة لدى الحكام العثمانيين ، اذ سرعان ماتخلى هؤلاء عن هذه الاصلاحات المعلنة ، بزوال الظروف التي أدت اليها . ومما يذكر ان خط شريف كولخانة قد صدر في ١٨٣٩ لاستجداء دعم الدول الاوروبية ضد محمد علي باشا لاخراجه من بلاد الشام ، وكذلك صدر خط شريف همايون في ١٨٥٦ ، للحصول على دعم الدول الاوروبية ، في مؤتمر باريس ، الذي أنهى حرب القرم بين العثمانيين ، الذين تدعمهم فرنسا وانكلترا ، وبين روسيا . أما دستور ١٨٧٦ فقد صدر قبيل انعقاد مؤتمر برلين (١٨٧٨) لتسوية أمور البلقان والذي قرر مصير الدولة العثمانية في اوروبا . ورغم الصفة التحررية الظاهرية لهذه الاصلاحات ، فانها أكدت مركزية الدولة ، وحقوق السلطان أكثر من واجباته . وعندما رقي عبد الحميد الثاني السلطنة ، في عام ١٨٧٦ ، كان المنصب مهيئا لمستبد ، لان القوى التي عارضت السلاطين ، من انكشارية وعلماء ، قد زالت ، في الوقت الذي استخدمت فيه الاساليب الاوروبية الحديثة ، على الصعيدين العسكري والمدني ، لتوطيد دكتاتورية السلطان وتشديد قبضته في مختلف أنحاء الامبراطورية .

ولكن معارضة الاستبداد في الحكم بدأت تنمو في صفوف الطبقة المثقفة فالمؤسسات العلمية العلمانية التي أخذت بالانتشار ، في القرن التاسع عشر ، من مدارس ابتدائية وثانوية ، وكليات لتخريج الاطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين والضباط ، وكذلك جامعة دار الفنون التي تأسست في ١٨٧٠ ودامت لفترة قصيرة ، أخذت بتخريج أجيال درست على الطريقة الاوروبية وبلغات أوروبية . وبانتشار

الطباعة اشتهر الصحافي الذي لعب دورا هاما في التطور الوطني • وفي أعقاب الجريدة الرسمية التي صدر اول اعدادها في ١٤ أيـار ١٨٧٢ ، ظهرت الصحف المستقلة ، وكانت أولاها جريدة الحوادث التي أصدرها انكليزي في ١٨٤٠ ، باللغة التركية • ثم بدأت المنافسة الصحفية بتأسيس جريـدة اسبوعيـة ، في ١٨٦٠ ، باسم (ترجمان أحوال) • وتلتها بعد عامين صحيفة (تصوير أفكار) ، لابراهيم شيناسي ، وفي عام ١٨٦٣ صحيفة (مرآة) التي اصدرها نامق كمال • وقد لعب هذان الصحفيان، بالاضافة الى ضيا باشا ، دورا هاما في نمو الحركة الادبية التي اتخذت بالتدريج صفة وطنية • وقد درس هؤلاء الأدباء اللغة الفرنسية اما في استانبول أو في اوروبا ، واتخذوا موقفا متطرفا من السلطة • وبرزت في هذا المجال جريدة (مخبر) ، التي اصدرها في ١٨٦٧ علي سؤافي ، الذي كان ، على خلاف سابقيه ، أبناء الطبقة الحاكمة والملاكين ، ابن فلاح ، قدم الى استانبول ، ودرس على الطريقة التقليدية ، ثم أصبح معلما فصحفيا • وحين هاجم الصدر الاعظم نفي الى الاناضول ، ثم هرب الى أوروبا • وتكاثرت الصحف ، وازداد اهتمام السلطة بالسيطرة عليها ، مما اضطر عددا من الصحفيين الى الهرب الى أوروبا ، واصدار صحفهم فيها ، ثم تهريبها الى الدولة العثمانية • ومن سخرية القدر أن الذين ذهبوا الى أوروبا ، في المرة الاولى ، ليتعلموا فنونها ، عادوا اليها بعد ذلك منفيين يدفعون ثمن ماتعلموه فيها •

واذا كان من السهل على السلطان عبد الحميد أن يضطهد دعاة الاصلاح من المدنيين ، فلم يكن الأمر بمثل تلك السهولة فيما يتعلق بدعـاة الاصلاح من العسكريين فالعسكريون هم اول من احتك بالفكر الاوروبي ، سواء كان عن طريق ايفادهم الى اوروبا أم بواسطة المدربين الاوروبيين في استانبول • والعسكـري الذي درس اللغات الاوروبية لتعلم فنون القتال ، أفاد من هذه اللغات في الاطلاع على الاتجاهات الفكرية وفنون الثورات التي زخرت بها أوروبا في القرن التاسع عشر • وهو الذي لاحظ قبل ، بل أكثر ، من غيره ، أن ازدياد استبداد السلطان رافقة سلخ أجزاء هامة من الامبراطورية العثمانية ، في الجزائر ، وتونس ، ومصر والبلقان • وكرد فعل لهذه الخسائر ولمقاومة دعاة الاصلاح والقومية في الداخل عمد

السلطان عبد الحميد ، في محاولة لتوطيد سلطته ، الى تبني سياسة اسلامية للدولة العثمانية والى اتخاذ لقب خليفة ، وأعلن ذلك في دستور عام ١٧٧٦ • ورغم تعليق الدستور بعد قليل ، فقد احتفظ السلطان باللقب ، لانه يخدم أغراضه• وكان السلطان العثماني قد استخدم لقب خليفة في السابق ، في معاهدة كجك قاينارجه : مع روسيا ، في عام ١٧٧٤ ، لتغطية هزيمته العسكرية وتخليه عن أرض يسكنها أتراك مسلمون • وهدف السلطان عبد الحميد من لقب خليفة الى ارهاب بريطانيا بخاصة التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند ، وذلك باعلان الجهاد ضدها • وأفاده ذلك فيما بعد ، حين احتلت بريطانيا وفرانسا وهولاندا مناطق اسلامية(٢) •

وقد ضم دعاة الاصلاح ، الذين جابهوا سياسة الاصلاح من الاعلى التي تبنتها الحكومة ، مزيجا من ضباط الجيش والموظفين المدنيين والمفكرين المعتدلين ، وشكلوا في عام ١٨٦٥ الجمعية العثمانية الفتاة • ولكن الخلافات الشخصية والعقائدية بين افراد هذه الجمعية ، والانتماءات الطبقية ، وبالتالي المصلحية ، المتضاربة التي توزعتهم ، سرعان ما أظهرت ضعف هذا التنظيم ، الذي دعا الى نوع من قومية عثمانية اسلامية ، ولم يطالب بالاطاحة بالسلطان بل اكتفى ، على غرار ما طالب به دعاة فلسفة التنور في أوروبا آنذاك ، بتقييد سلطة الحاكم بدستور ، بمعنى آخر جعله مستبدا مستنيرا • وكان شعارهم : عدالة ، حرية ، وطن ، وليس مساواة لأنهم لم يقبلوا بمساواة غير المسلمين بهم • وكانت تحكمهم مصالحهم الشخصية بدليل قبولهم خدمة الحاكم حين أتيحت لهم الفرصة• وكان اعلان دستور عام ١٧٧٦ تتويجا لطامحهم ، ولكن تعليقه أظهر ضعف تركيبهم وعقائديتهم • ولهذا حل مكانهم ، في عام ١٨٨٩ ، تنظيم أكثر ثورية ، عرف بجمعية تركيا الفتاة • وكان نواتها طلاب المدارس الحربية ، الذين دعوا الى الاطاحة بالسلطان ، وضموا مزيجا من عناصر متنوعة ، من أتراك وعرب وألبانيين وغيرهم ، من الطبقة المتوسطة الدنيا • واضطهد أفراد هذا التنظيم ، في عام ١٨٩٦ ، في أعقاب اتهامهم القيام بانقلاب ، فهرب بعضهم الى أوروبا • وتضاءل عنصر المدنيين في هذا التنظيم فكاد يقتصر على العسكريين ؛ وأصبح مركزه سالونيك ، وشكل أتباعه جمعية الاتحاد والترقي • وكانت سالونيك عاصمة مكدونيا الثائرة ، مرتعا خصبا لنشاط الماسونيين ، فاتخذ أفراد جمعية

الاتحاد والترقي الماسونية ستارا لنشاطهم • كما أن وجود اليهود السفارديم (الاسبانيين) ، بأعداد كبيرة في هذه المنطقة ، اثر اخراج الساميين من اسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر ، وقيامهم بنشاط ماسوني وثوري ، جعل بعض أفرادهم يبرزون في جمعية الاتحاد والترقي[3] •وأخيرا أمكن لافراد هذه الجمعية ، في ١٩٠٨ـ ١٩٠٩ ، الاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ، والحكم من وراء سلاطين مضعفين • وكان لتبني أفراد هذه الجمعية في الحكم القومية الطورانية المتزمتة ، التي تنكرت للاخوة الاسلامية وعادت الى الجذور الوثنية للاتراك، وذلك بعد فترة قصيرة من اعلانهم احترام القوميات ، ضمن الاطار العثماني ، أن ألب ضدهم مختلف القوميات، وبخاصة العرب ، الذين أعلنوا الثورة عليهم في ١٩١٦ ، كما سنرى في بحث لاحق •

حكم الطغاة في العالم العربي

شهدت بلاد الشام والعراق ومصر ، منذ حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، تمركز السلطة في أيدي أمراء محليين ، أو مماليك ، احتكروا السلطة العثمانية ، وان لم يعلنوا خروجهم صراحة على العثمانيين • وقد سهل قيامهم ، واستمرارهم في الحكم ، انحطاط السلطة العثمانية ، وتأمينهم النظام في الداخل والدفاع ضد الأعداء في الخارج ، وهي أمور عجزت السلطة العثمانية عن تأمينها بصورة مرضية •

وقد سبق أن رأينا كيف أن ظاهر العمر استغل وظيفته كملتزم للضرائب في منطقة صفد ـ طبرية ، وتحالف أسرته ، الزيادنة ، مع القبائل البدوية المحلية ، وكذلك ازدياد النشاط التجاري الفرنسي في منطقته ، فأقام امارة عربية مزقها ، بعد أكثر من نصف قرن ، ما يمزق الامارات البدوية من تنازع أبناء الاسرة على السلطة حين تزداد منطقة الامير اتساعا ويبلغ الكهولة • كما أن تحالفه مع قوى أكثر قوة وطموحا منه مثل مماليك مصر ، أثار عليه حقد السلطات العثمانية فتخلصت منه في ١٧٧٥ ومن سلطة أبنائه خلال أعوام قليلة بعد ذلك •

واستغل أحمد الجزار الفراغ السياسي الذي حدث في بلاد الشام الجنوبية ، في أعقاب تلاشي نفوذ الزيادنة وضعف سلطة ولاة دمشق ، فاشتهر أولا كقائد عسكري اشترك في توطيد السلطة العثمانية ، ثم عمل لمصلحته من خلال ولايته على

عكا (ولاية صيدا) وعلى دمشق • وأقام جيشا من المماليك على شاكلته ، تحدى بهم السلطة العثمانية في سبيل الاستمرار في الولاية ، وأخضع بهم السكان المحليين ، وبخاصة أمراء جبل لبنان • وبلغ ذروة شهرته بمقاومته ، في عكا ، الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، وذلك بالتحالف مع الاسطول الانكليزي • وكان من الطريف أن يراقب المرء تطور علاقة الجزار مع كل من أمير جبل لبنان ، بشير الثاني الشهابي ، ومحمد علي باشا ، الذي توسع في بلاد الشام ، لو قدر له أن يبقى حتى تلك الفترة • وربما كانت وفاة الجزار ، في عام ١٨٠٤ ، قد جاءت في الوقت المناسب لتبقي له سمعة صموده أمام نابليون دون أن يشوه ذلك أي فشل لاحق ، بخاصة اذا علمنا عنف الهجمات التي شنها الوهابيون على أطراف دمشق ، بعد وفاة الجزار بسنوات قليلة ، وهزيمتهم للولاة العثمانيين في المنطقة ، وكذلك السهولة التي افتتحت بها قوات محمد علي باشا بلاد الشام • ولم يكن اسماعيل باشا العادل ، أحد كبار مماليك الجزار ، الذي حكم صيدا بين ١٨٠٤ و ١٨١٨ ، يتمتع بمثل طموح الجزار أو قوته • وقد اختص (بالعدل) ، بينما تسلم زمام المبادرة السياسية في المنطقة الامير بشير الثاني الشهابي •

ولم تشمل سلطة الامير بشير الثاني مناطق واسعة كالتي شملتها سلطة فخر الدين المعنى الثاني ، ومع ذلك فقد تمتع بسمعة كبيرة تجاوزت حدود منطقته ، بل وبلاد الشام ، حين وقف ضد نابليون بونابرت وتحالف مع محمد علي باشا حاكم مصر • وعلى غرار فخر الدين ، فقد شدد قبضته على الاعيان في منطقته ، وأخضعهم لسلطته •

وقد سبق القول أن الامير بشيرا اعتلى الامارة في جبل لبنان في عام ١٧٨٨ ، ولكن الجزار حاول اضعافه باثارة الامير يوسف الشهابي المعزول عليه • وبمقتل هذا الاخير في عام ١٧٩٠ ، سعى الجزار الى اثارة أبناء الامير يوسف على الامير بشير • وفي ثلاث مناسبات ، في ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ ، و ١٧٩٨ تدخل الجزار ضد الامير بشير ، وعزاه وعين أبناء الامير يوسف الثلاثة مجتمعين مكانه • وطبيعي أن يؤدي ذلك الى اضطرابات بين سكان الجبل بسبب انقسام الولاء بين الفريقين • وحين حاصر نابليون بونابرت عكا في ١٧٩٩ ، توجه ، مثلما فعل الجزار ، الى طلب مساعدة الامير بشيرا ، ولكن هذا ماطل في الجواب لكي يرى نتيجة الصراع ، بخاصة وأن السكان أنفسهم

كانوا منقسمين بالنسبة للطرفين المتحاربين • وبانسحاب نابليون واشتداد معارضة الجزار لبشير انسحب هذاالى العريش، حيث لجأ الى القوات العثمانية ـــ البريطانية المتحالفة معه ، بسبب تقديمه المؤن لهم ، وبواسطتهم عاد الى لبنان • ولم ينقذه من الجزار سوى وفاة هذا الاخير في ١٨٠٤ •

اتيحت للامير بشير ، بعد عام ١٨٠٤ ، فرصة توطيد مركزه في لبنان بالتعاون مع العثمانيين • وفي عام ١٨١٠ أرسل قواته لدعمهم في صد هجمات الوهابيين على منطقة دمشق ، ولكن تعيين عبد الله باشا الطموح على ولاية عكا في١٨١٩ ، ومحاولته فرض ضرائب كثيرة على الامير بشير أحرج مواقف هذا الاخير في جبل لبنان ، وأدى الى ثورة السكان عليه في عام ١٨٢٠ ، فيما عرف بالعامية الاولى ، نسبة الى العوام الذين اشتركوا في الثورة • والتجأ الامير بشير الى حوران ، ليعود بعد عام الى امارة الجبل بموافقة عبد الله باشا الذي وجد ان الامير بشيرا أقدر على حكم الجبل من أبناء عمه الذين نصبهم مكانه • وبلغ من دعم بشير لعبد الله باشا أن علاقته ساءت مع العثمانيين حين نشب القتال بين والي دمشق وعبد الله باشا • وبهزيمة هذا الاخير ، هرب الامير بشير الى محمد علي باشا والي مصر ، ومن هنا كانت العلاقة الطيبة بين الفريقين • واستغل محمد علي باشا ذلك للتدخل في شؤون الشام ، وبواسطته عاد كل من عبد الله باشا والامير بشير الى منصبيهما •

واستغل الامير بشير علاقته الحسنة مع عبد الله باشا ودعم محمد علي باشا له فحاول القضاء على أشد معارضيه في جبل لبنان ، وهو بشير جانبلاط ، فطالبه بمبلغ كبير من المال ، مما اضطره للثورة • وهزمت قوات بشير جانبلاط في عام ١٨٢٥ • وقتله عبد الله باشا حين لجأ اليه • وترتب على ذلك نتائج هامة في الجبل لان مقتل بشير جانبلاط أزال ليس فقط خصما عنيدا للامير بشير الشهابي ، وانما زعيما درزيا قويا مما أضعف الطائفة الدرزية بعد ذلك ، وزاد من عدائها للامير بشير الشهابي ، الذي شاع عنه اعتناقه المسيحية آنذاك(٤) • ودفع الامير بشير ثمن تحالفه مع محمد علي باشا بوقوفه الى جانبه حين غزت قواته بلاد الشام في ١٨٣١ ، بعزله من الامارة حين اخرجت قوات محمد علي باشا من الشام في ١٨٣٩ •

ولم يدم حكم المماليك في العراق ، كما سبق القول ، الى أبعد من عام ١٨٣١ • ولم يكن طاغيتهم الاخير ، داود باشا ، سوى مظهر ذاو للسلطة المملوكية ، فالعوامل التي أتت بالمماليك الى حكم العراق تلاشت الآن ، ومعها الزعامة المملوكية • فقد نشطت الادارة العثمانية ، في عهد السلطان محمود الثاني ، الذي قضى على مراكز القوة، من انكشارية وعلماء وأصحاب اقطاعات،وبدأت السلطة المركزيةتتقوى بنتيجة الاصلاح • كما أن الخطر الذي هدد العراق من بلاد فارس ، في القرن الثامن عشر واستدعى ظهور المماليك وتشبثهم بالحكم ، قد انعدم تقريبا في القرن التاسع عشر ، لان حكام بلاد فارس آنذاك من القاجار (١٧٩٤ ـــ ١٩٢٥) ، كان همهم توطيد سلطتهم في الداخل ومحاربة روسيا التي احتلت أجزاء من أراضيهم • ويذكر أنه بموجب المعاهدة الروسية ـــ الفارسية ، في عام ١٨٢٨ ، التي اعترفت باحتلال روسيا للقفقاس ، وضع حد لتجنيد المماليك من مناطق القفقاس ، وتوقف بالتالي ارسالهم الى العراق ، والى مصر • والعامل الآخر الذي استدعى تسلط المماليك في العراق ، في القرن الثامن عشر ، وتضاءل شأنه الآن ، هو اعتداءات قبائل البدو ، وبخاصة المنتفق وبني خالد ، التي شغلت ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اما بتبني أو بمعارضة الوهابية • كما أن الحركة الوهابية ، بعد غزواتها في مطلع القرن التاسع عشر ، لمناطق بغداد ، قد تحولت بعد ذلك من دور الغزو الى دور الاستقرار واقامة دولة منظمة في الحجاز ومناطق الجزيرة الاخرى ، ولهذه الاسباب مجتمعة كان حكم المماليك في العراق محكوما عليه بالتلاشي ، وخلال ثلاث سنوات من انتهائه انتهى حكم آل الجليلي في الموصل •

واذا ما نظرنا الى حكم الزعماء السابقين : ظاهر العمر ، أحمد باشا الجزار ، بشير الثاني الشهابي ، وداود باشا ، وجدنا أنهم ، رغم ما تمتعوا به من زعامة قوية وما مارسوه من طغيان وتسلط بالنسبة للرعية ، وبخاصة في مثل الجزار وبشير ، لم يبلغوا الشهرة التي بلغها محمد علي باشا في مصر • ولا شك أن المناطق التيظهر فيها ظاهر ، والجزار ، وبشير ، كانت ، بمواردها البشرية والاقتصادية والعسكرية، مؤهلة لزعماء من هذا القدر ، بينما اتاحت امكانات مصر الكبيرة ، على مختلف المستويات،لمحمد علي باشا أن يكونعلى رأس الطغاة ، في اتساع السلطة،والطموح،

واستمرار الحكم في أسرته • فسخر مصر ومواردها لخدمة أسرته ، وجند شعبها لتحقيق أطماعه في التوسع ، بينما قوضت معارضة الشعب وزعاماته الاقطاعية الطغاة في بلاد الشام ، بما في ذلك حكم محمد علي باشا ، حين احتل الشام •

اتى محمد علي ، مع الفرقة الالبانية ، ضمن الجيش العثماني المكلف باخراج الفرنسيين من مصر اثر احتلالهم لها في عام ١٧٩٨ • وقد دام الاحتلال الفرنسي لمصر حتى عام ١٨٠١ ، وتمت اعادة السلطة العثمانية الى البلاد بواسطة القوات العثمانية والانكليزية • وحدثت تغيرات هامة في ميزان القوى بنتيجة الحملة • فالى جانب اضعاف المماليك ، أثارت الحملة الفرنسية اهتمام الانكليز بوضع مصر ، كما أنها أظهرت عدم الكفاءة التركية ، وأتاحت ، أخيرا ، لمغامر ألباني، هو محمد علي ، أن يبرز في مصر • وعلى الصعيد الثقافي فقد فتحت هذه الحملة مصر الى المؤثرات الاوروبية التي غيرت كثيرا من المفاهيم المحلية • وقد اعتمد الفرنسيون في ادارتهم مصر على طائفتين من سكانها : العلماء والاقباط • أما العلماء فاستخدموا عن طريق الدواوين كحلقة وصل بين الفرنسيين والسكان المحليين ، وشكلوا ، بالاضافة الى التجار ، ما عرف بطبقة الاعيان ، التي عدت نفسها ممثلة للشعب المصري • واستخدم الاقباط بخاصة في الشؤون المالية ، وكان هذا استمرارا لوضعهم في العهود السابقة •وقد حاول العثمانيون القضاء على المماليك ، ولكن الانكليز منعوهم من ذلك بقصد الحيلولة دون العثمانيين وسيطرتهم التامة ، وأيضا بسبب وجود فريق من المماليك موال للانكليز• وحين أقرت معاهدة اميان في ١٨٠١ ، بين بريطانيا وفرانسا ، اعادة مصر الى السلطان العثماني ، وذلك بالحاح الفرنسيين خوفا من بقاء الانكليز فيها ، صدر عفو عن المماليك • وفي عام ١٨٠٣ انسحب الانكليز أيضا من مصر •

وحدث في الفترة بين ١٨٠٣ ، و ١٨٠٥ اضطراب في وضع القوى في مصر ، ولم يعرف في يد من كانت السلطة الفعلية • وكانت توجد في مصر آنذاك ثلاث فئات : الباشا العثماني ، الذي كانت تدعمه القوات العثمانية ، باستثناء القوة الالبانية (الفئة الثانية) ، التي اتبعت سياسة مستقلة ، وكان أبرز زعمائها طاهر باشا ومحمد علي ، ثم المماليك ، الذين كانوا منقسمين على أنفسهم ، بين فريقي البرديسي والالفي •

ونتج من صراع هذه الفئات الثلاث على السلطة أن زال من بينها أولا الحاكم العثماني خسرو باشا ، الذي أصبح فيما بعد صدرا أعظم . وقصة ذلك أن الالبانيين، بزعامة طاهر باشا ، ثاروا على خسرو باشا ، في عام ١٨٠٣ ، لعدم دفعه المال الكافي لهم ، وطردوه من القلعة ، واحتلوها ، بمساعدة المماليك ، وتسلمها من بعده طاهر باشا . ولكن بعض الالبانيين اغتالوا طاهر باشا ، ربما بدسيسة من محمد علي ، الذي أصبح زعيم الالبانيين الاوحد . وقد أرسل السلطان حاكما آخر الى مصر في ١٨٠٤ ، الا انه قتل من قبل اتباع البرديسي . وهكذا أصبحت السيطرة في مصر للالبانيين والمماليك ، يجمع بينهم عداؤهم للسلطة العثمانية . وبضعف هذه السلطة ، ممثلة بشخص الحاكم العثماني ، أخذ التحالف المملوكي الالباني بالضعف. وزاد في ذلك طلب الالبانيين المال ، ولجوء المماليك الى العنف لتحصيله لهم من قبل الاهلين ، مما أفقدهم الكثير من شعبيتهم . وكانت عودة الالفي من انكلترا في ١٨٠٤ حافزا لازدياد العداء بين حزبه وحزب البرديسي ، الذي دعمه محمد علي لتعميق الخلاف بين المماليك والافادة منه . وباشتداد نقمة الالبانيين على المماليك ، بسبب المال ، تحالف محمد علي مع الحاكم العثماني الجديد خورشيد باشا ، ليستفيد من دعمه . ونتج من محاولة المماليك جمع المال بالقوة أن أثارت الشعب الذي لجأ الى محمد علي كزعيم منقذ . وأقنعه العلماء في ١٨٠٥ أن يستلم الحكم بنفسه . وكان من مقاومة خورشيد باشا لهذا الاختيار أن زادت من التفاف الشعب حول محمد علي . واعترف السلطان في حزيران ١٨٠٥ بمحمد علي حاكما على مصر .

عمل محمد علي باشا ، في الفترة بين ١٨٠٥ و ١٨١١ ، على توطيد سلطته ضد الانكليز من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . وكان الانكليز يخشون وقوع الدولة العثمانية تحت نفوذ نابليون المتزايد آنذاك ، وبلغت مخاوفهم أوجها اثر انتصارات نابليون الساحقة في اوروبا بين عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ واعتراف السلطان العثماني بنابليون امبراطورا ، ولهذا احتلوا الاسكندرية في ٢٠ — ٢١ آذار ١٨٠٧ ، وهب الى مساعدتهم حزب الالفي المملوكي . ومما سهل هذا الاحتلال أن محمدا عليا لم يكن يسيطر تماما على الاسكندرية . ولكن محاولة الانكليز التوسع في ناحية الرشيد ، وفشلهم في احتلالها شجع الالبانيين على مقاومتهم ، وجعل المماليك

يترددون في الانضمام اليهم ، واقنع الشعب بعدم الثورة على الالبانيين • وتمكن محمد علي باشا من اخراج الانكليز من مصر بموجب ميثاق ١٤ ايلول ١٨٠٧ • وزاد هذا النصر في تدعيم سلطته •

ونجح محمد علي باشا ، اثر ذلك ، في القضاء على زعماء المماليك بين ١٨١١ و ١٨١٢ • وكان هدفه ، أشبه بالسلطان سليم الاول ، أن يقضي على زعمائهم ، وليس على وجود المماليك ككل • وكان المماليك قد ازدادوا ضعفا في أعقاب احتلال روسيا للقفقاس ، وتوقف مجيء المماليك الى مصر • ونتج من قضاء محمد علي باشا على غالبية زعماء المماليك في مذبحة القلعة المشهورة (هربت جماعة صغيرة منهم الى جنوبي الشلال الاول ، على النيل ، خارج الاراضي المصرية ، وقضى عليهم محمد علي باشا فيما بعد) أن شغر كثير من الالتزام الذي كان يتصرف به المماليك • وأدى هذا الى استرجاع الدولة الاراضي التي أصبحت بدون ملتزمين • وطبيعي أن نظام الالتزام ، كما كان عليه في مصر قبل عهد محمد علي باشا ، لايتفق ورغبته في تقوية مركزه في مصر ، ومركز مصر بالنسبة لغيرها • فقد حرم نظام الالتزام الدولة من كثير من واردات الزراعة ، وجعلها في أيدي الملتزمين الذين كانوا أشبه بالاقطاعيين ، مما زاد في تسلط هؤلاء على الفلاحين وأنقص ، بالمقابل ، من هيبة الدولة بينهم • وقد انتبه محمد علي باشا الى ضرر الالتزام الذي لم يدفع أصحابه الضرائب فصادره • وبلغ ذلك ذروته بعد القضاء على زعماء المماليك ، وعرفت أراضي الالتزام المصادرة التي ألحقت بالدولة باسم المربوط • واتبع محمد علي باشا ذلك بالاستيلاء على أراضي الأوقاف ، رغم معارضة العلماء ، الذين تضرر بعضهم أيضا بصفتهم ملتزمين • وكان العلماء برئاسة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، الذي طرده محمد علي باشا من منصبه ، اثر انتصاره على معارضة الملتزمين والعلماء • ولم ينفذ محمد علي باشا ، عقب انتصاره على المماليك ، وعوده التعويض على أصحاب الالتزام •

وقام محمد علي باشا بعملية الروك (مسح الاراضي) في مصر العليا في ١٨١٢ ، بعد تعيين ابنه ابراهيم حاكما عليها • واتبع ذلك بعملية مشابهة في مصر السفلى في ١٨١٤ • وبموجب ذلك سجلت الأراضي باسم سكان القرية ، بشكل مشترك ،

وأصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة للدولة ، دون وساطة الملتزمين • ولم يتمتع الفلاحون ، تبعا لذلك ، بملكية الارض أو حقوق وراثتها ، طوال عهد محمد علي باشا ، بل كان الهدف اشراكهم في مسؤولية جميع الضرائب • وان قضاء محمد علي باشا على طبقة الملتزمين المستغلة ، وحده من سلطة العلماء ، سواء بأخذ الالتزام ونظارة الاوقاف منهم ، أم بمنعهم من التكتل كقوة سياسية ، قد افاده في التخلص من تدخل هاتين الطائفتين المتميزتين ونفوذهما • ولكن محمد علي حاول ، من ناحية أخرى ، ايجاد طوائف أخرى مخلصة له ، فعمد ، في النصف الثاني من حكمه ، الى اعطاء مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية (المعروفة باسم جفتلك) الى أفراد اسرته والى بعض الاعيان وكبار الموظفين ، كما أنه منح كثيرا من الاراضي غير المستثمرة الى كبار الموظفين ، واعفاهم من دفع الضرائب تشجيعا لهم على استثمارها • وكان منح هذه الاراضي يقوم ، في البدء ، على حق التصرف ، وانقلب هذا الحق ، في عام ١٨٣٦ ، الى حق وراثي ، ثم الى ملكية فردية • وأنشأ محمد علي ، في أواخر عهده ، نظام العهدة ، أي أن يعهد الى كبار الموظفين بجمع الضرائب من القرى • وهكذا ، أوجد محمد علي باشا من حوله طبقة مستثمرة حلت محل الطبقة القديمة ، وكان ولاؤها له كمؤسس لها • ووطدت طبقة كبار الملاكين ، التي أوجدها محمد علي باشا ، سلطتها على مر الزمن ، وعارضت الفلاحين الذين استغلتهم ، وكذلك السلطة الحاكمة ، حين حاولت الحد من امتيازاتها • وباحتلال الانكليز مصر في عام ١٨٨٢ ، وجد أفراد هذه الطبقة في الانكليز حليفا طبيعيا لهم للدفاع عن مصالحهم •

يتبين لنا مما سبق أنّ التغييرات التي أدخلها محمد علي باشا على نظام الاراضي لم تكن الغاية منها اصلاحية صرفة وانما كانت محاولة لتقويض دعائم طبقة مستثمرة ذات امتيازات قديمة وغير مأمونة بالنسبة اليه ، واستبدال طبقة مستثمرة أخرى بها ، ولكنها تخدم مصلحته • وحين ضعفت سلطته وسلطة خلفائه لم تعد هذه الطبقة تخدم مصالح الأسرة الحاكمة ، بل تحولت الى طبقة ملاك جدد تخدم مصالحها بالدرجة الاولى • ولكن ماهي مصلحة محمد علي باشا التي حاول توطيدها ؟

لم يقم محمد علي بهذه الاصلاحات كغاية في حد ذاتها ، وانما استخدمها كوسيلة لتوطيد نفوذه ومكانة اسرته في مصر • واذا كانت التنظيمات التي أوجدها

في استغلال الأراضي قد حولت واردات الدولة من أيدي أعدائه اليه والى مؤيديه فقد استخدم هذه الواردات لبناء جيش قوي حديث يستطيع به أن يدعم سلطته ومركز اسرته في مصر • وليزيد من واردات الاراضي فقد طور الري ، وقام بحفر أقنية جديدة وبتنظيف القديمة منها •

وفي محاولة محمد علي باشا التصرف بثروات البلد فقد احتكر التجارة • ولم يكتف فقط باجبار الفلاح على الزراعة ، بل نراه في بعض المناطق ، يعين المحاصيل التي تجب زراعتها • وأمر بأن تقدم المحاصيل الى عنابر الدولة بأسعار محددة • واستغل حاجة الانكليز للحبوب فاحتكر تصديرها ، وبلغ ربحه من ذلك خمسمائة بالمائة • واهتم بزراعة القطن ، الذي كانت له أسواق خارجية هامة ، فشجع زراعة مساحات كبيرة من الاراضي بهذا المحصول • ومن أخطار هذه السياسة أن أي مانع خارجي لتصريف القطن أو أية اصابة طبيعية له من شأنها أن تسبب خسارة كبرى • واستلزمت هذه السياسة الاقتصادية ، التي ضحت بزراعة كثير من المواد غير المربحة تجاريا ، استيراد هذه المواد من الخارج ، مثل التبغ الذي اشتد استيراد مصر له من بلاد الشام • واقتضت سياسة محمد علي الزراعية هذه انشاء شبكة جديدة من المواصلات وايجاد نظام جديد في التسويق •

حاول محمد علي ، على غرار الدول الاوروبية ، اقامة صناعات محلية في مصر مستخدما لاجل ذلك ، في البدء ، الرأسمال الزراعي • وكان هدفه تقوية الاقتصاد المصري واقامته على اسس أكثر استقرارا • فاستحضر المعامل ، واهتم بخاصة بصناعات النسيج ، ولكنه فشل في هذه الناحية فشلا ذريعا لافتقار هذا النوع من الصناعة الى الخبرة العمالية والوعي الصناعي والسوق الداخلية والخارجية• وسرعان ما أهملت المعامل لسوء الادارة وكره الفلاحين العمل فيها لما اقتضى ذلك من جهد لم يعتادوا عليه • ووجب الحاق الفلاحين بالمعامل بالقوة أشبه بالخدمة العسكرية آنذاك • وانعكس اثر ذلك ، بالمقابل ، على الزراعة اذ حرمها من فلاحين يمكنهم تأدية خدمة أكبر فيها •

يبدو أن محمد علي باشا قد تأثر في مشاريعه الاقتصادية السابقة بأفكار السان

سيمونيين الذين أمضوا بضع سنوات في مصر ، في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، يعملون كأطباء ومهندسين ومعلمين ، ويشاركون في تنظيم مشاريع الري • وكانت المبادىء السان سيمونية تدعو الى اقامة مجتمع نموذجي يسيطر عليه جماعة من العلماء وتنظمه المقاييس العلمية بدل المقاييس الاخلاقية التي انهارت • وحاول السان سيمونيون أن يجدوا في مصر ، مثلما حاول جماعة روبرت أون البريطاني أن يجدوا في أمريكا ، مخبرا لتطبيق أفكارهم في الاشتراكية •

ولم تكن سياسة محمدعلي باشا الاقتصادية غاية في حد ذاتها بل وسيلة للحصول على المال لاقامة جيش قوي حديث يوطد به حكمه في الداخل ، ويستخدمه لفرض نفوذه في الخارج تجاه السلطان العثماني والدول الاوروبية •

واعتمد محمد علي باشا ، في البدء ، على مزيج من الجنود الالبانيين والاتراك والمرتزقة والبدو ، ولكن عدم التجانس بين أفراد هذا الجيش الذي تجلى في ضعفهم في حروب الجزيرة العربية بين ١٨١١ و ١٨١٨ ، وفي السودان بين ١٨٢٠ — ١٨٢٤ ، جعله يتحول الى تجنيد العبيد من السودان • ولكن هؤلاء لم يتحملوا مناخ مصر فبدأوا يموتون بأعداد كبيرة مما جعل محمد علي باشا يتحول الى ايجاد جيش من الفلاحين المصريين منظم على الطريقة الأوروبية ، عرف بالجهادية • وبدأ أيضا بانشاء اسطول على الطراز الاوروبي • وقد أدى ايجاد هذا الجيش ومتطلباته الى ادخال تنظيمات بعيدة المدى في مصر • وكان تجنيد الفلاحين في مصر حدثا هاما لم تشهد مثله البلاد منذ قرون • وقد عارضه الفلاحون ما استطاعوا ، وكان ذلك سببا في قيامهم بثورات متعددة •

ولخدمة سياسته العسكرية افتتح محمد علي باشا عددا من المدارس المهنية في مصر ، ودرس من اللغات الاجنبية الايطالية ، الشائعة في الشرق منذ عهد نفوذ الجمهوريات التجارية الايطالية ، واللغة الفرنسية التي ازدادت أهميتها على مر الزمن • وافتتح مدرسة طبية في ١٨٢٧ لتقديم الخدمات الطبية للجيش • وقام المترجمون بدور هام في مجال التعليم لانهم ترجموا محاضرات الخبراء الاجانب ، وغالبيتهم من الفرنسيين ، الى اللغة العربية • وكان الطلاب يدرسون على نفقة الحكومة • وبالاضافة الى استقدام الخبراء الاجانب فقد ارسلت بعثات طلابية الى

أوروبا ، وبخاصة فرنسا ، منذ ١٨٠٩ ، ثم نظمت بعد ١٨٢٦ • وكان الطلاب يطلعون في ديار الغرب على الافكار السياسية الى جانب دراستهم المهنية ، ويرون بأنفسهم كيف تصنع الثورات • واسس محمد علي باشا في ١٨٣٦ مدرسة للغات هدفها ترجمة المؤلفات الغربية الى اللغة العربية • وقد ترأسها رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان أمام احدى البعثات الطلابية ، في فرانسا ، وعاد الى مصر وقد تأثر بحضارة الغرب أكثر من طلابه • واقيمت أول مطبعة حكومية في بولاق في ١٨٢٢ • وكانت أول مطبعة عربية اتي بها الى مصر في زمن نابليون بونابرت •

واجهت محمد علي باشا مهمات ادارية معقدة نتيجة لتشعب الاصلاحات والالتزامات التي قام بها • وفي محاولة منه لتنظيم الادارة فقد قسمها الى عدة دوائر، أسماها بالدواوين ، وتعنى بالشؤون الداخلية والمالية والتجاريةوالصناعيةوالتعليمية والعسكرية وغيرها • وقد شغل المصريون وظائف ثانوية في التنظيم الاداري • وقام بالدور البارز في الادارة والجيش ،أفراد من اسرة محمد علي باشا ، ومن الاتراك ، ثم الشراكسة • واعتمد على الارمن والاقباط في الادارة • وقد حل مشكلة البدو بالقوة حينا ، كأخذ الرهائن منهم ، وادخال افرادهم في الجيش ، ومصادرة خيولهم، وباللين حينا آخر ، بتعيين شيوخهم حكاما اداريين محليين،وباستمالتهم الى الاستقرار، واعطائهم الاراضي مجانا لزراعتها • ولم يكن محمد علي ديمقراطيا في أساليبه ، بل كان مستبدا يتخذ من القرارات مايراه مناسبا • وكان أحيانا يستشير مقربيه وخلصائه • وأسس ، على غرار نابليون بونابرت ، مجلس المشورة الذي انعقد في ١٨٢٩ ، وضم كبار الموظفين والعلماء والاعيان ، وقد أصبح هذا تقليدا في مصر استمر فيما بعد •

ثم تحول محمد علي باشا الى التوسع والمغامرات في الخارج • وكان نفوذ الوهابين قد ازداد ، في مطلع القرن التاسع عشر ، بعد احتلالهم الحجاز • وشعر السلطان العثماني بالخطر الذي يتهدده فطلب من محمد علي باشا في ١٨١١ ، توجيه حملة ضدهم ، ولبى الطلب ، لانه عدا عن حاجته لاظهار الطاعة الى السلطان ، في فترة توطيد سلطته ، فان في ذلك مجالا لاشغال جنوده في حروب ومغانم في الخارج ، بعد ان بدر تمردهم ضده • كما ان انتصاره على الوهابية سيزيد من سمعته ويمكنه

من موارد الحجاز • وتتساءل هنا عن سبب طلب السلطان من حاكم مصر محمد علي باشا أن يتوجه للقضاء على الوهابيين ، وليس من والي دمشق • لاشك أن قوة محمد علي باشا أكبر من الثاني ، كما ان السلطان كان تقليديا يطلب من ولاة مصر التدخل في امور الحجاز واليمن • وهناك من يقول ان السلطان كان يطمع ايضا الى اضعاف قوة محمد علي في القتال ضد الوهابيين الاقوياء ، وبذلك يتمكن من اخضاع محمد علي لسلطته • ولكن ماحدث كان خلاف ذلك ، لان هزيمة محمد علي للوهابيين زادت كثيرا من سلطته وقد ساعدت هذه الحملة محمد علي باشا على التخلص من زعماء الالبانيين المنافسين له ، وذلك اثر تراجع القائد الالباني من ينبع الى المدينة في ١٨١١ • وحين لم تصل قوات القائد طوسون بن محمد علي باشا الى نصر حاسم على الوهابيين ذهب محمد علي باشا بنفسه الى الحجاز ، وهزم الوهابيين في ١٨١٤ ، ولكنه لم يتابع هجومه على عاصمتهم الدرعية • ويفسر ذلك بان المؤامرات بدأت تحاك ضده في القاهرة بتشجيع العثمانيين لاسترداد سلطتهم ، كما ان نبأ عودة نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة البا أخاف محمدا عليا • ولم تدم هذه الهدنة المؤقتة اذ استؤنفت القتال من جديد في عام ١٨١٦ ، حين أرسل محمد علي باشا ابنه ابراهيم باشا ، الذي تمكن بمساعدة بعض القبائل ، من احتلال الدرعية في ١٨١٨ ، والقضاء على نفوذ الوهابيين الى حين • وكافأ السلطان ابراهيم باشا بتعيينه واليا على الحجاز والحبشة ، ودام نفوذ محمد علي باشا في الحجاز واليمن حتى عام ١٨٤٠[٥] •

ثم تلت ذلك في ١٨٢٠ حملة محمد علي باشا على السودان • ويوجد بعض الشبه بين فتح محمد علي باشا للسودان وفتح القائد ازدمر النوبا السفلى وساحل البحر الاحمر ، في حوالي منتصف القرن السادس عشر • فالقائدان حاربا باسم السلطان نظريا ، في سبيل طموحهما الشخصي ، ولكنهما يختلفان في أن محمدا عليا كان حاكما شبه مستقل في مصر يتمتع بموارد كبيرة لتثبيت حكمه في السودان ، كما انه مؤسس سلالة احتفظت بفتحها في السودان حتى ثورة المهدي والاحتلال الانكليزي • ويختلف محمد علي عن ازدمر بتأثره بالافكار الاوروبية التي لم تجعل هدفه من

الفتح مجرد الحصول على مقاطعات ، على الطريقة التقليدية العثمانية ، بل استغلال موارد هذه المقاطعات في الرجال والثروة .

كان لمحمد علي من حملته الى السودان اهداف متعددة منها القضاء على بقايا المماليك الذين هربوا ، بعد القضاء على معظم زعمائهم في ١٨١١ ، باتجاه الجنوب ، واسسوا امارة خاصة لهم في دنقله ، على الضفة الغربية من النيل ليس بعيدا عن خط الحدود القديمة بين بربرستان وممتلكات الفنج . وقد بنى المماليك في هذه المنطقة مدينة للسيادة على المنطقة . وقد اظهرت حوادث الماضي لجوء الكثيرين من المنهزمين من مصر السفلى الى العليا باتجاه الجنوب ، وتحينهم الفرصة من هناك للهجوم على الشمال . وقد أرسل محمد علي باشا في ١٨١٢ بعثة ترجو سلطان الفنج طرد المماليك من منطقته . ولم يكن سلطان الفنج ذلك القوى ، وانما كان هدف البعثة الحقيقي استطلاع امكانات المنطقة العسكرية والسياسية لفتحها . وهدف محمد علي أيضا اعادة تنشيط التجارة بين مصر والجنوب ، بعد ان اعاقتها الاضطرابات في تلك المناطق ، وكذلك السيطرة على الطريق الرئيسة لتجارة العبيد . وقد فكر باستخدام العبيد في جيشه الجديد ، فيدربهم على الطريقة الاوروبية ، ويدينون له بالولاء ، أشبه بالمماليك . وبالاضافة الى ذلك ، طمح محمد علي باشا الى الاستيلاء على مناجم الذهب في افريقية الوسطى التي لو استثمرها لوطد مركزه في مصر ودعم استقلاله ضد السلطان . ولكن بماذا نصف الفتح الذي تم للسودان في ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ على يد محمد علي . اذا قلنا الفتح المصري فسنكون بعيدين عن الصواب لانه لم يكن يوجد آنذاك جيش مصري مستقل ، بل على العكس كانت مصر ولاية عثمانية تحكمها طبقة البانية . واذا قلنا بانه الفتح العثماني لجانبنا الصواب لان مشروع الفتح كان مبادرة خاصة من قبل محمد علي . واذا كان محمد علي قد اعترف بالسيادة العثمانية على السودان فان هذه كانت اقل فعالية عما هي عليه في مصر . ولعل تعبير الفتح التركي ـ المصري يكون حلا موفقا . ولكن من وجهة نظر السودانيين فقد اطلقوا على الفاتحين الجدد اسم الترك ، وعلى حكمهم اسم التركية . وبالتدريج اصبح هذا اللقب يطلق على الحاكمين من غير السودانيين بقطع النظر عن

اصلهم ، حتى ان السودانيين عدوا الحكم الثنائي المصري ــ الانكليزي ، في عام ١٨٩٩ ، التركية الثانية(٦) •

وكان على رأس حملة محمد علي لفتح السودان في ١٨٢٠ ابنه اسماعيل ؛ وبصحبته علماء مسلمون لجعل مسلمي السودان يطيعون وكيل السلطان العثماني محمد علي • وقد اجتازت الحملة الشلال الثاني دون مقاومة تذكر ، وهرب معظم مماليك دنقله باتجاه الجنوب • وكان هدف الحملة الرئيسي القضاء على قوةقبائل الشيقية ، وقد هزمت في ٤ تشرين الثاني ١٨٢٠ ، بفضل مدفعية الحملة ، وتمسك الشيقية بالاسلحة التقليدية كالسيف والرمح • وكان ذلك نهاية المقاومة العسكرية الشديدة لاسماعيل • وكلما اندفع جنوبا في السودان اتى اليه الامراء المحليون طائعين ، وكان يبقيهم في مراكزهم • وكان محمد علي قد ارسل ، بعد احتلال اسماعيل دنقله وهزيمته الشيقية ، حملة أخرى لاحتلال سلطنة دارفور ، في نيسان ١٨٢١، بقيادة محمد بك خسرو الدفتردار • وقد تم له ذلك ، ودخل العبيد ، عاصمة سلطنة دارفور •

وبعد ان نجح محمد علي باشا في طرد المماليك ، وهزيمة الشيقية ، واحتلال مناطق كثيرة ، انصرف لاستغلال موردي السودان من الذهب والعبيد • وبدأ بفرض الضرائب على السكان ، وبلغ ذلك حد الاستيلاء على الموارد • واعلنت الادارة المصرية انها تقبل استلام العبيد كضرائب عوضا عن المال • وقد استنفذ مصدر العبيد هذا ، ولم يبق سوى غزو مناطق القبائل الوثنية في الجنوب للحصول على العبيد• وكان الحاح قادة محمد علي على أخذ العبيد بأية وسيلة ان اثار الحكام المحليين ، الذين قبلوا بحكم محمد علي ، لان العبيد الذين طلب اليهم التخلي عنهم كانوا يؤلفون عنصرا هاما في خدمتهم البيتية والزراعية • ولهذا ثار السودانيون • ورغم ان اسماعيل تولج أمر الثائرين بالقوة وباللين ، الا ان عناصر الثورة كانت أعمق من أن ترضى • وكان تفشي الأمراض بين جيشه وموت كثير من أفراده مضعفا له ومشجعا للثوار ، وهوجم في شندي في تشرين الاول أو الثاني ١٨٢٢ ، وأحرق مع مخيمه • ورغم ذلك فان عاملين عملا في صالح حملة محمد علي : تفوقها بالسلاح

الناري ، ثم افتقار الثائرين الى عمل موحد وزعامة واحدة . وقد تولى الدفتردار القضاء على الثائرين .

واستدعي الدفتردار الى مصر في ١٨٢٤ ، وخلفه كقائد عام في السودان عثمان بك الشركسي . وكانت تصحبه قوات جديدة ، عرفت بالجهادية ، وهم ، في تلك المرحلة ، جنود نظاميون من عبيد السودان ، دربوا على الطريقة الاوروبية في مصر . ولكن العبيد من السودان كانوا يموتون بالآلاف في مناخ مصر . ومن مجموع عشرين الف سوداني جندوا عام ١٨٢٤ بقي ثلاثة آلاف من الاحياء ، مما اضطر محمدا عليا الى تجنيد الفلاحين المصريين ، ولكنه بقي يفيد من الجهادية العبيد بوضعهم كحاميات في السودان . والى جانب هؤلاء تألفت قوات محمد علي في السودان من فرسان الشيقية ، الذين عملوا في خدمته تحت امرة زعمائهم[٧] .

ثم اشترك محمد علي باشا ، الى جانب قوات السلطان العثماني ، في اخضاع كريت في ١٨٢٢ ، وشبه جزيرة الموره في ١٨٢٤ ، بعد أن وعده السلطان بتسليم حكمهما اليه . وقد عمد الانكليز والفرنسيون الى الضغط على الدولة العثمانية لانهاء قتالها لليونانيين خوفا من استغلال روسيا الوضع والافادة منه . ولما لم يقبل السلطان بتدخل القوات الاوروبية لاعتباره ثورة اليونان قضية داخلية اتصل الانكليز بمحمد علي وعرضوا عليه قسما من المال الذي كان اليونانيون مستعدين لدفعه الى السلطان لقاء وقف قتاله لهم ووعدا باعطاء ابنه ابراهيم باشا ولاية سورية . وقد رد محمد علي بأنه يطمح الى مساعدة الانكليز في توسيع اسطوله والاعتراف بتوسعه في الجزيرة العربية . وشعر المفاوض الانكليزي ان محمدا عليا كان يتوق الى الحصول على دعم الانكليز في حال استقلاله عن السلطان . والجدير بالذكر ان مترنيخ ارسل مبعوثا الى محمد علي يحثه على اخضاع اليونانيين قبل أن تستغل روسيا والدول الغربية الوضع للتدخل ، ويبين له خطر الاستقلال اليوناني على التجارة المصرية . وفي آب ١٨٢٨ أجلى محمد علي جيوشه عن الموره ، واعترف السلطان ، بضغط من روسيا ، باستقلال اليونان . وقد نتج من حملة الموره أن موارد محمد علي استنزفت حتى نهايتها فسر بذلك السلطان . ولكن محمدا عليا لم يصطدم مباشرة بانكلترا وفرانسا نتيجة للحملة ، وحلت العداوة بالصلح . أما

السلطان فان تأثير روسيا قد تزايد عليه • وكان من نتيجة حملة الموره ان زاد كره محمد علي للسلطان واحتقاره لدسائس حكومته ، واصبح اكثر تصميما علـــى الاستقلال عنه • كما ان محمدا عليا اصبح أكثر احساسا بجدوى القوة البحريـــة وتخوفا من قوة بريطانيا البحرية التي لعبت دورا كبيرا في اجلائه • ولهذا تحول الى التقارب مع فرانسا منافسة بريطانيا(٨) •

وكان آخر توسع لمحمد علي في بلاد الشام في ١٨٣١ • ولم يكن أمر ذلك سرا اذ ان بعض المقيمين الاجانب في بلاد الشام تحدثوا ، منذ ١٨٢٥ ، عن مشاريع محمد علي لاحتلال بلاد الشام • وبالفعل اظهر محمد علي اهتماما بمشكلات بلاد الشـــام حين الجأ اليه بشير الثاني الشهابي ، أمير جبل لبنان في ١٨٢٢ ، بعد ان هرب اثـــر خلاف مع السلطان ، وتوسط له ، وأعاده الى الحكم • وتدخل أيضا ، بعد ذلك ، في دعم الأمير بشير الثاني ضد ثورة بشير جانبلاط • ولم تكن اعمال محمد علي هذه مبعثها حسن الجوار ، بل كانت تنبع عن تخطيط للتوسع سبقه اليه ، قبل نصف قرن ونيف علي بك المملوكي ، وذلك لاسباب استراتيجية واقتصادية وسياسية •

كان محمد علي يرغب من احتلاله بلاد الشام الحصول على الخشب لاسطوله وعلى منتجاتها التي تدر المال ، مثل الحرير والقطن ، وذلك بسبب حاجته للمـــال بسبب جيشه ، وتوسع بعوثه ، وجلبه الخبراء ، كما أن بلاد الشام بتصديرها التبغ الى مصر كانت تمتص كثيرا من النقد المصري • وكانت السيطرة على بلاد الشـــام ضرورية ، من ناحية أخرى ، لحماية حدوده فيمكنه بذلك ان يتحكم في بدو سيناء الذين هددوا طرق التجارة المصرية ــ السورية ، وان يمنع الهاربين من الجندية من مصر من ايجاد ملجأ لهم في بلاد الشام حيث رحب بهم والي عكا عبد الله باشا • وفي هرب الفلاحين من مصر اضعاف عسكري واقتصادي لها •

ومما لاشك فيه أن نمو قوة محمد علي العسكرية كانت ، في الواقع ، مشجعة للتنافس بينه وبين السلطان ، وان استخدام السلطان قوات محمد علي في الحجـــاز والموره اعتراف منه بقوة محمد علي وان يكن السلطان قد هدف ، ضمنا ، من وراء ذلك الى اضعافه • وقد طالب محمد علي ، لقاء اشتراكه بحرب اليونان ، باعطائـــه

حكم بلاد الشام ، ولكن السلطان محمود الثاني عرض عليه حكم كريت التي تكلف حاكمها اكثر مما تفيده • وأدرك محمد علي أنه لايستطيع تقوية نفسه الا على حساب السلطـــان ، وتقوية نفسه تكمن في بلاد الشام ، وسيؤدي ذلك الى اصطدامه مع السلطان • ويضاف الى الأسباب السابقة النزاع الذي دب بين محمد علي وعبد الله باشا بسبب مطالبة الاول للثاني بديون لم يوفها ، وأيضا بسبب نقل عبد الله باشـــا للسلطان مراسلات سرية بين محمد علي والثوار اليونانيين • ولعل الاهم من ذلك شعور عبد الله باشا بأنه اذا احتل محمد علي بلاد الشام فلن يكون له مكان فيها ، او انه على الاقل سيصبح خاضعا لمحمد علي •

وكانت الظروف الدولية ملائمة لحملة محمد علي ، أشبه بما كان عليه الوضع حين حملة علي بك المملوكي في ١٧٧٠ ، فبريطانيا كانت منشغلة بالاصلاح الداخلي لاستبعاد خطر الثورات التي ظهرت في فرانسا • وكانت هذه الاخيرة منشغلة بثورات ١٨٣٠ في باريس وبالوضع المضطرب في الجزائر الذي أدى الى ثورة الامير عبــد القادر الجزائري عليها في ١٨٣٢ • وكانت الامبراطورية النمساوية مهددة بثـــورة بولونيـــا •

وكانت الظروف مواتية في الامبراطورية العثمانية لتوسع محمد علي ، فقــد أدى قضاء السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ على الانكشارية الى ازدياد معارضـــة المصالح التي ارتبطت بهم للدولة • ولم يكن الجيش العثماني الجديد قــد قوي أمره بعد • وقد حطم الاسطول العثماني من قبل الاساطيل الاوروبية ، ابان حرب اليونان ، في معركة نفارينو في ١٨٢٧ • ونشـبت في ١٨٢٨ حــرب بين العثمانيين وروسيا انتهت بمعاهدة ادرنة في العام التالي •

وقد حاول الفرنسيون استخدام محمد علي لاحتلال شمال افريقية • ويبدو أن هدفهم من ذلك اقامة دولة قوية في شمال افريقية تخضع لنفوذهم ويعارضون بهـــا بريطانيا • وقبل محمد علي الفكرة مقابل دعم فرانسا له في مشاريعه للتوسع في المشرق العربي • ولكن السلطان وبريطانيا عارضا المشروع بشدة، وقد عارض السلطان لأن

ذلك سيزيد من قوة محمد علي ومنافسته له ، أما معارضة بريطانيا فلأن ذلك سيهدد مواصلاتها مع الهند ويضعف الدولة العثمانية • وازاء فشل هذا المشروع تحولت فرانسا الى الاحتلال المباشر للجزائر ، وانصرف محمد علي لانشاء امبراطورية في بلاد الشام •

وكان الوضع في بلاد الشام مشجعا لمحمد علي ، فالامير بشير الثاني الشهابي من حلفائه • ورغم قوة أسوار عكا ، حيث تحصن واليها عبد الله باشا ، فلم يكن العثمانيون من القوة بحيث يقدمون مساعدات كبيرة له •وقد حدثت اضطرابات في ١٨٣١ في دمشق بسبب ثورة سكانها على مظالم واليهم العثماني سليم باشا[٩] •كما ثار الفلاحون في منطقة نابلس ، في هذه الاثناء ، على مظالم عبد الله باشا والي عكا واحتلوا قلعة صانور فاخضعوا بالقوة •

وعلى خلاف وضع بلاد الشام المتفكك ، كانت احوال مصر ناشطة ، وجيشها منظما ، وسمعة قائدها ابراهيم باشا عالية • وكانت المصانع الحربية التي انشأها محمد علي في مصر في اقصى انتاجها • وتمكن محمد علي ، بعد الحرب اليونانية ، من اعادة بناء اسطوله • ولم يساهم في حرب السلطان مع روسيا • وقد أضعف السلطان كثيرا من جراء ذلك • وصادف ان محصول القطن في ١٨٣٠ كان أعظم ما أنتجته مصر ، وكانت الحبوب متوافرة بكثرة • وأمن فيضان النيل المنتظم محصولا كبيرا للعام التالي •

بدأ غزو بلاد الشام ، برا وبحرا ، في ٢٩ تشرين الاول ١٨٣١ • واقتحمت قوة من أحد عشر ألف رجل سيناء في طريقها الى غزة ، وكانت قلعتها مهدمة منذ حملة نابليون • ولذلك سهل احتلالها • وتركز الصراع حول عكا التي تحدت نابليون ، وكان احتلالها ذا أهمية عسكرية ونفسية • وامتاز ابراهيم باشا ، قائد الجيش المصري ، على نابليون بأنه امتلك أسطولا فعالا ، ولم يعارضه اسطول انكليزي • ولم يصحب ابراهيم باشا جيشه في سيناء ، ولم يشترك في الهجوم على غزة ، بل سافر مباشرة مع الاسطول من الاسكندرية الى حيفا حيث اجتمع بالجيش البري• وقد استسلمت حيفا دون قتال ، وبدأ حصار عكا في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٣١ • ولم يعطل ابراهيم باشا نشاطه في حصار عكا بل احتل ، وهو يحاصرها ، المناطق المجاورة

حتى صيدا ، وأرسل قوة الى القدس لاعلان سلطته فيها • وبهذه المناسبة أعلن ابراهيم باشا رفع الفوائد التي كانت تفرض تعسفا على غير المسلمين في القدس وغيرها ، مما اكسبه تأييد المسيحيين ودعمهم العسكري في جبل لبنان بخاصة ، وازداد بذلك تأييد الامير بشير الثاني الشهابي له لأن غالبية قواته كانت من المسيحيين • وسرت الدول الاوربية من هذا التسامح الديني ، ونشطت ارسالياتها التبشيرية في أعقاب ذلك •

أرسل ابراهيم باشا ، في هذه الاثناء ، طلبا من أبيه الى الأمير بشير يدعوه للانضمام اليه في حصار عكا • ولم تكن هذه أول ولا آخر رسالة من نوعها • ففي ٥ كانون الاول أرسل محمد علي باشا رسالة الى الأمير بشير يتهدده فيها بأنه اذا بقي ينتظر نتيجة حصار عكا ليعلن موقفه من الجانبين ، فان محبته له ستتغير وسيرسل جيوشه ضده • وقد سبق أن تعرض الامير بشير الى موقف مشابه زمن هجوم نابليون ، ولم ينحز آنذاك الى أي من الجانبين • وكانت النتيجة أنه بانتصار الجزار دفع له مبلغا من المال ، وبقي في حكم الجبل • وحين وصلت قوات محمد علي الى صيدا اضطر الامير بشير أن يرسل قوة رمزية الى عكا ، مما جعل محمدا عليا يثني عليه ، ويمنحه التزام جبل لبنان ، أي اعترف به اميرا على جبل لبنان • وقد جعل موقف الامير بشير هذا أعداءه من آل جانبلاط يقفون الى جانب العثمانيين • وكانت طلائع القوات العثمانية قد وصلت آنذاك الى طرابلس ، وأخذت تبث الدعاية ضد محمد علي • وازاء محاولة الجانبلاطية الدروز اعلان الثورة في الشوف على المصريين ، بتأييد العثمانيين ، الذين كانوا يلحون على فكرة أن الامبراطورية باقية وسيعاقب الثائرون ، فقد أرسل ابراهيم باشا ، وهو يحاصر عكا ، فرقة الى دير القمر ، أخذت رهينتين من كل اسرة درزية • وهرب معظم الدروز من آل جانبلاط وأبي نكد وآل العماد الى حماة حيث التحقوا بالجيش العثماني • وكان أن وجه الأمير بشير رسالة الى زعماء الجبل يتهدد الثائرين ، ويطلب منهم الخضوع الى ابراهيم باشا •

سقطت عكا في شهر ايار ١٨٣٢ ، وتوجه ابراهيم باشا لقتال الجيش العثماني الذي تجمع عند حمص • واستسلمت دمشق له دون قتال ، وبقي فيها سبعة عشر

يوما ، ثم سار شمالا بصحبة الامير بشير • وانتصر على العثمانيين قرب حمص في تموز وتابع مسيره شمالا ، فاحتل حلب • وتلت ذلك سلسلة من الانتصارات على العثمانيين في بيلان وقونية ، وأصبح الطريق مفتوحا الى استانبول • وبدأ ، عند ذلك ، التدخل الروسي لدعم العثمانيين ، مما أخاف بريطانيا وفرانسا ، فضغطتا على السلطان ومحمد علي • ووقعت بينهما في ۱۸۳۳ معاهدة كوتاهية ،وبموجبها انسحبت قوات ابراهيم باشا الى طوروس ، وأعطي بلاد الشام مقابل ضريبة سنوية •

واجهت ابراهيم باشا في بلاد الشام عدة مشكلات تختلف عن مشكلاته في مصر فهناك مشكلة اضطراب الأمن ، وفرض الاتاوات على المسافرين ، وتمرد البدو، وبخاصة العنزة ، ووجود نظام الالتزام • وكان عليه ، ليستغل واردات بلاد الشام ، ويجند سكانها في الجيش ، ويجمع الضرائب منها ، ان يتبع أساليب غير التي اتبعها في مصر • وقد حقق الامن ، وصد غزوات البدو مما شجع الاستقرار في الريف، وبالتالي الزراعة • واستخدم بعض البدو كفرسان في جيشه • ولكنه لم يلغ أو يبدل نظام الملتزمين والحكام المحليين بل طبق عليهم بالتدريج أنظمته في عدم تجاوز الضرائب المقررة • وازداد نتيجة لذلك المردود الاقتصادي • واستخدم الجيش في تحسين الزراعة فعندما هدد الجراد محاصيل حوران ، في احدى السنوات ، استخدم الجنود في مكافحته •

ولم يفرض ابراهيم باشا ضرائب مجحفة • وأوجد ضريبة جديدة هي الفردة ، أي فرض مبلغ من المال على كل شخص • وقد عدل ذلك فيما بعد ، وأصبح المبلغ يتناسب مع الثروة • وكانت الدولة ، وفق هذا التعديل ، تعمد الى فرض مبلغ عام على جماعة من الناس أو الاسر ، بشكل لاينقص عما يمكن أن تجمعه من كل شخص منهم • وتتصرف هذه الجماعة في توزيع المبلغ بالعدل ، أي حسب الغنى ، بين أفرادها • ولايبدو ان نظام الضرائب قد اثار نقمة السكان على المصريين ،ولكن الذي أثارهم متطلبات الجيش من مصادرة للمؤن ، أو شراء لها بسعر متدن ، أو مصادرة حيوانات النقل ، او استخدام اليد العاملة ، في اقامة التحصينات مثلا ، بأسعار متدنية او بالمصادرة •

وكان الجيش ، في الواقع ، عماد الادارة المصرية في بلاد الشام ولهذا فان توطيد الحكم المصري فيها كان يعني بالضرورة تدعيم الجيش والقضاء على العناصر المقاومة له • وفي سبيل ذلك طبق ابراهيم باشا التجنيد الاجباري في ١٨٣٤ ، وأمر بنزع السلاح من الأهلين ، وهذه أشياء جديدة بالنسبة لهم • وكانت الخدمة العسكرية في السابق تتم على أساس التطوع بدافع الكسب ، وليس هناك من دليل على ادخال الأفراد كرها في الجيش قبل الاحتلال المصري • وقد أثارت الخدمة العسكرية الاهلين ، وتضرر اقتصاد الريف تبعا لذلك • وكانت الخدمة العسكرية لمدى الحياة ، وهذا يعني أن على الفلاح المجند مثلا اما ان يستأجر غيره لزراعة الأرض أو أن يبيعها • ومن هنا انتشرت عادة الاحتماء بالقنصليات الأجنبية ، أو الهجرة الى خارج البلاد ، أو تشويه الاعضاء لتحاشي الخدمة العسكرية • وانتهى الأمر بالثورة • وقد استخدم ابراهيم باشا افراد الاسر المحلية الكبيرة كقادة في الجيش لتدبير أمر الفلاحين •

ولتحقيق التجنيد والقضاء على النقمة التي أثارها وجب أولا نزع السلاح من الأهلين • وأدى هذان الامران الى ثورات فلاحية في فلسطين • ففي السلط مثلا هاجم الفلاحون والبدو القوات المصرية وفي الخليل هزم الجنود المصريون ، واحتل الفلاحون القدس ، باستثناء القلعة ، كما قطعت المواصلات بين يافا والقدس • ولم يتمكن ابراهيم باشا من القضاء عليها الا بعد جهد كبير • وكان وجود الملتزمين الأقوياء في فلسطين ، نظرا لازدهار زراعتها ووجود الأسر المحلية الكبيرة فيها ، مشجعا للثورة • وفي جبل لبنان ساعد الامير بشير حليفة ابراهيم باشا في اخضاع الفلاحين • وقد اتاح نزع السلاح للحكومة المصرية أن تنظم البلاد ، وتنشط الزراعة ، وتتحكم بالبدو كما أصبح التجنيد عقوبة للتمرد • وفي ١٨٣٦ ، أي بعد سنتين من بدء التجنيد قدر عدد المجندين في بلاد الشام بـ ٣٦ ألف مجند •

ولكن الثورة ضد المصريين تأججت من جديد ، على يد الفلاحين الدروز ، وذلك في ١٨٣٥ في منطقة اللجاه • وفي محاولة من ابراهيم باشا لتوفير الجنود النظاميين لمهام اخرى فانه لجأ الى الامير بشير الشهابي ليستعين بقوات جبل لبنان • وكانت غالبية هذه القوات مسيحية بحكم التوزيع السكاني في الجبل والعناصر

التي تدعم الامير بشيرا • وأثار ذلك خلافات مع الدروز ، الذين عدوا تجريدهم من السلاح واعطاءه من جديد للمسيحيين لاستخدامه ضد اخوانهم مبعث عداء بينهم • وقد ادى هذا الى اضطراب التوازن المذهبي • ويبدو أن ذلك كان سياسة مقصودة من الدولة لالهاء السكان بخلافات محلية واشغالهم عن الثورة عليها ، لاسيما وان نزع السلاح في السابق قد وحد مابين الدروز والمسيحيين في معارضتهم الحكم المصري • وعلى هذا ، أصبحت سلامة المسيحيين مرتبطة بوجود المصريين ، وأن انسحاب هؤلاء من بلاد الشام كان أحد العوامل الهامة التي أدت الى النزاع الطائفي، بالاضافة الى استغلال الدول الاستعمارية والدولة العثمانية ذلك للتدخل ، وكذلك قيام الصراع بين الفلاحين والاقطاعيين •

وتعقدت الثورة الداخلية بتدخل الدول الاجنبية • وكنا رأينا كيف ان ضغط الدول الاوربية على محمد علي باشا اضطره الى توقيع معاهدة كوتاهية • ولكن ازدياد النفوذ الروسي في استانبول ، اثر ذلك ، وتوقيع العثمانيين معاهدة اونكيار اسكله سي في ٨ تموز ١٨٣٣ مع روسيا ، التي تعهد العثمانيون بموجبها اغلاق المضائق في وجه الدول المعادية لروسيا في حالة الحرب ، جعل بريطانيا تخشى الخطر الروسي • واعتقد الانكليز انه اذا كان ضغط محمد علي على السلطان قد رمى به في أحضان روسيا فان تخفيف ذلك الضغط كفيل بانتشال السلطان من أحضان روسيا • وبالنسبة للانكليز فان بقاء الامبراطورية العثمانية ضعيفة خير من سيطرة محمد علي القوي • وبالاضافة الى ذلك ، فقد استاءت الدول الغربية ، وبخاصة بريطانيا ، من القيود التي فرضها ابراهيم باشا في بلاد الشام على التجارة الخارجية ، وكذلك في اعادته نظام احتكار الموارد الذي اتبعه كما في مصر ، وفرضه الاسعار التي يريدها وبيعه السلع لمن يحب، بخاصة وان نشاط الزراعة في بلاد الشام ، اثر الاستقرار الذي حققه المصريون في أول عهدهم ، قد زاد من الانتاج ، وبالتالي من رغبة التجار الأجانب في المتاجرة مع بلاد الشام • واضطرت شدة احتجاج الدول الغربية، وبخاصة الانكليز ، محمداً علياً الى الغاء الاحتكار في ١٨٣٦ • وفي عام ١٨٣٨ وقعت بريطانيا معاهدة تجارية مع السلطان ، ولكن محمدا عليا رفض تطبيقها في المناطق التي يسيطر عليها ، مما زاد في عداء الانكليز له • ورغم أهمية بلاد الشام

بالنسبه لطريق الهند ، فان خطر التدخل الروسي كان حافزا للدول الغربية لمحافظتها على الدولة العثمانية من هذا الخطر ، ومن خطر محمد علي . وما دام محمد علي يحتل بلاد الشام فانه سيبقى قويا وسيزيد من الخطر الروسي على السلطان الضعيف الذي سيبقى مهتما ببلاد الشام أكثر من اهتمامه بالحدود الشمالية ، ومن شأن ذلك تهديد طريق الهند ولهذا أخذ الانكليز بتشجيع الثورة الداخلية ضد ابراهيم باشا . وكانت غالبية الثائرين في البدء من الدروز وكانت فرانسا المعارضة لانكلترا تشجع محمدا عليا ، ولكن دعمها بقي محدودا نظرا لضعف موقف الحكومة الفرنسية الداخلي ، ولعدم كفاية امكاناتها البحرية .

وجد السلطان العثماني محمود الثاني في الثورة الداخلية فرصة للتدخل ضد ابراهيم باشا ولكن جيشه هزم في نزيب ، شمال شرقي حلب ، في حزيران ١٨٣٩ . وتبع ذلك خيانة قائد الاسطول العثماني وانضمامه الى محمد علي ، ووفاة السلطان العثماني . واعقب ذلك بطش ابراهيم باشا بالثائرين . عند ذلك قرر الانكليز التدخل ، ووصل اسطولهم بقيادة نابيير ، ساحل لبنان وقصف بيروت ، مما شجع الثائرين . وكان هؤلاء يضمون عناصر من الدروز والموارنة ، الذين بعد تسليحهم حاول ابراهيم باشا نزع السلاح منهم . وكان يساند بريطانيا ضد محمدعلي كل من روسيا والنمسا وبروسيا ، وقد فرضت هذه الدول على محمد علي الانسحاب . وظهر الاسطول البريطاني قرب الاسكندرية لدعم موقف الدول المناوئة لمحمد علي . وازاء هذا الوضع الجديد بدأ المصريون بالانسحاب . وتم الاتفاق النهائي على أن يعطي السلطان العثماني حكومة مصر وراثيةالى محمد علي بموجب فرمان صدر في ١٨٤١ .

طرأت على بلاد الشام خلال تسع سنوات من الحكم المصري تبدلات هامة . فقد تراجعت حدود البدو الى قلب البادية عقب تأديب الدولة لهم . وتمكن ساكن المدينة من توسيع أعماله في الريف ، والفلاح من استغلال ارضه بفضل الامن والاستقرار . وادى التسامح الديني الذي طبقه ابراهيم باشا الى اقامة المساواة بين الطوائف وصعب بعد ذلك العودة الى التمييز الطائفي . وكان من تشجيع ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية ان افتتحت المدارس بكثرة ، وبدأ التعليم بالانتشار في بلاد الشام .

ونرى ، بالمقابل ، ان النزاع الطائفي قد استفحل بسبب استخدام ابراهيم باشا الجنود المسيحيين ضد الدروز • وعندما عاد المقاطعجية (الملتزمون) الدروز الذين ثاروا على ابراهيم باشا الى جبل لبنان وجدوا الموارنة قد سيطروا في كثير من مناطقهم وازدادوا تنظيما تحت ادارة رجال الكنيسة • وكان عزل الامير بشير الثاني الشهابي، الذي أيد ابراهيم باشا ، من حكم الجبل، والمجيء بابن أخيه الامير بشير قاسم للحكم مكانه باسم بشير الثالث ذا اثر هام في الفوضى التي تلت ، نظرا لضعف بشير الثالث ومعارضة مختلف الطوائف له . ولكن الانكليز كانوا يدعمونه • وأفاد العثمانيون من الوضع لاثارة الاضطرابات بهدف فرض حكمهم المباشر على جبل لبنان • وفي الواقع فان عدم الاستقرار الذي رافق الثورة على ابراهيم باشا وفترة الاضطرابات التي تلت ذلك قد اضرت بالزراعة وعاد الاعيان الى التسلط على الريف • واستغل العثمانيون ذلك لاعادة فرض نفوذهم • وبدأوا يتنافسون مع الدول الاوربية في تشجيع طائفة ضد اخرى ، ومن هنا بدا اشتداد الاضطرابات الطائفية في المنطقة بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ • وهكذا اصبحت بلاد الشام بنتيجة الحملة المصرية ، ميدانا لتدخل الدول الاوربية . كما ان توسع التجارة الاوربية في الشرق الادنى جعل هذه الدول تزيد من ضغطها للحصول على الامتيازات، ونتج من فتح البلاد للتجارة الاوربية اشتداد منافستها للصناعات الحرفية ، التي اندثر عدد منها بنتيجة ذلك ، مما ادى الى تغيير جذري في بنية الاقتصاد والمجتمع في بلاد الشام[١٠] •

هذا عن الآثار التي خلفها انسحاب محمد علي باشا في بلاد الشام • أما بالنسبة اليه فيعد انسحابه نهاية أحلامه في انشاء امبراطورية • وكان المسؤول عن فشله ، الى حد كبير ، معارضة الدول الكبرى له • ولم ينقذه في ذلك نشوب حرب كبرى في اوربا تلهي قواتها •

لقد عمل محمد علي باشا على تطوير مصر ، ونجح الى حد كبير في ذلك • وتبدى مساوئه في كون حكمه فرديا استبداديا ، فلم يعرف حدوده كملاك كبير وكتاجر كبير • ولم يعلم الى أي مدى يجب تطبيق الاصلاحات الغربية في مصر ذات الظروف المختلفة •ومن مساوئه الرئيسية أن حكمه كان يمثل رجلا واسرة وليس

نظاما • وما أن زال الرجل (توفي في ١٨٤٩)حتى أصبحت اصلاحاته، بل مصر بكاملها، تحت رحمة خلفائه • ومع ذلك فالتبدلات التي ادخلها غيرت وجه مصر •

وقد ذكر الكثير عن أهمية احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام من وجهة نظر اقامة حكومة عربية • وذكر الشيء الكثير أيضا عن أن محمدا عليا لم يكن يتكلم اللغة العربية وأن ابنه ابراهيم باشا ، على خلافه ، كان يفاخر بالامجاد العربية • والحقيقة ان الامبراطورية التي حاول محمد علي انشاءها كان هدفها خدمة طموحه وطموح اسرته بالدرجة الاولى وليس خدمة الشعب • ولا يمكن لوحدة ان تتم اذا لم تكن نابعة من مصلحة الشعب نفسه • وقد سبق محمدا عليا ، قبل نصف قرن ونيف ، علي بك المملوكي في محاولة اقامة سلطنة تضم مصر وبلاد الشام • واذا كان هدف علي بك من ذلك خدمة الطبقة المملوكية التي مثلها ، فان هدف محمد علي لم يختلف ، من حيث الطبقة التي مثلها ، كثيرا عن ذلك[١١] •

ولكن محمدا عليا أفاد القضية العربية بطريقة غير مباشرة • فقد اظهر للشعب سواء في مصر أم بلاد الشام ، انه يمكن ان يقوم حكم أحسن من حكم السلطان ، وان السلطان كزعيم للمسلمين لم يعد باستطاعته حماية رعاياه • كما أن فكرة التسامح الديني التي طبقها محمد علي أوجدت قاسما مشتركا جمع بين أفراد الشعب كافة • ولم تكن الاضطرابات الطائفية التي أعقبت انتهاء حكمه في بلاد الشام والتي استغلها العثمانيون والدول الاجنبية لخدمة مصالحهم سوى حافز للعمل على التآخي بين الطوائف للعيش بسلام • وكان ذلك في أساس الوعي القومي الذي نظر الى جميع المواطنين كعرب •

التدخل الاجنبي في الوطن العربي

تعرض العالم العربي ، منذ عصر الاكتشافات الجغرافية ، في أواخر القرن الخامس عشر ، الى خطر السيطرة على سواحله المطلة على المحيطات من قبل الدول الناشطة في تلك المياه آنذاك ، وأهمها ، فيما يتعلق بالوطن العربي ، البرتغال • وقد حاول البرتغاليون ، كما سبق القول ، التسلل الى البحر الاحمر فصدهم المماليك ، ثم العثمانيون . وكانوا أكثر نجاحا في السيطرة على بعض النقاط

الاستراتيجية في الخليج العربي ، وأشهرها هرمز . وكان على العثمانيين ،اثـر احتلالهم اليمن وعدن والبصرة والاحساء ، الدفاع عن مداخل البحر الاحمر والخليج العربي ، بالتعاون مع القوى المحلية البدوية والدينية، ضد البرتغاليين، ثم ضد الذين حلوا مكانهم ، من هولنديين وفرنسيين وانكليز ، طوال الحكم العثماني . أمـا السواحل العربية على البحر الابيض المتوسط فقد تعرضت باستمرار الى غزوات القراصنة ، على اختلاف انواعهم ، من بنادقة وجنوبيين وفرنسيين وانكليز ، وذلك لانه ما من دولة قوية واحدة تمكنت من فرض نفوذها على المتوسط ، بعد زوال هيمنة البندقية وجنوه . وبالتدريج ، فقد البحر المتوسط والدول المطلة عليه الاهمية لمصلحة المحيطات والدول المطلة عليها نظرا لاهمية المواد الخام التي كانت تستورد عبر المحيطات من أمريكا وآسية ، بصورة رئيسة . ولم تشتهر الدولة العثمانية في مجال البحرية ، وفقدت امكانية السيطرة في المتوسط بعد هزيمتها في معركـة ليبانتـو البحرية في عام ١٥٧١ .

واقتصر النشاط الاوربي في البلاد العربية ، طيلة القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ، على النواحي التجارية ، بموجب الاتفاقيات ونظام الامتيازات ، الذي منح الرعايا الاجانب كثيرا من الفوائد وجعلهم دولة ضمن دولة ، يخضعون لقوانين بلادهم ، وليس للقوانين العثمانية أو المحلية . وقد نشطت شركة بـلاد المشرق الانكليزية في منطقة حلب ، منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر . وكذلك نشط الفرنسيون في بلاد الشام الجنوبية ، وبخاصة في القرن الثامن عشر . وحدث تنافس انكليزي فرنسي في منطقة الخليج العربي في ذلك القرن ، وهـو امتداد للتنافس بين الفريقين في الهند وجزر الهند الشرقية . والجدير بالذكر انـه حتى ضمن الدولة الواحدة حدث تنافس بين الشركات التجارية ، مثل محاولة شركة الهند الشرقية الانكليزية ، في القرن الثامن عشر ، المتاجـرة عبر البـحر الاحمر والسويس ، مما اثار معارضة شركة بلاد المشرق الانكليزية التي عدت ذلك تهديدا لمصالحها . وبقيت القرصنة ناشطة ، طوال هذه القرون على سواحل المتوسـط ، وبخاصة شمال افريقية ، حيث تلقى القراصنة دعم حكوماتهم التي حاولت احتلال النقاط الاستراتيجية على هذه السواحل . ومن هنا كانت ردة فعل القراصنـة

الشديدة ، من عرب وعثمانيين ، ضدهم وتسلمهم الحكم في كثير من مناطق افريقية الشمالية .

التدخل العسكري الاوربي في المشرق العربي : رغم قيام علاقات دبلوماسية وتجارية بين فخر الدين الثاني المعني وتوسكانا ، في ايطاليا ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، ولجوء فخر الدين الى حلفائه حكام توسكانيا ، في الفترة بين ١٦١٣ ـ ١٦١٨ ، فلم يبلغ ذلك حد التدخل العسكري من قبل هؤلاء الحكام لمساعدة فخر الدين . وكان أول تدخل عسكري منظم لدولة اوروبية على سواحل المتوسط الشرقية ، منذ الاحتلال العثماني ، اشتراك الاسطول الروسي الى جانب قوات علي بك المملوكي وحليفه ظاهر العمر ، في قصف منطقة بيروت ، وانزال القوات فيها في عام ١٧٧٢ . وتم ذلك في عهد القيصرة كاترين الثانية ، التي عرف عنها الاصلاح وتنشيط الدولة ، وكذلك اشتباكها في حرب كبرى مع الدولة العثمانية دامت ست سنوات ، بين ١٦٦٨ و ١٧٧٤ . وبعد ربع قرن من هذا التدخل الروسي بدأ التدخل الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت ، في مصر ، ثم في بلاد الشام. واستفحل التدخل الاوربي ، بعد ذلك على مختلف المستويات ، في البلاد العربية مغربها ومشرقها ، مدفوعا بمتطلبات الثورة الصناعية التي بدأت توجه سياسة الدول الاوربية الغربية ، وبخاصة بريطانيا وفرانسا ، لايجاد الاسواق لمنتجاتها ، والمواد الخام لمصانعها . وجندت جميع امكانات هاتين الدولتين ، في ظل الحكم البرجوازي الذي سيطر فيهما ، نحو الاستعمار سواء في الوطن العربي أم في العالم . وسنورد ، في البحث التالي ، الخطوط العامة لتوضع الاستعمار الاوربي في الوطن العربي ، ثم ننتقل الى دراسة ردود الفعل العربية ، وتطور الحركة الوطنية بصورة عامة .

وقد انهت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، ما يقارب من ثلاثة قرون من العزلة المحلية عن المشكلات الدولية . ومنذ الحملة فتحت هذه المناطق للمؤثرات الغربية على اختلاف انواعها . وقدبدأ الانزال الفرنسي في الاسكندرية في ١ تموز ١٧٩٨ . وكان هدفالحملة قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والشرق الاقصى . ورغم ما ذكر ايضا من اهداف أخرى للحملة كابعاد نابليون الطموح عن مسرح الاحداث في فرانسا ، والفتح في

المجال أمام التجار الفرنسيين الذين ضايقهم تسلط الحكام المحليين من المماليك ومنافسة شركة الهند الشرقية البريطانية ، فان الغاية البعيدة للفرنسيين هي احتلال مصر والتمتع بمصادر الثروة فيها •

هزم الفرنسيون القوة الرئيسة للمماليك في معركة الاهرامات قرب القاهرة، في ٢١ تموز ١٧٩٨ ، واحتلوا القاهرة • وفي محاولة منهم للتقرب من السكان المحليين أعلنوا انهم أتوا لانقاذهم من ظلم المماليك ، وانهم اصدقاء المسلمين والسلطان ، وبدأوا يتقربون من العلماء • وركز البيان[٢١] الذي وزعه نابليون على المصريين على استثارة الناحية الوطنية ضد المماليك • وكذلك الشعور الديني للسكان • ولكن أحداثا داخلية وخارجية أدت الى ازدياد النقمة ضد الفرنسيين • فقد أدت اجراءات الامن التي اتخذوها في القاهرة ، كهدم البدابات وتحصين القلعة ، بالاضافة الى فرض الضرائب وتحصيلها من الاهلين الى تصاعد النقمة ضدهم • وزاد في الامر عداء بريطانيا لفرانسا وتحطيم اللورد نلسن الاسطول الفرنسي في أبي قير في ١ آب ١٧٩٨ • وعمل على اثارة العداء الديني ضد الفرنسيين اعلان السلطان العثماني ، وهو زعيم المسلمين ، الحرب على فرانسا في الشهر التالي • وقد أدت عوامل النقمة هذه الى قيام ثورة في القاهرة على الفرنسيين في ٢١ تشرين الاول من السنة ذاتها ، ولكن الفرنسيين قضوا عليها بالقوة •

كان يحدق بالفرنسيين اربعة أخطار : الخطر الانكليزي من البحر بما في ذلك وقف ايصال الامدادات من فرانسا الى الحملة في مصر ، والخطر المملوكي الذي تمثل في المماليك الهاربين الى الصعيد أو الى بلاد الشام، والخطر المحلي كقيام ثورات شعبية ، ثم الخطر العثماني الذي تبدى في أنباء قدوم جيش عثماني بري • ولاستباق هذا الخطر الاخير توجه نابليون الى بلاد الشام لقطع الطريق على الجيش العثماني ولاقامة منطقة عازلة بين حكمه في مصر وبين العثمانيين في الاناضول • وكان يفكر في اقامة حكومة محلية موالية في بلاد الشام الجنوبية من الامراء الشهابيين أو بقايا أسرة ظاهر العمر • وفي ٢٢ شباط ١٧٩٩ احتل الفرنسيون قلعة العريش ، وسقطت يافا بأيديهم في ٧ اذار • وقد ارتكب نابليون ماعرف بأشد اعماله قسوة ولاانسانية حين قتل الفين من حامية يافا التي استسلمت له ، لانه ، كما قيل عنه ، لو احتفظ

بهم لاوجدوا له مشكلة ، من ناحية اطعامهم وحراستهم ، ولو اطلق سراحهم فربما انضموا الى صفوف خصومه . وبدأ الطاعون ، بعد احتلال يافا ، يتفشى بين جنوده .

وقد فشلت حملة نابليون على بلاد الشام لامتناع عكا عليه . وكان يدافع عنها أحمد باشا الجزار ويدعمه الاسطول الانكليزي . ورفض الامير بشير الثاني الشهابي دعوة نابليون للانضمام اليه . ولم يكون أبناء ظاهر العمر ، الذين حاول نابليون كسب دعمهم قوة هامة . وعاد نابليون الى مصر في ٢٠ أيار ١٧٩٩ ، بدون أكاليل غار ، وكان ذلك بداية النهاية للحملة الفرنسية .

واضطر نابليون ، بعد قليل ، للعودة الى فرانسا للاسهام في التطورات السياسية فيها . وقتل نائبه كليبر ، الذي خلفه في مصر ، على يد سليمان الحلبي ، وحل مكانه الجنرال عبد الله الذي اعتنق الاسلام . وبدأ الانكليز والعثمانيون يحاصرون القوات الفرنسية ، من البحرين الاحمر والمتوسط ، ومن البر . وأخيرا جلا الفرنسيون عن مصر في ١٨٠١ .

لم تتوصل الحملة الفرنسية الى النتائج العسكرية والاستراتيجية والتجارية التي توختها . ولكنها أثارت اهتمام الاوربيين والفرنسيين ، على حد سواء بمصر . ودرس العلماء المرافقون لنابليون مختلف وجوه الحضارة المصرية وأعلنوها للعالم الاوربي في المؤلف الضخم «وصف مصر» ، وكذلك أسهموا في فك رموز الهيروغليفية بواسطة قراءة حجر الرشيد . كما أن محاولة الفرنسيين الاعتماد على العلماء والاعيان المحليين من التجار قد زاد من أهمية هذه العناصر لاسيما بعد ضعف نفوذ المماليك بفعل الحملة . وحاول نابليون اشراك العلماء والاعيان بمجالس الديوان الذي دعا الى عقده في محاولة منه لتقريب الزعماء المحليين منه واشراكهم معه في السلطة .

ولم يكن فشل حملة نابليون نهاية النفوذ الفرنسي في مصر ، بل على العكس أكدت الحملة هذا النفوذ . وسرعان ما ظهر الفرنسيون بعد حوالي ربع قرن كمؤيدين لسلطة محمد علي باشا ، وأرسلوا خبراءهم لتطوير الادارة في مصر ، واستقبلوا في بلادهم بعثات الطلاب المصريين .

ورغم ان الانكليز لم يحلوا مكان الفرنسيين في استعمار مصر لانشغالهم آنذاك في الحرب النابليونية في أوربا ، ولعدم رغبتهم في اثارة العداء بينهم وبين الدولة العثمانية ، فانهم ادركوا أهمية الحيلولة دون سيطرة دولة أوربية على برزخ السويس وعمدوا ، بعد ذلك ، الى احتلال عدن في ١٨٣٩ ونقاط أخرى على السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية لحماية خطوط مواصلاتهم مع الهند . وبدأ ، في الوقت نفسه ، التدخل في قلب الوطن العربي • ودعم الانكليز والفرنسيون الاطراف المحلية المتنازعة ، مثل محمد علي باشا والسلطان العثماني ، والطوائف الدينية المتنافسة ، كما سنرى في بحث لاحق •

ولعل أهم أثر سياسي خلفته الحملة الفرنسية في مصر اضعاف المماليك وقد توفى مراد بك في مصر العليا في عام ١٨٠١ • وبرز من بعده حزبان اسسهما اثنان من مماليكه : عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي • ودعمت انكلترا حزب الاخير ، وزار الالفي لندن في١٨٠٣ ــ ١٨٠٤ • وحين انسحب الانكليز من مصر في عام ١٨٠٣ بموجب معاهدة اميان ، وجد المماليك المضعفون وجها لوجه امام النفوذ العثماني المتزايد ، وبخاصة طموح زعماء الفرقة الالبانية ، كما أن أهمية المماليك المنهزمين قد تضاءلت كثيرا في أعقاب الحملة[١٣] • وبالمقابل، وجد بعض كبار العلماء ، من أمثال الشيخ المهدي ، والشيخ الخشاب ، والشيخ العطار ، والشيخ الجبرتي ، في الادارة الفرنسية وفي البحث العلمي لدى الباحثين الفرنسيين المرافقين لنابليون ، ما أعجبوا به ، بخاصة وان بعضهم اشترك في الدواوين التي أقامها نابليون في مصر •

وقد نظر المؤرخون في الوطن العربي وخارجه الى الحملة الفرنسية كحادث هام ، ايقظت الوطن العربي من سباته وأظهرت له كيف يمكن لجيش اوربي أن يغزو بلاده • كما أنها اظهرت لبريطانيا خطر الفرنسيين بالنسبة لخطوط مواصلاتها فيما لو تمكنوا من البقاء في مصر والشام •

وأصبح لانكلترا ، في أعقاب معارضتها لحملة نابليون بونابرت ، دور هام في تقرير السياسية في مصر والمشرق العربي ، بخاصة وأن الدولة العثمانية اعتمدت عليها في دعم وجودها ضد محمد علي باشا والنفوذ الروسي • وقد سبق القول ان

انكلترا كانت على رأس الدول الاوربية التي اضطرت محمد علي باشا الى الانسحاب من بلاد الشام ، والاكتفاء بحكم مصر ، وذلك في مؤتمر لندن الاول في ١٨٤٠ ، والثاني في ١٨٤١ ، الذي اشتركت فيه فرانسا الى جانب انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا التي دعت الى المؤتمر .

ورغم انسحاب المصريين من بلاد الشام فان تدخل الدول الاوربية قد ازداد حدة ، بسبب ازدياد تصنيعها ، وبخاصة بالنسبة لانكلترا وفرانسا ، وبحثها عن أسواق ومصادر للمواد الخام ، وكذلك بسبب ازدياد المنافسة فيما بينها . ووجدت هذه الدول في النزاعات الطائفية ، التي اسهمت في تأجيجها ، مجالا للتدخل ، فدعمت كل دولة طائفة معينة . وكانت الدول الاوربية منذ مؤتمر فيينا في ١٨١٥ وحتى الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤ ، تتحاشى الاشتباك مع بعضها بعضا في حرب كبرى خوفا على كياناتها المحافظة من الانهيار ، ولذلك وجهت اهتمامها الى قمع الثورات في الداخل ، سواء منها التي قام بها اليسار البورجوازي أم الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وكذلك الى الاستعمار في الخارج لخدمة مصالح الطبقات البورجوازية الحاكمة ، من ناحية ، ولتحويل الانظار عن القضايا الداخلية من ناحية اخرى . وباستثناء حرب القرم (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦) ، التي وقفت فيها انكلترا وفرانسا وبيد مونت ــ سردينيا الى جانب الدولة العثمانية ، ضد روسيا ، وكذلك الحرب البروسية ــ الفرنسية في ١٨٧٠ ، فلم تحدث حرب اوربية اشتبكت فيها أكثر من دولتين . ولطالما وصفت حرب القرم بأنها غير ضرورية ، ولكنها على صعيد العلاقات العثمانية ــ الروسية ، قد حالت دون توسع روسيا في المتوسط في المستقبل . وكانت الرابحة الكبرى بيدمونت ــ سردينيا اذ استطاع كافور ببضعة قتلى في القرم ان يجلس الى مائدة الصلح كممثل لايطاليا ، واستغل ذلك في فرض زعامة المملكة التي يمثلها في ايطاليا وفي اوربا . أما الحرب البروسية الفرنسية فقد شنتها بروسيا رغبة من بسمارك في توحيد المانيا ، بالدرجة الاولى ، لانه بذلك اثار الروح القومية الالمانية فانضم اليه اتحاد دول الراين ، وتحاشى بذلك ضمها بالقوة .

وهكذا نجد أن الدول الاوربية تحولت عن القتال فيما بينها الى التنافس

للحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ • وكان الوضع في بلاد الشام ، في أعقاب انسحاب الجيش المصري ، مهيئا لتدخل هذه الدول •

وتبدو لنا ظاهرتان في جبل لبنان اثر انسحاب جيش محمد علي باشا من بلاد الشام : الاولى نقمة الاعيان من المقاطعجية (الملتزمين) الدروز على الموارنة الذين استخدمهم ابراهيم باشا في قتالهم ، والذين تسربوا الى مناطقهم في جبل لبنان الجنوبي ، بأعداد كبيرة ، وسيطروا على مقدراتها • والجدير بالذكر ان هجرة الموارنة من شمال لبنان الى الجنوب بدأت في عهد فخر الدين المعني الثاني المتسامح دينيا • وكان الفلاحون الموارنة في الجنوب يستخدمون من قبل المقاطعجية الدروزفي استثمار الاراضي ، ولكن التوازن انقلب الآن بسيطرة الموارنةفي الجنوب . والظاهرة الثانية هي التبدلات التي طرأت على الطائفة المارونية نفسها • فقد نشبت منافسة قوية بين أسر الاعيان الاقطاعيين ، الذين أرادوا الحفاظ على سلطتهم بين الموارنة ، وبين رجال الدين الموارنة ، الذين ازدادوا نفوذا ودعموا الفلاحين ضد الاقطاعيين• وزاد في اضعاف زعماء الاقطاعيين انتشار الثقافة بسرعة بين المسيحيين وبخاصة اثر شيوع افتتاح المدارس في عهد ابراهيم باشا • وبالاضافة الى ذلك فان الثروة الاقتصادية في جبل لبنان كانت تتحول تبعا لازدياد التعامل التجاري مع اوربا ، الى أيدي التجار المحليين والاوربيين ، وفي هذا اضعاف لسلطةالزعماء الاقطاعيين • ورغم هذه الانقسامات في صفوف الموارنة فقد كان يوحد بينهم عداؤهم ككل للدروز •

انتهز الدروز مناسبة عزل الامير بشير الثالث في ١٨٤٢ ، من قبل الاتراك ، والقضاء بذلك على الاسرة الشهابية ، فهاجموا الموارنة في مناطقهم في محاولة منهم لاعادة نفوذهم عليهم • واستغل العثمانيون ذلك لفرض سيطرتهم على الجبل ، وعينوا حاكما عثمانيا • ولكن الدروز والموارنة عارضوه . واضطرت الدولة العثمانية الى عزله • وعمدت في ١٨٤٣ الى تقسيم الجبل الى منطقتين ، يحكم المنطقة الشمالية قائم مقام ماروني ، والمنطقة الجنوبية قائم مقام درزي ، ويفصل بين منطقتيهما طريق دمشق ـ بيروت • ولكن الصعوبة في الامر أن التوزيع الطائفي لم يكن مقتصرا على هاتين المنطقتين ، وذلك لوجود اعداد كبيرة من الموارنة تسكن في المنطقة الجنوبية التي أشرف عليها القائم مقام الدرزي • واحتج الموارنة على ذلك

ونشبت الاصدامات بينهم وبين الدروز في ١٨٤٥ • فأرسلت الدولة العثمانية وزير خارجيتهاشكيب افندي الذيأبقى على نظام القائممقامين ، وأقام في كل منطقة مجلسا يضم مختلف المذاهب في محاولة لاشتراك أصحاب المذاهب من الاقليات في الحكم •

هدأت الاحوال مؤقتا بين الطائفتين ، وأتاح ذلك المجال للخلافات أن تعم بين الموارنة • وفي ١٨٥٨ ثار الفلاحون الموارنة ، في منطقة كسروان ، ضد الاقطاعيين الموارنة من آل الخازن ، الذين ازداد نفوذهم أكثر من نفوذ الاقطاعيين الدروز الذين شردوا زمن ابراهيم باشا ، وعارضهم فلاحوهم من الموارنة • وكان يقود الفلاحين الموارنة في ثورتهم ، التي عرفت بالعامية ، زعيم يسمى طانيوس شاهين • وقد طرد آل الخازن ، وأقام جمهورية فلاحين في جبل لبنان الشمالي في ١٨٥٩ • وكان يؤيده ، في البدء ، كبار رجال الكهنة الذين عارضوا الزعماء الاقطاعيين ، كما أيدته الادارة التركية معنويا ، أو على الاقل لم تعارضه فعليا ، لانها ستستفيد من تقليم أظافر الزعماء المحليين(١٤) •

أثار نجاح الفلاحين في كسروان آمال الفلاحين في المناطق الدرزية في الجنوب • ولكن الفلاحين في الجنوب كانوا بكثرتهم من الدروز فترددوا في الثورة على زعمائهم الاقطاعيين من الدروز في حين أن الفلاحين الموارنة في الجنوب ثاروا للتحرر من زعمائهم الاقطاعيين ، الذين صدف انهم دروز • وهكذا تمزق النضال الفلاحي في الجنوب وأدى الى حرب طائفية نتيجة لدعم الفلاحين الدروز للاقطاعيين الدروز ضد الفلاحين الموارنة الثائرين • ومما تجدر ملاحظته أن الزعماء الاقطاعيين في الجنوب استغلوا الخلافات المذهبية وأثاروا الطائفية في محاولةمنهم لتدعيم مركزهم الاقطاعي وزعامتهم الفردية •

أتيح المجال الآن لتدخل الدول الاجنبية لابراز نفوذها فأيد الانكليز الدروز، والفرنسيون الموارنة ، واستغل العثمانيون الوضع لاعادة سلطتهم • وبدأت المذابح في مناطق لبنان الجنوبي المختلطة ، وسرعان ما انتقلت الى دمشق ، حيث حاول الامير عبد القادر الجزائري وكبار علماء المسلمين الوقوف في وجه الغوغاء الذين تشجعوا بالتأييد الضمني التركي وعدم اتخاذ اي شيء ضدهم • ويذكر ان اعطاء

الحكم المصري كثيرا من الامتيازات للمسيحيين قد أثار المتعصبين من المسلمين. كما أن اعلان السلطان العثماني خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ ، الذي أقر المساواة ، في كثير من النواحي ، بين الرعايا ، على اختلاف مذاهبهم ، اجج ايضا خواطر المتعصبين . ولابد هنا من وقفة لازالة الغموض فيما كتب حول هذه الاحداث من قبل الغلاة من الطرفين . ولاشك ان المركز الممتاز الذي حصل عليه المسيحيون ، ابان الحكم المصري ، قد أثار غائلة عدد من المتعصبين . فاستغلت سذاجتهم وجهلهم قوى متربصة من اقطاعيين ، ودول استعمارية ، وامبراطورية عثمانية ، وكل جماعة منهم تحاول استعادة نفوذها . فما حدث في جبل لبنان كان محاولة فلاحين للتخلص من تسلط الاقطاعيين ، أو لتحاشي عودة تسلطهم ، بعد أن أضعفهم الحكم المصري . ولم يكن من مجال ، في منطقة كسروان ، لاستغلال الطائفية ، لان كلا من الفلاحين والاقطاعيين المتحاربين ، كانوا من الموارنة . ولكن تعقد الصورة في لبنان الجنوبي وانقسام الفلاحين الى دروز وموارنة ، وقيامهم ضد اكثرية درزية من الاقطاعيين،اتاح المجال لاصحاب المصالح بالتدخل . ومما يدل على ان العامل الاقتصادي كان هو المسؤول عن الثورات أن كثيرا من المدنيين هاجموا دائنيهم ، من المذهب نفسه أحيانا للتخلص من الدين . وبرز ايضا العنصر الاقتصادي في دمشق ، في احداث ١٨٦٠ ، ومن قبلها في حلب ، في الاصطدامات الطائفية التي حدثت فيها في ١٨٥٠ ، قبل ان تبدأ أحداث جبل لبنان وتنتقل بالعدوى . فقد حدثت تطورات اقتصادية هامة ، منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، تحت تأثير الاقتصاد الاوربي المتصنع ، نتيجة للمنجزات التي أتت بها الثورة الصناعية في اوربا . وازداد الاقتصاد المحلي ضعفا بفعل المنافسة الاوربية .

ومما يذكر ان التجار الاوربيين ، قبل الثورة الصناعية الاوربية التي توضحت آثارها منذ الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، كانوا يتعاملون مع بلاد الشام ، فيصدرون اليها بضائعهم ، ويشترون منتجاتها المتنوعة . ولكن ، بنتيجة الثورة الصناعية ، اصبحت البضائع الاوربية اكثر رخصا وبالتالي اكثر قدرة على منافسة وتقويض المنتجات المحلية . ونظرا لكثرة الكميات المصدرة من اوربا فقد ازدادت سعة البواخر التي نقلتها ، ولم تعد الموانى التقليدية ، مثل عكا وصيدا وطرابلس

والاسكندرونة ، قادرة على استيعاب هذه التجارة المتسعة ، ولذلك أوجد ميناء بيروت لايواء السفن الكبيرة وبضائعها . وبالاضافة الى ذلك ، ففي فترة ما قبل الثورة الصناعية كان التجار الاوربيون يشترون فائض المحاصيل المحلية ، مهما اختلفت انواعها ، من قطن وحبوب وحرير وقلي، ولكن بعد الثورة الصناعيةواتساع صناعة النسيج في اوربا ، اصبح التجار الاوربيون لايشترون الا المواد الخام التي تحتاجها معاملهم . كما أن جودة ورخص البضائع الاجنبية ، التي زاحمت المنتجات المحلية ، جعلت التجار الاوربيين يبيعونها لقاء المال (وهو معدني وليس ورقيا) ، اما لعدم اهتمامهم بالمنتجات المحلية او لعدم كفايةهذه المنتجات في سد قيمةبضائعهم، وبذلك انقضى عصر المقايضة الذي شاع قبل الثورة الصناعية . وهكذا افتقر السكان من ناحيتين : ١ ــ لانهم لم يبيعوا كافة منتجاتهم ، ٢ ــ لانهم دفعوا ثمن البضائع الاوربية نقدا ثمينا من الذهب أو الفضة . وبالمقابل ازدهرت طبقة جديدة في بلاد الشام ، وفي الوطن العربي بصورة عامة ، لانها عملت كواسطة بين التاجر الاوربي والمستهلك المحلي . وكان معظم أفراد هذه الطبقة البورجوازية التجارية المسيحيين ، الذين تثقفوا في المدارس التي افتتحها ابراهيم باشا والبعثات التبشيرية في عهده ، واتقنوا اللغات الاجنبية أكثر من غيرهم ، وهكذا امكن للتجار الاوربيين الافادة منهم في العمليات التجارية . وفي الاضطرابات الطائفية ، سواء في حلب في ١٨٥٠ أم في دمشق في ١٨٦٠ ، كانت الغوغاء تخرج من المناطق الفقيرة لتهاجم الاغنياء الجدد ، ومعظمهم من المسيحيين . ومما يذكر ان المحاصيل الزراعية ، قبل الحادثتين ، كانت شحيحة ، وعمدت الدولة العثمانية الى فرض المزيد من الضرائب لتمويل اصلاحاتها الحديثة . وطبيعي أن قادة الغوغاء ، من الاعيان أو الموظفين العثمانيين المتواطئين ، كانت لهم أهداف تختلف عن أهداف الغوغاء ، وعرفوا كيف يستغلون تعصب هؤلاء وحاجتهم المادية ، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك باعدام المئات منهم حين اضطرت الدولة العثمانية لمعاقبة المسؤولين[١٠] .

وأنزلت فرنسا ، بموافقة الدول الاوربية ، قوات في بيروت في آب ١٨٦٠ لتهدئة الوضع ، وأسرعت الدولة العثمانية بارسال وزير خارجيتها فؤاد باشا الذي أمر بمعاقبة زعماء الفتنة في دمشق وغيرها . واشترى انسحاب القوات الفرنسية في

حزيران ١٨٦١ باصدار نظام اداري في الشهر نفسه ، بضمانة الدول الاوربية ،لتنظيم أمور لبنان . وقد عدل النظام في ١٨٦٤ ، واستمر ساري المفعول حتى الحرب العالمية الاولى . ونص على الغاء نظام القائم مقامين ، واقامة سلطة تشرف على شؤون الجبل بكامله ، يرئسها متصرف مسيحي مسؤول مباشرة أمام السلطان (ومن هنا دعي النظام بالمتصرفية) . ويساعد المتصرف مجلس اداري ومركزي يمثل المذاهب المختلفة . وأقر نظام المتصرفية مساواة جميع المواطنين أمام القانون والغاء الامتيازات الاقطاعية . وتغلب اول متصرف وهو داود باشا (١٨٦١ — ٦٨) على معارضة الزعماء الاقطاعيين وعلى نفوذ يوسف كرم القائم مقام المسيحي في منطقة لبنان الشمالي الذي سبق أن أطاح بحكومة طانيوس شاهين الفلاحية في كسروان ، ونفي يوسف كرم من لبنان .

وقد اتبع العثمانيون اصلاحاتهم في لبنان باقامة اصلاحات ادارية في بلاد الشام فقسموها الى ولايات جديدة ، وانشأوا أولا ولايتي الشام وحلب ، ثم ولاية بيروت ، وجعلوا من القدس صنجقا خاصا .

وهكذا نرى كيف عملت السياسة والتدخلات الاجنبية بتواطؤ السلطات العثمانية على قلب حركة تحررية تهدف الى تصفية نظام الاقطاع الى حركة دينية أثارها واستغلها الاجنبي ، أما نتائجها فبالرغم من القضاء على نفوذ رجال الدين وعلى النظام الاقطاعي بوجه عام فقد كانت سابقة خطرة في تدخل الاوربيين في شؤون المشرق العربي ، وبالرغم من هذا كله نبهت الافكار الى خطر الطائفية واستغلالها من قبل الاجانب وقيامها على الجهل . لذلك تضاعفت الجهود لانشاء المدارس والقضاء على الامية ، وحفزت بعض الشباب المفكر على العمل لتحرير بلاده من الحكم التركي . وهكذا زرعت بذور الوطنية وظهرت حركة تستوحي من الفكرة العربية وتعمل لمثل قومية ، وليس طائفية .

واستمر تدخل انكلترا وفرانسا في شؤون المشرق العربي ، بشكل أو بآخر ، الى أن أقاما انتدابهما عليه في أعقاب الحرب العالمية الاولى . وكنا رأينا كيف أن الانكليز شددوا قبضتهم على السواحل الجنوبية والشرقية من الجزيرة العربية ،

ووقعوا المعاهدات مع امارات الخليج العربي ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر، كما انهم احتلوا عدن في عام ١٨٣٩ • وفي العقد الاخير من القرن التاسع عشر جدد الانكليز معاهداتهم مع السلاطين العمانيين في مسقط وزنجبار في ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ ، ومع البحرين في ١٨٩٢ ومع الكويت في ١٨٩٩ •

ثم ظهرت دولة اوربية أخرى ، هي المانيا ، في ميدان السباق على النفوذ في المشرق العربي ، وفي الامبراطورية العثمانية بصورة رئيسة • ويعزى ظهورها المتأخر الى اكتمال وحدتها في وقت متأخر ، أي في عام ١٨٧٠ • وبدأ اهتمام المانيا بقضايا الامبراطورية العثمانية حوالي ١٨٨٠ ، وعين القائد الالماني فون درغولتز ، في ١٨٨١ ، رئيسا للبعثة العسكرية المكلفة باعادة تنظيم الجيش التركي • وفي الاول من تشرين الثاني ١٨٨٩ أبحر اليخت الامبراطوري الالماني ـ الهوهنزلرن ـ في الدردنيل يحمل على ظهره الامبراطور غليوم (وليم) الثاني وزوجه في زيارتهما للسلطان عبد الحميد • وقد مضت سبعمائة سنة منذ ان وطأ أول امبراطور الماني ، وهو فريدريك بربا روسا ، أرض استانبول ، ابان الحملات الصليبية • لكن هذا الاخير اتى يحمل السيف في يده بينما اتاها غليوم كرسول السلام وطليعة التغلغل الاقتصادي • وكلما ازدادت العلاقات تأزما بين تركيا والدول الاوربية الاخرى ازدادت علاقاتها توثقا مع المانيا • وفي زيارته الثانية للامبراطورية العثمانية ، في عام ١٨٩٨ ، ألقى غليوم الثاني خطابا في دمشق في ٨ تشرين الثاني جاء فيه : « وليوقن صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته العظمى ارتباطا قويا والمنتشرين في جميع انحاء الكرة الارضية أن امبراطور المانيا سيبقى محبا لهم الى الابد»[١٦] • وعلق المؤرخ الالماني نومان ، صاحب كتاب: أوربا الوسطى ، الذي حضر الحفلة ، على خطاب الامبراطور بقوله: « من المحتمل أن يقع سلطان استانبول بأيدي الروس فيقوم ساعتئذ خليفة مسلم في دمشق أو غيرها ، ومن المفيد أن يكون الامبراطور صديق المسلمين جميعا لا السلطان وحده • كما أن الدعوة الى الجهاد المقدس في حالة قيام حرب عالمية ستفيد حتما ألمانيا صديقة الخليفة » •

ولم يكن هدف زيارة غليوم للشرق حماية البروتستانت في الأراضي المقدسة ولا مجرد مجاملة صديقه عبد الحميد ، وانما اتفق وجوده في استانبول مع منح امتياز

مرفأ حيدر باشا الى شركة الخطوط الحديدية الاناضولية الالمانية • ثم وقع البنك الالماني دويتش بانك عقدا بمد السكة الحديدية حتى أنقره ، وتم ذلك في عام ١٨٩٢ • والجدير بالذكر ان الدبلوماسية الالمانية في الشرق الادنى كانت « دبلوماسية الخطوط الحديدية » منذ بدئها حتى نهايتها ، كما ان رؤوس الاموال والمصارف الالمانية أخذت تغزو تركيا • ولعل أهم العقود المبرمة مع ألمانيا والتي أدت الى صراع دولي حاد كان الامتياز الممنوح للشركة السابقة في ١٩٠٢ القاضي بمد سكة حديد استانبول ــ بغداد ، وبذلك تتصل برلين باستانبول وبغداد والبصرة ، مما يفيد التوسع الاقتصادي الالماني • وقد قاومت انكلترا هذا المشروع مقاومة عنيفة • ثم تم مد خط آخر ، الخط الحديدي الحجازي الذي وصل بين دمشق والمدينة ، وأنجز في الفترة بين ١٩٠٠ و ١٩٠٨ بمساعدة الالمان • ورغم ان ثلث التكاليف دفعت عن طريق تبرعات المسلمين في العالم ، فقد خدم هذا الخط سياسة عبد الحميد الاسلامية ، وكذلك المصالح الاستراتيجية الالمانية لأن من شأنه أن يهدد مواصلات الامبراطورية البريطانية في البحر الاحمر •

والى جانب التدخل الأوربي ، في المجالات السياسية والاقتصادية ، في بلدان المشرق العربي ، فقد نشطت الارساليات الاوربية والامريكية في فتح المدارس ونشر الثقافة الغربية • وكانت أولى الارساليات التي قامت بنشاط ديني في بلاد الشام منذ القرن السادس عشر ، هي الكاثوليكية ، ممثلة ، على التتالي ، بالكبوشيين ، ورهبان الأرض المقدسة واليسوعيين • وكان هدفهم جذب اتباع المذاهب المسيحية الاخرى الى الكاثوليكية ، وتنظيم الموارنة وربطهم بروما • وقد نجحوا في المهمة الاخيرة في عام ١٧٣٦ ، وارتبط موارنة الشرق بروما • وقام المبشرون الكاثوليك بالتدريج بايجاد اتباع ، وبالتالي كنائس كاثوليكية ، داخل الطوائف الاثوذكسية والأرمنية والسريانية والنسطورية • ورغم أن الدولة العثمانية لم تعترف بالكنائس الكاثوليكية حتى القرن التاسع عشر ، وانحصرت رعايتها بالارثوذكس ، الذين تمتع بطريركهم في استانبول بنفوذ كبير ، فان الكنائس الكاثوليكية بعد صدام مع الارثوذكس في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، أصبحت تتمتع بكيان مستقل[١٧] •

أما النشاط التبشيري البروتستانتي فلم يقو في بلاد الشام حتى القرن التاسع

عشر. وفي عام ١٨٤٨ شكل البروتستانت المحليون الكنيسة الأنجيلية السورية. وظهر نشاط البروتستانت في الطباعة والتعليم ، ففي عام ١٨٣٤ نقلوا الى بيروت من مالطة مطبعة عربية لعبت دورا هاما في نشر التراث العربي . ولم تكن هذه أول مطبعة عربية في بلاد الشام ، فالأولى أنشئت في لبنان في ١٦١٠ ، وقد أهدتها روما التي الرهبانية في دير قزحيا . وأنشئت أول مطبعة عربية في حلب عام ١٦٩٨ . وتلتها مطبعة الشوير في ١٧٣٢ ومطبعة القديس جاورجيوس في ١٧٥٣ ، ومطبعة بولاق في مصر عام ١٨٢١ ، وكان أول مدير لها لبنانيا .

وقد نشط المبشرون الأمريكيون بفتح المدارس ، ولعل أهم عمل قاموا به افتتاح الكلية السورية البروتستانتية في ١٨٦٦ في بيروت ، بمساعي دانيال بلس ، والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الاميركية . والجدير بالذكر ان الكلية السابقة كانت في بادىء الامر تدرس الطب والآداب باللغة العربية . اما المرسلون اليسوعيون فلم يكونوا أقل نشاطا من البروتستانت وقد أسسوا مدارس في بيروت ١٨٣٩ ، وغزير ١٨٤٣ ، وزحلة ١٨٤٤ ، ودمشق ١٨٧٢ ، وحلب ١٨٧٣ . وقدر لمدرسة غزير أن تصبح ذات شأن اذ باتتقالها الى بيروت في عام ١٨٧٥ تحولت الى جامعة القديس يوسف « اليسوعية » . ثم تلا ذلك انشاء مدارس انكليزية واسكوتلاندية وألمانية وروسية. الا أن تأثيرات المدارس الامريكية واليسوعية كانت سائدة بالنسبة للأخرى . وفتحت المدارس للمسلمين والمسيحيين على حد سواء ، وان اقتصرت على هؤلاء الاخرين في البدء . وبالرغم من مساهمة هذه المدارس الغربية في تطوير النهضة العلمية وبعث الوعي القومي بالتالي الا أن تأثيرها كان محدودا .

احتلال بريطانيا مصر : حكم مصر في الفترة بين تنازل محمد علي باشا والاحتلال البريطاني في ١٨٨٢ ، كل من ابراهيم باشا (تموز ـ تشرين الثاني ١٨٤٨) ، وعباس حلمي الاول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) ومحمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ، واسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، رتوفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) . وكانت مصر ، منذ عهد محمد علي ، مركزا للصراع الانكليزي ـ الفرنسي . فقد دعم الفرنسيون محمدا عليا ، سواء بتدريب جيشه أم باستقبال بعوثه ، أم بمساندته ابان حملته على بلاد الشام . ولكن الاضطرابات الداخلية في فرنسا حالت دون

وقفة فرنسية حازمة الى جانبه .وكانت بريطانيا حريصة على ابقاء حكام مصر ضعافا وخاضعين للدولة العثمانية خوفا من قيام حكم قوي في مصر يهدد طرق مواصلاتها الامبراطورية . ومع ذلك فكان لمصر مصلحة في مصادقة بريطانيا التي كانت بحكم تصنعها ، وبخاصة في مجال النسيج ، قد نشطت الاقتصاد المصري بشراء معظم محصول مصر من القطن . وقد دشن الانكليز ، في عهد محمد علي ، طريقا برية لنقل المسافرين والبريد ، بين الاسكندرية والسويس ، عبر القاهرة . وزادت فعالية هذا الطريق بمد خط حديدي فيه ، في عهد عباس الاول وسعيد . وكان منح هذا الامتياز لبريطانيا لكسب دعمها في وقت ساءت فيه العلاقات بين عباس الاول والدولة العثمانية حول تطبيق التنظيمات العثمانية وأمور اخرى تتعلق بسيادة مصر . ووقفت بريطانيا بين الطرفين بأن حصل عباس على اذن السلطان في ١٨٥١ ببناء الخط الحديدي ، ومنحت الدولة العثمانية حاكم مصر حق الحكم بالاعدام ضمن شروط معينة .

وقد تهددت مصالح بريطانيا في مصر حين منح سعيد ، في عام ١٨٥٤ ، الى الفرنسي فرديناند دولسبس امتياز حفر قناة بحرية عبر برزخ السويس . وحاولت بريطانيا عرقلة المشروع ، سواء في القاهرة أم في استانبول ، الى أن تم أخيرا افتتاح القناة رسميا في ١٨٦٩ . وكانت العلاقات المصرية ــ العثمانية قد تحسنت كثيرا في عهد اسماعيل والسلطان عبد العزيز الذي زار مصر في ١٨٦٣ (وهو أول سلطان يقوم بزيارة مصر منذ فتح السلطان سليم الاول لها) . ورد اسماعيل الزيارة في ١٨٦٦ ، وحصل ابانها على فرمان (مرسوم) بأن تكون الوراثة في الحكم لأكبر أبناء الحاكم ، عوضا من أكبر أفراد أسرة محمد علي . ولقاء ذلك ضاعف اسماعيل الضريبة السنوية للسلطان . وحصل اسماعيل كذلك على موافقة السلطان ، بموجب فرمان ، صدر في ٨ حزيران ١٨٦٧ ، على أن يطلق عليه لقب خديوي (واللفظ فارسي الاصل يعني الملك) ، وذلك لتمييزه من بقية الولاة في الامبراطورية العثمانية. ثم ساءت العلاقات المصرية ــ العثمانية ، من جديد ، عند افتتاح قناة السويس ، بسبب تصرف اسماعيل كحاكم مستقل في زيارته لاوروبا ودعوته حكامها للمشاركة في افتتاح القناة ،وأيضا بسبب احتجاج السلطان على زيادة القوة العسكرية المصرية.

وما ان سويت الأمور بين الفريقين بصدور فرمان جامع في ٨ حزيران ١٨٧٣ عدد الامتيازات التي حصلت عليها مصر منذ عصر محمد علي حتى برزت مشكلة ازدياد النفوذ الاجنبي ، سياسيا وماليا ، في مصر مما هدد سيادتها .

وكانت نقطة الخلاف الاولى بين مصر والحكومات الأوروبية نظام الامتيازات الذي تمتع به الرعايا الأجانب ، وحوكموا بموجبه هم ومحميو القنصليات وفق قوانين بلادهم وليس قوانين مصر . وتم الاتفاق في ١٨٧٥ على اصدار قانون المحاكم المختلطة الذي عدل نظام الامتيازات ، وألغي هذا نهائيا في ١٩٣٧ .

أما النقطة الاخرى التي أثارت الخلاف بين الحكومات الاوروبية كما أثارت جشعها حول مصر فكانت قناة السويس . فقد منح امتيازها الاول الى فرديناند دولسبس في ١٨٥٤ ، وصدر عقد الامتياز المفصل الثاني في ١٨٥٦ بانشاء شركة قناة السويس . ومنحت الشركة شريطا من الارض يصل النيل بالقناة ، لمد قناة من المياه العذبة وأعفيت الارض من الضرائب . كما تعهد الخديوي سعيد بتقديم العمال اللازمين ، أشبه بالسخرة . ووافق السلطان العثماني بفرمان عام ١٨٦٦ على حفر القناة ، وبلغت حصة الخديوي اسماعيل ٦٤٢ و ١٧٧ سهم من مجموع أسهم القناة البالغة ٤٠٠٫٠٠٠ سهم . وكان افتتاح القناة بداية المتاعب لمصر .

وقد حدث أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) أن توقف تدفق القطن الامريكي على انكلترا ، فاستغلت ذلك مصر ، ونشطت زراعة القطن فيها . وازدادت صادرات القطن في الفترة بين ١٨٦١ و ١٨٦٤ بمقدار ثلاثة أضعافها وازداد ثمن القطن أربعة أضعاف . وتدفق الذهب على مصر في ذيول هذه الثورة الزراعية ، وعم التبذير الحكام والأعيان . وعقد اسماعيل القروض معتمدا على وارداته من القطن . وأدى انتهاء الحرب الاهلية الامريكية وعودة امريكا الى تصدير القطن من جديد الى هبوط في صادرات القطن المصري ، فحاول اسماعيل معالجة الوضع المالي بتشجيع صناعة السكر ، وعقد قرضا لتمويل ذلك . ولكن نهاية هذه الصناعة ،بعد ازدهار أولي ، لم تكن بأحسن من القطن بسبب سوء الادارة وضياع كثير من الموارد هباء ، الى جانب المخاطر التجارية . ولما فشلت

هذه المشاريع في دعم الوضع المالي لجأت الحكومة الى الضرائب وتضييق الخناق على الفلاحين ، لكن هذه الضرائب لم تغط سوى جزء يسير من الدين . وأصدر اسماعيل في ١٨٧١ قانون المقابلة الذي نص أنه « اذا وضع ملاك الاطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدما تعفي الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها » . كما أن المتصرف بالأرض يصبح له ، بموجب هذا القانون، حق ملكيتها . وابتدع اسماعيل في ١٨٧٤ دين الروزنامة ، وهو ان يستثمر الاهالي أموالهم بايداعها في هذه المصلحة ، ويتقاضون فائدة قدرها واحد بالمائة . ولكن الأموال المودعة بالقسر لم تعد لاصحابها ولم تدفع الفائدة بانتظام . واضطر اسماعيل ، في عام ١٨٧٥ ، الى بيع حصته من أسهم القناة ، وتقدر بـ ٤٤٪ من الاسهم ، الى حكومة دزرائيلي البريطانية . وعد شراء الحكومة البريطانية لأسهم مصر أول دلالة على الاستعمار الجديد (الامبريالية) اذ أن ذلك ، بالنسبة لدزرائيلي ، خطوة في سبيل توطيد نفوذ بريطانيا في الشرق كله . ولم تكد تمضي سنتان حتى أعلنت الملكة فكتوريا امبراطورية للهند في ١ كانون الثاني ١٨٧٧[١٨].

ونتج من كثرة الديون الخارجية التي عقدتها مصر وتوقفها عن الدفع في ١٨٧٦ ان انشيء في ذلك العام صندوق الدين العام ، الذي سيمول من عدد من ايرادات الدولة . ويعد أول هيئة رسمية أوروبية أنشئت لفرض التدخل الأجنبي في مصر والسيطرة الاوروبية عليها ، وهو اعتداء على استقلال مصر المالي والسياسي لانه بمثابة حكومة اجنبية داخل حكومة لاسيما وأن ادارته يتولاها مندوبون أجانب تندبهم الدول الدائنة . وتلا ذلك اعلان الرقابة الثنائية الانكليزية ــ الفرنسية في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٧٦ على الايرادات والمصروفات . وبعد عامين اضطر الخديوي اسماعيل الى تعيين وزير بريطاني للمالية وآخر فرنسي للاشغال العامة . وحين قررت الحكومة احالة عدد كبير من الضباط على الاستيداع وعدم صرف الرواتب كاملة لعدد آخر ، بحجة عجزها المالي ، ثار الجيش عليها ، فعزلها اسماعيل. ولكن بريطانيا وفرنسا استعدتا السلطان العثماني عليه فعزله في حزيران ١٨٧٩ .

واجه الخديوي توفيق ، منذ بداية حكمه ، اشتداد الحركة الوطنية في الجيش . وبرز بين صفوفه الضابط أحمد عرابي ، الذي يمثل ذروة محاولات

قام بها أولاد العرب ، عبر القرون الثلاثة الاخيرة ، للتوصل الى المراكز العليا في الجيش ، في وجه معارضة مملوكية ـ تركية . وحين وجد الانكليز أن الخديوي توفيق قد أخذ يستسلم خطوة فخطوة للمطالب الوطنية التي جسدها عرابي ورفاقه بدءا من المجابهة الكلامية في ميدان قصر عابدين الى اسناد رئاسة الوزارة لشريف باشا ووزارة الحربية الى سامي البارودي ، بناء على نصيحة عرابي ، نسقوا جهودهم مع فرنسا ، وابلغوا الخديوي مذكرة مشتركة في كانون الثاني ١٨٨٢ باستعدادهما لدعمه ، مما اثار الوطنيين على الخديوي وعليهم . وانفردت بريطانيا بانزال جيوشها في الاسكندرية في تموز ١٨٨٢ ، وهزمت عرابي في موقعة التل الكبير في ١٣ أيلول ١٨٨٢ ، واحتلت القاهرة[١٩] . ولا أدل على ضعف الدولة العثمانية من سلبيتها تجاه احتلال مصر ، ومن قبل ذلك تجاه احتلال فرانسا للجزائر وتونس .

احتلال السودان : كان الغزو التجاري للسودان يأتيه من الشرق حتى مجيء محمد علي باشا الذي تحداه من الشمال . وعد محمد علي السودان مصدرا هاما لتزويده بالعبيد الجنود ، بالاضافة الى ما فيه من ذهب وعاج وريش نعام . وأرسل اولى حملاته اليه في عام ١٨٢٠ ، ووصلت فتوحاته حتى سنار في الجنوب والعبيد في الغرب[٢٠] . وهكذا أضاف محمد علي مقاطعة اخرى للامبراطورية العثمانية اسميا ، وفي الواقع أضاف موردا هاما لتغذية مطامعه . وأقيم نوع من الادارة التركية ـ المصرية ترأسها القائد العام « الحكمدار » ، وقسم السودان الى مقاطعات ، وانتخبت كل قرية شيخا مسؤولا أمام حاكم المقاطعة . وجعلت العاصمة في عام ١٨٣٠ ، في الخرطوم ، عند التقاء النيل الازرق بالابيض . وأقيمت قوة احتلال في عدد من المراكز .

واعترف السلطان بحكم محمد علي للسودان . ولكن السيادة المصرية عليه سرعان ما تراخت بعد موته ، فلم يهتم به عباس ، وبحث سعيد بعد أن زاره في عام ١٨٥٦ ، في أمر التخلي عنه لا سيما والنشاط الاقتصادي الوحيد فيه كان يقوم به تجار الرقيق الذين عدوا السلطة الحقيقية الوحيدة في البلاد . ولم يكن لدى الحكومة المصرية الرغبة ولا الوسائل لوضع حد لهذه التجارة . وبلغ من فساد الحكم أن الموظفين المصريين أنفسهم كانوا تجارا للرقيق .

جاء اسماعيل وفي مخيلته تتزاحم خطط كبيرة حول السودان فعزز الحاميات المصرية ، بعد تمرد الفرق السودانية في توكار عام ١٨٥٦ • واستحصل من السلطان في عام ١٨٦٦ على الاذن بضم سواكن ومصوع على البحر الاحمر • وكان من ضم مصوع أن اصطدمت مصر مع الحبشة ، بخاصة بعد محاولة مصر التوسع داخل الحبشة • واحتل المصريون في ١٨٧٤ كيرين وفي ١٨٧٥ ميناء زايلة حارمين الحبشة من الوصول الى البحر الاحمر • وقامت قوة مصرية في السنة ذاتها بقيادة الكولونيل اوندروب وهو ضابط دانمركي في الجيش المصري ، بالتوغل في الحبشة ولكنها منيت بخسارة جسيمة • ولم يكن مصير حملة اخرى بقيادة راتب باشا بأحسن منها حين أرادت أن تثأر لسابقتها • ولذلك تراجع المصريون من داخل الحبشة وبقوا يسيطرون على موانيء مصوع وزايلة وبربرة •

كان المصريون ، في هذه الاثناء ، يعملون على توطيد سلطتهم في السودان الجنوبي والغربي — في مقاطعات بحر الغزال ودارفور التي احتلها شخص يسمى الزبير رحمة في ١٨٦٨ و ١٨٧٥ على التوالي • وكان هذا يسيطر على تجارة الرقيق والعاج في منطقته ورفض أن يدفع الضرائب للحكومة المصرية فأرسلت حملة ضده ، ولكنها فشلت ، وطلب الخديوي الصلح • وأعطي الزبير رتبة الباشوية وازداد قوة في مقاطعته • وكان عرب البقارة ، في مقاطعة دارفور ، وهي سلطنة لم تعترف بسيادة الخديوي ولا بممثله في السودان ، قد خرقوا اتفاقهم مع الزبير في عدم التعرض لقوافله التجارية • فهاجمهم هذا مدعيا أنه يريد ارجاعهم لسلطة الخديوي • ولكن اسماعيل شك في نواياه ، وخاف أن تزداد سلطته ، فأوعز الى القائد العام بمهاجمة دارفور • وكان الزبير قد سبقه الى عاصمتها ، الناشر ، في ١٨٧٤ • وذهب الى مصر لتسوية الامور فأبقي فيها رهينة حتى نهاية حياته • ولكن أهداف اسماعيل لم تقتصر على ارسال الحملات واقامة الرايات بل طمع في ضم مجرى النيل الابيض حتى منابعه • ولكي يحظى بتأييد بريطانيا لمشروعه أعلن عن رغبته بوضع حد لتجارة الرقيق في السودان ، ولذلك عين في ١٨٦٩ السير صموئيل بيكر حاكما عاما للمنطقة الاستوائية الجديدة التي تمتد على طول النيل جنوبا من غوندوراكو حتى منابعه غير المحدودة بين البحيرات الكبرى • وكانت تعليمات اسماعيل لبيكرباشا أن يمد

النفوذ المصري حتى خط الاستواء وأن يقضي على تجارة الرقيق ، مع ادخال نظام تجاري ، وفتح البحيرات الكبرى في خط الاستواء للملاحة ، واقامة سلسلة من المحطات العسكرية ، متخذا غوندوراكو قاعدة لعملياته • وقد وصلها بيكر في ١٨٧١ ، وأعلن بأن المنطقة السابقة هي من ممتلكات الخديوي ، وأقام المراكز العسكرية التي حالت دون وصول تجارة الرقيق عن طريق النيل الى ام درمان • أما القضاء على الرقيق واخضاع البلاد كليا فأمر لم يتم في عهد بيكر •

خلف بيكر في حكم منطقة النيل الاستوائية في ١٨٧٣ شارل غوردن الذي سبق أن اشترك في حرب القرم وأخمد ثورة شنغهاي في ١٨٦٣ • وقد وصل غوندوراكو في شباط ١٨٧٤ • وتابع سياسة القضاء على الرقيق ، وحصل من اسماعيل في ١٨٧٦ على لقب حاكم السودان العام • فطهر طرق النيل الاعلى من هذه التجارة ، وكانت الخطوة التالية تطهير السودان الشمالي وحرمان هذه التجارة من خيرة أسواقها ولكن غوردن استقال من منصبه في عام ١٨٧٩ احتجاجا على عزل الخديوي اسماعيل(٢١) • ولم ينجح ، مدة اقامته في السودان ، في تحسين الادارة ، اذ بقيت مستبدة في المناطق المحدودة التي تمكنت من فرض سيطرتها عليها وغير فعالة أبدا في ما عداها •

خلف غوردن في حكم السودان حكمدار مصري يسمى محمد رؤوف باشا الذي سبق له ، في عام ١٨٧٤ ، أن طرد سلطان حرار وضم مقاطعته لاملاك الخديوي • وفي عهده ، في تموز ١٨٨١ ، ظهر محمد أحمد بن عبد الله ، وأعلن نفسه بأنه المهدي المنتظر • وقد ولد في جزيرة لبب ، في مقاطعة دنقلة ، عام ١٨٤٤ • وادعى أنه شريف ينحدر من السلالة النبوية • وتثقف بعض الثقافة الدينية في كتاتيب قرب الخرطوم ، ثم درس على فقيه كبير هو الشيخ محمد الشريف ، والتحق بالطريقة الصوفية السمانية • ثم انقطع الى حياة التدين في جزيرة أبا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوبي الخرطوم على النيل الابيض • وفي احدى زياراته لشيخ طريقته احتج على الرقص والافراح التي جرت في حفلة ختان ابنه وهو الناسك المتعبد • فاستاء الشيخ من نقد طالبه وطرده بالرغم من تقديم اعتذاره • وسرعان ما شاعت أخبار الخلاف . وتجمع الاتباع حول محمد الذي أعلن نفسه المهدي المنتظر • ووصلت أخبار

التجمعات الى حاكم الخرطوم فأرسل وفدا الى المهدي الذي أجاب بأنه سيد هذه البلاد ولن يذهب الى الخرطوم ، وهكذا بدأت الثورة .

وأرسل محمد أحمد ، في حزيران ۱۸۸۱ ، عدة رسائل ، من جزيرة أبا ، الى أعيان السودان يبلغهم أنه المهدي المنتظر والزعيم الروحي الذي اختاره الله في آخر الزمان ليملأ الارض عدلا ومساواة كما ملئت ظلما واضطهادا . وسرعان ما كسب المؤيدين من القبائل . وكان أبرز تلاميذه عبد الله بن أحمد ، الذي ينتسب الى قبيلة البقارة . ولكن ما هي العوامل التي جعلت محمد أحمد يقود ثورته على الادارة المصرية في السودان ؟ يعد بعض السودانيين محمد أحمد أبا الاستقلال ، وأنه قائد قوى وحد القبائل في السودان وراء فكرة اسلامية ، وطرد الحكام الاغراب ، ووضع أسس الدولة القومية . واذا كان هذا ينطبق ، بعض الشيء ، على نتائج حركته فلا يصح أن يكون تعليلا للعوامل التي أدت الى قيام حركته . ومن السودانيين من يرى في محمد أحمد مجاهدا ومجددا للعقيدة الدينية ، وأنه أتى ليزيل الاخطاء والشوائب من الدين . وفي الواقع ، فقد عبر محمد أحمد في أحاديثه عن مثل هذا الهدف ، وأنه أتى لدعم المبادىء الاسلامية ويتشابه في ذلك ، مع محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية . ولكن محمد أحمد ذهب الى أبعد من ذلك ، فرسالته كمصلح أصبحت لها مضاعفات روحانية ، فادعى لنفسه مكانة فريدة تنعكس في ألقابه الثلاثة التي اتخذها : الامام ، الخليفة ، والمهدي المنتظر . فهو كامام انما كان يؤكد زعامته الروحية للمسلمين ، وكخليفة فكان يحيي التقاليد الاسلامية الاولى ، وكمهدي منتظر فان قدومه ينبىء عن نهاية العالم . ولم يكن بغريب أن يظهر في أوقات الازمات مهدي يدعي القدرة الالهية على استبدال نظام جديد بالنظام القديم ، مثال ذلك ظهور عبيد الله مؤسس السلالة الفاطمية في شمال افريقية ومصر في القرن العاشر، وظهور محمد ابن تومرت الذي حكم أتباعه الموحدون شمال غرب افريقية في القرن الثاني عشر[٢٢] . وعدت الحكومة المصرية ظهور المهدي ظاهرة خطرة . وقد خشي الحاكم العام محمد رؤوف باشا خطر المهدي ، ولكنه لم يتصرف بحزم للقضاء على حركته منذ بدايتها ، وفشلت حملة وجهها ضد محمد أحمد وأتباعه في جزيرة أبا ، في آب ۱۸۸۱ . وعد انتصار المهدي وأتباعه ، الذين يستخدمون

الرماح والهراوات ، على جيش محمد رؤوف ، الذي يحمل الاسلحة النارية ، بأنه من العجائب • وبعد هذا الظفر عبر المهدي وأتباعه النيل الابيض الى قادر ، وهي تلة جنوبي كردفان ، في المنطقة التي تفصل بين العرب والزنوج ، وهنا تجمع من حوله الاتباع ، وبدأ فتحه للسودان •

وقبل التعرف على الفئات التي دعمت المهدي وعلى تطور حركته ، يجدر بنا أن نتساءل عن الاسباب العميقة لظهور المهدية في ذلك الوقت بالذات • كثيرا ما يذكر أن سبب المهدية ظلم وسوء الادارة المصرية في السودان ، ولكن هذا لا يكفي لتفسير سبب حدوث الثورة في الزمان والمكان اللذين ظهرت فيهما • صحيح أنه كان هناك كثير من الظلم والفساد ، ولكن هذا لم يكن شاملا ، كما أن حدوثه كان أمرا مألوفا لدى الحكام والمحكومين • ولو صح أن سوء الادارة المصرية في السودان كان سبب الثورة المهدية لوجب على هذه الثورة أن تنتشر في جميع السودان • ولكن الواقع خلاف ذلك اذ بقيت الثورة منحصرة لمدة سنتين في المقاطعات العربية التي مركزها كردفان والتي كان احتلالها من قبل أتباع المهدي أول عمل عظيم لهم • وانتشرت الثورة بعد ذلك بالتدريج الى المناطق الاخرى ، وكان آخرها المناطق النهرية الشمالية التي شهدت أطول فترة من الحكم المصري • وبالاضافة الى ذلك ، فان تعليل حدوث الثورة المهدية بظلم وتعسف الادارة المصرية يفشل في تفسير لماذا حدثت الثورة في عام ١٨٨١ ، وليس قبل ذلك • وليس هناك أيضا من دليل على أن الادارة المصرية أصبحت أشد تعسفا في عهد الحاكم الضعيف محمد رؤوف • ولا شك أن ضعفه جعل امكانية الثورة أكثر سهولة • ولفهم توقيت حدوث الثورة يجب النظر بعين الاعتبار الى الاحداث التي كانت جارية آنذاك في مصر • فالاستبداد الخديوي قد انتهى فعلا بعزل اسماعيل في ١٨٧٩ ، وكان ابنه وخليفته توفيق العوبة بأيدي الدول الاجنبية • ويعد ذلك ضربة قاصمة للنفوذ الذي تمتعت به أسرة محمد علي لا في مصر فحسب بل في السودان أيضا • ففي مصر تجمعت قوى المعارضة حول القائد أحمد عرابي ، وتمكنت على مراحل من احراز تبدلات هامة في الادارة المركزية الى أن عاجلها الاحتلال الانكليزي في ١٨٨٢ • واضعفت هذه الاحداث السلطة المصرية في السودان • ورغم انه ليس

هناك ، كما يبدو ، أي اتصال بين أتباع عرابي واتباع المهدي ، ولكن مما لاشك فيه أن كلا من الحركتين استفادت من الفراغ الذي خلفه القضاء على استبداد اسماعيل • وقد ملأ الاحتلال الانكليزي هذا الفراغ في مصر ، بينما ملأه في السودان المهدي وثورته •

وعرف اتباع المهدي بالانصار • ونستطيع أن نميز بينهم ثلاث فئات : أولا ، الرجال المتدينون من تلاميذ المهدي وملازميه ، الذين تبعوه على أنه المهدي المنتظر وقد كرهوا الادارة المصرية لاعتقادهم بوجوب تطبيق احكام الشريعة عوضا منها • ثانيا جماعتا أو قبيلتا الجعالين والدناقلة ، الذين نزحوا من الشمال الى الاطراف الجنوبية من الولايات العربية في السودان • وتوغلوا في منطقتي النيل الابيض وبحر الغزال وعملوا كأصحاب قوارب وتجار ومغامرين في فتح الجنوب ، وكانت معيشة كثير منهم مرتبطة بتجارة العبيد في الجنوب ، وقد تضرروا كثيرا من معارضة الحاكم غوردن لتجارة العبيد • واغتنموا زوال غوردن واسماعيل لمعاودة نشاطهم في هذه التجارة ، وكانوا على استعداد لدعم كل ثائر على السلطة • ثالثا ، عرب البقارة ، الذين لم يكن لهم حماس الفئة الاولى الديني ولا تذمر الجعالين والدناقلة السياسي • وكانت المهدية بالنسبة لهم وسيلة للغزو وللتوقف عن دفع الضرائب للحكومة المركزية • وكانت القبائل قد عانت في السنوات العشر السابقة من شدة وطأة الحكومة وفرضها الضرائب • وكان البقارة عماد جيش الثورة المهدية ،وتنعكس أهميتهم في ظهور أحد أفرادهم عبد الله بين أتباع المهدي[٢٣] • ولم تتمكن الحكومة المصرية من ارسال حملة قوية الى السودان للقضاء على الثورة في مهدها بسبب ما كانت تتخبط فيه من الاحداث • ولما لم يتخذ عمل حاسم استفحلت الثورة • وكان المهديون يسيطرون ، في هذه الاثناء ، على مقاطعة كردفان كلها •

كانت الحال في السودان على هذا الشأن حين احتلت بريطانيا مصر في ١٨٨٢ • وكانت سياسة انكلترا عقب الاحتلال اثارة الفتنة في السودان لتتذرع بها في البقاء في مصر • وكما استغلت ثورة عرابي للتدخل في مصر كذلك كانت خطتها في السودان• وقد فشلت عدة حملات وجهتها الحكومة في مصر ضد المهدي ، في الفترة بين ١٨٨١ و ١٨٨٣ • وكان كل انتصار للمهدي يزيد من سمعته ونفوذه وموارده •

فتحول من الدفاع الى الهجوم في ١٨٨٢ • وكانت استراتيجيته منظمة ، فكان ، قبل الهجوم ، يحرض القبائل الصغيرة على الثورة لاشغال قوات الحكومة ، ومن ثم يندفع بقواته ليدمر القوات الحكومية المنهكة • وقد انضم عدد كبير من هذه القوات الى المهدي ، وأصبح يشكل فئة رابعة متمرسة عسكريا ، عرف افرادها بالجهادية • وفي أوائل ١٨٨٣ سقطت مدينة العبيد بأيدي قوات المهدي ، وهي أول مدينة كبيرة يحتلها • وكانت حكومة الخديوي توفيق بحاجة الى نصر في السودان لزيادة نفوذها في مصر فبعثت اليه بحملة بقيادة الانكليزي هيكس ، ولكنها ابيدت من قبل اتباع المهدي في تشرين الثاني ١٨٨٣ ، وكانت هذه آخر محاولة مصرية للدفاع عن السودان • وكان من نتيجتها أن المتمردين والمتشككين في السودان بقول المهدي بدأوا يعلنون ولاءهم له •

أما موقف الحكومة الانكليزية الآن فكان يجب عليها متابعة ارسال النجدات الى السودان وأخذ مسؤولية الحكومة المصرية فيه على عاتقها لاسيما وانها اصبحت مسؤولة عن تصريف شؤون مصر ، والسودان جزء متمم منها • ولكن اللورد غرانفيل ، وزير الخارجية أبرق الى افلين بارينغ ، المقيم العام في مصر (عرف منذ عام ١٨٩١ باللورد كرومر) ، يقول « ان حكومة صاحب الجلالة لايمكنها أن تمنع شيئا يلقى على عاتقها مسؤولية العمليات في السودان ، وعلى الحكومة المصرية ان تعتمد على مواردها الخاصة • ومن رأي انكلترا الجلاء عن السودان » • ولكن رئيس الوزراء المصري ، شريف باشا رفض اتباع سياسة انهزامية وأخبر افلين بارينغ بانه يقترح دعوة السلطان العثماني لارسال عشرة آلاف جندي لقمع الثورة في شرقي السودان حيث ثار على السلطة المصرية أحد أتباع المهدي ، على أن يدافع الجيش المصري عن وادي النيل حتى الخرطوم فأجابت الحكومة الانكليزية بأنها لاتمانع بارسال قوات عثمانية شريطة أن يمول السلطان هذه الحملة • وهو بمثابة فيتو على التدخل التركي الذي قد ينافسهم في مصر • ومع ذلك فانها ترى الانسحاب حتى وادي حلفا • واتبعت ذلك بارسال مذكرة خاصة الي بارينغ تحدد فيها ، لاول مرة ، العلاقات بين الحكومة المصرية وممثليها في مصر • اذ نصت على انه «من الضروري في القضايا الهامة التي تمس ادارة مصر وسلامتها أن تتبع نصائح الحكومة البريطانية

مادام الاحتلال قائما • وعلى الوزراء والحكومة تنفيذ هذه النصائح تحت طائلة طردهم من مناصبهم • واذا كان تعيين وزراء من الانكليز أمر غير مرغوب فيه ، فمما لاشك فيه أنه من الممكن ايجاد مصريين ينفذون أوامر الخديوي وفق نصائح بريطانيا • والوزارة (أي الانكليزية) ستمنحك كامل تأييدها » •

لم يقبل شريف باشا بالجلاء ، وقال ان مصالح مصر السياسية والاقتصادية تتطلب منها عدم تنفيذ ذلك ولايمكن اخلاء الخرطوم ولا غيرها التي لم يصل اليها الثوار بعد • واذ وافق توفيق على سياسة الجلاء قدم شريف استقالة حكومته ذاكرا بصراحة الاسباب التي دعت الى ذلك وخاتما حياته السياسية بهذا الموقف الشريف وهذه الكلمة المأثورة : « اذا تركنا السودان فالسودان لايتركنا » •

لم يخب ظن اللورد غرانفيل ، وزير الخارجية ، اذ وجد « مصريين ينفذون أوامر الخديوي وفق نصائح بريطانيا » • فشكل نوبار الوزارة في ١٠ كانون الثاني ١٨٨٤ على أساس الجلاء عن السودان حتى وادي حلفا باستثناء سواكن • وكان ابقاؤها بمشورة بريطانيا لأنها ترغب بايجاد جسر لاحتلال مقبل للسودان • ولذلك أرسل بيكر باشا ، قائد البوليس المصري ، لتدعيم سواكن التي أخذ يهاجمها الثوار وانقاذ الحامية المصرية في توكار وستيكات القريبتين اذا كان متيقنا من النجاح • ولكن مهاجمة الثوار لقواته وهزيمتها جعل بريطانيا ترسل قوة انكليزية ـ هندية من أربعة آلاف رجل لاتمام المهمة • ونجحت في الحفاظ على سواكن فقط بعد أن سقطت البلدتان الأخيرتان بأيدي الثوار •

وقد أرسل القائد غوردن في كانون الثاني ١٨٨٤ لتنظيم الجلاء عن الخرطوم والمراكز الاخرى التي يمكن الجلاء عنها واعادة البلاد الى حكم سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري • وعينه توفيق بناء على طلبه حاكما عاما للسودان لتسهيل مهمته • ولاشك أن اختيار غوردن أمر يحوطه الغموض اذ أنه حين كان قبلا قائدا عاما فيه لم يكن يرى اخلاءه • والجدير بالذكر أن الجلاء عن السودان يعد أشد ضربة أصيبت بها مصر بعد الاحتلال لأن معناه ضياع امبراطورية كبيرة ، ضحت مصر في سبيلها بالكثير من أبنائها وأموالها ، بما فيها من منشآت ومؤسسات اقتصادية وجيش عدده عشرون ألف مقاتل كان الاجدر به أن يدافع عن مراكزه بدل

الانسحاب منها اذ وقع فريسة في أيدي الثوار • ورفع التجار في مصر عريضة الى الخديوي يلتمسون فيها الاستمرار في الدفاع عن السـودان لاسيما وأن بضائع قيمتها نصف مليون جنيه معدة في القاهرة للتصدير اليه « فهل يعقل أن العمل الكبير الذي بدأ به جدكم محمد علي وتابعه خلفاؤه ودافعتم عنه سموكم ينهار بقرار صدر على عجـل » •

وصل غوردن الى الخرطوم وأرسل الى المهدي يطلب الكف عن القتال ، وأبلغ الأهلين مهمته في اخلاء السودان وفصله عن مصر • وهذا الكلام كاف لتأييـد جانب المهدي وجعل السكان ينضمون اليه مما أحرج مركز غوردن وجعله بالتالي يتحول من سياسته المسالمة • ولذلك اقترح اعادة الثائر الزبير المنفي في القاهرة وجعله حاكما على السودان لأنه يستطيع مقاومة المهدي • ولكن غرانفيل وزير الخارجية رفض هذا الطلب لأن الزبير قد يقضي على ثورة المهدي ويعيد السلطة المصرية ، وهذا مالاترغبه انكلترا ، وادعت بأنه قد يعيد تجارة الرقيق ، مع العلم أن المهدي لم يكن أقل اباحة منه لذلك •

كانت الثورة المهدية ، في هذه الاثناء ، قد وصلت الى الخرطوم وأصبح من المشكوك فيه أن ينفذ غوردن مهمته بدون ارسال نجدات له • وسقطت الخرطوم في يد المهدي في ٢٦ كانون الثاني ١٨٨٤ ، وقتل غوردن • وبذلك سيطر المهدي على غالبية السودان ، باستثناء سواكن ومضوع وبعض المناطق الاستوائية • وقد نقل المهدي عاصمته الى أم درمان ، حيث قبره الآن ، وضرب النقود باسمه • وكان المهدي يرى في احتلال السودان خطوة أولى في فتوحاته في العالم الاسلامي ، ولكن وفاته في ١٨٨٥ قطعت الطريق على توسع الحركة • وخلفه عبد الله محمد التعايشي الذي لقب بخليفة الصديق • وكانت كل القوات المصرية في السودان قد جلت أو أفنيت ، وخسر السودان كثيرا من أراضيه لأن بريطانيا ضمت مواني بربر وزايلة لتشكل مستعمرة الصومال الانكليزية • وضمت فرانسا تدجورا الى ميناء اوبوك لتشكل مستعمرة جيبوتي • واحتلت بريطانيا مصوع ، وألفت نواة مستعمـرة اريتريـا •

كان علي عبد الله التعايشي أن يقضي على الثورات الداخلية والاطماع الاجنبية

قبل أن يستقر حكمه ويبدأ في تطوير السودان • وكان يتربص على حدوده الاحباش طمعا به لاعادة حكمهم ، والانكليز وغيرهم من الدول الاوربية لاستغلاله • وكان الاحباش يشكلون أكبر خطر تهدده بين عام ١٨٨٧ و ١٨٨٨ اذ هزم الدراويش (اطلق هذا اللقب في الاساس على جنود المهدي وأتباعه) ، في ١٨٨٧ ، ثم عادوا وانتصروا على الاحباش في العالم التالي • وحدثت ثورة في المناطق الغربية على حكم المهدي بتحريض السنوسيين لمناوئتهم المهديين • وكان هجوم القوات المهدية ، في عام ١٨٨٩ على حدود مصر ، عند وادي حلفا ، الهجوم الثالث والأخير من نوعه • وانهزمت هذه القوات هنا ، كما انهزمت في العام نفسه ، بقيادة عثمان دكنة ، حين حاولت احتلال ساحل البحر الاحمر •

وانتهت بهذه الهزائم أحلام الخليفة بالتوسع ، وأخذت سلطته تميل نحو الغروب وفشلت كذلك محاولته في اقامة حكم استبدادي في الداخل • وثارت عليه القبائل ، على النيل الرئيسي ، التي شكلت دعامة البيروقراطية في حكومته • وازداد الموقف سوءا لمحاولته جلب البقارة واقامتهم في أم درمان والجزيرة لدعمه • ولجأ الى تعيين أقربائه وزبانيته في المناصب الرئيسة لكسب ولائهم • وزاد في الامر حدوث مجاعة شاملة في ١٨٨٩ بسبب انحباس الامطار • وكانت أخطر ثورة تلك التي قام بها ، في تشرين الثاني ١٨٩١ ، أفراد من اسرة المهدي ، وبطش بها عبد الله بشدة •

ولم يتح تسابق الاوربيين للحصول على مناطق النفوذ في افريقية ، في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، للسودان أن يبقى مستقلا • ويحسن بنا هنا أن نستعرض وضع الدول الاوربية بالنسبة لمناطق النفوذ في أواسط افريقية • فقد فتحت قناة السويس مجالات جديدة للمتاجرة مع شواطيء افريقية الشرقية • واقتضت المصالح المحلية هذه التوغل في الداخل وانشاء الصداقات مع الزعماء المحليين • وتنافست الدول الاوربية في بسط نفوذها على أكبر منطقة ممكنة ، وهكذا بدأ الزحف على افريقية • وعدت انكلترا أن احتلال أية دولة لمنابع النيل سيحرج مركزها في مصر • وحاولت فرانسا اعادة نفوذها في مصر الذي بدأته في عهد نابليون وخسرته عندما لم تساهم في قمع حركة عرابي • أما المانيا بسمارك فكانت أكثر اهتماما بالتجارة

وبالتوسع الاقتصادي • وبالنسبة لبلجيكا وللملكها ليوبولد ، بصورة خاصة ، فكانت تطمح الى الحصول على غنى افريقية • وحفزت البرتغال أمجاد الماضي المقرونة بأسماء هنري الملاح وفاسكوداغاما•ورغم ذلك حبذالفرنسيون والبرتغاليون،بصورة خاصة ، فكرة انشاء امبراطورية تمتد عبر افريقية من الشرق الى الغرب ، لالنتائجها المباشرة لهم فحسب بل لأنها تدنع قيام منطقة لبريطانيا تمتد من رأس الرجاء الصالح حتى القاهرة • وكانت ايطاليا أقل اهتماما بوادي النيل منها بثروات الحبشة ، كما لم تكن غافلة عن المنافع التي يمكن أن تجنيها من توسعها في شرقي السودان •

وازاء محاولات فرانسا ، بالاتفاق مع بلجيكا والحبشة ، الوصول الى النيل، لربط مستعمراتها في غرب افريقية مع تلك التي في شرقها ، قررت بريطانيا احتلال السودان • فأرسلت قائد الجيش المصري ، كتشنر ، الذي احتل دنقلة في ١٨٩٦ ، وهزم الخليفة قرب ام درمان ، في ١٨٩٨ • وقتل الخليفة في تشرين الثاني ١٨٩٩ •

وكانت حملة فرنسية تحركت من الغرب ، بقيادة مارشان ، في تموز ١٨٩٨ ، ووصلت فاشودا على النيل الاعلى بأمل الاتصال بالحملة المنطلقة من الحبشة • وشخص كتشنر الى فاشودا ، وكانت تعليمات بريطانيا له بالحيلولة دون سيطرة فرانسا والحبشة على أي جزء من النيل • وادركت فرانسا أن المانيا ستفيد فيما اذا اشتبكت مع بريطانيا ، ولذلك أمرت مارشان بالانسحاب بطريقة مهذبة حين عدته لاقائدا يمثلها بل مكتشفا جغرافيا ، واتفقت الدولتان بشأن رسم الحدود •

أظهر موقف بريطانيا في فاشودا عدم استعدادها لتطبيق رقابة دولية على السودان • كما لم يلائمها اعادة السودان الى الحكم المصري المباشر حتى ولو كان ذلك باشرافها • ولم يبد عمليا وشرعيا فصل السودان كليا عن مصر اذ أنه أعيدافتتاحه باسم الخديوي وبجيوش مصرية وأموال مصرية • وأخيرا وقعت اتفاقية السودان بين الحكومتين المصرية والبريطانية في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ • وأقرت هذه الاتفاقية وضعا شاذا في العلاقات الدولية اطلق عليه اقب الحكم المشترك • وتكون بريطانيا بذلك قد تجاهلت حقوق سلطان تركيا وبنت اتفاقها على حق الفتح رغم عدم قانونيته لان مصر هي التي ساهمت بالنصيب الاكبر فيه • وبموجب الاتفاقية اتفق على أن

يكون خط العرض ٢٢° شمال خط الاستواء ، وهو المـــار بوادي حلفا ، حدود السودان من الشمال ، ولم تحدد حدوده في الجنوب • وسيرفع العلم المصري بجانب البريطاني على المباني العامة • وستحكم البلاد من قبل حاكم عام يعينه الخديوي بتوجيه الحكومة الانكليزية ، وسيتمتع بالسلطتين المدنية والعسكرية • واستثنـــى السودان من صلاحيات المحاكم المختلطة ، كما نص على عدم جواز تعيين قناصل أجانب فيه بدون موافقة انكلترا ، ويمنع اعطاء أية امتيازات خاصة لرعايا أية دولة من الدول • وتعني الاتفاقية حكم بريطانيا فقط للسودان بالرغم من شكليات اشراك مصر معهـــا[٢٤] •

وهكذا انتهت الدولة المهدية الدينية (التيوقراطية) التي أمكنها طرد الحكم المصري من السودان • ولو قارنا بينها وبين الوهابية في الجزيرة العربية ، والسنوسية في ليبيـــا ، لو جدنا أنها قصيرة العمر ، رغم ما أظهره وجودها ، الذي دام أقل مـــن عشرين عاما ، من تنظيم سياسي وضعت أسسه زمن الادارة المصرية • ولاشك أن أسباب ضعفها تكمن في الصراع داخل السلطة الحاكمة فيها ، وفي افتقارها الى قبيلة قوية تدعمها ، وفي وجود عدة قوى في الداخل ، وعدة دول استعمارية في الخارج ، تتصارع للسيطرة على السودان •

الحركات الوطنية والقومية في المشرق العربي

بدأ الاستعمار الاوربي يغزو مناطق الاطراف في الوطن العربي بشكل حثيث منذ عام ١٨٣٠ ، باحتلال الجزائر ، الى أن أكمل فرض احتلاله على معظم انحاء الوطن العربي في أعقاب الحرب العالمية الاولى • وقد أدى التنوع في هوية القوى المحتلة للوطن العربي ، في القرن التاسع عشر ، من دول اوربية تسيطر على مصر والمغرب العربي ، ودولة عثمانية تحتل مشرقه، الى تنوع مقابل ضمن حركات المقاومة والاصلاح التي عمت أرجاءه • فهناك حركات وطنية ودعوات اسلامية عمت المناطق الاولى التي احتلها الاوربيون ، وهناك حركات وطنية قومية عمت المناطق التي كانت خاضعة للعثمانيين • وبالاضافة الى ذلك كان من تأثير انتشار الفكر الاوربي في الوطن العربي، في القرن التاسع عشر ، وردود الفعل المحلية ، سلبا وايجابا على ذلك، أن أصبـــح الفكر العربي في ذلك القرن غنيا بمختلف الاتجاهات •

الحركات الاصلاحية والوطنية في مصر : كانت هناك ثلاثة تيارات تعمل للاصلاح في مصر ، في القرن التاسع عشر : الاسرة العلوية ، التي قامت بالاصلاح من الاعلى ، في مطلع عهدها ، ليس حبا بالاصلاح وانما لتوطيد سيطرتها ، وقادة الحركات الوطنية وبعضهم تأثر بالافكار الاوربية ، ودعاة الاصلاح الدينيون ، الذين حاولوا ، من خلال مطالبتهم باصلاح المنظمات الدينية والتوفيق بينها وبين الافكار الحديثة ، اثارة تيار اصلاحي ديني ينافس ، وأحيانا يدعم ، الحركات الوطنية • ولاشك أن التيارات الثلاثة كانت متداخلة مع بعضها بعضا حتى اذا مافرض الاحتلال الانكليزي على مصر اتضح منها تياران رئيسان : أحدهما متعاون مع الاحتلال ، ويضم الاسرة العلوية وعدد من السياسيين ، وثانيهما مشبع بالحركة الوطنية المناوئة للاحتلال •

وكانت المنظمات التي تمثل فيها بعض قطاعات الشعب ، قد ظهرت بشكلها الحديث ابان الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) حين أسس نابليون عدة دواوين ، من أشهرها الديوان العام ، الذي عين فيه أعضاء من العلماء والتجار والاقطاعيين • وليست أهمية هذا الديوان فيما حققه ، بل في الفكرة التي هدف اليها من الربط بين مصالح الاحتلال والطبقات المتميزة في المجتمع • كما أنه أكد نفوذ هذه الطبقات أمام الشعب ، وان يكن اثار شكوك البعض في وطنيتها •

وقد أقام محمد علي باشا في عام ١٨٢٩ مجلس الشورى ، وكانت مهمته استشارية وآراؤه غير ملزمة • وكان يجتمع مرة واحدة في السنة لمدة يوم أو أكثر ، ويناقش القضايا التي تتعلق بالادارة والتعليم والاشغال العامة • ومع أن محمدا عليا أعجب بالتطور الاوربي فادخل النظم الحديثة الى مصر وكان هذا المجلس الاستشاري على غرارها فانه لم يسمح للاوربيين أن يملوا عليه ارادتهم فهو السيد بلا منازع في بينه • وعد الخبراء الاجانب موظفين حكوميين ، وكان دائما حذرا من خطط الاجانب في مصر • وقد أجاب الذين فاتحوه بحفر قناة السويس أنه لايريد أن يرى بوسفورا ثانيا في بلاده •

وانعكس الامر في عهد الخديوي اسماعيل الذي ازداد في عهده التدخل الاوربي في شؤون مصر الى حد كبير • ولم ير مانعا من انشاء مجلس نيابي كعادته في ادخال كل شيء غربي • وقد انشأ مجلس شورى النواب في عام ١٨٦٦ • ويلاحظ

عليه أنه لم تكن له سلطة قطعية في أي أمر من الامور ، فقراراته رغبات ترفع الى الخديوي • وكان عدد أعضائه خمسة وسبعين ينتخبهم الاعيان لمدة ثلاث سنوات ، ومادام حق الانتخاب قد حصر بهم ، فقد أسفرت الانتخابات عن نواب من العمد والاعيان حتى يصح أن نسميه مجلس الاعيان • وكان يجتمع شهرين في كل سنة ، وجلساته سرية • ولم تكن له سلطة على الشؤون المالية ، وهذا نقص كبير اذ لو تمتع بمثل ذلك لأمكن وضع حد للقروض الاجنبية ، وبالتالي للتدخل الاجنبي •

لقد ذكر أن من أهداف اسماعيل في دعوة مجلس شورى النواب السيطرة على العمد والأعيان ، الذين شكلوا غالبية الاعضاء فيه ، واقامة جبهة موازنة للنخبة التركية الشركسية،واضفاء واجهة دستورية على حكمه لكسب عطف الدول الاوربية• ورأى اسماعيل أن مجلس شورى النواب سيكون مظهرا جديدا من مظاهر ابهته • وجاء المجلس فعلا فلم يخيب ظنه اذ افتتحت الجلسة الاولى يوم الاحد ٢٥ تشرين الثاني ١٨٦٦ برئاسة اسماعيل راغب باشا وبتلاوة خطبة العرش التي جاء فيها : « من المعلوم أن جدي المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ووجد أهلها مسلوبي الامن والراحة فصرف الهمم العالية لتأمين الاهالي وتمدين البلاد بايجاد الاسباب والوسائل اللازمة لذلك ••• الى أن قدر الله تعالى تسليم زمام ادارة حكومتها الى يدي ومن حين ماتسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيي واجتهادي في اكمال ماشرعاه من المقاصد الخيرية ••• وكثيرا ماكان يخطر ببالي ايجاد مجلس شورى النواب لأنه من القضايا الملحة التي لاينكر نفعها ومزاياها أن يكون الامر شورى بين الراعي والرعية كما هو مرعي في أكثر الجهات وكما ورد بقوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) » (٢٥) •

وكان الجواب على خطبة العرش كله اعتراف بفضل الاسرة العلوية على مصر « بعد أن قاسى أهلها من الذل والمسكنة ماصاروا به في غاية الحقارة » •أما التعرض للوضع المالي القاسي ، وارهاق الفلاحين بالضرائب لاتمام حياة البذخ ، ومساس امتياز قناة السويس باستقلال مصر فذلك غير وارد اطلاقا • وفي الدورة الثانية للمجلس في عام ١٨٦٨ ، أثار النواب لأول مرة قلقهم للحالة المالية ، فقدمت لهم ارقام غير صحيحة عن الموازنة ، وذكر أن هناك وفرا فيها • وعطلت الحياة النيابية في عامي

١٨٧٤ و ١٨٧٥ ، ولم يحرك النواب ساكنا لدعوة المجلس للانعقاد ، لاسيما والاحداث المالية تستدعي ذلك . ولكن عام ١٨٧٦ كان حاسما في تاريخ الحياة النيابية اذ ظهرت فيه المعارضة بفضل رجال الفكر من أدباء وصحفيين ، لاسيما وأسهم قناة السويس قد بيعت بثمن بخس في ١٨٧٥ وأخذت طلائع التدخل الاجنبي تغزو البلاد بوصول لجنة كيف في أوائل عام ١٨٧٦ ، لدرس الوضع المالي[٢٦] .

ورغم تعدد الأهداف التي من أجلها أنشيء مجلس شورى النواب ، فقد أفاد في زيادة ثقة اعضائه بأنفسهم ، وبأنهمرحلة في طريق انتزاع تنازلات أكبر من الخديوي والحد من سلطته . وتحت تأثير ضغوط مختلفة وطنية وأجنبية ومالية ، لتقييد سلطته المطلقة ، أصدر الخديوي في ٢٨ آب ١٨٧٨ أمرا بالفرنسية بانشاء مجلس النظار (الوزراء) . وشكل نوبار باشا أول وزارة[٢٧] ، وعينفيها وزيران أوربيان للمالية والاشغال العامة . وسرعان ماتبين للمصريين أن الوزارة الجديدة أجنبيةأكثر منها مصرية . واشتدت النقمة في صفوف الشعب ، مما دعا الى عقد اجتماع في دار السيد البكري نقيب الاشراف ، ثم في دار اسماعيل راغب باشا ، وزير المالية السابق ، حضره الاعيان والعلماء والتجار ، وسمته الصحف بالجمعية الوطنية تشبيها له بما حصل في فرانسا . وطالبوا بتأليف وزارة وطنية بدون أجانب ،وبتسوية الديون بطريقة معقولة وانشاء نظام دستوري تكون الوزارة بموجبه مسؤولة أمام مجلس النواب . ورفعوا مطالبهم في « لائحة وطنية » الى الخديوي ، بعد أن وقع عليها عدد من الاعيان ورجال الدين المسلمين والمسيحيين ، والتجار والضباط والموظفين وغيرهم . وقبل الخديوي اسماعيل اللائحة ، وكلف شريف باشا بتأليف وزارة جديدة تحقق ماجاء في اللائحة الوطنية . وجاء في كتاب التكليف مايلي : « اني بصفة كوني رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب علي أن اتبع رأي الامة وأقوم بأداء مايليق بها من جميع الأوجه الشرعية ، لكنني لما نظرت السير الذي كانت عليه النظارة السابقة حصل لي غاية الاسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالي حتى نشأ منه اضطراب ونفور سرى في جميع القلوب وحركها . وقد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة الصادرة في ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة من أعضاء أهليين مصريين .. مكلفين بالمسؤولية لدى مجلس

الأمة » • ويعد هذا الكتاب خطوة هامة في تاريخ الحركة الوطنية اذ أن الخديوي اعترف بوجوب اتباع رأي الامة • وأشاد بوطنيته حين نص على عدم ادخال أوربيين في الوزارة ، كما نص على مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب لضمان مسؤولية السلطة التنفيذية أمام التشريعية • وبقي هذا المبدأ حتى الاحتلال الانجليزي ليعود من جديد في دستور عام ١٩٢٢ •

وحين عزل الخديوي اسماعيل في حزيران ١٨٧٩ ، حل مجلس شورى النواب في الشهر التالي • وسعى الخديوي الجديد ، توفيق ، الى تقوية سلطته ، ولكن السلطة الفعلية قد أصبحت في أيدي الدول الاجنبية ، وبخاصة بريطانيا • وبلغت الحركة الوطنية ذروتها في ثورة أحمد عرابي ورفاقه ، ودعم الشعب لهم •

تبين مما سبق أن محاولة الاسرة العلوية القيام بالاصلاح من الاعلى ، واقامة مجلس نواب ومجلس وزراء ، في محاولة لتحديث الحكم ، وامتصاص النقمة العامة، والهاء الشعب ، وكسب الطبقات البورجوازية المثقفة والاقطاعية الى جانبها ، قد فشل في منع الحركة الوطنية من الانتشار في صفوف الجماهير ، واصطدامها ، في عام ١٨٨٢ ، بالخديوي وسلطات الاحتلال •

واذا استعرضنا تاريخ الحركة الوطنية في مصر وجدنا أنها تبدت ، في أواخر القرن الثامن عشر ، برد الفعل ضد هجوم نابليون • كما يبدو أن حركة مصرية موجهة ضد الاتراك هي التي مهدت لمحمد علي الوصول الى السلطة • وبالرغم من أن محمدا عليا جند الفلاحين المصريين ، وهي أول محاولة من نوعها منذ قرون ، فقد اغلقت المراتب العليا في وجوههم • وقد أفاد المصريون من الحركة التعليمية التي نشطت في عهد محمد علي باشا ، وبخاصة ارسال البعوث الطلابية الى أوربا ، في محاولة منه لايجاد الكوادر للجيش والبيروقراطية • وأخذت الثقافة الاوربية بالانتشار في مصر، وبخاصة بواسطة الترجمة ، وانشئت في عام ١٨٣٦ مدرسة الألسن بادارة رفاعة الطهطاوي ، الذي لعب دورا هاما في نشر التراث الغربي في مصر ودعا الى اقامة النظام البرلماني فيها •

ولد رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) في السنة التي جلت فيها الحملة

الفرنسية عن مصر • وهو ينحدر من أسرة علم أقامت في مدينة طهطا في مصر العليا ، ومن هنا جاءت تسميته بالطهطاوي • وقد بدأ حياته العلمية تلميذا في الجامع الازهر ثم عين اماما لاحدى الفرق العسكرية في الجيش الجديد الذي أنشأه محمد علي باشا • ومالبث أن أرسل في عام ١٨٢٦ الى باريس اماما لاول بعثة تعليمية أرسلها محمد علي للدراسة في أوربا • وكان تأثير باريس في تفكير رفاعة الطهطاوي بالغا ، فقد مكث فيها خمس سنوات ــ حتى عام ١٨٣١ ــ وشهد الثورة التي جرت فيها في عام ١٨٣٠ ــ تلك الثورة التي يقول عنها انها أدت الى عزل الملك لخرقه الدستور ومحاولته تعليق الحريات التي ضمنها • ومع ان الطهطاوي أرسل الى باريس ليكون اماما لطلاب البعثة وليس طالبا مثلهم فقد أقبل على الدراسة بشغف وأفاد منها ، كما يبدو ، أكثر من أي منهم • وأتقن اللغة الفرنسية وقرأ لمشاهير كتاب العصر مثل راسين وفولتير وروسو ومنتسكيو • والتقى في باريس بأعظم مستشرقي اوربا ، واطلع على المكتشفات الحديثة عن تاريخ مصر القديمة ، بعد أن كان هذا التاريخ كتابا مغلقا الى أن اكتشف الحل الصحيح لرموز كتابة المصريين القدماء الهيروغليفية• وقد حفزت هذه الاكتشافات الآثارية الطهطاوي على التغني بمجد بلاده القديم •

وبعد أن عاد الطهطاوي الى مصر نشر في عام ١٨٣٤ وصفا لاقامته في باريس في كتاب عنوانه : تخليص الابريز الى تلخيص باريس، وسرعان ماظهرت ترجمة تركية لهذا الكتاب في عام ١٨٣٩ • وقد وصف الطهطاوي في كتابه هذا مارآه في فرانسا من عادات وتقاليد ، وأكد على الاهمية الكبرى لدور الصحافة كواسطة لنقل المعرفة والافكار • وشرح باسهاب نظام الحكم البرلماني ، ونشر في كتابه ترجمة كاملة للدستور الفرنسي مع تعليقاته عليه •

وقد عمل الطهطاوي في ميدان الترجمة في مصر ، وعين في عام ١٨٣٦ مديرا لمدرسة الالسن التي أنشأهامحمد علي باشا لتدريب الطلاب • وضمت مناهج المدرسة دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والانكليزية والايطالية ، الى جانب تدريس الادب والتاريخ والجغرافية والقانون • وفي عام ١٨٤١ أسس معهد للترجمة ألحق بمدرسة الالسن ووضع تحت اشراف الطهطاوي • ويذكر ان الطهطاوي وطلاب هذه المدرسة قد ترجموا حوالي ألفي كتاب من اللغات الاجنبية الى العربية •

ويبدو أن الطهطاوي قد أثار حقد الخديوي عباس الأول عليه فنقل في عام ١٨٥٠ الى الخرطوم ، وكلف بفتح مدرسة ثانوية فيها . وعد الطهطاوي السنوات الاربع التي أقصي فيها عن مصر بمثابة نفي له . وشغل نفسه خلالها بترجمة مغامرات تليماك للكاتب فنيلون التي احتوت على نقد لاذع لطغيان الملك لويس الرابع عشر في فرانسا ، وفيها عبرة للطغاة ومن بينهم الخديوي عباس .

وقد اتيح لرفاعة الطهطاوي العودة الى مصر اثر وفاة عباس في عام ١٨٥٤ ، فترأس من جديد مدرسة الألسن فيها ، وشجع الصحافة . ثم عين رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية ، واستمر حتى وفاته في ١٨٧٣ يتمتع بتأييد حكام مصر . وأسهم في وضع نظام جديد للتعليم .

لقد ترجم الطهطاوي عددا من المؤلفات الغربية المشهورة الى العربية ، من بينها مؤلفات لفولتير ومنتسكيو . وخطط لكتابة تاريخ عن مصر منذ أقدم العصور ، ولكن لم يظهر منه سوى مجلدين . ووضع مؤلفا في التربية بعنوان : المرشد الأمين للبنات والبنين . ويعد الطهطاوي أول داعية لتعليم المرأة في مصر ، بل في المشرق العربي كله . ولعل أشهر كتبه ، الى جانب تخليص الابريز الى تلخيص باريس، كتاب مناهج الالباب المصرية في مناهج الآداب العصرية .

امتازت كتابات الطهطاوي بدعوته للوطنية . وكان شعاره « حب الوطن من الايمان » . وقد ذكر ان الهدف الاسمى من التعليم تكوين الشخصية وغرس حب الوطن في نفوس الشباب — ذلك الحب الذي يؤدي الى بناء المجتمع الصالح . والوطنية ، بالنسبة لرفاعة الطهطاوي ، هي الرابطة التي تشد النظام الاجتماعي الى بعضه . وعرف أبناء الوطن بأنهم أولئك الذين توحد بينهم لغة واحدة ، وعادات وصفات واحدة ، ويخضعون لدولة واحدة وقانون واحد ، واستشهد بالذين عاشوا وضحوا في سبيل أوطانهم . لقد شهد الطهطاوي ثورة ١٨٣٠ في فرانسا ورأى بنفسه كيف بذل الفرنسيون أرواحهم في سبيل وطنهم وحريتهم . يقول رفاعة « وارادة التمدن للوطن لاتنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففي الحديث حب الوطن من الايمان ... وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد

غير المخصبة ، وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه . »[٢٨] .

وقد امتدح الطهطاوي العرب وأشاد بالدور الذي لعبوه في التاريخ ، فهو يقول « ان العرب أكثر الامم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الالسنة بيانا وتمييزا للمعاني جمعا وفرقا يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل . »[٢٩] .

وألح الطهطاوي على أن الغنى القومي هو نتيجة الفضيلة . وأكد أن العمل هو أساس الغنى . وذكر أن طائفة الملاك تجني الارباح من الزراعة وتحتكر منتجاتها ، وتدفع نسبة ضئيلة من الارباح للعمال[٣٠] .

ولم تكن وطنية الطهطاوي من النوع الثوري ، بل كان مواليا لأسرة محمد علي ، وكل ماطلبه من حكامها أن يلتزموا حدود القانون ، ويحترموا حقوق المواطنين ، وذلك أشبه بالمستبدين المستنيرين . ومزج الطهطاوي بين الحاكم والوطن . وفي عام ١٨٥٥ نشر قصيدة وطنية مصرية امتدح فيها الحاكم الجديد سعيد باشا . ونشر في العام نفسه منظومات وطنية مصرية امتدح فيها الفرقة العسكرية المصرية التي اشتركت في حرب القرم الى جانب القوات التركية . ووجد الخديوي ، من ناحيته ، في دعوة الطهطاوي الى الوطنية المصرية دعما لمركزه ومطامحه السلالية . وأدى نبش تاريخ مصر القديم ، اثر اكتشاف الهيروغليفية ، والتغني بالامجاد الماضية الى انتشار الفكرة الفرعونية . وانسجاما مع هذه الفكرة بدأ الطهطاوي بكتابة تاريخ مصر منذ أقدم العصور وليس منذ انتشار الاسلام فيها ، كما فعل كثير من سابقيه . وكتب قصائد امتدح فيها الفراعنة[٣١] .

ولم يلق المصريون اهتماما في عهد عباس باشا ، اذ اعتمد على مزيج من الأتراك والعلماء ، وشجع العنصر الألباني في الجيش . واختلف الوضع نسبيا في عهد سعيد باشا حين أكد ، في كثير من خطاباته ، على المصريين ، مغيظا بذلك الأتراك ، ورفع كثيرا من المصريين الى المراتب العليا . وجاء اسماعيل فمال في أول عهده الى الاوربيين والاتراك مما اقتضى اضطهاده للشعب ، ثم انقلب مضطرا في آخر حكمه

الى صف الشعب ضد الاجانب • وكان من نتائج السياسة الغربية التي اتبعها وكثرة القروض التي ارهق بها الشعب ومقاومته للمصريين أن ثار الضباط واحتج الملاكون والأعيان • ولكن مثل هذه الجهود الفردية المبعثرة المنبثقة من الطبقات لايمكن أن تؤتي أكلها مالم يساندها الشعب • وقد أخذ هذا يتحرك بفعل الضرائب الثقيلة التي فرضها عليه اسماعيل لسد نفقاته وقروضه ، وبعد مارأى من تدخل الأجانب في بلاده • وسمعت صيحة « مصر للمصريين » منذ ١٨٧٨ •

ولابد هنا من القاء نظرة على الاصلاحات التي ادخلت في مصر ، في هذه الفترة ، متممة ماجرى منذ عهد محمد علي باشا ، ولكنها الآن لم تكن بارادة الحاكم وصنعه بمفرده ، كما في السابق ، بل تمت تحت ضغط المطالب الشعبية الملحة • وقد نشطت في عهد اسماعيل النهضة التربوية والعمرانية والأدبية ، التي لعبت دورا هاما في تطور الحركة الوطنية في مصر • ويمكن القول ان النهضة التعليمية بدأت فعلا في عهد اسماعيل ، فقد فصل المدارس عن وزارة الدفاع ، لأن انشاءها أصلا ، في عهد محمد علي ، كان بهدف تأمين جيش مدرب حديث ، وليس تثقيف الشعب • وقد أحدثت في عهده وزارة للتربية ، وكان أبرز من شغلها علي باشا مبارك ، صاحب كتاب الخطط الجديدة ، الذي يبحث في أحوال مصر في القرن التاسع عشر •

وفي عام ١٨٦٨ أصدر اسماعيل قانون المعارف الذي نص على انشاء المراحل التعليمية الثلاث : الاولية والاعدادية والعالية ، فالاولية شملت مراكز المقاطعات ، بما فيها المدن والقرى ، والثانوية القاهرة والاسكندرية ، أما العالية فاقتصرت على القاهرة فقط • كما انشئت مدارس اختصاصية للموسيقى والزراعة والقانون والطب وغيرها ووصلت المدارس العسكرية والبحرية الى مستوى رفيع • وافتتحت أول مدرسة للاناث في الشرق عام ١٨٧٣ من قبل الخديوي ، كما انشأت البطريركية القبطية مدرستين للبنات • ومما يجدر ذكره أن الدولة كانت تنفق على طلاب المدارس بمختلف أنواعها[٣٢] • وقد أمر الخديوي اسماعيل بانشاء أول مكتبة وطنية بجمع بقايا المكتبات القديمة في مكان واحد ، وسميت المكتبة الخديوية • وأضحت دراسة تاريخ مصر علما قائما بذاته ، وشيد متحف وطني لحفظ آثار مصر القديمة •

وكان اصلاح القضاء من الأمور الهامة التي تمت في عهد اسماعيل • فأعاد للمصريين كثيرا من حقوقهم ، ولقوانين البلاد كثيرا من احترامها ، ان لم يكن احترامها كله • فقد كانت المحاكم القنصلية ، بموجب نظام الامتيازات ، من أسوأ مابقي بعد عهد محمد علي ، وهي من جملة الامتيازات التي ضمنها الباب العالي للدول الاوربية في الممتلكات التركية • وعندما ضعفت الرقابة الحكومية في عهد اسماعيل أخذ الاوربيون المتوافدون الى مصر للعمل فيها يدعون بامتيازات تضعهم فوق قانون البلاد • ويعود الفضل في اصلاح القضاء في مصر الى وزير اسماعيل الأرمني نوبار باشا ، الذي وضع في ١٨٦٨ منهاجا لاصلاح القضاء • وكان يقول بأن القضاء يجب أن يصدر عن الحكومة ، وأن يكون مستقلا عنها ، وعن المحاكم القنصلية في الوقت ذاته •ولذلك عمل على انشاء محاكم مصرية مختلطة(٣٣) • وبالرغم مما لهذه المحاكم من مساوىء الا أنها كانت خطوة تقدمية بالنسبة للمحاكم القنصلية آنذاك ، وحثت الحكومة على الاسراع بتشكيل محاكم وطنية ، فأنشئت لأول مرة في ١٨٨٣ • وقد نصت المحاكم المختلطة على صلاحيتها في محاكمة الخديوي وأعضاء الاسرة الحاكمة في القضايا التي تمس مصالح الاوربيين • وتساهل الخديوي بذلك ليدلل على احترامه لالتزامه تجاه دائنيه من الأجانب وليشجعهم على عقد القروض • وفي الحقيقة ، فقد شلت هذه المحاكم الحياة القضائية في الدولة ، حتى جاء اتفاق مونترو في ١٩٣٧ فألغى نظام الامتيازات ، ونص على ابقاء المحاكم المختلطة لمدة انتقالية قدرها اثنا عشر عاما •

وبالرغم من ضائقة اسماعيل المالية فقد بنى الكثير من الأبنية ليطلع عليها مدعويه الى حفلة افتتاح القناة • فجدد بناء الازبكية ، وبنى دارا للاوبرا أقام أمامها تمثالا لابراهيم ، كما بنى قصر عابدين وجعله المقر الرسمي للخديوي • وبنى الى الشمال الغربي منه حي الاسماعيلية الجديد ، وأقيم جسر قصر النيل ، وأعد قصر الجزيرة لاستقبال الضيوف الملكيين •

واتم اسماعيل تمديد شبكة حديدية تبلغ ٩١٠ ميل ، وبنى أقنية للري بلغ طولها ٧٫٤٠٠ ميل • ولكن أعظم عمل قام به ، بعد قناة السويس ، هو بناء ميناء الاسكندرية ، لأنه عرف أن القناة ستقضي على تجارتها ، فأراد ان يعوضها من ذلك •

وأفادت هذه التسهيلات رؤوس الاموال الاجنبية التي تدفقت على البلاد في غياب رأس المال الوطني . واشترى عام ١٨٦٥ مصلحة البريد من مديرها الايطالي ،وجعلها ادارة حكومية . وأنشأ أسطولا تجاريا ، وأقام شركة ملاحة العزيزية ، وطرح أسهمها للجمهور ، ولكن ، بعد رواجها ، اشترى أسهمها للدولة ، وسميت خطوط النقل الخديوية في ١٨٧٣[٣٤] .

ونشطت الحركة الأدبية في عهد اسماعيل ، فظهرت ، في عام ١٨٦٨ ، جمعية أدبية ، باسم جمعية المعارف ، مؤلفة من كبار الموظفين والاعيان ، وأخذت على عاتقها اعادة طبع كتب التراث ، مثل تاريخ ابن خلدون ، واحياء العلوم للغزالي وغيرها . وأنشئت ، في عام ١٨٧٥ ، الجمعيةالجغرافية الخديوية ، واهتمت بخاصة بالاكتشافات الافريقية . وأصبحت الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » ، التي صدرت في عهد محمد علي ، في ١٨٢٨ ، يومية في عهد اسماعيل . وظهرت كذلك مطابع أهلية ، كالمطبعة الوطنية في الاسكندرية ، والمطبعة القبطية في بولاق ، ومطبعة وادي النيل. وأخذ محمد جلال يترجم القصص الغربية ويمصرها أحيانا ، كما فعل باحدى مسرحيات موليير اذ عربها باسم « الشيخ متلوف » . وبدأت فرق التمثيل تجيء من بلاد الشام لتمثل على مسرح الاوبرا والازبكية ، فلما مثل يوسف خياط مع فرقته رواية المظلوم على مسرح الاوبرا رحب به اسماعيل أول الامر ، كعادته في تشجيع الافكار الحديثة ، الا انه طرده حين لمس الطعن المبطن في أقوال ممثليها .

وظهرت ، في عهد اسماعيل ، الصحافة السياسية ، المعارضة ، فصدرت « وادي النيل » ، لصاحبها أبو السعود ، ثم اغلقت بعد ست سنوات . وظهرت « نزهة الافكار » للمويلحي وفؤاد جلال ، لتغلق بعد صدور عددين فقط . وأصدر اليهودي يعقوب بن صنوع جريدة « أبو نضارة » ، التي ادخلت الكاريكاتور في الصحافة المصرية لاول مرة . وأشارت كل هذه الصحف الى مباذل الخديوي[٣٥] .

ولعب السوريون واللبنانيون دورا هاما في الصحافة المصرية في هذه الفترة . وكان أبرزهم ، في عهد اسماعيل ، أديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) ، وقد درس عند الآباء العازاريين في دمشق ، واليسوعيين في بيروت ، وكتب في عدد من الصحف

اللبنانية • وفي عام ١٨٧٥ ذهب الى مصر ، حيث نبغ بين تلاميذ جمال الدين الافغاني وأصدر جريدتي « مصر » في عام ١٨٧٧ ، و « التجارة » ، في عام ١٨٧٨ • وقد كتب في الحقوق والواجبات والحرية والوطنية • والوطن ، بالنسبة لأديب اسحق ، هو المكان الذي تضمن فيه حقوق الانسان وتترتب عليه الواجبات تجاهه ، ولا وطن بدون حرية ، ولاحرية بدون فضيلة • وبرز أيضا اسم عبد الله النديم (١٨٤٤ — ١٨٩٦) ، تلميذ الأفغاني أيضا ، وكان من مشاهير الخطباء والصحافيين في مصر ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وقد دعم أحمد عرابي في ثورته ضد الخديوي والنفوذ الاجنبي • وكان الناطق باسم عرابي وجماعته ابان الاحتلال ، وتبني قضيتهم في مجلة « الطريق » ، وفي الصحيفة الهزلية « التنكيت والتبكيت » • وحين فشلت ثورة عرابي ، اختبأ عبد الله النديم ، ثم اعتقل في ١٨٩١ ، ونفي الى فلسطين • وعاد الى مصر في عهد الخديوي عباس حلمي ، وأصدر فيها مجلة اسبوعية باسم « الاستاذ » ، حيث هاجم الاحتلال البريطاني ، وأدى ذلك الى طرده ، بحجة نشر الافكار الثورية • وذهب الى استانبول حيث توفي فيها • وأكد عبد الله النديم ، على غرار أديب اسحق ، فكرة أن الوطن يضم بين ظهرانيه الاقباط والمسلمين ، على حد سواء •

وقد اسهمت التطورات التي حدثت في عهد اسماعيل ، سواء منها ماحدث على نطاق مجلس شورى النواب ، أم على نطاق الاصلاح في مجالات التربية والقضاء والعمران ، أو في ميادين الادب والصحافة ، أو في مجال ازدياد النفوذ الاجنبي ، الى دفع الحركة الوطنية خطوات الى الامام • وعلى خلاف الحركة الوطنية في بلاد الشام ، في الفترة ذاتها ، التي كانت قومية عربية ، ولاتعود الى جذور أقدم من العروبة ، رغم قدم تاريخ المنطقة وأهمية منجزاتها الحضارية والتي كانت علمانية ، منشأ وفكرا وواقعا ، فان الحركة الوطنية في مصر ، التي استمدت من الفكرة الفرعونية بعض مقوماتها ، اندمجت الى حد كبير ، بحركة الجامعة الاسلامية التي عاصرتها ، ودعا اليها كل من جمال الدين الافغاني ومحمد عبده • وقد توضح هذا التأثير الاسلامي في أعقاب الاحتلال البريطاني حين وجد الوطنيون في الدولة العثمانية ، أي في التآخي الاسلامي ، ركيزة هامة في نضالهم ضد المستعمر الاوربي •

ولاشك أن التيار الاسلامي قد أفاد الوطنية المصرية في عدم اندماجها بالفرعونية ، وكذلك في شد أزرها في النضال ولكنه بالمقابل طبعها بطابعه منذئذ .

آثار جمال الدين الافغاني ، الذي كان « يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه » ، نقمة الشعب ضد الاسرة العلوية المتعاونة مع الاجنبي ، وخاطب أبناء الشعب بقوله « لو كان في عروقكم دم وفي رؤوسكم أعصاب لما رضيتم بهذا الذل » . ويعد جمال الدين (١٨٣٩ — ١٨٩٧) ، الذي شاعت نسبته بالافغاني ، من زعماء الاصلاح الاسلامي الداعين للجامعة الاسلامية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد درس العلوم الاسلامية في أفغانستان ، وحج في عام ١٨٥٧ ، ثم أقام خلال فترات في الهند ومصر وفارس وتركيا . وأمضى بضع سنوات في فرانسا وروسيا . كما أنه زار لندن . وقد عاش في مصر ثماني سنوات ، بين ١٨٧١ — ١٨٧٩ ، ومنحته الدولة مرتبا شهريا تكريما له . وقد دعا الى وحدة وطنية لمقاومة التدخل الاجنبي ، والى وحدة اسلامية أوسع ، حيث يحد الدستور من سلطة الحاكم . ولم ينكر الافغاني أهمية الروابط القومية وقال بأهمية اللغة في انشاء مجتمع مترابط . وارتاد حلقة تدريسه في الأزهر محمد عبده وسعد زغلول ، وكان يدرس الشبان فن الخطابة والصحافة . وحين عزل اسماعيل ، طرد خلفه الخديوي توفيق الافغاني من مصر ، فذهب الى الهند ، ثم الى باريس في عام ١٨٨٤ ، حيث أصدر مع محمد عبده مجلة العروة الوثقى ، ودعيا على صفحاتها الى مقاومة التدخل الاجنبي .

وقد دعا الافغاني الى توحيد العالم الاسلامي في ظل خليفة ، تركيا كان أم أفغانيا أم مصريا ، شريطة أن يتمتع بسلطة قوية . وطالب الشعوب الاسلامية أن ترتفع الى مصاف الامم الحرة، والمتطورة ، عن طريق التعلم وملاءمة الدين مع متطلبات العصر ، ولكنه اعتقد بحتمية العمل الثوري كوسيلة للوصول الى هذه الاهداف . وكلما فقد ثقته في حاكم هاجمه بعنف . وقد حاول ، في أوقات مختلفة ، التعاون مع الخديوي والشاه والسلطان العثماني ، لكنه اصطدم معهم جميعا . وامضى حياته يبحث عبثا عن حاكم مسلم يكون عنده أشبه ببسمارك أو كافور . واذا كان الافغاني قد أخفق في حياته السياسية فان وقوفه الى جانب الشعب في معارضة ظلم الحكام والتدخل الاجنبي شد من أزر الحركة الوطنية[٣٦] .

وعندما غادر جمال الدين الافغاني مصر لآخر مـرة عام ١٨٧٩ قال لبعض أصدقائه من المصريين الذين خرجوا لوداعه في السويس انه يترك لهم الشيخ محمد عبده ، فهو يكفي مصر كعالم .

عاش محمد عبده في الفترة بين ١٨٤٩ و ١٩٠٥ ، وكان مصريا صميما على نقيض الافغاني الذي لم يعرف أصله بعد التأكيد . وينتسب محمد عبده الى اسرة من الفلاحين عرفت بالعلم والتقى . وقد بدأ دراسته لدى الحافظ المحلي ، ثم ارسل عام ١٨٦٢ ليدرس في الجامع الاحمدي في طنطا . وكان هذا الجامع آنذاك من المراكز الثقافية التي تلي الأزهر في الاهمية . وبعد ان اتم محمد عبده دراسته في طنطا عاد الى قريته ليعمل في الزراعة . وفي عام ١٨٦٦ استأنف دراسته في الأزهر ، وما لبث أن وقع تحت تأثير الصوفية ، ثم لازم جمال الدين الافغاني ، ورافقه كظله .

وقد اطلع الافغاني تلميذه محمد عبده على كثير من المؤلفات والعلوم الحديثة الغربية التي كانت قد ترجمت الى العربية . وهكذا فتح عالم جديد أمام أعين محمد عبده ، الذي سرعان ماتحول عن الصوفية الى الاصلاح . وبدأ يكتب في الصحف في موضوعات أدبية واجتماعية وسياسية . وكان الافغاني قد درب طلابه على الخطابة ، وبعد فترة وجيزة فاق محمد عبده أستاذه في هذا الميدان .

وفي عام ١٨٧٧ حاز محمد عبده على درجة (عالم) من الأزهر ، وما لبـث أن عين مدرسا فيه . وقد عين أيضا في العام التالي أستاذا للتاريخ في دار العلوم ، ومدرسا للغة العربية وآدابها في المدرسة الخديوية للألسن .

ورغم اشتغاله في التدريس في مؤسسات مختلفة ، فقد بقي محمد عبده حتى آخر أيامه طالب علم . وكان هدفه ايجاد جيل جديد بين سكان مصر لاحياء اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، ولتقويم أخطاء حكومة الخديوي التي كانت تقع بالتدريج تحت سيطرة الاجانب .

وعندما استقال الخديوي اسماعيل في عام ١٨٧٩ لصالح ابنه توفيق الذي كان يعارض سياسة الاصلاح ، قام هذا الاخير بطرد الافغاني من مصر ، وأعفى محمد عبده من وظائفه التدريسية في دار العلوم والمدرسة الخديوية للألسن ، وأمره بالتزام

قريته (محلة نصر) في الدلتا • وبوساطة رئيس الوزراء رياض باشا ، الذي كان يميل الى الاصلاح ، عين محمد عبده في عام ١٨٨٠ محررا في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ، واصبح بعد قليل رئيس تحريرها •

وقد اهتم محمد عبده ، في منصبه الجديد في (الوقائع المصرية) ، بحالة التعليم في البلاد ، ونشر نقدا لاذعا لاوضاع المدارس والمعلمين وطرق التعليم • كما أنه لعب دورا بارزا في توجيه الرأي العام بكتابته سلسلة من المقالات حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي ، وذلك ابان الازمة التي سبقت الاحتلال البريطاني لمصر في ١٨٨٢ • وما لبث محمد عبده أن رمى بثقله الى جانب الوطنيين أثناء الاحتلال • وقد حكم عليه من قبل سلطات الاحتلال بالنفي مدة ثلاث سنوات الى خارج مصر • فأقام عاما في بيروت ، ثم التحق بالأفغاني في باريس حيث عملا معا في سبيل القضية الوطنية • وقد أصدرا في باريس مجلة العروة الوثقى ، وأسسا فيها منظمة سرية تحمل الاسم نفسه • وقام محمد عبده بزيارة انكلترا وتحدث الى الفيلسوف البريطاني سبنسر •

وعندما توقف صدور العروة الوثقى في باريس غادرها الافغاني الى فارس ، وتوجه محمد عبده الى تونس • وفي عام ١٨٨٥ عاد محمد عبده الى بيروت ، وأصبح بيته فيها مقر العلماء والطلاب • وقام في بيروت بالقاء محاضرات في الفقه جمعها ، بعد ذلك ، في كتاب عنوانه : رسالة التوحيد • وقد سمح له بالعودة الى مصر في العام نفسه ، وسرعان ما أصبح قاضيا ، ثم مفتيا ، وبقي يشغل هذا المنصب حتى وفاته في ١٩٠٥ •

لقد مارس محمد عبده أثرا كبيرا في اصلاح القانون ، كما أنه أدخل تعديلات هامة على طرق التعليم في الأزهر • وكان العامل الوطني قويا في تفكيره منذ وقت مبكر ، وقد ألح على دور التاريخ المشترك والمصالح المشتركة في ايجاد رابطة قوية بين أبناء الوطن الواحد • وكانت الوحدة ، بالنسبة اليه ، ضرورية في الحياة السياسية ، وأقوى أنواع الوحدة هي تلك التي تنشأ بين الذين ينتسبون الى وطن واحد •

ورغم الروابط الفكرية والدينية الكثيرة التي جمعت بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، فاننا نلاحظ اختلافا في مواقفهما السياسية • لقد اتصفت مواقف الافغاني بالعنف ضد الاجانب ، بينما أعطى محمد عبده الاولوية للنهوض بالاسلام والمسلمين ، عن طريق الثقافة • ورغم أن غاية محمد عبده البعيدة من دعوته للنهوض بالمسلمين انقاذ البلاد الاسلامية من براثن الاجنبي ، فقد دعا الى تقبل منجزات الغرب في العلوم والتقنية وحتى في مجال التربية[٣٧] •

ولم تكن دعوة محمد عبده الى اصلاح الاسلام والمسلمين أمرا طارئا أو فريدا في البلاد الاسلامية آنذاك ، فقد رأينا كيف أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني جعل من فكرة الجامعة الاسلامية سياسة رسمية للدولة وسلاحا استخدمه ضد الحركات القومية ، وبخاصة العربية ، وضد الدول الغربية التي كانت تحتل مناطق اسلامية وخشيت اعلان السلطان الجهاد ضدها • ويذكر أيضا أن المعارضة الاولى للسلطان ، المتمثلة بالجمعية العثمانية الفتاة (التي كانت أقل تطرفا من خليفتها جمعية تركيا الفتاة) ، قد تحدثت عن اتحاد المسلمين •

وشهدت الحركة الوطنية في مصر أولى تنظيماتها العسكرية في عام ١٨٧٦ حين أنشئت جمعية سرية لضباط الجيش ضمت أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي • وكان أحمد عرابي ، الذي اقترنت الحركة الوطنية ، لبعض الوقت ، باسمه ، من أصل فلاحي ، درس في مدرسة القرية ، ثم انتسب الى الجيش ، وأثاره احتكار الاتراك والشراكسة والالبانيين الرتب العليا في الجيش • وليدلل على أصله المحلي وعلى مصريته ازاء هذا الاحتكار ، أسمى نفسه أحمد عرابي المصري • وقد عمل الى جانب الجماهير ، واعتقد بحكومة دستورية ، ولكنه أدرك صعوبة تحقيقها ، فقال اننا نعمل في سبيل ذلك ليس لانفسنا بل لاولادنا[٣٨] •

وقد بلغت نقمة الضباط ذروتها حين قررت الحكومة ، في شباط ١٩٧٩ احالة ٢٥٠٠ ضابط من الجيش على الاستيداع ، بحجة أنها عاجزة عن الانفاق عليهم • واضطر نوبار باشا ، رئيس الحكومة ، الى الاستقالة في أعقاب ذلك لتهدئة الخواطر • واتسعت جمعية الضباط السرية ، في أواخر عهد اسماعيل ، فشملت بعض الاعيان

وأعضاء مجلس شورى النواب ، وضمت كذلك جمال الدين الافغاني وعبد الله النديم وسعد زغلول . وتسمت بالحزب الوطني[٣٩] .وبقي العسكريون في قيادتها، وكان لها اتصال مع آخر أبناء محمد علي باشا الاحياء ، حليم باشا ، الذي كان من الممكن أن يعين خديويا ، لكونه أكبر أفراد الاسرة العلوية سنا لولا تغيير القانون في ١٨٦٦ وحصر اسماعيل الوراثة بأكبر أبناء الخديوي الحاكم .

وحين قبل الخديوي اسماعيل اللائحة الوطنية التي رفعها اليه المجتمعون في دار البكري ، الذين شكلوا ما عرف بالجمعية الوطنية ، وتدخلت الدول الاجنبية لدى السلطان العثماني فأقاله ، في أعقاب ذلك[٤٠] ، لم يكن المقصود اسماعيل وحده بل ضرب الحركة الوطنية التي رضخ لها ، مما يدل على اشتداد قوتها . وقد علق أحمد عرابي على عزل اسماعيل قائلا : « كان من الافضل لو قمنا بذلك بأنفسنا (أي الوطنيين) لانه يمكننا آنئذ أن نتخلص من جميع أفراد اسرة محمد علي ، الذين لم يكن أحد منهم باستثناء سعيد، مؤهلا للحكم ، وكنا أعلنا الجمهورية»[٤١] . ولكن مشكلة الوطنيين آنذاك كونهم أضعف من القيام بذلك ، بسبب معارضة بريطانيا ، وحتى تركيا لهم .

وقد رفض الخديوي توفيق ، الذي خلف اسماعيل ، مطالب الوطنيين بتشكيل مجلس نواب ، ووقف بحزم في وجههم . وهكذا أصبح الخديوي علانية في صف أعداء الثورة . ولكنه اضطر ، تحت تهديد الجيش ، الذي سار الى قصر عابدين في ١ شباط ١٨٨١ ، الى عزل عثمان رفقي وزير الحربية ، الذي اتبع سياسة ضارة بمصلحة الضباط المصريين وعين محمود سامي البارودي الذي رشحوه . وكرد فعل على الحركة الوطنية نفى توفيق الافغاني بقرار وصفه بأنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » .

وكانت في الاسكندرية جمعية اخرى ، عرفت بجمعية « مصر الفتاة » . وقد رفعت عريضة الى الخديوي توفيق ، تطالب بالحرية والاصلاح وأنشأت جريدة « مصر الفتاة » للدعوة لمبادئها ، ولكن الحكومة عطلتها . وكانت الحكومة قد عطلت جريدتي « مصر » و « التجارة » ، لاديب اسحق ، فأوفده الحزب الوطني

الى باريس لانشاء جريدة « القاهرة » وكانت نسخها ترسل وتوزع سرا في كافة انحــاء البلاد .

وشعر الضباط بأن الخطر يحدق بهم ، حين عزل توفيق البارودي من وزارة الحربية ، وعين صهره مكانه ، فتداعوا لتظاهرة ٩ ايلول ١٨٨١ المعروفة ، وتحركت قواتهم يومئذ الى قصر عابدين ، بقيادة عرابي ، لابلاغ الخديوي طلبات الجيش والشعب ، وهي : اقالة وزارة رياض باشا ، دعوة المجلس النيابي الذي لم يجتمع منذ أكثر من عامين ، ورفع عدد أفراد الجيش الى ١٨ر٠٠٠ رجل ، كما هو محدد في فرمان السلطان . وننتقل هنا الى ما دار في الحديث نقلا عن مذكرات أحمــد عرابي : « فأجاب الخديوي : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا . فقلت (أي عرابي) : لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذي لا اله الا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » . ورد عرابي على قول القنصل الانكليزي ، الذي كان يرافق الخديوي : « ان طلب اسقاط الوزارة وتأليف مجلس النواب من حقوق الامة لا من حقوق الجيش » ، فقال : « ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم اعمد اليها الا لانهم أقاموني نائبا عنهم في تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الاهالي الذين أنابونا عنهـم في طلب حقوقهم » .

بهذه الكلمات شق عرابي للشعب المصري طريق الكفاح . ورضخ الخديوي ومن يدعمه لهذه المطالب تدريجيا ، وتشكلت وزارة شريف باشا المؤيدة من أحمد عرابي . « وكان تعيين شريف باشا في رئاسة الوزارة ، دون أحمد عرابي ، أول تنازل استراتيجي من قيادة الثورة بوضعها في يد مترددة تميل بحكم مصالحها الاقتصادية الى الارتباط بالسراي أكثر من ارتباطها بمصالح الشعب . ان شريف كان يمثل جزءا من كبار الملاك الذين يحملون جزءا يسيرا من العقلية المعاديــة للاقطاع ، لكن هذا الجزء اذا كان كافيا لكي يجعلهم في عداد احتياطي الثورة ،

فهو غير صالح مطلقا لكي يلعب دوره القيادي ، وفي أخطر مراحل الثورة ، وهي مرحلة الحشد والتعبئة[٤٢] •

ان تأييد شريف باشا للضباط شيء واختيارهم له ليكون رئيس وزارة شيء آخر ، اذ عارضهم في تعيين البارودي لوزارة الحربية ، خوفا من سيطرة الجيش عليه ، ثم ما لبث أن رضخ لمطلبهم • ويدل ترحيب جميع الفئات ، الحاكمة والمعارضة والاجنبية ، بشريف باشا على اعتداله ، ولكنه بقي يخشى قوة الجيش ، الذي عد نفسه ممثلا للشعب • وقد دعا شريف باشا مجلس شورى النواب ، الذي يعد الممثل الشرعي للشعب ، للانعقاد في كانون الاول ١٨٨١ ، لازالة ادعاء الجيش أنه يمثل الشعب وحاول أيضا ابعاد قادة الجيش الموجودين في القاهرة ، فنقل عبد العال الى دمياط وعرابي الى رأس الوادي قرب الزقازيق • وبعد ثلاثة أشهر عين عرابي وكيلا لوزارة الحربية ، بغية ابعاده عن الجيش والهائه بالمسؤوليات الادارية • وخشيت بريطانيا من تمكين قبضة الجيش داخل الوزارة ، ثم من محاولة عرض دستور للبلاد على مجلس النواب وتقييد ذلك لسلطة الخديوي ولتدخل الاجانب في المالية ، فاشتركت معها فرانسا في مذكرة[٤٣] للخديوي ، في كانون الثاني ١٨٨٢ ، تؤيدانه فيها ظاهريا وتغريانه ضمنيا بعدم منح الدستور ، كما تغريانه باسترداد سلطاته المطلقة ، والقضاء على الحركة الوطنية • وكان سبب اشتراك فرانسا بالمذكرة قلقها وحرصها على مصالحها في تونس وشمال افريقية ، وذلك بقمع الحركة الوطنية في مصر • وكان للمذكرة مفعول عكسي اذ وحدت الشعب كله ، أعيانه وجيشه ، ضد الخديوي والاجانب ، وأثارت شريف باشا لان آخر شيء يتمناه عودة الجيش للضغط عليه فاستقال • وشكل البارودي الوزارة ، وأصبح عرابي وزيرا للحربية • وهكذا بدأ اتجاه الثورة يتبلور ، قيادة وقاعدة ومنهاجا • عندئذ قررت بريطانيا التدخل ، وطالبت باقالة الوزارة وابعاد عرابي وزملائه • وقبل الخديوي ذلك ، لان هذا يخدم مصالحه • ولكن عرابي عاد الى وزارة الحربية في الوزارة الجديدة • واحتجت بريطانيا بمظاهرات الاسكندرية في حزيران ١٨٨٢ ضد الاوربيين ، واتهمت عرابي بتدبيرها ، وانزلت قواتها فيها في تموز ١٨٨٢ • وهكذا بدأ الاحتلال البريطاني لمصر[٤٤] •

ولم تفعل الدولة العثمانية شيئا رغم طلب الدول الكبرى منها في مؤتمر استانبول في ٢٣ حزيران ١٨٨٢ التدخل للقضاء على الحركة الوطنية في مصر ، وسبب ذلك ضعف السلطان العثماني وكرهه للحركة الوطنية في مصر ومطالبتها بالدستور ، في الوقت الذي قضى فيه على دستور مدحت باشا في بلاده • وبقيت ، مع ذلك ، السيادة العثمانية قائمة اسميا في مصر • واذا قارنا بين الاحتلال الفرنسي لمصر ، في عهد نابليون بونابرت ، والاحتلال الانكليزي الآن ، وجدنا أن الحملة الفرنسية نبهت أوربا لمكانة مصر الاستراتيجية وأثارت انكلترا ضدها ، في حين لاقى الاحتلال الانكليزي الآن لمصر ، ان لم نقل قبولا من الدول الاوربية ، فعلى الاقل عدم معارضة من جانبها • وحتى فرانسا صاحبة المصلحة الاساسية لم تحتج ولم ترسل قوتها لمنعه ، وان بقيت تعارضه حتى الاتفاق الودي ، في عام ١٩٠٤ ، وذلك لان المصالح الاستعمارية واقتسام مناطق النفوذ كان يحول دون أي تدخل •

وأعلن مجلس النواب في القاهرة تأييده لعرابي ، وعزل توفيق ، وتسلم السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولكن هزيمة عرابي في موقعة التل الكبير في ١٣ ايلول ١٨٨٢ ، واحتلال القاهرة ، وعودة توفيق اليها ، ثم محاكمة عرابي وزملائه ونفيهم الى سيلان ، كان نهاية مرحلة وبداية أخرى في الحركة الوطنية في مصر • وقد علق اللورد كرومر على فشل عرابي بقوله : « لو ترك وشأنه ، فليس هناك من شك بأنه سينجح ، وان عدم نجاحه يعود الى التدخل البريطاني »(٤٥) • وقد أدرك عرابي أنه ، ازاء القوى المعارضة للحركة الوطنية ، يصعب عليه النجاح ، ولكنه ، بالمقابل ، أدرك أنه يستحيل عليه عدم القتال(٤٦) •

وهناك من يقول ان الثورة العرابية ، بطيش قادتها وتسرعهم ، مسؤولة عن الاحتلال البريطاني لمصر • وطبيعي أن القصد من ذلك تشويه الحركة الوطنية وتجاهل العوامل الاستعمارية التي كانت سائدة في اوربا آنذاك • فبريطانيا ، صاحبة أكبر امبراطورية استعمارية أوربية ، كانت تنتهز الفرصة للتدخل في مصر ، عن طريق افتعال حوادث اعتداء بين المصريين والاوربيين ، وذلك لحماية خطوط مواصلاتها مع الهند ، ومستعمراتها في افريقية ، وموازنة الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس • وفوجئت الحركة الوطنية وهي ما زالت غضة العود ، تصارع الخديوي

والاقطاع ، بالمخططات الاستعمارية وانهزامية الدولة العثمانية ، فهزمت في المرحلة الاولى .

وقد عين الانكليز قادة منهم على الجيش والشرطة في مصر ، واستولوا كذلك على المالية والاقتصاد والاشغال العامة . وحلوا مجلس شورى النواب ، وأقاموا مكانه : مجلس شورى القوانين ، ويتألف من ثلاثين عضوا ، والجمعية العمومية ، وتضم أعضاء المجلس السابق والوزراء وآخرين ، بحيث كان المجموع اثنين وثمانين . وتجتمع الجمعية مرة واحدة كل سنتين . ثم مجالس المديريات ، وهي هيئات اقليمية تنظر في مصالح المديريات المحلية . وكان طبيعيا انعدام روح المعارضة في هذه الاجهزة ، لان أعضاءها كانوا أشبه بالموظفين ، ولا أثر لهم في توجيــه السياســة .

ونظرا للوعود المتكررة التي قطعتها بريطانيا بالجلاء خلال سنوات قليلة ، ونكوثها عن ذلك ، خشيت الدول الاوربية من سيطرة بريطانيا على القناة ، فدعت الى مؤتمر الاستانة أو القسطنطينية ، في ١٩ تشرين الاول ١٨٨٨ ، وبموجبه وقعت معاهدة نصت مادتها الاولى على أن « تكون قنــاة السويس على الدوام حرة ومفتوحة ، سواء في وقت الحرب أم في وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية بدون تمييز لجنسيتها » . وحفظت المعاهدة حق مصر على منطقة القناة من حيث أنها أرض مصريــة .

وتميزت الحركة الوطنية ، بعد الاحتلال ، باتساع القاعدة الشعبية ، رغم الانقسامات التي تعرضت لها ، بسبب صراع الزعامات البورجوازية المثقفة التي حاولت قيادتها . وكان هدف الحركة انهاء الاحتلال البريطاني بالدرجة الاولى ، ولذلك انفصلت لبعض الوقت عن الحركة القومية العربية العامة ، التي كانت تحاول التخلص من الحكم العثماني . ورغم أن مصر ما زالت جزءا من الامبراطوريــة العثمانية ، فانها تطلعت اليها لمساعدتها ضد الاحتلال . وكان هذا وهما لم يفــد الحركة الوطنية في مصر ، وحال دون تعاضدها مع مثيلتها في الشام .

ولو استعرضنا القوى المحلية في مصر لوجدنا السلطة الحاكمة مطية للانكليز .

فقد اضطهدت الصحافة ، ومنعت « العروة الوثقى » ، التي يصدرها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في باريس ، من دخول مصر « حفظا على النظام العمومي » . وعطلت صحف اخرى ، مثل « الاهرام » و « مرآة الشرق » . وبقي مصطفى باشا في رئاسة الوزارة ثلاثة عشر عاما (١٨٩٥ ــ ١٩٠٥) ، لانه كان أداة طيعة في يد الانكليز . وما دام أعضاء مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية،ومجالس المديريات ، يعدون موظفين عينهم القصر والانكليز ، وليس ممثلين للشعب ، فقد ألقى عبء المطالبة بحقوق الشعب على أبناء الشعب أنفسهم ، بخاصة وأن الجيش، الذي سيطر عليه الانكليز ، لم يعد وسطا صالحا لنمو الحركات الثورية .

واذا تركنا جانبا السلطة الحاكمة في مصر ، التي اتصفت بالتخاذل ، بالنسبة للقضية الوطنية ، وتعاونت مع الاحتلال ، فاننا نجد على رأس المجتمع المصري الملاكين الكبار ، الذين يعود بعضهم الى عهد محمد علي ، وبعضهم الآخر اغتنى نتيجة تطور الزراعة ، وبخاصة القطن ، ابان الأزمة الاميركية . وقد وصفت هذه الطبقة بأنها تركية مصرية ، وعارضت بمجموعها أي تحرر ، والتقت مصلحتها مع مصلحة الاحتلال الذي حافظ على امتيازاتها . واذا قاومت الاحتلال أحيانا فمناورة لتوطيد مركزها ، وليس لخدمة الاغراض الوطنية . أما الطبقة المتوسطة ، المؤلفة من محامين وأطباء ومعلمين وصحفيين وموظفين ، والتي كانت على احتكاك بالثقافة الغربية ، فقد عدت مصالحها السياسية والاقتصادية ، وحتى الحياتية ، مهددة من قبل الاحتلال وخبرائه وموظفيه ، ولذلك كانت في طليعة الحركة الوطنية . ولم يكن لدى الطبقة الدنيا من العمال الريفيين والمدنيين ، الذين كونوا غالبية الجنود في الجيش الوطني، ودعموا عرابي في ثورته ، وعي سياسي كاف لمقاومة الاحتلال ككتلة قائمة بذاتها ، لها قياداتها وتنظيماتها ، بل نجد الطبقة البورجوازية تستغل قضيتهم ، كما حدث مثلا في دنشواي ، لتوطيد سلطتها السياسية . وما أعوز الحركة الوطنية في مصر وجود طبقة متوسطة مصرية تجارية وصناعية ورأسمالية تناوىء منافسة الاحتلال لها في ميادينها . ونجد أن معظم أصحاب الصناعة والتجارة والمالية كانوا من غير المصريين ، من اليونانيين والايطاليين والفرنسيين والسوريين والارمن واليهود .

ولهذا وقع العبء الاكبر من النضال الوطني على الطبقة المتوسطة المثقفة ، وانتظمت هذه في عـدد من الاحزاب •

وكان في طليعة الوطنيين ، من هذه الطبقة المتوسطة المثقفة ، مصطفى كامل[٤٧] (١٨٧٤ ــ ١٩٠٨) ، وقد درس الحقوق في المدرسة الخديوية ، ثم في جامعة طولوز بفرانسا • وفي عام ١٩٠٠ أصدر جريدة اللواء ، وأضاف اليها ، فيما بعد ، ملحقين باللغتين الفرنسية والانكليزية • وقد تمتع بدعم الخديوي عباس ، الذي وجد في مصطفى كامل وسيلة مفيدة للحد من تسلط كرومر ، المقيم البريطاني في مصر ، كما أن مصطفى كامل وجد في الخديوي دعما للوصول الى الشهرة • وقد موله الخديوي بالمال ، وأرسله الى اوربا في ١٨٩٥ ، للحصول على الدعم لجلاء القوات البريطانية عن مصر • وكان مصطفى يأمل بالدعم الفرنسي ، ولكن الاتفاق الودي بين فرانسا وبريطانيا ، في عام ١٩٠٤ ، خيب أمله • ووجد الخديوي من مصلحته التفاهم مع الانكليز • ولهذا تحول مصطفى كامل الى طلب الدعم من العثمانيين • وفي عام ١٩٠٤ منحه السلطان لقب باشا • ووجد مصطفى كامل في الرابطة الاسلامية وسيلة لمقاومة الاحتلال ، كما أنه وجد في الدول الآسيوية التي قاومت الاستعمار الاوروبي ، مصدر الهام للحركة الوطنية في مصر • (وفي ذلك بدايات التضامن الافريقي ــ الآسيوي) ، وأعجب بخاصة بنهضة اليابان ، وبانتصارها على البلد الاوربي ، روسيا ، في حرب برية وبحرية ، في عام ١٩٠٥ • وقد اضعفت هذه الهزيمة هيبة القيصر الروسي ، بقدر ما أخافته من قيام حركة ثورية ، فمنح نوعا من الدستور ودعا الى عقد أول مجلس تمثيلي (الدوما) ، ولكن ذلك لم يمنـع قيام الثورة الروسية الاولى • واستمد مصطفى كامل من انتصار اليابان العبرة بأن الشرق لم يمت • وألف كتابا ، بهذه المناسبة ، دعاه « الشمس المشرقة » ، أظهر فيه كيف أن أمة شرقية ، مثل اليابان ، يمكنها تجديد نفسها والوصول الى النجاح• وكتب حافظ ابراهيم (١٨٧٣ ــ ١٩٣١) ، شاعر النيل ، الذي تبنى الاصـلاح الاجتماعي في كتابه « ليالي سطيح » (وهو مجموعة مناقشات بين عدد من أبناء النيل ، وبينهم وبين الفيلسوف الناسك سطيح ، الذي تخيله ، انتقد فيها المجتمع المصري ، ووصف له الدواء) كتب معلقا على انتصار اليابان بقوله :

أتى علــى الشرقي حــين اذا   ما ذكــر الاحيــاء لا يذكــر
حتــى أعــاد الصفر أيامــه   فانتصف الاســود والاســمر

وقد شجع انتصار اليابان الحركات الوطنية في فارس ، حيث حدثت ثورة ضد الشاه في ١٩٠٦ ، وفي الامبراطورية العثمانية ، حيث حدثت الثورة في ١٩٠٨ •

وقد أثار الحركة الوطنية في مصر حادثان آخران في ١٩٠٦ : أولهما : نزاع بريطانيا مع الدولة العثمانية ، حول منطقة قرب خليج العقبة ، رفض الانكليز الحاقها ببلاد الشام العثمانية • وقد عارض مصطفى كامل وبعض المصريين موقف بريطانيا، فيما عرف بحادثة الطابة هذه • وكان هدفهم كسب التأييد العثماني ضد الاحتلال الانكليزي • أما الحادث الآخر والاهم فهو مأساة دنشواي(٤٨) ، وهي بلدة تابعة لمركز شبين الكوم بالدلتا أصيبت فيها امرأة وأتلفت الغلال ، أثناء قيام بعض الضباط الانكليز بالصيد في ١٣ حزيران ١٩٠٦ • فثار الفلاحون وجرحوا أحد الضباط ، الذي توفي اثر ضربة شمس ، وحكم على أربعة مصريين بالاعدام ، ونفذ الحكم مكان الحادث ، وسجن آخرون • وقد ثار الشعب لهذه الفظاعة ، وأثار مصطفى كامل الرأي العام الاوربي ضد الاحتلال ، وألهب شوقي مشاعر الشعب حين قال في هذه الحادثــة :

يا دنشــواي على ربــاك سلام   ذهبت بانس ربوعــك الايــام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا   هيهات للشمــل الشتيت نظــام
مرت عليهم في اللحــود أهلــة   ومضى عليهــم في القيود العام
يا ليت شعري في البروج حمائم   أم في البــروج منيــة وحمــام
نيرون لو أدركت عهــد كرومر   لعرفت كيــف تنفــذ الاحكــام

حتى أن كرومر نفسه ، الذي كان غائبا عن مصر آنذاك ، كتب يقول : « اني أعترف أن الاحكام كانت قاسية جدا بدون ضرورة »(٤٩) • وأدرك الانكليز نقمة الشعب المصري ، فأرادوا انتهاج سياسة جديدة كان من أولى ثمارها احالة كرومر على التقاعد ، في نيسان ١٩٠٧ ، بعد أن حكم مصر أربعة وعشرين عاما •

وفي تشرين الاول ١٩٠٧ شكل الوطنيون المتطرفون ، بزعامة مصطفى كامل ، حزبا أسموه : الحزب الوطني[٥٠] • ولاعلاقة لهذا الحزب بالحزب الوطني ، الذي شكل أثناء فترة عرابي واندثر • ودعا مصطفى كامل الى مقاومة الاحتلال والى اعتماد شعب مصر على نفسه في ذلك ، بعد أن خاب ظنه في مساعدة كل من فرانسا والدولة العثمانية والخديوي • وفي سبيل تحقيق الاستقلال طالب بوحدة أبناء البلاد ، وقال ان الدين الصحيح يعلم الوطنية الصحيحة • ولكن موته المبكر حرم الحركة الوطنية من أحد عمالقتها ، وخلفه في رئاسة الحزب محمد فريد[٥١] • ويمتاز بخبرته الواسعة ، التي اكتسبها في أوربا ، في التنظيمات الشعبية • وقد طالب بتعميم التعليم الابتدائي ومجانيته ، ولفت الانظار الى الضرائب المجحفة التي ترهق الفلاحين ، وشرح أهمية وضرورة تنظيم العمال في النقابات[٥٢] وأشار الى الدور الهام الذي تلعبه نقابات العمال في أوربا •

وعلى نقيض الحزب الوطني ، الذي دعا الى عدم مهادنة الاحتلال ومن هنا قاعدته الشعبية الكبيرة ، فقد دعا حزب الامة ، الذي انشيء قبل الحزب الوطني بأسابيع الى الاعتدال والتعاون مع الاحتلال ، مشيرا الى الفوائد التي يمكن بلوغها من ذلك ، عوضا من معارضة شيء لا يمكن التخلص منه • وكان الامام محمد عبده قد دعا من قبل الى مثل هذه الافكار • وقد لعب الانكليز دورا هاما في انشاء هذا الحزب لمقاومة الحركة الوطنية المتطرفة • وكان حزب الأمة يتكون من الملاكين الزراعيين وبعض المثقفين الذين التقت مصالحهم ، اقطاعا وثقافة ، مع الاحتلال • وكان لهذا الحزب صحيفة تنطق باسمه هي « الجريدة » ، ويرئس تحريرها أحمد لطفي السيد • وكان بين أعضاء حزب الامة المؤسسين محمود سليمان باشا ، وحسن عبد الرزاق ، وحمد الباسل ، وعبد الخالق ثروت باشا • وضم كذلك سعد زغلول • واهتم أفراد هذا الحزب بالزراعة والصناعة ، وطالبوا بالتحرر من الاقتصاد البريطاني ليحلوا محله • فقد خيب ظنهم التقرير الذي نشره كرومر ، بعد مغادرته مصر ، وقال فيه بعدم أهلية مصر للاستقلال • وبالتدريج ، تحول هذا الحزب الى مقاومة الاحتلال ، واقتضت مصلحته المطالبة بالدستور والاستقلال ، لكي لا يفقد الزمام لمصلحة الحزب الوطني • واذا كان نفوذ الحزب الاخير قد تضاءل بعد وفاة

مصطفى كامل ، فان حزب الامة ازداد قوة ، حين انقلب الى حزب الوفد ، اثر الحرب العالمية الاولى ، وتسلم قيادته سعد زغلول •

وتشكل حزب ثالث ، في تشرين الاول ١٩٠٧ ، يمثل مصالح الخديوي ، وسمي حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية • وكان بزعامة الشيخ علي اليوسف ، صاحب جريدة « المؤيد » ، التي أصدرها في عام ١٨٨٩ ، بعد أشهر من صدور جريدة « المقطم » التي كان يمولها الانكليز • وقد دعا على صفحاتها الى التعاضد الاسلامي • ورغم وطنيته في الظاهر الا أنه كان في حقيقته رجعيا ، وقد دعا الى اقناع بريطانيا بالجلاء وليس الى اخراجها بالقوة ، كما قال مصطفى كامل • وكان الشيخ علي اليوسف كل شيء في هذا الحزب • ومما يدل على تناقض تفكيره ومنهاجه دعوته الى حكومة دستورية ، كما نص اسم الحزب ، وعمله في الوقت ذاته لسلطة الخديوي المستبدة • ويدل على موالاة الحزب للخديوي مادة دستوره الاولى التي نصت على دعم سلطة الخديوي ضمن حدود فرمانات السلطان • وليس أدل على سطحية هذا الحزب وعدم ارتباطه بمصلحة الجماهير من تلاشيه اثر وفاة مؤسسه في عام ١٩١١ (٥٣) •

والجدير بالملاحظة أن لكل حزب صحيفته ، وللاحتلال كذلك صحفه • ويدل هذا على أن الحركة الوطنية كانت في أساسها حركة مدن ، ومن صنع أقلية مثقفة ، لان حوالي ثمانين بالمائة من أهالي مصر كانوا أميين آنذاك • وربما لهذا السبب سمح الاحتلال الانكليزي بصدور الصحف بهذه الكثرة بسبب انتشارها المحدود من ناحية ، ولاعطاء الصفة التحررية لحكمه من ناحية أخرى • ولكنه أدرك أن المقاومة لا تقاس بعدد أفرادها ، وقد أصدر قانون المطبوعات ، في عام ١٩١٠ ، للقضاء على حرية الصحافة •

وتحت ضغط الحركة الوطنية فشلت محاولة تمديد امتياز قناة السويس مدة أربعين سنة بعد انتهائه في عام ١٩٦٩ • وابتدع كتشنر فكرة الجمعية التشريعية في عام ١٩١٣ ، لعرقلة مسيرة الحركة الوطنية ، وتنص على دمج مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بقصد السيطرة عليها بصورة أكبر • وتتألف من أعضاء

قانونيين هم الوزراء ، وأعضاء منتخبين ، وأعضاء معينين ، وعقدت آخر اجتماعاتها في حزيران عام ١٩١٤ ، ثم توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الاولى •

وكانت مصر ما تزال تعد قانونيا ولاية عثمانية ، وهذا يقتضي أن تكون في حالة حرب مع بريطانيا اذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا • وشعر الانكليز أن الوطنيين سيفيدون من هذا التناقض ، كما خشوا الدعوة الى الجهاد التي سيثيرها السلطان • وأعلنت الحرب بين الدولة العثمانية وبريطانيا في ٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وفرضت بريطانيا الحماية على مصر في ١٨ كانون الاول عام ١٩١٤ ، وأزالت سيادة الدولة العثمانية عليها • واعلن ، في اليوم التالي ، خلع الخديوي عباس الثاني ، وتنصيب عمه الامير حسين كامل ، ابن اسماعيل ، بلقب سلطان •

الحركة القومية في المشرق العربي : لاحظنا ، خلال دراستنا لبلدان المشرق العربي ، في القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ، كيف أن العثمانيين فتحوا هذه البلدان وأخضعوها بقوة السلاح • وحين أخذت الدولة العثمانية بالضعف ، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بدأت الثورات المحلية بالانتشار ضدها ، أولا في صفوف العساكر ، ثم بين الامراء المحليين • حتى اذا ما استفحل الضعف العثماني وغدا انحطاطا ، في القرن الثامن عشر ، اتسعت قاعدة التحدي ووصلت الثورات الى المستويات الشعبية في المدن والارياف • كما ظهرت الاسر المحلية الحاكمة ، مثل آل العظم والزيادنة ، الى جانب ازدياد نفوذ البدو في البادية وفي أطراف المدن • وازدادت الهوة اتساعا ، بين العثمانيين والعرب ، في القرن التاسع عشر ، اثر احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ، ونتيجة لانتشار الفكرة القومية •

وقد رأينا كيف أن سكان بلاد الشام قد ثاروا على حكم محمد علي باشا ، ولعبوا دورا هاما في اجلائه عن بلادهم ، مما أكسبهم كثيرا من الثقة بالنفس ، ونشر بينهم بذور التحرر والقومية • وتبين لهم ضعف الامبراطورية العثمانية ، لا بالنسبة لدول اوربا فقط ، بل بالنسبة لمحمد علي نفسه • وأظهرت لهم تسع سنين من الانفصال عن العثمانيين امكانات لم يحلموا بها من قبل ، فاستتب الامن ،وابتعد خطر البدو ،

وازدادت المساحات المزروعة ، ونشط الاقتصاد ، بصورة عامة ، وافتتحت المدارس ، المصرية منها والتبشيرية ، واعتز الناس بحمل السلاح ، سواء في الخدمة في جيش محمد علي أم في الثورة عليه •

ورأينا كيف انقلبت ثورة الفلاحين التحررية على الاقطاع ، في جبل لبنان ، الى حرب طائفية ، أثارها الاقطاعيون والدولة العثمانية والتدخل الاوربي ، وسرعان ما امتدت الى بلاد الشام مستفيدة من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية التي وجدت فيها ، حيث ازدهرت طبقة بورجوازية تجارية غير مسلمة أثارت كره الطبقات الدنيا الجاهلة والمستغلة • وأدرك عدد من المفكرين العرب ، وبخاصة في لبنان ،الذي مزقته الحرب الطائفية ، خطورة هذه الظاهرة ، ودعوا الى رابطة عربية تجمع بين المواطنين ، على اختلاف مذاهبهم • واستوحي التاريخ المشترك والمنجزات الحضارية العربية المشتركة ، التي أسهم فيها الناطقون بالعربية ، من كافة المذاهب ، لجمع أبناء الامة وراء هدف واحد ، يؤكد الهوية القومية للعرب ، كخطوة اولى في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم •

وككل الامم التي تتلمس وحدتها القومية وتحاول ، في الوقت نفسه ، التخلص من المستعمر ، بدأت الدعوة ، من خلال الادب العربي ، الى كشف ماضي الامة ومنجزاتها والاشادة بعظمة لغتها التي تحدت لغة الحاكم الغريب لاكثر من سبعمائة سنة (منذ قيام السلطنة المملوكية في ١٢٦٠ على الاقل) ، وكذلك محاولات اللهجات المحلية والعامية النيل منها ، مما أكسبها الثقة بالنفس وأكد شخصيتها من جديد •

ومن الادباء الذين عملوا على احياء الادب العربي وعرفوا اخوانهم بعظمة الحضارة العربية ، ونبهوهم بالتالي الى قضاياهم الاساسية ، نذكر ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، وبطرس البستاني[٥٤] •

ولد ناصيف اليازجي عام ١٨٠٠ في لبنان ، ودرس على الطريقة التقليدية التي لم تنجح في اثارة مواهبه ، فتحول الى المخطوطات في الاديرة يطالعها بشغف • وتعرف الى عظمة التراث القديم • وأصبح شغله الشاغل بعد هذا احياء الماضي • فقد

أثار جمال الادب الديني ذلك العربي الكامن في نفسه ، فألف الكتب المدرسية في العلوم العربية ، وعم انتشارها الى ما بعد وفاته في عام ١٨٧١ . وبعد أن ترك خدمة الامير بشير الثاني الشهابي ، في عام ١٨٤٠ ، انقطع الى قريته ، قرب بيروت ، يعلم اللغة العربية التي لم يتقن سواها ، ويعقد الحلقات الادبية للعرب ، من كافة المذاهب. وتظهر مقاماته ، التي أصدرها في كتابه « مجمع البحرين » ، وقلد بها الحريري ، معرفته القوية باللغة العربية . وكان معظم كتاب العربية في القرن التاسع عشر من تلاميذه بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ثم تلاه ابنه ابراهيم اليازجي ، الذي تغنى بأمجاد العرب ، ودعا الى التسامح الديني بقصائده . وكان لقصيدته التي أهاب فيها بالعرب أن يتنبهوا ويستفيقوا أصداء واسعة .

أما الشخصية الادبية الاخرى فهي بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣) . ويختلف عن اليازجي بسعة ثقافته وبالمامه بعدة لغات أجنبية ، الى جانب العربية . وقد درس في مدرسة عين ورقة المارونية ، وانصرف الى التعليم بعد ذلك . كما أنه اعتنق البروتستانتية ، واحتك بالارساليات الغربية ، وأسهم في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية . وقبل انهاء الترجمة عكف على تأليف قاموس للغة العربية ظهر في جزئين في ١٨٧٠ بعنوان « محيط المحيط » ، واختصره الى « قطر المحيط » ، لكي يصبح بمتناول الطلاب . ثم انتقل الى وضع موسوعة عربية باسم «دائرة المعارف»، ظهر منها ستة مجلدات قبل موته ، وأتمها أولاده وبعض أفراد أسرته بعد ذلك ، وظهر منها أحد عشر جزءا بمجموعها . وكان بطرس البستاني قد أسس ، في عام ١٨٦٣ ، المدرسة الوطنية التي قامت على الفكرة الوطنية وليس الدينية . وقد أيد الاقتباس عن الغرب ، شريطة ملاءمة ذلك للاوضاع المحلية . وقال ان أوربا تعلمت في الماضي من العرب ، ولا يضيرهم أن يتعلموا منها . واتخذ من الحديث المنسوب الى النبي العربي ، « حب الوطن من الايمان » ، شعارا لاشهر صحفه الاسبوعية على الاطلاق ، « نفير سورية » ، التي اصدرها ، في ١٨٦٠ ، في أوج الحرب الطائفية. وكانت أول جريدة في سورية تدعو الى وحدة الصف وجمع الكلمة بين الطوائف . وخاطب ، من خلالها ، أبناء الوطن ، ووقع مقالاته باسم محب الوطن . والوطن الذي عناه هو سورية بكاملها ، أي بلاد الشام ، حيث يجب على السوريين ، في سبيل

ازدهارهم ، أن يعيشوا بوئام ، يحترم أتباع كل مذهب أتباع المذهب الآخر • وأصدر بطرس البستاني ، في عام ١٨٧٠ ، « الجنان » ، وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية ، استمرت حتى عام ١٨٨٦ • كما أصدر « الجنة » ، وكانت هي الاخرى نصف شهرية ، و « الجنينة » ، التي استمرت ثلاثة أشهر •

وقد لعبت الصحافة السياسية والمجلات العلمية دورا هاما في نشر الفكرة القومية في القرن التاسع عشر • ويذكر ان ابراهيم اليازجي قد أصدر مجلتي « البيان » و « الضياء » ، في عام ١٨٨٣ • وصدرت ، قبل ذلك ، جريدة « الأحوال » في الشام عام ١٨٥٥ • وكانت أول صحيفة عربية صدرت في بيروت هي « حديقة الأخبار » ، وذلك في عام ١٨٥٧ • وفي عام ١٨٦١ أصدر أحمد فارس الشدياق في استانبول جريدة اسبوعية باسم « الجوائب » واستمرت في الصدور حتى عام ١٨٨٤ • وكان أحمد هذا مسيحيا في الاصل ، وشقيق الاخباري طنوس الشدياق • وقد ألف كتابا عنوانه « الساق على الساق فيما هو الفرياق » ، يحوي نقدا اجتماعيا ومقدرة فائقة باللغة العربية • أما « الجوائب » فكانت أشهر الصحف العربية آنذاك ، وانتشرت حيثما انتشرت اللغة العربية ، وعنيت بالسياسة الدولية • واستغل السلطان العثماني هذه الجريدة لاعلان سياسته الاسلامية على الرأي العام العربي • وفي عام ١٨٦٩ أصدر الآباء اليسوعيون في بيروت جريدة أسبوعية باسم « البشير » وأصدروا كذلك في عام ١٨٩٨ مجلة علمية نصف شهرية دعيت « المشرق » ، ومازالت حتى الآن • وأصدر مسلمو بيروت ، في عام ١٨٧٤ ، جريدة أسبوعية باسم « ثمرات الفنون » ، ورد عليها ، في الوقت نفسه باصدار جريدة « التقدم » ، وقد اشترك في تحريرها نخبة من الشبان التقدميين ، مثل أديب اسحق • وفي عام ١٨٧٧ أسس خليل سركيس ، صهر بطرس البستاني جريدة نصف شهرية باسم « لسان الحال » ، وتحولت الى يومية منذ ١٨٩٤ • وأسس الموارنة في ١٨٨٠ جريدة « المصباح » ، والبروتستانت « كوكب الصبح المنير » ، والارثوذكس « الهدية » • وأصدرت السلطة العثمانية في بيروت ، في عام ١٨٨٦ ، جريدة باسم « بيروت » لتنطق باسمها • ومع تعدد ولاءات هذه الصحف فقد اسهمت في نشر الثقافة وأغنت الفكر العربي بمناقشاتها وأبحاثها على الرغم من أنها كانت لاتخلو من

الهجوم الواحدة ضد الاخرى • وسهل ظهور هذه الدوريات انتشار المطابع • وهكذا تكون المطبعة قد لعبت دورا هاما ، في نشر التراث العربي ، واعادة الثقة الى نفوس العرب ووضعهم وجها لوجه أمام العثمانيين والأوربيين • كما أنها فتحت أعين العرب على حاضرهم المرير ونبهت حيويتهم التي أثقلها الجهل ، كما عملت على التقريب بينهم بنشر الكتب واصدار الصحف بلغة سهلة لاتخرج عن الفصحى•

والى جانب المجهود الفردي للأدباء ، وبث الافكار عن طريق الصحف ، فقد ظهرت في هذه الفترة ، أي حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، فكرة العمل المشترك ، عن طريق الجمعيات ، لنشر الثقافة والوعي القومي • وظهرت أول جمعية علمية في بيروت عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الآداب والعلوم » ، وضمت بين أعضائها بطرس البستاني وناصيف اليازجي ، صاحب الفكرة ، وبعض المبشرين الأجانب ، واقتصرت عضويتها على المسيحيين فقط • ودامت هذه الجمعية خمس سنوات أصدرت في نهايتها سجلا بما قامت به من أعمال واذا كانت هذه الجمعية قد ظهرت بإسهام المبشرين الاميركيين ، فقد قامت ، في عام ١٨٥٠ ، « الجمعية الشرقية » بجهود اليسوعيين ، وتتشابه مع الجمعية السابقة بهوية أعضائها المحليين وباجتماعاتها ، وانحلت تقريبا في زمن سابقتها • ويلاحظ على الجمعيتين السابقتين أنهما لم تمثلا عناصر السكان كلها ، الذين توجسوا شرا من وجود الأجانب فيهما • ثم مالبثت عناصر الشعب ، على اختلاف مذاهبها ، أن تمثلت بجمعية جديدة ، هي « الجمعية العلمية السورية » ، التي ظهرت عام ١٨٥٧ ، بالرغم من أن هذا التاريخ هو زمن الحوادث الطائفية التي أثارها واستغلها الأجانب والعثمانيون • وارتفع عدد اعضائها الى مائة وخمسين ، نذكر منهم محمد أرسلان الدرزي ، وحسين بيهم السني ، وابراهيم اليازجي المسيحي • واعترف بها رسميا عام ١٨٦٨ ، واتسعت عضويتها فشملت شخصيات عربية من استانبول والقاهرة • والتقت الطوائف المختلفة ، لأول مرة بعد ثلاثمائة وخمسين عاما من الحكم العثماني ، حول أهداف ومثل واحدة تسعى الى تطوير البلاد ناهلة من التراث المشترك الأصيل • ويمثل ظهور هذه الجمعية بحق أول تعبير فعلي عن الوعي القومي • وهكذا زرعت بذور الوطنية ، ونشأت حركة عربية الايحاء ، قومية المثل ، لا طائفية ، وستكون السنون

الأربعون التالية قصة طفولتها ونشأتها • وبالرغم من اضطهادها ، زمن السلطان عبد الحميد الثاني ، وظهور بوادر الضعف عليها ، كانت حية تسير وئيدا الى أهدافها •

وقبل ان ننتقل الى النشاط السياسي العربي ، الذي أعقب النشاط الأدبي ، وتجلى بقيام عدد من الجمعيات المعتدلة والمتطرفة ، العلنية والسرية ، يجدر بنا ان نعرف أين تقف الحركة العربية هذه من تياري الفكر اليساري العلماني والفكر اليميني الديني •

ولاشك ان الحركة العربية أفادت من الاتجاهين دون ان تذوب في أي منهما• وفي الواقع فانها كانت صلة الوصل بين الاتجاهين اللذين عملا ، كل باسلوبه ، على تقويتها ، وعملت هي بدورها على استقطابهما نحوها ، وجعلتهما ، بالتالي ، يعملان لهدف عربي واحد ، وان اختلفت الوسائل • واشتهر في الجانب اليساري العلماني كل من فرنسيس مراش وشبلي شميل وفرح أنطون ، بينما اشتهر بين دعاة الاصلاح الديني من العروبيين عبد الرحمن الكواكبي • وكان هذا حلقة الوصل ، في مجال الفكر الديني ، بين الحركة العربية اللاطائفية والحركة الدينية اليمينية السلفية الداعية للجامعة الاسلامية والتي تمثلت في مصر بجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، وفي الشام بمحمد رشيد رضا •

كان فرنسيس فتح الله مراش الحلبي (١٨٣٦ ــ ١٨٧٣) ، من أوائل المفكرين العلمانيين العرب في بلاد الشام ، الذين دعوا الى التحرر والعلم والحضارة • وقد ولد في حلب ، من أسرة انتجت عددا من الأدباء ، ثم سافر الى باريس حيث درس الطب • وعاد الى حلب لممارسة مهنته ، ولكنه كان معتل الصحة • وقد ترك كتابين: « غابة الحق » ، الذي ألفه في باريس ، و « مشهد الأحوال » ، الذي وضعه في حلب[٥٥] • وكان كتاب «غابة الحق» على شكل حوار ، تدور موضوعاته حول اقامة « مملكة الحضارة والحرية » • ويبدو فيه أثر الفكر الأوربي المعاصر ، حين دعا الى الحرية والمساواة والقضاء على الرق • وقال ان العرب يحتاجون قبل كل شيء الى مدارس حديثة و « حب للوطن خال من الاعتبارات الدينية » •

واهتم فرنسيس مراش بمفهوم المدنية ، وعدها ضرورية ليصل الانسان الى تكامل أوضاعه المادية والخلقية • وقال ان المدنية لا تتوافر الا اذا توافر لها عدد من الشروط ، أولها التربية السياسية • وهذا يعني أن على الحاكم ان يعد لمنصبه بصورة مناسبة وأن يحوز الصفات الفكرية والخلقية والضرورية • ومن الشروط الأخرى أن يتساوى الجميع أمام القانون بدون استثناء ، وأن يكون الصالح العام هدف الحكومة • وان ينمى الفكر وتطور العادات الاجتماعية والخلقية ، وأن تتوافر النظافة في المدن وحسن البناء • وقد آمن مراش بالديمقراطية وبحق الشعب ، الذي هو أساس الحكم ، وقال في ذلك : «لماذا يوجدحق لاصوات الاغنياء ، فترن في قاعات السياسة ولا يوجد الحق لأصوات بقية الشعب ، الذين هم الجانب الأكبر والأهم ، والذين تقوم بواسطتهم سطوة الممالك وقوات الملوك ، وعليهم يتوقف مدار السياسات»[٥٦] • ودعا الى المساواة « ومعاملة الجميع علىحد سواء •• فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة ، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة• فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر أرباب الغنى ، ولم تحرس أموالهم ، ولم تقم قصورهم العالية ، وسرادقهم المشيدة »[٥٧] •

عاصر فرنسيس مراش سوري وطبيب آخر يدعى شبلي شميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) • وجمع بين الاثنين أن أفكارهما العلمانية لم تكن واقعية في زمنهما ، ولكنها تنبىء ، بدون شك ، بميلاد تيار جديد من التحرر في الوطن العربي ، أخذ يقوى ويزداد أهمية على مر الزمن • وقد ولد شبلي في بلدة كفرشيما ، التي كانت تابعة لولاية الشام ، كما يذكر هو نفسه ، ودرس الطب في الكلية البروتستانتية السورية ، ثم سافر الى باريس لمتابعة دراسته ، واطلع فيها على نظرية التطور لداروين ، التي كانت مدار نقاش في أوربا آنذاك • واستقر في مصر ، بعد عودته من فرانسا ، وكتب في معظم مجلاتها ، ونشرت مقالاته في كتاب بعنوان : « مجموعة الدكتور شبلي شميل » • واشتبك شميل في جدال عنيف مع الاوساط المسيحية والمسلمة ، بما في ذلك الأفغاني ، واتهم بالالحاد بسبب كتابه : « فلسفة النشوء والارتقاء » الذي يظهر تأثرا بداروين • وكتب كتابا آخر بعنوان : « شكوى

وأمل » ، وجهه الى السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٨٩٦ . وقد أجمل فيه مايراه خطأ في الامبراطورية العثمانية وقال ان ثلاثة أشياء تعوز الامبراطورية : العلم ، والعدل ، والحرية ، وان العلم أهمها لأنه مفتاح سر الكون ، ويقوم على وحدة جميع الكائنات الحية ، ويحرر الانسان من أنانيته .

وكان شبلي شميل قانعا بأن شكل الحكومة عامل اساسي في تطور الأمة . وقال بأن حكومات الشرق هي المسؤولة عن الانحطاط الخلقي في بلادها . ولاشك أن مثال حكومة السلطان عبد الحميد كان له الأولوية في قوله . وأعتقد أن الفرق بين أمم الغرب وأمم الشرق هو أن الأولى تحكمها قوانينها ، بينما يحكم الثانية حكامها ، الذين هم فوق القوانين ، وان هؤلاء بحكمهم الاستبدادي وتكريسهم الجهل قد أماتوا في نفوس الناس صفات الكرامة والمبادرة . وقال ان الاستبداد يعلم الناس التملق والرياء ويحولهم الى أرقاء ، ولكنه اعتقد بانتصار الشعب في النهاية وبسقوط الاستبداد . وكلما ارتقت الامة على طريق الحضارة ، ارتقى شكل حكومتها ، ولا يتوقع ان تكون الحكومة أحسن من الامة التي انبثقت عنها[٥٨] .

لقد آمن شبلي شميل بقوة الجماهير ، ودهش لفشل ثورة عام ١٩٠٨ ، في الامبراطورية العثمانية ، في تحقيق أي تبدل جذري ، وعزا ذلك الى عدم دعم الجماهير لها عمليا . وكان قد أيد جمعية تركيا الفتاة ضد السلطان عبد الحميد ، لانها تدافع عن الحرية ، وعن الوحدة الاجتماعية ، التي تتجاوز الاختلافات الطائفية، وعن نشر التعليم . وعندما ينتشر التعليم ، كما يقول شميل ، تأتي أيام الطغاة الى نهايتها . وأقر شبلي شميل بضرورة الثورة في بعض الاحيان ، شريطة ان تكون نابعة من الحاجة العميقة للكثرة من الناس . وثورة الشعب لاتقهر لأنها ليست من عمل قلة متآمرة .

واعتقد الشميل بحتمية الاشتراكية وقال : « ان الاشتراكية نتيجة لأزمة لمقدمات ثابتة لابد من الوصول اليها ، ولو بعد تذبذب طويل،الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها»[٥٩] . وكان يطلب من الحكومة في الدولة الاشتراكية التي دعا اليها أن تتدخل ايجابيا لتحقيق التعاون بين المواطنين في سبيل الصالح العام ، ويجب عليها ايجاد العمل لمن يستطيعه ، وتأمين الاجور المتكافئة ،

وتحسين الصحة العامة . وهدد أصحاب رؤوس الأموال « الذين جمعوا بذكائهم ودهائهم الاموال على ظهور العمال » بـ « ثورة » العمال القائمة اليوم والتي سيكون هولها أشد من تلك (الثورة الفرنسية) وان لم تدفع بالحكمة لانحصار تلك في بقعة من الارض وفي شعب من الشعوب، ولانتشارها في كل العالم المتمدن»[٦٠].وقد هاجم شميل التعصب الديني ، الذي فرق بين الناس وأضعف بناء المجتمع بكامله . وقال ان اوربا أصبحت قوية عندما حطم الاصلاح الديني والثورة الفرنسية سيطرة رجال الدين على المجتمع . ولكن شميل ، وهو المسيحي ، هرع للدفاع عن الاسلام حين وجه اللورد كرومر في مصر الانتقادات اليه .

ومن الذين نادوا بالعلمانية واعتماد العلم كأساس لنهضة العرب الكاتب فرح أنطون (١٨٧٢ ــ ١٩٢٢) ، من طرابلس الشام . وقد نزح الى مصر في ١٨٩٧ ، برفقة صديقه محمد رشيد رضا ، وأمضى حياته فيها وفي نيويورك يعمل في ميادين الصحافة والترجمة، والكتابة الاجتماعية بصورة عامة . وكان أشهر أعماله اصدار مجلة « الجامعة » في مصر ، ونشره كتاب « ابن رشيد وفلسفته » ، وفيه عرض آراءه في السياسة والمجتمع . واختياره الكتابة عن ابن رشد أمر له دلالته ، فهو يدل ، الى جانب اقتفائه اثر استاذه رينان ، على تبنيه آراء ابن رشد ومحاولته نشرها في سبيل مجتمع متآخ يعتمد على العقل ولا تمزقه النزاعات بين الطوائف . وقال لو بحثنا عن المبادىء الاساسية في الديانات لوجدناها متشابهة . ودعا الى فصل السلطة الدينية عن الزمنية ، لأن هدف الدولة الحفاظ على الحرية الانسانية ضمن حدود الدستور ، ولأن المجتمع الصالح يقيم المساواة بين أبناء الامة . وقال ان مزج الدين بالسياسة يضعف الدين نفسه لانه يزج به في ميدان الحياة السياسية ، ويعرضه الى مخاطرها . وقد دخل في مناقشات طويلة ، وأحيانا عنيفة ، مع محمد عبده حول كيف يجب أن تكون العلاقة بين الدين والدولة . وكتب محمد عبده كتابه « الاسلام والنصرانية» ليظهر أن الاسلام دين ودنيا . ولم يوافق فرح انطون محمد عبده في قوله ان الاتراك قد هدموا وحدة الاسلام وقوته ، وان هذه [illegible] استعادتها بنقل مركز الثقل الديني ، أي الخلافة ، الى العالم العربي . وهاجم فرح انطون الاستبداد ،

وقال ان الحاكم يجب ألا يحكم وفق رغباته ، بل بموجب القوانين التي وضعها ممثلو الشعب على اختلاف طوائفه .

وآمن فرح انطون ، مثل شبلي شميل ، بالاشتراكية العلمية التي وحدها توصل الشعب الى تحقيق الحرية والعدالة والمساواة . والدولة التي ترتكز على هذه المبادىء تحقق القوة الوطنية والسلام بين الشعوب(٦١) .

وعلى نقيض هؤلاء المفكرين المتحررين العلمانيين ، وقف سوري آخر هو محمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥) ، يدعو ، على غرار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، الى بعث الامة الاسلامية وتطبيق مبادىء الاسلام الاولى ، في عهد السلف الصالح ، والى الملاءمة بين العلم الحديث وقواعد الدين . ولكنه ، على نقيضهما ، آمن بالقومية العربية تجمع بين أبناء الأمة الواحدة .

ولد رشيد رضا في عام ١٨٦٥ ، في طرابلس الشام ، وبدأ تعليمه على الطريقة التقليدية ، ثم انتسب الى المدارس الحديثة في طرابلس ، حيث تعلم بعض العلوم الحديثة بالاضافة الى اللغة الفرنسية . وفي عام ١٨٩٧ ذهب الى مصر ، حيث حصل على درجة العالمية ، وأمضى هناك بقية حياته يصدر جريدة « المنار » ، التي استمر يصدرها مع بعض الانقطاع ، بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٣٥ . وقد ترك عددا من الكتب، كان بعضها مجموعة مقالات نشرها على صفحات « المنار » . ومن أشهر مؤلفاته كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » ، الذي ترجم فيه لاستاذه محمد عبده . ويؤرخ هذا الكتاب بحق للفكر الاسلامي العربي في القرن التاسع عشر . ومن كتبه المشهورة كتاب « الخلافة » الذي وصف بأنه أحسن عرض موثق للنظرية الاسلامية في الدولة منذ ظهور كتاب « الاحكام السلطانية » للماوردي ، قبل قرابة تسعة قرون .

تأثر رشيد رضا أشد التأثر بتعاليم محمد عبده ، الذي زار طرابلس أكثر من مرة ، وشده اليه شعور من عدم الرضا بالوضع الذي وصلت اليه البلاد الاسلامية والرغبة باصلاح ذلك . وأصبح رضا الزعيم الروحي للحركة السلفية ، التي دعا اليها من قبله الافغاني وعبده ، ونادت بالعودة الى السلف الصالح ، حين كانت الخلافة العربية في الأوج . وقد تساءل رشيد رضا عن أسباب تخلف العالم الاسلامي

آنذاك في مجال العلم والحضارة ، وذلك ليس فقط بالمقارنة مع اوربا ، بل مع المسيحيين الشرقيين ، الذين ، بعد قرن من الاحتكاك بالحضارة الغربية سواء عن طريق المدارس أم التجارة ، أصبحوا رواد النهضة • وقال لو اتبعت تعاليم الاسلام بشكلها الصحيح فستؤدي الى النجاح في هذه الدنيا وفي الآخرة • وأنشأ دار الدعوة والارشاد في القاهرة لتهيئة الدعاة والموجهين الدينيين المسلمين • وكونه من بلاد الشام ، التي وصف المصريون المهاجرين منها الى مصر بالدخلاء ، أبقاه على هامش الحياة السياسية في مصر ، ولكن انتسابه الى محمد عبده جعله يقوم بدور فيها • وبعد أن انتقد ، على غرار محمد عبده ، الأسرة العلوية ، عاد وتصالح معها ، ومن هنا دعم الخديوي لدار الدعوة التي انشأها • واقتضى وقوفه الى جانب الخديوي تأييده لعلي اليوسف ، الناطق باسم الخديوي ، ومهاجمته لمصطفى كامل والحركة الوطنية المصرية •

وفي عدد من المقالات في « المنار » وقف رشيد رضا الى جانب العرب ضد العثمانيين ، ونوه بالدور الذي لعبه العرب في الفتوحات الاسلامية ، وأشار الى ازدهار الدين الاسلامي في عهدهم • وقد هاجم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بسبب استبداده ، ودعا الى وحدة جميع العثمانيين لاستبدال حكومة الشورى بالحكم الاستبدادي ، وفقا لتعاليم الاسلام • وحين قضت ثورة تركيا الفتاة ، في عام ١٩٠٨ ، على استبداد عبد الحميد وأجبرته على اعادة الدستور ، أيدها رشيد رضا ، وغيره من العرب ، على أمل تحقيق علاقات أفضل • ولكن تحول الحكومة التركية الجديدة الى تبني القومية الطورانية ، التي تعود الى ماقبل الاسلام ، وتتنكر للاخوان في الدين ، جعل العرب يعارضونها ، واستمال رشيد رضا الى جانب مطالب العرب في الحصول على الحكم الذاتي ، ضمن الاطار العثماني • وقدأسهم في تشكيل حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة • كما انه أنشأ جمعية شبه سرية تسمى « جمعية الجامعة العربية » ، تهدف الى ايجاد نوع من الوئام بين ملوك الجزيرة العربية ، بغية فرض ضغط أكبر على الأتراك لمصالح العرب • وأصبح للقضية العربية المكانة الاولى على صفحات « المنار » •

وقد لعب رشيد رضا ، ابان الحرب العالمية الاولى ، دورا فعالا في الدفاع عن

استقلال العرب • ووجد في سياسة التتريك التي اتبعها جمال باشا خطرا على العرب ولغتهم ولذلك أهاب رشيد رضا بالعرب بأن واجبهم الديني انقاذ اللغة العربية وان كان ذلك سيؤدي الى مقاومة العثمانيين واضعاف دولة مسلمة شقيقة ، ومايقتضيه هذا من خطر السيطرة الأوربية • وقام رشيد رضا ، في أعقاب الحرب العالميـــة الأولى ، بدور هام في الحركة الوطنية العربية وفي مقاومة الحكم الفرنسي لسورية، وذلك حين اصبح رئيس المؤتمر السوري في ١٩٢٠ ، وعضوا في المؤتمر السوري ـ الفلسطيني المنعقد في جنيف في ١٩٢١ ، وعضوا في اللجنة التنفيذية التي أقامها هذا المؤتمر في القاهرة والتي ناصرت الاستقلال السوري والفلسطيني •

ولا أدل على المفهوم العربي القومي الذي كان ناميا لدى رشيد رضا مما كتبه في « المنار » ، (المجلد ٢٠لعام ١٩١٧ ــ ١٩١٨) ، من أنه أخ في العرق لآلاف تلو الآلاف من العرب ، مسلمين وغير مسلمين • وعندما سئل عن رأيه في القوميـــة الحديثة كتب في « المنار » عام ١٩٣٣ يقول انها ليست سوى وحدة سكان الوطن ، الذين يمكن أن يختلفوا في المذهب ، ولكنهم يظلون يتعاونون في الدفاع عن وطنهم المشترك ، وفي الحفاظ على استقلاله ،وفي استعادته اذا مافقدوه، وفي زيادة رخائه[٦٢] •

ولعله من الطريف أن نعرف رأي رشيد رضا ، الذي عاش طويلا وشهد أحداثا جساما في الوطن العربي والدولة العثمانية والعالم ، في الشيوعية التي ظهرت في موسكو ابان الحرب العالمية الاولى • يقول ان البلشفية اسم آخر للاشتراكية ،وتعني الاشتراكية تحرير العمال من الرأسماليين والحكومات المتعسفة ، وعلى المسلمين أن يأملوا بنجاحها لأنهم هم أيضا عمال ويقاسون من الاضطهاد نفسه ، واذا انتصرت الاشتراكية فسينتهي استعباد الشعوب[٦٣] •

واذا كان الشعور القومي العربي أكثر ظهورا لدى رشيد رضا مما كان عليه الأمر لدى الأفغاني وعبده ، فان هذا الشعور بلغ درجة أكبر لدى عبد الرحمـــن الكواكبي • وفي الواقع يمكننا القول ان تفكير الكواكبي يعد نقطة الوصل بين دعاة الاصلاح الديني وبين أصحاب الاتجاه القومي العربي ، فهو ، كالمصلحين ، دعا الى اقامة الخلافة ، ولكنه اشترط أن يكون الخليفة عربيا لا تركيا • كما أنه يشترك مع دعاة التحرر العلمانيين بقوله باشتراكية متطرفة •

ولد عبد الرحمن الكواكبي في حلب حوالي عام ١٨٤٩ • وقد بدأ حياته المهنية في الصحافة والقانون ، واشترك في عام ١٨٧٨ في تحرير جريدة « الشهباء » وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب • ثم أنشأ بعد عام من ذلك جريدة « الاعتدال ». وشغل الكواكبي عدة وظائف ادارية قبل تسميته رئيسا لبلدية حلب عام ١٨٩٢ • وقد أثار استبداد السلطان عبد الحميد الثاني نقمة عبد الرحمن فرفع صوته بالشكوى والنقد ضد السلطان وضد مستشاره أبي الهدى الصيادي الحلبي مما أدى الى اضطهاده • وأخيرا لجأ الى مصر حيث توفي عام ١٩٠٢ •

وقد خلف لنا الكواكبي كتابين مشهورين : أم القرى ، وطبائع الاستبداد • وقد طبع الكتابان في مصر ووزعت بعض نسخهما سرا في سورية • ويشتمل كتاب أم القرى على وقائع مؤتمر تخيل المؤلف أنه عقد في مكة وضم اثنين وعشرين عالما ، يمثل كل منهم بلدا من بلدان العالم الاسلامي ، وكلهم يحسنون اللغة العربية ، ولهذا أهميته لأنه يعكس لنا تفكير الكواكبي القومي واعتزازه باللغة العربية • وقد هدف المؤلف من تصور وسرد المناقشات التي دارت في المؤتمر الى نقد واقع الشعوب الاسلامية وعرض آرائه الاصلاحية على لسان العلماء المختلفين • واتفق العلماء على أن أسباب المصير الذي آل اليه المسلمون هي دينية وفكرية وسياسية ، فلم يعد الناس يتمسكون بتعاليم الدين كالسابق ، وحل مكان الاعتقاد بحرية الارادة الاستسلام للقدر ، وسخر بعض رجال الدين أنفسهم لخدمة الحاكمين المستبدين ، وسيطر الجهل على السكان ، وحال الجبن الاخلاقي دونهم والمطالبة بحقوقهم ، وأمات الخوف أنفسهم •

أما كتاب طبائع الاستبداد فكان في الاصل مجموعة مقالات تدور حول موضوع الاستبداد ونقد الحكومات المستبدة ، وقد نشرت بمعظمها في الصحافة المصرية • ولم يقصد بالاستبداد حكم الفرد فقط ، بل يمكن للحكومة الدستورية أن تكون مستبدة اذا لم تكن السلطة التنفيذية خاضعة للسلطة التشريعية ، واذا لم تكن هذه مسؤولة أمام الشعب • والاستبداد يسيء الى أخلاق الامة ، لأن الشعب يضطر الى ممارسة الكذب والخداع والنفاق والتذلل [٦٤] ،وتنعدم المحبة،المحبة للبلد وللاصدقاء وحتى للاسرة ، ويحل الخوف والريبة مكان الثقة المتبادلة•وفي عهد

الحكومة الطاغية تتبعثر موارد الأمة ، ويكون نصيب الشعب البؤس والفقر . ويستغل حتى الدين لالهاء الشعب عن واقعه المؤلم . ويقول الكواكبي : «والخلاصة أن المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الامة باسم خدمة الدين ، أو حب الوطن ، أو توسيع المملكة ، أو تحصيل منافع عامة »(٦٥) .

يعد الكواكبي أول مفكر عربي عالج في كتاباته المفهوم الحديث للقومية العربية . وكان أول من تبنى قضية العرب ضد الأتراك . وقد فرق بين مفهوم الحركة العربية وفكرة الجامعة الاسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني وتبناها السلطان عبد الحميد لخدمة أغراضه وابقاء العرب خاضعين له . وانتقد الكواكبي الامبراطورية العثمانية لأنها تتبع سياسة متحيزة تجاه القوميات المختلفة التي تتألف منها . وأشار الى أن العرب ، الذين يشكلون نحو ثلثي سكان الامبراطورية ، محرومون من حقهم في المناصب الحكومية ومن التمتع بواردات مناطقهم . ولهذا رفض الكواكبي فكرة الخلافة العثمانية ، ونادى باعادة الخلافة الى العرب . وقد بنى آراءه في ذلك على الدور الذي لعبه العرب في قيام الاسلام وانتشاره وعلى المكانة الخاصة التي تمتع بها العرب في العالم الاسلامي بحكم لغتهم وتاريخهم .

وأشار الكواكبي الى أن الجزيرة العربية هي قلب العالم الاسلامي ، ولذلك وجب نقل مركز الثقل في هذا العالم من استانبول اليها . وفي حديثه عن العرب في كتابه أم القرى ذكر الكواكبي أنهم « أقدم الأمم اتباعا لاصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب الاجتماعية .. وهم أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية .. ومن أحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة انسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مرؤة » . وفي كلام الكواكبي عن أهمية اللغة العربية ، ذكر أنها «من أغنى لغات المسلمين في المعارف ، [illegible] بصونة القرآن الكريم من أن تموت » (٦٦) .

لقد آمن الكواكبي بالوطن العربي يضم جميع أبنائه ، وبالرابطة القومية تنتظم صفوفهم . ودعا الى التآخي بين الطوائف وتناسي الاحقاد التي أثارها أصحاب الغرض ، وقال : « ياقوم ، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وماجناه الآباء والأجداد ، فقد كفى مافعل

ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم أن لاتهتدوا الى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون » [٦٧] .

وهتف في كتاب طبائع الاستبداد : « لتحي الامة ، ليحيى الوطن ، لنحيى طلقاء أعزاء » . وقد جعل العروبة والاخلاص للوطن مقياس الولاء بين أفراد الأمة . وأهاب بالناشئين أن يكتبوا على جباههم : « أكون حيث يكون الحق ولا أبالي ، أنا حر وسأموت حرا ، أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي ، أنا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضي والحكايات ، الحياة كلها تعب لذيذ ، الشرف في العلم فقط» ، ونصحهم : «ان ابنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم، لا على عظام نخرة . وأن تعلموا أنكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما ، فاجتهدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا في شؤونه لا يحكمه غير الحق ، ومدينا وفيا لقومه لايضن عليهم بعين أو أعوان ، وولدا بارا لوطنه ، لايبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ومحبا للانسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس ، ويعلم أن الحياة هي العمل» [٦٨] .

ومما يميز الكواكبي عداؤه الشديد لعدم المساواة الاجتماعية واستغلال الانسان للانسان . ونبه الى أن العرب أهدى الامم لأصول المعيشة الاشتراكية . وأشار الى أهمية الجهد وضرورة مكافأته . قال الكواكبي : « .. لايقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهرة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته » . ويقول الكواكبي أيضا « .. لا يطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجو ان لا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصاف ، انما يسأله أن لا يميته في ميدان مزاحمة الحياة» [٦٩] . وطالب الكواكبي « انتكون الاراضي والاملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الامة ، وأن الاعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع ، وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها » .

لقد عاش عبد الرحمن الكواكبي أفكاره الاشتراكية ، واتخذ الفقراء أصدقاء له حتى أنه لقب بأبي الضعفاء . وقد قال فيه رشيد رضا انه رجل عظيم من رجال الاصلاح الاسلامي وعالم من علماء العمران ، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري .

وقد ثار ، ومايزال ، كثير من الجدل حول أصالة افكار الكواكبي في مجال الاستبداد . فمن قائل انه اقتبسها من الكاتب الايطالي الفييري الذي ترجم كتابه عن الاستبداد الى التركية ، ومن قائل انه اقتبسها من منتسكيو أو غيره . وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فانه لا ينتقص من ادراك الكواكبي للأوضاع السياسية التي سادت في عصره . كما ان الاستبداد الذي مارسه السلطان عبد الحميد ، وعانى منه الكواكبي ، مما ألجأه الى مصر ، أثار لدى أحرار العرب كثيرا من النقد والذم[٧٠] .

واذا كان الكواكبي قد ظهر في الشرق يعارض الاستبداد الحميدي ، ففي باريس ظهرت حملة أخرى ضد عبد الحميد يقودها نجيب عزوري . وسبق لنجيب أن شغل وكالة متصرفية القدس مما أتاح له الاطلاع على أحوال الدولة العثمانية ، وذلك قبل انتقاله الى فرانسا ، حيث أسس « عصبة الوطن العربي » ، في عام ١٩٠٤ ، وكانت تهدف الى تحرير سورية والعراق من الحكم العثماني ، وحرضت في منشوراتها على الثورة . وأصدر في العام التالي كتابا باللغة الفرنسية بعنوان « يقظة الامة العربية » . ثم أصدر ، بعد سنتين ، مجلة شهرية اسمها « الاستقلال العربي » ، وظهر العدد الأول منها في نيسان ١٩٠٧ ، وكان هدفها نشر المعلومات عن البلاد العربية واثارة الاهتمام بذلك ، وقد توقفت عن الصدور باعلان الدستور العثماني في ١٩٠٨ . واذا كانت جهود عزوري قد أثارت بعض الاهتمام في أوربا الا أنها كانت عديمة الفائدة بالنسبة للحركة في المشرق .

وفي كتابه « يقظة الامة العربية » أكد عازوري ايمانه بوجود أمة عربية واحدة ، تضم المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وذكر أن المشكلات الدينية التي تنشأ بين أبناء هذه الامة سببها سياسي أكثر مما هو ديني ، أما حدود الأمة العربية التي تحدث عنها فتقتصر على المشرق العربي . وقد هاجم الأتراك الذين أغروا العرب ، ولم يعتقد بامكانية الاصلاح في الدولة العثمانية . ولهذا فالسبب الوحيد

أمام العرب هو العمل للاستقلال ، حتى بمساعدة اوربا • وقال برئاسة سلطان عربي مسلم للدولة العتيدة ، وباقامة خليفة عربي في الحجاز ، وباحترام الاستقلال الذاتي لكل من لبنان ، ونجد ، واليمن • ولعل عزوري أول من لفت الانتباه الى مطامع الصهيونية في فلسطين(٧١) •

لم تزل حركة التحرر القومي ، التي رأينا نشأتها في بلاد الشام في الصفحات السابقة ، في بدايتها ، ولم تتجاوز نطاق الحركة الادبية قبل الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، كما أنها لم تثر أكثر من أشخاص قلائل هنا وهناك • الا أنها في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩) ، خطت خطوات حاسمة ، وانتقلت من حركة أدبية الى حركة سياسية كما أن بوادر الوعي القومي ، التي ظهرت أول ماظهرت في بلاد الشام ، بدأت تنتشر الى الأقطار العربية المجاورة •

وظهر أول جهد سياسي منظم عام ١٨٧٥ ، حين أسس بعض الشباب المثقف جمعية سرية في بيروت • ووضعوا برنامجا قوميا متبعين طريقة جديدة للتصريح به بواسطة الاعلانات والنشرات الثورية التيوزعت وعلقت على الجدران سرا في مدن سورية ولبنان ، وحملت هذه النشرات على مساوىء الحكم التركي ، وحرضت الشعب على الثورة والاطاحة به • ولما ازدادت وطأة استبداد عبد الحميد رؤى من الحكمة تعليق نشاطها • أما مضامين هذه النشرات فتؤكد أهمية الوحدة بين عناصر الشعب المختلفة ، وتحضهم على نبذ خلافاتهم ، وتوحيد جهودهم تحت شعار العروبة • وهي موشحة في أعلاها بشعار سيف مسلول كتبت تحته العبارة التالية : « بالسيف تتحقق الاهداف البعيدة فجرده ان كنت ترغب فيالنجاح» •وجاء في النشرة الثالثة أول تعبير مسجل لبرنامج سياسي عربي اذ بدأت بذكر مساوىء الحكم التركي التي منها القضاء على اللغة العربية • وسردت « بعد التشاور مع حلفائنا في كل البلاد » بنود البرنامج الذي تنوي الجمعية تنفيذه بالقوة اذا اقتضى الامر ، وأهم نقاطه مايلي : منح الاستقلال لسورية بعد توحيدها مع لبنان ، الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد ، ازالة الرقابة على الصحف والقيود على حرية التعبير ونشر الافكار ، واستخدام الفرق العسكرية المحلية في الخدمة المحلية فقط •

يلاحظ على الاهداف السابقة أنها اول اهداف صادرة عن اقدم منظمة سياسية • ولكنها تبدو ، بالنسبة لزمنها وللحوادث التالية ، أنها سابقة لاوانها ، بمعنى أنها افترضت تطور الوعي القومي بشكل اوسع مما كان فعلا • كما أنها دعت للنضال السياسي مدعوما بثورة مسلحة اذا اقتضى الامر • ولهذا فشلت في هذه الناحية ، ولكنها أثمرت في نواح أخرى ليس أقلها صهر رغبات الشعب ، التي لم تتبلور بعد ، وراء أهداف محددة ، واعطاؤها الوعي القومي بذلك حافزا للتقدم • كما دعت الى تبني مفهوم جديد يقوم على بناء دولة مستقلة ذات اسس قومية صرفة • فالعمل على توحيد سورية ولبنان ، بعد ان فرض على لبنان نظام خاص في ١٨٦٤ ، يعكس لنا رفض فكرة التقسيم والتجزئة والميل نحو الوحدة بالتالي • أما الهدف الاخر فيعكس الغرض الادبي للحركة، وهو ارجاع اللغة العربية الى مكانتها، ومكافحة الجهل والتعصب ، بعد أن فرض استعمال التركية على نطاق واسع في سورية وفق خطة المركزية الشديدة التي بدأت عام ١٨٦٤ • ولم يقتصر الامر على هذا فقد فرضت الرقابة الشديدة على المطبوعات بعد الغاء عبد الحميد الدستور مما حز في نفوس أعضاء جمعية بيروت السرية وجلهم من الادباء والعلماء • وأريد باستخدام الفرق المحلية منع ارسال الفرق العربية المجندة في سورية لمحاربة اليمنيين بعد أن فشل العثمانيون بعد ١٨٧٢ في فرض سيطرتهم الكاملة على اليمن ، فلجأوا الى هذه الوسيلة لضعف مقاومة اليمنيين للجنود العثمانيين العرب • كما ان بعض الفرق ارسل للاشتراك في الحرب الروسية ــ التركية • وهكذا يمكننا اعتبار العمل الثوري لجمعية بيروت السرية اول حلقة في سلسلة حركات متتابعة ، وهي وان انعدمت نتائجها الملموسة الا أن أهدافها أصبحت شعارا للحركات السرية[٧٢] •

ورغم وجود حركات وطنية وقومية في عدد من الاقطار العربية في هذه الفترة فلم يكن هناك تعاون واع بين هذه الحركات المختلفة ، فالمواصلات البطيئة عقبة في سبيل ذلك ، والخطوط الحديدية غير معروفة آنذاك في العالم العربي ، والصحافة مكمومة ، كما ان تنقلات الافراد مقيدة ، وهذا مايعيق حركة عربية شاملة في ذلك الزمن • ومع ذلك يمكننا القول ان بوادر الاضطراب التي ظهرت في سورية قد انتقلت الى البلاد العربية الأخرى ونتج منها حركات موضعية • ويجب أن ننتظر

مدة ثلاثين سنة اخرى ، حتى عزل عبد الحميد ومجيء حكم دستوري تركي ، اكثر استبدادا في الحقيقة ، لنرى ثورة عربية شاملة •

وفي محاولة من السلطة العثمانية ، في عهد عبد الحميد الثاني ، لتوطيد سيطرتها في البلاد العربية ، قسمت بلاد الشام في ١٨٨٧ الى ثلاث ولايات وصنجقين : ولاية حلب في الشمال ، ولاية بيروت في الغرب وولاية سورية في الشرق ، ثم صنجق لبنان وصنجق القدس • وقسم العراق كذلك الى ولايات ثلاث : الموصل في الشمال وبغداد في الوسط ، والبصرة في الجنوب • اما في الجزيرة العربية فقد عين وال للحجاز في ١٨٤١ ، واخفقت حملة في اخضاع اليمن في ١٨٤٩ ، ونجحت اخرى جزئيا في حوالي ١٨٧٠ ، بعد شق قناة السويس ، واستعادت الدولة العثمانية سيطرتها على بعض المدن الرئيسية • كما انتزع العثمانيون في منطقة الخليج العربي الاحساء من الوهابيين في ١٨٧١ • أما في منطقتي نجد وشمر ، في الداخل ، حيث يتنازع ابن سعود مع ابن رشيد ، فلم تكن السلطة العثمانية ذات قيمة ، وسلكت هاتان السلالتان سلوك المستقلين • ووجد العثمانيون منافسا لهم في بريطانيا التي احتلت واحة البريمي في ١٨٥٧ ، وعقدت معاهدة مع سلطان مسقط كما احتلت عدن في ١٨٣٩ • وخسر العثمانيون جميع شمال افريقية ، في القرن التاسع عشر باستثناء ليبيا التي سلخت عنهم في ١٩١٢ •

وفي هذه الفترة تنطوي مصر على نفسها وتنسحب من الحركة العربية لتتبع سياسة قومية خاصة بها • وكانت الحركة القومية في مصر حتى عصر اسماعيل تسير جنباً الى جن[illegible] كة في بلاد الشام ، فيما يختص باحياء التراث العربي • وكل رده معل في سوا[illegible] ها استجابة في الاخرى • ولكن حين احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ ظهر تيار جديد مصري الايحاء يهدف قبل كل شيء الى انسحاب قوات الاحتلال • وبهذا ولدت القومية المصرية ، واتخذ زعماؤها طريقاً ازداد انفصاله عن الحركة العربية العامة على مر السنين • ورغم هذا بقيت العلاقات الثقافية تربط مصر والعالم العربي اذ أصبحت مصر ملجأ لأحرار العرب بعد أن ضعفت سيطرة السلطان عليها • وهذا ما حدث بالنسبة للمغرب العربي الذي حاول أولا التخلص من الاستعمار الفرنسي ، ولذا اقتصرت الحركة القومية

العربية على بلدان المشرق العربي . ولم تتوحد الحركات القومية في البلاد العربية كافة الا بعد الحرب العالمية الاولى ، حين تلا تحرر العرب من العثمانيين الاحتلال الاجنبي بدلا من الاستقلال .

وهكذا نرى ان فترة حكم السلطان عبد الحميد ، على وجه العموم ، هي فترة نمو بطيء بالنسبة للفكرة القومية التي أسفرت عن نفسها . ولم تظهر نفسها الا في مرحلتين : الأولى عند بدء حكمه بجمعية بيروت السرية ، والثانية في أواخره بظهور الجمعيات السياسية .

ولم تستطع سياسة عبد الحميد على شدتها ، منع انتشار افكار التحرر والحكومة المسؤولة ، ونظام الاحزاب ، وحرية التعبير بين الشعب ، كما انها لم تستطع منع تطور الصحافة اليومية والشهرية باللغة العربية التي لم يسمح لها بالطبع بالتصريح بما تريد كتابته ، ولكنها رفعت مستوى التفكير والفهم السياسيين وعملت كقوة فكرية موحدة .

وظهرت في اواخر حكم عبد الحميد حركتان متعارضتان تعمل احداهما على الحد من سلطاته وارجاع دستور ١٨٧٦ كخطوة أولية لبعث الامبراطورية ، وهذا هو برنامج جمعية « تركيا الفتاة » التي انتظم افرادها بعد ذلك في « جمعية الاتحاد والترقي» . أما الحركة الأخرى فهي التي اقتصرت على البلاد العربية وحدها وطالبت بالوحدة والحكم الذاتي . ولم تتميز هاتان الحركتان في البدء عن بعضهما بعضا لانهما تسعيان نحو هدف مشترك عاجل وهو الاطاحة بعبد الحميد واستبداده ولان بعض الاحزاب العربية كانت تطمع بالاستقلال الذاتي في الامبراطورية العثمانية كخطوة اولية نحو الاستقلال التام بعد ذلك .

هذا وكنا ذكرنا أن الاصلاح من الأعلى في الدولة العثمانيـــة قد فشل في استقطاب الوطنين وامتصاص نقمة الشعب ، ولذلك لم يكن بد من ثورة جذرية تطيح بالاصول كلها ، وهذا ماحصل حين اضطر عبد الحميد تحت ضغط ثورة عسكرية نظمتها جمعية الاتحاد والترقي الى اعلان دستور مدحت باشا من جديد في ٢٤ تموز ١٩٠٨ . وانضم الى هذه الجمعية بعض العرب بصفتهم مواطنين عثمانيين

لا قوميين عرب ، كما برز فيها بعض اليهود ، الذين اتوا بالدرجة الثانية بعد العثمانيين ، بالاضافة الى قوميات اخرى ، يجمعهم هدف مشترك وهو التخلص من الحاكم المستبد واعادة الدستور •

هلل العرب كثيرا للانقلاب الجديد وظنوه خطأ عهد تحرر حقيقي غيرعالمين بدعوته الى تمثيل جميع الرعايا في دولة تركية تتخذ التركية لغة رسمية لها • وفي وسط هذا الحماس اعلن تأسيس اول جمعية عربية وهي « الاخاء العربي العثماني » في اجتماع ضم العرب والاتراك في استانبول في الثاني من أيلول ١٩٠٨، ومن أغراضها حماية الدستور ، صهر العرب والعثمانيين ، ومساواة المقاطعات العربية مع غيرها من مقاطعات الامبراطورية العثمانية ، واستعمال اللغة العربية في التعليم ، ومراعاة التقاليد العربية • واتيحت عضويتها لجميع العرب على اختلاف عقائدهم ، كما تأسست لها فروع في الوطن العربي ، وأصدرت جريدة تنطق باسمها •

حصل اول انقسام بين العرب والعثمانيين في الانتخابات التي جرت للبرلمان الجديد بعد اعلان الدستور اذ تحيز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد العرب • ومع أن الاحصاءات التقريبية لسكان الامبراطورية تشير الى كثرة العرب اذ كان عددهم عشرة ملايين ونصف مقابل سبعة ملايين ونصف للاتراك واربعة ملايين لقوميات اخرى ، فقد حصلوا على ستين مقعدا مقابل مائة وخمسين للاتراك من اصل ٢٤٥ مقعدا • وكان لهم في مجلس الشيوخ الذي يعينه السلطان ثلاثة مقاعد من مجموع اربعين مقعدا • وازداد هذا التحيز بعد زحف محمود شوكت باشا على العاصمة من سالونيك في ٢٤ نيسان ١٩٠٩ وخلع عبد الحميد ، الذي حرض في ٢٣ نيسان حرسه على التمرد ومهاجمة النواب ، مما سبب مقتل النائب العربي محمد رسلان • واتبع اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، التي حكمت مدة خمس سنوات باسم السلطان محمد رشاد الخامس ، سياسة استبدادية كان من أولى ثمارها بالنسبة للعرب تعطيل جمعية الآخاء العربي العثماني ولما يمض على تأسيسها ثمانيه اشهر •

ماهي اسباب هذا التبدل في سياسة جمعية الاتحاد والترقي وهي التي دعت الى مساواة الجميع بموجب الدستور ؟ قد يكون السبب كامنا في الدستور

ذاته حين فشل واضعه مدحت باشا في ادراك اهمية الوعي القومي وضرورة مراعاته ، ولكن السبب أبعد من ذلك ، وهو تأثر أعضاء هذه الجمعية برئاسة انور باشا بالفكرة الطورانية لتدعيم السياسة القومية التركية • وتؤكد هذه الفكرة الاصل الطوراني للاتراك ، كما تنص على أن السبيل الوحيد لاحياء العرق التركي هو الاتحاد مع جميع طورانيي الاصل ، مع العلم ان اكثرهم يخضع للحكم الروسي • وهدفت الحركة الطورانية من وراء ذلك لا الى زيادة عدد الاتراك العثمانيين وهم اقلية في الامبراطورية العثمانية ، كما رأينا فحسب ، بل الى مجابهة حركة الجامعة السلافية وخطط روسيا في دعمها ، وكذلك الحركة القومية العربية أيضا • وهكذا اكتشف العثمانيون فجأة ، وهم الذين عدوا انفسهم لعدة قرون اعضاء في الحضارة الاسلامية ومن روادها ــ اكتشفوا من جديد ماضيهم العرقي واللغوي في ماقبل الاسلام ، فحاولوا بعثه من جديد • وعلى هذا فالطورانية على نقيض الفكرة العثمانية التي تهدف الى توحيد القوميات المختلفة في الامبراطورية في دولة واحدة على اساس المساواة •

كان من نتائج هذه السياسة ان ذهل العرب مع غيرهم لان ذلك يعني بالنسبة لهم التخلي عن آمالهم في الاستقلال ، وتتريكهم • ولم تستطع الحكومة العثمانية الوقوف في وجه الحركات القومية التي استطاعت في الفترة بين ١٩١٠ ــ ١٩٢٢ تحطيم المركزية العثمانية وانشاء كيانات خاصة بها • وحين وضح للعرب ، بعد الغاء جمعية الاخاء العربي العثماني ان الحكومة الجديدة لم تكن اكثر عطفا على أمانيهم من السلطان المخلوع تحولوا الى اتجاه عربي خالص يناوىء الفكرة القومية العثمانية أو الطورانية • كما أنهم اضطروا الى احاطة جهودهم بالسرية رغم أن بعضها بقي علنيا • وعملوا على توحيد كل المقاطعات العربية في الامبراطورية العثمانية وتضم بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية • وذهب بعض مفكريهم الى حد الدعوة بوجوب توحيد كل البلاد التي تتكلم بالعربية بما فيها وادي النيل وشمال افريقية اما مراكز هذه الحركة فكانت سورية بصورة رئيسية •

لم تجرؤ الجمعيات العربية العلنية على الدعوة صراحة الى استقلال الولايات العربية لذلك تابعت برنامج جمعية الاخاء العربي العثماني التي تقول بالحكم

الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية مع ادخال الاصلاحات ، ومن هذه : المنتدى الادبي ، وحزب اللامركزية الادارية العثماني •

اما المنتدى الادبي فتأسس في استانبول عام ١٩٠٩ ، وضم موظفين ونوابا وادباء وطلابا ، ومن بينهم عبد الكريم الخليل الذي اصبح رئيسا له ، وصالح حيدر ، ورفيق سلوم ، وجميل الحسيني وغيرهم ، واصبح ملتقى العرب في العاصمة العثمانية ، واصدر مجلة باسمه اسهم في تحريرها نخبة من الادباء عالجوا في موضوعاتهم كل مايتعلق بالعروبة • وتساهلت السلطات العثمانية معه وشملته برعايتها في بعض الفترات لاسيما واهدافه غير سياسية • وبالرغم من هذه الصفة فقد لعب دور الوسيط في التوفيق بين اهداف العرب وجمعية الاتحاد والترقي وأفاد القضية العربيـة بالدعوة لها عن طريق المناقشـات التي كانت تجري في مراكزه المنتشرة في سورية والعراق • وظل يتابع رسالته الى ان اغلقته الحكومة الاتحادية في عام ١٩١٥ •

اما حزب اللامركزية الادارية العثماني فقد تأسس في القاهرة في اواخر عام ١٩١٢ ، واسهم في تأسيسهم نخبة من السوريين المقيمين في مصر ، وكان رفيق العظم رئيسه ، واسكندر عمون نائب الرئيس ، وحقي العظم أمين السر • ومن بين الاعضاء رشيد رضا وفؤاد الخطيب وعلي النشاشيبي وغيرهم • وسعى نحو غايتين : حث الحكام الأتراك على ضرورة تبني نظام اللا مركزية في الحكم ، وتكتيل الرأي العام العربي وراء هذا الهدف • ونص دستور الحزب على ان يعهد بادارته الى هيئة تتألف من عشرين عضوا مركزها مصر الى جانب هيئة تنفيذية من ستة اعضاء • وسمح له بافتتاح فروع في كل مدينة وقرية في البلاد العثمانية شريطة ان يوجد فيها عشرة يعتنقون مبادىء الحزب • وهو وان دخل في عضويته بعض الأتراك وشملت صفته البلاد العثمانية ، الا أنه بقي حزباً عربياً يعمـل في سبيل أهداف عربية مما جعـل نشاط فروعه في البلاد العربية يجري خفية وبتحفظ خوفا من النقمة • وقد اقام علاقات مع الاحزاب العربية الاخرى • وافاد القضية القومية بتكتيل جهود العرب في وجه المركزية العثمانية •

ظهرت بعد ذلك جمعيات سرية تدعو الى استقلال البلاد العربية نذكر منها : الجمعية القحطانية وجمعية الفتاة • وقد تأسست الجمعية القحطانية في أواخر عام ١٩٠٩ ودعت الى قلب الامبراطورية العثمانية الى ملكية ثنائية للرد على محاولات المركزية العثمانية ، فتكون الولايات العربية ، وفق هذا النظام ، مملكة موحدة لها برلمانها وحكومتها ولغتها العربية على ان تكون جزءا من امبراطورية تركية ـ عربية كالامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية ، ويرتدي السلطان العثماني تاج المملكة العربية الى جانب التاج العثماني كاباطرة آل هابسبورغ في فيينا • وهكذا تتحقق الوحدة وتقام العلاقات التركية العربية على اسس دائمة وواقعية • وبما ان اهدافها واضحة جريئة كما هي عليه فلا يمكن التبشير بها علانية ، وتحتاج الى اعضاء ترتفع وطنيتهم فوق الشبهات ولذلك اختيروا بدقة • وقد استمدت قوتهامن شخصيات اعضائها ، وقامت باول محاولة لكسب الضباط العرب في الجيش العثماني الى صفها ، فانضم اليها بعض كبارهم ، وساهم احدهم في تأسيسها وهو عزيز علي المصري • وانشئت لها فروع في البلاد العربية ، وكان لها كلمة سر للتعارف • وتجلى نشاطها على شكل واسع في السنة الاولى من قيامها الى ان ظهرت بوادر خيانة من احد اعضائها ، رغم الدقة في اختيارهم ، فحال ذلك دون اتمامها مهمتها • واهمل الاعضاء امرها فانحلت من تلقاء نفسها •

وتأسست جمعية الفتاة في باريس عام ١٩١١ على يد سبعة من العرب كانوا يتابعون دراستهم فيها وهم : رستم حيدر ، عوني عبد الهادي ، جميل مردم محمد المحمصاني ، عبد الغني العريسي ، رفيق التميمي ، توفيق السويدي ، وانضم اليها غيرهم • ولعبت دورا حاسما في تاريخ الحركة القومية ودعت الى الاستقلال والتحرر من الحكم الأجنبي • وامتازت بالحذر والسرعة في بلوغ أهدافها وتنظيم أساليبها والدقة في اختيار أعضائها اذ كانوا يختبرون طويلا فيرشح أحد الأعضاء القدماء العضو الجديد ولا يصبح من أفرادها حتى تثبت أمانته وجدارته فيدعى آنئذ لأداء قسم تحقيق غايات الجمعية ولو كلفه ذلك حياته ولا يتعرف الى كل الاعضاء وانما يكون العضو الذي رشحه واسطة الاتصال ومرجعه • وبقي مركز

جمعية الفتاة في السنتين الأوليتين في باريس ، ثم انتقل الى بيروت في ١٩١٣ ، ومنها الى دمشق بانتقال مؤسسيها • وعد الأعضاء المؤسسون أنفسهم هيئة مركزية دون اجراء انتخابات ، كما كان للجمعية معتمدون فرديون في المدن المهمة • وبقيت أعمالها سرا حتى تحرر العرب من الحكم العثماني حيث حلت • ومما يجدر ذكره أن الديوان الحربي الذي أقامه جمال باشا في عاليه كشف الجمعيات العربية كلها وأسماء المشتركين فيها باستثناء جمعية الفتاة وأعضائها بسبب السرية التي أحاطت بها أعمـالها •

لم تكن هذه الجمعيات المتعددة الا دليلا على حيوية الوعي القومي وتجاوبه مع السكان اذ سرعان ماكانت ترفد الجهود السابقة بجهود جديدة وتصبح الحركة اعم واكثر شمولا • فلا تكاد تظهر جمعية الاصلاح في بيروت اواخر ١٩١٢ حتى يعقد المؤتمر العربي في باريس وتبلغ الحركة ذروتها في جمعية العهد السرية •

دعت الى جمعية الاصلاح جماعة من الواعين تضم مختلف الطوائف وعلى رأسها احمد مختار وسليم سلوم وايوب ثابت • وعملت على نيل الحكم الذاتي على غرار حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي انشىء في القاهرة والذي كانت على اتصال به • واعلنت برنامجها في منتصف شباط ١٩١٣ ، ويرتكز على مبدأ اللامركزية ، وتبقى شؤون الخارجية والدفاع والمواصلات والمالية تابعة للعاصمة وماعدا ذلك فيبقى في ايدي الادارة المحلية • كما انها طالبت بجعل اللغة العربية لغة رسمية ، وبأن تستعمل في مجلس النواب الى جانب التركية ، وبجعل الخدمة العسكرية للعرب محلية •

قابل الشعب ظهور هذه الجمعية بمظاهر الابتهاج في مختلف البلاد العربية الامر الذي لم يرق للحكومة الاتحادية فداهمت مراكزها في بيروت في الثامن من نيسان ١٩١٣ وحلتها ، فعم الحقد اذ ذاك جميع السكان ، واغلقت المصالح التجارية في بيروت ، وظهرت الصحف موشحة بالسواد بعد اعتقال اعضاء الجمعية البارزين • ولم تر السلطات الحاكمة بدا من الرضوخ ، فاطلقت سراح المعتقلين ، واصدرت قانونا جديدا للولايات في ٥ ايار من العام ذاته يحقق بعض الاصلاحات لالهاء الشعب •

وجدبعض الاحرار ضرورة الاعراب عن اهدافهم في بلد محايد ونقل قضيتهم الى الصعيد الدولي اذا امكن • فتألفت لجنة تحضيرية من عبد الغني العريسي ، جميل مردم ، عوني عبد الهادي ، محمد المحمصاني ، ندرة مطران ، وغيرهم ، وقررت عقد اول مؤتمر لهم في باريس • ووجهوا الدعوات الى الجمعيات العربية لحضوره • وجاء في الاسباب الموجبة لعقده : « ان مناظرات الاجانب ومغامرات السياسة العامة قد اوقفتنا على استقراء مايجري بشأن البلاد العربية وخاصة زهرة الوطن سورية ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لايعلم ان الظلم نتيجة سوء الادارة المركزية • فحدا بنا ذلك الى الاجتماع في هذه المدينة والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بدم الآباء ورفات الأجداد من عداء الاجانب وانقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد واصلاح امورنا الداخلية على اساس مايتطلبه اهل البلاد من قواعد المركزية حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا فينقطع بذلك خطر الاحتلال والاضمحلال وتنتقي مذلة الرق وتخفت نأمة الاستعباد ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أننا أمة تأبى الضيم ولا تستسلم للذل » • وقد رحب حزب اللا مركزية وأعضاء جمعية الاصلاح المنحلة بذلك وأرسلوا وفودهم ، وافتتحت الجلسة الأولى في ١٨ حزيران ١٩١٣ في قاعة الجمعية الجغرافية في باريس •

حضر المؤتمر أربعة وعشرون عضوا نصفهم من المسلمين والآخر من المسيحيين وغالبيتهم من السوريين • وقد تمثل العراق بعضوين ، وأرسلت الجالية العربية في الولايات المتحدة ثلاثة أعضاء • وعقدالمؤتمر أربع جلسات رسمية برئاسة عبدالحميد الزهراوي استغرقت ستة ايام • والقى الاعضاء خطبا نذكر بعض مواضيعها : تربيتنا السياسية ــ حقوق العرب في المملكة العثمانية ــ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية ــ أماني السوريين المهاجرين ــ تحية العراق للمؤتمر ــ الهجرة من سورية واليها ــ الاصلاح على قاعدة اللا مركزية ، ورقي المهاجرين وتعضيدهم للمؤتمر •

وقد اقتصرت الجلسات الثلاث الاولى على العرب ، ثم سمح للاجانب بدخول الجلسة الرابعة ، وجرت مناقشتها بالفرنسية • ومن مقررات المؤتمر : ان يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضمونا وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة مركزية تنظر في حاجاتها

ومتطلباتها للرقي ، أن تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب العثماني ، وان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، وان تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الاقصى • وايد المؤتمر مطالب الارمن العثمانيين القائمة على اساس اللامركزية وارسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ، كما حيا العراق •

ورأى المؤتمر أنه اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها فالأعضاء المنتخبون في لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون اليها • واقر المؤتمر ان تكون القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات النيابية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وتنفيذه •وسلمت نسخة من قرارات المؤتمر الى السفارة العثمانية في باريس •

استاءت الحكومة الاتحادية من مقررات المؤتمر • وكانت قد حاولت احباطه ولما فشلت باقناع الحكومة الفرنسية بمنع انعقاده أرسلت أمين سر جمعية الاتحاد والترقي لمفاوضة المؤتمرين ، فتوصلوا الى شروط مقبولة اذ اعترفت الحكومة بالتجنيد المحلي ، وجعل العربية لغة رسمية في المقاطعات العربية واستعمالها في التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية العربية ، كما وافقت على تعيين مشرفين اوربيين لاصلاح الادارة • وبالرغم من انها زادت في صلاحيات الادارة المحلية ، وأعطت بعض الوظائف العليا للعرب ، ونصت على ادخال ثلاثة وزراء عرب على الأقل في الوزارة التركية ، وتعيين عدد آخر في مجلس الشورى ومحكمة التمييز والمشيخة الاسلامية ، بجانب اثنين عن كل ولاية في مجلس الأعيان — بالرغم من هذا كله ، لم تكن الحكومة الاتحادية جادة في تعهداتها التي تساهلت فيها بسبب مصاعبها في البلقان • وهي وان أحاطت مندوبي مؤتمر باريس الثلاثة الذين أوفدوا الى العاصمة التركية بمظاهر الحفاوة الا أنها أصدرت فرمانا سلطانيا في ٨ آب ١٩١٣ نقضت ماوعدت به واحاطت القليل الذي اعطته بالتحفظات والشروط • مثال ذلك انها وافقت على جعل العربية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية العربية ، ولكنها أضافت أن التعليم في المدارس الثانوية في عواصم المقاطعات

يجب ان يكون بالتركية مع العلم انه لاتوجد ثمة مدارس ثانوية خارج العواصم • كما لم ينص على جعل اللغة العربية لغة رسمية في الدولة •

ادرك العرب مخاطر فرمان آب لاسيما والحكومة ارسلت تعليمات لتنفيد بنوده بالقوة ، كما عملت على استمالة بعض كبار العرب ونخص منهم عبد الحميد الزهراوي ، رئيس مؤتمر باريس ، فجعلته عضوا في مجلس الشيوخ مع اربعة اخرين بالرغم مما تقرر في المؤتمر من عدم قبول الوظائف مالم تجب مطالب الاصلاح • ولهذا وضع اخلاله موضع التساؤل • وحجتــه في ذلك أنه قبل المنصب ليستغل نفوذه في الحكومة بالاصلاح وقد تأكد صدق نيته في مراسلاته وتأييد بعض أصدقائه له(٧٤) •

كان من ظفر الاتحاديين الموقت ان عادت الحركة العربية تعمل من جديد في السر • وزاد في الامر اعتقال الضابط عزيز علي المصري في ٩ شباط ١٩١٤ بتهمة الخيانة والتواطؤ مع الايطاليين في ليبيا ومحاولة اقامة حكومة عربية مستقلة في شمال افريقية • وليس هناك من ذكر لاتهامه بتأليف جمعية سرية بالرغم من جميله للدولة في التوسط بين اليمنيين والعثمانيين ودفاعه المشهود في ليبيا ضد الغزاة مما حرك شعور العرب من جديد بالسخط ضد الاتحاديين• ومع أن عزيز علي المصري حكم عليه بالاعدام ثم اطلق سراحه بعد ذلك الا ان الشعور العربي الذي غضب له ازداد قوة وتكاتفا وتعبئة للثورة الكبرى •

ومما يجدر ذكره ان عزيز علي المصري ، بعد ان نقم على الاتحاديين لتحيزهم الظاهر ضد العرب ، وضع خطة ايجاد جمعية العهد التي تتشابه باهدافها مع الجمعية السابقة انما تمتاز عنها بالصفة العسكرية فقط • ولم يدخلها من المدنيين سوى اثنين، وبرز العنصر العراقي لكثرة الضباط العراقيين في الجيش العثماني • وافتتحت لها فروع في بغداد والموصل بالاضافة الى دمشق وحلب وبيروت ، وبالرغم من تقاربها مع جمعية الفتاة في الاهداف فلم تنسقا نشاطهما سوية حتى عام ١٩١٥ • وكان أعضاؤها أول من ساهم في الثورة العربية ، ونذكر منهم مولود مخلص وجميل المدفعي من العراق ، ومصطفى وصفي واسماعيل الطباخ من دمشق وغيرهم •

اعتقد بعض الوطنيين وهم على ابواب حرب عالمية انه يمكنهم افادة قضيتهم بالاتفاق مع الحكومة التركية لاسيما والامبراطورية اخذت تتمزق ، وقدفقدت حتى عام ١٩١٤ كل مقاطعاتها البلقانية ، وخسرت كل شمال افريقية بالرغم من الاعتراف الاسمي بسيادة السلطان على مصر • وقدر ان الاتراك خسروا ٤٢٤ر٠٠٠ ميل مربع من مساحة بلغت ١ر١٥٣ر٠٠٠ ميل مربع ، وفقدوا كذلك خمسة ملايين نسمة من مجموع سكان الامبراطورية البالغ اربعة وعشرين مليونا • وكانت اهم خسارة أصيب بها الاتراك روميليه التي كانت لقرون خلت قلب الامبراطورية وكانت اكثر الولايات تطورا واتناجا ، واسهمت في غنى الامبراطورية ، كما امدتها بالجنود والبيروقراطية • واعطت روميلية صفة تعدد القوميات للامبراطورية وادت خسارتها الى تعديل ايديولوجية تركيا الفتاة لأن مركز الثقل انتقل الآن الى الاناضول[٧٥] •

وهكذا اقتصرت الامبراطورية العثمانية على منطقة اوروبية صغيرة حول العاصمة وهي تراقيا • وبقي لها في آسيا الاناضول وبلاد الشام والعراق وجزء من غربي الجزيرة العربية مع اعتراف اسمي بسيادتها على اطراف اخرى منها • هنا جابه القوميون العرب مشكلة هامة وهي : ماذا سيكون مصير المقاطعات العربية بعد انهيار الامبراطورية ؟ هل سيكون باستطاعتهم تشكيل دولة موحدة مستقلة أم أن أسيادا جددا سيتآمرون عليهم؟ واذا كان العرب قد قرروا الثورة على العثمانيين فان خطرين آخرين كانا يتربصان بهم : خطر الاستعمار الاوربي ، والخطر الصهيوني •

حاولت بريطانيا استغلال الحركات القومية في المشرق العربي لصالحها ، كما انها ادركت اهمية الرابطة الاسلامية نظرا لاختباراتها في الهند • وكان كتشنر في القاهرة يرقب بحذر النفوذ الالماني المتزايد في الدولة العثمانية ، والذي تمثل بخط حديد بغداد مما يهدد مركز بريطانيا في الخليج العربي والهند • كما ان وقوف تركيا ، في حرب مقبلة ، ضد بريطانيا من شأنه تهديد مواصلاتها في السويس وعدن نظرا لوجود حامية تركية في اليمن • وخشيت بريطانيا من اعلان السلطان العثماني الجهاد ضدها لان هذا يثير ، اضافة الى العرب ، الشعوب الاسلامية بما في ذلك الهند • ولهذا فكرت بريطانيا بالاستيلاء على المنطقة الممتدة بين حيفا وخليج العقبة

لحماية خطوط مراصلاتها وبتشجيع العرب على الانفصال عن العثمانيين طمعا في كسبهم الى جانبها ، وبهذا تلتقي بريطانيا مع القوميين العرب مع أن غاياتهما تختلف، اذ نظرت الى استقلال البلاد العربية من وجهة القضاء على النفوذ الالماني ــ التركي، بينما تطلع العرب الى الاستقلال التام وعدم الوقوع تحت سيطرة أجنبية • ووجب على بريطانيا أن تقرر على أية فئة من القوميين العرب ستعتمد للوصول الى أهدافها•

كان النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية اقوى منه في غيرها ، حيث احتل عدن في ١٨٣٩ ، ،وعقدت المعاهدات مع الكويت وقطر وعمان وغيرها ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأعلنت حمايتها عليها بشكل أو بآخر • وكان الأمير عبد العزيز بن سعود ، الذي سيطر على نجد ، على علاقات ودية مع بريطانيا ، بينما تحول عدوه ابن رشيد الى جانب الاتراك • وقد وقع اختيار بريطانيا على الحسين ، شريف مكة ، لقيادة الثورة على الاتراك بسبب موقع الحجاز الاستراتيجي وامكانية فصل الحاميات التركية في الجنوب عن الشمال ، وفازت بهذا الاختيار الدبلوماسية الانكليزية في مصر على سميتها في الهند التي فضلت صداقة ابن سعود لتحييده اذا ماتدخلت في العراق ، ولانها تمانع اصلا في تشجيع العرب على الثورة على السلطان ــ الخليفة العثماني خوفا من اثارة مسلمي الهند ضدها • وفي الواقع عقدت بريطانيا مع ابن سعود معاهدة صداقةفي ١٩١٥ • وكان للحسين اهميته السياسية والدينية في العالم الاسلامي بسبب شرف نسبه ، وايضا بسبب منصبه كحام للحرمين الشريفين • وكان الحسين ، بالمقابل ، يسعى لاقامة مملكة عربية ، بمساعدة الانكليز • ومن هنا جاءت المفاوضات المشهورة بين الحسين ومكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر والسودان ، بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ ، والتي هدفت ، من ناحية الحسين ، الى تجاوز وضعه كأمير وشريف في الحجاز الى ملك للعرب وممثل لحركتهم القومية ، ومن المحتمل خليفة لهم •

وقد برزت في سياق محادثات الحسين ــ مكماهون مطامع فرانسا في المشرق العربي وذلك حين ماطلت بريطانيا في الموافقة على حدود سورية الطبيعية المستقلة كما طالب بها القوميون في الشام • وكانت فرنسا تطمع بالاستيلاء على الساحل السوري ، كما كانت بريطانيا تطمع بفرض نفوذها على ولايتي بغداد والبصرة •

وقد تأكد التآمر البريطاني ــ الفرنسي على الحركة القومية العربية باتفاقية سايكس بيكو في ١٦ آيار ١٩١٦ ، قبل حوالي شهر من اعلان الحسين الثورة على العثمانيين. وكانت روسيا القيصرية طرفا فيها الى ان انسحبت منها في اعقاب الثورة الشيوعية فيها ، واعلنت بنودها السرية . واقرت هذه الاتفاقية ، التي اطاحت بكل تعهدات مكماهون للحسين ، تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق نفوذ بريطانية ــ فرنسية وأقر ذلك في معاهدة سان ريمو في نيسان ١٩٢٠ ، ووضع موضع التنفيذ مباشرة[٧٦] .

لم يكد العرب يكتشفون اتفاقية سايكس ــ بيكو حتى صعقوا بخيانة ثانية هي وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، الذي قلب رأسا على عقب ماجاء في هذه الاتفاقية من تدويل فلسطين . وهنا يجدر بنا ان نلقي نظرة على تاريخ الحركة الصهيونية في العهد العثماني لنتكمن من استجلاء شدة خطرها سابقا ولاحقا . كانت الاقلية اليهودية ، التي وجدت في فلسطين ، قد رفدت ، شأن الاقليات اليهودية في مناطق اخرى في المشرق والبلقان ، باللاجئين اليهود السفارديم ، الذين طردوا من اسبانيا والبرتغال في العقد الاخير من القرن الخامس عشر . وشغل بعض هؤلاء القادمين الجدد مناصب هامة ، بحكم خبرتهم ، في الادارة المالية في العهدين المملوكي والعثماني ، على غرار ماكان يفعله اليهود المحليون . ويذكر ان صدقة اليهودي ، معلم دار الضرب في دمشق ، نثر على السلطان المملوكي قانصوة الغوري ، عندما دخل دمشق في ١٨ جمادى الأولى ٩٢٢/٢٠ حزيران ١٥١٦ ، دراهم واشرفية اصطنعها لذلك خفيفة[٧٧] . واشتهر في الادارة المالية في بلاد الشام الجنوبية ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، افراد من اسرة فرحي اليهودية ، وبرز بينهم حاييم الذي اعتمد عليه كل من احمد باشا الجزار وسليمان باشا العادل ، وعبد الله باشا الذي قتله .

ويذكر ان اليهود العاملين في المالية ، في بلاد الشام ، كانوا يستخدمون الكتابة العبرية في سجلاتهم ، في محاولة منهم لاحتكار هذه المهنة ، وقد قال في ذلك الشاعر الحمصي الشيخ أمين الجندي في قصيدة مدح بها السلطان محمود الثاني[٧٨]:

حيث الدفاتر عبرانية رقمت   خلاف السنا والحال مجهول
وليس تعلم اتراك ولا عرب   ماخذ فيها ولا المنقول معقول

وقد اشتهر في الامبرطورية العثمانية من اليهود اللاجئين من البرتغال يوسف ناسي الذي حصل على امتيازات كثيرة من السلطانين سليمان القانوني وابنه سليم الثانـــي •

وكان اليهود الذين أتوا للعيش في فلسطين ، قبل ظهور الفكرة الصهيونية احد فريقين : متعبدون رغبوا العيش والموت في الارض المقدسة ، وافراد لاجئون من الاضطهاد الاجنبي وجدوا تسامحا في ظل العرب والحكم التركي ، ولم يكن هؤلاء من نسل العبرانيين القدماء بل من سلالة الهنود ــ الاوروبيين ، الذين اعتنقوا الديانة اليهودية في وقت متأخر ، مثل يهود بحر الخزر •

وقد حاول اليهود منذ القديم اقامة وطن قومي لهم في فلسطين ولكنهم ردوا في كل مرة الى ان تهيأت لهم اسس ذلك على يد بريطانيا وامريكا ، وكان توطين اليهود في فلسطين قد أصبح من عناصر السياسة الدولية منذ أواخر القرن الثامن عشر • ويذكر أن حكومة المديرين في فرنسا حاولت كسب دعم يهود الشرق بوعدها بتأسيس (كومنولث) يهودي في فلسطين ، وذلك من اجل تسهيل مخططاتها في استعمار المشرق العربي • ووجه نابليـــون بونابرت ، حين كان يحـــاول تأسيس امبراطورية فرنسية في الشرق ، نداء الى يهود آسية وافريقية يدعوهم لتأييده ، ووعدهم باعادة مملكة القدس القديمة[٧٩] • ثم وجدت بريطانيا أن توطين اليهود في فلسطين يخـــدم مصالحها الامبراطورية ، ومن هنا حماية بريطانيا لليهود في فلسطين ومحاولاتها المتعددة في القرن التاسع عشر ، لتوطينهـــم فيهـــا • وكان لسيطرة البورجوازيـــة في أوروبـــا ، آنـــذاك ، أن فتح المجتمع البورجوازي المجـــال أمـــام المواهب • ولـــم يرحب بالاعتمـــاد على الكفـــاءة أكثـــر مـــن الأقليـــات ، مثـــل اليهـــود ، الذيـــن اكتفـــوا سابقـــا بأمـــور التجـــارة أو الدين ، وقلما تجرأوا على الظهور بشهرة كبيرة ، فآل روتشيلد كانوا أغنياءسابقا ، ولكن الآن اشتهروا كأغنياء وقبلوا في عداد الطبقات المتميزة ومنحوا لقب بارونات

ورائيين في عام ١٨٢٨ . واشتهر عدد من أصحاب الكفاءات اليهود في مجال السلطة ، مثل رئيس وزراء بريطانيا دزرائيلي . وازداد اهتمام اليهود الأوروبيين بيهود فلسطين ، في القرن التاسع عشر ، ويذكر أن السير موسى مونتفيوري قام بسبع زيارات الى فلسطين لحماية يهود دمشق من تهمة قتل في ١٨٤٠ ، وأنشأ عدد من اليهود الفرنسيين ، في عام ١٨٦٠ ، الاتحاد الاسرائيلي العالمي في باريس ، وكانت مهمته الرئيسة نشر التعليم والحرف ، والاهتمام باللغة العبرية بين يهود فلسطين ، وأقيمت له مراكز أخرى في أوربا[٨٠] .

وحدث تطور هام في وضع اليهود في فلسطين ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ أن الاسر السفارديم القديمة بدأت تفقد نفوذها ، مثل اسرة فرحي التي ذكر أن عددا كبيرا من أفرادها قد أصبحوا فقراء في حوالي منتصف القرن[٨١] .

ولم تظهر بين يهود فلسطين أية حركة قومية أو ثقافية ، وانما جاءت تلك من أوروبا حين بدأت في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر هجرة يهودية أوربية الى فلسطين من قبل أناس طالبوا بجعلها وطنا قوميا لليهود ، يتميز عما حوله بثقافة خاصة ويسيطر على ما حوله . وفي موجة الهجرة (عالية بالعبرية) الأولى، التي بدأت في عام ١٨٨١ ، ودامت قرابة عشرين عاما ، وصل الى فلسطين بين عشرين وثلاثين ألف يهودي ، وكانوا من أصل أوربي شمالي اشخنازيم وبذلك تحولوا الى طرح فكرة الدولة اليهودية . وكانوا علمانيين بالمقارنة مع اليهود المحليين المتدينين ، واعتمدوا على الزراعة لكسب معيشتهم . وكانت هذه الهجرة بداية التنفيذ العملي للفكرة الصهيونية ، قبل انعقاد أول مؤتمر صهيوني دعا اليه هرتزل في مدينة بال بسويسرا ، في عام ١٨٩٧ . ورغم أن الحركة الصهيونية قد تأثرت بالأفكار القومية الاوربية ، وبخاصة في دعوتها الى العلمانية ، فقد ركزت نشاطها بين يهود أوربا الشرقية، وبخاصة روسيا، وشجعتهم على الهجرة الى فلسطين. وقد رحبت الرأسمالية اليهودية في الغرب بفكرة الوطن القومي لأن ذلك يمكنها من توسيع عملياتها . واتخذ العثمانيون عدة اجراءات ، في أواخر القرن التاسع عشر ، للحد من استيطان اليهود في فلسطين ، كتحديد مدة الاقامة ، ودفع غرامة على المخالفين والاحتجاج على محاولات السفارات الأجنبية وبخاصة البريطانية ، حماية اليهود بموجب نظام

الامتيازات ، ولكنها لم تتجاوز ذلك الى اجراءات حاسمة في الموضوع ، ربما خوفا من الدخول في منازعات مع الدول الاوربية ، وكانت هذه الدول الرأسمالية ،وبخاصة منها بريطانيا الاستعمارية ، تجدفي فكرةالوطن القومياليهودي سندا لاستراتيجيتها. وجاءت الحرب العالمية الاولى وضرورة استجداء بريطانيا العطف اليهودي الامريكي لدعم المجهود الحربي ، واقناع يهود روسيا بالضغط على حكومة الثورة للاستمرار في الحرب ، فأصدرت وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ولم يكد يصدرهذا القرارحتى سارعتتركيا وألمانيا، في كانون الاول ١٩١٧ وتموز ١٩١٨، لاعطاء اليهود امتيازات في فلسطين لكسب ودهم. وقد عمل الصهاينة على كسب التأييد للتصريح الذي أعطي لهم فأيدته فرانسا وايطاليا وأمريكا في ١٩١٨ ، وهكذا ارتبط مصير الصهيونية بمصير الحلفاء .

ولاستكمال تاريخ الحركة القومية في المشرق العربي يجدر بنا التعرف على الاوضاع في العراق بصورة عامة ، وتطور الفكر القومي فيه بصورة خاصة ، منذ القضاء على المماليك في عام ١٨٣١ .

حاول العثمانيون ، اثر قضائهم على داود باشا ، آخر الولاة المماليك في بغداد ، فرض نفوذهم بقوة في العراق ، بخاصةوان الدولةفي عهدالسلطان محمود الثاني كانت قد أقامت أسس الاصلاح ، وضربت مراكز القوة ، كالانكشارية ، وحاولت استعادة سيطرتها على الولايات . وقد عينت القائد علي رضا باشا ، الذي قضى على داود باشا ، واليا على ولايات بغداد ، وحلب ، وديار بكر ، والموصل ، تقديرا لجهوده وتدعيما لموقفه في حكم العراق .

وكان على الادارة العثمانية ، في عهدها الاصلاحي الجديد في القرن التاسع عشر مواجهة المشكلات التقليدية التي هددت الامن في العراق : الاكراد والبدو . وبعد أن قضى العثمانيون على حكم المماليك في بغداد وآل الجليلي في الموصل ، بدا من الضروري لهم القضاء على الامارات الكردية شبه المستقلة في المناطق الشمالية ، وهكذا قضوا في الفترة بين ١٨٣٥ و ١٨٥٠ ، على الامارة الصورانية ، ومركزها راوندوز ، والامارة البابانية ، ومركزها السليمانية ، والامارة البهدينانية ، ومركزها العمادية ، والامارة البوتانية، ومركزها جزيرة ابن عمر[٨٢] . كما قضى العثمانيونفي

عهد والي بغداد مدحت باشا (١٨٦٩ — ١٨٧٢) ، على نفوذ اليزيديين ، وهم عشائر كردية في سنجار. ورغم ان القضاء على الامارات الكردية قد أعاد النفوذ العثماني الى المنطقة ، الا أن الاكراد في غياب الامارات المتنازعة ، شعروا بوجودهم ككل وبضرورة تحررهم من العثمانيين. واتفق ذلك مع الحركة القومية العربيه في العراق التي ناضلت هي الأخرى للتحرر من العثمانيين ، ومن هنا التماثل والعمل المشترك بين الفريقين .

ولم يكن البدو في العراق أمرا طارئا ، كما لم تختلف السياسة العثمانية في فترة قوتها ، في القرن التاسع عشر ، عن سياستها التقليدية تجاههم ، بضرب قبيلة بأخرى ، أو بتأليب أقسام القبيلة بعضها على بعض . وطبيعي أن هذه السياسة لا تؤدي الى نتيجة ايجابية اذ سرعان مايجعلها ضعف السلطة المركزية متلاشية ، والأجدى تشجيع القبائل على الاستقرار ، ومساعدتها على حفر الأقنية ، وضمان ملكية الارض لها ، أو حق التصرف بها ، ووضع ضرائب عادلة عليها ، واتباع سياسة المكافأة بشكل سخي والمعاقبة بصورة بناءة[٨٣]. وقد عمد واليا بغداد : نجيب باشا (١٨٤٢ — ١٨٤٩) ونامق باشا (١٨٥٢ — ١٨٥٣ و ١٨٦١ — ١٨٦٨) ، الى العنف في معالجة البدو ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، وقاوم البدو ، وفي طليعتهم المنتفق والخزاعل ، وبنولام ، كل محاولة عثمانية للحد من نفوذهم وجعل رؤسائهم مجرد موظفين في الدولة . وقد جابه مدحت باشا ، المعروف بأبي الدستور ، تمرد البدو في منطقة الحلة ، جنوبي بغداد ، في أعقاب قضائهم على بعثة حكومية حاولت جمع الضرائب منهم ، ولهذا جعل مدحت باشا همه ، وكذلك الولاة الذين خلفوه ، ايجاد حل لمشكلة البدو عن طريق معالجة قضية الأرض التي يرتادونها . وكانت البصرة ، بموجب قانون الولايات العثماني الصادر في عام ١٨٦٤ ، تابعة لبغداد ، مما ألقى مسؤوليات كبيرة على ولاة بغداد ، نظرا لشمول ولايتهم معظم قبائل العراق . وارتأى مدحت باشا الحل في تطبيق قانون الاراضي العثماني الصادر في ١٨٥٨ ، وبموجبه يعطي حق تملك الأرض للمتصرفين فعلا بها . وكانت الفوضى شاملة في نظام الاراضي، فبعض الولاة أعطوا الاراضي مجانا لمن يريدون ، وتمسك أبناء أصحاب الاقطاعات (التيماريون) باقطاعات آبائهم ، وتم بيع وشراء أراضي الدولة لاجيال دون علم

الحكومة ، كما ادعى مشايخ القرى والقبائل بملكية الاراضي التي تصرفوا بها . وقد أعاقت هذه المخالفات تطور النظام الزراعي ، ولذلك ارتأى مدحت باشا بيع الأراضي للمتصرفين بها بمبالغ زهيدة ومقسطة لاغرائهم بحسن استغلالها والاستقرار فيها . وقد أنشأ مكاتب (الطابو) لهذه الغاية ، وهدف من وراء ذلك تسوية أوضاع مغتصبي الأراضي ، وبخاصة مشايخ القبائل ، الذين يمكن للدولة فرض سلطتها عليهم بهذه الوسيلة ، لأنها ، عندئذ ، تتحكم بمياه الري الضرورية لأراضيهم وتفرض الضرائب على منتجاتهم ، وفي نهاية الأمر يزداد محصول الدولة . وقد اعترض هذا الاصلاح صعوبتان : جهل موظفي الطابو وسوء تصرفهم ، وشك أصحاب العلاقة وبخاصة مشايخ البدو ، بحسن نية الحكومة . وكره هؤلاء الاستقرار وما يترتب عليه من تجنيد أبنائهم في الجيش ، والاعتماد على السوق المحلية لكسب العيش . وبالنتيجة ، تكتلت معظم الأراضي في أيدي بعض المتنفذين من سكان المدن من التجار والاسر الاقطاعية ، الذين عرفوا كيف يحصلون عليها ، بأساليب ملتوية ، من موظفي الطابو . ورغم أن بعض زعماء القبائل ، مثل الشيخ ناصر السعدون زعيم المنتفق ، تعاون مع مدحت باشا ، وحول أراضي قبيلته الى صنجق ، وعين هو متصرفا ، ثم واليا ، على البصرة ، التي فصلت عن بغداد في عام ١٨٧٦ ، فان زوال منصبه وزعامته في ١٨٨١ ، أعاد قبائل المنتفق الى الثورة . وهكذا يكون مشروع الدولة في السيطرة على البدو بجعلهم مزارعين قد فشل ، وبقيت القبائل تعد الأرض التي بامكانها الدفاع عنها ملكها[٨٤] .

وشهد العراق في القرن التاسع عشر ازدياد النفوذ البريطاني بحكم مصالح شركة الهند الشرقية فيه . ولم يكن النفوذ التبشيري الأوروبي ناشطا فيه ، كما كان الأمر في بلاد الشام ، حيث العلاقات مع أوروبا قديمة ، دينيا وثقافيا . ولم يحدث تنافس بريطاني ـ فرنسي حول العراق بالدرجة التي كان عليها في مصر والى حد ما في بلاد الشام . وتركز النفوذ البريطاني حول خطوط المواصلات ، والسعي لاستخدام الأنهار في الملاحة ، لأجل تسهيل الاتصال بالهند ، عن طريق بلاد الشام . وفي عام ١٨٣٦ قام الانكليزي شيزني (Chesney) بتسيير باخرة في الفرات الى الخليج العربي ، ورغم التنافس بين الشركات البحرية البريطانية والمحلية ، وبخاصة تلك التي تديرها

الدولة العثمانية ، فقد دامت شركة لينش (Lynch) البريطانية ، التي تأسست في عام ١٨٦١ حتى عام ١٩٥١ ، وكان ينافس طريق العراق النهري هذا الطريق المار بمصر ، سواء ذلك المار بالسويس الى الاسكندرية، أم المار عبر قناة السويس، فيما بعد[٨٥]، وكنا رأينا ، كيف أن الألمان ، في العقد الاول من القرن العشرين ، قد أسهموا في مد خط حديدي يربط استانبول ببغداد والخليج العربي ، وقد نشطت التجارة الاجنبية بنتيجة هذه التطورات في المواصلات .

ولم تشهد علاقات العراق مع بلاد فارس ، في القرن التاسع عشر ، العنف الذي كانت عليه في القرون الثلاثة السابقة ، ويعزى ذلك الى اشتغال الأسرة القاجارية الحاكمة في فارس (١٧٩٤ ــ ١٩٢٥) ، بالخطر الروسي ، الذي هدد أغنى مناطقها ، أذربيجان ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وجرجان وخراسان، في نصفه الثاني . وتدخلت بريطانيا في هذا الصراع خوفا من تهديد روسيا لمصالحها في الهند[٨٦] . واقتصرت العلاقات السياسية بين فارس والعراق على حوادث عادية على الحدود ، وايواء اللاجئين ، ودعم كل طرف لقبيلة معينة ، أو امارة كردية ، في أراضي الطرف الآخر . ووقعت بين الطرفين معاهدة أرضروم في ١٨٤٧ ، وبموجبها أعطيت فارس المحمرة ، كما سويت قضايا قبائل الحدود ، والحج والملاحة .

وقد افسح غياب الاعتداءات العنيفة على الحدود مع فارس في المجال لحكام العراق للقيام بعدد من الاصلاحات ، امتدادا لما جرى في استانبول مثل ايجاد جيش حديث تألف من أفراد نظاميين ومن احتياط ، وادخال الجندية الاجبارية (رديف) ، وتنظيم الولايات ، وتحسين أقنية الري والمواصلات النهرية والحديدية ، كما افتتحت في عام ١٨٦٨ ، مصلحة للبريد بريطانية ــ هندية في بغداد والبصرة ، وسرعان ما تلتها مصلحة بريد تركية . ورغم الخطوات البطيئة في مجال التربية ، فقد تحسن أمرها في عهد مدحت باشا، وازداد عدد المثقفين من حوالي نصف بالمائة في ١٨٥٠ الى مابين خمسة وعشرة بالمائة في ١٩٠٠ ، وافتتحت الدولة ، الى جانب المدارس الحربية، مدرسة ابتدائية في كل قضاء[٨٧] . وتأسست مدرسة ثانوية للبنين في بغداد في عام ١٨٧٠ ، ومدرسة ابتدائية للبنات في ١٨٩٨ ، وافتتح المسيحيون واليهود المدارس في المدن الكبرى ، وعرفت المدرسة اليهودية بالاليانس . وأقيمت المطابع في المدن

الكبرى ، وكانت أولاها تلك التي تأسست في بغداد في عام ١٨٦٩ من قبل مدحت باشا . وأنشأ هذا الوالي جريدة حكومية أسماها « الزوراء » ، وهي أول جريدة في العراق ، واستمر اصدارها حتى عام ١٩١٧[٨٨] .

أسهمت هذه الاصلاحات في رفع المستوى الثقافي لدى الشعب العراقي وجعلته بالتالي أكثر وعيا لقضاياه الوطنية . ومع ذلك ، فلم تكن الحركة القومية العربية في العراق ، بالشدة نفسها التي كانت عليها في بلاد الشام ، لأن هذه احتكت بالغرب وتأثرت بأفكاره قبل العراق والى حد أبعد منه . وكان نشر التراث العربي ، ودعوة الادباء الى التآخي الوطني ، وايقاظهم الوعي القومي في الشام ، بسبب الاحداث التي مروا بها ، سواء ابان الحكم المصري أم خلال الأحداث الطائفية التي تلت ، في أساس الجمعيات الوطنية التي ازدهرت فيها . ولكن العراق شهد الى جانب ثورات البدو ، التي كانت ظاهرة دائمة في تاريخه ضد السلطة المركزية ، عدة ثورات شعبية ، في القرن التاسع عشر ، في المدن والريف ، ضد شدة الولاة الأتراك ومحاولتهم اتخاذ اجراءات ، مثل التجنيد ، ليست في صالح الشعب العراقي[٨٩] .

واذا كان العراق لايوازي الشام في عدد الجمعيات السياسية ونشاطها ، فان ذلك لم يمنع العراقيين ، وبخاصة العسكريين منهم ، الذين خدموا جنبا الى جنب مع اخوانهم العرب في الجيش العثماني ، من المشاركة في عضوية ونشاط هـذه الجمعيات التي لم تكن في الواقع لبلد واحد بل للأمة العربية .

ثم تسارعت الاحداث ، على صعيد الحركة القومية ، في العراق في أعقاب ثورة ١٩٠٨ في استانبول . وتمثل العراقيون بعدد من النواب في مجلس المبعوثان الذي دعي للانعقاد في استانبول في كانون الاول ١٩٠٨ ، ومن أبرز هؤلاء النواب فؤاد الدفتري والشاعر جميل الزهاوي وتعاونوا في استانبول مع النواب السوريين ، وشكلوا معا كتلة متراصة ، سواء في المجلس أم في « المنتدى الادبي » ، ولكن المقاومة التي لقيتها جهود العرب ، بعد أن وطد جماعة الاتحاد والترقي سيطرتهم ، وجندوا العراقيين في الجيش التركي ، وأرسلوهم للموت في مناطق بعيدة ، أخذت تنشـر التذمر بين أعداد أكبر من العراقيين وتقرب ، أكثر فأكثر ، بينهم وبين دعاة القومية

والتحرر في الشام • وجرى اتصال بين العراقيين والجمعية القحطانية السرية التي طالبت بمملكة عربية ضمن الاطار العثماني ، وكذلك بينهم وبين الجمعية العربية الفتاة • ولعب العراقيون دورا أكبر في حزب اللا مركزية الادارية العثماني ، الذي اشتد نشاطه في كل من بغداد والبصرة • وكثرت المطبوعات في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، وكانت تدعو اما الى الجامعة الاسلامية أو الى القومية العربية • وفي عام ١٩١٣ بدأت الملصقات المناوئة للاتراك تملأ شوارع بغداد في الليل ، ومثلما ظهر مدنيون وعسكريون في العمل القومي في بلاد الشام ، فقد اشتهر في العراق السيد طالب النقيب في البصرة ، وشيخ قبائل خزعل في المحمرة ، الى جانب العسكريين العراقيين في الجيش التركي ، من أمثال نوري السعيد وجميل المدفعي ، اللذين انتسبا الى جمعية العهد السرية ، التي افتتحت لها فروعا في بغداد والموصل •

ولم يهمل القوميون العرب في الشام ، من ناحيتهم ، دعاة القومية في العراق ، فقد أشركوهم في مؤتمر باريس • وعندما اعترف الانكليز ، في محادثات حسين ــ مكماهون باستقلال العرب كانت احدى تحفظاتهم ضد «وضع البصرة وبغداد تحت ادارة خاصة » وهذا يعني سيطرة انكليزية مباشرة على العراق الأسفل ، فأصر الشريف حسين على أن العراق يجب أن يدخل في المنطقة العربية المستقلة ولكنه وافق أن القسم الاسفل منه يمكن أن يحتله الانكليز مؤقتا ريثما تقرر المفاوضات أمره ، وبقيت القضية معلقة على هذا النحو حتى نهاية الحرب العالمية الاولى •

وكانت سياسة الاتحاديين التي نفذها أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية قد اشتدت وطأتها على العرب منذ أن فشل الهجوم التركي ــ الالماني على قناة السويس في شباط ١٩١٥ • وكان جمال هذا أول ما قدم سورية ، قد حاول التقرب من العرب ، وأخذ يلح على الناحية الاسلامية لاستثارتهم في الحرب • ولم يستغل الوثائق التي عثر عليها في قنصليتي فرنسا ، في بيروت ودمشق ، حول اتصال عدد من الوطنيين بفرنسا ، لأن بعض المشتركين فيها من المسلمين ، ولكنه سرعان ماتنكر لهم بعد فشله في السويس وشعوره بنقمة العرب على العثمانيين ، فجرد الحركة العربية من ضباطها وجنودها في الجيش التركي ، وأرسل الفرقة الخامسة والعشرين

الى جبهة غاليبولي واستبدل بها جنودا أتراكا • ثم لاحق الوطنيين بتهمة الاتصال بالاجانب استنادا الى الوثائق السابقة وأحالهم الى المحاكم العرفية في عالية فحكم على ثلاثة عشر منهم بالاعدام ، ونفذ الحكم في أحد عشر ، كما حكم على خمسة وأربعين شخصا غيابيا • ولم ينفع وجود فيصل في دمشق والتماسه العفو من جمال وتدخل الحسين بالذات لمنع تنفيذ الاعدام في ٦ أيار ١٩١٦ ، بسبعة وطنيين في دمشق وأربعة عشر في بيروت بتهمة العمل على فصل سورية وفلسطين والعراق عن الدولة العثمانية ، وكانت الفرصة مواتية لاعلان الثورة العربية على الاتراك في ٥ حزيران ١٩١٦ •

واذا لم نعد الثورة العربية عملية عسكرية من الدرجة الأولى[٩٠] ، لأنها تمت بمساعدة الانكليز ، الا أن تأثيرها في الفكرة القومية من الأهمية بمكان ، فقد أثارت مشاعر العرب كلهم حتى أن طبقات الشعب التي لم تمارس أي نشاط سياسي حتى الآن ، بدأت تشعر بالفكرة القومية ، وانقلبت على تركيا ، وابتهجت بالانتصارات العربية • ويذكر أن القوات التركية التي كانت تقاتل العرب أكثر من القوات التي كانت تقاتل الانكليز، وذلك بالرغم من شدة وطأة الحكم العسكري التركي في السابق، وانهاك قوى الشعب بالمجاعة التي كانت ضحاياها مئات الألوف في بلاد الشام أثناء سنوات الحرب • وثار ، كذلك ، كثير من العراقيين ودعموا الانكليز بأمل الحصول على استقلالهم ، وحدثت الثورات على الاتراك في النجف وكربلاء والحلة والكوفة في ١٩١٥ ــ ١٩١٦ ، ولم يتعاون الانكليز في العراق مع العرب ضد الاتراك رغم نجاح العرب في الحجاز والشام • وسبب ذلك ، بالدرجة الاولى ، موقف الادارة الانكليزية في الهند التي عارضت تنمية آمال العرب القومية لانها ترغب في ضم العراق الى الامبراطورية البريطانية •

وخسر العثمانيون بنتيجة الحرب العالمية الاولى كافة البلاد العربية ، وفي الواقع جميع امبراطوريتهم خارج الاناضول باستثناء استانبول ، وهكذا عادوا ، بعد ستمائة سنة من التوسع ثم الانحسار الى المنطقة التي خرجوا منها في امارة عثمان في الاناضول • أما العرب فقد خاضوا أولى تجاربهم في الثورة في القرن العشرين ، بقيادة البورجوازية المثقفة والزعماء التقليديين • ووقع المشرق العربي بنتيجة الحرب

العالمية الاولى ، تحت الاستعمار الاوربي ، وتساوى في ذلك مع المغرب العربي وأدت وحدة الاستعمار الى وحدة النضال • ورغم أن القوى التقليدية التي ارتكزت على زعامات قبلية أو دينية ، بقيت ناشطة في الساحة الوطنية ضد الانتداب ، الا أن قوى جديدة من البورجوازيين وبعض الاقطاعيين المثقفين المقيمين في مراكز المدن بدأت أولا تتعاون معها ، ثم حلت بالتدريج مكانها • وبانتشار الثقافة اخذت قاعدة الحركة الوطنية تتسع وجماهيريتها تزداد وظهرت تيارات جديدة في الثلاثينات والى حد أكبر في الاربعينات تهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية •

—*—

١ ــ انظـر :

٢ ــ انظر تفاصيل الاصلاحات العثمانيـــة وتحليل بواعثها واوجهها في :
Ibid., 91-92.

٣ ــ انظر حول جمعيتي تركيـا الفتاة ، والاتحاد والترقي ، الكتابين الهامين التاليين :

Feroz Ahmad, **The Young Turks - The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914**, O.U.P. 1969; E. Ramsaur, **The Young Turks**, reprinted by Khayats, Beirut, 1965.

٤ ــ انظر : Holt, **Egypt and the Fertile Crescent**, pp. 232-234

٥ ــ انظر تفاصيل هذه الاحداث في :

H H. Dodwell, **The Founder of Modern Egypt**, Cambridge, 1931, pp.41-43.

٦ ــ هذه المعلومات ماخوذة من كتاب :
P.M. Holt, **A Modern History of the Sudan**, London, 1961, pp. 35-37.

٧ ــ انظر : Ibid., 37-48.

٨ ــ انظر : Dodwell, pp. 67-93.

٩ ــ انظر حول هذه الثورة القصيدة الزجلية التي نظمها احمد الرباط فيها ، ضمن مخطـوط يضم مجموعة ازجال ومواويل عن دمشق ، لاحمد الرباط ، الظاهرية ، رقم ٨٧٤٩ ، وانظر كذلك : مذكرات تاريخية ، لاحد كتاب الحكومة الدمشقية نشرها قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ .

١٠ ــ انظر حول تاثير الاقتصاد الاوروبي المتصنع على الاقتصاد والمجتمع التقليدي في بـلاد الشـام :

D. Chevallier, **La Société du Mont Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe**, Paris 1971.

١١ ــ انظر حول الحكم المصري لبلاد الشام : اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ اجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ــ ١٩٣٤ ، اسد رستم وصبحي ابو شقرا ، فهرس وثائق الشام في عهد محمد علي الكبير ، القاهرة ١٩٥٢ ، اسكندر ابكاريوس ، المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية ، حمص ، ١٩١٠ ، مذكرات تاريخية نشر قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٢٥ ، كمـال الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ١٩٦٧ .

وانظر ايضا :

W. Polk, **The Opening of South Lebanon, 1788 - 1840**, Harvard, 1963, pp. 82 - 226.

١٢ ــ انظر نص البيان الذي وزعه نابليون على المصريين ، في الجبرتي ، جـ ٣ ، ٤ ــ ٥ .

١٣ ــ انظر البحث الموجز لهذه الاحداث في :
Holt, **Egypt and the Fertile Crescent**, pp. 155 - 163.

١٤ ـ انظر حول ثورات الفلاحين في جبل لبنان في هذه الفترة :

أ . سميليا نسكايا ، الحركات الفلاحية في لبنان ، ترجمه عن الروسية عدنان جاموس ، بيروت ، ١٩٧٢ .

١٥ ـ انظر حول تفاصيل احداث دمشق :محمد ابي السعود الحسيبي ، حادثة الستين ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٤٦٦٨ ، وانظر الدراسة التي قام بها لهذا المخطوط :

Kamal Ealibi, «The 1860 upheaval in Damascus as seen by al-Sayyid Muhammad Abu'l Su'ud al-Hasibi, notable and later naqib al-Ashraf of the city», in **Beginnings of Modernization in the Middle East**, edd. W Polk and R. Chambers, Chicago, 1968, pp. 158-202.

وانظر حول اثر الاقتصاد الاوربي المتصنع على الاقتصاد والمجتمع في بلاد الشام :

D. Chevallier, «Western development and Eastern crisis in the mid-nineteenth century: Syria confronted with the European economy», op. cit. pp. 205 - 222.

١٦ ـ انظر نص الخطاب وتفاصيل زيارة الامبراطور غليوم الثاني لدمشق وغيرها : ابراهيم الاسود ، الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية ،لبنان ، ١٨٩٨ ، ص ١٨١ .

١٧ ـ انظر حول هذه النشاطات : بريك ،تاريخ الشام ، ص ٣ ـ ٦ ، وانظر ايضا :

G. Levenq, **La Première Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie, 1625 - 1774**, Beyrouth, 1925; R. Haddad, **Syrian Christians in Muslim Society**, Princeton, 1971.

١٨ ـ انظر : J. Marriott, **The Eastern Question**, London, 1951, p. 336.

١٩ ـ انظر حول تطور الاحداث في مصر في هذه الفترة : عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل الجزءان الاول والثاني ، القاهرة ، ١٩٤٨ ،والثورة العربية والاحتلال الانكليزي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ، القاهرة ١٩٥٢، وانظر ايضا :

Holt, **Egypt and the Fertile Crescent**, pp. 193-216; J. Marlowe, **Anglo-Egyptian Relations 1899-1953**, London, 1954; H. Schonfied, **The Suez Canal in World Affairs**, London, 1952.

٢٠ ـ انظر حول حملات محمد علي باشا في السودان ، ما سبق ص

٢١ ـ انظر حول السودان في عهد اسماعيل ،الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ـ١٧٤

٢٢ ـ انظر : Holt, **A Modern History of the Sudan**, pp. 76-78.

٢٣ ـ هذه المعلومات ماخوذة من :

Ibid., pp. 79-80; P.M. Holt, **The Mahdist State in the Sudan 1881-1898**, O.U.P. 2nd ed., 1970, pp. 45-55.

٢٤ ـ انظر حول تاريخ السودان في هذه الفترة . عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، محمد فؤادشكري ، الحكم المصري في السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩ ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، وانظر ايضا الدراسات الهامة التالية :

P.M. Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881 - 1898, OU..P., 2nd ed. 1970, A Modern History of the Sudan London, 1961, «Modernization and Reaction in the Nineteenth-Century Sudan», in Beginnings of Modernization in the Middle East, pp. 401-415, «The Nilotic Sudan», in The Cambridge History of Islam, Vol. II, pp. 327-344; A.H. Macmichael, The Sudan, London,1954; S. Trimingham, Islam in the Sudan, London, 1954.

٢٥ ـ الرافعي عصر اسماعيل ، ج٢،٨٥ .

٢٦ ـ انظر :

J. Landau, Parliaments and Parties in Egypt, New York, 1954, pp. 7-40

٢٧ ـ انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى ،مصر والمسالة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٢٨ ـ مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية ، القاهرة ، ١٢٨٦ هـ ، ص ٧ .

٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

٣٠ ـ المصدر السابق ، ص ٦٨ ـ ٧٥ .

٣١ ـ انظر حول الطهطاوي : جمال الدين الشيال ، رفاعة رافع الطهطاوي ، القاهرة ١٩٥٨ ، احمد احمد بدوي ، رفاعة الطهطاوي بك ، القاهرة ١٩٥٠ ، عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، وانظر كذلك :

K. al-Husri, Three Reformers, Beirut, 1966, pp. 11-31; A. Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939, O.U.P. 1962, pp. 69-83.

٣٢ ـ انظر حول التعليم في عهد اسماعيل : الرافعي عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ١٩٧ ـ ٢٠٦ .

٣٣ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٤٠ ـ ٢٤٨ .

٣٤ ـ انظر حول اعمال اسماعيل هذه : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤ ـ ٢٤ ، ١٥٨ ـ ١٩١ .

٣٥ ـ حول الصحافة في عهد اسماعيل ، انظر المصدر السابق ، ج ١ ، ٢٤٧ ـ ٢٦٠ .

٣٦ ـ انظر : Hourani, Liberal Thought, pp. 103 - 127.

٣٧ ـ انظر حول اهمية محمد عبده وافكاره : المصدر السابق ، ص ١٣٠ ـ ١٦٠ .

٣٨ ـ انظر مقالنا : ثورات العساكر .

٣٩ ـ انظر حول الحزب الوطني : Landau, pp. 84-100.

٤٠ ـ انظر حول عزله : احمد عبد الرحيم مصطفى ، ص ٨٢ .

٤١ ـ انظر :

J.M. Ahmad, **Intellectual Origins of Egyptian Nationalism**, London, 1960, p. 26.

٤٢ ـ انظر : فوزي جرجس ، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٨٧ .

٤٣ ـ انظر حول المذكرة : احمد عبد الرحيم مصطفى ، ص ١٧٠ ـ ١٧٨ .

٤٤ ـ انظر ص

٤٥ ـ انظر :

Earl Cromer (Evelyn Baring), **Modern Egypt**, 2 vols., London, 1907, ii, p. 334.

٤٦ ـ انظر الدراستين التاليتين الخاصتين بعرابي : عبد الرحمن الرافعي ، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، محمود الخفيف ، احمد عرابي ، الزعيم المفترى عليه ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٤٧ ـ انظر حول سيرته الكاملة : عبد الرحمن الرافعي ، مصطفى كامل ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٤٨ ـ انظر حول احداثها : الرافعي ، مصطفى كامل ، ١٩٧ ـ ٢٣٦ .

٤٩ ـ انظر : Earl of Cromer, **Abbas II**, London, 1915, Preface, P.X.

٥٠ ـ انظر حول تاسيسه : الرافعي ، مصطفى كامل ، ٣٥٦ ـ ٣٦٢ ، وانظر كذلك :
Landau, pp. 137-140; Jamal Muhammad Ahmad, pp. 68-76.

٥١ ـ انظر حول سيرته: عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥٢ ـ انظر حول تطور نقابات العمال في مصر: رؤوف عباس ، الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٥٣ ـ انظر حول هذه الاحزاب :

Landau, pp. 104-135, 141-142; Jamal Muhammad Ahmad, pp. 76-79,80-81

٥٤ ـ انظر بشأنهم :

G. Antonius, **The Arab Awakening**, London, 1955, pp. 45-51.

٥٥ ـ وقد نشرت له بعض المقالات في مجاني الأدب الكتاب القرن التاسع عشر ، جمع يوسف صفير بعيدا ، ١٧٩٨ .

٥٦ ـ انظر : منير مشابك موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث: سورية في القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨ ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤ .

٥٧ ـ انظر : سامي الكيالي ، الحركة الادبية في حلب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٩٤ .

٥٨ ـ انظر : Hourani, p. 248. ، منير موسى ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٥٩ ـ منير موسى ، ص ٨٧ .

٦٠ ـ المصدر السابق ص ٨٦ .

٦١ ـ انظر شــرح اراء فرح انطـون في : .Hourani, pp. 253-259 وانظر ايضا : هشام شابي ، المثقفون العرب والغرب ، بيـروت ١٩٧١ ، ص ٨٤ .

٦٢ ـ انظر الدراسة التحليليةحول رشيد رضاالتي قام بها :
Hourani, pp. 222-244, 200-306.

وانظر ايضا الامير شكيب ارسلان ، السيدرشيد رضا او اخاء اربعين عاما ، دمشق ، ١٩٣٧

٦٣ ـ Hourani, p. 304

٦٤ ـ انظر : طبائع الاستبداد ، حلب ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

٦٥ ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ .

٦٦ ـ انظر ص ٣٠٢ من الطبعة التي نشرها محمد عمارة بعنوان : الاعمال الكاملـة لعبـد الرحمن الكواكبي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٦٧ ـ طبائع الاستبداد ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

٦٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٦٩ ـ المصدر السابق ، ص ٧٩ .

٧٠ ـ انظر حول الكواكبي : Khaldun al-Husri, pp. 55-112;
Hourani, pp. 271-273.

وانظر كذلك ، توربير تابييرو ، الكواكبي المفكـر الثائر ، ترجمه عن الفرنسية علي سلامة ، بيروت ١٩٦٨ .

٧١ ـ انظر حول العازوري : Hourani, pp. 277-279; Antonius, pp. 98-99.

٧٢ ـ Antonius, pp. 164-183.

٧٣ ـ يقول الدكتور احمد قدري في كتابه :مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ١١٢ ((وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا وان كنا في السر نسـعى ونعمل وراءه)) .

٧٤ ـ انظر حول الزهراوي : جودة الركابي وجميل سلطان ، عبد الحميد الزهراوي،دمشق، ١٩٦٢ .

٧٥ ـ انظر : Feroz Ahmad, pp. 152-153.

٧٦ ـ انظر حول مفاوضات الحسين مكماهونواتفاقية سايكس ـ بيكو :
Holt, **Egypt and the Fertile Cresent,** pp. 264 - 277;

٧٧ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ٢ ، ص ١٦ .

٧٨ ـ الشيخ امين الجندي ، ديوان ، بيروت ، ١٣٢١ هـ ، ص ٧٥ .

٧٩ ـ انظر : د . خيرية قاسمية ، النشاطالصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٢ .

٨٠ ـ المصدر السابق ، ص ١٤ .

٨١ ـ انظر : Holt, Egypt and the Fertile Crescent, p. 245.

٨٢ ـ انظر حول هذه الامارات : عبد العزيزنوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ،١٩٦٨ص ٩٩ ـ ١٢٠ ، وانظر كذلك :

Longrigg,Four Centuries of Modern Iraq, pp. 285-287.

٨٣ ـ Ibid., p. 289.

٨٤ ـ Ibid., pp. 311,317; Holt, Egypt and the Fertile Crescent, pp. 250-295.

وانظر كذلك : نوار ، ص ٣٦٧ ـ ٣٨٠

٨٥ ـ انظر حول النشاط النهري هذا :

Longrigg, pp. 292-295; Holt, Egypt and the Fertile Crescent, pp. 252-253.

٨٦ ـ

A.K.S. Lamton. «Persia: the breakdown of society», The Cambridge Historiy of Islam, vol. I, p. 433.

٨٧ ـ انظر : القس سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ٣٢١ ، وانظر ايضا : Longrigg, p. 316.

٨٨ ـ انظر : بغداوي ، ج ٧ ، ٢٤١ ، ج٨، ٢١ ، وانظر ايضا :

A. Duri, s.v. Baghdad, E.I.2

٨٩ ـ انظر حول هذه الثورات : ابراهيم الوائلي ، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٦٠ ـ ٦٧ .

٩٠ ـ انظر حول هذه الثورة : دراسـات في الثورة العربية الكبرى ، الشركة الاردنية للنشر والتوزيع ، عمان .

—*—

المصادر العربية

١ ـ المخطوطات (١) : ـ

(مجهول المؤلف) : تاريخ ماوقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ هـ (حتى ذي القعدة ١١٩٨) المكتبة الوطنية في باريس ، رقم (Arabe 1856) .

= = : تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب جامعة (Yale) في الولايات المتحدة الامريكية ، رقم (Landberg 229) (٢) .

= = : الدرة المنصانة في وقائع الكنانة ، المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا رقم (Cod. Arab. 399) .

= = : ذكر أسماء من تولى قضاء دمشق الشام من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهرية ، رقم (٤٤١٩) .

= = : ذكر من تولى دمشق من البكلربكية العظام في دولة بني عثمان الظاهرية ، رقم ٣٦٨١ .

---

١ ـ يمكننا ان نشير هنا الى الوثائق والحجج المخطوطة باللغتين العربية والتركية والعائدة للمحاكم الشرعية في بلاد الشام من العهد العثماني ، وتوجد وثائق بعض هذه المحاكم مثل وثائق محاكم حلب ودمشق ، في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق .

٢ ـ لا يوجد ذكر في المخطوط لاسم المؤلف ، وفي الورقة ١ب من المخطوط ترد العبارة التالية بعد العنوان : لعالم دهره الشيخ (دون ذكر أي اسم بعد ذلك) ، وجاء في فهرس مخطوطات مكتبة جامعية :

Leon Nemoy, Arabic manuscripts in the Yale University Library, Yale University Press, 1956, P. 141 (item 1323):

ان اسم المؤلف هو محمد بن يوسف الحلاق ، ويبدو أن مؤلف هذا الفهرس قد استعار اسم المؤلف من مخطوط آخر يحمل نفس العنوان ويوجد في المكتبة الوطنية في فيينا ومؤلفه هو محمد بن يوسف الحلاق ، كما أشار الى ذلك كارل بروكلمان في كتابه :

Geschichte der Arabischen Literature, G. II. 298.

ومما تجدر الاشارة اليه أن مؤلف الفهرس أشار الى مصدر بروكلمان هذا دون تعليق وذلك في نهاية وصف المخطوط ، ويجب القيام بدراسة مقارنة لهذين المخطوطين وغيرهما من النسخ المخطوطة اذا وجدت للتأكد من اسم المؤلف .

(مجهول المؤلف) : ذكر من تولى الوزارةوامارة الحج الشريف من الوزراء الفخام بدمشق من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهرية رقم ٤٤١٩ .

= = : ذكر نبذة في الدولة الرومية والسلطنة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين (١) ، رقم (9728. Mq. 461) .

= = : رسالة في من تولا وقضا وافتا (كذا !) في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة الف ومايتين واربعين ،(للمخطوط عنوان آخر هو : ذكر دمشق الشام وتاريخ وزرها وقضاتها ومفتييها) ، جامعة تيوبنغن (Tubingen) ، المانيا ، رقم (M. a VL 8) .

= = : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة ، المتحف البريطاني بلندن ، رقم (Add. 9972) .

= = : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، المتحف البريطاني رقم (Add. 23. 346) وقد نشر هذا المخطوط الدكتور احمد ابو حاكمة، بيروت ، ١٩٦٧ .

= = : نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان ، المكتبة الوطنية في باريس رقم (Arabe 1684) .

= = : هذا تاريخ جبل الدروز (أي جبل لبنان) ابتداه سنة ١١٠٩ وغايته ١٢٢٣ هـ ، مخطوط في مجموعة برلين رقم (8790. We. (II) 377)

= = : (تاريخ أسرة بشير الشهابي) ، المكتبة الوطنية في باريس رقم (Arabe 2111) .

= = : (كناش عن تاريخ آل الصباغ) ، المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا رقم (Cod. Arab. 901.

= = : (مخطوط مجهول العنوان عن تاريخ مصر من ٨٥٧/٤٥٣ الى ١١٢٠/١٧٠٩) ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم (Arab 1855) .

---

١ ـ توجد مجموعة مخطوطات برلين اليوم في برلين الغربية .

ابن جمعة ، محمد : الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 418 (II) .9785 We توجد نسخة مخطوطة اخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785. Spr. 188 وقد نشر النسخة الاولى الدكتور صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « الباشات والقضاة »في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ، وتوجد في الظاهرية بدمشق نسخة غير كاملة عن مخطوط ابن جمعة هذا وهي تتفق تقريبا مع نسخة برلين المذكورة أولا ، وقد أعطاها المصنف عنوان : قطعة من تاريخ ، رقم ٧٥٢٢ .

ابن زنبل (الرمال) ، أحمد : (تاريخ مصر) ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 انظر نسخة اخرى فيها برقم Cod. Arab 413 .

ابن الصديق حسن : غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 417 (II) .9832. We .

ابن عبد اللطيف ، الحاج حسن : (تراجم علماء ومشايخ عاشوا في القدس في القرن الثاني عشر الهجري) ، المتحف البريطاني رقم Or 3047 .

ابن علوان ، مرتضى : (وصف طريق الحج الشامي) مخطوط في مجموعة برلين رقم 1860 (II) .6137. We .

ابن كنان ، محمد بن عيسى : الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية (كذا !) ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، أرقامهما :
9479. We. (II) 1114; 9480. W. (II) 1115

= = : المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية،نسخة فوتوغرافية في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق ، رقم ٢٦ ، مصورة عن مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

الانصاري ، شرف الدين موسى : نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، الظاهرية ، رقم ٧٨١٤ .

الايوبي ، محمد سعيد : مجموعة تراجم لرجال من دمشق توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية ، رقم ٤٣٢٤ .

البديري ، أحمد : حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ – ١١٧٦ هـ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي ، الظاهرية ، رقم ٣٧٣٧ ، توجد نسخة اخرى في الظاهرية برقم ٤٢٨٣ ، نشر هذا المخطوط الدكتور أحمد عزت عبد الكريم القاهرة ، ١٩٥٩ ، انظر : البديري ، احمد ، في قسم الكتب المطبوعة من قائمة المصادر هذه .

البرزنجي ، جعفر : النفح الفرجي في الفتح الجتهجي ، الظاهرية ، رقم ٨٧٢٤ .

البصري ، عثمان بن سند : مطالع السعود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود ، المتحف العراقي ببغداد ، رقم ٢٣٣ .

البرلسي ، محمد : بلوغ الارب برفع الطلب ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، رقم ٨١ تاريخ ، (يوجد فلم مصور عن هذا المخطوط ، برقم ٢٦ ، في معهد احياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة) .

البوريني ، الحسن بن محمد : تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، المكتبة الوطنية في فيينا رقم Cod. Arab. 1190, Mixt. 346 انظم قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمة المصادر هذه حيث نذكر ان الدكتور صلاح الدين المنجد نشر قسما من هذا المؤلف معتمدا على نسخ اخرى من هذا المخطوط .

البيتماني ، حسين بن طعمة : (ديوان شعر) ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3175 .

الترك ، نقولا : حوادث الزمان في جبل لبنان ، الظاهرية رقم ٤٧٢٤ .

الحسيبي ، محمد : مجموعة تراجم لدمشقيين توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية رقم ٤٦٦٨ .

الحنبلي ، مرعي بن يوسف : نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 889 .

الخياري ، ابراهيم : تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 6135. We. (II) 125 .

الرباط ، أحمد : مجموعة أزجال ومواويل عن دمشق ، الظاهرية ، رقم ٨٧٤٩ .

السمان ، محمد سعيد : (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8090. Syr. 1124

= = : مختصر الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 1771 (II) .8947. We .

السويدي ، عبد الرحمن : تاريخ بغداد أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، المتحف البريطاني رقم : Add. 18, 507 وقد نشر الدكتور صفاء خلوصي قسما منه ، انظر قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمةالمصادر هذه.

السويدي ، عبد الله : النفحة المسكية في الرحلة المكية ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 23. 385 . (توجد نسخة أخرى عن هذا المخطوط في المتحف البريطاني برقم (Add. 7337) .

شلبي، أحمد : اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، جامعة (Yale) في الولايات المتحدة ، رقم Landberg, 3 .
حققهالدكتور عبد الرحيم عبد الرحمنعبد الرحيم ، القاهرة،١٩٤٧ .

شهاب ، حيدر أحمد : نزهة الزمان في حوادث عربستان ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) رقم Or. 63 (9) .

الشهالي ، علي بن حسن : نزهة الناظرين فيمن تولى مصر من البشوات والسلاطين الظاهرية ، رقم ٨٣٧٦ .

الصالحي ، ابراهيم (الحنبلي) : تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، المكتبةالوطنية في باريس ، رقم Arabe 1853

الصباغ ، عبود : الروض الزاهر في أخبار ظاهر ، المكتبة الوطنية في باريس رقم Arabe 4610 .

الصديقي ، محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقمCod. Arab. 925, A.F. 283

= = : عيون الاخبار ونزهة الابصار ، دار الكتب المصرية رقم (٧٣) .

= = : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، دار الكتب المصرية ، رقم تاريخ ١٩٢٦ .

= = : الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 9973 .

= = : النزهة الزهية في ذكر ولاةمصر والقاهرة المعزية ، دار الكتب المصرية، رقم ٢٢٦٦ .

الصديقي ، مصطفى بن كمال الدين : كشف الردا وغسل الرانفي زيارة العراق وما والاها من البلدان ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم
Qq. III.

= = : الخمرة الحسية في الرحلة القدسية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6149. Mq. 460 .

الطرزي ، مصطفى : (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم
8034, Pet. (I) 287

عثمان ، (؟) : (وصف لطريق الحج الشامي في ١١٥٦ هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 6147. Pm. (II) 105

الغزي ، نجم الدين : لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل كتابه : الكواكب السائرة) الظاهرية رقم ٤١ .

القينلي ، مصطفى بن الحاج ابراهيم المداح : مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠ الى آخر تاريخ المجموع (أي ١١٥٢ هـ) ، المكتبة الوطنية في فيينا رقم Cod. Arab. 831, H. O. 38

الكردي ، مرتضى : كتاب تهذيب الاطوار في عجائب الامصار ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6142. Spr. 23 .

الكعبي ، فتح الله بن علوان : زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب ، المتحف العراقي ببغداد ، رقم ٢١١٣ .

الكيواني ، احمد : (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم : (8041, 8163. We (II) 202) .

اللقيمي ، مصطفى أسعد : موانح الانس برحلتي لوادي القدس ، مكتبة جامعة كيمبردج ، (انكلترا) ، رقم (Qq. 238) .

المرادي ، محمد خليل : عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، الظاهرية ،رقم ٩٠٥٨ .

المرادي ، محمد خليل : مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، المتحف البريطاني رقم Or. 4050 .

المكي ، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، مكتبة (Top Kapi seray) في استانبول رقم ٢٨٨٠ ، وقد نشر هذا المخطوط من قبل حمد الجاسر ، تحت عنوان : غزوات الجراكسة والاتراك في جنوب الجزيرة (المسمى) البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧ .

المنيني ، أحمد : (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8039. We. (11) 158

الموزعي ، عبد الصمد بن اسماعيل : الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، نسخة بالميكرو فيلم مصورة عن نسخة مكتبة علي أميري باستانبول ، معهد المخطوطات المصورة ، القاهرة رقم ١٠١ تاريخ ، فيلم ٧١٢ .

الموصلي ، عبد الرحمن : كتاب مجموع فيه ديوان المرحوم الشيخ عبد الرحمن الموصلي وبهجة جده الشيخ ناصر الدين الموصلي وديوان المرحوم منجك باشا وغيره وفوائد ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 9482. W. (II) 1748 .

الموقع ، احمد كمال الدين : كتاب البرق اللامع في التاريخ الجامع والكوكب الساطع ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9493. We. (II) 346 .

النابلسي ، عبد الغني : الابيات النورانية في ملوك الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9727. Pet. 347 .

= = : تاريخ الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 9727. We. (II) 1808 .

النابلسي ، عبد الغني : الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 300 (توجد عدة نسخ عن هذا المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق) .

= = : حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3622 .

= = : الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان ،المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 19, 547 حققه ، محمداحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٤٣ .

الوكيل ، عمر بن محمد : ترويح القلب الشجي في مآثر عبد الله باشا الجتة جي ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Mixt. 195 .

٢ ـ الكتب المطبوعة : ـ

(مجهول المؤلف) : قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش ، القاهرة ١٣١٦ هـ .

= = : مذكرات تاريخية ، تحقيق الخوري قسطنطين الباشا ، لبنان ١٩٢٥ .

ابن ابي الضياف ، أحمد : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ٨ اجزاء ، تونس ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ .

ابن اياس ، محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الاجزاء ٣ ـ ٥ ، الطبعة الثانية تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ .

ابن جمعة ، محمد : الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من)زمن السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، (يشير اليه المنجد باختصار في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني باسم « الباشات والقضاة ») ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم (9785. Spr. 188) ، نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ ، وقد ترجم (H. Laoust) هذا المخطوط الى الفرنسية ونشره مع مخطوط ابن طولون : اعلام الوري ... ، في كتابه :
Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1925.

ابن الحنبلي ، رضي الدين محمد : در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق محمود فاخوري ويحي عبارة، الجزء الاول في قسمين ، والجزء الثاني ، في قسمين ، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤ .

ابن طولون ، محمد : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٩٦٤ وقد ترجم H. Laoust

هذا المؤلف الى الفرنسية ، ونشره مع مخطوط ابن جمعة السابق في كتابه : Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1952

= = : الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام نشره صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥٦ .

= = : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، نشرهما محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .

= = : (قطعة من مخطوط) ، منشورة مع ترجمتها الالمانية في كتاب . Das Tubinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun, ed. R. Hartmann, Berlin, 1926.

ابن عربشاه ، محمد : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

ابن يحي ، صالح : تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب ، نشره الآب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٢٧ .

ابو حاكمة ، احمد : محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة القاهرة ، ١٩٦٨ .

أبو شقرا ، يوسف : الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية ، تحقيق عارف أبو شقرا بيروت ، ١٩٥٢ .

الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي : أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول ، القاهرة ، ١٣١٥ هـ .

الاسود ، ابراهيم : الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية ، لبنان ، ١٨٩٨ .

الاشبيلي ، علي بن محمد اللخمي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، نشره هانس ارنست ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

البديري ، احمد : حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ــ ١١٧٥ / ١٧٤١ ــ ١٧٦٢ . نشره الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ (1) .

بريك ، الخوري ميخائيل : تاريخ الشام (١٧٢٠ ــ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ .

١ ــ المخطوط ينتهي فعلا في سنة ١١٧٦ هـ ، كما ذكر البديري في عنوان النسخة الاصلية وليس في ١١٧٥ كما ذكر الشيخ محمد سعيد القاسمي الذي نقح المخطوط ، انظر : البديري ، احمد ، في قسم المخطوطات من قائمة المصادر هذه.

البغدادي ، ابراهيم فصيح : عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ، بغداد ٩٦٢ .

البكري ، محمد توفيق : بيت الصديق ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .

البوريني ، الحسن بن محمد : تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، صدر منه جزءان ، نشرهما صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ ، ١٩٦٦ ، انظر : البوريني الحسن بن محمد ، في قسم المخطوطات العربية من قائمة المصادر هذه .

البيطار ، عبد الرزاق : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٩٦١ – ١٩٦٣ .

الترك ، نقولا : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية نشره بالعربية مع ترجمة فرنسية :
M. Desgranges Ainé, **Histoire de L'Expédition des Français en Egypte,** Paris, 1839.

توتل ، الاب فرديناند : وثائق تاريخية عن حلب ، ٤ اجزاء ، بيروت ١٩٥٨ – ١٩٦٤ .

رستم ، أسد : فهرس وثائق الشام في عهد محمد علي الكبير ، مصر ١٩٥٢ .

رستم ، اسد : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ اجزاء بيروت، ١٩٣٠ – ١٩٣٤ .

= = : بشير بين السلطان والعزيز ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦ – ١٩٥٧ .

الرسنه نلي ، نيازي : خواطر نيازي او صفحة من تاريخ الانقلاب العثماني الكبير ، تعريب ولي الدين يكن ، مصر ، ١٩٠٩ .

الجبرتي ، عبد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، ٤ اجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ .

= = : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، نشره محمد عطا في جزئين برقم (٥٩ و ٦٠) في سلسلة « اخترنا لك » ، القاهرة طبعة اخرى من تحقيق محمد جوهر وعمر الدسوقي القاهرة ١٩٦٩ .

الديس ، المطران يوسف : تاريخ سورية ، ٨ اجزاء ، بيروت ، ١٨٩٣ – ١٩٠٥ ،

الدمشقي ، ميخائيل : تاريخ حوادث الشام ولبنـــان (١١٩٧ ــ ١٢٥٧ / ١٧٨٢ ــ ١٨٤١) نشره الاب لويس معلوف ، بيروت ، ١٩١٢ .

الدهمان ، محمد احمد : « زلزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٢ (١٩٤٨) ص ، ٣٣٣ ــ ٣٤٧ .

الدهمان ، محمد أحمد : انظر : ابن طولون ، محمد ، أعلام الورى ..

الدويهي ، اسطفان : تاريخ الازمنة (١٠٩٥ ــ ١٦٩٩) ، نشره الاب فرديناند توتل مجلة المشرق ، مجلد ٤٤ (١٩٥٠) .

رافق ، عبد الكريم : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ــ ١٧٩٩) ، الطبعة الثانية دمشق ، ١٩٦٨ .

= = : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ــ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ .

= = : ثورات العساكر في القاهرة ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ومغزاها ، ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ــ ابريل ١٩٦٩ ، ٣ أجزاء القاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ ، الجزء الثاني ، ٧٤٥ ــ ٧٧٥ .

غزة : دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ ــ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ــ ١٨٦١ ، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلادالشام ، عمان٥نيسان١٩٨٠، ٩٥صفحة.

زيادة ، نقولا : ليبيا في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

= = : محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار البريطاني الى الاستقلال القاهرة ، ١٩٥٨ .

سالم ، السيد مصطفى : الفتح العثماني الاول لليمن ، ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ ، القاهرة ١٩٦٩ .

السويدي ، عبد الرحمن : تاريخ بغداد لابن السويدي ، أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، الجزء الاول ، حققه صفاء خلوصي بغداد ١٩٦٢ ، يوجد المخطوط الاصلي في المتحف البريطاني ، برقم Add. 18,507

الشدياق ، طنوس : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٤ ، (الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٨٥٩) .

الشطي ، محمد جميل : روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ، دمشق ١٩٤٦ .

الشطي ، محمد جميل : ذيل روض البشر ، دمشق ١٩٤٨ .

شهاب ، حيدر أحمد : تاريخ احمد باشا الجزار ، نشره الاب انطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ .

= = : تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ، نشرة نعوم مغبغب ، القاهرة ١٩٠٠ — ١٩٠١ .

= = : لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ٣ أجزاء ، نشرها فؤاد افرام البستاني وأسد رستم ، بيروت ، ١٩٣٣ .

الصباغ ، ميخائيل : تاريخ ظاهر العمر الزيداني ، نشره الخوري قسطنطين الباشا حريصا ، ١٩٣٥ .

الصفدي ، احمد الخالدي : تاريخ الامير فخر الدين ، نشره أسد رستم ، وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ .

الطباخ ، محمد راغب : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ، حلب ١٣٤٢ ١٣٤٥ / ١٩٢٣ — ١٩٢٦ .

الطهطاوي ، رفاعة رافع : تخليص الابريز الى تلخيص باريس ، القاهرة ١٩٠٥ .

= = : مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية القاهرة ١٢٨٦ .

الظاهر ، سليمان : « صفحة من التاريخ الشامي لم يدون أكثرها » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٧ (١٩٤٢) ص ٤٤٥ — ٤٥٠ .

عز الدين ، يوسف : داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، بغداد ، ١٩٦٧ .

العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ أجزاء ، بغداد ١٣٥٣ — ١٣٧٦ ١٩٣٥ — ١٩٥٦ .

العش ، يوسف : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، التاريخ وملحقاته دمشق ، ١٣٦٦ / ١٩٤٧ .

العظم ، عبد القادر : الاسرة العظمية ، دمشق ، ١٩٦٠ .

العمري ، ياسين : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، حققه سعيد الديوهجي ، الموصل ، ١٩٥٥ .

العورة ، ابراهيم : تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، لبنان ، ١٩٣٦ .
الغزي ، كامل : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، حلب ١٣٤١ ـ ١٣٤٥
١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ .
الغزي ، نجم الدين : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، ٣ أجزاء ، نشرها
جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ .
فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ .
فرفور ، صالح : الدر المنثور على الضياء الموفور في أعيان بني فرفور ، دمشق ١٩٦٣ .
فوزي ، محمد ومحمد ناجي : طرابلس الغرب ، ترجمة كمال الدين محمد احسان
طرابلس ١٩٧٣ .
القاري ، رسلان : هذه أسماء الوزراء الذين حكموا في دمشق الشام من خلافة
السلطان سليم من سنة ٩٢٢ هـ ، (يشير اليه المنجد باختصار في
كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، باسم « الوزراء الذين حكموا
دمشق ») ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٤٧٧٢ ، نشره صلاح
الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ .
علي ، عمر بن اسماعيل : انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا ، ١٧٩٥ ـ ١٨٣٥ ،
طرابلس ١٩٦٦ .
القاسمي ، محمد سعيد : قاموس الصناعات الشامية ، الجزء الاول ، وقد كتب
جمال الدين القاسمي وخليل العظم الجزء الثاني من هذا المؤلف ،
نشر الجزئين ظافر القاسمي ، باريس ـ لاهاي ، ١٩٦٠ .
قدري ، أحمد : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ، ١٩٥٦ .
القدسي ، الياس : « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، كتبت في دمشق في ١٢
آب ١٨٨٢ ، وقدمت للمجتمع العالي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن
١٨٨٣ ، ونشرها Carlo Landberg مع مقدمة ، في :

Actes du Sixième Congrès International des Orientalistes, tenue en 1883 à Leide, Deuxième partie, Leide, 1885.

قرا لي ، الخوري بولس : فتوحات ابراهيم باشا في فلسطين ولبنان وسورية ، حريصا
١٩٣٧ .

القساطلي ، نعمان : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ .
قسطون ، وديع : الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر ، حلب ، ١٩٦٩ .
كحالة ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، دمشق ، ١٩٤٤ .
= = : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء دمشق ، ١٣٦٨ / ١٩٤٩ .
كرد علي ، محمد : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٣٤٣ — ١٣٤٧ / ١٩٢٥ — ١٩٢٨ .
الكركوكلي ، رسول : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس ، بيروت ، (؟) .
الكواكبي ، عبد الرحمن : أم القرى ، حلب ، ١٩٥٩ .
= = : طبائع الاستبداد .
الكيواني ، احمد : ديوان ، طبع دمشق ، ١٣٠١ / ١٨٨٣ — ١٨٨٤ .
المحاسني ، اسماعيل : له كناش في الخزانة التيمورية بالقاهرة ، رقم أدب ٦٧٧ ، نشر بعض أجزائه صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري » في مجلة معهد المخطوطات العربية المصورة التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة مجلد ٦ ، (١٩٦٠) .
المحاسني ، سليمان : حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب الى دمشق الشام ، نشره صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٦٢ .
المحبي ، محمد الامين : خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ / ١٨٦٩ (اعيد طبعه في بيروت ، ١٩٦٦) .
المدني ، الشيخ امين بن حسن الحلواني : خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ١١٨٨ — ١٢٤٢ هـ (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ، القاهرة ١٣٧١ هـ .
المرادي ، محمد خليل : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (اعيد طبعه في بغداد ، ١٩٦٦) .
مشاقة ، ميخائيل : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، مصر ، ١٩٠٨ .

المعلوف ، عيسى اسكندر : « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني » ، مجلة المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) ، ص ٥٣٩ ـــ ٥٦٠ .
= = : تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٦ .
= = : دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، لبنان ١٩٠٧ ـــ ١٩٠٨ .
= = : « قصر أسعد باشا العظم » مجلة المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) ص ٥ ـــ ٢٦ .
المعلوف ، عيسى اسكندر : « المرحوم جميل بك العظم » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٤ (١٩٣٦) ، ص ٥٦ ـــ ٦١ .

المكي ، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، نشره حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧ (وضع المؤلف عنوانا آخر الكتاب . انظر : المكي ، قطب الدين .. في قسم المخطوطات من قائمة المصادر هذه) .

المنجد ، صلاح الدين : « حمامات دمشق » ، مجلة المشرق ، مجلد ٤١ (١٩٤٧) ، ص ٤٠١ ـــ ٤٢٥ .
= = : « قصر أسعد باشا العظم بدمشق » مجلة الاديب (أيلول ١٩٤٦) ص ٣٧ ـــ ٤٤ .
= = : المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت ١٩٦٤ .
= = : كتاب وقف أسعد باشا العظم ، دمشق ١٩٥٣ .
= = : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ .
= = : أنظر : ابن جمعة ، محمد .
= = : أنظر : ابن طولون ، محمد .
= = : أنظر : البوريني ، الحسن بن محمد .
= = : انظر : القاري ، رسلان .
= = : أنظر : المحاسني . اسماعيل .
= = : أنظر : المحاسني . سليمان .

المنير ، حنانيا : الدر المرصوف في تاريخ الشوف ، نشره أغناطيوس سركيس ، مجلة المشرق ، المجلدات ٤٨ ـ ٥١ (١٩٥٤ — ١٩٥٧) .

ميكاكي ، رودلفو : طرابلس الغرب تحت أسرة القرمانلي ، نقله الى العربية طه فوزي ،مطبوعات معهد الدراسات العربيةالعالية، القاهرة ، ١٩٦١ .

النابلسي ، عبد الغني : الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان ، نشره ، محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٤٣ .

، محمد ومحمد فوزي : انظر : فوزي ، محمد .

النمر ، احسان : تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٣٨ ، الجزء الثاني ، نابلس ، ١٩٦١ .

نوار ، عبد العزيز : تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

= = : داود باشا والي بغداد ، القاهرة ١٩٦٨ .

يني ، جرجي : « ظاهر العمر » ، مجلة المقتطف ، مجلد ٢٨ ،ج ٤ ، (نيسان ١٩٠٣).

—*—

المصادر الاجنبية

Abu-Hakima, Ahmad. « The Development of the Gulf States », The Arabian Peninsula : Society and Politics, ed. D. Hopwood, London, 1972, 31-53.

Abu-Nasr, Jamil. A History of the Maghrib, Cambridge, 1971.

Ahmad, Feroz. The Young Turks - The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914, O.U.P. 1969.

Ahmad, J. M. The intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London,1960.

Ambrose, G. « English traders at Aleppo (1658-1756)», Economic History Review, III. 2 (Oct., 1931), pp. 246-267.

Anderson, R. C. Naval Wars in the Levant, 1559-1853, Liverpool, 1952.

Arvieux, Laurant D'. Mémoires du Chevalier d'Arvieux, 6 vols., Paris, 1735.

Auriant, L. (pseud.). « Catherine II et l'Orient, 1770-1774», L'Acropole, V, (Paris, 1930), pp. 188-220.

Ayalon, D. Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London. 1956.

Ayalon, D. The Plague and its effects upon the Mamluk army», Journal of the Royal Asiatic Society, (JRAS), April, 1946, pp. 67-73.

Ayalon, D. «Studies on the structure of the Mamlok Army» I, II, III, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, (BSOAS), Vols. XV. 2 (1953), pp. 203-228; XV. 3 (1953), pp. 448-476; XVI. 1 (1954), pp. 57-90.

Ayn-i 'Ali. Kavanin-i al-i Osman, translated from Turkish into French by M. Belin in «Du Régimes des fiefs militaires», Journal Asiatique (JA), XV, (1870), pp. 187-301.

Baer, G.A.History of Landownership in Modern Egypt,1800-1950,London,1962

Bathurst, R. D. « Maritime Trade and Imamate Government», The Arabian Peninsula : Society and Politics, ed.D. Hopwood, London 1972, 89-106.

Belin M. «Du Régimes des fiefs militaires», (JA), XV. (1870), pp. 187-301.

Bianchi, M. Itinéraire de Constantinople à la Mecque, (Extrait de l'ouvrage Turc intitulé Kitab Menassik El-Hadj), par Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

Bodman, Herbert L. Jr. Political Factions in Aleppo 1766-1826, The University of North Carolina Press, 1963.

Bowen, H. and Gibb, H.A.R. Islamic Society and the West, Vol, I. in 2 Parts, London, 1951, 1957.

Braudel, F. La Mediterranée et le Monde méditerranéen a l'époque de Philippe II, Paris, 1949.

Bruce, James. Travels to discover the sources of the Nile in the years, 1768-1773, 8 vols, 3rd ed. Edin bourgh, 1831.

Cahen, Cl. «La Campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes», Byzantion, t. IX (1934), pp. 613-642.

Cahen, Cl. Pre - ottoman Turkey, London, 1968.

Carruthers, Douglas, ed. The Desert route to India, London, 1929.

Charles-Roux, François. Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII° Siècle, Paris, 1927.

Charles-Roux, François. «La Politique Française en Egypte à la fin du XVIII° Siècle», Revue Historique, 91 (1906).

Chevallier, D. La Société du Mont Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe, Paris, 1971, «Western development and Eas-

tern crisis in the mid-nineteenth century : Syria confronted with the European economy», Beginnings of Modernization in the Middle East, edd. W. Polk and R. Chambers, Chicago,1968, 205-222.

Choupet de l'île de France, M. «Nouveau voyage dans l'Arabie Heureuse en 1788», Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire, vol. X, Paris, 1810, pp. 154-180.

Creasy, E. History of the Ottoman Turks, reprinted by Khayats, Beirut, 1930.

Dodwell, H. H. The Founder of Modern Egypt, Cambridge, 1931.

Dussaud, René. Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale, Paris, 1927.

Ecochard, M. « Le Palais Azem de Damas », Gazette des Beaux-Arts, XIII, Paris, 1935, pp. 230-241.

Egmont, J. A. Van and Heyman, J. Travels through parts of Europe, Asia Minor ... Syria, Palestine, Egypt., 2 vols., translated from Dutch, London, 1759.

Encyclopaedia of Islam, 1st edition, 4 Vols., and Supplement, Leiden, 1913-1938; 2nd edition (proceeding), Leiden, 1954.

Evliya Efendi. Narrative of travels in Europe, Asia, and Africa in the 17th century, translated from Turkish and edited by Joseph Von Hammer-Purgstall, 1 Vol., in two parts, London, 1834-1846.

Gaudefroy-Demombynes, M. Le Pèlerinage à la Mekke, Paris, 1923. (Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'Etudes, Vol. XXXIII).

Ghorbal, Shafik. The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, London, 1928.

Gibb, H.A.R. See Bowen, H.

Green, J. A. Journey from Aleppo to Damascus in 1725, London, 1736.

Haddad, F. N. «Political parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni) », Journal of the Palestine Oriental Society, (JPOS) I. 4 (Oct. 1920), pp. 209-214.

Haddad, George M. «The Historical work of Niqula El-Turk. 1763-1828», Journal of the American Oriental Society. (JAOS) Vol. 81. No. 3 (Aug-Sept. 1961), pp. 147-251.

Haddad, R. Syrian Christians in Muslim Society, Princeton, 1970.

Hammer-Purgstall, Joseph von. Histoire de l'Empire Ottoman dequis son origine jusqu'à nos jours, traduite de la langue allemande par J. J. Hellert, 18 Vols., Paris, 1835-1843.

Hartmann, R.ed. Das Tubinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun, Berlin1926.

Hasselquist, F. Voyages and Travels in the Levant, in the years 1749, '50, '51, '52, London, 1766.

Hess, Andrew. «The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginnings of the Sixteenth-century World War», International Journal of Middle Eastern Studies, Vol. 4 (Jan. 1973), No. 1, 55-76.

Heyd, U. Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615, Oxford, 1960.

Heyd, U. « The Later Ottoman Empire in Rumelia and Anatolia», The Cambridge History of Islam, 2 Vols, edited by P. M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. 1, 354-373.

Heyman, J. See Egmont, J. A. van.

Hikmat, Muhammad 'Ali. Essai sur l'Histoire des Relations Politiques Irano-Ottomanes de 1722 à 1747, Paris, 1937.

Holt, P.M.«The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century», BSOAS, XXIV. 2 (1961) pp. 214-248.

Holt, P.M. «The career of Kuçuk Muhammad (1676-94)», BSOAS, XXVI. 2 (1963), pp. 269-287.

Holt, P.M. «The (Cloud - Catcher) : 'Ali Bey the Great of Egypt», History today, London, IX. 1 (January, 1959) pp. 48-58.

Holt, P.M. Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922, London, 1966.

Holt, P.M. «The Exalted Lineage of Ridwan Bey : some observations on a seventeenth-century Mamluk genealogy », BSOAS, XXII. 2 (1959), pp. 221-230.

Holt, P.M.«Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt», BSOAS XXV. 1 (1962), pp. 38-51.

Holt, P.M. The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898, O.U.P. 2nd. ed. 1970.

Holt, P.M. A Modern History of the Sudan, London, 1961.

Holt, p.M. ed. Political and Social Change in Modern Egypt, London, 1968.

Holt, P.M. and Lewis, B. edd. Historians of the Middle East, London, 1962.

Hopwood, D. The Russian presence in Syria and Palestine 1843 - 1914 Oxford. 1979.

Hourani. A. H. Arabic thought in the liberal age, 1798-1939, London, 1962.

Hourani. A.H. A Vision of History, Beirut, 1961.

Hours, F.S.J. et K. Salibi. «Muhammad ibn al-Hanash Muqaddam de la Biqa', 1499-1518 » Mélanges de l'Université Saint-Joseph, t. XL III (1968), 1-23.

al-Husri, K.S. Three Reformers-a study in modern Arab Political thought, Beirut, 1966.

Inalcik, H. « The Emergence of the Ottomans », The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. 1, 263-291.

Inalcik, H. « The Heyday and Decline of the Ottoman Empire », The Camb-bridge History of Islam, 2 Vols, edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. 1. 324-353.

Inalcik, H. « Ottoman methods of conquest », Stvdia Islamica, II (1954), pp. 102-129.

Inalcik, H. The Ottoman Empire, the classical age 1300-1600. London. 1973.

Inalcik, H. « The Rise of the Ottoman Empire », The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis. Cambridge, 1970, Vol. 1, 295-323.

Ismail, Adel. Histoire du Liban du XVII° Siècle à Nos Jours, Vol. I : Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1933), Paris, 1955.

(Jesuites) Lettres édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Compagnie de Jésus, ed. C. Le Gobien, J.B. Du Halde, L. Patouillet, 34 Vols., Paris, 1707-73.

Julien, Ch-André. Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1952.

Kelly, J. B. « A Prevalence of Furies : Tribes, Politics, and Religion in Oman and Trucial Oman», The Arabian Peninsula : Society and Politics, London, 1972. pp. 107-141.

Lambton, A.K.S. «Persia : The Breakdown of Society», The Cambridge History of Islam, 2 Vols., ed. by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I 430-476.

Lammens, H. La Syrie : Prècis Historique, 2 Vols, Beyrouth, 1921.

Laoust, H. Les Gouverneurs de Damas, 1952.

Laurey, E. de et Sauvaget, J. « Le Palais Azem à Damas», La Revue de Paris, Paris, VI (Mars, 1926), pp. 433-448.

Le Tourneau, Roger. « North Africa to the Sixteenth Century», The Cambridge History of Islam, 2 Vols, edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 211-237.

Levenq. G. La Première Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie, 1625-1774, Beyrouth, 1925.

Lewis, B. The Arabs in Hidsory, London, 1960, (Revised edition 1968).

Lewis, B. The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London 1961.

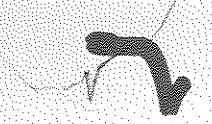
Lewis, B. « The Ottoman archives as a source for the history of the Arab lands», JRAS, (1951), pp. 139-155.

Lewis, B. « Studies in the Ottoman Archives-I», BSOAS, XVI. 3 (1954), pp. 469-501.

Lewis B. and P.M. Holt, edd. See Holt, P.M.

Longrigg, S. Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.

Lucas, P. Voyage du Sieur Paul Lucas fait en 1714 par ordre de Louis XIV, 3 vols. Rouen, 1719.



Lusignan, S. A History of the revolt of 'Ali Mey, London, 1783.

Lusignan, S. Letters addressed to Sir William Fordyce, 2 vols, London, 1788.

Mandaville, J. « The Ottoman Province of Al-Hasa in the Sixteenth, and Seventeenth Centuries », Journal of the American Oriental Society (JOAS), Vol. 90, No. 3 (July-Sept. 1970), 486-512.

Mantran, R. «Bagdad à l'époque Ottoman», Arabica, 1962.

Mantran, R. « North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries», The Cambridge History of Islam, 2 Vols. edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 238-265.

Mantran, R. et Sauvaget, J. Règlements Fiscaux Ottomans, Les Provinces Syriennes, (Institut Français de Damas), Beyrouth. 1951.

Mariti, Giovanni (Abbé) . Travels through Cyprus, Syria, and Palestine, translated from Italian, 3 vols. London, 1791 - 2.

Marlowe, J. Anglo-Egyptian relations 1899-1953, London, 1954.

Marriott, I. The Eastern Question, London, 1951.

Marsigli, L. F. L'Etat militaire de l'Empire Ottoman, la Hague, 1732.

Masson, P. Histoire du Commerce Français dans le levant XV III^e Siècle, Paris, 1896.

Masson, P. « Histoire du Commerce Français dans le levant au XV III^e Siècle», Paris, 1911.

Maundrell, H. The Travels of H. Maundrell from Aleppo to Jerusalem, published in the World Displayed, 3 rd edition, Vol. XI, London, 1774 (reprinted by Khayats, Beirut, Lebanon, 1963, under the title : A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697).

Mingana, A. «List of the Turkish governors and high judges of Aleppo from the Ottoman Conquest to A. D. 1747», Bulletin of the John Rylands Library, (BJRL), X 2. (July, 1926).

Minorsky, V. trans, and ed. Tadhkirat al-Muluk - a manual of Safawid administration (circa 1137/1725), London, 1943.

Muhammad Adib, See Bianchi, M.

Musil, Alois. The Northern Hegaz, New York, 1926.

Neibuhr, C. Travels through Arabian and other Countries in the East, trans. into English by R. Heron, 2 vols., Edinburgh, 1790.

D'Ohsson, M. Tableau général de l'Empire Ottoman, 7 vol. Paris 1788-1824.

Otter, J. Voyage en Turquie et en Perse, 2 vols., Paris, 1748.

Paradis, Venture, de. Alger au XVIII^e Siècle, ed. E. Fagnan, Alger, 1898.

Pearson, J.D. Index Islamicus, 1906-1955, Cambridge, 1958; Supplement, 1956-1960, Cambridge, 1962; Supplement II, 1961-1965, Cambridge, 1967.

Perry, Charles. A view of the Levant, London, 1743.

Pococke, R. A. Description of the East and some other Countries, 2 vols. London. 1939.

Porter, James. Observations on the religion, law, government, and manners of the Turks, 2nd ed., London, 1771.

Porter,, James. Turkey, 2 vols., London, 1854.

Rabbath, A. Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianism en Orient 2 vols., 6 fascicles (Fasc. I-v, Paris, 1905-11; Fasc. VI, ed. F. Tournebize, Beyrouth, 1921).

Rafeq, Abdul-Karim, «Changes in the relationship between the Ottoman Central administration and the Syrian provinces», published in Studies in Eighteenth Century Islamic History, edd. Thomas Naff and Roger Owen, Southern Illinois University Press, 1977.

Rafeq, Abdul-Karim. «Ibn Abi'l-Surur and his works», published in the Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. XXXVIII, part I, 1975.

Rafeq, Abdul-Karim. « The Law-Court registers of Damascus with special reference to craft-corporations», published in Les Arabes par leurs Archives (XVIe-XXe siècles), edd. J. Berque et D. Chevallier, CNRS, Paris, 1975.

Rafeq, Abdul-Karim. «The Local Forces in Syria during the 17th and the 18th centuries», published in War, Technology and Society in the Middle East, edd. M. E. Yapp and V.J. Parry, Oxford University Press, 1975.

Rafeq, Abdul-Karim. «The Law-Court registers and their importance for a socio-economic and urban study of Ottoman Syria», published in L'Espace Social de la Ville Arabe, ed. D. Chevallier, CNRS, Paris, 1979.

Rafeq, Abdul-Karim. «Les Registres des tribuneaux de Damas comme source pour l'histoire de la Syrie», Bulletin d'Etudes Orientales, Damas, XXVI (1973).

Rafeq, Abdul-Karim.The Province of Damascus, 1723-1783, Kayats,Beirut,1966.

Ramzaur, E. The Young Turks, rep. Khayats, Beirut, 1965.

Raymond, A. Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle, 2tomes, Damas, 1973-4.

Raymond, A. « Essai de Géographie des Quartiers de Résidence Aristocratique au Caire au XVIII. Siècle», Journal of the Economic and Social History of the Orient. VI. 1 (1963), pp. 58-103.

Raymond, A. «North Africa in the Pre-Colonial Period», The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 266-298.

Raymond, A. Une Révolution au Caire sous les Mamelouks : La crise de 1123/1711», Annales islamologiques, t. VI (Le Caire, 1965), pp. 95-120.

Rentz, G. « Wahhabism and Saudi Arabia», The Arabian Peninsula: Society and Politics, ed. D. Hopwood, London, 1972, 54-66.

Ricaut, (Sir Paul). Histoire de l'Empire Ottoman, trans. from English, 6 Vols., La Hague, 1709.

Rossi, E. «Due Lettere Di Dahir, Signore Di S. Giovani d'Acri al Gran Maestro Di Malta (1752)», Rivista Degli Studi Orientali, Vol. XIV, 1934, pp. 61-67.

Russell, A. The Natural History of Aleppo, 2 vols., 2nd ed., London, 1734.

Rycaut, (Sir Paul), See Riccaut (Sir Paul).

Sahillioglu, H. « Sivis year Crises in the Ottoman Empire », Studies in the Economic History of the Middle East, ed. M. A. Cook, London, 1970, 230-252.

Eaint-Maure, C. de, Nouveau Voyage de Grèce, d'Egypte, de Palestine... fait en 1721 et 1723, La Hague, 1724.

Salibi, K.S. « The 1860 upheaval in Damascus as seen by al-Sayyid Muhammad Abu'l-Su'ud al-Hasibi, notable and later naqib al-Ashraf of the city», Beginnings of Modernization in the Middle East, edd. W. Polk and R. Chambers, Chicago, 1968, 185-202.

Salibi, K. S «Lebanon in Historical perspective», Middle East forum, XXXIV.3 (March, 1959), pp. 16-21.

Salibi, K.S. Maronite Historians of the Lebanon,, Beirut, 1959.

Salibi, K. S. The Modern History of Lebanon, London, 1965.

Salibi, K.S. and F. Hours S. J. voir Hours, F.

Savory, R. M. « The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il I (907-930/1501-24)», BSOAS, XXIII. 1. (1960), pp. 91-105.

Savory, R.M. «Safavid Persia», The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P. M. Holt. A.K.S. Lambton and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 394-429.

Sauvaget, J. Alep, Paris, 1941.

Sauvaget, J. «Les Caravansérails Syriens du Hadjdj de Constantinople», Ars Islamica, IV, (1937), pp. 98-121.

Sauvaget, J. «La Citadelle de Damas», SYRIA, XI (1930), pp. 59-90, 216-241.

Sauvaget, J. « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », Revue des Études Islamiques, IV (1934), pp. 421-480.

Sauvaget J. Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, edité par Cl. Cahen, Paris, 1961.

Sauvaget, J. Les Monuments Historiques de Damas, Beyrouth, 1932.
Sauvaget, J. et Laurey, E. De; voir Laurey, E. de.

Sauvaget, J. et Mantran, R.; voir Mantran, R.

Schonfield, H. The Suez Canal in World Affairs, London, 1952.

Seetzen, M.V.J. «Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus Arabes en Syrie», Annales des Voyages de la géographie et de l'histoire, VIII, (Paris, 1809), pp. 281-324.

Shaw, Stanford J. The Financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1571-1798, Princeton, 1962.

Shaw, Stanford J. Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Harvard, 1964.

Shaw, Stanford J. Ottoman Egypt in the Eighteenth Century-The Nizamname-i Misir of Cezzar Ahmad Pasha, Harvard, 1962.

Shaw, Thomas. Travels or Observations relating to several parts of Barbary and the Levant, Oxford, 1738. Another edition is entitled Travels into Syria and the Holy Land, in the World Displayed Series, Vol. XI, London, 1774.

Shay, Mary L. The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana, 1944

Spuler, B. «The Disintegration of the Caliphate in the East», The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 143-174.

Svoronos, M.N. «Les Correspondances des Consuls de France comme sourcé de l'histoire du Proche-Orient», Acts du XXI Congrès International des Orientalistes, Paris, 1949.

Thévenot Jean de. Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique, 5 Vols., Amsterdam, 1626.

Tibawi, A. A Modern History of Syria, London, 1969.

Tibawi, A. American interests in Syria 1800-1901, Oxford, 1966.

Tresse, R. Le Pèlerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam, Paris, 1937.

Turan, Osman. «Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks», The Cambridge History of Islam, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S.

Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 231-262.

Voll, J. «The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth-Century Damascus», Der Islam, Vol. 49 (2) Nov. 1972, 277-293.

Volney, C. F. Chasseboeuf, comte de, Voyage en Egype et en Syrie, ed. Jean Gaulmier, Paris, 1959.

Wiet, G. Chronique d'Egypte, 1798-1804, Le Caire, 1950.

Wilkinson, J. C. «The Origins of the Omani State», The Arabian Peninsula : Society and Politics, ed. D. Hopwood, London, 1972, 67-83.

Wilson A. The Persian Gulf, London, 1954.

Wittek, P. «De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople», Revue des Etudes Islamiques, (REI), 1938, pp. 1-34.

Wittek, P. «Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum», Byzantion, t. XI (1936), pp. 285-319.

Wittek, P. «Devshirme and Shari'a», BSOAS, XVII. 2(1955), pp. 271-278.

Wittek, P. «Les Gagaouzes - Les Gens de Kaykaus», Roeznik Orientalistyczny, t. XCII (1951-2), pp. 12-24.

Wittek, P. The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938.

Wittek, P. «Le Sultan de Rum», Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Mélanges Emile Boisacq, VI (1938), pp. 361-390.

Wittek, P. «Le Sultan de Rum», Annuaire de l'Institut de Philologie et d'His- The Fall of Constantionple, a symposism held at the School of Oriental and African Studies (University of London),May,1953.

Wood, Alfred C.A History of the Levant Company, London, 1935.



المقدمـة :



صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١٢٥) ل.س

مطبعة دار الكتاب ـ دمشق

٠٠٥٨٥